

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الجزائر 2

معهد الآثار

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم.

الفكر العمراني الإسلامي و أثره على تخطيط

المدن وعمارته.

(مدينتي تلمسان و الجزائر: أنموذجا).

دراسة: تاريخية - أثرية.

من القرن 3 هـ / 09 م إلى القرن 13 هـ / 19 م.

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد العزيز لعرج

إعداد الطالب:

موشموش محمد

السنة الجامعية: 2015 / 2016 م.

أعضاء اللجنة المناقشة

- أ.د. بويحياوي عز الدين.....بصفته رئيسا.....معهد الآثار (جامعة الجزائر 2).
- أ.د. عبد العزيز لعرج.....بصفته مقرا.....معهد الآثار (جامعة الجزائر 2).
- أ.د. معزوز عبد الحق.....بصفته عضوا.....معهد الآثار (جامعة الجزائر 2).
- أ.د. بن عميرة محمد.....بصفته عضوا.....قسم التاريخ (جامعة الجزائر 2).
- أ.د. شرقي الرزقي.....بصفته عضوا.....قسم الآثار (جامعة تلمسان).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى الوالدين

إلى زوجتي و أبنائي رجاء و يوسف أبو محمد.

إلى جميع أفراد عائلة موشموش أحمد و من تلقب بلقبهم.

كلمة شكر و عرفان

الحمد و الشكر لله الذي وفقني لإنهاء هذا العمل، و جعل
الدكتور عبد العزيز لعرج مشرفا عليه منذ بدايته إلى نهايته
إرشادا و تصحيحا و تعليما و نصحا، فجزاه الله عنا خير
الجزاء، و أنعم عليه من نعمه التي لا تعد، و جعله ذخرا
لطلبة العلم و للجزائر ما أبقاه.

بيان بالمختصرات:

- الجزء: ج

- دون تاريخ الطبع: (د.ت)

- دون مكان الطبع: (د.م)

- الصفحة: ص

- الطبعة: ط

- العدد: ع

- المجلد: م

المقدمة

المقدمة

بحث الإنسان منذ استقراره على الأرض عن مأوى لحماية نفسه من حر الشمس و البرد الشديد، و بنا لنفسه حيزا واقيا يشعر بداخله بالأمان من الوحوش المعادية و الأمطار و الثلوج و الرياح، و حاول تحسين هذا الحيز ليمارس بداخله بعض النشاطات، و ليضع حاجياته فيه. ثم تطور المسكن مع تزايد السكان من أحفاد إلى أحفاد، و مع تراكم خبرات الآباء تحسن اختيار المواد، و النماذج السكنية، و اختلفت هذه المساكن متأثرة بعوامل متعددة كالظروف المناخية، و الأحوال المادية، و الاجتماعية و الدينية. ونتيجة لاختلاف الظروف و الأحوال تميزت هذه المجتمعات عن بعضها منذ فترة ما قبل التاريخ إلى غاية الفترة الحديثة، حيث ظهرت عدة حضارات تركت إنتاجا حضاريا يعبر عن التطور الذي وصلت إليه الشعوب، و يتجلى ذلك في العمران بصفة عامة، و العمارة بصفة خاصة، و لا جرم أن المسلمين قدموا للبشرية بناء حضاريا متميزا نشأ في البلاد الإسلامية المتسعة الأطراف، وأخذت طابعا إسلاميا و ذلك منذ فجر الإسلام في الحجاز. ومن الأمر التي عني بها العرب و المسلمون عناية فائقة تخطيط المدن و عمارتها، و كان لتلك المدن خصائص تتلاءم مع الحياة العربية الإسلامية، حيث أن هذه المدن لم تنشأ عشوائية، و لم يترك للناس فيها حرية البناء كيفما يشاؤون، و لكنها أقيمت و فق تخطيط دقيق و نظام بديع يتماشى مع الواقع الذي يعيشونه.

لقد امتاز التخطيط العربي الإسلامي بخصائص واضحة طبعته بطابع جديد في عالم الحضارة فهو تخطيط فريد من نوعه، ولم يكن العرب و المسلمون مقلدين فيه و لا تابعين لفن من الفنون (الوثنية المجوسية، اليهودية، أو النصرانية)، لقد كان تخطيطا قائما على أساس توافق مصلحة الناس، و تناسب البيئة التي ترعرعوا فيها.

لقد كانوا يراعون في التخطيط تحقيق الاتجاه الحضاري السليم، و الطابع العربي الإسلامي الذي يتناسب مع عاداتهم و تقاليدهم كالفصل بين مجالس الرجال و النساء و مداخلها، و اختيار أماكن بناء المساجد، و تحديد القبلة، و النظر في أتساع الطرق و الممرات، و وظيفة المؤسسات العامة و الخاصة.

تطورت قوانين و تشريعات المتعلقة بالبناء و التنظيم العمراني بالمدينة الإسلامية منذ حوالي أربعة عشر قرناً، و بقيت فيها هذه التشريعات متوارثة يطورها المشرعون و البناءون، حتى و صلت إلينا، و لم يتوقف تطوير هذه التشريعات نظراً لعدم توقف البناء في المدن الإسلامية. و قد كانت مساحة و عدد سكان بعض تلك المدن ما يقارب تعداد سكان بعض العواصم العربية و الإسلامية الحالية، و دونت في كتب الفقه منذ أن ظهر هذا العلم في أبواب خاصة، ككتب الفقه الرئيسة "كموطاً الإمام مالك"، و "مسند الإمام أحمد بن حنبل"، و "صحيح البخاري" و غيرها، كما ظهرت بعض هذه الأحكام في كتب الفتاوى، و كتب النوازل، و كتب الأقضية، و الأحكام و الوثائق.

ظهرت التشريعات و تطورت في حقبة زمنية كبيرة نتيجة للحاجة الحقيقية للمدينة العربية الإسلامية تتمشى مع روح التشريع الإسلامي و تنبع منه، حيث قام بتطويرها و تدوينها علماء الشريعة المتصفون بالعلم و النزاهة، الذين يعلمون من أجل تحقيق مقاصد التشريع الإسلامي، و مجموعة من البنائين المتخصصين في علوم البناء و من ممارساتهم الخاصة، و رفع التقارير الفنية للقضاء و المشرعين لاتخاذ القرارات، و وضع الأنظمة و القوانين، إذ ظهرت تلك التشريعات ملبية لحاجة المدينة الإسلامية الحقيقية سائرة مع روح الشريعة الإسلامية.

و نتيجة لتراكم التجارب في المدن العربية الإسلامية، و توارث العلوم المختلفة، و تناقل هذه التشريعات بين مختلف أرجاء البلاد الإسلامية في تلك الفترة كجزء من التشريع الإسلامي العام الذي حرص العلماء و الطلاب إلى السعي لتعلمه و نقله عن الفقهاء و الحفاظ و الرواة نتيجة لكل هذه العوامل تعمقت التجربة في التشريعات و قوانين البناء، و لا تكاد حادثة أو متطلب تشريعي حديث في المدينة الإسلامية إلا وله مثل أو شبيه في التشريعات الإسلامية بداية من اختيار موقع المدينة مروراً بإحياء الأراضي، و اختيار الطرق الرئيسية للحركة إلى أدق التفاصيل التي تصل إلى حكم وضع خشبة على جدار الجار أو الحكم في وحدة بناء صغيرة في جدار مشترك.

و ظهرت نتيجة لهذه التشريعات مدن إسلامية أدت وظائفها المختلفة، و امتدت ضمن خطط الشمولية تحكمتها تلك التشريعات بطريقة لا تضر الإنسان في نفسه أو ممتلكاته و لا تضر الغير، متوازنة بين الملكية الفردية و الحرية الشخصية و بين الملكية العامة و حقوق الجماعات و الأفراد فيها. و ظهرت نتيجة لذلك مدن إسلامية لها طابع المميز عن المدن المعاصرة لها، فيها تشابه (المدن العربية) فيشعر الإنسان العربي المسلم بالألفة لهذه المدن و هو يتنقل من مدينة إلى أخرى، نتيجة

لتشابه الأحكام و التشريعات، و انتقال البنائين و المهندسين بين أرجاء الأمة، و نقل تجاربهم إلى المدن المختلفة.

إن هذا البحث لا أعتبره سوى بداية في هذا النوع من الدراسات الذي يتطلب مجهودا كبيرا خاصة إذا علمنا أن هذا النوع من البحوث قليلة بالمغرب الإسلامي عموما، و "الجزائر" خاصة مقارنة مع المشرق الإسلامي، وما يثير الاستغراب أن جل الكتب الفقهية و كتب النوازل المعتمدة في مثل هذه الدراسات كتبت بالمغرب الإسلامي، و من أهمها كتاب "ابن الرامي البناء" الموسوم: "الإعلان بأحكام البنين"، و كتاب "القسمه و أصول الأراضين" لمؤلفه "أبو العباس أحمد بن محمد الفرسطائي"، و كتاب "المعيار المعرب" للونشريسي" إلى غيرها من الكتب التي تناولت كذلك علاقة العمران بالسلطة و في معظمها كتب التي تناولت الوظائف خاصة وظيفة المحتسب.

يعتبر الأستاذ "مصطفى بن حموش" حسب علمي من أول الباحثين في "الجزائر" من أهتم بمفهوم و فلسفة المدينة الإسلامية من خلال عدة دراسات و بحوث من أهمها كتاب "المدينة و السلطة"، و كتاب "جوهر التمدن الإسلامي"، و كتاب "فقه العمران"، و قد استفدت كثيرا من هذه الدراسات، حيث وجهتني إلى مصادر المادة العلمية التي احتجت إليها في دراستي، و كذلك ما تعلق الأمر بتخطيط مدينة "الجزائر".

و من الدراسات المعاصرة كذلك نجد كتاب "فقه العمران" للأستاذ "خالد عزب"، و هي دراسة قيمة من حيث البحث عن تأثير التشريع الإسلامي على المدينة الإسلامية بمصر، و مدى تفعيل قاعدة "لا ضرر و لا ضرار".

ولا يمكن أن نغفل عن البحث القيم الذي قام به الأستاذ "محمد بن حمو" من خلال موضوعه "فقه العمران و العمارة من خلال نوازل الونشريسي" قدمه كرسالة لنيل شهادة الماجستير من جامعة "الجزائر"، ثم أعقبه ببحث آخر لنيل شهادة الدكتوراه موضوعها: "العمران و العمارة من خلال كتب النوازل بالمغرب الإسلامي" نوقشت سنة 1432هـ / 2011م بمهد الآثار جامعة "الجزائر" (2)، و في حقيقة الأمر أن الأستاذ "محمد بن حمو" من خلال بحثه الأول فتح لي و لطلبة العلم مجالا و اسع للبحث في فقه العمران الإسلامي، و استفدت كثيرا من رسالته في الدكتوراه خاصة في الفصل الرابع و الخامس من رسالتي هذه، حيث وجهني إلى النوازل التي تتعلق

بالعمارة الإسلامية و عناصرها الوظيفية الموثقة في كتاب "المعيار" "للونشريسي" فجزاه الله عنا كل خير.

و أضيف أن البحث هنا لا يتعلق بالتصميم المعماري، بل يتعلق بالمضمون الذي صاغ هذا التصميم المعماري مما يجعلني أقف عند كل جزئية من جزئيات خطط المدينة، أو عند كل وحدة معمارية من وحدات المبنى، و هذا ما جعلني أقف كذلك على مدى تفاعل الفقه مع خطط المدينة الإسلامية و عمارتها متخذاً لذلك من مدينتي "تلمسان" و "الجزائر" كإطار مكاني لهذه الدراسة، أما الإطار الزمني فاخترت من القرن 3 هـ / 09م إلى القرن 13 هـ / 19م، لكون معظم الآثار الباقية في مدينة "تلمسان" تبدأ من الفترة الإدريسية إلى غاية الفترة العثمانية أولاً، ثم مدينة "الجزائر" من الفترة الزيرية إلى غاية الفترة العثمانية ثانياً.

- إشكالية البحث:

و تتلخص إشكالية البحث في التساؤلات التالية:

- ما مدى تأثير الأفكار العمرانية والمعمارية الإسلامية في تخطيط المدن وبناء المنشآت... إلخ؟
- هل يعكس الواقع العملي لتخطيط المدن والمباني الأحكام الفقهية والأفكار العمرانية والمعمارية التي وردت في النصوص الشرعية والفكرية للمسلمين؟
- هل أثر الفكر العمراني في النشاط العمراني والمعماري وفي علاقة الجوار وخصوصية المكان؟
- الفكر العمراني مرتبط بالعلماء والفقهاء كمنتجين للفكر في جانبه النظري والتوجيه العملي في جانبه التطبيقي: فهل كان للعلماء والفقهاء دور في النشاط العمراني والمعماري؟ هل كانوا يساهمون في تصميم وتخطيط المدن وبنائها وتعميرها بمختلف العمائر؟.

- منهج البحث:

اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التحليلي المقارن و ذلك في الجانبين التاليين:

1 - الجانب النظري:

إن مثل هذه الدراسات لا يمكنها أن تستقيم بمجرد قراءة المصادر الفقهية لدى فقهاء المسلمين و كتب النوازل، بل تتطلب الوقوف على الاختلافات بين هذه المصادر طبقاً لظروف المكان و الزمان وكذلك الاختلاف في بعض الأحكام، و متعلقة أساساً في المذهب المتبع في هذه المدن رغم أن الفقه المالكي سوف يطغى على هذه الدراسة لكونه المذهب المتبع بالمغرب الإسلامي،

و جل المصادر الفقهية و كتب النوازل مالكية المذهب خاصة نوازل "الونشريسي"، و كتاب "ابن الرامي"، و الكتب التي تناولت وظيفة المحتسب في المدينة الإسلامية، بالإضافة إلى عدة مصادر غير متوفرة بالمكتبات الوطنية، هذا ما جعلني أتنقل إلى مكتبات خارج الوطن خاصة المكتبة الوطنية بالمغرب (الخزانة العامة سابقا)، بالإضافة بعض النصوص التاريخية تعود إلى الأرشيف الوطني بمدينة "الجزائر".

2- الجانب التطبيقي:

قيام بمسح أثري معماري لمدينة "تلمسان" و المدينة "الجزائر"، مع القيام بالرفع الأثري لبعض المعالم، و أخذ الصور الفوتوغرافية، و هذا من أجل مقارنة الخطط و الأنماط المعمارية بين المدينتين، و إسقاط التشريع الإسلامي في العمران عليهما، و تطلب هذا جهدا كبيرا و تركيزا دقيقا.

- خطة البحث:

و لإنجاز هذه الدراسة تم الاعتماد على الخطة التالية:

- إلى مقدمة ثم الفصل الأول بعنوان: ماهية المدينة الإسلامية، حيث تناولت فيه أهم المصطلحات المتداولة في المصادر و الدراسات التي تناولت موضوع المدينة الإسلامية و محلات الإقامة للمجموعات البشرية، و آراء العلماء و المفكرين المسلمين في اختيار مواقع المدن، و توزيع الخطط، و نظرة المستشرقين للمدينة الإسلامية، ثم تناولت التأصيل التاريخي للمدينة الإسلامية، و أهم المدن التي تأسست بالمغرب الإسلامي.

- الفصل الثاني بعنوان: تخطيط المدن بالمغرب الأوسط و عمراتها، تناولت فيه المراحل التاريخية التي مرت بها مدينتي "تلمسان" و "الجزائر" منذ بداية الفتح الإسلامي إلى غاية الفترة العثمانية، مع ذكر التطور العمراني الذي مرتا به، مع إسقاط موقع كل مدينة على الشروط التي وضعها علماء الإسلام.

- الفصل الثالث بعنوان: مصادر التشريع الإسلامي في العمران، حيث تناولت فيه مصادر التشريع الإسلامي في العمران، و حاولت جمع الأحاديث التي تدور حول القاعدة الفقهية " لا ضرر و لا ضرار"، كما عرفت وظيفة المحتسب، و علاقتها بالعمران بالمدن الإسلامية، و مكانة المحتسب و دوره بمدينتي "تلمسان" و "الجزائر"، كذلك دور الأوقاف في التطور العمراني و التنظيم الاجتماعي.

- الفصل الرابع بعنوان: أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة الدينية: أفردت فيه أثر التشريع الإسلامي على عمارة المساجد و عناصرها المعمارية، و تطرقت كذلك إلى وظيفة المساجد و أنواعها، و إلى الأضرحة و نظرة المفكر الإسلامي لها.

- الفصل الخامس بعنوان: أثر الفكر العمراني الإسلامية على العمارة المدنية و العسكرية تطرقت فيه إلى أثر التشريع الإسلامي على التنظيم المدني، منها الطرق و المسالك، و المساكن، و المؤسسات العمومية، وكذلك التنظيم الموجود بالأحياء و الدروب. كما تكلمت عن العمارة العسكرية من خلال تطرقي للإستحکامات العسكرية من أسوار، و أبراج، و ربط، و الخنادق، و أبواب المدن.

- الخاتمة: هي عبارة عن مجموعة من النتائج توصلت إليها في دراستي من خلال وضع أجوبة للإشكالية المقدمة في البحث.

- نقد المصادر و المراجع:

و لتحقيق الغرض المنشود، و المقصد المحدود في هذا البحث اعتمدت على عدة مصادر و مراجع كان من أهمها:

1- في التاريخ السياسي:

من بين أهم المصادر التاريخية التي اعتمدت عليها كذلك نجد كتاب " كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب " لمؤلفه "أبو العباس أحمد بن عذارى المراكشي" و يمتاز بغزارة معلوماته حيث تضمن نقاطا عدة من هذه الرسالة خاصة الفصل الأول و الثاني بدءا من الفترة الإدريسية إلى غاية الفترة الموحدية.

كما رجعت أيضا إلى "ابن أبي زرع" المتوفى بعد سنة (726 هـ / 1324م) من خلال كتابه " الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس " و يتناول الكتاب تاريخ المغرب الأقصى من سنة (145 هـ / 762 م) إلى سنة (726 هـ / 1324 م)، و عيبه أن بعض المعلومات غير صحيحة، و لذلك كنت أقابله مع بقية المصادر التاريخية خاصة كتاب " العبر... " و " البيان المغرب....".

يضاف إلى "ابن أبي زرع" "عبد الرحمن بن خلدون" (732 هـ / 27 ماي 1332 م .
 رمضان 808 هـ / 19 مارس 1406 م) من خلال كتابه " كتاب العبر، و ديوان المبتدأ
 و الخبر في أيام العرب، و العجم و البربر، و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " و كان
 أهم المصادر العربية في هذا الموضوع نظرا لغزارة مادته، و عمقها في المجال السياسي، و العسكري،
 و قد ساعدني كثيرا في التعرف على العلاقة بين القبائل البربرية و الأنظمة السياسية القائمة بالمغرب
 الإسلامي و الأندلس، و الصراع العسكري بين الدويلات الوارثة للدولة الموحدية، و أثره على المغرب
 الأوسط، كما استفدت منه في تعريف بعض القبائل البربرية، و العربية التي داع سوطها بالمغرب
 الإسلامي. كما استفدت من "مقدمته" (تحقيق عبد الواحد الوافي، طبعة 2002 م.)، و بها
 معلومات قيمة حول بناء و تمصير المدن، و المواقع الجغرافية المناسبة لذلك، و شروط تأسيس المدن،
 و تطور العمران البشري.

استفدت من كتاب " بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد " لصاحبه "أبي زكرياء
 يحيى بن خلدون" الذي ألفه في القرن الثامن الهجري النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي،
 و خصصه صاحبه لتاريخ ملوك بني عبد الواد، فجاء مكملا لكتاب أخيه " كتاب العبر.... "،
 و قد أفادني بصفة خاصة في التزود بمعلومات عن فترة حكم "أبي حمو موسى الثاني" القرن
 (9 هـ / 14م)، و أهم المنشآت العمومية التي شيدت في الفترة الزيانية، خاصة دور العلم، و بالمقابل
 كنت أرجع إلى كتاب " نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، و ذكر ملوكهم الأعيان،
 و من ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان " لصاحبه "محمد بن عبد الله التنسي" المتوفى سنة
 (899 هـ / 1494م) وقد أضاف معلومات قيمة لما جاء في كتابي " العبر..."، و " بغية
 الرواد...." خاصة الأحداث السياسية، و العسكرية التي عاصرها في القرن التاسع الهجري الخامس
 عشر الميلادي.

2 - كتب الرحالة و الجغرافيين:

اعتمدت في هذه الدراسة على عدة مصادر تناولت جغرافية المغرب الإسلامي، و تطرقت
 بالوصف لمدينتي "تلمسان" و "الجزائر" و كان من أهم هذه المصادر: كتاب " المغرب في بلاد
 افريقية و المغرب "، و هو جزء من كتاب " المسالك و الممالك " الذي ألفه "أبو عبيد الله بن

عبد العزيز البكري" حوالي سنة (460 هـ / 1068 م - 1069 م)، وحققه "البارون دوسلان" (الجزائر، سنة 1957م)، و قد أفادني كثيرا في تحديد النسيج العمراني لمدينتي "تلمسان و "الجزائر" و تطور العمراني بهما، و أهم مؤسساتهما خاصة المسجد الجامع و السوق، و الحوانيت و الفنادق، كما استفدت منه في تعريف بعض المناطق، و المدن، و الطرقات، و الموانئ، و التضاريس بالمغرب الإسلامي التي ثم ذكرها في هذه الدراسة.

كما استفدت كثيرا من كتاب " وصف أفريقيا " لصاحبه محمد بن حسن الوزان المعروف بليون الأفريقي ألف حوالي القرن (10 هـ / 16 م)، و تضمن وصفا هاما لمدن بلاد المغرب الإسلامي، و من بينهم مدينتي "تلمسان" "الجزائر"، كما استفدت منه كذلك في الأحداث السياسية التي عرفها المغرب الإسلامي خلال القرن (10 هـ / 16 م)، كما اعتمدت عليه في تعريف بعض المدن الواردة في هذا البحث.

3 - كتب التراجم:

اعتمدت عليها في التعريف بالأعلام الوارد في البحث، و هي عديدة و متنوعة، و كان أهمها كتاب "المناقب المرزوقية" لمؤلفه " ابن مرزوق الخطيب"، بالإضافة إلى ذلك فقد استنبطت منه عدة أسماء للمساجد التي كانت في تلمسان منذ الفترة الإدريسي إلى غاية القرن التاسع للهجرة، و كذلك أسماء لأحياء و دروب، وكيف كانت الحياة الاجتماعية داخل الدرب. بالإضافة إلى كتاب "شجرة الزكية في طبقات المالكية" لمؤلفه "محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف" المتوفي سنة (1360هـ / 1941م) ترجم صاحبه لعلماء المذهب المالكي من القرن الثالث للهجرة إلى القرن الثالث عشر للهجرة، اعتمدت عليه لتعريف بعلماء المذهب المالكي الواردة أسمائهم في هذه الدراسة.

4 - كتب الفقه و النوازل و الأحاديث:

من أهم المصادر التي اعتمدت عليها كان بالدرجة الأولى " المعيار المغرب، و الجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية و الأندلس، و المغرب " "لأحمد بن يحيى الونشريسي" المتوفي سنة (914 هـ / 1508م) و يتضمن معلومات كثيرة عن الحياة الاقتصادية، و الاجتماعية، و أفادني خاصة في فقه بناء المساجد، و أحكام الضرر في البناء.

كما استفدت من كتب الحديث من أجل معرفة هدي الرسول صلى الله عليه و سلم في التنظيم المدني بالمدينة المنورة و من خلال ذلك القيام بالإسقاط و المقارنة مع مدينتي "تلمسان" و "الجزائر"

و من أهمها: كتاب "رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين"، و كتاب "المنهاج" للإمام "النووي"، و كتاب "سنن ابن ماجه" لمؤلف "ابن ماجه محمد بن يزيد" و كتاب "صحيح البخاري" للإمام "البخاري".

كما استفدت من المصادر التي تناولت الخطط و الوظائف المدينة الإسلامية، خاصة التي تناولت وظيفة الحسبة، و من أهمها كتاب "كتاب الحسبة" لمؤلفه "محمد بن محمد بن الأخوة"، و كتاب "تحفة الناظر و غنية الذاكر في حفظ الشعائر و تغير المناكر" لمؤلفه "محمد بن أحمد بن السعيد العقباني"، و من خلاله تعرفت على مهام المحتسب بمدينة تلمسان في القرن العاشر للهجرة، و كذلك ثلاث رسائل في الحسبة لعلماء الأندلس و هم: "ابن عبدون"، و "ابن عبد الرؤوف"، و "اليرجيسي".

أما المراجع باللغة العربية و الأعجمية فكانت متنوعة، و مكتملة لما أفردته المصادر، و قد استفدت كثيرا في الفصل الثاني من الدراسة من كتاب "كتاب الجزائر" لمؤلفه أحمد توفيق المدني، و من كتاب "تاريخ الجزائر العام" لمؤلفه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي رحمه الله.

و من بين المراجع العربية التي اهتمت بالعمارة، و العمران الإسلامي و استفدت منها كثيرا نجد كتاب "مسجد القيروان" لمؤلفه الأستاذ "أحمد فكري"، و كتاب "المساجد" لمؤلفه الأستاذ "حسين مؤنس" و كتاب "المساجد في الإسلام" لمؤلفه الأستاذ "الولي طه"، و كتاب "المدينة الإسلامية" لمؤلفه "محمد عثمان عبد الستار".

أما الموسوعات فقد اعتمدت كثيرا على أحدث موسوعة فقهية إسلامية محققة و ملقحة قدمها للباحثين الأستاذ "حسين بن عودة العوايشة"، و تمتاز بغزارة موادها و تقصي آراء العلماء و الفقهاء، و الاختلافات المؤسسة على أدلة شرعية من الكتاب و السنة المطهرة، و رجعت إليها خاصة في الفصل الرابع و الخامس من هذه الدراسة.

كما استفدت من مجموعة كبيرة من المجلات و الرسائل الجامعة، خاصة الرجوع إلى قائمة المصادر و المراجع الواردة فيها، و التي كانت المطلق لعملية جمع المادة العلمية، و من بين أهم الرسائل الجامعية التي استفدت منها نجد رسالة الدكتوراه للأستاذ الدكتور "عبد العزيز لعرج" الموسومة: "العمارة المرينية في تلمسان الزيانية"، و كذلك رسالة الدكتوراه الموسومة: "تطور العمران

الإسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط من القرن الثاني إلى القرن الثامن للهجرة " للأستاذ الدكتور "بويحيوي عز الدين"، و كذلك رسالة الدكتوراه الموسومة: " العمران و العمارة من خلال كتب النوازل بالمغرب الإسلامي، دراسة في فقه العمران و العمارة الإسلامية " لمؤلفها الدكتور "محمد بن حمو".

و أخيرا فإن مثل هذه المواضيع تحتاج لجهد و وقت كبير، حيث لا يمكن أن تستقيم أو تحاط علما إلا بكثرة البحوث و المواضيع التي تتطرق إليها، و حسي أنني اجتهدت من أجل التعريف بالفكر العمراني الإسلامي، من خلال إخراج الأحاديث النبوية التي تتطرق إليه صراحة، أو التي تعتمد في الاجتهاد العلمي من خلال القياس. و هذا العمل كذلك لم يحط بهذا الموضوع تماما بل يحتاج إلى التحقيق و بحث فيه مستقبلا إن كان للعمر بقية، و الله ولي التوفيق و السداد.

و الله من وراء القصد.

موشموش محمد البينامي.

الفصل الأول: ماهية المدينة الإسلامية.

1 - تعريفات هامة.

2 - نظرة المفكرين للمدينة الإسلامية.

2 - 1 - آراء المفكرين من المسلمين.

2 - 2 - آراء المستشرقين حول المدينة الإسلامية.

3 - المنظور التاريخي للمدينة بالمغرب الإسلامي.

للمدن أهمية و مكانة متميزة في تاريخ الحضارة الإنسانية، إذ أنّ كلا منها يضم عددا كبيرا من السكان الذين يعيشون متقاربين، فتنشأ بينهم علاقات اجتماعية متعددة، و يتطلب تجمعهم نظما إدارية تؤمن النظام، و الاستقرار، و الأمن، و تسير نحو التقدم و الازدهار، و تجمع العدد الكبير من الناس للعيش معا في مكان واحد يبرر بشكل واضح حاجاتهم المادية، و يتطلب تخصص في العمل لتيسير توفر الحاجات الواسعة التي تؤمن مسكنهم، و مآكلهم، و ملابسهم، و المتطلبات الحياتية الأخرى التي تزداد أو تنقص تبعا لطموحات السكان، و أهوائهم، و أذواقهم، و مدى توافر الإمكانيات المادية لتحقيقها.

إنّ اجتماع العدد الكبير من الناس في المكان الواحد ييسر إنارة التفكير، و تعدد الآراء و تبادلها، و من ثم تنمية الفكر بمعناه الأشمل، فإذا رافق ذلك النمو الكتابة فإن هذه الأفكار تسجل، و تحفظ لنشرها على ميادين مختلفة من السعة بين المواطنين، أو الأجيال التالية، و من هنا كانت للمدن مكانة خاصة في نمو الحركة الفكرية، و توسع آفاقها، و انتشارها بين أهل المجموعات البشرية و التجمعات السكنية الطامحة في الاستفادة من الإنتاج الحضاري¹.

و على هذا المنهج سارت المدن الإسلامية في العصر الوسيط، متخذة من "المدينة المنورة" منذ العصر النبوي و عهد الخلفاء الراشدين² أسلوبا لتخطيطها، و مركزا هاما لاستنباط الأحكام الشرعية في تسيير مظاهرها الاجتماعية و الاقتصادية، و الفكرية، و هذا ما سوف نتطرق إليه في هذا الفصل.

1 - تقي الدين الدباغ، " من القرية إلى المدينة الأولى " في كتاب المدينة و الحياة المدنية، منشورات المجمع العراقي العلمي، بغداد، العراق، 1988م، ج1، ص5.

2 - عرفت المدينة المنورة منذ عهد الرسول صلى الله عليه و سلم تطورا كبيرا في نمط تخطيطها و توزيع خططها، حيث أصبح المسجد الجامع النبوي مركزا لحراك سياسي و العلمي إلى جانب دوره الوظيفي المتمثل في عبادة الله، و قد اكتسب هذا الدور من خلال توسطه للمدينة بعد توسع عمراتها و هجرة القبائل العربية إليها، و بها نشأت الوظائف الإدارية، حيث أخذ الرسول صلى الله عليه و سلم من أصحابه وزراء و قضاة و دعاة و شغل بنفسه وظيفة والي السوق أو المحتسب.

1- تعريفات هامة:

لقد عرف العرب في "الجزيرة العربية" قبل الإسلام المراكز الحضارية و المدن، و في القرآن الكريم تعابير لأنواع متعددة من التجمعات البشرية الكبيرة، و منها المدينة التي ذكرت سبع عشرة مرة، كقوله سبحانه و تعالى: ﴿ .. إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُتُمْوهُ فِيهِ الْمَدِينَةُ لِتُنزَبُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾¹ و البلدة ﴿ .. أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَةَ... ﴾² و القرية ﴿ تِلْكَ الْقَرْيَةُ نَقُصُّ... ﴾³ و حاضرة البحر ﴿ وَ سَأَلْتَهُمْ مَنِ الْقَرْيَةُ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ... ﴾⁴ بالإضافة إلى أسماء عدد من الأماكن مثل "مصر" ﴿ وَ قَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ... ﴾⁵ و "بابل" ﴿ وَ مَا أَنْزَلَ عَلَي الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ... ﴾⁶ و ارم ﴿ إِرَمَ كَانَتْ الْعِمَادِ ﴾⁷، و بكة ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ... ﴾⁸، و ذكر سبحانه و تعالى كذلك مصطلحات عربية عن نظم سياسية و أحوال حضارية لا تقوم إلا في مجتمعات مركبة، فقد ذكر البدو و البادية في آيات قليلة كقوله سبحانه و تعالى: ﴿ جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ... ﴾⁹.

إن أنظمة سياسية و الحضارية لا يمكنها أن تزدهر إلا في ظل مدن متقدمة النمو، و قد وردت هذه التعابير ضمن سياق يظهر أنها كانت مألوفة عند العرب أو معروفة فيهم، إضافة إلى

1 - سورة الأعراف، الآية 123.

2 - سورة النمل، الآية 91.

3 - سورة الأعراف، الآية 101.

4 - سورة الأعراف، الآية 163.

5 - سورة يوسف، الآية 21.

6 - سورة البقرة، الآية 102.

7 - سورة الفجر، الآية 7.

8 - سورة آل عمران، الآية 96.

9 - سورة يوسف، الآية 100.

ما هم مطلعون عليه من نظم الأخرى بالسماح أو عن طريق المعلومات المستمدة من علاقاتهم التجارية.

1-1- القرية:

القرية هي المصر الجامع وكل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قرارا، وتقع على المدن وغيرها، و يقول "ابن سيده": "الْقَرْيَةُ وَالْقَرْيَةُ لِعَتَانِ الْمَصْرِ الْجَامِعِ"، و في التهذيب: "المكسورة يمانية، و من ثم اجتمعوا في جمعها على القرى على لغة من يقول كسوة و كسأ، و قيل: هي القرية، بفتح القاف لا غير، قال: و كسر القاف خطأ، و جمعها قرئ، جاءت ناذرة ". و يقول "ابن السكيت": "ما كان من جمع فَعَلَةٍ بفتح الفاء معتلا من الياء و الواو على فعال كان ممدودا مثل رَكْوَةٌ و ركاء و شكوة و شكاء و قشوة و قشاء، قال: لم في شيء من جميع هذا القصرُ إلا كَوَّةٌ و كوى و قرية و قرى، جاءنا على غير قياس." و قال "الجوهري": " القرية معروفة، و الجمع قرى على غير قياس و في الحديث: انّ نبيا من الأنبياء أمر بقرية النمل فأحرقته. و هي مسكنها و بيتها، و الجمع قرئ، و القرية من المساكن و الأبنية و الضياع و قد تطلق على المدن". و في الحديث: " أمرت بقرية تأكل القرى هي مدينة الرسول صلى الله عليه و سلم"، و معنى أكلها القرى ما يفتح على أيدي أهلها من المدن و يصيبون من غنائمها، و قوله تعالى: ﴿ .. وَ سَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾¹ قال "سيبويه": " إنما جاءت على اتساع الكلام و الاختصار، و إنما يريد أهل القرية فاختصر و عمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان هاهنا"، قال "ابن جني": " في هذا ثلاثة معان: الاتساع و التشبيه و التوكيد، أما الاتساع فإنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح في حقيقة سؤاله، ألا تراك تقول و كم من قرية مسؤولة، و تقول القرى و تسألك كقولك أنت و شأنك فهذا و نحوه اتساع، و أما التشبيه فلأنها شبهت بمن يصح سؤاله لما كان بها و مؤالفا لها، و أما التأكيد فلأنه

1 - سورة يوسف، الآية 100.

في ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال على من ليس من عاداته الإجابة. و الجمع قرى، و أمّ القرى هي مكة شرفها الله تعالى، لأن أهل القرى يؤمونها أي يقصدونها¹.
 لقد حدد الرحالة و الجغرافيون² مسميات للقرى على حجمها، فاستعمل "الحميري" مصطلح القرية الجامعة عند وصفه لقرية الأبواء بقوله: " قرية جامعة بين مكة و المدينة شرفها الله تعالى وسطا من المسافة، و معنى الأبواء أخلاط من الناس..."³. و يمكن استنتاج من كلام "الحميري" أنّ القرية الجامعة هي التي تجمع مجموعات بشرية أو عدد من القبائل يتقاسمون نفس المساحة و يجتمعون على حرفة واحدة، و تربطهم مصلحة مشتركة، كما يصف مدينة "أجرسيف"⁴ قبل تمصيرها بقوله: "... "أجرسيف" قرية كبيرة على النهر المذكور حتى خرج المثلثون من الصحراء فنزلوها و مدنوها و بنوا عليها سورا من الطوب..."⁵. و جعلوا كذلك القرية الكبيرة كالمدينة، أو القرية كالبلدة". و لا شك أن هذه التسميات و التصنيفات مرتبطة برؤية واضحة تميز كل منها عن الأخرى وفق معايير حضرية محددة⁶.

-
- 1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - جمال الدين بن منظور (630هـ - 1232م / 711هـ - 1311م)، لسان العرب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1431هـ/2010م، ج7، ص 257، 258.
 - 2 - أنظر على سبيل المثال لا الحصر: - أبو عبيد الله البكري (ت: 487هـ / 1094م)، كتاب المسالك و ممالك، تحقيق ديسلان، الجزائر، 1857م.
 - 3 - الحميري عبد المنعم (توفي حوالي: 900هـ/1494م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت 1975 م، ص7.
 - 4 - مدينة تقع على نهر ملوية بالمغرب الأقصى.
 - 5 - الحميري، المصدر السابق، ص12.
 - 6 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الجبار ناجي، "مفهوم المدينة الإسلامية"، مجلة المدينة العربية، العدد 15، السنة الثالثة، المنظمة العربية للمدن، 1984م، ص58-62.

و مما أفردناه سابقا يمكن أن استنتج أنّ القرية تعتبر بمثابة الرّض¹، و هي تجمعات سكانية تنسب لقبيلة معينة، أو تكون خليط من المجموعات البشرية يجمعها فكر معين أو هدف اقتصادي أو حرفي واحد، و هي دعما اقتصاديا و حرفيا للمدينة.

و في الفترة العثمانية أطلق على سكان الأرياض بالفحصيين أو سكان الفحص، و هم كل التجمعات السكانية القائمة خارج أسوار المدينة، و قد جمعهم القرابة القبلية، أو المجموعات الحرفية مثل ما كان معهودا بمدينة "الجزائر"².

1- 2 - المدينة:

نسب اللغويون كلمة مدينة إلى كلمة "دين"، و أن لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلا في الآرامية و العربية، أي أنّها ذات أصل سامي، و عرفت المدينة عند الأكاديين و الأشوريين بالدين أي "القانون"، كما أن "الديان" يقصد بها في اللغة الآرامية و العبرية "القاضي"، و إضافة إلى ذلك فإن مصدرها في الآرامية "مدينتنا" و تعني "القضاء"، و توافق هذه التفسيرات ما ورد في القرآن³، و في السنة النبوية، و ما أشارت إليه بعض المعاجم العربية، حيث كل المواضع التي أطلق عليها لفظ المدينة في القرآن كان عليها حاكم، أو ملك، و فيها على وجه التحقيق الصيغ

1 - الرّض ما حول المدينة، و قيل هو الفضاء حول المدينة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص30.

2 - للمزيد من التفاصيل حول فحص مدينة الجزائر في الفترة العثمانية أنظر: - زكية راجعي، مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني، دراسة أثرية معمارية و فنية، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 2007م.

3 - وقد ورد مصطلح المدينة في القرآن الكريم جمعا أو مفردة 17 مرة. للمزيد من التفاصيل أنظر: سورة الأعراف الآية111، 123. سورة التوبة الآية 101، 120. سورة يوسف الآية 30. سورة الحجر الآية 67. سورة الكهف الآية 19، 82. سورة الشعراء الآية 36، 53. سورة النمل الآية 48. سورة القصص الآية 15، 18، 20. سورة الأحزاب الآية 60. سورة ياسين الآية 20 . سورة المنافقون الآية 8.

القضائية و الدينية، و الإدارية، و السياسية، فجاء تميز المدينة عن القرية في القرآن الكريم على أساس سمة التقاضي التي أشار إليها اللفظ الآرامي سابقاً¹.

و يقول "ابن منظور": "...مدن بالمكان: أقام به، فعلٌ مُمات، ومنه المدينة، وهي فعيلة، وتجمع على المدائن، بالهمز، و مدُنٍ و المدن بالتخفيف و التثقيل، و فيه قول آخر: أنه مفعلة من دنثُ أي ملكثُ، قال "ابن بري": لو كانت الميم في المدينة زائدة لم يجر جمعها على المدن. و فلان مدّن المدائن: كما يقال مصّر الأمصار. قال وسئل "أبو عليّ الفسوي" عن همزة مدائن فقال: فيه قولان، من جعله فعلية من قولك مدّنَ بالمكان أي أقام به همزه، ومن جعله مفعلة من قولك دين أي ملك لم يهمزه كما لا يهمز معايش...."²، و حدد "ابن منظور" كذلك الكيان المادي و الاجتماعي للمدينة بعد أن ذكر التعريف اللغوي بقوله: "و المدينة: الحصن يبني في أصطمة الأرض، مشتق من ذلك. وكل أرض يبني بها حصن في أصطمتها فهي مدينة، و النسبة إليها مديني، و الجمع مدائن و مدنٌ. قال "ابن سيده": ومن هنا قال أبو الحسن "فيما حكاه "الفارسي" أن المدينة فعلية. و يقول "الفرّاء" و غيره: المدينة فعلية، تهمز في الفعائل لأن الياء زائدة، و لا تهمز ياء المعايش لأن الياء أصلية. و المدينة: إسم "مدينة" سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، خاصة غلبت عليها تفخيماً لها، شرفها الله وصانها، و إذا نسبت إلى المدينة فالرجل و الثوب مديّ، و الطير ونحوه مديني، لا يقال غير ذلك. قال "سيبويه": فأما قولهم مدائني فإثم جعلوا هذا البناء اسماً للبلد، و حمامة مدينيّة و الحارية مدينيّة. و يقال للرجل العالم بالأمر الفطن: هو ابن بجدتها و ابن مدينتها و ابن بلدتها و ابن بعثتها و ابن سُرسورها."³ و على هذا مذهب أضاف "الفيروزآبادي" بقوله: "...و المدينة: الأمة و ستّة عشر بلداً، ومدن المدائن تمدينا: مصّرها. و "مدين": قرية "شعيب عليه السّلام"، و النسبة

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - مصطفى الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة و تطور المدينة العربية، دار الرشيد، مصر، 1982م، ص355. كذلك: - محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، 1988م، ص16.

2 - ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص172.

3 - نفسه.

إلى "مدينة" الرسول صلى الله عليه و سلم: مدني، و إلى مدينة "المنصور"، و "أصفهان" و غيرها.. و مدائن: مدينة "كسرى" قرب "بغداد"، سميت لكبرها...¹.

و يقول "المقدسي" في تعريفه للمدينة: "...أنه كل بلد جامع تقام فيه الحدود و يحله أمير و يقوم بنفقتة و يجمع رستاقه²..."³. و قد ذهب في تعريفه هذا أنّ المدينة تجع مجموعات بشرية، و يتقاضى فيها الناس بوجود النظام و يمثله الأمير أو حاكم المدينة و الذي يقوم كذلك بجمع الخراج من أهلها. و من خلال هذا التعريف يمكن أن أشير إلى أنّ المدينة ليست بالضرورة عاصمة لدولة، و لكنها تنتمي و تعترف بالسلطة المركزية بالعاصمة، و على هذا الأساس كانت المدن الإسلامية تابعة لعاصمة الدول، وبها كذلك تقام صلاة الجمعة دون غيرها من التجمعات السكنية التي لا ترق إلى مرتبة المدينة هذا ما ذهب إليه فقهاء القرن الثاني للهجرة تأسيا بسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم⁴.

كما يعرفها الفارابي بقوله: "...فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها، التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة..."، كما شبهها بالبدن الصحيح الذي تكون أعضاؤه سليمة تقوم بوظائفها المنوطة بها على أحسن حال و ذلك بقوله: "...و المدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح الذي يتعاون أعضاؤه كلها على تميم حياة الحيوان، و على حفظها عليه..."⁵.

من خلال كتب الرحالة و الجغرافيين يمكن للباحث أن يستشف من وصفهم للمدن أنهم ربطوها بالمسجد الجامع و السور الذي يحيط بها، و بيدوا أنهما اتخذتا كمعيارين لتحديد

1 - محمد بن يعقوب الفيروزابادي (729هـ - 1328م / 817هـ - 1414م)، القاموس المحيط، مراجعة و إشراف: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1432هـ / 2011م، ص 494.

2 - أي سواده. للمزيد من التفاصيل أنظر ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص102.

3 - شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (336هـ - 380هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، مطبعة بريل، ليدن، 1877م، ص47.

4 - محمد الدين القاسمي (1283هـ - 1866م / 1332هـ - 1914م)، إصلاح المساجد من البدع و العوائد، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق سوريا، 1466هـ / 2001م، ط6، ص49.

5 - أبو نصر الفارابي، أراء أهل المدينة الفاضلة، تقديم و تعليق: ألبير نصري نادر، ط2، دار المشرق المطبعية، بيروت، لبنان، (د،ت)، ص117.

الفرق بين المدينة و القرية، فمثلا يصف "الحميري"¹ مدينة "أجرسيف" بأنها مدينة في إقليم "تلمسان" هذا في القرن الخامس للهجرة، ثم يقول: " كانت قرية كبيرة"، و يبدو أن هذا التحول من قرية إلى مدينة كان بدخول "يوسف بن تاشفين" إليها و ضربه لسور عليها، و أمره ببناء مسجد جامع بها. أما "حسن الوزان" فربط حجم المدن و الفرق بين القرية و المدينة بعدد السكان، بالإضافة إلى أن المدن تتخذ دار للسلطان أو مقرا لإمارة، حيث يقول في وصفه لمدينة "أرشقول": " أرشكول مدينة كبيرة... كانت مدينة في غاية العمران و الحضارة، دار إمارة عم إدريس مؤسس مدينة "فاس"..."²، و يصف مدينة "تلمسان" و كيفية تحولها من مدينة صغيرة إلى مدينة كبيرة و عاصمة للملكة قوية دامت أكثر من أربعة قرون: " تلمسان" مدينة كبيرة، و هي عاصمة الملكة... و كل ما يقال أنها كانت مدينة صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب "أرشكول"... و قد توسعت أيام بني "عبد الواد" حتى أصبح فيها ستة عشر ألف كانون على عهد الملك "أبي تاشفين" و بلغت حقا درجة عالية من الازدهار..."³، و قد جمع "محمد عبد الستار عثمان" من خلال المصادر التاريخية المسميات و المصطلحات المستعملة في التعريف بالأماكن و مواقع التجمعات السكنية بقوله: "... و تعكس مسميات المدن و أوصافها تصنيفا محمدا للمدن، فقد استخدموا مصطلح "المدينة" و "مدينة كبيرة"، و "مدينة وسط"، و "مدينة صغيرة"، و "مدينة" و "كوره" في آن واحد، و "مدينة عظيمة" و "ولاية" في آن واحد، و "قصة" و "مدينة عامرة" و هي "القصة"، أو "ناحية" و هي "القصة"، أو "مدينة" و "قصة" أو "قصة" و "كوره"، أو "بلد" و "قصة" في الوقت نفسه."⁴

1 - الحميري، المصدر السابق، ص12.

2 - حسن الوزان (عاش خلال القرن السادس عشر)، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ج2، ص 14.

3 - نفسه.

4 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص20.

1 - 3 - المِصرُ:

يقول "ابن منظور" في تعريفه للمصطلح: "الحد في كل شيء، و قيل: المِصر الحد في الأرض خاصة، و يقول "الجوهري": مصر هي المدينة المعروفة، تذكر و تؤنث، و يقول "ابن السراج": و المِصر واحد من الأمصار. و المِصر: الكورة، و الجمع أمصار. ومَصَرُوا الموضع: جعلوه مِصرًا. و تمَصَّر المكان: صار مِصرًا. و مصر: مدينة بعينها، سميت كذلك لتمَصَّرها، و قد زعموا أن الذي بناها هو "المِصر بن نوح"، عليه السلام، قال "ابن سيده": و لا أدري كيف ذلك، و هي تُصَرَّفُ و لا تُصَرَّفُ. قال سيويوه في قوله تعالى: ﴿...أَخْلُوا مِصرَ...﴾¹، قال: بلغنا أنه يريد "مِصر" بعينها. في "التهذيب" قوله تعالى: ﴿...أَخْلُوا مِصرَ...﴾، قال "أبو إسحاق": الأكثر في القراءة إثبات الألف، قال: و فيها وجهان جائزان، يراد بها مصر من الأمصار لأنهم كانوا في تيه، قال: و جائز أن يكون أراد مصر بعينها فجعل مِصرًا أسما للبلد فصرف لأنه مذكر، و من قرأ مصر بغير ألف أراد "مِصر" بعينها كما قال الله تعالى في الآية السابقة، و لم يصرف لأنه اسم المدينة، فهو مذكر سمي به مؤنث. و قال "الليث": المِصر في كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود و يقسم فيها الفيء و الصدقات من غير مؤامرة للخليفة. و كان "عمر" رضي الله عنه مِصر الأمصار منها "البصرة" و "الكوفة". و قال "الجوهري": فلان مِصر الأمصار كما يقال مدّن المدن، و حمّر مِصارٍ. و مِصاري: جمع مِصري، عن كراع، قوله: وأدّمت حِزِي من صِييرٍ من صيرٍ مِصرين أو البُحير اراه إنما عنى مصر هذه المشهورة فاضطر إليها فجمعها على حد سنين، قال "ابن سيده": و إنما قلت إنه أراد مصر لأن هذا الصير قلما يوجد إلا بها و ليس من مآكل العرب، قال و قد يجوز أن يكون هذا الشاعر غلط بمِصر فقال مِصرين، و ذلك لأنه كان بعيدا من الأرياف كمِصر و غيرها، و غلط العرب الأقحاح الجفاء في مثل هذا كثير، و قد رواه بعضهم من صير مِصرين كأنه المِصرين فحذف اللام. و المِصران: "الكوفة" و "البصرة"، قال "ابن الأعرابي": قيل لهما المِصران لأن "عمر" رضي الله عنه قال: لا تجعلوا البحر فيما بيني و بينكم، مِصروها أي صيروها مِصرًا بين البحر و بيني أي حدا. و المِصر: الحاجز بين الشيئين. و في حديث مواقيت الحج: لما فتح هذان

1 - سورة يوسف، الآية 99.

المصران، المصر: البلد، و يريد بهما "الكوفة" و "البصرة". و المصر: الطين الأحمر. و ثوب ممصر: مصبوغ بالطين الأحمر أو بحمرة خفيفة.¹

و يقول "الفيروزبادي": "...و المصر بالكسر: الحاجز بين الشيئين، كالمصر، و الحدّ بين الأرضين، و الوعاء و الكورة، و الطين الأحمر...ومصروا المكان تمصيرا: جعلوه مصرا فتمصّر. و مصر: المدينة المعروفة، سمّيت لتمصّرها..."².

و يقول "الماوردي" في تعريفه للأمصار: "...أما الأمصار فهي الأوطان الجامعة، و المقصود بها خمسة أمور: أحدهما: أن يستوطنها أهلها طلبا في السكون و الدعة. و الثاني: حفظ الأموال فيها من استهلاك و إضاعة. و الثالث: صيانة الحرم و الحرم من انتهاك و مذلة. و الرابع: التماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع و صناعة. و الخامس: التعرض للكسب و طلب و المادة. فإن عدم فيها أحد هذه الأمور الخمسة فليست من مواطن الاستقرار و هي منزل قيعة و دمار. قال "الزبير بن العوام" رضي الله عنه، سمعت رسول الله يقول: " إن البلاد بلاد الله، فحيث ما وجدت خيرا فاحمد الله و أقم".³

1- 4 - القصر:

يعرف القصر لغويا بأنه هو المنزل، و قيل كل بيت من حجر قرشية، و سمي كذلك لأنه تقصر فيه الحرم أو تحبس⁴، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ ﴾⁵، و جمع قصر قصور مثلما جاء ذكره في القرآن الكريم حيث يقول عز و جلى: ﴿...وَبِنْدٍ مَّعْتَلَةٍ﴾

1- ابن منظور، المصدر السابق، ج8، ص220، 221.

2- الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص 509.

3 - أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (364هـ - 974م / 450هـ 1058م)، كتاب تسهيل النظر و تعجيل الظفر في أخلاق الملك و سياسة الملك ، دار النهضة العربية، لبنان، 1401هـ / 1981م، ص 209.

4- ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص284.

5- سورة الرحمن الآية 72.

﴿ وَ قَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾¹، و بصيغة الجمع في آية أخرى حيث يقول الله تعالى: ﴿... تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا... ﴾²، ﴿... وَيَجْعَلْ لَكُمْ قُصُورًا ﴾.

يقول "الفيروزآبادي": "... و القصر خلاف المدّ، و اختلاط الظلام، و الحبس، و الحطب الجزل، و المنزل، أو كل بيت من حجر، و علمٌ لسبعة و خمسين موضعاً، ما بين مدينة و قرية و حصن و دار، أعجبها قصر بهران جور من حجر واحد قرب همذان."³ و يقترب هذا المفهوم من المصطلح الوارد، و المتداول في المصادر التاريخية، حيث يقصد بالقصر مقر الخليفة أو الحاكم و أفراد عائلته و خدمه.⁴

و يختلف مفهوم القصر في المناطق الصحراوية اختلافا كلي عن المعنى السابق، فهو عبارة عن قرية محصنة، أو بالأحرى هو عبارة عن تكتلات سكنية مترابطة و متلاحمة فيما بينها تقطنها مجموعات بشرية تنتمي إلى أصول عرقية أو طبقات اجتماعية مختلفة. يحيط بهذه التكتلات أحيانا سور سميك تتخلله مزاغل و مدعم بأبراج، وأحيانا تخلوا بتاتا من مثل هذه العناصر الدفاعية، و لكن تعوض بالجدران البيوت الخارجية لتشكيل في النهاية ما يشبه السور يحيط بكافة أرجائها، و يدعم عادة من الخارج بواسطة دعائم نصف هرمية الشكل مثل قصور "واد ريغ بالوادي"، و قصر "تماسين" "بتقرت"⁵، و تعد هذه الطريقة بالنسبة للسكان المحليين بمثابة سور حقيقي نستشفه من خلال الكلمات المتداولة إلى يومنا هذا كقولهم: " من وراء السور "⁶.

1- سورة الحج الآية 45.

2- سورة الأعراف الآية 74.

3- الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص 494.

4- للمزيد من التفاصيل حول القصور التي بنها الأمراء و الخلفاء الأمويين أنظر :- وائل منير الرشدان، القصور الأموية في المملكة الأردنية الهاشمية، جامعة الملك سعود، المملكة السعودية، 1430هـ / 2009م.

5 - علي حملاوي، "القصر بالجنوب الجزائري مفهومه و مكوناته"، حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة العدد العاشر، 1422هـ / 2001م، مطبعة سومر، بئر خادم، الجزائر، ص 31.

6 - نفسه، ص 32.

2- نظرة المفكرين للمدينة الإسلامية:

تعد دراسة تواريخ المدن الإسلامية من الدراسات التي استهوت أنظار الباحثين، فالمدينة الإسلامي هي الوحدة الأساسية و النموذج الأكمل للحضارة الإسلامية الفاعلة، و أن تحليل تركيبها الداخلي و إظهار سماتها و خصائصها، وإبراز الدور الذي قدمته بحد ذاته مشاركة في إلقاء الأضواء على فعالية الدور الذي لعبته الحضارة الإسلامية بصورة عامة، و المدن كما هو معروف وليدة الحضارة و هي الصورة التي تعكس الجانب التمديني، و التطور العمراني و المعماري و الصنائع لذا المجموعات البشرية و المجتمعات المقيمة بها.

و تكمن أهمية دراسة المظاهر الحضارية للمدن بالإضافة إلى ذلك في فهم وضع المدينة المعاصرة و تحسس وظيفتها لأنه بدون ذلك لا يمكن لنا إنشاء و تخطيط مدن تلاءم فكرنا العمراني و بيئتنا الجغرافية، و يقول "لويس ممفورد" في ذلك: "... أنه و من خلال مرحلة التطور التمديني المعاصر، و من أجل فهم دور المدينة الحاضرة لا بد من فهم و دراسة التكوين التاريخي للتمدن ووظائف المدينة الأصلية. بدون ذلك فإننا لا نملك المحفز في اتخاذ خطوات مستقبلية جريئة...".¹

2 - 1 - آراء المفكرين المسلمين حول المدينة الإسلامية:

ركز المفكرون المسلمون في أبحاثهم عن المدينة الإسلامية على الشروط الواجب مراعاتها عند تخطيط المدينة، فوضع "ابن أبي الربيع" شروطاً هامة أصبحت مقياساً متبعاً في تخطيط المدن الإسلامية، ووقف عندها عدة باحثين عند دراستهم للمدن الإسلامية حيث جعلها في ستة شروط و هي²:

- **سعة المياه المستعذبة:** و يقصد في ذلك جلب المياه الصالح للشرب، و تيسيرها للريعية، أو تقوم المدينة على نهر جار، أو وفرة الينابيع من عيون عذبة يسوغها الشارب.

1 - عبد الجبار ناجي، "المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية"، مجلة المورد، العدد الرابع، المجلد التاسع، العراق، 1980م ص 136.

2 - شهاب الدين أحمد بن أبي الربيع (218 هـ - 833م / 272 هـ - 885م)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق، عارف أحمد عبد الغني، دار كنانة للطباعة و النشر و التوزيع، دمشق، سوريا، 1996م، ص 106.

- إمكانية الميرة المستمدة: حيث يجب أن تكون للمدينة أرياضا توفر لها الميرة، و أراضي زراعية تضمن لها الأمن الغذائي في حالة الحروب و الحصار.
 - اعتدال المكان: و جودة الهواء، إذ أن المدن التي تبنى في منخفض الأرض يركد فيها الهواء و يتجدد ببطء، و العامل المساعد على تجديد الهواء هو الريح، و من ثم فإن المدن المؤسس على مكان معتدل، أو مرتفع فإن هوائها لطيف و صحي.
 - القرب من المراعي و الاحتطاب: و ذلك لتوفير الكلاً للمواشي، و توفير الحطب للطهي و الغداء.
 - تحصين منازلها من الأعداء و الذعار: و يقصد بذلك تأمين الرعية من كل طارق.
 - أن يحيط بها السواد يعين أهلها: و يقصد هنا القرى، و القبائل، و أرياض التي يجب أن تحيط بالمدينة، و تكون مددا عند الصريخ، و تموينها بالميرة.
- و بالتالي فإن القاعدة العمرانية هنا تقوم على قاعدة أصولية هي: جلب المصالح و درء المفسد، و هو ما بيّنه "ابن أبي الربيع" في جلب المصالح من الأصل الأول إلى الرابع ثم السادس، و درء المفسد في الأصل الخامس، و هذا يعني أنه من شروط إنشاء المدن الإسلامية أن تقوم على أسس دينية ترعى المصلحة المرسله لجميع الناس كما تقوم على أسس إستراتيجية واقتصادية، و الذي ذكره "ابن أبي الربيع" إيجاز بليغ لهذه القواعد العامة البالغة الأهمية في تخطيط المدن على أسس إستراتيجية و اقتصادية، و لهذا كان المخططون للمدن الإسلامية الجديدة يحتاطون لأن تنشأ على ثمانية أسس هي¹:
- أن يسوق إليها الماء العذب لشرب حتى يسهل تناوله من غير عسف.
 - أن يقدر طرقها و شوارعها حتى لا تضيق.
 - أن يبني فيها جامعا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها.
 - أن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم من قريب.
 - أن يميز قبائل سكانها، بأن لا يجمع أصداد مختلفة متباينة.
 - أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء، لأنها بجملتها دار واحدة.

1 - ابن أبي الربيع، المصدر السابق، ص 107، 108.

— أن أراد سكانها من ولى أمرها فليسكن أفسح أطرافها، و أن يجعل خواصه كفا له من سائر جهاته.

— أن ينقل إليها من أهل العلم، و الصنائع بقدر حاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم، و يستغنوا عن الخروج إلى غيرها.

و جمع لنا "الموردي"¹ بالإضافة إلى الشروط التي وضعها المفكرون السابقون، و تعريفه لمصطلح "مصر" و علاقة السلطان بالعمران بقوله: "...وحفظ السلطان في عمارة البلدان و الأوطان أوفى من حظ رعيته، لأنه أصل و هم فروعه، و متبوع و هم أتباعه، و الذي يعتبر في إنشائها ستة شروط، أحدهما: سعة المياه المستعذبة، و الثاني: إمكان الميرة المستمدة. و الثالث: اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء و التربة. و الرابع: قربه مما تدعو الحاجة إليه من المراعي و الأحطاب. و الخامس: تحصين منازل من الأعداء و الذعار. و السادس: أن يحيط به سواد يعين أهله بمواده، فإذا تكاملت هذه الشروط الستة في إنشاء مصر استحكمت قواعد تأييده، و لم يزل إلا بقضاء محتوم، و أجل معلوم، ثم على منشئ المصر في حقوق ساكنيه ثمانية شروط، أحدهما: أن يسوق إليه ماء السارية إن بعدت أطرافه، إما في أنهار جارية، أو حياض سائلة، ليسهل الوقوف إليه من غير تعسف. و الثاني: تقدير طرقه و شوارعه حتى تتناسب و لا تضيق بأهلها، فيستضر المار بها. و الثالث: أن يبني جامعا للصلوات في وسطه ليقرب على جميع أهله و يعم شوارعه بمساجده. و الرابع: أن يقدر أسواقه بحسب كفايته، و في مواضع حاجته. و الخامسة: أن يميز خطط أهله، و قبائل ساكنيه، و لا يجمع بين أصدقاء متنافرين، و لا بين أجناس مختلفين. و السادس: إن أراد الملك أن يستوطنه سكن منه في أفسح أطرافه، و أطاف به جميع خواصه، و من يكفيه من أمر أجناده، و فرق باقيهم في بقية أطرافه، ليكفوه من جميع جهاته. و خص أهله بالعدل، و جعل وسطه للعوام أهله ليكونوا منكوفين بهم، و ليقل ركوبه فيهم حتى لا يلين في أعينهم. و السابع: أن يحوطهم بسور إن تآخموا عدوا، أو خافوا اغتيالاً حتى لا يدخل عليهم إلا من أرادوه و لا يخرج عنهم إلا من عرفوه، لأنه دار لساكنيه، و حرز

1 - الموردي، المصدر السابق، ص210.

لمستوطنيه. و الثامن: أن ينقل إليه من أعمال أهل العلوم و الصنائع ما يحتاج أهله إليه حتى يكتفوا بهم، ويستغنوا عن غيرهم، فإذا قام منشئه بهذه الشروط الثمانية فيه، فقد أدى حق مستوطنيه، و لم يبق لهم عليه إلا أن يسير فيهم بالسيرة الحسنى، و يأخذهم بالطريقة المثلى، و قد صار من أكمل الأمصار و طنا، و أعد لها مسكنا"¹.

وصنف "الموردي" الأمصار إلى صنفين بقوله: " و الأمصار نوعان: مصر مزارع وسواد، و مصر فرصة و تجارة، فأما مصر المزارع و السواد فهو اثبت المصيرين أهلا، و أحسنهما حالا، و أولاهما استيطاننا لوجود مواده فيه، و اقتناء أصولهما منه. و من شروطه، أن يكون في وسط سواده، و بين جميع أطرافه، حتى تعتدل مواده منها و تتساوى طرقه إليها، و هو موفور العمارة ما كان سواده عامرا. فإن نال أهله فيه حيف، فرقمهم الحيف في سواده، فأصابوا عيشا و دافعوا من زمان الحيف وقتا. و إن جار السواد على أهله كان لهم في المصر أمن و ملاذ، و يكون كل واحد منها للآخر معاذا.

أما مصر الفرصة و التجارة فهو من كمال الإقليم وزينة الملك، لأنه مقصود بتحف البلاد و طرف الأقاليم، فلا يعوز فيه مطلوب و لا ينقطع عنه محبوب، و المعتبر فيه ثلاثة شروط أحدها: أن يتوسط أمصار الريف، و يقرب من بلاد المتاجر، فلا يبعد على طالبه، و لا يسبق على قاصده. و الثاني: أن يكون على جادة تسهل مسالكها، و يمكن نقل الأثقال فيها، إما في نهر، أو على ظهر. فإن توعرت مسالكه، و أجذبت مفاوزه عدل الناس عنه إلا من ضرورة. و الثالث: أن يكون مأمون السبل لأهل الطرقات، خفيف الكلف قليل الأثقال، فإنه ليس يأتيه إلا جالب مجتاز يطلب من البلاد أجداها، فإن توعر هجر. و هذا أكثر البلدين طالبا، وأنشرهما في الأقاليم ذكرا، و هو معد لمطالب الملوك، لا لموادهم، فإن استمدوه و تحيفوه بالمكوس و الأعشار نفروا عنه. و إن وجدوا سواه صار لأهل الضرورات دون الاختيار، و لا دوام لأوطان الأضرار، و لا يبعد أن يندرس، فيلحق المضطر بالمختار، و إن لم يستدركه سلطانه بتخفيف و إنصاف، لأن أمواله أموال تجارة متنقلة، لا يشق عليهم تحويلها، فهم يستوطنون من البلاد

1 - الموردي، المصدر السابق، ص210.

أعدلها، و يقصدون من المتاجر و المعاملات أسهلها، فإن نبا بهم وطن، فكل البلاد لهم وطن،
قال الشاعر:

واترك محل السوء لا تحلل به و إذا نبا بك منزل فتحول¹

و ذكر "ابن أبي زرع" نقلا عن بعض الحكماء كما قال في مصنفه: " أحسن مواضع
المدن أن تجمع خمسة أشياء و هي: النهر الجاري، و المحرث الطيب، و المخطب القريب، و السور
الحصين، و السلطان، إذ به صلاح حالها و أمن سبلها و كف جبارتها"². وهذه الشروط التي
ذكرها "ابن أبي زرع" أسقطها على مدينة "فاس" من أوائل المدن التي شيدت بالمغرب الإسلامي.
قدم "ابن خلدون" تحليلا للشروط السابقة حيث جمعها في شرطين: أولهما هو أمن
المدينة أي حمايتها من شر كل طارق، و الأمن الصحي للسكان و يكمن ذلك في اختيار موقع
صحي يتجدد فيه الهواء لحماية الأبدان. و الأمن يؤدي إلى استقرار الساكنة، ووفود رؤوس
الأموال و العلماء، فتتطور المدينة و يتسع عمراتها، و الأمن من مقاصد الشريعة الإسلامية حيث
يندرج ضمن حفظ المال و النفس. يقول "ابن خلدون" في ذلك: "... اعلم أن المدن قرار
تتخذها الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف و دواعيه، فتؤثر الدعة و السكون، و تتوجه
إلى اتخاذ المنازل للقرار. ولما كان ذلك للقرار المأوى و جب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية
من طوارقها، و جلب المنافع و تسهيل المنافع: فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على
منازلها جميعا سياج الأسوار، و أن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة
من الجبل، و إما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إل بعد العبور على جسر أو قنطرة
فيصعب منالها على العدو و يتضاعف امتناعها و حصنها. ومما يراعى في ذلك للحماية من
الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض. فإن الهواء إذا كان راكدا خبيثا،

1- الماوردي، المصدر السابق، ص213.

2- علي بن أبي زرع (توفي: 726هـ / 1326م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ
مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، 1420 هـ / 1999 م، ص40.

أو مجاورا للمياه الفاسدة، أو لمناقع متعفنة أو لمروج خبيثة، أسرع إليها العفن من مجاورتها، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة، و هذا مشاهد.

و المدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب، و قد اشتهرت بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقية، فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه. و قد يقال إن ذلك حادث فيها، و لم تكن كذلك من قبل، و نقل "البكري" في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس محتوم بالرصاص، فلما فضّ ختامه صعّد منه دخان إلى الجو و انقطع. و كان ذلك مبدأ أمراض الحميات فيهبز و أراد بذلك الإناء كان مشتتلا على بعض أعمال الطلّسمات لوبائه، و أنه ذهب سره بذهابه، فرجع إليها العفن و الوباء¹.

و الذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهيئها لتعفن الأجسام و أمراض الحميات ركودها، فإذا تخللتها الريح و نفشت و ذهبت بها يمينا و شمالا، خف شأن العفن و المرض البادي من الحيوانات.

و البلد إذا كان كثير الساكن و كثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة، و تحدث الريح المتخللة للهواء الراكد، و يكون ذلك معينا على الحركة و التموج. وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته و تموجه، و بقي ساكنا راكدا و عظم عفنه و كثر ضرره. و بلد قابس هذه كانت عندما كانت إفريقية مستجدة العمران، كثيرة الساكن تموج بأهلها موجا، فكان ذلك معينا على تموج الهواء و اضطرابه و تخفيف الأذى منه، فلم يكن فيها كثير عفن و لا مرض. و عندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها، فكثر العفن و المرض. فهذا وجهه لا غير، وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت، ولم يراع فيها طيب الهواء. وكانت أولا قليلة الساكن، فكانت أمراضها كثيرة. فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار

1 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد الواحد وافي، دار نضضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، مصر، 2006م، ج2، ص 785، 786.

المالك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد، و كثير من ذلك في العالم. فتفهمة تجد ما قلته لك".¹

أما الشرط الثاني: هو جلب المنافع للسكان و ذلك بقوله: "و أما جلب المنافع و المرافق للبلد فيراعى فيه أمور: منها الماء، بأن يكون البلد على نهر، أو بإزائها عيون عذبة ثرة، فإن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة. و مما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج و الضرع و الركوب، و لابد لها من المرعى، فإذا كان قريبا طيبا، كان ذلك أرفق بحالهم، لما يعانون من المشقة في بعده. و مما يراعى أيضا المزارع، فإن الزروع هي الأقوات. فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، فإن الحطب أسهل في اتخاذه و أقرب في تحصيله. و من ذلك الشجر للحطب و البناء، فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء و الطبخ، و الخشب أيضا ضروري لسقفهم، و كثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم، و قد يراعى أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية. إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول، وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات، و ما تدعو إليه ضرورة الساكن، و قد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعى ما هو أهم على نفسه و قومه و لا يذكر حاجة غيره كما فعل العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها "بالعراق" و "إفريقية"، فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم، من مراعي الإبل و ما يصلح لها من الشجر و الماء و الملح، و لم يراعوا الماء، و لا المزارع، و لا الحطب و لا مراعي السائمة من ذوات الظلف، و غير ذلك، "كالقيروان" و "الكوفة"، و "البصرة" وأمثالها، و لهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية...".²

و على هذا الأساس فإن الحاكم يختار المكان الأنسب لمدينته الذي يضمن من خلاله لساكن أو الرعية مقاصد الشريعة الإسلامية، و "ابن خلدون" وصل إلى هذه الاستنتاجات من

1 - عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 785، 786.

2 - نفسه.

خلال التجارب التي مرت عليه في تجوله بمدن المغرب الإسلامي، و هو ما يؤكد أن اختيار مواقع المدن لم يكن عشوائي بل على أسس و قواعد تضمن للسكان مقاصد الشريعة، و يساعد على توسع خططها و تطور عمراتها.

و أفرد لنا "ابن خلدون" شرطان وجب توفرهما بالمدن الساحلية ارتبطت بتوفير الأمن، و ذلك بقوله: " مما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر، أن تكون في جبل، أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد، تكون صريخا للمدينة متى طرقت العدو، و السبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية، و لا موضعها متوعر من الجبل، كانت في غيرة للبيات، و سهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها و تحيفه لها، لما يأمن من وجود الصريخ لها، و أن الحضرمي المتعودين على الدعة قد صاروا عيالا و خرجوا عن حكم المقاتلة، و هذه "كالإسكندرية" من المشرق، و "طرابلس" من المغرب"، و "بونة" و "سلا".

ومتى كانت القبائل و العصابات متوطنين بقريها، بحيث يبلغهم الصريخ و النفير، و كانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في الهضاب و الجبال و على أسنمتها، كانت لها بذلك منعة من العدو و يئسوا من طروقها، لما يكابدونه من وعرها، و ما يتوقعونه من إجابة صريخها. كما في "سبة" و "بجاية"، و بلد "القل" على صغرها، ففهم ذلك و اعتبره في اختصاص "الإسكندرية" باسم الثغر من لدن الدولة العباسية، مع أن الدعوة من ورائها "برقة" و "إفريقية"، و إنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها، و لذلك و الله أعلم كان طروق العدو "للإسكندرية" و "طرابلس" في الملة مرات متعددة و الله تعالى أعلم¹.

و يقول "ابن القاضي": " حكى عن الحكماء أنها قالت: لا تستوطن إلا بلدا فيه سلطان حاضر، و طيب ماهر، و نهر جار، و قاض عدل، و عالم عامل، و أسواق قائمة،

1 - عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 785، 786.

و قالت الحكماء أيضا: أحسن المدن هي التي تجمع خمسة أشياء: نهر جار، و محرث طيب، و حطب قريب، و سور حصين، و سلطان قاهر، إذ به صلاح أهلها و تأمين سبلها".¹

و إذا نظرنا بعمق إلى المسائل التي وردت في أفكار و تحليل العلماء المسلمين لوجدنا أن المقصد من هذا كله هو شرح و التعريف بمقاصد الشريعة الإسلامية (حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ المال، حفظ العقل، حفظ النسل)، و هذه الكليات ليست مقتصرة على سلطان فقط بل هي واجب على كل فرد مسلم، حيث يسعى إلى تحقيقها من باب كلكم راع و كل راع مسؤول على رعيته، و هذه القواعد التي أسسها المسلمون للمدن كفلت الاحتياجات و الاحتياطات لحياة إسلامية مستقرة بالإضافة إلى النظرة العضوية لكيان المدينة الإسلامية فهي بجملة دارا واحدة، و يكشف هذا التناول عن أن تخطيط المدينة الإسلامية اهتم بالجوانب العمرانية و الاقتصادية و الاجتماعية.

لقد كان الرسول صلى الله عليه و سلم هو أول من أسس هذه القواعد و الأركان التخطيطية، ثم فعل الراشدون من بعده خاصة "عمر بن الخطاب" رضي الله عليه في المدن التي تأسست في عهده، ثم إليها اهتدى الأمراء و حكام البلاد الإسلامية.²

2 - 2 - آراء المستشرقين حول المدينة الإسلامية:

لو أحصينا عدد ما كتب عن المدينة الإسلامية خلال الفترة الإسلامية أو الفترات الحديثة من المؤلفين المسلمين لوجدناه لا يمثل إلا جزءا ضئيلا مما كتبه المؤلفون الأجانب، و الأكثر من هذا فإن هذه الدراسات لم تكن سوى دراسة تاريخية لهذه المدن أو تلك دون الاهتمام بوصفها مقارنة بالمدينة القديمة، و الوسيطة و المعاصرة و دون الاهتمام بفلسفتها في العمران و بمقوماتها و عناصر تكوينها و وظيفتها.³

1- ابن القاضي أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت: 1065هـ / 1654م)، جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار منصور، الرباط، 1973م، ج1، ص 42.

2 - للمزيد من التفاصيل حول المدينة الإسلامية و عمارتها أنظر كذلك: - توفيق احمد عبد الجواد، تاريخ العمارة و الفنون الإسلامية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1970 م، ص 30.

3 - عبد الجبار ناجي، "المدينة العربية الإسلامية في الدراسات ...، ص 136.

في الوقت الذي نجد فيه الدراسات الأجنبية على رغم من قصورها و نواقصها تناولت المدينة الإسلامية من جميع مناحيها التاريخية و أهميتها، و موضعها في حركة التمدن، و تركيبها الأثري و الجغرافي، و وظيفتها، و أن موضوع التمدن الإسلامي قد نال اهتمام واسعاً عند المؤلفين الغربيين منذ تقريباً الحقبة الأولى من القرن العشرين (الفترة الإحتلالية للبلاد الإسلامية)، و كما هو الحال بالنسبة للدراسات الاستشراقية بصورة عامة في عدة ميادين، كما لعب ضباط الجيش الاستعماري و جنوده دوراً هاماً في وضع دراسات حول المدينة و التمدن الإسلامي، و كان القصد من ذلك الإحاطة بالمظاهر الحضارية للمجتمع الإسلامي و تراثه المادي، و لامادي لمعرفة أسباب الضعف و الهوان الذي يعيشه المجتمع حالياً، و سبب تأخره عن الركب الحضاري و كيفية السيطرة عليه، و غرس فيه روح الانهزامية و ضعف أمام الأروبي منقذ المسلمين من الجاهلية القائمة.

تعد المدرسة الفرنسية¹ من أهم المدارس التي اهتمت بالمدينة الإسلامية، خاصة مدن الغرب الإسلامي و من جوانبها السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية، و من حيث مقوماتها و خصائصها، و يمكن تقسيم هذه الآراء إلى اتجاهين متباينين، فالأول كان إيجابياً علمياً انطلق من عدة إشكاليات من أهمها: هل للمدينة الإسلامية وحدة في تركيبها؟ و هل تأثرت بالمدينة الهلينية، و اليونانية، و الرومانية؟. و لكنه كذلك لم ينصف المسلمين، و أنكر عليهم معرفتهم بالتطور المدني، و معرفتهم لفن تخطيط و تنظيم المدن.

من أشهر الباحثين² الذين اهتموا بدراسة المدينة الإسلامية نجد "لويس ماسينيون"، حيث ينفي معرفة المسلمين لفن تخطيط و تنظيم المدن، و ربط ظهور هذا العلم بالفترة الحديثة، و ذلك

1 - اعتمدنا في هذا العنصر على الدراسات الفرنسية لكونها الأكثر اهتماماً بمدن المغرب الإسلامي، كذلك جل الأبحاث كانت باللغة الفرنسية، و هذا ما سهل لي الأمر من حيث جمع المادة العلمية، و هذا لا يدل أن الباحثين المستشرقين من غير المدرسة الفرنسية لم يهتموا أو يكتبوا على المدينة و التمدن الإسلامي، بل نجد عدة كتابات باللغة الإنكليزية و لكنها أخذت الطابع الفرنسي و سارت في منحاه، كما اعتمدت على دراسة عبد الجبار ناجي التي استفدت منها كثيراً خاصة من حيث المادة العلمية و تحليله القيم من خلال معالجته لهذا الموضوع، قام بنشرها في مجلة "المورد".
للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الجبار ناجي، "المدينة العربية الإسلامية في الدراسات ...، ص 136، 170.

2 - نفسه، ص 136.

بقوله: "...هذا العلم الحديث نسبياً المسمى بعلم تنظيم المدن. لقد انهمك العلماء عقب انتعاش علم الاجتماع في مجال التحقيقات حول المجموعات البشرية، بتأليف علم المدينة، سواء من جهة التوزيع الجغرافي لأعضاء المجموعات البشرية أو من جهة القواعد الخاصة التي تحكم حياة الناس المجتمعين ضمن نطاق مشترك..."¹.

تشير المصادر التاريخية إلى الأوضاع الاجتماعية التي كانت بالمدينة المنورة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه و سلم، حيث كانت نار الحرب و التطاحن بين أحياء "الأوس" و "الخزرج" لا تكاد أن تنطفئ إلا و أشعلها اليهود، و أمام هذا الوضع المشحون كان على الرسول صلى الله عليه و سلم أن ينظم شؤون المدينة و قد كان، فبدخوله إليها صلى الله عليه و سلم عمل على المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار، و بين المسلمين عامة من أهل المدينة، و هذا من باب قوله صلى الله عليه و سلم: "تآخوا في الله أخوين أخوين"، و يقول في ذلك "ابن كثير": "...و مستنده في ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض، و ليتألف قلوب بعضهم على بعض..."². ثم و ضع ما أصطلح عليه عند علماء السيرة النبوية بدستور المدينة، ينظم من خلاله الحياة الاجتماعية، و يضبط حقوق المسلمين، و حقوق أهل الذمة، و يضمن التعايش في سلم و وأمن لكل الساكنة. و المتمعن في متن هذه الوثيقة يرى أن المبادئ و حقوق الإنسان التي يتبجح بها الغرب حالياً، قد عرفها المسلمين قبل ذلك بقرون على عهد الرسول صلى الله عليه و سلم³.

-
- 1 - لويس ماسنيون، "الهيئات الحرفية و المدينة الإسلامية"، مجلة المورد، ترجمة: أكرم فاضل، م2، العدد 3، سبتمبر 1973م، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1973م، ص 11.
 - 2 - إسماعيل بن كثير الدمشقي (توفي: 774 هـ/1372م)، البداية و النهاية، تحقيق علي محمد معوض عادل أحمد عبد الموجود، ج1، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ / 2003م، ج2، ص355، 356.
 - 3 - لمطالعة هذه الوثيقة أنظر: - ابن كثير، المصدر السابق، ج2، ص353.

و عند إقطاعه القطاعات¹ عمل الرسول صلى الله عليه و سلم على جمع أهل البيت الواحد و مواليتهم في موقع واحد، كما تجنب التماس بين القبائل التي كانت بينها حروب و شحناء في الجاهلية، و هذا من باب ضمان الأمن و الهدوء في المدينة. و يعزز هذا القول ما ذكره "محمد عبد الستار عثمان" بقوله: " و يشير هذا النص إلى أن الرسول أقطع القطاعات للأشخاص، و اتجه إلى الجمع بين ذوي القرى في موضع واحد... و هو أمر يوضح أن المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم تضمنت خططاً عدة، و كل خطة يقطنها أفراد ينتمون إلى قبيلة أو عشيرة..."².

كما أشارت كتب الحسبة إلى دور المحتسب في مراقبة نظافة المدينة و السهر على تطبيق التشريعات المتعلقة بالتنظيم العمراني، كما أشارت إلى وظائف أخرى متعلقة بتنظيم و تسير المدينة، و لعل أبرز هذه الكتب رسالة "ابن عبدون" حيث جاء فيها: "... و يجب أن لا يكون صاحب المدينة إلا رجلاً عفيفاً، فقيهاً شيخاً، لأنه في موضع الرشوة و أخذ أموال الناس، و ربما فجر إن كان شاباً شريفاً. و يجب على القاضي أن يستخلفه في بعض الأيام و يطّلع على حكمه و سيرته. و يجب له أن لا ينفذ أمراً من الأمور الكبار إلاّ أن يعرّف القاضي و السلطان بذلك."³.

وقد ذهب "لويس ماسينيون" عند تأصيله للمدن المسورة أو القلعة المحصنة أن هذا النموذج كان موجوداً في الحضارات القديمة و ليس ابتكار المسلمين، و يبدو أنه لم يقف عند

1 - يقول "ياقوت الحموي": فلما قدم الرسول صلى الله عليه و سلم من مكة إلى المدينة مهاجراً أقطع الناس الدور و الرباع، فخط لبني زهرة في ناحية من مؤخرة المسجد فكان لعبد الرحمن بن عوف الحصن المعروف به و جعل لعبد الله و عتبة ابني مسعود الهذليين الخطة المشهورة بهم عند المسجد و أقطع الزبير بن العوام بقيعاً واسعاً... فكان الرسول صلى الله عليه و سلم يقطع أصحابه هذه القطاعات فما كان في عفا من الأرض فإنه أقطعهم إياه و ما كان من الخطط المسكونة العمرة فإن الأنصار وهبوه له فكان يقطع من ذلك ما شاء. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ياقوت الحموي (574هـ-1178م/626هـ-1228م)، معجم البلدان، طبعة بيروت، دار صادر و دار بيروت لنشر، لبنان، دون سنة الطبع، ج5، ص86.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص48.

3 - محمد بن أحمد بن عبدون التجيني، رسالة في آداب الحسبة و المحتسب، تحقيق: ليفي برونفسال، منتجة للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، م2، 1955م، ص17.

كتب الجغرافيين المسلمين، حيث تطلعنا كتاباتهم عند تناولهم للمدن الإسلامية أن جلها ممن كانت مسورة تعود إلى الفترة القديمة، أما المدن التي بنيت أو أنشأها المسلمون فضربوا عليها السور لصد الهجمات المعادية، و ذلك من باب حماية الساكنة و تلبية لمقصد من مقاصد الشريعة "حفظ النفس"، و قد أهتم المسلمون ببناء الأسوار كما سوف نشير إليه في الفصل الخامس، و لكن "لويس ماسينيون" ينكر عليهم ذلك بقوله: " فبالرغم من أن المجتمع الإسلامي مجتمع محارب فليس بوسعنا أن نقول أن المدينة الإسلامية لا تعبير السور اهتماما أو بعض الاهتمام..."¹

و من الأدلة و الأمثلة الكثير ما يمكن أن نفند به ما ذهب إليه "لويس ماسينيون" في هذا الباب، كما يمكن أن نشير أن إحياء الأرض أو ما يعرف عند المهندسين المعاصرين بـ"مخطط شغل الأرض" "plant d'occupation de sol" لم يكن اعتباريا بل تشرف عليه السلطة الحاكمة، فهي التي تخصص الأراضي الصالحة للتعجير، و يشترط في ذلك عند المسلمين أن تكون غير صالحة للزراعة، تأسيا بالرسول صلى الله عليه و سلم، حيث كان عليه الصلاة و السلام المسؤول الأول عن توزيع الأرض، و توطين الناس في المدينة، حيث وهب له سكان المدينة كل الأراضي البور التي لا يصلها الماء يفعل بها ما يشاء، فجعلها عليه الصلاة و السلام للمهاجرين و الوافدين إلى المدينة من أجل بناء الدور و المنشآت العمرانية من مساجد و أسواق.²

ركز "لويس ماسينيون" كذلك على الحراك التجاري و الاقتصادي و علاقته بتخطيط المدينة الإسلامية، حيث ذكر أن المدينة الإسلامية سواء بالشرق أو المغرب الإسلامي تركز على أربعة مؤسسات اقتصادية، أولها المركز الخاص بالصراف و يعبر عنه بالمنظور الإسلامي ببيت مال المسلمين، وهو ثابت و يعتبر مركزا مهما، ويوجد حوله مكان جمع الضرائب (أموال الزكاة، و الصدقات، و أموال الأوقاف)، و دار الضرب (دار السكة) و المحتسب، و يوجد في هذا المركز كذلك التجار و الحمالين بسبب وجود سوق الدلالة، أما ثانيهما فهو القيصرية، و الثالث سوق

1 - لويس ماسينيون، المرجع السابق، ص 12.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 48.

الغزل، و في هذا السوق يتواجد أصحاب الحرف التي تحتاجها النساء اللواتي يجلبن ما لديهم من غزل للبيع أمثال القصابون و الخبازون، و الرابع الجامعة التي تكون اعتياديا ملتصقة أو مجاورة للمسجد الجامع، وتتوزع ضمن هذه المراكز الأربعة النقابات فكل نقابة تحتل سوقا خاصا بها. أسس "لويس ماسينيون" أقواله هذه من خلال دراسته لمدينة "فاس"، و مدينة "بغداد"، و أسقطها على جميع المدن الإسلامية حيث يقول: "...و قد أتيح لي بادئ الأمر في "فاس"، و بعد ذلك في "بغداد"، و عقب هذا في المدن الإسلامية الأخرى، في "الشام" و "القاهرة"، أن أدرس توزيع الهيئات الحرفية في مختلف المدن الإسلامية... هناك عدد من المراكز الثابتة في المدينة الإسلامية، فالموضع الأول المستقر هو موضع الصرافة، ذلك أن الإسلام ولد في فترة كانت النقود موجودة فيها، فانطلق من مبدأ الصرافة و موازنة النقود لإنعاش الحركة التجارية..."¹، ثم تكلم على السوق وموقعه في مركز المدينة الإسلامية، و كان من الضروري وجود بيت مال المسلمين، من أجل جمع أموال الخراج و الزكاة، و الضرائب و المكوس. و قد أشار إلى وظيفة المحتسب أو مراقب السوق بقوله: "... و هو مراقب الأسواق، المحتسب² الذي يتحقق من الموازين المستعملة، و يراقب سير العدالة في المبادلات المصرفية..."³.

أما المركز الثاني في المدينة الإسلامية عند "لويس ماسينيون" يسمى "القيصرية" و يصفها بقوله: "القيصرية هي مكان مقفل له أبواب غاية في الصلابة، على هيئة سوق فرنسية كبيرة تحفظ فيها البضائع الأجنبية و الذخائر الثمينة للحرف المختلفة... هذا الموضع له مكان الصدارة في الترعع بجانب المؤسسة الأولى."⁴

أما المركز الثالث هو سوق "الغزل": " و هناك مركز ثالث مستقل عن المركزين السالفين هو سوق المغزولات، كما كانت تسمى في القرون الوسطى، إنها السوق التي إليها تحمل النساء

1 - لويس ماسينيون، المرجع السابق، ص 12.

2 - وظيفة المحتسب متأصلة في التاريخ التمدن الإسلامي، حيث ظهرت منذ دخول الرسول صلى الله عليه و سلم للمدينة المنورة. أنظر الفصل الثالث من الدراسة.

3 - لويس ماسينيون، المرجع السابق، ص 13.

4 - نفسه.

الغزل الذي هيأه ليعنه على الراغبين من المشتريين...طبيعي أن يوجد بجوار سوق "الغزل" باعة اللحم المشوي... و طهارة اللحم المطبوخ و الخبز المغموس بالزيت...¹.

أما المركز الرابع هو دار العلم و قدم من خلاله وصفا بعيدا لم يكن معهودا في الحضارة الإسلامية سواء عند المتقدمين أو المتأخرين، حيث تذكر المصادر التاريخية و كتب التراجم، و كتب المناقب عدد كبير من العلماء سبلوا أنفسهم لخدمة العلم و تعليم المجتمع، و كان مقصدهم في ذلك ابتغاء وجه الله. و يذكر "ماسنيون" هذا المركز بقوله: " هناك مركز رابع أرقى هو دار العلم، و هي تقع بصورة عامة قرب المسجد، و أستطيع أن أدخلها في حظيرة الحرف، لأنكم سترون حين نتكلم عنها في الخاتمة طابعها التجاري المحض، إنها تجارة العلم السائدة بين الطلاب و الأساتذة...²"

ويذكر "عبد الجبار ناجي" من خلال ما تطرق إليه "ماسنيون" بقوله: " و ما يمكن أن نشير أن البحث الذي قدمه "ماسنيون" لم يعتمد في تقسيمه لخصائص المدينة الإسلامية على معطيات طبوغرافية حيث أشار في دراسته إلى علاقة الأسواق بالنقابات، أما الملاحظة الثانية هي من خلال قوله أن المدينة الإسلامية منذ القرن الثاني للهجرة التاسع الميلادي شهدت وجود نقابات و مؤسسات حرفية، و أن وجودها يرتبط "بالقراطة"، و هذا التأكيد على دور النقابة ينطلق من تركزه على أن المدينة الإسلامية كانت مدينة حقا على اعتبار أن النقابة حسب المفهوم الإستشراقي تعتبر من أهم المؤسسات التي تتصف بها ، وهو في الوقت ذاته يعطي عدد من الأدلة التاريخية لتأكيد ذلك، منها إشارته إلى رسائل إخوان الصفا و خاصة رسالتهم حول تمجيد العمل و تكريمه ومنها اختلاف مكانة النقابة في مصر زمن الفاطميين عنه في العراق زمن العباسيين³.

1 - لويس ماسنيون، المرجع السابق، ص14.

2 - نفسه، ص15.

3- للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الجبار ناجي، "المدينة العربية الإسلامية في الدراسات ...، ص 136، 170.

و يبدو كذلك أن البحث الذي قدمه "ماسنيون" بدا متأثرا بالمدن الإسلامية في الفترة العثمانية ، حيث كان هذا النظام سائدا إبان هذه الفترة ، و يعرف في مدينة "الجزائر" بإسم الجماعات الحرفية¹.

لقد فتح "ماسنيون" مجالا واسعا للبحث حول تطور المدن الإسلامية من خلال ربطها بنظام النقابات، و من بين الباحثين المستشرقين الذين ساروا على منحاه نجد "برناد لويس" الذي قام بدراسة حول النقابات الإسلامية من خلال تتبع أدورها و فعاليتها منذ القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي فصاعدا، واعتمد على بعض الدراسات التركية الحديثة التي تناولت النقابات بالأناضول في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، حيث النقابات هناك كانت تحمل نفس نظام الدرجات الذي اشتهر في التنظيم "القرمطي"².

كما قام "أتجر"³ "Ateger" بتتبع المؤسسات الحرفية منذ الفترة الإسلامية في تونس مع وضع إسقاطات تاريخية على الفترة الحديثة.

و من بين الباحثين الذين ساروا في هذا الاتجاه كذلك نجد الأخوين "وليم" و "جورج مارسيه" "Marçais"، حيث اهتموا كثيرا في كتاباتهم بالبيئة و الموقع الطبوغرافي للمدن الإسلامية، و كيف تأثرت المدينة الإسلامية بهذه العوامل في تخطيطها و عناصرها المعمارية، و مواد البناء، و قد شملت كذلك بحثهما الجوانب الحضارية للمدينة الإسلامية، حيث ركز "وليم مارسيه"⁴ على الطابع الذي تميزت به المدينة العربية الإسلامية، فالإسلام لم يظهر إلا في مجتمع متمدن و يقول إن المدينة ضرورية في الإسلام لتطبيق الشعائر الإسلامية لاسيما الصلاة الجامعة ففي المدينة يجد المرء فضائل الإسلام المتمثلة بالمسجد الجامع، و المدارس الدينية، و في المدينة

1 - عائشة غطاس، الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر (1700 - 1830م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2000م، 2001م.

2 - عبد الجبار ناجي، "المدينة العربية الإسلامية في الدراسات ...، ص 138.

3 - Ateger, **Les corporations tunisiennes**, as cited by B. Lewis, Paris 1909, P 21.

4 - Marçais, W. **L'Islamisme et la vie urbaine**, in comptes rendus des

Séances, Académie des inscriptions et belles lettres, 1928, P 86, 100

يبرز التوزيع الطوبوغرافي للسكان و المقبرة في خارج سور المدينة، أما "جورج مارسيه"¹ فقد كرر الأفكار ذاتها و الرامية إلى إظهار أثر الإسلام في المدينة و إبراز وحدة المدينة الإسلامية و عناصر تشابها، حيث أفرد لنا في بحوثه ظروف نشأة المدينة الإسلامية ووظيفتها، واهتمام مؤسسيها في تهيئة كل الظروف المساعدة على أعمارها، وأنهم لم يهتموا أي جانب ففكروا في مسألة جلب و تصريف المياه و تجهيزه للبيوت و المساجد، كما أشار إلى تقسيم المدينة الإسلامية حيث وضع ذلك في صنفين تلك التي كانت الفتوحات الإسلامية سببا في وجودها، كما هو الحال في الأمصار الإسلامية التي لم تكن موجودة سابقا ("الكوفة"، "البصرة"، "واسط"، "الفسطاط"، "القيروان"، "بغداد"، "فاس".....)، و الأخرى التي كانت أصلا موجودة قبل الفتح الإسلامي وكانت تتمتع بمكانة مرموقة في الفترة القديمة في عالم التمدن منذ الفترة اليونانية و الرومانية و البيزنطية ("دمشق"، "الإسكندرية"، "تلمسان".....)، فوجود الأمصار الإسلامية كان رد فعل و انعكاس لحاجات ملحة فرضتها عملية الفتح الإسلامية، و يقول في ذلك: " إنَّ المسلمين أسسوا مدن مستقلة عن النوى القديمة في المشرق و المغرب الإسلامي، و أسسوا مدن جديدة عرفت تطورات أكيدة منذ تأسيسها إلى يومنا هذا مثل "تونس" و "فاس" و "مراكش"، و أن هذه المدن خضعت في أصلها إلى حاجات لم يكن مؤسسها مدركا لأهميتها"².

يركز "مارسيه" كذلك على التوزيع السكان الذي يقول عنه بأنه يتصف بالعزلة و الانفصال، فالعزلة الاجتماعية تعتبر حسب رأيه أهم سمة في تكوين المدينة السكاني، ويشير بعدها إلى أن السوق مركز الحياة التجارية حيث يقع حول المسجد الجامع، فيذكر الأسواق الموجودة في هذه المنطقة كباعة الكتب و مجلدتها، و إلى جوارهم صانعي الأحذية (الإسكافيون) و النجارين و الخياطين ، و صناعة السجاد، بعد ذلك الدباغين و الصباغين،

1 -Marçais. G. **La conception des villes dans L'Islam**, in Revu d'Alger vol 11, 1945, P 517, 533.

2 - Marçais.G. **Considération sur les villes musulmanes et notamment sur le rôle du Mohtasib**, recueil de société Jean Bodin pour l'histoire comparative des institutions, VI, la ville ; Paris, 1883, p250.

و بالقرب من مدخل المدينة نجد باعة السروج و الصغارين، و إلى جانب السوق هناك السور و المقبرة، و أما داخل المدينة يتصف بوجود شارع أو اثنين يقسم المدينة إلى عدة محلات، و هو يستشهد بعدد من المدن بالمغرب الإسلامي أمثال "فاس"، و "تلمسان"، و "سالال"¹، و الواقع أن تصور "مارسيه" للأسواق المجاورة للمسجد الجامع متأثر أيضا بما هو موجود في بعض المدن بالمغرب الإسلامي.

و من المؤرخين كذلك الذين اهتموا بدراسة المدن الإسلامية نجد "موريس لومبارد" حيث خصص في كتابه فصلا مسهبا عن الإسلام و التمدن، تطرق فيه إلى مدن المغرب الإسلامي مثل "القيروان"، و "فاس" و "تلمسان" و "المهدية"، كما تعرض إلى بعض المدن السورية و العراقية و الأندلسية زمن الفتح الإسلامي، و قد أدلى بآراء إيجابية بالنسبة لعلاقة الإسلام بالتمدن كما أنه أشار إلى أن تقدم التمدن الإسلامي كان أكثر بعدا و تأثيرا من التمدن الروماني وأنه يضا هي التطور و التمدن في الفترة الهيلينية و فترة نمو المدن في أوروبا في الفترة الحديثة، كما ذكر أن المغرب الإسلامي قد شهد خلال الفترة الممتدة من القرن (2هـ - 8م / 5هـ - 11م) ظروفًا و تطورات عامة شجعت كثيرا على النمو التمدني، إذ تأسست مدن جديدة و عديدة في هذه المنطقة².

و من المؤرخين من اهتموا بدراسة المدينة الإسلامية و أنصفوها، و قدموا في ذلك أدلة علمية القائمة على الاستطلاع و دقة الملاحظة، و المقارنة البناءة نجد "أندرية ريمون" من خلال كتابه الموسوم بـ "المدن العربية الكبرى في العصر العثماني"، حيث استهل مقدمته في نقد الدراسات السابقة التي تناولت المدينة الإسلامية بقوله: "و لم تكن المسألة تتعلق بمحاولة دراسة هذه المدن عن طرق تطبيق جداول تفسيرية أجنبية وضعت للمدن الغربية، و لا تطبيق مقولات "ماكس قيبر" الأمر الذي قد يؤدي إلى الحكم على التعمير العربي الإسلامي بالسلب لأنه ليس التعمير الخاص بالعهود القديمة، و لا بالعصور الوسطى و اعتباره في النهاية بأنه غير حضري،

1 - Marçais, G. **L'urbanisme musulman**, in Mélanges d'Histoire et D'Archéologie de l'occident musulman, T1, 1957, P219 . 231.

2 - عبد الجبار ناجي، "المدينة العربية الإسلامية في الدراسات ... ، ص 145.

و هي نتيجة مضللة توصل إليها "سوفاجيه"، و العديد من الباحثين الذين عكفوا على دراستها...¹.

تناول "أندريه ريمون" في كتابه التطور العمراني للمدن الإسلامية في العصر الحديث، تحت راية الخلافة العثمانية، من أشهرها مدينة "القاهرة" و مدينة "دمشق" و مدينة "حلب" و مدينة "بغداد"، و مدينتا "تونس" و "الجزائر" بالمغرب الإسلامي، و قسم كتابه إلى ستة فصول، تناول فيها العمران الإسلامي، حيث تناول العمران السياسي من خلال كلامه على الفتح العثماني و انتشاره في البلاد الإسلامية، و مراحل السياسة التي مر بها، و العمران الاجتماعي بتناوله للحياة الاجتماعية داخل المدن و علاقات التي كانت بين سكان المدن و مجموعات البشرية الوافدة عليها، أو مع سكان الضواحي، كما تطرق إلى العمران الاقتصادي من خلال كلامه عن المؤسسات الاقتصادية بالمدينة الإسلامية، و الوظائف المرتبطة بها، و المجموعات الحرفية و توزيعها في خطط و الأحياء، و دور التجارة في ازدهار المدينة الإسلامية، و أفرد في نهاية بحثه الأنماط السكنية، و الحياة الاجتماعية داخل الأحياء، كما أشار إلى الأقليات اليهودية و المسيحية داخل المدينة الإسلامية. و قد خلص في بحثه هذا أن المدن العربية في الفترة العثمانية و وصلت إلى قمة التطور الحضري، و التي استفادت منه أوروبا في العصر الحديث و المعاصر، و يؤكد ذلك بقوله: "...إن المدن العربية التي نعرفها، أو بالأحرى بقاياها الكائنة في أحياء هذه المدن القديمة، هي تلك التي ورثناها عن العصر العثماني..."²

1 - أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات و نشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1991م، ص6.

2 - نفسه، ص244.

أما الاتجاه الثاني¹ فيمثله عدد من الباحثين الذين قدموا آراء مخالفة لتلك، فقد أفردوا صورا معاكسة عن المدينة الإسلامية، و على رأسهم "سوفاجيه" Sauvaget حيث يقول: " أن المسلمين لم يكن لهم تخطيط و طراز في تخطيط و بناء المدن بل لم يكن هذا التخطيط إسلاميا بل قديما (يقصد هنا المدن السورية مثل "حلب" و "اللاذقية" و "دمشق")، و بأن المسلمين لم يضيفوا شيئا للمدن بل أبقوها على وضعها، و بأن ما أضافوه من خطط في هذه المدن قد أدت إلى اضطراب وحدتها و تشويه تركيبها الداخلي، ثم يخرج بنتيجة مفادها أن المدينة الإسلامية إن هي إلا تقليدا للمدن القديمة..."².

بينما أوضح "كارديت" Gardet³ أن المدينة الإسلامية خالية من المؤسسات الإدارية ولم تكن تتمتع بالاستقلالية، وأنه ليس هناك شعور بالمواطنة لدى الفرد المسلم (يقول الفرد العربي)، و من جهة أخرى أشار إلى نظرية "ماسنيون" و أبدى رأيا مؤيدا لوجود نقابات في المدن الإسلامية.

أما "بيرنيه" Pirenne فقد علل سبب انحطاط تجارة أوروبا عامة، و التجارة في البحر الأبيض المتوسط خاصة إلى الفتوحات الإسلامية (يسميها الغزو الإسلامي)، حيث يقول: " أن التقدم الإسلامي قد دمر أوروبا القديمة و وضع حدا لرخاء مدن البحر المتوسط..."⁴ و لم يقتصر تحليله على هذا فقط بل أشار أن اضطراب النقد بأوروبا راجع كذلك للفتوحات الإسلامية، و ظلت نظرية "بيرنيه" شائعة في كتابات أخرى للمستشرقين الذين اهتموا بدراسة المدينة الإسلامية واستغلت أيضا في مجال التمدن فقد أرجع مؤيدوها انخيار التمدن في الشام

1 - يرى من سار في هذا الاتجاه أن المدينة الإسلامية عشوائية لم تقم أسس علمية، حيث لم يروا في المدينة إلا مسالكها الضيقة، و تعددها و حاراتها الملتوية كالتواء المتاهة، و مساكنها المغلقة على نفسها، و لم يروا المشهد الحضري لهذه المدن. للمزيد من التفاصيل أنظر: - نور الدين بن عبد الله، العمارة التقليدية لمنطقتي توات الوسطى و القورارة بين ضوابط النص الديني و حدود الواقع، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2013م، ص 79.

2 - Sauvaget. J, **le plan de Laodicée sur mer**, in Bulletin d'Etude Orientales, 1934, P 99.

3 - L. Gardet, la city musulman, Paris , 1954 , p 259 , 260.

4 - H. Pirenne, Médiéval Cities, Princeton, 1925, P 112.

(خاصة منطقة الهلال الخصب)، و شمال إفريقيا إلى عملية الفتوحات الإسلامية أو المد الإسلامي.

ويعتبر كذلك "بلا نھول اكسفير" من أبرز الممثلين لهذا الاتجاه السلبي المعارض فكتابه "العالم الإسلامي" الذي افرد فيه الوضع الاقتصادي في القرن (2هـ / 8م) ينقسم عموما إلى أربعة فصول تشير جميعها إلى أنه كتاب في الجغرافية أكثر منه كتابا في التاريخ ، فضلا عن هذا فإنه حال نھائيا من الهوامش و المصادر غير انه ذكر في نھاية الكتاب قائمة بالمصادر لكل فصل، و المؤلف يشير فقط إلى المصادر التي استقى منها المعلومات التي تفيد وجهة نظره أمثاله "كسوفجيه" و "ويلرس" الذي كتب دراسة عن "أنطاكيا". لكنه من جانب الآخر يقلل من أهمية معلومات و آراء "ماسينون" و "بوتي"، و يتهم الأخير بأنه ركز على الأوصاف الظاهرية للمدينة، و لم يكثر لأهميتها التاريخية¹.

كما يرى "بلا نھول اكسفير" هي الفوضى في التخطيط، و عدم وجود أسس تخطيطية ثابتة فيها وأنها خالية تماما من أي وحدة تركيبية و هي ضعيفة التماسك على عكس المدينة الرومانية ومدن أوروبا في العصور الوسطى و أن المدينة الإسلامية خالية من المؤسسات. أما رأيه في طبيعة العلاقة بين الإسلام و المدينة فإنه يقول بأن الإسلام لم يفلح بأن يأتي بالبديل للمدن التي خضعت للفتوح (متأثر "بسوفجيه") و التي ورثت تمدنا متماسكا قديما، فل الإسلام عنده ببساطة قد قلد تلك المدن الموجودة، فالسوق "بازار" (Bazaar) ما هو إلا كولوندد (Colonnaded Avenue) و القيصرية ما هي إلا "البازيليكا" (Basilica) الرومانية، حتى الحمام هو "الثرما" (Therma) أي الحمام اليوناني القديم، و "بلا نھول" يرى أيضا بأن الإسلام لم يبتدع فكرة تقسيم المدينة إلى محلات فهي أوروبية الأصل. و بصورة مختصرة فإن الإسلام لم يؤثر أبدا على تكوين المدينة بل على العكس فإنه بإحلاله بعض الطوبوغرافيات يكون قد دمر شكلها القديم و هيأتها الموحدة فجاءت النتيجة عكسية من وجهة نظر التمدن. الإسلام لم يكن مشجعا أو دافعا إيجابيا لحركة التمدن إذ أن الشوارع في داخل المدينة كانت ضيقة و أدت إلى عرقلة فعالية الحركة، ويرى كذلك أن التأثير الوحيد للإسلام على المدينة يمكن

1 - عبد الجبار ناجي، "المدينة العربية الإسلامية في الدراسات ... ، ص 150.

أن تلمسه في بناء الدور، و يبدو أن "أكسفير" ردد دون تقصي أكثر للمعلومات التي أدلى بها "سوفجيه" المتصلة بمدينة "حلب" و بعض مدن "سوريا" و فاته أن مدينة حلب لا تمثل المجموعة الكبيرة للمدن الإسلامية التي أوجدها المسلمون، و الدليل على تناسيه و تغافله عن بعض الحقائق المسألة المتعلقة بنظرته إلى شوارع المدن إذ أنه اتهم فيها الإسلام بعدم استيعابه لحركة التمدن ولو رجع إلى رواية "الطبري" و "الماوردي" و كذلك كتب النوازل لوجد أوصافا و معايير قياسية دقيقة لا يجوز الإحلال بها كانت تتبع في تخطيط الشوارع الرئيسية منها و الفرعية ثم الأقل تفرعا.¹

إن أي حضارة ناشئة تستفيد من التراكم الحضاري للأمم التي سبقتها، و هذا ليس بغريب على الحضارة الإسلامية ما دام هذا الإنتاج الحضاري لا يخالف العقيدة الإسلامية، و لا يتصادم مع العرف المعمول به عند الشعوب التي دخلت في الإسلام، حيث أن حدود "الجزيرة العربية" منتشرة في المناطق التي كانت خاضعة لسيادة الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، وكانت مسرحاً لأغنى الحضارات وأكثرها رقياً، و من ثم ورث عن هاتين الإمبراطوريتين تقاليدهما المعمارية والعمرانية، التي كانت أصلاً ممتزجة بالتقاليد الفنية المحلية لمناطق نفوذهما، وكانت تسودها المدارس المعمارية والفنية الآتية:

– المدرسة الرومانية و البيزنطية:

كانت منتشرة في آسيا الصغرى (منطقة الأناضول) و "سوريا" و "فلسطين" و شرقي "الأردن"، و قد وقعت هذه المنطقة تحت التأثير الكلاسيكي نحو 1000 عام منذ عهد "الأسكندر الأكبر" حتى الفتح الإسلامي، و تأثرت بالتيار الهلينيستي، أي المحجرات التي كانت من بلاد الإغريق سواء من مدن آسيا الصغرى، أو جزر بحر "الإيجه"، أو مدن شبه جزيرة

1 - للمزيد من التفاصيل حول أهم الدراسات التي تناولت المدينة الإسلامية من وجهة نظرة المستشرقين أنظر: - عبد الجبار ناجي، المدينة العربية الإسلامية في الدراسات، ص 136.

"اليونان"، بداية من سنة 332 ق.م، و هي السنة التي احتل فيها الإسكندر الأكبر لمصر الفرعونية¹.

- المدرسة الفارسية:

كانت سائدة في العراق وفارس، وتأثرت هذه المدرسة بالفنون المعمارية والزخرفية المقتبسة عن المدرسة الراهدية (حضارات وادي الرافدين) التي كانت سائدة في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد.²

- المدرسة القبطية:

كانت منتشرة في "مصر"، وهي وريثة المدرسة المصرية القديمة، التي تجاوزت تأثيراتها الحدود المصرية، كما استفادت من فترة البطلمة و من المدرسة البيزنطية المبكرة.³

3 - المنظور التاريخي للمدينة بالمغرب الإسلامي:

مر تخطيط المدن بمراحل متعددة بدءا من مجرد كونها مجموعة مساكن عند منابع الماء في عصور ما قبل التاريخ ذات البعد التنظيمي الواضح و بخاصة في المناطق ذات الحضارات في "مصر" و "بلاد الرافدين" و "الشام".
و قد انقسمت المدينة في "مصر" عند قدماء المصريين من حيث الوظائف إلى مدن ملكية مثل مدن "منف"، و مدن إدارية و تجارية "أسيوط" و "أخميم"، و مدن حربية "هابو"، "حصن"، و مدن الموتى "سقارة"، و مدن عمالية "كاهون"، "خنت كاوس"، "تل العمارنه"، و أهم ملامح تخطيط مدينة تل العمارنه هو امتدادها على الضفة الغربية للنيل يخترقها ثلاث شوارع رئيسية واسعة نسبيا تمتد موازية للنيل و يتوسطها القصر الملكي وتتعامد عليها شوارع

1 - نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق القديم السياسي و الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي، دار الفكر، دمشق، سوريا، دون تاريخ الطبع، ص 90.

2 - أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم (مصر و العراق، سوريا، اليمن، إيران) مختارات من الوثائق التاريخية، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1963م، ص189.

3 - للمزيد من التفاصيل الحضارة المصرية القديمة أنظر: - نسيم واكيم اليازجي، الحضارات القديمة، ط1، منشورات دار علاء الدين، دمشق، سوريا، 2000م، ج1، ص 117.

عريضة، و تتجمع أحياء المدينة المختلفة حول القصور الملكية و المعابد و المباني الرسمية، كما تقع بيوت الطبقة الحاكمة و الغنية على الشوارع الرئيسية يحيط بها حدائق و ممرات.

أما في بلاد الرافدين فقد بدأ العمران المنظم سنة 4000 ق.م، و ظهرت مدن هامة مثل مدينة "أور"، "آشور"، "نينوى"، وأشهرها مدينة "بابل"، و كانت أغلب المدن ذات شوارع واسعة تنتهي ببوابات و محاطة بأسوار دفاعية.¹

و مع فترات التواجد الإغريقي في الشرق تم إنشاء مدن ذات التخطيط السائد لمدنهم فنجد مدينة "الإسكندرية" بمصر و التي بناها "الأسكندر الأكبر" ذات تخطيط شبكي وفق أفكار "هيبوداموس" الإغريقي، و التي تتحدد معالم مدينته حيث الشوارع تكون متعامدة لها محوران متعامدان يقع عند تقابلهما "الآجورا" (قلب المدينة) و بها السوق و سائر المؤسسات الإدارية، و الحمامات، و المسارح، و الملاعب، كما تبنى المعابد على الأجزاء المرتفعة من الجهة الشرقية نحو الشرق، أما تخطيط المساكن فهي عبارة عن غرف ذات فناء داخلي مربع أو مستطيل.²

أما في الفترة الرومانية فقد تم إنشاء مدن كاملة في المناطق المستعمرة في المنطقة العربية و شمال إفريقيا و هذه المدن تكاد تكون مدن رومانية متكاملة العناصر و التخطيط مثل مدينتي "تيمقاد" و "تيبازا" بالجزائر، و من خصائص المدينة الرومانية هو دمج المنطقة المقدسة و الآجورا "الإغريقية" في موقع واحد وهو "الفورم" بمركز المدينة و الذي يضم "الكوريا" مقر المجلس البلدي، و "البرليكا" كمنشأة دينية (الكنيسة)، كما يشمل سوق المدينة. و كان تخطيط المدينة الرومانية منتظم مكونا من شبكة من الشوارع المتعامدة بينها أقسام عبارة عن مربعات

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر:- احمد خالد علام، و آخرون، تاريخ تخطيط المدن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1993م، ص 28.

2 - للمزيد من التفاصيل حول تاريخ مدينة الإسكندرية و خططها أنظر:- فورستر (أ.م)، الإسكندرية تاريخ و دليل، ترجمة: حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2000م، ص 53. كذلك:- فوزي مكاي، تاريخ العالم الإفريقي و حضارته من أقدم العصور حتى عام 322ق.م، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1400هـ/ 1980م، ص 224، 228.

أو مستطيلات، و يوجد بها شارعان رئيسيان متعامدان بهما بوائك على الجانبين، و يحيط بالمدينة سور غير مقيد بطبوغرافية الأرض.¹

3 - 1 - المدينة الإسلامية أنموذجا نبويا:

كان إعادة تشكيل البناء المادي القائم على القيم الدينية في الدولة الإسلامية على قواعد جديدة، يمثل القاعدة العمرانية و الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية و العسكرية في بناء المدن الإسلامية، بعد ذلك أعيد تخطيط المدينة بعد الهجرة بمعايير حضارة الإسلامية الثابتة منها و المتغيرة، و كان سعي الرسول صلى الله عليه و سلم إلى تسمية المدينة متلازما مع اهتمامه صلى الله عليه و سلم بالكيان المادي للمدينة الإسلامية الأولى و هو في السياسة و الإدارة أبرزه الرسول صلى الله عليه و سلم من قبل أن يمكنه الله تعالى للمسلمين فقال عليه السلام: " أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم و ديارهم، أتسبحون الله و تقدسونه " ²، ليكون نواة لامتداد طبيعي للحضارة الإسلامية مع اعتبار القيمة العسكرية في إنشاء المدن فإن الرسول صلى الله عليه و سلم لما اختار المدينة موطنا للدعوة الإسلامية، التي كان القائمون بها لا يزالون قلة ضعيفة لم يكن من أجل مبايعة أهلها فحسب و لكن إلى جانب ذلك لموقعها الآمن من الناحية العسكرية من عدوان قريش و فارس على السواء، كذلك لازدهارها الاقتصادي لكونها بعد مكة مركزا تجاريا هاما، و لتفوقها عليها في الإنتاج الزراعي و أبار المياه.

و نتيجة لسياسة الرسول الاقتصادية الحكيمة اتجه جانب كبير من التجارة نحو المدينة، فتقدمت على مكة لأول مرة في تاريخها في هذا المجال و أخذت المساحات الواقعة بينهما وبين الطرق التجارية تمتد اتجاه الغرب مارة "بوادي العقيق"، و مسجد القبلتين، و في اتجاه الجنوب الغربي مارة غرب جبل "عير"، و هنا ظهرت أهمية موضع "بئر عورة" الذي أصبحت من ذلك الحين مركزا تجاريا هاما، و أنشئت بعض الجسور على وديان المدينة تيسيرا للمواصلات، و جدير

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - نعيم فرج، المرجع السابق، ص 20. كذلك: - تشارلز ورت، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة: رمزي عبده جرجس، مكتبة الأسرة، مصر، 1999م، ص 18، 31.

2 - أحمد فرج، السلطة الإدارية و السياسة الشرعية في الدولة الإسلامية، ط1، مؤسسة الإسرائ للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1414 هـ / 1993م، ص 15.

بالذكر أن الرسول صلى الله عليه و سلم تنبه إلى أهمية القناطر و المعابر، فشجع على إنشائها حتى تتصل شوارع المدينة، و كثرت في المدينة كذلك الأسواق، و مراد بها الشوارع التجارية، و انصرف إليها الناس من أهل المدينة و غيرهم، وزاد السكان زيادة كبيرة¹.

و بهذه الأسس التخطيطية و العمرانية التي أحدثها الرسول صلى الله عليه و سلم، و أدخلها في بناء المدن، أسس مدينة غير "يثرب" التي كان يعرفها العرب قبل الهجرة، و لقد اتبع الخلفاء الراشدون من بعده منهاج الرسول صلى الله عليه و سلم في تأسيس المدن الإسلامية خاصة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، و لم يختلفوا عنها إلا في أشياء قليلة كانت تفرضها بعض الحالات الناتجة عن الظروف الزمانية و المكانية، فقد تمسكوا جميعا بالقواعد الأساسية المرتبطة بالعوامل الحربية، أو السياسية، و الاقتصادية بجانب الشروط الأساسية التي يجب توفرها في كل موقع.

ومنذ بدأت الفتوحات الإسلامية شيد المسلمون عددا من المدن ، و كان ذلك ناتجا عن تطور عملية الفتح خاصة في عهد " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه، حيث أنشئت كقواعد عسكرية، التي تحولت فيما بعد إلى مدن، و كان لتأسيسها أثره في تطور عمارة المدن الإسلامية، و أولها مدينة "البصرة" التي أسسها "عتبة بن غزوان" سنة (14هـ / 635م)²، و "الكوفة" أسسها "سعد بن أبي وقاص" سنة (17هـ / 638م)³، و "الفسطاط" شيدها "عمرو بن العاص" (21هـ / 641م)⁴، ثم تأسست مدن في عهد الخلافة الأموية و من أبرزها "القيروان"

1 - للمزيد من التفاصيل حول التطور العمراني لمدينة رسول الله صلى الله عليه و سلم أنظر: - عبد الحميد عبد الستار، المرجع السابق، ص43.

2 - صالح أحمد العلي، "الأمصار في العراق الكوفة و البصرة في العهود الإسلامية الأولى"، في كتاب المدينة و الحياة المدنية، منشورات المجمع العراقي العلمي، بغداد، العراق، 1988م، ج2، ص34.

3 - هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط1، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1986م، ص 15.

4 - خالد عزب، الفسطاط، نشأة..الازدهار..الانحسار، ط1، دار الأفاق العربية، القاهرة، مصر، 1998م، ص 15.

أسسها "عقبة بن نافع" سنة (50هـ / 670م)¹، و مدينة "واسط" شيدها "الحجاج بن يوسف الثقفي" (83هـ / 702م)².

أضاف الأمويون الكثير من المرافق العامة للمدينة وتطور العمران بشكل ملحوظ في عهدهم، واتضح بالتخطيط السليم للمدن و الأبنية مثل منشآت الحكومية، ودور العلم، والبيمرستانات، والشرطة، والدواوين، و المساجد وغيرها. وكانوا يضعون هذه المرافق إما في المركز مع المرافق الرئيسية أو على طول الشوارع الرئيسية التي تربط الضواحي بمراكز المدن واتضحت بشكل منظم في "دمشق" كما شيّدوا القصور المميزة، وعرفت بروعة بنائها ونافتت دار الخلافة ودور الإمارة . أضف إلى ذلك سمح الأمويون للناس بالبناء في الأسواق فلم تعد أرضا فضاء بل أنها أصبحت مبنية والدكاكين ثابتة فيها وكانت بداية لإنشاء الأسواق الثابتة في العصور الإسلامية اللاحقة وتميز العصر الأموي بطراز من البناء وأسلوب انتشر في كافة البلاد الإسلامية وعرف بطراز البناء الأموي .

و أسس العباسيون مدينة "بغداد" شيدها الخليفة" أبو جعفر المنصور" (145هـ / 762م)³، كما أسست الدولة الفاطمية مدينة "القاهرة" (358هـ / 969م)⁴، كما تأسست بالمغرب الإسلامي عدة مدن⁵ منذ القرن الأول للهجرة، فما هي أهم المدن التي تأسست بالمغرب الإسلامي و ما أثر مدينة الرسول صلى الله عليه و سلم عليها؟.

3 - 2 - المدن بالمغرب الإسلامي:

1 - أبو القاسم محمد كزّو، **عصر القيروان**، ط2، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر ، سوريا، 1989م، ص 10.

2 - عبد الحميد عبد الستار، المرجع السابق، ص49.

3 - نفسه.

4 - نفسه.

5 -Hichem Djait, **Naissance de la ville islamique**, éditions : G.P maison neuve et laros , 5

75005 , paris

شهد المغرب الإسلامي حراكا عمرانيا كبيرا منذ بداية عملية الفتح الإسلامي، ثم في عصر الدويلات الإسلامية الناشئة به¹، وكانت كل دولة تسعى لبناء عاصمة لها تميزها عن بقية الإمارات و الدول التي سبقتها كما استفادت من المدن الأصيلة أو قرى صغيرة فمصرتها و توسع عمرانها و من أبرز هذه المدن نجد مدينة "القيروان" بالمغرب الأدنى و مدينة "تلمسان" بالمغرب الأوسط، و مدينة "فاس" بالمغرب الأقصى، حيث عرفت تطورا كبيرا عبر جميع الفترات التاريخية التي مر المغرب الإسلامي بها، فعرفت تأثيرات كبيرة في فن تخطيط المدن و في الأنماط البنائية منها المشرقية و منها الأندلسية لتمهد لنشأة أنموذجا جديدا عرف بالفن المغربي أو الفن المغربي الأندلسي. فكيف كانت نشأة هذه المدن و تطور عمرانها عبر الفترات التاريخية التي مرت بها؟.

1 - من المدن التي تأسست بالمغرب الإسلامي لتكون عاصمة لدولة، أو لنظام سياسي نجد مدينة المهديّة (303 هـ / 915 م) أسسها الفاطميون، و مدينة أشير(324 - 406 هـ / 935 / 1016م) شيدت من طرف الزيرين، و قلعة بني حماد (398هـ - 547هـ / 1008هـ - 1152م) عاصمة الدولة الحمادية، و مدينة مراكش عاصمة الدولة المرابطية و الموحدية. للمزيد من التفاصيل أنظر: - البكري، المصدر السابق، ص 60. كذلك: - عبد الرحمن بن خلدون (732 - 808هـ / 1332 - 1406م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، ط3، لبنان، 1967 م، ج6، ص 313. كذلك: - أبو القاسم حوقل (توفي: 367هـ / 977م)، كتاب صورة الأرض، مكتبة الحياة، لبنان (دت)، ص 90. كذلك: - مؤلف مجهول (عاش خلال القرن 6هـ / 12م)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ووصف مكة و المدينة و مصر و بلاد المغرب ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ص 170. كذلك: - أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت: 732 هـ / 1332 م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ص 305. كذلك: - محمد بن الاعرج حسيني السليماني، زبدة التاريخ و زهرة الشماريخ، ج2، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم: 3657د، رقم الميكروفيلم: 4779، الرباط، المملكة المغربية، ورقة 78. كذلك: - إدريس الهادي روجيه، الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 م إلى القرن 12م، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ج1، ص 99. كذلك: Bourouiba. R., Cite disparues, Tahert, Sedrata, Achir, Kalla des béni hammad ,SNED, Réghaia, Alger, 1982, p 78.

أ - مدينة القيروان:

اتخذ المسلمون منذ بداية الفتح الإسلامي للمغرب مدينة "برقة"¹ كقاعدة عسكرية لجيوشهم و منطلق نحو فتح المدن و القرى و نشر الإسلام بين القبائل البدوية، و ذلك منذ عصر "عمرو بن العاص" و"الي "مصر"، حيث فتحت "برقة" سنة (22هـ / 642م)، و صالح أهلها، و بقيت دار الإمارة لكل قادة الجيش الإسلامي إلى غاية عهد "عقبة بن نافع الفهري"². تمكن "عقبة بن نافع" من غزو "إفريقية" و افتتح الكثير من حصونها، و أثنى في قتل البيزنطيين و البربر، و اختط مدينة "القيروان" و ذلك سنة (50هـ / 670م).³

و تذكر المصادر التاريخية أنه في سنة (55هـ / 674م) قدم إلى إفريقية "أبو المهاجر دينار"⁴ خرب ما كان اختطه و بناه "عقبة بن نافع" "بالقيروان".¹

1 - برقة: الجزء الشمالي الشرقي من ليبيا من أكبر مدنها بن غازي، و طبرقة، و درنة فتحها المسلمون سنة (21هـ / 641م) بقيادة عمرو بن عاص، و كانت مركز للجيش الإسلامي إلى غاية الفتح العظيم بقيادة بن حسان بن نعمان للقيروان في الحملة الثانية. أنظر: - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 379.

2 - عقبة بن نافع: هو عقبة بن نافع الفهري، ولد قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بسنة، أبلى بلاء شديدا في جهاده بالمغرب الإسلامي، وهو أول من مصر الأمصار بإفريقية، و كانت القيروان أول مدينة إسلامية قي تاريخ الفتوحات الإسلامية بالمغرب الإسلامي. كان استشهاده رحمه الله بتهوذة سنة 62هـ / 682م، و يقول في ذلك ابن الأثير الجزري: " فلما وصل إلى طنبه، و بينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجا فوجا ثقة منه بما نال من العدو، وأنه لم يبق أحد يخشاه، و سار إلى تهوذة لينظر إليها في نفر يسير، فلما رآته الروم، و البربر طمعوا فيه، فأغلقوا باب الحصن، و شتموه، و قاتلوه، وهو يدعوهم إلى الإسلام فكسر عقبت بن نافع و أصحابه أجفان سيوفهم و تقدموا لقتال البربر، و استشهد من كان مع عقبة.. ". للمزيد من التفاصيل أنظر: - على ابن الأثير الجزري (555هـ - 1160م / 630هـ - 1232م)، الكامل في التاريخ، ط4، طبعة القاهرة، 1353هـ، ص 106.

3 - القيروان: الكثرة من الناس و معظم الأمر، و قيل هو موضع الكتبية، و هو معرب أصله كاروان، بالفارسية فأعرب، و هو على وزن الحيقطان. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور المصدر السابق، ج7، ص 257.

4 - مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري.

و في عهد "يزيد بن معاوية" عاد عقبة إلى "إفريقية" بعشرة آلاف فارس، و كان ذلك سنة (62هـ / 681م) و بدأ عمله من حيث تركه، فبدأ في تعمير "القيروان"، و أعادها إلى سابق عهدها، و جعلها موطنًا ومقرًا للمسلمين، فجدد البناء، و نقل الناس إليها، فعمرت و عظم شأنها، و اختط مسجدها الجامع و نصب قبلته، حيث أصبحت تقليدًا لمساجد المغرب الإسلامي، كان هدفه من هذا البناء أن يستقر بها المسلمون، إذ كان يخشى إن رجع المسلمون عن أهل "إفريقية" أن يعودوا إلى دينهم.²

بعد استشهاد "عقبة بن نافع" رحمه الله عين الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان" "زهير بن قيس البلوي" لاسترداد "القيروان" فكان له ذلك، ففي سنة (69هـ / 688م) سار نحو "إفريقية" (كان مرابطًا بمدينة "برقة")، و نزعها من أمير البربر "كسيلة"، و قضى عليه في موقعة "ممس"، و لكنه لم يرغب بالمقام "بالقيروان" و عاد إلى "برقة" و استشهد هناك رحمه الله في حربه ضد الروم.³

يبدو أن هذا الانهزام لم يؤثر على مدينة "القيروان" و لم يطلها الخراب و التدمير، حيث تشير المصادر التاريخية أن "حسان بن نعمان"⁴ عند قدومه إلى إفريقية دخل مدينة "القيروان" و سأل أهلها عن أعظم الملوك بإفريقية قدرًا قالوا: "صاحب "قرطاجنة" دار ملك إفريقية"،

1 - إبراهيم بن قاسم الرقيق (توفي: 420هـ / 1029م)، تاريخ إفريقية و المغرب، ط1، تحقيق: عبد الله العالبي الزيدان، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990 م، ص 23.

2 - عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1428هـ/ 2005م، ج1، ص 136، 137.

3 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - إبراهيم بن قاسم الرقيق، المصدر السابق، ص30.

4 - حسان بن نعمان الغساني: لما انتهى عبد الملك بن مروان من حربه مع عبد الله بن الزبير جهز جيشًا بقيادة حسان بن نعمان الغساني، و سير بهم في سنة (62هـ / 682م)، و تمكن من إفريقية و قرطاجنة، و دخل إلى عنابة، و لكن كانت الكاهنة على رأس جيش كبير من البربر مدعم من طرف الروم، فقاتلته و انتصرت عليه، وانسحب إلى غاية برقة، ثم عاود الكرة عليها فهزمها، و أمن سواحل إفريقية من هجمات الروم، و أسس مدينة تونس، و جعلها ثغر من ثغور الجهاد بإفريقية و أنشئ بها دارًا لصناعة السفن. مكث حسان بن نعمان ما يزيد على ثلاثين سنة بإفريقية إلى غاية سنة (89هـ / 708م)، حين خلفه موسى بن نصير. للمزيد من المعلومات أنظر: - ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص 372.

و هذا ما يدل أن المدينة لم تتعرض للخراب من طرف "البربر" و "البيزنطيين"، بعد استشهاد "زهير بن قيس" بل كانت موطننا لقبائل بربرية و بعض العرب المسلمين. و رغم انهزام "حسان بن نعمان" ضد جيش "الكاهنة" بقيت "القيروان" قائمة إلى غاية عودة الجيش الإسلامي من جديد بقيادة "حسان بن نعمان" و أعاد فتح "إفريقية" و قتلت "الكاهنة"، و دخل إلى "القيروان"، و قام بتحديد بناء مسجدها الجامع، و أحسن بناءه، و أقام بالمدينة و أصبحت مقر ولاية "إفريقية" يوجه منها شؤونها و يدير أحوالها، و قد عمرها المسلمون و أطمأنوا إلى أهلها¹. و لكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: هل "عقبة بن نافع" و من جاء من بعده وفقوا في اختيار موقع المدينة؟.

- موقع المدينة:

يبدو أن السبب الرئيسي لبناء مدينة "القيروان" مند عهد "عقبة بن نافع" هو تبليغ الدعوة الإسلامية، أي لهدف ديني و لهدف عسكري حربي، وهذا ما جعلها في موقعها قريبة من البربر بعيدة عن "البيزنطيين" الذين تحكّموا في ساحل "إفريقية".

هذا ما نستطيع أن نفهمه من تلك المناقشة التي حدث بها المؤرخون عما دار بين "عقبة بن نافع" رضي الله عنه و أصحابه في اختيار مكان القيروان و موضعها بالنسبة "للروم" و "البربر"، و ما قام به من ارتياد الأماكن حتى توصل إلى اختيار المكان المحقق لأهدافها، و عبر "المالكي"، و كذلك "ابن عذارى" بقولهما: " فقال له بعض أصحابه: قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين. فقال لهم: إني أخاف أن يطرقها صاحب "القسطنطينية" فيهلكها، و لكن اجعلوا بينها و بين البحر ما لا يدركه غزاة البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل فيخرج فيقيم في غارته إلى نصف النهار فلا يدركها منه غارة أبدا فإن كان بينهما و بين البحر ما لا يجب فيه التقصير، فأهلها مرابطون،

1 - للمزيد من التفاصيل حول أهم المراحل التاريخية التي مرت بها مدينة القيروان أنظر: - أبو القاسم محمد كزّو، المرجع السابق، ص 10.

و من كان على البحر فهم حرس لهم و هم عسكر معقود إلى آخر الدهر و ميتهم في الجنة، فاتفق رأيهم على ذلك...¹.

و من هذا تتجلى لنا الأسباب و العوامل التي جعلت "القيروان" تبعد عن البحر، و هذا ما عبر عنه "النويري" و أجمع عليه العديد من المؤرخون عن أثر قرب "القيروان" من البربر في الداخل مما أدى إلى انقياد كثير منهم للإسلام " أيتها الحيات و السباع نحن أصاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ارحلوا عنا إنا نازلون و من وجدناه بعد ذلك قتلناه، فنظر الناس في ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها و الذئاب تحمل أجراءها، و الحيات تحمل أولادها، فأسلم كثير من البربر"²، و يؤكد "ياقوت الحموي" ذلك بقوله: "فحمل ذلك كثيرا من البربر على الإسلام..."³.

كما روعي في اختيار موقعها سهولة إمدادات الجيش من ناحية الدواب التي تحمله آنذاك،⁴ و هذا ما عبر عنه "عقبة بن نافع" عند مخاطبة أصحابه: "قربوها من السبخة. فقالوا: نخاف أن تهلكتنا الذئاب و يهلكنا بردها في الشتاء و حرها في الصيف. فقال: لا بد لي من ذلك لأن أكثر دوابكم الإبل و هي التي تحمل عسكرنا و البربر قد أتصروا و أجابوا النصارى إلى دينهم، و نحن إذا فرغنا من أمرنا لم يكن لنا بدا من المغازي و الجهاد، و نفتح الأول منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر و النصارى. فأجابوه إلى ذلك فمال إلى موضع بناء المدينة على ساحل واديها."⁵

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي (توفي: 453هـ/1062م)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقية، نشره: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1951م، ص6،7. وكذلك: - ابن عذارى محمد المراكشي (توفي: 695هـ / 1295م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق: ج. س كولان و إيفي برونسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983م، ج1، ص20.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - النويري، المصدر السابق، ص142، 143.

3 - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4، ص421.

4 - سمير محمد زيتون، القيروان و دورها في الحضارة الإسلامية، ط1، دار المنار للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1408هـ/ 1988م، ص75.

5 - ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص20.

يشير "المقدسي"¹ أن موقع مدينة "القيروان" لا يتوفر فيه الماء و هو من الأمور الضرورية التي يجب توفرها لإنشاء المدن، و قد تغلب على ذلك فيما بعد عند اتساع عمرانها بإنشاء المواجهل لخزن المياه، و يقول في ذلك "الحميري": "... وخارج مدينة "القيروان" خمسة عشر ماجلا للماء هي سقايا لأهل "القيروان"، منها ما بني في أيام "هشام بن عبد الملك"، و في أيام غيره من الخلفاء، و أعظمها شأنًا و أفخمها منصبا المواجهل الذب بناه "أحمد بن الأغلب" بباب "تونس" من "القيروان"..."²، و يبدو أن قلة الماء في "القيروان" كان بالنسبة لماء الشرب، أما الماء اللازم للاستعمال فقد أنشئت الآبار للحصول عليه كبئر "أم عياض"، و بئر "روطة"³.

يبدو أن المسلمين لم يراعوا في مدنهم الأولى الشروط الأساسية في تأسيس المدن، لانشغالهم بعملية الفتح، و نشر تعاليم الدين الإسلامي، و يعلل ذلك "ابن خلدون" بقوله: "... و انظر لما اختطوا "الكوفة" و "البصرة" و "القيروان" كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا المراعي، و القرب من القفر و مسالك الظعن، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن..."⁴.

و مما ذكرناه يبدو الأثر واضحا لتأثير اختيار مكان "القيروان" في تحقيق أهدافها، و هو أن تكون موطنًا لنشر الدعوة الإسلامية، من حيث قربها من مضارب البربر، و تأمين إمدادات الجيش و حماية وسائل المواصلات و هي الإبل، و البعد عن الساحل حتى لا تتعرض لأساطيل البيزنطيين.

- تخطيط المدينة و عمرانها:

بعد أن استقر رأي "عقبة" و من معه على بناء "القيروان" و اختيار مكانها شرع في تمهيد مكانها للبناء، و إزالة الأشجار الموجودة فيها حتى يبدأ في تخطيطها، و إقامة المباني التي يريد

1 - يقول المقدسي: "...فهني مفرخة بلاد المغرب، و مركز السلطان واحد الأركان، رفق من نيسابور، و أكبر من دمشق و أجل من أصفهان، إلا ماءهم ضعيف...الماء مخزون في مواجيل، و ضرائب موضوعة على أصحاب الدكاكين..." للمزيد من التفاصيل أنظر: - المقدسي، المصدر السابق، ص255.

2 - الحميري، المصدر السابق، ص487.

3 - سمي محمد زيتون، المرجع السابق، ص14.

4 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة...، ج2، ص802.

بناءها، و يحدد شوارعها و عمارتها، و أهم شيء في ذلك هو ما يحقق الهدف من قيامها و هو المسجد الجامع و دار الإمارة، و بعد ذلك المساكن التي سيقم فيها الجنود و أسرهم، و قد تم ذلك بالمواد المحلية. و يذكر "ابن أثير" مساحة مدينة "القيروان" و تاريخ إتمام بنائها بقوله: "...دورها ثلاثة آلاف باع و ستمائة باع، و تم أمرها سنة خمس و خمسين و سكنها الناس".¹

عندما انتهى "عقبة" من بناء "القيروان" فوجئ بعزله، و أسند الأمر إلى "أبي المهاجر دينار" الذي لم ينزل في "قيروان" "عقبة"، و قام تشيد مدينة تبعد حوالي ميلين من مدينة "القيروان"، ثم أسند أمر "إفريقية" إلى "عقبة بن نافع" للمرة الثانية، فقدمها و جدد بناءها، و نقل الناس إليها و ذلك سنة (62هـ / 681م)، و يقول "المالكي" في ذلك: "...قدم "عقبة" إلى "القيروان" بعشرة آلاف فارس.... و جدد بناء "القيروان" و شيدها و نقل الناس إليها فعمرت و عظم شأنها".²

و عندما تمكن "حسان بن نعمان" من القضاء على مقاومة البربر و البيزنطيين و بسط سلطان المسلمين على "إفريقية"، شرع في إعادة بناء مسجد "عقبة بن نافع"، فبناه بناء حسنا و جرده و ذلك سنة (84هـ / 703م)، و يقول "ابن الآبار" في ذلك: "هدمه (أي المسجد) حاشا المحراب و بناه بالطوب".³

توالى بعد ذلك الحركة العمرانية على "القيروان" و تعددت و تنوعت حسب حاجة المدينة و نموها و كثرة سكانها و سعة سلطان حكمها، فما هي أهم المنشآت العمرانية التي شيدت عبر أهم الفترات التاريخية التي مرت بها؟.

– العمارة الدينية:

1 – ابن الأثير، المصدر السابق، ج3، 234.

2 – المالكي، المصدر السابق، ص22.

3 – أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن الآبار (595 هـ – 658 هـ / 1199 م – 1260 م)، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، ط1، القاهرة 1963 م، ج1، ص164.

لقد أبتدى في بناء مدينة "القيروان" ببناء المسجد الجامع على عهد "عقبة بن نافع"، لذلك كثرت بها المساجد إلى أن بلغت زهاء ثلاثمائة مسجد يعبد فيه الله¹، و لا جرم أن أعظمها وأشهرها هو المسجد الجامع الذي أسسه "عقبة بن نافع" عند تخطيطه للمدينة. و الذي بدل كثير من الولاة و الأمراء جهودا كبيرة لتجديده و تحسينه بحيث أصبح معلما حضاريا ومصدرا هاما اقتبست منه العمارة المغربية والأندلسية الدينية تخطيطها و عناصرها الزخرفية والمعمارية، و منه انبثقت الأفكار المعمارية و الفنية و الزخرفية التي تطورت في العصور التالية²، كما كان هذا المسجد ميدانا للحلقات الدينية والعلمية واللغوية³ التي ضمت نخبة من أكبر علماء المغرب الوسيط، و مركزا عبوريا هاما نحو المشرق الإسلامي.

ويصف الدكتور "السيد عبد العزيز سالم" تخطيط جامع القيروان بقوله: "...من أكبر المساجد الجامع الباقية في الإسلام و أعظمها مظهرها..."⁴. و يبدو أن النظام المعماري الذي اتخذته المسجد الجامع في إصلاح "بشر بن صفوان" في عهد الخليفة "هشام بن عبد الملك" سنة (105هـ / 723م) ظلت صورته التخطيطية هي القائمة و المستديمة إلى يومنا هذا بالرغم من أعمال الترميم و الإصلاح التي جرت فيه مع امتداد الزمن و تعاقب الأيام من العهد الأغلبي (184-296هـ / 800-908م) إلى العهد الفاطمي (296-361هـ / 908-971م)، ثم العهد الزييري (361-554هـ / 971-1159م)، و الحفصي و العهد العثماني⁵.

1 - سمير محمد زيتون، المرجع السابق، ص83.

2 - لعرج عبد العزيز، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، دراسة أثرية معمارية، و الفنية، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1999م، ص468.

3 - للمزيد من التفاصيل حول دور مسجد جامع عقبة بن نافع بالقيروان في الحركة العلمية و الفكرية أنظر: - أبو القاسم محمد كزو، المرجع السابق، ص31.

4 - نقلا عن: - سمير محمد زيتون، المرجع السابق، ص83.

5 - للمزيد من التفاصيل حول تاريخ تونس في الفترة الحفصية و العثمانية أنظر: - محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993م، ص49.

و يصف الدكتور "عبد العزيز لعرج"¹ النظام التخطيطي للمسجد الجامع بقوله: " و يتكون ذلك النظام من مستطيل أضلاعه غير متساوية، و عرض حائط قبلته 77م، و المقابل له 70.83م، و طوله 126م، و يتوسطه يتوسطه بهو فسيح مساحته حوالي 67م.56م، تكتنفه شرقا و غربا مجنبتان لكل منهما رواقان، و عرض الواحدة منهما حوالي 6م، و يتصدره بيت الصلاة مساحته 70م عرضا × 37.70 عمقا، و يتكون من 17 بلاطة عمودية عرض الواحدة منها يتراوح بين 3.50م و 4.50م، و تمتد على 8 أساكيب باستثناء الأسكوب الموازي لحائط القبلة فعرضه يزيد عن 6م، أما البلاطة العمودية على المحراب فعرضها 5.5م، و يتصدر حائط القبلة محرابه بانحراف 2.5م عن منتصفه، و يرتسم في دائرة قطرها حوالي 2م" و لبيت الصلاة بابان متقابلان أحدهما مفتوح في حائط الشرقي و الآخر في الحائط الغربي و كلاهما عند نهايتي الأسكوب الخامس، و للمسجد كذلك خمسة أبواب أخرى ينفذ من ثلاثة منها إلى الجنبه الغربية و من الآخرين إلى الجنبه الشرقية، و تقوم المئذنة في منتصف ضلع المستطيل الشمالي، و لكنها لا تقع بالضبط في محوره، و هي عبارة عن مربع طول كل ضلع منه عشرة أمتار و نصف، و يختلف نظام الجنبه الشمالية التي فيها هذه المئذنة عن نظام الجنبتات الثلاثة الأخرى إذ أنه قد استعيض عن كثير من أساكبها بغرف و منافع، و عموما المئذنة من ثلاثة طوابق تعلوها قبة مفصصة، و الطابق الأدنى مربع القاعدة تنحدر جدرانها إلى الداخل انحدارا خفيفا فيقل عرضه كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة القوة و ارتكازا و ثباتا، و قد اتخذت هذه المئذنة نموذجا للمآذن المصرية مثل مئذنة مسجد "الجيوشي"، و مئذنة مدرسة "قلاوون" و قبتها، كما أصبحت مئذنة مسجد جامع "القيروان" تؤلف طابع مغربيا بحتا، إن مآذن مساجد الإسلام الأولى قد اندثرت و ظلت مئذنة "القيروان" قائمة فهي أقدم المآذن الإسلامية².

1 - عبد العزيز لعرج، المرجع السابق، ص 468.

2 - للمزيد من التفاصيل حول المسجد الجامع بالقيروان، تخطيطا و فنا، و المراحل التاريخية التي مر بها أنظر: - أحمد فكري، مسجد القيروان، مطبعة المعارف، مصر، 1355 هـ / 1963 م، ص 10.

يعد هذا التخطيط المعماري لجامع "القيروان" أقدم تخطيط في مساجد المغرب الإسلامي، كما يعد المصدر المعماري الأول الذي اقتبست منه العمارة المغربية الأندلسية نظامها وعناصرها، و منه انبثقت الأفكار المعمارية و الفنية و الزخرفية التي تطورت عبر العصور. و لا شك أن جامع "القيروان" استمد كيانه المعماري و التخطيطي من المساجد المبكرة التي بنيت قبله في فترة الفتوحات و عهد الدولة الأموية كجامعي "الكوفة" و "البصرة"، و الجامع الأموي "بدمشق"، و كلها تتشابه في تخطيطها العام مع تخطيط جامع "القيروان"، و قد انحدرت هي بدورها من أول مسجد بني في الإسلام هو مسجد المدينة، أو المسجد النبوي بالمدينة، و هو النموذج الأول الأصيل التي اشتقت منه بقية المساجد التي أتت بعده كيائها المعماري، و نظامها التخطيطي.¹

تعتبر الفترة الأموية أهم مرحلة مر بها المسجد الجامع "بالقيروان"، حيث في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك" أمر بزيادة مساحته، وأضاف إليه حديقة كبيرة في شماله، وجعل له صهرجيا للمياه، وشيد مآذنه. وفي عام (155هـ / 724 م) أعيد بناؤه على يد "يزيد بن حاتم"، وظل على حاله هذه إلى أن تولى "زيدة الله بن إبراهيم بن الأغلب" إمارة "إفريقية" سنة (201هـ / 817 م) فزاد فيه.

ولقد سارت التوسعات في العصور المختلفة التالية، و يقدم "البكري" و صف شيق، و دقيق للعمارات و الزيادات التي حدثت في المسجد مع ذكر من قام بها و تاريخها فيقول: " إن أول من وضع محرابه و بناه "عقبة بن نافع" ثم هدمه "حسان" حاشا المحراب و بناه، و حول إليه الساريتين الحمراءين الموشاتين بصفرة اللتين لم ير الرأون مثلها من كنيسة كانت للأول في الموضع المعروف اليوم "بالقيسارية" بسوق "الضرب" و يقولون أن صاحب "القسطنطينية" بذل لهم فيها قبل نقلها إلى الجامع زنتهما ذهباً فابتدعوا الجامع بهما. فلما كانت خلافة "هشام بن عبد الملك" كتب إليه عامله على "القيروان" يعلمه أن الجامع يضيق بأهله و أن بجوفيه جنة كبيرة لقوم من "فهر"، فكتب إليه "هشام" يأمره بشرائها، و أن يدخلها المسجد الجامع ففعل و بنى في

1 - عبد العزيز لعرج، المرجع السابق، ص469.

صحنه ماجلا، و هو المعروف بالماجل القديم بالغرب من البلاطات و بنى الصومعة في بئر "الجنان" و نصب أساسها على الماء و اتفق أن وقعت في نفس الحائط الجوي، و أهل الوريح يكرهون الصلاة في هذه الزيادة و يقولون أنه أكره أهل الجنة على بيعها، و الصومعة اليوم على بنائه طولها ستون ذراعا و عرضها خمسة و عشرون، و لها بابان شرقي و غربي وعضايد بايها رخام منقش و كذلك عتبتها، فلما ولي إفريقية "يزيد بن حاتم" سنة خمس و خمسين و مائة هدم الجامع كله حاشا المحراب و بناه و اشترى العمود الأخضر بمال عريض جزل ووضعه فيه و هو الذي كان يصلي عليه القاضي "أبو العباس عبدون". فلما ولي "زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب" هدم الجامع كله و أراد هدم المحراب فقبل له أن من تقدمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه "عقبة بن نافع"، و من كان معه فلج في هدمه لئلا يكون في الجامع أثر غيره حتى قال له بعض البناء أنا أدخله بين حايطين و لا يظهر في الجامع أثر لغيرك فاستوصب ذلك و فعله، فهو على بنائه إلى اليوم و المحراب كله و ما يليه مبني بالرخام الأبيض من أعلاه إلى أسفله مخرم منقوش كله، منه كتابة تقرأ و منه تديج مختلف الصناعة يستدير به أعمدة رخام في غاية الحسن و العمودان الأحمران المذكوران يقابلا المحراب عليهما القبة المتصلة بالمحراب و عدد ما في الجامع من الأعمدة أربعة مائة و أربعة عشر عمودا، و بلاطاته سبعة عشر بلاطا. و طوله مائتان و عشرون ذراعا و عرضه مائة و خمسون ذراعا و كانت فيه مقصورة فلم يزل بناء "زيادة الله"¹ فيه و المقصورة اليوم إنما هي دار قبلي الجامع بابها في رحبة الثمر، لها باب عند المنبر يدخل منه الإمام بعد أن ينزل في هذه الدار حتى تقرب الصلاة. و بلغت النفقة في بنيانه ستة و ثمانين ألف مثقال.

و لما "ولي إبراهيم بن أحمد بن الأغلب" (184هـ - 196هـ / 800م - 812م) زاد طول بلاطات الجامع و بنى القبة المعروفة بباب البهو على آخر بلاط المحراب و في دورها اثنان و ثلاثون سارية من بديع الرخام و فيها نقوش غريبة و صناعات محكمة عجبية يشهد كل من رآها أنه لم ير مبنى أحسن منه و قد فرش من الصحن بين أيدي البلاطات نحو خمسة عشر

1 - البكري، المصدر السابق، ص22.

ذراعا و للجامع عشرة أبواب و مقصورة النساء في شرفيها بينها و بين الجامع حائط مخرم محكم العمل.¹

و في مدينة "القيروان" و ما حولها مساجد متعددة منها: مسجد "الأنصاري" بمحرس الأنصار و عليه بني هذا المحرس، و لم يزل الصلحاء و الأبدال يتناوبونه و يعمرونه و له بركات مشهورة، و مسجد "الزيتونة" بمحرس "الأنصار" أيضا، و هو مسجد كبير جليل في وسطه ماجل مستطيل بني هذا المسجد سنة ثلاث و تسعين بناه "إسماعيل بن عبيد الأنصاري" و بهذا المسجد كان أهل "القيروان" يجمعون إذا كان بجامع "عقبة" بناء، و مسجد "أبي ميسرة" بنا بعض التابعين، و هو عن يسار الداخل من باب "تونس" أحد أبواب المدينة.²

- العمارة المدنية:

بعد أن اختط "عقبة بن نافع" المسجد الجامع اختط دار الإمارة جنوب المسجد لتكون مقرا للولاية، و يقول في ذلك "ياقوت الحموي": " ثم اختط دارا للإمارة، و اختط الناس حوله"³، و قد استمرت دار الإمارة مقرا للولاية من قبل "الأمويين" و "العباسيين" إلى أن انتقل عنها "إبراهيم بن الأغلب" عند بناء القصر القديم (العباسية)، وقد اهتم "حسان بن نعمان" عندما استقر "بإفريقية" بالناحية الإدارية فدون الدواوين، و كان مقر الدواوين عند إنشائها مجاورا لدار الإمارة، كما كان بالمدينة دار لضرب السكة و تعديل الأوزان و ضبطها، يضاف إلى ذلك دار الضيافة لاستقبال الرسل من الدول الأخرى.

و من أجل توفير المياه اللازمة لمدينة "القيروان" قام الولاية و الحكام بإنشاء المواجل داخل المدينة و خارجها، و يصف "الحميري" من علماء القرن التاسع للهجرة الرابع عشر للميلاد مدينة "القيروان"، و أهم المنشآت بها على غرار المواجل بقوله: " هي قاعدة البلاد "الإفريقية" و أمّ مدائنها، كانت أعظم مدن المغرب نظرا، و أكثرها بشرا، و أيسرها أموالا، و أوسعها أحوالا، و أربحها تجارة، و أكثرها جباية... فكان "عقبة" أول من اختط "القيروان"، و أقطع

1 - البكري، المصدر السابق، ص22.

2 - سمي محمد زيتون، المرجع السابق، ص83.

3 - الحموي، المصدر السابق، ج4، ص421.

مساكنها و دورها للناس و بنا مسجدها... وخارج مدينة "القيروان" خمسة عشر ماجلا للماء هي سقيا لأهل القيروان، منها ما بني في أيام "هشام بن عبد الملك"، و في أيام غيره من الخلفاء، و أعظمها شأنًا و أفخمها منصبًا الماجل "الذب" بناه "إبراهيم بن الأغلب" بباب "تونس" من "القيروان"... و بالجملة فمدينة "القيروان" باب ملك المغرب، و رأيت من الممالك و الملوك و الدول و الفقهاء و الصالحين ما لم يكن مثله في قطر من الأرض، محنت بالعرب و الفتن و خلّت من الناس و ذهبت نظرها و محاسنها...¹.

كما زودت المساجد بمواجل لتوفير المياه للوضوء، أو لمآرب أخرى تدخل في خدمة المساجد، منها ما ذكر "البكري" حين و صفه لمسجد الجامع "بالقيروان" " و بني في صحنه ماجلا و هو معروف بالماجل القديم بالقرب من البلاطات"²، كما ذكر "الدباغ" بعض المواجل عند حديثه عن المساجد العتيقة في القيروان منها ما بني في مسجد "الزيتونة" حيث قال: "...." مسجد الزيتونة" و هو مسجد كبير جليل في وسطه ماجل مستطيل، بني هذا المسجد سنة ثلاث و سبعين"³.

وقد كان سكان "القيروان" يستعملون جميع المياه الممكنة الاستفادة منها، حيث استعملوا ماء وادي "السراويل" في قبلة المدينة، فيما يحتاجونه إليه من الماء في المنازل و ليس للشرب لأنه كان مالحة. و في سنة (180هـ/ 796م) حفر "هرثمة بن أعين" والي "القيروان" البئر المعروفة الآن بإسم بئر "روطة" قريبا من سوق "الأحد" و ذلك نتيجة لامتداد العمران في "القيروان"⁴. و من أجل النشاط التجاري و الاقتصادي أنشأ بمدينة "القيروان" سوقا كبيرا يبدأ من المسجد الجامع إلى باب "الربيع" و منه كذلك إلى باب "تونس"، مما يدل على أنه قد روعي عند تخطيط "عقبة" للمدينة أهمية السوق و التجارة و الصناعة، و يصف "البكري" هذا السوق

1 - الحميري، المصدر السابق، ص487.

2 - البكري، المصدر السابق، ص23.

3 - الدباغ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري (توفي: 696هـ/ 1296م)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1330هـ، ج1، ص27، 28.

4 - سمير محمد زيتون، المرجع السابق، ص93.

بقوله: " كان سماط سوق "القيروان" قبل نقله إلى "المنصورية" متصلا من القبلة إلى جوف و طوله من باب "أبي الربيع" إلى الجامع ميلان غير ثلث، و من الجامع إلى باب "تونس" ثلثا ميل و كان سطحها متصلا فيه جميع المتاجر و الصناعات و كان أمر بترتيبه هكذا "هشام بن عبد الملك"...¹.

و كان بمدينة "القيروان" إلى جانب هذا السوق الكبير المشتمل على جميع أنواع المتاجر و الصناعات أسواق أخرى متخصصة الأغراض، كسوق "الصيارفة"، و يغلب الظن أنها كانت معدة للعمليات المالية، و "سوق الجوهرين"، و سوق "البركة" يعرض فيه الرقيق و الجواري، و سوق "الأحد" للمنسوجات الصوفية و اتصلت به سوق "الكتانين" و السوق "الغزل"، كما وضعت أما باب "تونس" سوق "السراجين" و سوق "البزازين"، و سوق "الدجاج"، كما نسبت أسماء أبواب المسجد الجامع "بالقيروان" بإسم الأماكن التي تفتح عليها لكثرة و جودها في ذلك المكان، منها باب "السباغين"، و باب سوق "الخميس"، و باب "اللحامين".²

و لقد حظيت "القيروان" كمدينة عاصمة للإقليم بالحمامات و البيمرستانات، و يدل كثرة الحمامات على التغلب على مشكلة الماء في المدينة، حيث يذكر "البكري" أنه يوجد "بالقيروان" 48 حماما³. و من أهم البيمرستانات التي أنشأت بمدينة "القيروان" هو بيمارستان "الدمنة" كان ذا أقسام، و له نظام خاص به، كان ملجأ كبيرا للفقراء، ثم خصص في أيام دولة "بني الأغلب" (184هـ - 299هـ / 800م - 909م) للمصابين و العجزة، فصار ينقسم إلى قسمين أحدهما للمجزومين⁴ و يعرف بدار "الجزماء"، و الآخر مأوى للعمى الفقراء يعالجهم به أطباء ماهرون، و كان الأمراء من كل الدول يزورون هذا المعهد الخيري لا سيما في المواسم و يوزعون الحلويات على المقيمين به.⁵

1 - البكري، المصدر السابق، ص25، 26.

2 - سمير محمد زيتون، المرجع السابق، ص94.

3 - البكري، المصدر السابق، ص95.

4 - إنجزم العظم أي انكسر. أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص152.

5 - سمير محمد زيتون، المرجع السابق، ص94.

- العمارة العسكرية:

كان للأسوار و المحارس شأن مهم بالنسبة للدفاع عن المدن منذ الفترة القديمة، و يشير "البلاذري" إلى ما قام به "محمد بن الأشعث" (دخل القيروان سنة 144هـ / 761م) في "القيروان" إشارة موجزة بقوله: " فرم مدينة "القيروان" و مسجدتها "¹، أما "البكري" فيتحدث عن ذلك بتفصيل يبين أنه أقام السور للمدينة و جعل فيه الأبواب و عليه المحارس: " للقيروان" من القديم سبع محارس أربعة خارجها و ثلاثة داخلها و كان "للقيروان" في القديم سور من طوب سعتة عشرة أذرع بناه "محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي" سنة أربعة و أربعين و مائة و هو أول قائد دخل "إفريقية" "للمسودة"² و كان في قبليه باب سوى الأربعة و هو بين القبلة و المغرب و بين القبلة و المشرق "باب أبي ربيع" و في شرقيه "باب عبد الله" و باب "نافع"، و في جوفيه باب "تونس" و في غربيه باب "أصرم"، و باب "سلم"...و للمدينة اليوم أربعة عشر باب منها المذكورة، و باب "النخيل" و الباب "الحديث" و للفصيل بابان، و باب "الطراز"، و باب "القلالين"، و باب "سحنون"..."³. إن كثرة الأبواب تدل على اتساع عمران مدينة "القيروان" في القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد، و مثل هذا العدد من الأبواب لم تعرفها حسب علمي مدينة مشرقية و لا مغربية.

أدى الزحف الهلالي لمدينة القيروان بتخريب عمرانها و هجرة ساكنيها بسبب الفتن التي أحدثوها بالمدينة و يقول في ذلك الحميري: "...مخنت بالعرب و الفتن و خلت من الناس و ذهبت نظرها و محاسنها..."⁴، و هذا ما يفسر حسب اعتقادنا تحامل "عبد الرحمن بن خلدون" في مقدمته على العرب.

1 - أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي البلاذري (توفي: 279هـ / 892م)، فتوح البلدان، ط1، مطبعة الموسوعات

شركة طبع الكتب العربية، مصر، 1901م، ص240.

2 - راية الدولة العباسية سوداء اللون، لذلك لقبوا بالمسودة.

3 - البكري، المصدر السابق، ص95.

4 - الحميري، المصدر السابق، ص487.

و في الفترة الحفصية (625هـ - 931هـ / 1228م - 1534م) ساءت الأحوال الاقتصادية كثيرا بمدينة "القيروان" بسبب الازدهار التي عرفته مدينة "تونس"، حيث أصبحت الحركة الاقتصادية نشيطة بها، و بالتالي أزهى العمران بها على حساب بقية المدن و يصف لنا "حسن الوزان" "القيروان" في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد بقوله: " و قد ازدهرت العلوم الإسلامية "بالقيروان" في فترة من تاريخها، حتى إن معظم فقهاء إفريقيا من المتخرجين منها، و بعد أن خرب الأعراب "القيروان"، أخذت في الوقت الحاضر تمتلئ بالسكان، لكن بكيفية بائسة، فليس فيها الآن إلا صناع فقراء، أكثرهم يصبغون جلود الغنم و المعاز. و يبيعونها ملابس جلدية في مدن "نوميديا" التي لا توجد بها الأقمشة الأوروبية....بالإضافة إلى أن ملك "تونس" يثقل كاهلهم بالضرائب.."¹.

ب - مدينة فاس:

كان المغرب الإسلامي قبلة لكل تائر و خارج عن الخلافة الإسلامية، منذ الفترة الأموية و العباسية فيما بعد، و يرجع ذلك لأمرين هامين: الأول بعد المغرب الإسلامي عن دار الخلافة، والسبب الثاني هو كثرة السكان من البربر، و جهلهم لأمر الدين، و الخلاف الطائفي و الفرقي الذي كان بالمشرق الإسلامي، علما أن الفقه الإسلامي يؤكد على عدم الخروج عن طاعة ولي الأمر، والنصوص الشرعية خاصة الأحاديث النبوية تؤكد و تلزم الأمة على توحيدها و إتباع راية واحدة، و عدم خروج عن الإمام و الجماعة، ولكن هذه سنة الله في خلقه ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَآ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾².

استغل الأدارسة هذين الأمرين ووقفوا في تكوين دولتهم، و التي بدأت بخروج "إدريس بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب" إلى "المغرب"، بعد موقعة "الفخ"³، و التي أدت إلى انهزام العلويين أمام الجيش العباسي في عهد الخليفة "موسى الهادي"

1 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص87.

2 - سورة هود الآية: 118.

3 - على بعد ستة أميال من مكة.

(169 هـ - 170 هـ / 775 م - 786 م)، و ذلك في الثامن من ذي الحجة سنة (169 هـ / 785 - 786 م).¹

بعد مروره بمصر مع مولاه "الراشد" التحق بالمغرب الإسلامي مرورا "ببرقة" إلى غاية وصولهم إلى "تلمسان"، ثم "طنجة"، واستقروا بمدينة "وليلي" قاعدة "جبل زرهون"، و ذلك في ربيع الأول من سنة (172 هـ / 789 م)، و احتفى بقبيلة "أورية" البربرية، و ببيع في رمضان من سنة (172 هـ / 789 م)، وكانت هذه القبيلة أول القبائل البربرية المبايعة للأدارسة.²

و لما قتل "إدريس بن عبد الله" من طرف أحد موالي "هارون الرشيد" (170 هـ - 193 هـ / 786 م - 809 م) ترك جارية له حاملا، فلما وضعت حملها تولى مولاه "الراشد" تربيته، و سمي "إدريس بن إدريس بن عبد الله"، ولما بلغ سن إحدى عشر وظهر فيه الذكاء و الفطنة ببيع له بالخلافة، و ذلك سنة (188 هـ / 804 م) السابع من شهر ربيع الأول³، فعظم ملكه و استقام له الأمر، وضاعت مدينة "وليلي"⁴ بأهلها خاصة بعد توافد القبائل البربرية إليها.

1 - لم يطل مقامه في الخلافة العباسية غير سنة و ثلاثة أشهر، توفي ليلة الجمعة سادس عشر ربيع الأول من سنة 170 هـ / 786 م. أنظر:- أبو الخطاب عمر بن الحسن دحية (544هـ - 633هـ / 1150م - 1236م)، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق مديحة الشرفاوي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1421 هـ / 2001م، ص 38.

2 - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 21، 26.

3 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - علي الجزائري (من أهل القرن 8هـ / 14م)، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1967م، ص 18. كذلك: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 21، 22.

4- وليلي: مدينة عتيقة في السفح الجنوبي لجبل زرهون، على بعد 28 كلم شمال مكناس، يظن بعض المغاربة أنها من بناء القبط حتى سموها قصر فرعون، انتعشت أثناء قدوم إدريس بن عبد الله إليها، ثم فقدته أثناء تأسيس فاس من طرف إدريس بن إدريس بن عبد الله. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 21. كذلك: - البكري، المصدر السابق، ص 108.

- أهمية موقع مدينة فاس:

ويبدو أن مدينة "و ليلي"¹ و هي أول عاصمة للدولة الإدريسية، لم تكن لتستجيب للدولة بكل أجهزتها، و قد بدأ نفوذها يتسع، و أجهزتها العسكرية تنتظم، و بدأت القبائل البربرية و العربية تصل إليها و تفد على "إدريس بن عبد الله"، كما لعبت الجغرافية دورا كبيرا في تغير المدينة، فقد كانت "وليلي" الجبلية معزولة، و ضواحيها القريبة ليست ذات خصوبة، وربما مياهها أيضا شحيحة. فكان لابد للدولة الجديدة من سهل تتسع أرجائه للجيش المتنامي، خصيب الأرض غزير الماء، و موقع "فاس" بجانب النهر، تنحدر إليها مياه الثلوج غزيرة تستجيب لهذه الأهداف، ثم أن موقع "فاس" الجغرافي يعتبر طريقا لشمال نحو "الريف" و "للمغرب الأوسط"، و للجنوب نحو الصحراء ("سجلماسة" بوابتها)، و نحو الشمال "طنجة" و المضيق، و لا ننسى أن هذه المدينة الأخيرة كانت المستقر الأول "لإدريس بن عبد الله"، و هي النافذة المعروفة آنذاك على البحر، و ما وراء البحر من أرض الأندلس التي تكونت فيها الدولة الإسلامية. الموقع الجغرافي إذن يمكّن المدينة المنتظرة من أن تكون قاعدة هجوم، إذا ما استجاب "إدريس بن إدريس" لطموحه في نشر الإسلام ببقية "المغرب الأقصى" و "الأوسط"، و يمكّنها كذلك من الدفاع من أخطار الدولة الأغلبية، و الفاطمية من الشرق و دولة الخوارج من الجنوب.

تشير المصادر التاريخية إلى تجربة فاشلة لبناء المدينة استفاد منها "إدريس بن إدريس"، حيث بدأ في بناء المدينة في حجر "جبل زالغ"، و لكن سيلا هاجم المنطقة فحطم ما بنى فعدل عن جوار الجبل إلى "سهل سايس"، و يذكرون تجربة أخرى بالقرب من "نهر سبو"، و لكنه

1 - ويلي: مدينة عتيقة في السفح الجنوبي لجبل زرهون، على بعد 28 كلم شمال مكناس، يظن بعض المغاربة أنها من بناء القبط حتى سموها قصر فرعون، انتعشت أثناء قدوم إدريس بن عبد الله إليها، ثم فقدته أثناء تأسيس فاس من طرف إدريس بن إدريس بن عبد الله. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 21. كذلك: - البكري، المصدر السابق، ص 108.

تحسب من فيضان النهر في فصل الشتاء أعرض عن ذلك، و لذلك استعان بوزيره "عمير بن مصعب الأزدي" فاهتدى إلى "سهل سايس" لكثرة مياهه و خصب أرضه فارتضاه مكانا للمدينة¹.

– التطور العمراني لمدينة فاس:

استجابت مدينة "فاس" للتوسع البشري و العمراني، فكانت مدينتين أطلق عليهما الباحثين بالعدوتين يفصل بينها نهر سكن في إحداها البربر و في الثانية العرب، ولم يختص أحد العنصرين بإحدى المدينتين فقد سكن في إحدى العدوتين بربر و عرب و في الأخرى بربر و عرب مقيمون مع الوافدين من "الأندلس" أو من "القيروان"، و امتزج السكان منذ بداية التأسيس و في مختلف العصور، و يبدو أن من أهم العوامل التي ساعدت على هذا التعايش السلمي بين المجموعات البشرية المسلمة و كذلك أهل الذمة هي: الدين الإسلامي، و شخصية "إدريس بن إدريس"، و كذلك أسوار المدينة التي وحدت القبائل البربرية المتصارعة، حيث أصبحت هذه القبائل تعيش في إقليم جغرافي واحد هو مدينة "فاس".

و من العوامل التي ساعدت على تطور مدينة "فاس" كذلك نجد هذه المجموعات البشرية الوافدة عليها و المشبع بالتراكم الحضاري، منهم حرفيون الذين نقلوا الحرف التي تعلموها في المشرق الإسلامي و "القيروان" و "الأندلس"، و كان منهم من عمل في الجيش، و الخدمة الوطنية تتطلب صناعات و حرفا. يضاف إلى ذلك عدد امن العلماء و طلبة العلم الذين وفدوا أو تكونوا في المدينة.

ويذكر المؤرخون أن "إدريس بن إدريس" كان مخططا معماريا للمدينة بالإضافة إلى أنه كان بارعا في التخطيط الاقتصادي، حيث قام بوضع الأرض هبة لكل من بنى و غرس، ثم أمر السكان بأن يزرعوا و يغرسوا خارج سور المدينة فازدهرت أرباض المدينة فلاحيا، ساعد على ذلك مياه الأنهار و العيون و خصبة الأراضي.²

1 - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 45.

2 - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ج1، ص303، 305.

جعل "إدريس بن إدريس" من مدينة "فاس" من أهم المدن الإسلامية، حيث تعبر على مدا اهتمام المسلمين بفن تخطيط حواضرهم، مؤكدة على أن ذلك يكن اعتبارا بل يمارسونه بعد أن يرسموا خططها التي على أساسها تنشأ، وبالتالي فإن مدينة "فاس" تعتبر نموذجا جيدا لتخطيط المدن الإسلامية التي أنشأها المسلمون في مختلف الأقطار فهي تجمع بين الأغراض المدنية، حيث الوحدات المعمارية المختلفة التي تؤدي الوظائف العديدة للسكان و التحصينات العسكرية، و تطلعنا المصادر التاريخية المهمة بتاريخ فاس بتفصيلات واضحة عن تلك خطط و عن الأعمال المدنية التي شيدت بها تأسيسا.

لما أسس "إدريس بن إدريس" عدوة الأندلس بنا بها جامعا "برحبة البئر" المعروف "بجامع الأشياخ"، و أقام به الخطبة، و بعد أن أسس "عدوة القرويين" أخذ في بناء جامعها و هو الجامع المعروف "بجامع الشرفاء"، و أقام فيه الخطبة أيضا، ثم ضرب أحببته و قبابه بالموضع المعروف "بجرواوة" من عدوة الأندلس، و أحاط عليها بجائط من الخشب، و عندما انتقل من عدوة الأندلسيين إلى عدوة القرويين اختط داره بالموضع المعروف "بالمقرمدة" و سميت "بدار القيطون". قام "إدريس بن إدريس" بتحفيز السكان في البناء و التعمير، حيث قال لهم: " من ابنتي موضعا و غرسه فهو له هبة"، فابتنى الناس الديار، و اغترسوا الثمار فكثرت العمارة¹.

إن هذه السياسة المتبع من طرف الحاكم الأول في المدينة شجعت هجرة و نزوح القبائل البربرية و العربية، و من أهمها أهل "الربض" من مدينة "قرطبة" الذين أجلاهم الخليفة الأموي بالأندلس "الحاكم بن هشام" سنة (202هـ / 817م)، فنزلوا موضعا من مدينة "فاس"، و استوطنوه و سمي "بعدوة الأندلسيين"، حيث لم تلبث أن نمت عمرانها، و طبعوها بالنمط الأندلسي، و أعطوها طابعا جديدا لم يكن لها من قبل.

كما عرفت المدينة نزوح مجموعات بشرية من "إفريقية" و مدينة "القيروان" خاصة، و استقروا بناحية من مدينة "فاس" سميت فيما بعد "بعدوة القرويين". و قد شارك هؤلاء المهاجرون من "القيروان" مع إخوانهم من "قرطبة" في بناء مدينة "فاس" بفضل ما حمله هؤلاء من

1 - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ج1، ص305.

تراث أهل "إفريقية" الذي ظهرت فيه المؤثرات "المصرية" و "الشامية" و "العراقية"، و من تراث أهل الأندلس الشامي الأصل¹.

و يمكن القول أن تمدن عاصمة الأدارسة كان محدودا في عهد "إدريس بن إدريس"، فقد وضع حجر الأساس لمدينة إسلامية بالمغرب الأقصى لتعرف فيما بعد تطورا كبيرا عبر الفترات التاريخية التي مرت بها، ففي عهد "يحيى بن محمد بن إدريس" تطورت العمارة بالمدينة، حيث اهتم بتزويدها بالمباني ذات المنافع العامة، مثل "الحمامات" و "الفنادق" التي أقيمت لخدمة الوافدين على المدينة من التجار و غيرهم، و بلغت "فاس" تطورا كبيرا من حيث البناء و العمران.²

عرفت مدينة "فاس" في أواسط القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد مشاكل و فتن سياسية أفضت إلى صراع عسكري بين "الفاطميين" و من تذهب بمذهبهم من القبائل البربرية و الأمويون بالأندلس، و من تبعهم من القبائل البربرية كذلك، و كان من نتائج هذا الصراع سقوط الدولة الإدريسية نهائيا على عهد "الحسن بن محمد" سنة (313هـ / 925م). و سقطت المدينة في جحيم هذا الصراع، حيث خربت عدة مرات، منها ما قام به قائد الجيش الفاطمي "جوهر الصقلي" الذي هدم سورها، و نهبها و سبى أهلها و ذلك سنة (348هـ / 960م)³.

كما عرفت المدينة صراعات كبيرة بين "المغراويين" و "بني يفرن" مع بداية القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد⁴، و من أشهر الحكام "المغرويين" الذين اتخذوا من مدينة "فاس"

1 - جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين 448هـ / 1057م إلى 668هـ / 1269م دراسة سياسية و حضارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، مصر 2001م، ص 46.

2 - نفسه.

3 - للمزيد من التفاصيل حول الصراعات السياسية و العسكرية التي كانت بالمغرب الإسلامي في القرن الرابع و الخامس للهجرة أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج 4، ص 60.

4 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 127. كذلك: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج 7، ص 39.

عاصمة لهم ، و ساهموا في البناء العمراني للمدينة نجد: "دوناس بن حمامة بن المعز"، و في أيامه عظمت "فاس" و عمرت بالبناء، حيث أدار "دوناس" السور على الأرباض و بنى المساجد و الحمامات و الفنادق، فقصدها الناس من جميع النواحي، و بعد و فاته سنة (452هـ/ 1061م) خلفه ابنه "الفتوح" و "عجيسة" حيث استوطن الفتوح "عدوة الأندلس"، بينما ولى أخاه "عدوة القرويين"، و بدأ الأميران عهديهما بتحصين المدينة، حيث بنى "الفتوح" قسبة منيعة و فتح بها باب سميت "باب الفتوح" على اسمه، كما قام "عجيسة" ببناء قسبة مثلها و جعل لها باب "بعده القرويين"، و لكن لم تنعم المدينة بحكم هذين الأميرين إذ سرعان ما نشبت صراعات مسلحة بينهما انتهت بظفر "الفتوح" بأخيه "عجيسة" و قتله و ذلك سنة (403هـ/ 1061م)، و ظل الفتوح أميراً على العدوتين إلى أن حاصر المرابطون المدينة¹.

وتطلنا المصادر الجغرافية التاريخية التي عاصرت مدينة "فاس" في القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد على أهم العمائر بهذه المدينة منها ما ذكر "البكري" في كتاب "مسالك و ممالك" بقوله: " و مدينة "فاس" مدينتان مفترقتان مسورتان، و بينهما نهر يتردد و أرحاء و قناطر، و "عدوة القرويين" في الغربي "عدوة الأندلس"، و على باب دار الرجل منها رحا و بستانه بأنواع الثمار و جداول الماء تخرق داره، و بالمدينتين أزيد من ثلاثة مائة رحا، و فيها نحو عشرين حمام، و هي أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها إلى جميع الأفاق و من أمثال أهل المغرب: فاس بلاد بلا ناس، و كلتا عدوتي فاس في سفح الجبل و النهر الذي بينهما مخرجه من عين غزيرة في وسط مرج "مطعرة" على مسيرة نصف يوم من "فاس"، أسست عدوة الأندلسيين في سنة اثنين و تسعين و مائة، و عدوة القرويين في سنة ثلاث و تسعين و مائة في ولاية "إدريس بن إدريس".... و لعدوة الأندلسيين من الأبواب: باب "الفتوح" منه يخرج إلى "القيروان"، و باب "الكنيسة" شرقي يقابل روض "المرض"، و باب "أبي خلوف" شرقي، و باب "حصن سعدون" جوفي، و باب "الحوض" غربي يقابل عدوة القرويين، و باب "سليمان" مثله، و من هذين البابين يخرج أهل هذه العدوة إلى الحرب إذا كان بينهم اختلاف، و تقوم حينئذ بموضع يعرف "بكدية الفول" و "باب الفوارة"، و بها جامع حسن فيه ستة بلاطات، و فيه

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - جمال أحمد طه، المرجع السابق، ص 47.

صحن فسيح فيه أصول جوز و شجر و ساقية... و لعدوة القرويين من الأبواب: باب "الحصن الجديد" قبلي يخرج منه إلى "زواغة"، و باب "السلسلة" شرقي يخرج منه إلى عدوة الأندلسيين، و باب القناطر شرقي، و باب سياج "يحيى بن القاسم" جوفي يخرج منه إلى "المخاض" و "مغيلة"، و باب "سوق الأحد" غربي يخرج منه إلى "زواغة"، و فيها جامع فيه ثلاث بلاطات... بناه "إدريس بن إدريس" و له صحن كبير فيه الزيتون... و بها نحو عشرين حماما...¹.

إن هذا الوصف الذي قدمه "البكري" يوافق ما ذكرته المصادر التاريخية، خاصة ما تعلق الأمر بأن المدينة عبارة عن حيين، و لكل واحد منهما مرافقه العمومية و المسجد الجامع، و مساجد للصلوات الخمس، و من أهم المرافق العمومية التي بنيت في عهد "المغراويين" نجد حمام "قرقف"، و حمام "الأمير"، و حمام "الرشاشة" و حمام "الرياض" بعدوة القرويين، و بني في عدوة الأندلسيين: حمام "جرواوة"، و حمام "شواره"، و حمام "الكيدان"، و حمام "أشنيخان"، و حمام "الجزيرة". و بنوا كذلك الفنادق، و المساجد، و أزالوا الخطبة عن جامع "الشرفاء"، و أقاموها بجامع القرويين لسعته.²

عرفت مدينة "فاس" اضطرابات سياسية و ثورات و فتن خاصة في عهد "المغراويين"، و انعكست على الحياة الاقتصادية، حيث قام أمراء في هذه الفترة بظلم الرعية و تمثل ذلك في أخذهم لأموالهم، و فرض عليهم الضرائب و المكوس لم تكن من قبل، كما انقطعت على السكان الموارد، و كثر الخوف في البلاد و غلت الأسعار غلاء لم يسمع بمثله من قبل، و عليه فإن فن البناء و التعمير كاد أن ينقطع بالكلية بالمدينة.³

1 - للمزيد من التفاصيل حول أسوار مدينة فاس و أبوابها منذ الفترة الإدريسية إلى غاية دخول المرابطين أنظر: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 48، 49. كذلك: - البكري، المصدر السابق، ص 115.
2 - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 179.
3 - أنظر إلى قول ابن خلدون في المقدمة حول أسباب خراب المدن و توقف العمران. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج 2، ص 701.

و في سنة (462هـ/1070م) دخل "المرابطون" مدينة "فاس" و بسطوا نفوذهم عليها، و حرصوا على نشر الأمن، و النهوض بالمدينة، فعم الرخاء و ارتفع الدخل الإجمالي للمدينة، و أدى ذلك إلى ظهور حراك اقتصادي كبيرة، و بدأت عجلة الحركة العمرانية في الدوران، حيث قام "المرابطون" بتهدم الأسوار التي كانت تفصل بين العدوتين، و جعلوا مدينة "فاس" بلدا واحدا، و يعتبر هذا عملا حضاريا يدعو إلى وحدة المدينة و تماسكها و نبذ الخلافات و الشقاق بين أفراد المجتمع الواحد. و يصف "ابن أبي زرع" دخول "يوسف بن تاشفين" أمير "المرابطين" و أعماله بمدينة فاس بقوله: "... فلما دخل "يوسف بن تاشفين" مدينة "فاس" حصنها و ثقّفها و أمر بهدم أسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين: عدوة القرويّين و عدوة الأندلس و ردهما مصرا واحدا، و أمر ببناء المساجد في أحوازها، و أزقّتها و شوارعها، و أيّ زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله و أجبرهم على بناء مسجد فيه، و بنى الحمامات و الفنادق، و الأرحاء، و أصلح أسواقها...."².

و في سنة (540هـ/ 1145م) فتح "عبد المؤمن بن علي"³ أمير الموحدين مدينة "فاس" بعد حصار شديد، و قام بهدم سورها و قال: لا نحتاج إلى سور، و إنما الأسوار سيوفنا

1 - يوسف بن تاشفين: هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن ورتانطق من كبار قادة الجيش، و الدولة المرابطية، ولد سنة (400 هـ / 1010م)، وقدمه أبو بكر بن عمر على المغرب، و فوض إليه أمرها سنة (453 هـ / 1061م). أسس مدينة مراكش، و قضى على ملوك الطوائف بالأندلس، وهو صاحب معركة الزلاقة سنة (479 هـ / 23 أكتوبر 1086م)، وهو كذلك من أمر ببناء مسجد الجزائر و مسجد تلمسان الكبير، و مسجد ندرومة، توفي رحمه الله سنة (500 هـ / 1110م) بمراكش. للمزيد من التفاصيل حول حياته و أعماله أنظر: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 172، 198.

2 - نفسه، ص 179.

3 - عبد المؤمن بن علي: هو عبد المؤمن بن علي الكومي، فهو زناقي الأصل، وكان والده علي فخارا يعمل النوافخ، وكان عبد المؤمن قد تطلب منذ صغره، و لزم المساجد لدرس القرآن، بويج بالخلافة سنة (524 هـ / 1139م)، ووحده بلاد المغرب الإسلامي، و نظم الدولة الموحدية، وفرض الأمن إلى أن توفي في العشرة الأخيرة من جمادى الثاني سنة (558 هـ/ 1171م). للمزيد من التفاصيل أنظر: - أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان (608 هـ / 681 هـ - 1211م / 1282م)، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، لبنان، دون تاريخ، ج3، ص 237، 238.

و عدلنا، فلم تزل مدينة "فاس" لا سور لها حتى بناه حفيده "المنصور"، و لكنه مات قبل إتمامه، فتممه و لده "محمد الناصر" في سنة (600هـ / 1203م)¹.

بلغت مدينة "فاس" أيام المرابطين و الموحدين ازدهارا كبيرا لم تشهد مدينة من مدن المغرب الإسلامي، حيث أحصيت الديار بها على "عهد الناصر" الموحدية فكانت تسعة و ثمانين ألف و مائتين و ست و ثلاثين داران (189236) و تسعة عشر ألف و إحدى و أربعين (19041) مصرية² و كثرت بها المنشآت العمرانية منها المساجد حيث وصل عددها أيام "المنصور الموحدي" (580هـ - 595هـ / 1184م - 1198م)، و ولده "محمد الناصر" (595هـ - 610هـ / 1198م - 1213م) بسبعمائة و اثنين و ثمانين مسجدا (782)، و الحمامات المبرزة للناس في نفس الفترة بثلاثة و سبعين حماما (70)، و من الفنادق المعدّة للتجار و المسافرين و الغرباء أربعمائة و سبعة و ستين فندقا (476)³.

و من أهم المساجد بمدينة "فاس" التي قامت بدورها كمعهد للتعليم نجد جامع "القرويين" الذي وضع حجر أساسه عام (245هـ / 859م) ليكون دار فقه و علم، و اهتم "المرابطون" و من بعدهم "الموحدون" بهذه المؤسسة الدينية العلمية، ففي سنة (528هـ / 1133م) أوكلت مهمة الإشراف على عملية إصلاح المسجد و توسعته للقاضي "محمد بن داود"، فقام القاضي بشراء الأملاك المجاورة للجامع من أجل الزيادة في مساحته، فبنى فيه الباب الكبير الغربي و هو باب "الشماعين"، و جعل للمسجد أبوابا كبيرة، كما تمت الزيادة في صحنه. و عد وفاته خلفه "عبد الحق بن معيشة"، فزاد في الجامع ثلاثة بلاطات و محرابا، و وضع له منبرا جديدا، و جعلت الأبواب كلها مغطاة بالنحاس الأصفر، و نقش على القبة و المحراب بالذهب

1 - للمزيد من التفاصيل حول دخول الموحدون إلى مدينة فاس، و حيلة التي استعملها أميرهم "عبد المؤمن بن علي" في ذلك أنظر: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 243.

2 - المصرية: دار أو بيت صغير أو متوسط بيني فوق الحوانيت و مداخل الدور الكبيرة و نحوها، نسبت إلى مصر لأن شكل بنائها منقول منها.

3 - للمزيد من التفاصيل حول عدد المنشآت المعمارية بمدينة فاس على عهد الموحدين أنظر: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 179.

و أصناف من الأصبغة، و كان الفراغ من هذه الزيادة سنة (538هـ/1143م). كما اهتم الموحدون بتزيين المسجد، حيث صنعوا له ثريا كبيرة أيام الفقيه "ابن موسى المعلم" سنة (544هـ/1202م).¹

وذكر صاحب "الاستبصار" في وصفه لمدينة "فاس" في القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد سنة تأسيس العدوتين، و المساجد الجامعة التي تقام فيها صلاة الجماعة، و يبدو أن المدينة استبحرت في العمران، و ما يدل على ذلك الزيادات التي حظيت بها هذه الجوامع: "...هي أعظم مدينة من "مصر" إلى آخر بلاد "المغرب"، و مدينة "فاس" مدينتان كبيرتان مفترقتان، يشق بينهما نهر كبير يسمى وادي "فاس"، و يدور عليها سور عظيم و بين المدينتي قناطر كثيرة، و تتردد فيها جداول الماء لا تحصى تخترق كلا المدينتين تسمى السواقي.... و فيها عيون كثيرة لا تحصى عددا.... و مدينة فاس محدثة أنشئت عدوة الأندلس سنة (192هـ/808م)، و عدوة القرويين في سنة (193هـ/809م) في ولاية "إدريس بن إدريس الفاطمي"² و مدينة "فاس" اليوم في نهاية العمارة و الصلاح و فيها اليوم ثلاثة جوامع للخطبة: جامع عدوة الأندلس، و هو جامع كبير متقن البناء يقال أن "ابن عامر"³ زاد فيه، و جامع القرويين جامع كبير أكبر من جامع عدوة الأندلس، و زيد هذه المدة في هذا الجامع باب كبير مشرف جميل المنظر... من جهة الجوف... و زيد فيه من جهة الغرب باب كبير... يسمى باب النجارين كل ذلك في حدود (578هـ/1198م)، فكملت منافع الجامع المكرم، و شرفت حومته... و كذلك

1 - جمال أحمد طه، المرجع السابق، ص 246.

2 - نسبة "لفاطمة الزهراء" بنت الرسول صلى الله عليه و سلم حيث نسبه يصل إلى "علي بن أبي طالب" زوجها رضي الله عنهما. و ليس نسبا للدولة الفاطمية.

3 - المنصور بن أبي عامر حاجب الدولة الأموية بالأندلس على عهد هشام بن المؤيد بن الحكم. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام و ما تعلق بذلك من كلام، تحقيق سيد كسراوي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1424هـ / 2003م، ج2، ص32 .

بقصبة السلطان جامع شريف معظم فيه الخطبة و أحدثها فيه هذا الأمر العزيز أدام الله اعتلاه لأن القصبة منحازة عن البلد بسور فوجب أن يكون فيها جامع...¹.

عرفت مدينة "فاس" في الفترة المرينية تطورا كبيرا بعد أن اتخذوها عاصمة لهم، ذلك منذ عهد الأمير "أبي بكر بن عبد الحق"، ففي سنة (646هـ / 1248م) بايع أشياخ المدينة الأمير المريني بالرابطة التي بخارج باب الشريعة، فاستقام له الأمر، و تهدنت البلاد و تأمنت الطرقات و كثرت الخيرات و تحركت التجارة، و أمر القبائل بعمارة القرى و المداشر الخالية و الاستكثار من الحرث.

و في عهد الأمير "يعقوب بن عبد الحق" أسست مدينة "فاس" الجديدة سنة (674هـ / 1276م) على واد فاس²

يصف "حسن الوزان" مدينة "فاس" في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد بقوله: "إن فاس مدينة كبيرة جدا، تحيط بها أسوار متينة عالية... يدخل الماء إلى المدينة من نقطتين، يمر أحد فروع النهر من فاس الجديدة جنوبا، و يدخل الفرع الآخر إليها من جهة الغرب، و بعد دخول الماء إلى المدينة يوزع بواسطة عدد من القنوات، تسوق معظمه لدور السكان ورجال الحاشية و سائر الأبنية الأخرى، فلكل جامع حقه في هذا الماء و كذلك الفنادق و الملاجئ و المدارس، و توجد قرب المساجد ميضآت عامة، و هي أبنية مربعة الشكل تحيط بها كنائف ذات أبواب قصيرة، و في كل كنيف مغسلة يخرج الماء إليها من الجدار و يسيل في الساقية من رخام. و حيث إن التيار قوي فإن الماء ينظف الميضأة و يدفع هكذا جميع قاذورات المدينة إلى النهر. و في وسط بناية الميضأة صهريج عمقه نحو ثلاثة أذرع و عرضه أربعة، و طوله اثنا عشر ذراعا. و قد صنعت حول الصهريج مجار تصرف الماء الجاري لأسفل المراحيض. و في فاس نحو مائة و خمسين ميضأة من هذا النوع.

و الدور مبنية بالآجر و الحجر المنحوت بدقة.... وكذلك الأفنية و الأروقة مبلطة بزليج مربع قديم مختلف الألوان على شكل أواني "مايورقة" الخزفية. و قد اعتاد الناس أن يصبغوا

1 - مؤلف مجهول، الاستبصار...، ص180.

2 - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص420.

السقوف بألوان زاهية مثل لآزورد و الذهب. و هذه السقوف مصنوعة من الخشب و مستوية، ليسهل نشر الغسيل على سطح الدار و النوم فيه صيفا.... و من عادتكم أيضا أن يبنوا على سطوح المنازل منتزهاً يشتمل على عدة حجيرات فسيحة و مزخرفة جدا، تتسلى فيها النساء عندما يتعبهن العمل، إذ يستطعن من هناك أن يشرفن على المدينة كلها تقريبا.

و في "فاس" حوالي سبعمائة جامع و مسجد، و المساجد أماكن صغيرة للصلاة. و يوجد من بين هذه الجوامع خمسون كبيرة حسنة البناء... و لكل جامع يصعد إليها المكلفون بالأذان لإعلان أوقات الصلوات العادية.... و في المدينة جامع عظيم يدعى جامع القرويين، و هو في غاية الكبر.... وله واحد و ثلاثون بابا كلها كبيرة عالية... و الصومعة التي يؤذن عليها عالية جدا كذلك¹.

وفي "فاس" إحدى عشرة مدرسة للطلاب جيدة البناء كثيرة الزخرفة بالزليج و الخشب المنقوش، بعضها مبّط بالرخام، و بعضها بالخزف المايورقي، و تحتوي كل مدرسة على عدة حجر، في هذه مائة حجرة أو أكثر، و في تلك أقل من هذا العدد، و كلها من تأسيس مختلف ملوك بني مرين. و تمتاز إحدى هذه المدارس (البوعنانية) بروعة فائقة سعة و جمالا، و هي من بناء السلطان "أبي عنان المريني".

و يوجد "بفاس" بيمارستانات عديدة لا تقل حسنا عن المدارس التي سبق ذكرها... و يوجد عدد كبير من البيمارستانات خارج أبواب المدينة، تقل جمالا عن التي في داخلها... و أخيرا فإن هذه البيمارستان تتوفر على كل ما يحتاج إليه من كتّاب و ممرضين و حرّاس و طبّاحين و غيرهم ممن يهتمون بالمرضى.

وفي "فاس" مائة حمام جيدة البناء حسنة الصيانة، بعضها صغير و بعضها كبير، و كلها على شكل واحد، أي أن في كل واحد منها ثلاثة حجرات أو بالأحرى ثلاث قاعات، و في خارج هذه القاعات غرف صغيرة مرتفعة قليلا يصعد إليها بخمس درجات أو ست، حيث يخلع الناس ثيابهم و يتركونها هناك.. و معظم هذه الحمامات ملك للمساجد و المدارس... و في مدينة

1 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص218.

فاس مائتا فندق، بنياها في غاية الإتقان، بعضها فسيح جدا، كالتى تقع بجوار الجامع الكبير، و تتألف كل منها من ثلاثة طبقات منها ما يشمل على مائة و عشرين غرفة، و منها ما يشمل على أكثر من ذلك... و يوجد بداخل فاس قرابة أربعمائة طاحونة، أعني أبنية مشتملة على أرحاء... و جل هذه الطواحين في ملك الجوامع و المدارس، و القليل منها ملك الخواص...¹

و مما أفردناه فقد تبين لكل ذي عقل و عين أن المدن الإسلامية لم تكن وليدة العشوائية البعيدة عن روح التفكير المسبق في اختيار الموقع و البيئة المساعدة على نشأتها و تطورها و نلخص إلى النتائج التالية الممهدة لبقية الدراسة:

- إن الأوصاف الجغرافية التي قدمها الجغرافيون الأوائل لبلاد المغرب اتسمت بكونها ناقصة، ذلك أن هؤلاء لم تكن لهم دراية كبيرة عن المغرب الأوسط إلا القليل، ما عدا إفريقية التي تمكنوا من معرفة مسالكها و أحوالها الاجتماعية و الاقتصادية، و نسيحها العمراني بصفة جيدة.

- لقد امتازت بعض الدراسات الجغرافية لبقية مدن المغرب الإسلامي بالشمولية، حيث لا يهتمون بمدن المغرب الأوسط و قراه إلا من حيث الفتح الإسلامي لها، أو في الحديث على توغل المذهب الخارجي و الشيعي، أو تأثر هذه المدن بالحضارة الإسلامية، و لم ينتهي القرن العاشر الهجري حتى تمكن الجغرافيون من وضع أدب جغرافي هام، كما زودوا من يهتم بأمر المغرب الإسلامي بالكثير من المعلومات المفيدة خاصة من الناحية العمرانية و الاجتماعية و الاقتصادية.

- إن الدراسات العلمية الإيجابية التي قدمها المستشرقون حول مدن المغرب الإسلامي، و على رغم من قلة الاستشهاد بالمصادر التاريخية الإسلامية فقد أرست عددا من المسائل الهامة المتعلقة بالمدن الإسلامية التي دارت حولها هذه الدراسات، من هذه الأمور:

- أن هناك مدينة عربية إسلامية لها صفات متشابهة ووحدة في التركيب.
- الأثر الفعال للإسلام على تركيب المدينة.
- وجود عدة مؤسسات بالمدينة.

1 - للمزيد من التفاصيل حول التطور العمراني لمدينة فاس في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد أنظر: - حسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص218.

- تعتبر "القيروان" من أقدم وأهم المدن الإسلامية، بل هي المدينة الإسلامية الأولى في منطقة المغرب الإسلامي، ويعتبر تأسيسها بداية تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في المغرب الإسلامي شيدها "عقبة بن نافع" (50 هـ / 670 م) . و منذ تأسيسها لعبت دورين هامين في آن واحد، هما: الجهاد والدعوة، فبينما كانت الجيوش تخرج منها للغزو والتوسعات، كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا بين البلاد يعلمون العربية و تعاليم الدين الإسلامي لقد بقيت القيروان حوالي أربعة قرون عاصمة الإسلام الأولى لإفريقية والأندلس ومركزا حربيًا للجيوش الإسلامية ونقطة ارتكاز رئيسية للحراك العلمي و الثقافي، و تأثرت في تخطيطها بالمدن الإسلامية المبكرة، فأثرت في بقيت المدن المغرب الإسلامي، تخطيطا و عمارة، حيث لعب مسجد القيروان المرجع الأساسي في بناء مساجد المغرب الإسلامي و الأندلس

- إن المدينة الإسلامية تتأثر بالأوضاع السياسية التي تمر عليها، من حيث نموها العمراني و بنائها الحضاري، و هذا ما حدث بمدينة القيروان و مدينة "فاس"، و كذلك مدينة "تلمسان" و مدينة "الجزائر"، و هذا ما سوف نتطرق إليه في الفصل الثاني.

الفصل الثاني: تخطيط المدن بالمغرب الأوسط و عمارتها.

- 1 - التطور العمراني لمدينة تلمسان.
- 2 - التطور العمراني لمدينة الجزائر.
- 3 - استجابة مدينتي تلمسان و الجزائر لشروط تأسيس المدن:

يرى بعض المؤرخين أن السبب المباشر في تطور المدينة هو حسن اختيار الموقع الجغرافي، مستندين في ذلك إلى ما ذكره المفكرون المسلمون¹، و لكن بالرجوع إلى دراسة عدة مدن إسلامية كانت من أبرز ما أنشأ في العصر الوسيط بالمغرب الإسلامي أساسا، نجد أن السبب الرئيسي في تطورها هي السياسة الرشيدة التي انتهجها حكامها، فالنظر مثلا مدينة "فاس" بالمغرب الأقصى و حكمة الأدارسة في تسيير مدينتهم و المرينيين بعد ذلك على ما ذكرناه في الفصل الأول من الدراسة.

و تعد "قلعة بني حماد" أقرب مثلا لنا في ذلك في المغرب الأوسط فموقعها على جبل متحصنة به بعيدة عن الموانئ الهامة بالمغرب الأوسط تحيط بها قبائل متمردة عادة، لم تكن عائقا نحو تطورها و ازدهارها، حيث أصبحت من أكبر مدن المغرب الإسلامي، فسياسة "حماد بن بلكين"² في تسييرها، و حنكته في استمالة القبائل البربرية، و فرض الطاعة عليهم، و توفر الظروف السياسية و الإقليمية شجع "القلعة" على اكتساب شهرة كبيرة، خاصة بعد فقدان مدينة "أشير" لقيمتها و مكانتها عند "الزيرين"، و هروب العلماء في بادئ الأمر من التسلط و القهر الذي مارسه الشيعة "العيديين" "بإفريقية"، ثم غزو القبائل الهلالية النازحة إلى المغرب الإسلامي. ويمكن أن نشير إلى أن العدل يلعب دورا هاما في استقرار العلماء و المفكرين بالمدينة، و لا جرم في ذلك حيث يقول الله سبحانه و تعالى ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾³، فظلم الحكام و ظلم الساكنة لأنفسهم سبب في خراب المدن و هروب النخبة منها، و التجار و أرباب المال و يقول "ابن خلدون" في ذلك: "...و اعلم أن هذه الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، هو ما ينشأ عنه من فساد العمران و خرابه، و ذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، و هي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين و النفس و العقل و النسل و المال، فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران،

1 - أنظر الفصل الأول من الدراسة، ص 13.

2 - حكم الدولة الحمادية على امتداد فتراتھا التاريخية تسعة أمراء اختلفوا قوة، و ضعفا، و أسلوب حكم و قد كان حماد مؤسس هذه الدولة، ثم خلفته ذريته من بعده إلى غاية دولة يحيى بن العزيز الحمادي (515 هـ - 547 هـ / 1121 م - 1152 م). للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر....، ج 6، ص 227.

3 - سورة الأنبياء، الآية 11.

كانت حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريمه مهما، و أدلته من القرآن و السنة كثير أكثر من أن يأخذها قانون الضبط و الحصر".¹

و إذا اجتمع السببان (الموقع الجغرافي، العدل) و تهيأت المعطيات السياسية و الجيوستراتيجية و التراكم الحضاري تنشأ مدينة لتكون حاضرة لدولة قوية مزدهرة.
و من خلال هذا الفصل سوف يتضح الأمر، و ذلك من خلال الإجابة على التساؤلات التالية:

هل عكست مدن المغرب الوسط الرؤية الإسلامية من حيث نشأتها وتأسيسها؟ وهل استجاب تطورها تخطيطا وتعميرا لهذا الفكر دينيا وفلسفيا؟.

1 - التطور العمراني لمدينة تلمسان:

1 - 1 - التاريخ السياسي لمدينة تلمسان:

أهل الموقع الجغرافي الإستراتيجي مدينة "تلمسان"² أن تكون مطمعا للدويلات الإسلامية بالمغرب الإسلامي، ومقصدا للمجموعات البشرية، و القبائل البربرية و العربية، حيث دخلها "أبو المهاجر دينار" (55 - 62 هـ / 675 - 682 م) على زمن الخليفة الأموي "معاوية بن أبي سفيان" بعد معارك ضارية مع البيزنطيين، و بالقرب من مدينة "تلمسان"³ ولد الحلف الأخوي الذي جمع كلا من "أبي المهاجر دينار" و "كسيلة بن لمزم" الأوربي، و لتخليد هذه الذكرى، شرع أعوان "أبي المهاجر" في حفر الينابيع كثيرة عرفت في المصادر التاريخية بعيون "أبي المهاجر"، ثم تقلبت بين أيدي الفاتحين المسلمين من ولاية "عقبة بن نافع" الثانية (62 هـ - 64 هـ / 682 م - 684 م) إلى غاية عهد الولاة من الأمويين ابتداء من سنة (95 هـ / 714 م)، ثم تأثرت بالتيارات المذهبية التي ظهرت بالمغرب الإسلامي بدءا عصر الولاة

1 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج2، 697، 698.

2- تقع مدينة تلمسان غرب مدينة الجزائر العاصمة و تبعد بحوالي 600 كلم.ك.

3- عرفت المدينة في الفترة الرومانية بإسم بوماريا " Pomaria " و معناها البساتين، و ذكر ذلك البكري بقوله: " ... و فيها لأول آثار القديمة، و بها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، و لهم بها كنيسة معمورة"، و كانت هذه النواة التي أسست فيها المدينة الإدريسية أغادير. للمزيد من التفاصيل أنظر:- أبو عبيد البكري، المصدر السابق، ص 76.

"الأمويين" و العباسيين¹، و كان النشاط الصفري أول نحلة برزت بالعداء للخلافة "الأموية" منذ سنة (122هـ / 740م)، و تسببوا في إنحماك قوات الولاية "بإفريقية"، و كذلك قوات الخلافة الإسلامية، و لم يستطع الولاة الأمويين الثأر لهزائمهم إلا عندما وليّ الأمر "حنظلة بن صفوان الكلبي" حيث انتصر في معركتين حاسمتين بجوار "القيروان" سميت أحدهما معركة القرن، و الثانية معركة الأصنام سنة (126هـ / 744م)، و قتل زعماء الصفرية "عبد الواحد الهواري"، و "عكاشة ابن أيوب الفزازي"، و فر "أبو قرّة اليفرني" الصفري إلى مدينة "تلمسان" و اتخذها عاصمة لإمارته بعد مبايعته سنة (140هـ / 757م)². وفي سنة (150هـ / 767م) خرج منها و دانت "للمغرويين"³ إلى غاية دخول "الأدارسة" إليها⁴.

أ- في الدولة الإدريسية:

تعد الدولة "الإدريسية"⁵ أول إمارة إسلامية انطوت مدينة "تلمسان" تحت سلطتها، ففي سنة (173هـ / 789م) خرج "إدريس بن عبد الله" برسم غزو مدينة "تلمسان" و من بها من قبائل "مغراوة" و "بني يفرن"، و نزل بجارجها، فأتاه أميرها "محمد بن خزر المغراوي" فطلب الأمان،

1- للمزيد من التفاصيل أنظر:- ابن عبد الحكم، فتوح مصر و المغرب، نشر عبد المنعم عامر، القاهرة، 1961م، ص 266. كذلك:- موسى لقبال، "تيار الفتح الإسلامي في شمال إفريقيا و نتائجه"، في كتاب الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى غاية بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 20.

2- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج4، 414.

3- كان المغرب الأوسط لزناطة، و سيادتها لقبليتين منها مغراوة، و يفرن و موطنهما نواحي تلمسان إلى وهران إلى شلف شمالا و غريس من ناحية معسكر جنوبا، و رئاسة مغراوة كانت في صدر الإسلام لصولات بن وزمان، ثم أبنة حفص، وكان من أعظم ملوك زناطة، و خلفه ابن خزر، و لعهدده كان المغرب ثائرا على بني أمية، فأعتزل بقومه، و عظم شأنه و هلك في بداية الدولة العباسية، فخلفه ابنه محمد، و علة عهده ظهر إدريس بن عبد الله. للمزيد من التفاصيل أنظر:- مبارك بن محمد المليبي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011م، ج2، ص 415.

4- للمزيد من التفاصيل حول دخول الأدارسة إلى المغرب الإسلامي و أهم القبائل البربرية التي حملت لواء الدولة. أنظر:- مؤلف مجهول (ألف حوالي 712هـ/1312م)، مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوباوية، ط1، دار أبي رقرق للطباعة و النشر، الرباط، المغرب، 2005م، ص 199.

5- للمزيد من التفاصيل حول نشأت الدولة الإدريسية أنظر:- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 21.

فأمنه "إدريس بن عبد الله"، و بايعته جميع قبائل "زناتة"¹، فدخل مدينة "تلمسان" صلحا و أمن أهلها و بنا مسجدها، و كانت المدينة تعرف "بأغادير" و هي النواة الأولى لمدينة "تلمسان" الإسلامية، و لسوء حفظنا لم يبق من آثار المدينة "الإدريسية" إلا أطلال المسجد (المئذنة تعود للفترة الزيانية)، و يقول "ابن أبي زرع": ".... و صنع فيه منبرا و كتب عليه (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به "إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب" رضي الله عنه، و ذلك في شهر صفر سنة أربع و سبعين و مئة)"².

و في سنة (299هـ / 911م) سار "إدريس بن إدريس بن عبد الله" إلى مدينة "تلمسان"، فنظر في أحوالها و أصلح أسوارها و جامعها، و أقام بها مدة ثلاث سنين.³ (الخريطة رقم:1).

ب - في الدولة المرابطية و الموحدية:

بعد نهاية الدور الأول للدولة "الإدريسية"، و خروجهم من "فاس"، و انتقال بقاياهم إلى قلعة "حجر النسر" في شعاب جبال "الريف" استبد بالأمر "موسى بن أبي العافية"⁴ مؤيدا في ذلك الفاطميين ، و لكن الأمر لم يستقر له طويلا، لأنه لم يستطع إقامة النظام، فلم تلبث وحدة القبائل التي أقامت دولة "الأدارسة" أن انفردت عقدها، فعاد المغرب الأقصى و المغرب الأوسط إلى الفوضى، و سيطرت عليه القبائل الزناتية ، معظمهم من "مغراوة" و "بني يفرن"، و أخذت زندقة "برغواطة" تنشط من جديد، و تسلم مقاليد المغرب الإسلامي "الزيرين" من طرف "الفاطميين"⁵، و نشب صراع

1 - ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص 371.

2- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 25.

3 - السليماني، المخطوط السابق، ورقة 10.

4- موسى ابن أبي العافية : مؤسس الإمارة المكناسية، بعد القضاء على آخر الأدارسة على يد "مصالة بن جبوس الصنهاجي"، حامل لواء الدعوة الفاطمية في المغرب الأوسط و الأقصى سنة (312 هـ / 925-926م)، عين "موسى بن أبي العافية" أميرا على المغربين، فقاتل الأدارسة، و أجلاهم عن بلادهم، قتل سنة (341 هـ / 952م). للمزيد من التفاصيل أنظر: - يوسف علي بديوي، عصر الدويلات الإسلامية في المغرب و المشرق من الميلاد إلى السقوط، دار الأصاله، الجزائر، 1431هـ / 2010م، ط1، ص 135.

5- للمزيد من التفاصيل حول نسب الدولة الفاطمية أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج1، ص 210. وكذلك:- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن 5 هـ / 11م، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1979م، ص 328.

سياسي و عسكري كبير بالمغرب الإسلامي، أثر سلبا على التطور الفكري و العمراني للمغرب الأوسط عموما دام حوالي سبعين سنة إلى غاية خروج المرابطين من رباطهم في جنوب المغرب الأقصى، وزحفوا نحو الشمال.

لما دانت إمارة المرابطين "ليوسف بن تاشفين" عمل على استكمال الفتح فكان له ذلك، ففي سنة (460 هـ / 1063 م) فتح بلاد غمارة، و في سنة (462 هـ / 1070 م) نازل "فاس" فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة، و قتل بها زهاء ثلاثة الاف من "مغراوة"، و "بني يفرن" و "مكناسة"، و من نجا منهم من القتل فر إلى "تلمسان"، و أمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين عدوة القرويين و الأندلسيين، ولازال "يوسف بن تاشفين" يفتح المدن، و يدوخ القبائل إلى غاية سنة (473 هـ / 1081 م - 1082 م)، فزحف على "الريف"، و افتتح "مليلة"، و حرب مدينة "نكور"، ثم زحف على بلاد المغرب الأوسط في نفس السنة (473 هـ / 1082 م - 1083 م)، ففتح مدينة "وجدة"، و بلاد "بني يزناسن"، ثم مدينة "تلمسان"، و استلحم من كان بها من "مغراوة"، و قتل "العباس بن بجتي" أمير "تلمسان"، و أنزل "محمد بن تنعمر" بها في عساكر المرابطين، و احتط بها مدينة "تكرارت" بمكان محلته ثم افتتح "وهران"، و جبل "الونشريس"، و واد شلف¹، و مدينة "تنس"، و وصل إلى غاية مدينة "الجزائر" من بني "مزغنة"، و رجع إلى "مراكش" سنة (475 هـ / 1085 م)، و دان المغرب الأوسط للمرابطين.

بقيت بمدينة "تلمسان" مرابطية إلى غاية استيلاء الحمادين عليها و ذلك لما أجاز الأمير "يوسف بن تاشفين" إلى "الأندلس" الجواز الرابع سنة (497 هـ / 1107 م)، و هذا بسبب خلاف وقع بين "المنصور بن ناصر الحمادي" و "تاشفين بن تنعمر" أمير "تلمسان" فصالحه "يوسف بن تاشفين"، و استرضاه بعدول "تاشفين" عن "تلمسان" سنة (497 هـ / 1107 م).

1 - واد شلف: يتكون من فرعين يبلغ طول أحدهما 270 كلم، و ينزل من جبل عمور، و يحمل على التوالي أسماء الأماكن التي يمر بها: وادي سيقج، و وادي البيضاء، وادي تاجوين، وادي بتين. والفرع الثاني يبلغ طوله 170 كلم، و هو يهبط من جبال تيارت، وبعدها يتجه إلى الشمال الشرقي يتحول فجأة في الاتجاه الغربي، و يجتاز السهول التي تمتد بين الظهرة، و جبال الونشريس، ثم يعود إلى الاتجاه الشمالي بعد غليزان، و يصب في البحر المتوسط على بعد 12 كلم بالشمال الشرقي لمدينة مستغانم، كان مسرحا لمعارك عديدة في العصر الوسيط. للمزيد من التفاصيل أنظر: - مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981 م، ص46.

في سنة (500 هـ / 1110 م) توفي "يوسف بن تاشفين" (400 هـ - 500 هـ / 1010 م - 1110 م)، فخلفه ابنه "علي بن يوسف بن تاشفين" (477 هـ - 537 هـ / 1085 م - 1143 م)، و لزم "المغرب الأوسط" طاعة المرابطين، و كان حد الدولة المرابطية شرقا مدينة "الجزائر"، إلى غاية وفاة الأمير "علي بن يوسف" سنة (537 هـ / 1147 م)، و خلفه ابنه "تاشفين بن علي"، و استلحم أمر الموحيدين¹. (الخريطة رقم:2).

ولما علم "عبد المؤمن بن علي" (524 هـ - 1130 م / 558 هـ - 1163 م) بوفاة "علي بن يوسف بن تاشفين" و خروج بعض القبائل عن قبيلة "المتونة" حاصر مدينة "سبتة"، و دخل إلى "تلمسان"، ثم فتح مدينة "فاس" بعد تسعة أشهر من الحصار سنة (540 هـ / 1150 م - 1151 م)²، ثم غزا "عبد المؤمن بن علي الكومي" غزوته الكبرى على بلاد المغرب، فصار يتبع جيوش المرابطين إلى أن هلك "تاشفين بن علي" "بوهرا" سنة (541 هـ / 1151 م - 1152 م) ثم فتح مدينة "مراكش" سنة (541 هـ / 1151 م - 1152 م)، و بالتالي أصبح "عبد المؤمن بن علي" سيد "مراكش" و المغرب كله، ثم جهز "عبد المؤمن بن علي" جيشه لفتح "الأندلس" ففتحها، وكان ذلك سنة (555 هـ / 1168 م)، و أمر بتحصين جبل الفتح ثم دان له "المغرب الأوسط"، و "إفريقية"، و "المهدية" سنة (555 هـ / 1168 م)⁴. (الخريطة رقم:3).

- 1 - حول دخول المهدي بن تومرت إلى المغرب و بداية الدعوة الموحدية أنظر: - السليمان، المخطوط السابق، ورقة 58.
- كذلك: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج6، ص 38. كذلك: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 208.
- 2- للمزيد من التفاصيل حول دخول المهدي بن تومرت إلى المغرب و بداية ظهور الدعوة الموحدية أنظر: - السليمان، المخطوط السابق، ورقة 68. كذلك: - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 255.
- 3 - وهران: بنتها مغراوة ياذن من أمراء الأندلس الأمويين، وأن الذي بنها من مغراوة هو خزر بن حفص ابن صولات بن وزمار بن صقلاب، و أن الخليفة الأموي الذي أمر ببنائها هو عبد الرحمن بن الحاكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل خليفة الأندلسيين في القرن الثالث الهجري. للمزيد من التفاصيل أنظر: - الأغا بن عودة المازاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و أسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق: يحيى بوعزيز، ط 1، ج1، دار المغرب الإسلامي بيروت، 1990 م، ص 85. كذلك: - البكري، المصدر السابق، ص 116.
- 4- ابن أبي زرع، المصدر سابق، ص 241. كذلك: - ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص388.

ج - في الفترة الزيانية- الحفصية- المرينية:

لما أذن الله بسقوط الدولة الموحدية بدأ الشقاق و الطمع يلج إلى قلوب القبائل العربية، و البربرية على السواء في الخروج عن عصا الطاعة، لعلمهم أنّ الدولة الموحدية قد تصدع كيانها، و انكسر جيشها بعد معركة "حصن العقاب" بالأندلس سنة (609 هـ / 1212 م)¹. بدأت بوادر الاستقلال عن السلطة المركزية بمراكش تلوح ونشأت أول ما نشأت الدولة الحفصية "بتونس"²، و استقلت عن الدولة الموحدية سنة (627 هـ / 1230 م)، ثم تلتها الدولة الزيانية، و كان من أكبر قادتها و مؤسسي الدولة "يغمراسن بن زيان" (633هـ- 1236م / 681هـ- 1283م حيث تولى أمر "بني عبد الواد" بعد موت أخيه" أبي عزة زكدان بن زيان" سنة (633 هـ / 1236م)، فاستولى على "تلمسان" وجعل منها قاعدة لدولته ووسع رقعتها على حساب دولة الموحدين الضعيفة، إلا أنّ "يغمراسن" بقي يدعوا للخليفة "بمراكش"، ولكن الموحدين أرادوا نزع مدينة "تلمسان" منه، و خلعه منها فحاصروها، وخلال ذلك طلب "يغمراسن" الأمير "أبا زكريا الحفصي" (627هـ- 1230م / 647هـ- 1249م) راغبا في القيام بدعوته، فدانت الدولة الزيانية الفتية إلى الحكم الحفصي، و لكن روح الانفصال بقيت قائمة، و تجسدت بعد مقتل "السعيد علي بن إدريس" الموحدي (640هـ- 1242م / 646هـ- 1248م) بعد محاصرته "ليغمراسن بن زيان" بقلعة "تامزردكت" و ذلك سنة (646 هـ / 1248 م)³.

1- وقعت بالأندلس بين الأمير الموحدي محمد الناصر بن يعقوب المنصور و ملك الروم ألفونسو، و ذلك بحصن عقاب من أرض الأندلس، و كان ذلك يوم الاثنين الخامس عشر صفر من عام (609 هـ/ 1212 م). كانت هذه المعركة من أشد البلاء، و الرزية العظيمة التي فقد فيها المسلمون أغلبية المعاقل، و الأراضي في الأندلس. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 315. كذلك: - مؤلف مجهول، مفاخر.....ص 208.

2- المزيد من التفاصيل حول الدولة الحفصية أنظر: - أبو العباس أحمد بن الشماع (ت: 833 هـ / 1429 م)، الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م، ص 15. كذلك: - محمد لعروسي المطوي، السلطة الحفصية، تاريخها السياسي و دورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1986 م، ص 12.

3 - للمزيد من التفاصيل: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج 7، ص 162.

و قامت بالمغرب الأقصى الدولة المرينية¹، ونتيجة لهذا التمخض الجديد الذي عرفه المغرب الإسلامي كبر الصراع على الأماكن الإستراتيجية للمغرب الإسلامي خاصة موانئ المغرب الأوسط بل تعدى ذلك ليشمل الصراع على مدينة "تلمسان" التي كانت نقطة انتقال السلع و الذهب من الصحراء، و بلاد السودان إلى الشواطئ الأندلسية و الجزر المتوسطية.

و على الرغم من هذا الصراع لم تتغير الخريطة الجيوسياسية للمنطقة جذريا، و لم تتمكن أي دولة من فرض سيطرتها المطلقة و المستمرة على بقية الدول، لأن الظروف العامة لم تكن مواتية، أو بسبب توازن القوى، إلا أن هذا الصراع خلف حالة من عدم الاستقرار السياسي و الأمني في منطقة المغرب الإسلامي برمتها و أهدر طاقات كبيرة، في وقت كان العالم الأوروبي يشهد تحولات سوف تكون لها انعكاسات خطيرة على مستوى توازن القوى النصرانية و الإسلامية، و كذا بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط الشمالية و الجنوبية.

لما استقل "أبو زكريا الحفصي" بأمر "إفريقية" بايعته قبيلة "بني توجين"²، فحين ولى "يغمراسن" رأسه إلى "مراكش" و تقلد طاعة بني "عبد المؤمن بن علي"، وكان "الرشيد" الموحدى (630هـ - 1232م/640هـ - 1242م) قد ضاعف له البر، و ذلك منذ سنة (637هـ / 1239م - 1240م)، خاصة لما تولى "يغمراسن" الحرب ضد "بني مرين" الطامعين في ملك المغرب الأقصى، و لكن هذا الولاء انفض عند أول حملة سيرها السلطان الحفصي "أبو زكريا" إلى "تلمسان"، حيث فرض سلطانه عليها، و حوصرت المدينة عدة أيام قبل أن تقتحم أسوارها، ويعمل فيها و في أهلها القتل و النهب و التخريب، و ضياع أملاك، و ذلك في أواخر سنة

1- للمزيد من التفاصيل حول نشأت الدولة المرينية، و أهم أمرائها أنظر:- تقي الدين بن علي المقرئزي (766 هـ - 845 هـ / 1364 م - 1441 م)، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي، ط1، ج1، دار المغرب الإسلامي، 1423هـ / 2002 م، ص 112، 113. كذلك:- مؤلف مجهول، الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق: محمد بن أبي شنب، مطبعة جولد كرونل، الجزائر، 1920 م، ص 15. كذلك:- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر....، ج7، ص 400. كذلك:- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 360.

2 - مواطنهم من جبل الونشريس إلى غاية صحراء تلمسان، و يقول في ذلك عبد الرحمن بن خلدون: " و تغلب بنو توجين على ما بين الصحراء و التل من بلد المرية إلى جبل الونشريس إلى مرات الجعبات و صار التخيم لملك بني عبد الواد سبك و البطحاء، فمن قبلها بني توجين و من شرقها مواطن مغراوة....". للمزيد من التفاصيل أنظر:- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر....، ج7، ص 117.

(639 هـ / 1241 م)، و أوائل سنة (640 هـ / 1242 م)¹، وفر "يغمراسن" منها، و جهز السرايا لمهاجمة معسكر الحفصيين، فعلم "أبو زكريا" أنه لا طاقة له في محاربتة، فراجعته بالإسعاف، و اتصال اليد على صاحب "مراكش"، فخطب "يغمراسن" "أبا زكريا" الحفصي راغباً في القيام بدعوته، فقبلها "أبو زكريا"، و عهد إليه ولاية "تلمسان" و أعمالها، ولكن "أبا زكريا" أراد أن يوقف جماح "يغمراسن" في التوسع بالمغرب الأوسط فجعل بين ذلك كل من "عبد القوي بن عطية التوجيني"، و "العباس بن منديل المغراوي" و "علي بن منصور المليكشي" على قومهم، و أوطانهم، و عهد إليهم بذلك، و أذن لهم باتخاذ الألة، و المراسيم السلطانية على سنن "يغمراسن" نظيرهم². و يبدو أن هذا الصلح ظل قائماً و الدعوة لبني حفص على المنابر محترمة، إلى أن عطلها "عثمان بن يغمراسن" (681 هـ – 703 هـ / 1282 – 1303 م) أواخر القرن السابع الهجري مما أدى إلى تدهور العلاقات بين الطرفين من جديد.

و ظل التوتر يطبع العلاقات الزيبانية و الحفصية، إما بسبب النزاع على بعض الأقاليم و المدن كما هو الحال في الصراع الذي دار بينهما سنة (732 هـ / 1331 م) للسيطرة على "بجاية"، حيث وجدت السلطة الحفصية دعماً من السلطة المرينية بقيادة "أبي الحسن" (731 هـ – 752 هـ / 1330 م – 1351 م)، أو لفرض الشرعية كما حدث مع الحملات العسكرية على "تلمسان" لاحقاً خلال القرن التاسع الهجري.³

لم تكن علاقات حسن الجوار بين الزيبانيين، و المرينيين هي الصفة السائدة و الدائمة، بل كانت حروب، و تطاحن، و حصار، و من خلال ذلك تنقلب مغراوة و بني توجين على السلطة الزيبانية، لما ينالهم من التتكيل من طرف "بني عبد الواد" في كل مرة عند حلول السلم مع "بني مرين".

أثناء الحصار الذي ضربه "عثمان بن يغمراسن" على قلعة بني سلامة من بلاد "توجين" سنة (698 هـ / 1298 م – 1299 م) زحف "يوسف بن يعقوب" (685 هـ – 706 هـ / 1286 م –

1 - ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهد، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1429 هـ / 2009 م، ص 172.

2- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر....، ج7، ص 164.

3 - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 26.

1307م) بالجيش المريني على "تلمسان"، و لولا تدارك "عثمان بن يغمراسن" الأمر لفتحها المرينيين، فدخلها "عثمان بن يغمراسن" و تحصن بها، و نزل "يوسف بن يعقوب" بجيشه على الهضبة المطلة على "تلمسان"، و اختط مدينة "المنصورة"، و حاصر "تلمسان" سنين و سرح عساكره لافتتاح المغرب الأوسط، و كان له ذلك.

خلال حصار "تلمسان" من طرف المرينيين توفي "عثمان بن يغمراسن" (681 هـ - 1283م / 703 هـ - 1303م)، فخلفه "أبو زيان محمد" (703 هـ - 1303م / 707 هـ - 1308م)، ودام الحصار ثماني سنين و ثلاثة أشهر¹، نال من أهل "تلمسان"، من الجهد، و الجوع ما لم ينل أمة من الأمم، و في نفس الوقت اتسعت خطط "المنصورة"²، ودام الحصار حتى قتل "يوسف بن يعقوب" من طرف أحد الحصيان أسخطته بعض النزعات الملوكية³، و ذهب الله بحجيم الحصار على الزينيين.

بعد انتهاء المحنة نهض "أبو زيان" مستردا ما أخذه منه المرينيون من أعمال، ففي سنة (706 هـ / 1307 م - 1308 م) خرج من "تلمسان" مع أخيه "أبي حمو موسى الأول" فقصد بلاد "مغراوة"، و شرد من كان هناك منهم في طاعة "بني مرين"، و أخذ الثغور من أيدي عمالهم، ثم عقد عليها "المسامح" مولاه، و رجع عنها⁴.

في فترة حكم "أبي زيان" انقطعت الدعوة للحفصيين "بتلمسان"، واستمرت على ذلك إلى غاية وفاة "أبي زيان"، ولما خلفه أخوه "أبو حمو موسى الأول" (707 هـ - 1308م/718 هـ

1 للمزيد من التفاصيل أنظر: - أحمد بن الاعرج حسيني السليمانى، المخطوط السابق، ورقة 125.

2 - للمزيد من التفاصيل حول حصار مدينة تلمسان، و تأسيس مدينة المنصورة أنظر: - عبد العزيز لعرج، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، دراسة في الفكر العمراني الإسلامي و تطبيقاته العلمية" عمرا و عمارة و فنا"، ط2، شركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، 2011م.

3 - للمزيد من التفاصيل حول مقتل السلطان يوسف بن يعقوب المريني أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص 308.

4 - محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان من نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعيايد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 م، ص 108. وكذلك: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص 191.

- 1318 م)، و كان شديد البأس اتبع سيرة أخيه "أبي زيان" في قطع الدعوة "للحفصيين"، و عقد السلم مع سلطان بني مرين لأول دولته.¹

و لما نشب الخلاف بين السلطان "أبي حمو موسى الأول" مع أمير الدولة المرينية "أبي سعيد عثمان بن يعقوب" (708 هـ - 1308 م / 710 هـ - 1310 م) بسبب تدخل "أبي حمو موسى الأول" في خلاف حدث بين السلطان المريني و أخوه "يعيش بن يعقوب"² زحف "أبو سعيد" على "تلمسان" وحاصرها، و غلب على ضواحيها. و لما انكشفت المحنة على "تلمسان" نهض "أبو حمو موسى الأول" و استعمل ابنه "أبا تاشفين" على "تلمسان" زحف على بلاد "مغراوة"، و كان ذلك سنة (707 هـ / 1307 م)، لكن "أبا تاشفين" سولت له نفسه فدخل في صراع مرير مع أبيه انتهى سنة (718 هـ / 1318 م) بقتله.³

كان "أبو تاشفين" (718 هـ - 1318 م / 737 هـ - 1337 م) مولع بالبناء و ذكر ذلك "ابن خلدون" بقوله: "...و أغرى دولته بتشيد القصور و اتخاذ الرياض و البساتين، فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك و أربى عليه، فاحتفلت القصور و المصانع في الحسن ما شاءت..."⁴، لكن هذا الأمن و الاستقرار الذي عرفته "تلمسان" و دام ما يقارب عشرون سنة انتهى بالحصار الذي ضربه المرينيون على "تلمسان" بقيادة "أبي الحسن المريني"، و مقتلهم لسلطان الدولة الزيانية "أبي تاشفين"، و ملكت بني مرين "تلمسان"، و بلاد "توجين"، و "مغراوة"، و ذلك سنة (737 هـ / 1337 م)، و انقطعت دولة "بني عبد الواد" إلى غاية إحيائها من طرف "أبي سعيد عثمان سنة" (749 هـ / 1348 م).⁵

خلال الحصار الذي فرضه "أبو الحسن" على "تلمسان"، و مسيرته إلى فتح "إفريقية"، و ما كان له فيها من مشاكل و صعاب أثناء عودته إلى المغرب اجتمعت "مغراوة" و انفصلت عن الدولة المرينية إلى حين. و لما استرد "أبو سعيد عثمان" ملك (749 هـ - 1348 م / 753 هـ - 1352 م) "تلمسان" جعل قيادة الجيش لأخيه "أبي ثابت"، فلما زحف "الناصر الحفصي" من

1 - ابن أبي زرع، المصدر سابق، ص 528.

2 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص305.

3 - مبارك بن محمد الميللي، المرجع السابق، ج3، ص 736.

4 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص 142.

5 - مبارك بن محمد الميللي، المرجع السابق، ج3، ص736.

"إفريقية" على المغرب الأوسط قعدت "مغراوة" مع أميرها "علي بن راشد" عن مناصرة "بني عبد الواد" رغم الصلح، والمواذعة، و التظاهر على عدوهم، فأسرها "أبي ثابت" في نفسه ولما هزم جيش "الناصر"، و قطع الطريق على السلطان المريني "أبي الحسن" وجه "أبو سعيد عثمان" جيوشه نحو "مغراوة"، فخرج من "تلمسان" سنة (752 هـ / 1351 م)، و زحف على المغرب الأوسط و دخل مدينة "الجزائر"، و عقد عليها "السعيد بن موسى بن علي الكردي"، و ذلك في منتصف شهر شعبان من سنة (752 هـ / 1351 م)¹.

أثناء الحصار الذي فرضه "أبو ثابت" على المغراويين بجبل "الظهرة" بعث "علي بن راشد" إلى سلطان بني مرين "أبي عنان فارس"، و طلب منه الشفاعة و الوساطة عند "أبي ثابت"، ولكن هذا الأخير رد الشفاعة و لم يقبلها، ولما بلغ "أبو عنان" نبأ مقتل "علي بن راشد"، جمع لغزو "تلمسان"، و المغرب الأوسط و كان ذلك سنة (753 هـ / 1352 م)، وانهمز جيش "بني عبد الواد" عند سهل "وجدة"، و كان ذلك في ربيع الثاني من سنة (753 هـ / 1352 م)، و قتل "أبي السعيد عثمان"، و فر "أبو ثابت" إلى "بجاية"، و دخل "أبو عنان" إلى "تلمسان"، و طلب من صاحب "بجاية" "أبي عبد الله" حفيد السلطان "أبي بكر الحفصي" القبض على "أبي ثابت"، فكان ذلك وسلم لسلطان بني مرين، و قتل بصحراء "المدية" سنة (753 هـ / 1352 م) و غلب "بنو مرين" على المغرب، و انقضى ملك "آل زيان" من جديد إلى غاية بعثه من طرف "أبي حمو موسى الثاني"².

ولما تزعم "أبو حمو موسى الثاني" أمر آل زيان (760 هـ - 1358 م / 791 هـ / 1388 م) استرجع "تلمسان"، و المغرب الأوسط من "بني مرين"³، ولكن الصراع تجدد مرة أخرى بين "أبي حمو موسى الثاني"، و السلطان المريني الجديد "أبي سالم إبراهيم" (760 هـ - 1359م/762هـ-1361م)، بسبب طلب هذا الأخير من "أبي حمو موسى الثاني" الكف عن

1 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر....، ج 7، ص160.

2- نفسه، ج 7، ص 216.

3 - للمزيد من التفاصيل حول خروج أبي حمو موسى الثاني من المغرب الأوسط و الدخول إلى مدينة تلمسان، و استقبال هائل الذي خص به من طرف أهلها أنظر: - مؤلف مجهول، زهرة البستان في تاريخ بني زيان، السفر الثاني، مخطوط بمكتبة جامع

مانشستر، بريطانيا، ميكروفيل رقم: Ms:283 / 79b ، ص 69.

المرينيين المتواجدين بالجهة الشرقية، ولكن "أبا حمو موسى الثاني" رفض ذلك فجهز "أبو سالم" الجيش المريني وزحف به على أعمال "تلمسان"، و حاصرها، و دخلها سنة (761 هـ / 1360 م)، لكن "أبا حمو موسى الثاني" خالفه إلى "المغرب" فحشي "أبو سالم" على ملكه، فقفل راجعا إلى "فاس" بعد أن عين "أبا زيان القبي"¹ على "تلمسان".²

خرج "أبو سالم إبراهيم" من "تلمسان" إلى "فاس" فاستغل "أبو حمو موسى الثاني" هذا الوضع و زحف على "تلمسان"، ففر من أمامه "أبو زيان القبي"، و استطاع السيطرة على كل ممتلكات بني مرين، وذلك يوم 8 رمضان سنة (761 هـ / 23 جويلية 1360 م).

و في سنة (768 هـ / 1366 م) ثار من جديد "أبو زيان القبي" بدعم من المرينيين حيث تمكن من "مليانة" و "البطحاء" و "المدية"، مما جعل "أبو حمو موسى الثاني" يزحف من جديد على هذه المدن، فأطاعته الحواضر "كتنس"، و "وهران"، و "مستغانم" ماعدا "الجزائر"، و كان ذلك في محرم (769 هـ / 1367 م).³

احتدم الصراع بين "أبي حمو موسى الثاني"، و "أبي زيان القبي" إلى غاية زحف السلطان "عبد العزيز" على "تلمسان"، و لقيه "أبو حمو موسى الثاني" عند جبل "بني وردنيد" فاقتتلوا قتالا شديدا توفي عندها "أبي حمو موسى الثاني"، و كان ذلك سنة (791 هـ / 1389 م)، و ملكت بنو مرين المغرب الأوسط، واستلم "أبو تاشفين عبد الرحمن" الحكم (791 هـ - 1389 م/ 795 هـ - 1393 م) بمساعدة الجيوش المرينية ضد أبيه "أبي حمو موسى الثاني"، و في زمانه بقي المغرب الأوسط تحت الحماية المرينية، وعند وفاته قام القائم بدولته بتعيين صبيا من أبنائه و قام بكفالته، و كان "يوسف بن أبي حمو موسى الثاني" (795 هـ - 1393 م/ 796 هـ - 1394 م) واليا على

1 - هو محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن تقبض عليه و على عمه أبي ثابت و وزيرهم يحيى بن داود ببجاية، و سيقوا إلى السلطان أبي عنان فقتل أبا ثابت و وزيره و استبقى محمدا و أودعه السجن، حتى إذا هلك و تأمر أمر المغرب أخيه أبي سالم امتن عليه و أطلقه من الاعتقال و نظمه بمجلس ملكه في مراتب الأعياص و أعدّه لمزاحمة ابن عمه أبي حمو موسى الثاني. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص167، 168

2 - لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، نشر و تعليق: أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص 91.

3 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص244. كذلك: - عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، حياته و آثاره، دار بن مرابط لنشر و التوزيع، الجزائر، 1432 هـ / 2011م، ص 93.

"الجزائر" من قبل "أبي تاشفين"، فلما بلغه الأمر سارع بالسير إلى "تلمسان" فدخلها، و قتل الصبي¹ و "أحمد بن العز"، و لما سمع سلطان المغرب "أبي العباس" بالأمر تجهز لفتح المغرب الأوسط من جديد و بعث من "نازي" أبنه "أبي فارس" إلى "تلمسان" فملكها، و تقدم "صالح بن حمو" وزير السلطان "أبي العباس" المريني إلى المغرب الأوسط و وصل إلى غاية حدود مدينة "بجاية"²، و انقطعت دولة "بني عبد الواد" مرة أخرى³.

لقد أصبحت "تلمسان" و من خلالها المغرب الأوسط بعد هذه السنة تتأرجح بين أمراء من "آل زيان" بدعم من المرينيين تارة، أو من الحفصيين تارة أخرى، و امتدت هذه الفترة إلى غاية (870 هـ / 1465 م)، و من أمراء بني زيان المؤيدين من طرف الحفصيين نجد "ابن الحمرة محمد بن أبي تاشفين" (827 هـ - 1423 م / 833 هـ - 1427 م) الذي استطاع حشد مؤيديه بـجبال "الونشريس"، و "برشك"، و "تنس"، ولكنه خلع الدعوة الحفصية بعد توطيده لحكمه، لكن الحفصيين ساندوا عليه "أبي مالك عبد الواحد" بن السلطان "أبي حمو موسى الثاني"، و ذلك بعد الحصار الذي فرضه "أبو فارس" الحفصي (796 هـ / 1394 م / 837 هـ - 1434 م) على "تلمسان"، ولكن "ابن الحمرة" لم يستسلم للحفصيين بل حشد القبائل القاطنة بـجبال "تنس"، و "برشك"، و سهل "شلف"⁴، و زحف بهم على "تلمسان" ففتحها في ذي الحجة سنة (833 هـ / 1440 م)، و تمكن من قتل عمه "أبي مالك"، و دفنه بالقصر القديم بعد 48 يوما من تملكه "لتلمسان".

1 - هو أبو ثابت الأول بن أبي تاشفين الثاني تولى حكم الدولة الزيانية سنة (795 / 1393 م).

2 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، 197.

3 - عبد الحميد حاجيات، "إحياء الدولة الزيانية"، في كتاب الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى غاية بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص399. وكذلك: - محمد لعروسي المطوي، المرجع السابق، ص634.

4- واد شلف: يتكون من فرعين يبلغ طول أحدهما 270 كلم، و ينزل من جبل عمور، و يحمل على التوالي أسماء الأماكن التي يمر بها: وادي سيقج، و وادي البيضاء، وادي تاجوين، وادي بتين. والفرع الثاني يبلغ طوله 170 كلم، و هو يهبط من جبال تيارت، وبعدها يتجه إلى الشمال الشرقي يتحول فجأة في الاتجاه الغربي، و يجتاز السهول التي تمتد بين الظهرة، و جبال الونشريس، ثم يعود إلى الاتجاه الشمالي بعد غليزان، و يصب في البحر المتوسط على بعد 12 كلم بالشمال الشرقي لمدينة مستغانم، كان مسرحا لمعارك عديدة في القرون الوسطى. للمزيد من التفاصيل أنظر: - أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1419 هـ / 1988 م، ص114. كذلك: - مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981 م، ص46.

فرحف السلطان الحفصي "أبو فارس" على "تلمسان" فأسره، و نصب مكانه عمه "أبا العباس أحمد العاقل" ابن السلطان "أبي حمو موسى الثاني" (834 هـ - 1430 م / 866 هـ - 1461 م)، فخرج عليه "المستعين بالله" أبي زيان محمد بن أبي ثابت"، لكنه لم يستطع دخول "تلمسان" فاكتفى بتأسيس إمارة عاصمتها "الجزائر" و تظم مدينة "تنس"، و سهل "متيجة"، "والمدينة"، وكان ذلك سنة (842 هـ / 1439 م)، و لكن أهل "الجزائر" ثاروا عليه وتمكنوا من قتله سنة (843 هـ / 1440 م)¹.

وفي أواخر سنة (870 هـ / 1466 م) زحف "المتوكل على الله" ابن أبي زيان" من مدينة "تنس"، و ضم إليه بقيت بلاد "مغراوة"، و استطاع دخول مدينة "تلمسان"، و عزل "أبا العباس محمد العاقل"، و خلع طاعته للحفصيين و لكنهم استطاعوا محاصرة "تلمسان" بقيادة السلطان "أبي عمر عثمان"، و تقرب منه الأمير الزياني "المتوكل على الله"، و زوج ابنته للأمير الحفصي "أبي زكريا"، و أعلنت أغلبية مدن المغرب الأوسط بيعتها للحفصيين².

استمرت الفتن تجتاح المملكة الزيانية لمدة طويلة، ففي عهد "أبي ثابت الثالث محمد" (890 هـ - 1485 م / 902 هـ - 1497 م) بدأت المدن و القبائل تستقل عن السلطة المركزية "بتلمسان"، كمدينة "الجزائر"، و "المدينة"، و "تنس"، و "دلس"، كما أن كثيرا من القبائل العربية خلعت طاعة السلطان الزياني، و أصبحت تنضم إلى أعدائه كلما هجموا على أراضيه، و بعد وفاته زادت الأمور سوءا واشتد خطر النصارى، و احتلت المدن الساحلية، أما سلطان الزيانيين "محمد الخامس بن محمد الثابتي"، فإنه رأى أن يفاوض الأسبان و يصالحهم، فوفد على ملك قشتالة سنة (914 هـ / 1509 م)، و عقد معه الصلح و التزم بالتبعية له و بدفع ضريبة سنوية³.

و في سنة (920 هـ / 1514 م) أصبح الأتراك العثمانيون يشكلون قوة عسكرية في الحوض الغربي للمتوسط بقيادة الإخوة "برباروس". و في سنة (922 هـ / 1516 م) توفي "محمد الخامس"، فخلفه "أبو حمو الثالث"، و ارتكزت سياسته على مسالمة الأسبان و مصالحتهم، هذا ما جعل

1 - التنسي، المصدر السابق، ص 245. كذلك:- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1384 هـ / 1965 م، ج2، ص 189. كذلك:- عبد الحميد حاجيات، استمرار النفوذ المريني....، ص 425.

2 - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 36. وكذلك:- عبد الحميد حاجيات، خطر النصارى....، ص 455.

3 - مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص 740.

سكان مدينة "تلمسان" يثورون عليه و يمكنوا "عروج باربروس" من المدينة فاستنجد "أبو حمو الثالث" بالأسبان، وحاصروا "عروج" بتلمسان"، و هزموه و قتل سنة (924هـ / 1518م). و عندما توفي "أبو حمو الثالث" سنة (934هـ / 1528م)، كان ظل الزيانيين قد تقلص و أصبح أمراؤهم يرغبون في مصالحة أعدائهم النصارى، و يرضون بالتبعية لهم و دفع الضريبة تفاديا لشهرهم. و في عهد "أبي محمد عبد الله بن محمد الثابتي" قوي نفوذ الأتراك، فاضطر إلى إجراء اتفاق سرري معهم تحت ضغط سكان مدينة "تلمسان" و علمائها، و صادف ذلك انشغال الأسبان بأوضاعهم الداخلية، فسلم من شهرهم إلى أن توفي سنة (947هـ / 1540م)¹.

وكان "أبو محمد عبد الله" قد ترك و لدين "أبو عبد الله محمد" و "أبو زيان أحمد"، فثار هذا الأخير على أخيه بتشجيع من الأتراك و العلماء "تلمسان" فخلعه، فاستجار "أبو عبد الله محمد" بالإسبان، فأمدده الملك "كارلس الخامس" بجيش و أرسله إلى "تلمسان"، لكن ذلك الجيش انهزم قرب عين تيموشنت سنة (950هـ / 1543م)، فعمل الإسبان على حشد الجيوش على لأخذ بالثأر لقتلاهم، فأغاروا على "تلمسان"، و احتلوها و قتلوا معظم أهلها، و أعادوا أبا عبد الله محمد على عرش "تلمسان"، ثم جمع "أبو زيان" كثيرا من أنصاره و قدم بهم "تلمسان"، و لكن أبا عبد الله محمد خرج عليه و هزمه، و لما عاد إلى "تلمسان" أغلق أهلها الأبواب دونه و طردوه، و استقدموا "أبا زيان" و أعادوه على عرش "تلمسان"، و بقي حليفا للأتراك إلى غاية وفاته سنة (957هـ / 1550م) فخلفه أخوه "الحسن".

وكانت الدولة الزيانية آنذاك عبارة عن منطقة صغيرة تشمل "تلمسان" و المدن المجاورة لها، و كانت السواحل الغربية تحت سلطة الإسبان، فكان ذلك يجرمها من أهم مواردها التي كانت تأتيها من تجارة الموانئ، و أصبحت مطمعا للسلطان "السعدي محمد بن محمد بن أحمد الشريف" ملك "مراكش"، ففي سنة (957هـ / 1550م) جهز جيشا بقيادة ابنه "حران" و أرسله لفتح "تلمسان" و نزعها من أيدي الأتراك و ذلك بطلب من سكان مدينة "تلمسان" فبسط نفوذه عليها

1 - للمزيد من التفاصيل حول دخول الأتراك بقيادة عروج بارباروس إلى مدينة تلمسان أنظر: - مارمول كرخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، و آخرون، دار المعرفة للنشر و التوزيع، الرباط، 1989 م، ج2، ص310.

سنة (958 هـ / 1551م)¹، ثم واصل السير نحو مدينة "مستغانم" بعد انسحاب الأتراك منها فدخلها، و عين عليها أحد الأمراء المغاربة و ترك عليها 700 فارس و بعض رماة البنادق، ثم قفل راجعا إلى مدينة "فاس"، لكن الأتراك أعادوا الكرة في عهد حاكم "الجزائر" "صالح راييس"، و طردوا جيشه، و جعلوا حدًا لإغارته، و دخلوا إلى مدينة "تلمسان"، بل وصلوا الفتح نحو مدينة "فاس" ففر صاحبها "محمد بن محمد الشريف السعدي" إلى "مراكش" فدخلها الأتراك بقيادة "حسن قورصو" و أميرها المخلوع "أبي حسون المريني"² برفقة الأمير "دبدو" متزينين بحلي فاخرة كل واحد بطراز بلده.³

1 - في العهد الذي كانت الأمور تسير على أحسن حال للمسيحيين في غرب المغرب الإسلامي، و في إحدى قرى إقليم درعة ظهر رجل يقول على نفسه أنه من السلالة النبوية و يسمى محمد بن أحمد الشريف، و يلقب بالشيخ محمد، أكتسب شهرة كبيرة عند سكان منطقة درعة، و كان ذو علم كبير في علوم الطبيعة، وعلوم السحر، و أوفد ابنه أحمد و محمد برسم خدمة السلطان مولاي أحمد الوطاسي المريني، و هنا تبدأ مسيرة الشرفاء السعديين مع السلطان و الحكم. للمزيد من التفاصيل أنظر : - ديكو دي طوريس (غادر المغرب سنة 985هـ/1577م)، تاريخ الشرفاء، ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر، شركة النشر و التوزيع، المغرب، 1988م، ص14. كذلك: - محمد الصغير الإفرائي (توفي ما بين: 1154هـ - 1157هـ / 1742م - 1745م)، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق: عبد اللطيف الشادلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1998م، ص28 ، 71.

2 - هو علي بن محمد بن محمد بن أبي زكريا الوطاسي، و كان بويغ بفاس سنة (932هـ/1525م)، ثم فر إلى الجزائر في نفس السنة بعد أن خلعه ولد أخيه أحمد بن محمد. للمزيد من التفاصيل أنظر: - للمزيد من التفاصيل أنظر: - أحمد بن القاضي (مر بالجزائر سنة 994هـ/ 1586م)، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق: محمد مرزوق، مكتبة المعارف، الرباط، 1986م، ج1، ص290. و كذلك: - محمد الصغير الإفراوي، المصدر السابق، ص71.

3 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - أبو قاسم الزباني (1147هـ - 1241هـ / 1734م - 1833م)، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق: رشيد الزاوية، مطبع المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 1992م، ج1، ص35. كذلك: - ديكو دي طوريس، المصدر السابق، ص175.

و أخيرا قرّر الأتراك خلع السلطان "الحسن بن عبد الله بن محمد الثاني"، آخر أمراء بني زيان سنة (962 هـ / 1554م)، و بذلك انقرضت الدولة الزيانية، و انتهى مجد "تلمسان" حاضرة المغرب الأوسط في الفترة الوسيطة.¹

و من خلال تتبعنا للمسار التاريخي لمدينة "تلمسان" خاصة في الفترة الزيانية يمكن تقسيم مراحل تطور هذه الدولة سياسيا إلى أربعة مراحل هي:

- مرحلة النشأة:

تمتد من سنة (633 هـ / 1235م) إلى (706 هـ / 1306م) من أشهر حكام الدولة نجد "يغمراسن بن زيان" مؤسس الدولة و منظم شؤونها، عمل على إخضاع القبائل العربية و البربرية، كما استطاع أن يمد نفوذه إلى غاية مدينتي "مليانة" و "تنس" من المغرب الأوسط. و بعد و فاته خلفه ابنه "عثمان بن يغمراسن" استمر على نفس سياسة أبيه، كما استطاع إخضاع قبائل "مغراوة" و "توجين".

- مرحلة التوسع:

تمتد من (707 هـ / 1307م) إلى (759 هـ / 1350م)، تبدأ هذه المرحلة مع انتهاء الحصار الذي فرضه المرينيون على مدينة تلمسان و إحياء الدولة الزيانية من جديد على يد "أبي حمو موسى الأول" الذي استهل سياسته بمهادنة بني مرين، فأبرم اتفاقية تتضمن الإخاء و حسن الجوار ليؤمن ظهره، اهتم بالبناء و التشييد، و تطوير الجيش، و زاد في عدته و عدده، و في عهد السلطان أبي تاشفين الأول خامس حكام الدولة الزيانية سار على نهج أسلافه حيث قام بإخضاع الأقاليم الشرقية لتلمسان، و أمر بمحاصرة "بجاية" عشرية كاملة، و حاول غزو "إفريقية" عدة مرات كانت

1 - تكررت غارات الشرفاء السعديين على تلمسان، و استعصت عليهم مرارا، نذكر على سبيل المثال: في سنة (1068 هـ / 1657م) خروج محمد بن المسن البركة لحصار مدينة تلمسان، ويقول محمد بن الطيب القادري: "... و نزل أمير المؤمنين أمير سجلماسة و أعمالها أبو عبد الله مولاي محمد بن المسن البركة مولانا الشريف الحسيني على مدينة تلمسان فحاصر بها عامل الأتراك الباشا شلي و وقع بينهما قتال في 3 جمادى و طال حصاره لها ثم ارتحل عنها و لم يتم له أمر ولايته إياها." كما ذكر عدة محاولات لحصار مدينة تلمسان من طرف الشرفاء السعديين لكنها انتهت بالفشل. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد بن الطيب القادري (ت: 1187 هـ / 1773م)، نشر المثاني لأهل القرن الحادي و الثاني، تحقيق: محمد حاجي و أحمد توفيق، مكتبة الطالب، الرباط، المغرب، ج2، ص 87، 295.

الأولى سنة (721هـ/1321م)، ثم زحف على مدينة "قسنطينة" و لكنها استعصت عليه، ثم عاد لمدينة بجاية و ابنتى حصن "بكر" و أنزل به الجنود و العتاد.

- مرحلة الازدهار و التطور:

تمتد من (759هـ /1350م) إلى سنة (791هـ /1389م)، تميزت هذه المرحلة بإعادة إحياء الدولة الزيانية على يد السلطان "أبي حمو موسى الثاني" بمساعدة الدولة الحفصية و القبائل العربية و البربرية بالمغرب الأدنى و الأوسط، حيث اتسم عهده بالنشاط العسكري المكثف الذي دام أكثر من ثلاثين سنة قضاها في البناء و التشييد و إدارة شؤون البلاد و محاربة المناوئين، و التصدي للهجمات المتكررة لبني مرين و بني حفص للحفاظ على وحدة تراب المغرب الأوسط تحت راية الدولة الزيانية و الدفاع عن حدودها المرسومة.

- مرحلة الضعف و السقوط:

تبدأ هذه المرحلة بوفاة "أبي حمو موسى الثاني"، حيث بدأت الأحوال تضطرب، و انتشرت الفوضى في الناحية الشرقية، و أصبح الدولة تسير بخطى نحو الانحطاط و التدهور، و مما زاد في طين بلة ما قام به أبنائه من المنافسة على الحكم و تهافت على السلطة. (الخريطة رقم:4)

1 - 2 - تطور خطط مدينة تلمسان:

أطلق البربر اسم "أغادير" على مدينة "بومارية"، بعد أن نجحوا في تقويض نفوذ الرومان و الوندال و البيزنطيين، و "أغادير" تعني باللغة العربية الجدار القديم، و المدينة المحصنة و يشير المعنى الأول إلى أنها مدينة قديمة أزلية، أما المعنى الثاني أن "أغادير" كانت مدينة لكنها تغير المدن المؤسسة حينئذ في ذلك الإقليم. فلا شك أنها كانت مصرا بالنسبة إليها، و كانت محصنة كأنها قلعة يحيط بها الأسوار و الأبراج المنيعة¹.

و يؤكد "أبو عبد الله محمد بن مرزوق" المشهور "بالحفيد" من كبار علماء مدينة "تلمسان" (766هـ - 1364م / 842هـ - 1438م) تسمية "تلمسان" بلد الجدار من خلال نظمه:

بلد الجدار ما أمر نواها كلف الفؤاد بجبها و هواها

1 - للمزيد من التفاصيل حول التطور العماري لمدينة تلمسان أنظر: - عبد الواحد ذنون طه، "التطور العماري لمدينة تلمسان"، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف"، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2001م، ص9.

يا عاذلي كن عاذري في حبّها يكفيك منها ماؤها و هواها¹
ثم سميت مدينة "تلمسان"² و يقول الدكتور "لعرج عبد العزيز": "...تلمسان" في إسلامها
كانت تسمى "بأجادير"³. و هي كلمة بربرية تعني الصخرة، و متمعن في موقعها يدرك أصل
التسمية، فمحيطها كتل حجرية، و منشآتھا تقوم على كتلة صخرية.
ومن الملاحظ أن غالبية الجغرافيين و المؤرخين المسلمين يطلقون اسم "تلمسان" على هذه
المدينة، و هي أيضا كلمة بربرية، مكونة كلمتين "تلم" و معناها تجمع، و "سان" معناها اثنان، أي
أنھا تجمع بين التل و الصحراء و هذا ما أشار إليه مجموعة من المؤرخين و الجغرافيين⁴ منهم "يحيى
بن خلدون" نقلا عن شيخه "أبو عبد الله محمد الآبلي"، و ذهب "المقري" إلى هذا التعريف نقلا
عما ذكره "يحيى بن خلدون" بقوله: "... و دار ملكهم وسط بين الصحراء و التل تسمى بلغة
البربر "تلمسن" كلمة مركبة من "تلم" و معناها تجمع، و "سين" و معناها اثنان: أي الصحراء و التل

1 - المقري، المصدر السابق، ج5، ص433.

2- محمد الطمار، تلمسان عبر العصور ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص12.

3- عبد العزيز لعرج، "مجموعة المنشآت المعمارية للسلطان المريني أبي الحسن بالعباد في تلمسان" ، مجلة الدراسات التراثية،
مخبر البناء الحضري للمغرب الأوسط، الجزائر، معهد الآثار، العدد2، 2008م، ص51.

4 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - لسان الدين محمد بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار، تحقيق محمد
كمال شبانة، مطبعة فضالة، المغرب، 1976م، ص184، 185. كذلك:- لسان الدين محمد بن الخطيب، ربحانة الكتاب
و نجعة المنتاب، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بالرباط، الخزانة العامة سابقا، تحت رقم:331 ك، رقم الميكروفيلم: 4237/

A29، الرباط، المغرب، ورقة503. كذلك: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص 102.

فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الآبلي¹ رحمه الله، و كان حافظا بلسان القوم، و يقال "تلمشان"، و هو أيضا مركب من "تلم" و معناه لها و "شان" أي لها شأن...². و في نفس المنحى وصف "ابن الخطيب" مدينة "تلمسان" بقوله: "تلمسان" مدينة جمعت بين الصحراء و الريف، ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه...³.

برزت مدينة "تلمسان" منذ الفترة المبكرة للفتح الإسلامي، إذ دخلها "أبو المهاجر دينار" (55-59 هـ / 675-678 م)، الذي ولي أمر "إفريقية" بين ولايتي "عقبة بن نافع" الأولى و الثانية، و به سميت عيون "أبي المهاجر" قريبا منها، و أثناء فتنة الخوارج بالمغرب الإسلامي انصرف إليها "أبو قرّة اليفرنّي" فارا من "طبنة" سنة (140 هـ / 757 م)، حيث اتخذها عاصمة لدولته الصفرية وسمي الباب الغربي على اسمه، و يقول في ذلك "البكري": "في الغرب باب "أبي قرّة".⁴. تعد هذه الفترة غامضة من تاريخ العمران و العمارة "بتلمسان"، و هذا في غياب الشواهد الأثرية، و المصادر الكتابية.

و يبدو من الوهلة الأولى أن "الأدارة" حين دخولهم "تلمسان" نزلوا بمدينة "أغادير"، وهي أول تجمع سكاني، و في انعدام الشواهد المادية يمكن الافتراض أنها المدينة التي نزلها "أبي قرّة اليفرنّي"

1 - الآبلي: (توفي سنة 757 هـ / 1356 م) - هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم عالم منطقي و رياضي، ولد بتلمسان سنة 681 هـ / 1280 م، و اصل أسرته من أبلّة (الأندلس)، نزحت إلى تلمسان، حيث كان والده من أعوان الأمير يعمراسن مؤسس الدولة الزيانية. أخذ العلم عن ابن الإمام و اعتنى بالرياضيات و العلوم التجريبية و برع في علم المنطق، و عين مدرسا رغم حداثة سنه. و في سنة 700 هـ / 1302 م فر من تلمسان عندما حاصرها جيش بني مرين، ثم توجه إلى مكة لأداء فريضة الحج و في طريقه مكث بالقاهرة، و اتصل بعلمائها مثل ابن دقيق العيد. و أثناء عودته توقف بمدينة بجاية، و درس بها مختصر بن الحاجب في الفقه. ولما بلغه أن حصار تلمسان قد انتهى قرر الرجوع إلى مسقط رأسه، و سمع ثانية من بن الأمام إلا أنه اختلف مع الأمير أبي حمو الأول فغادر تلمسان إلى فاس إلى مراكش و أخذ عن العلامة عباس بن البناء الرياضي المشهور في تلك الفترة، و من أشهر تلاميذه عبد الرحمن خلدون و يحيى بن خلدون. ثم انتقل إلى جبال الأطلس لتدريس بطلب من أحد وجهائها مدة من الزمن، ثم عاد على فاس وواصل التدريس، إلى أن توفي في ذي القعدة من السنة المذكورة أعلاه. للمزيد من التفاصيل أنظر: - المقرري المصدر السابق، ج5، ص244.

2 - المقرري، المصدر السابق، ج7، ص133، 134.

3 - ابن الخطيب، ربحانة الكتاب....، ورقة رقم 503.

4 - أبو عبيد البكري المصدر السابق، ص 76.

و لما خلاص إليها الأدارسة في عهد "إدريس بن عبد الله" سنة (174هـ / 789م)، وكان "محمد بن خزر بن صولات" أميرا عليها و على قبيلة "زناطة" مكنه من الدخول إلى "تلمسان" صلحا، فاختط "إدريس بن عبد الله" المسجد الجامع "بأغادير" و صنع له منبرا و هي النواة الأولى لتطور المدينة، ومكث بها شهرا ثم قفل راجعا إلى مدينة "فاس"، و كانت في هذه الفترة تعرف بباب "إفريقية"، ويذكر "ابن أبي زرع" أن "هارون الرشيد" لما سمع بفتح الأدارسة "لتلمسان" اغتم لذلك غما شديدا وقال لوزيره: "...أنه ولد علي بن أبي طالب.... قد قوي سلطانه و كثرت جيوشه، و علا شأنه، و اشتهر امره و اسمه، و فتح مدينة "تلمسان"، و هي باب "إفريقية"، و من ملك الباب يوشك أن يدخل الدار.¹، و بعد وفاة "إدريس بن عبد الله" ضعف شأن الأدارسة إلى غاية إحياء دولتهم من طرف "إدريس بن إدريس بن عبد الله" و اجتمعت إليه القبائل البربرية، فنهض إلى "تلمسان" سنة (199هـ / 814م)، فجدد مسجدها و أصلح منبرها و أقام بها ثلاثة سنوات²، و المسجد الجامع هذا المذكور في النصوص التاريخية هو مسجد مدينة "أغادير" ما بقي منه إلا أسوار أساساته و بقايا من حنية محرابه، و استعمل في بنائه بقايا من حجارة مهذبة تعود إلى الفترة القديمة كما تبدوا عليها أثارا من الكتابة اللاتينية.

إن إنشاء مدينة "أغادير" يعد الفعل العمراني الأول للفترة الإسلامية المبكرة في المغرب الأوسط³، و من خلاله مدينة "تلمسان"، و إن لم يتبق من المدينة الإسلامية إلا أطلال المسجد الجامع (المئذنة من الفترة الزيانية)، و بقايا من أسوار و جدران منازل و هي بقايا من حفرة منظمة التي أجريت سنة (1393هـ / 1973م) إلى غاية (1400هـ / 1979م)، ولكن من خلال وصف الذي قدمه الجغرافيين و المؤرخين يمكن تحديد التطور العمراني للمدينة ولو بصفة تقريبية.

1- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 26.

2- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر.....، ج 7، ص 156، 157.

3- عز الدين بويجاوي، تطور العمران الإسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط (من القرن الثاني إلى القرن الثامن للهجرة)، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2001م / 2002م، ص 206.

كانت مدينة "أغادير" كبيرة إذا ما قورنت بالمدن المنشأة في تلك الفترة¹، إذ كانت تحتوي على سور يحدد مساحتها فتحت فيه خمسة أبواب على شاكلة المدن الإسلامية، حيث يصفها "الحميري" بقوله: "... و لها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب "الحمام"، و باب "وهب"، و باب "الخوخة" و في المشرق "باب العقبة" و في الغرب باب "أبي قرّة"، و فيها بقية من النصارى و لهم بها كنيسة معمورة...."²، و يؤكد "البكري" هذا الوصف بقوله: "... و هي مدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز و لها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب الحمام و باب وهب و باب الخوخة، و في الشرق باب العقبة و في الغرب باب "أبي قرّة"، و فيها لأول آثار القديمة، و بها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، و لهم بها كنيسة معمورة و كان الأول قد جلبوا إليها الماء من عيون تسمى "لوريط" بينها و بين المدينة ستة أميال، و هذه المدينة "تلمسان" قاعدة المغرب الأوسط و لها أسواق و مساجد و مسجد جامع وأشجار و أنهار عليها الطواحين و هو نهر "سطفيف" و هي دار مملكة زناته و موسطة قبائل البربر و مقصد لتجار الأفاق، و نزلها "محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب" الذي بنا "جراوة" و كان أميرها و بها توفي، و لم تنزل "تلمسان" دارا للعلماء و المحدثين و حملة الرأي على مذهب "مالك بن أنس" رحمه الله....."³.

يبدوا من خلال وصف "البكري" أن مدينة "أغادير" كانت موجودة قبل دخول الأدارسة إليها، حيث كانت دار مملكة المغراويين الزناتيين حيث استوطنوا المدينة القديمة البيزنطية كما استعملوا الحجارة القديمة في مساكنهم و كذلك بقايا جدران بيت الصلاة، و هذا ما تؤكد الحفريات التي أقيمت بالموقع الأثري بين سنتي (1393هـ / 1973م) إلى غاية (1400هـ / 1979م)⁴.

1- عز الدين بويجاوي، المرجع السابق، ص 206.

2- الحميري، المصدر السابق، ص 135.

3- البكري، المصدر السابق، ص 76، 77.

4 - كما نجد في قاعدة المئذنة الزياتية، و بقاء هذه الحجارة إلى غاية هذه الفترة يدل أن المدينة القديمة كانت كبيرة. للمزيد من التفاصيل حول نتائج حفريات أغادير أنظر: - معروف بلحاج، "حفريات أغادير الأثرية بتلمسان، قراءة في مراحل التنقيب و النتائج"، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف"، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2001م، ص 291.

و من بين أهم الأمور التي ساعدت مدينة "أغادير" على التطور و كثرة الأسواق فيها هو وقوعها بين مفترق الطرق، خاصة الطريق الجنوبي القادم من "سجلماسة" (طريق الذهب)، و هذا ما جعلها مطمع للدويلات الناشئة بالمغرب الإسلامي.

بعد سقوط الدولة الإدريسية على يد "الفاطميين" سنة (319 هـ / 931م)، تأثرت المدينة بالصراع السياسي و القبلي الذي كان بالمغرب الإسلامي خلال هذه الفترة، حيث سعى الأمويون أمراء الأندلس على بسط نفوذهم بالمغرب الإسلامي و قطع الطريق على "الفاطميين"، في حين أراد هؤلاء توحيد المغرب الإسلامي جغرافيا و مذهبيا ، فأدخلوا في هذا الصراع القبائل البربرية خاصة الزناتية و الصنهاجية، و دام هذا الصراع إلى غاية ظهور المرابطين على الساحة السياسية.

يبدو أن المدينة لم تتسع خارج محيط "أغادير" إلى غاية الفترة المرابطية، و هذا بسبب الصراع و لا أمن الذي عرفته منطقة المغرب الأوسط عموما و مدينة "تلمسان" خصوصا، و قد دام ذلك من سنة (219هـ / 834م)، و هي السنة التي تغلب فيها "موسى بن أبي العافية" على أميرها "حسن بن أبي العيش" إلى غاية دخول "يوسف بن تاشفين" إليها سنة (473 هـ / 1082م)، و يقول في ذلك "ابن خلدون": "...ثم افتتح مدينة "تلمسان" و استلحم من كان بها من "مغراوة" و قتل "العباس بن بختي" أمير "تلمسان" و أنزل "محمد بن تينعمر المسوفي" بها في عساكر المرابطين، فصارت ثغرا لملكه و نزل بعساكرة، و احتط بها مدينة "تاكرارت" بمكان محله و هو إسم المحلة باللسان البربري....."¹.

بدخول المرابطون "تلمسان" توسعت مدينة "أغادير" نحو الغرب، حيث أسسوا فيها مدينة جديدة أطلق عليها "تاكرارت" أو "تجرارت" و تعني المحلة أو المعسكر بلسان "صنهاجة"، و قد ذكر ذلك "يحيى بن خلدون"² في كتابه "بغية الرواد"، و أطلق عليها "ابن مرزوق"³ بالبلد العليا، و ذكرت باسم "تلمسان الحديثة" عند "عبد الله التنسي"⁴، فقد أراد "يوسف بن تاشفين" أن يجعل

1 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر....، ج6، ص 380.

2 - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 91. كذلك: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج6، ص 380.

3 - ابن مرزوق، المناقب...، ص 147.

4 - التنسي، المصدر السابق، ص 125.

مدينة "تلمسان" قطبا هاما من أقطاب الدولة المرابطية¹، فأسس المسجد الكبير وسورا جديدا يضم المدينة القديمة "أغادير" و المدينة الجديدة "تكرارت"، و فتح فيه خمسة أبواب، أربعة أبواب جديدة و أبقى باب "العقبة"، و بالتالي أصبحت أبواب "تلمسان" كالتالي: باب "الجياد" في الناحية الجنوبية، و باب "العقبة" في الناحية الشرقية و باب "الجلوس" و باب "القرمدين" في الناحية الشمالية، و باب "كشوط" في الناحية الغربية، و قدم لنا "ياقوت الحموي" وصفا هام حيث يقول: "...هما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة و الأخرى حديثة، و الحديثة اختطها المثلثون ملوك المغرب و إسمها "تافزرت" (كذا) (تكرارت) فيها يسكن الجند و أصحاب السلطان و أصناف من الناس، و إسم القديمة "أغادير" يسكنها الرعية..."²، و ما يمكننا أن نستنتج من نص "ياقوت الحموي" أن مدينة "أغادير" تحولت في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي إلى حي من أحياء المدينة الجديدة.

أنشأ السكان و الوافدين إليها في هذه الفترة دورا جديدة في مدينة "تكرارت"، و هذا ما أشار إليه "ابن مرزوق" عند تطرقه إلى هجرة المرازق الأوائل إلى "تلمسان" عند حصار المرابطين لها³. و وفي غياب النصوص التاريخية التي تؤكد ذلك أتساءل هل مسجد "أغادير" تحول إلى مسجد لحي "أغادير" في حين أصبح المسجد المرابطي هو المسجد الجامع لمدينة "تلمسان"؟.

و حول هذا المسجد سوف تبنى الدور و المرافق الاجتماعية المرتبطة بتوسع المدينة، و في هذه الفترة بدأت التأثيرات الأندلسية تبرز واضحة المعالم على العمارة الإسلامية بالمغرب الإسلامي، و تأكدت الصلة بين الأندلس و المغرب الأوسط، و تدعمت العلاقات بين القطرين، و قد استفاد المغرب الأوسط كثيرا من الناحية الحضارية و العلمية، إذ الأندلس كانت تزخر بالعلم و العلماء، ثم إن هجمات النصارى على أراضي المسلمين التي ازدادت خطورة بعد سقوط الدولة الأموية بقرطبة، و تشتت السلطة السياسية أيام ملوك الطوائف، قد أدت إلى هجرة كثير من علماء الأندلس إلى مختلف أقطار المغرب، فكان لذلك أثر كبير و ملحوظ في تطور الحياة الفكرية و العمرانية بها.

1 - عز الدين بويحيوي، المرجع السابق، ص 210.

2 - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 44.

3 - ابن مرزوق، المناقب...، ص 147.

و بعد وفاة "يوسف بن تاشفين"، خلفه ابنه "علي بن يوسف"، و في عهده تعمق الأثر الأندلسي في الفنون المغربية مثلما يتضح ذلك في أعماله بجامع "تلمسان"، و جامع القرويين "بفاس"، و ذلك الأمر يبدو طبيعياً "فعلي بن يوسف" كان أندلسياً أكثر منه مغربياً، حيث نشأ "بالأندلس"، و قضى معظم حياته فيها في أيام أبيه، و كانت أمه أندلسية فلا جرم أن يكون مرهف الإحساس، محبا للفن، و يشهد على ذلك رقة أعماله، و فخامة الزينة التي ظهرت عليها آثاره في جامع "تلمسان"¹، حيث قام بتوسعة المسجد الجامع المرابطي، و تزيين بلاطته الوسطى و محرابه. و في عهد ابنه تدهورت الأوضاع السياسة بسبب ظهور الموحدين، حيث سعى "تاشفين بن علي" على الحفاظ على دولته، ولكنه توفي "بوهران" بعد حروب ضارية مع الموحدين سنة (541 هـ / 1146م).

في الفترة الموحدية تحول المغرب الأوسط إلى ساحة لصراع سياسي و عسكري بين القبائل البربرية و القبائل العربية، بالإضافة إلى ظهور بنو غانية و صراعهم العسكري مع الدولة الموحدية، و مع هذا كله اعتنى الموحدون بمدينة "تلمسان" كثيراً، و جعلوها مدينة محصنة تستعصي على كل طارق، و اتسعت خطتها و تجهزت لتكون عاصمة للزيانيين و المغرب الأوسط، ولما كان الأمن من شروط التطور و التحضر و توسع خطط المدينة و هجرة العلماء و الصناع إليها عمل "عبد المؤمن بن علي" على المآخات بين الموحدين و حي "بني عبد الواد"، و يصف لنا "عبد الرحمن بن خلدون" الأهمية التي أعطاها الموحدون لمدينة "تلمسان" بقوله: "...ولما غلب عبد المؤمن "لمتونة"، و قتل "تاشفين بن علي" "بوهران" خربها و خرب "تلمسان" بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها و ذلك أعوام من المائة السادسة (الصحيح المائة الخامسة)². ثم راجع الرأي فيها، و ندب الناس لعمارها، و جمع الأيدي على رمّ ما تثلم من أسوارها..... و صرف ولاية الموحدين "بتلمسان" من السادة نظرهم و اهتمامهم إلى تحصينها و تشييد أسوارها، و حشد الناس إلى عمارتها، و التناخي في تمصيرها و اتخاذ الصروح و القصور بها و الاحتفال في مقاصر الملك و اتساع خطة الدور، و كان من أعظمهم اهتماما بذلك وأوسعهم فيه نظرا السيد "أبو عمران موسى" ابن أمير المؤمنين

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز لعرج، العمارة المرينية...، ص 475.

2 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، م7، ص159.

"يوسف العشري" وولياها سنة ست و خمسين (الصحيح سنة 566هـ / 1170م)¹.... فشيّد بناءها و أوسع خطتها و أدار سياج الأسوار عليها... ولما كان أمر "بني غانية" و خروجهم من "ميورقة" سنة إحدى و ثمانين (581هـ / 1185م)... و تخطوا مدينة "الجزائر"... تلافى السيد "أبو الحسن" أمره بإمعان النظر في تشييد أسوارها و الاستبلاغ في تحصينها، و سد فروجها، و أعماق الحفائر نطاقا عليها، حتى صيرها أمنع معاقل المغرب، و أحسن أمصاره.... ولم يزل عمران "تلمسان" يتزايد، و خطتها تتسع، و الصروح بها بالآجر و القرميد تعالي و تشاد...².

ويفسر غياب الشواهد الأثرية التي ترجع للفترة الموحدية بمدينة "تلمسان" و بالمغرب الأوسط عامة إلى الفتنة التي أحدثها "بنو غانية" بالمغرب الإسلامي، حيث هدموا و غربوا جل مدن المغرب الأوسط، و يقول "ابن خلدون" في ذلك: "... و كان "ابن غانية" كثيرا ما يجلب على ضواحي "تلمسان" و بلاد زناتة و يطرقها بمن معه من ناعق الفتنة إلى أن خرب الكثير من أمصارها مثل "ناهرت" و غيرها.... و تخطف الناس من السابلة و تخرب العمران و مغالبتهم حاميتها من عساكر الموحدين مثل قصر "عجيسة"... و مرسى "الدجاج" و "الجعبات" و "القلعة"، فلم تبصر بها نار و لا لفحت بها لنافخ ضرمة، ولا صرخت لها آخر الدهر ديكة...³.

ولما نزلها "آل زيان" و اتخذوها دارا لملكهم و كرسيا لسلطانهم، فاختموا بها القصور المونقة و المنازل الحافلة و اغتسوا الرياض و البساتين و أجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب ورحل إليها الناس من القاصية، و نفقت بها أسواق العلوم و الصنائع، فنشأ بها العلماء و اشتهر فيها الأعلام و ضاهت أمصار الدول الإسلامية و القواعد الخلافية، و وصفها السلطان "يوسف الأول" أمير "غرناطة" في رسالة أرسلها إلى "أبي عنان المريني" عند دخوله إلى "تلمسان" و المؤرخة في ربيع الأول من سنة 752هـ / أول ماي سنة 1351م بقوله: "فتح "تلمسان" و ما

1 - هي سنة (566 هـ / 1170م) و يقول يحيى بن خلدون: "... و ابتدأ (البناء) سورها السيد موسى بن يوسف العسري بن عبد المؤمن بن علي سنة ست و يتين و خمسمائة و كمله و حصنه السيد ابو الحسن ابن السيد حفص بن عبد المؤمن في حدود إحدى و ثمانين عند استيلاء أولاد غانية على بجاية و الجزائر و المدية...". للمزيد من التفاصيل أنظر: - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 91.

2 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، م7، ص161.

3 - نفسه.

أدراك ما "تلمسان"؟؟ قاعدة الملك ووساطة السلك و قلادة النحر، و حاضرة البر و البحر، أسندت إلى الليل ظهرا، و أفصحت بالفجر جهرا، و أصبحت للغرب بابا، و لركاب الحج ركابا، و لسهام الآمال هدفا و لدور العلماء و الصالحين صدفا. حسناء تسبي العقول بين التمتع و السفرور... و تبجحت بوفور العمارة و دار الجباية...¹.

كما اتسعت المدينة خارج أسوارها و تشكلت مجموعة من التجمعات السكانية عبارة عن أرياض² خاصة حي "العباد"³ الذي كان مقصدا للعلماء و طلبة العلم، و هذا راجعا أساسا لأمرين هامين، أولهما وجود ضريح العالم الرباني "أبو مدين شعيب"⁴، و المدرسة التي شيدها أبو "الحسن المريني"⁵.

1 - لسان الدين بن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1423هـ. 2003م، ص85، 86. كذلك:- أحمد العزاوي، الغرب الإسلامي في أواسط القرن الثامن الهجري القرن 14م، دراسة تاريخية لديوانيات ربحانة الكتاب لابن الخطيب، ط1، مطبعة الرباط، المغرب، 2008م، ص76.

2 - الرّيض: ما حول المدينة، قال بعضهم: الرّيض و الرّيضُ، بالضم وسط الشيء، و الرّيض بالتحريك، نواحيه و جمعها أرياض، و الريض حريم المسجد. قال ابن خالويه: رُيُض المدينة، بضم الراء و الباء، أساسها، و بفتحها: ماحولها، و في الحديث: أنا زعيم بيت في ريض الجنة، و هو بفتح الباء، ما حولها خارجا عنها تشبيها بالأبنية التي تكون حول المدن و تحت القلاع، و منه حديث ابن الزبير و بناء الكعبة: فأخذ ابن مطيع العتلة من شقّ الرّيض الذي يلي دار بني حميد. أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص30.

3- يقول حسن الوزان: "العباد مدينة صغيرة شبه ريض، تقع على بعد نحو ميل من مدينة تلمسان و هي كثيرة الازدهار وافرّة السكان و الصناع، و معظمهم من الصباغين، و بها دفن ولي كبير، ذو صيت شهير، يوجد ضريحه في المسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلم من عدة درجات، و يعظم أهل تلمسان و البلاد المجاورة لها هذا الوالي كثيرا و يستغيثون به و يتصدقون عنده كثيرا لوجه الله، و يسمى سيدي بمدين، و هناك أيضا مدرسة جميلة جدا، و فندق لإيواء الغرباء أسسهما بعض ملوك فاس من بني مرين، حسبما يقرأ ذلك في الرخامتين المنقوشة عليهما أسماؤهما". للمزيد من التفاصيل أنظر: - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص24.

4 - هو شعيب بن الحسين الأندلسي، شيخ المشايخ، و سيد العارفين، و قدوة السالكين توفي بتلمسان سنة (594هـ/ 1197م). للمزيد من التفاصيل حول ترجمته أنظر: - المقرئ، المصدر السابق، ج7، ص136.

5 - بنيت المجموعة المعمارية من طرف أبي الحسن المريني تكريما لأبي مدين بن شعيب وهو ولي صالح أصله من اشبيلية ودفن بعين المكان خلال القرن (6هـ/ 12م). وقد ساهم في نشر وإشعاع التصوف ببلاد المغرب. تضم هذه المجموعة الهندسية مسجدا وضريحا ومدرسة وحمامات. بني المسجد بأمر السلطان المريني أبي الحسن سنة (739 هـ / 1339م) كما تدل عليه

و يصفها "حسن الوزان" في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد وصفا دقيقا واسعا مشتملا على جميع المظاهر الحضارية لذلك قمت بإفراجه كاملا: "...تلمسان" مدينة كبيرة و هي عاصمة المملكة..... وكل ما يقال أنها كانت صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب "أرشكول"، وخصوصا بعد طرد جنود "المنصور بن أبي عامر" من المنطقة و قد توسعت أيام "بني عبد الواد" حتى أصبح فيها ستة عشر ألف كانون على عهد "أبي تاشفين"، و بلغت حقا درجة عالية من الازدهار لكن "تلمسان" تضررت كثيرا من جراء الحصار المضروب عليها من طرف "أبي يعقوب يوسف" ثاني ملوك بني مرين الذي بنى مدينة أخرى شرق مدينة "تلمسان" و دام الحصار سبعة سنوات و استفحل الغلاء إلى أن بلغ ثمن كيل روجيو من القمح ثلاثين مثقالا، و سكورزو من الملح ثلاثة مثاقيل، و رطل لحم ربع مثقال، فلم يطق السكان تحمل مثل هذه الجماعة واشتكوا إلى الملك... و بعد مرور أربعين عاما جاء "أبو الحسن" رابع الملوك المرينيين بمدينة "فاس" فشيّد مدينة على ميلين غربي "تلمسان" و حاصر "تلمسان" بجيش كثير..... ولما ضعفت شوكة بني مرين، تكاثر سكان

النيقية الموجودة فوق الباب مكتوبة بخط نسخي أندلسي: " الحمد لله وحده أمر بتشيد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله ابن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان عام تسعة وثلاثين وسبعمائة نفعهم الله ابن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق أيده الله ونصره به". يعد المسجد من أهم منجزات الفن المغربي - الأندلسي بتلمسان مساحته 537،70م². يتشكل المدخل الرئيسي للمعلم من باب كبير يؤدي إلى بهو مزين بألواح جبسية منقوشة بإتقان وتعلوه قبة ذات مقرنصات. يتم الوصول إليه بواسطة درج كسيت الأبواب الخشبية بالبرونز، وهي تؤدي إلى داخل صحن مستطيل تتوسطه نافورة ماء وتحيط بجناباته أروقة تشكل في الجهتين الغربية والشرقية امتدادا لبلاطات قاعة الصلاة و التي يغطيها سقف مائل ذو تجويفات وزخارف هندسية من النجوم والأشكال المتقاطعة والوردية. تتكون هذه القاعة من خمس بلاطات موازية لجدار القبلة تنقسم إلى ثلاث أساكيب وتتكى على بلاط متعامد مع القبلة، وترتكز العقود على دعائم مزين جزؤها العلوي بتوريق عربي، و المحراب عبارة عن غرفة صغيرة تغطيها قبة ذات مقرنصات، والعقد الذي يمكن من الولوج إليها ذو شكل بيضوي جد متجاوز، وهو يرتكز على أعمدة ذات تيجان مركبة تحتمل تأثيرات الفترة القديمة وهي مزينة بإفريز يحمل كتابات وبكتف العقد المنمق بغصنات يندرج داخل إطار مستطيل تعلوه ثلاث شماسيات جبسية دقيقة الصنع، و بالزاوية الشمالية الشرقية للباب تلتصق المئذنة المبنية من الآجر والمكسوة بالزليج، أما بدنها المربع الزوايا طوله 27،50 م، والمتوج بشرفات مسننة والذي يعلوه الجوسق، وهو مزين بلوحات مستطيلة تضم في الأسفل عقودا متعددة الفصوص وفي الأعلى تنتشر شبكة من المعينات الناجمة عن تداخل عقود منحنية. وهي متوجة بإفريز من الزخارف الوردية المصنوعة من الزليج. للمزيد من التفاصيل أنظر أطروحة الدكتوراه حول العمارة المرينية في مدينة تلمسان: - عبد العزيز لعرج، العمارة المرينية...، ص300.

تلمسان من جديد، حتى بلغ عدد دورهم المسكونة ثلاثة عشر ألف دار. وجميع الصنائع و التجارات "بتلمسان" موزعة على مختلف الساحات و الأزقة.... لكن دور "تلمسان" أقل قيمة بكثير من دور "فاس"، و توجد "بتلمسان" مساجد¹ عديدة جميلة²... لها أئمة و خطباء و خمسة

1 - تشتهر مدينة تلمسان بعدد كبير من المساجد تعود إلى الفترة الوسيطة، حيث تعتبر من أرقى ما وصل إليه المعماري المسلم بالمغرب الأوسط، بالإضافة إلى التأثير الأندلسي الفني، و الذي يتجلى بشكل كبير في عمارة المساجد بمدينة تلمسان و منها القائمة و منها المنذرة، و لقد تصدى للتدريس في هذا المسجد أجيال من العلماء و الفقهاء، و الأدباء و المشرعين و اللغويين من ضمنهم الشيخ عبد السلام التونسي شيخ عبد المؤمن بن علي، و كذلك الشيخ إبراهيم الأبلي، و ابن خلدون، و عبد الرحمن الدوايدي، و السنوسي و ابن زكري و غيرهم من العلماء الأخيار، كما تخرج منه عدد كبير من طلبة العلم على اختلاف تخصصاتهم و تعدد بلدانهم خاصة في العصر الوسيط على أيام الدولة المرابطية، و الموحدية، و الزيانية.

2 - من بين أجمل المساجد في مدينة تلمسان نجد مسجد سيدي أبي الحسن، حيث يقع شرق جنوب المسجد الكبير المرابطي، و غرب مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، شيده السلطان أبو سعيد عثمان ابن يغمراسن أحد أمراء بني زيان في سنة (696هـ / 1297م) تكريماً لذكرى الأمير أبي عامر إبراهيم، حسبما نصت عليه النقوش المثبتة على الجدار الغربي للمسجد، والمكتوبة على صفحة من المرمر الأخضر بخط أندلسي أنيق، أنه تذكاري للأمير أبي عامر إبراهيم بن أبي يحيى يغمراسن بن زيان الذي أوصى ببناء هذا المسجد قبل وفاته وحبس عليه بعض أمواله العقارية، علماً أنه يحمل اسم الولي أبي الحسن بن يخلف التنسي أحد مشاهير العلم في تلمسان ليدرس فيه فاستمر في أداء رسالته إلى غاية الاحتلال الفرنسي، فحواله الفرنسيون إلى متحف الفن الإسلامي، و مازال كذلك إلى اليوم يشهد على روعة وازدهار عمارة المساجد بتلمسان، فهو وعلى صغر حجمه وقربه من المسجد الكبير إلا أنه يلفت نظر الزائر إليه لكونه تحفة نادرة، تحول إلى متحف مدينة تلمسان ثم إلى مدرسة في الفترة الاستعمارية، حالياً اتخذ متحفا للفن الإسلامي. المسجد عبارة عن مخطط مستطيل الشكل مساحته 100م²، له ثلاثة أبواب، قاعة صلاة به مقسمة إلى ثلاثة بلاطات عمودية على جدار القبلة، يفصل بينها صفان من الأعمدة تترابط فيما بينها بعقود حدوية الشكل، و سقفه خشبي جملوني على شكل أروقة طويلة قائم على ستة أعمدة عالية و رقيقة صنعت من الرخام الأبيض، أما جدرانه فقد كسيت بالحصص في غاية من الجمال بزخرفة قوامها العناصر النباتية و الهندسية و الكتابية متداخلة في مابينها مشكلة بذلك أرقى ما وصل إليه فن التوريق العربي (الأربسك)، وأما المحراب فهو عبارة عن حنية سداسية الأضلاع، ويشكل قطعة أثرية كاملة مع رفة و صفاء الخطوط وتشابك جميل للرموز وتجانس دوائره، وتنوع زخارفه التي نقل السلطان أبو سعيد عثمان إلى تلمسان كثيراً من عناصرها الأندلسية، ومنها الزليج، و يعتبر صورة طبق الأصل لمحراب جامع قرطبة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز لعرج، "جمالية الزخارف النباتية في الفن الإسلامي بجامعي تلمسان و سيدي بلحسن"، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف"، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2001م، ص205.

مدارس حسنة جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء و غيرها من الأعمال الفنية شيد بعضها ملوك "تلمسان" و بعضها ملوك "فاس"، وبها كذلك عدة حمامات متفاوتة القيمة لكنها ناقصة الماء بالنسبة لحمامات "فاس" و فيها فنادق نمط الإفريقي، منها اثنان لمقام تجار "جنوة" و "البندقية"، و حارة تضم نحو خمسمائة دار لليهود.....و بالمدينة عدة سقايات، لكن العيون توجد خارج المدينة، بحيث إن العدو يمكنه أن يقطع الماء عنها بدون صعوبة، و الأسوار في غاية الارتفاع و القوة فتحت فيها خمسة أبواب واسعة جدا، مصاريعها مصفحة بالحديد، و قد أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها موظفون و حراس و مكاسون و القصر الملكي واقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير على شكل قلعة، و يضم قصورا أخرى صغيرة ببساتينها و ساقياتها، و كلها مبنية بكامل العناية و بأسلوب فني رائع، للقصر الملكي بابان أحدهما إلى البادية تجاه الجبل، والآخر إلى قلب الجبل المدينة حيث يقيم رئيس الحرس، و في خارج "تلمسان" ممتلكات هائلة فيها دور جميلة للغاية ينعم المدنيون بسكنائها في الصيف، حيث الكروم المغروسة الممتازة تنتج أعنابا من كل نوع....ولنرجع إلى المدينة، حيث يوجد بها قضاة و محامون و عدد من العدول يتدخلون في الدعاوي، وكثير من الطلبة و الأساتذة في مختلف المواد سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية، وتكلف المدارس الخمسة بمعاشهم بكيفية منتظمة.

وينقسم أهل "تلمسان" إلى أربع طبقات: الصناع و التجار و الطلبة و الجنود، فالتجار أناس منصفون مخلصون جدا و أمناء في تجارتهم يحرصون على أن تكون مدينتهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه.....و الصناع أناس أقوياء يعيشون في هناء و متعة و يجنون التمتع بالحياة، أما الجنود فكلهم ممتازون يتقاضون أجرة ملائمة إلى غاية إلى حد أن أقلهم رتبة ينال شهريا ثلاثة مثاقيل بسكتهم... و هذه أجرة الرجل و للفرس كأن كل جندي إفريقي مفروض أن يكون فارسا محاربا، و الطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بائسة في مدارسهم لكن عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذا أو عدلا أو إماما.....¹.

1 - حسن الوزان، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 17، 18.

2 - التطور العمراني لمدينة الجزائر:

2-1 - التاريخ السياسي لمدينة الجزائر:

إن المتصفح للمصادر التاريخية للمغرب الإسلامي يلاحظ أن المدن الساحلية العتيقة لم تذكر في القرون الثلاثة الأولى للفتح الإسلامي للمغرب، على غرار مدينة "الجزائر"¹، وهذا ليس بغريب إذا علمنا أن الجيش الإسلامي في فتوحه للمغرب الإسلامي كان يسير بين الأطلس التلي و الأطلس الصحراوي أي عبر منطقة السهوب، و يبدو أنه تفادى المدن الشمالية لصعوبة مسالكها من جهة و تمسك سكانها بالعادات و تقاليد المكتسبة من جراء الاحتكاك بالحضارة الرومانية و البيزنطية عكس القبائل البدوية التي تقبلت الإسلام منذ العمليات الأولى للفتح الإسلامي.

كما لم تطلعنا على السنة التي دخلت فيها المدينة تحت راية الإسلام، و هذا ما يجعلنا نتساءل هل المدينة "الجزائر" كانت من مضارب قبيلة "زناته" أو "صنهاجة"؟ و الأقرب إلى ذلك يبدو أنها أراضيها كانت "صنهاجية"، و كذلك عبر تاريخها الإسلامي كانت دائما تابعة "لصنهاجة" الحضر أو البدو.²

يرجع أول تعريف جغرافي لمدينة "الجزائر" إلى أواخر القرن (4هـ / 10م)، نصادفه عند "ابن حوقل" في "كتاب صورة الأرض" حيث يقول: " و "جزائر بني مزغناي" مدينة عليها سيف البحر أيضا و فيها أسواق كثيرة، و لها عيون على البحر طيبة و شربهم منها، و لها بادية كبيرة و جبال فيها من البربر كثرة، و أكثر أموالهم المواشي من البقر و الغنم سائمة في الجبال، و لهم من العسل ما يجهز عنهم و السمن و التين ما يجهز و يجلب إلى "القيروان" و غيرها. و لها جزيرة في البحر على رمية سهم منها تحاذيها فإذا نزل بهم عدو لجؤوا إليها فكانوا منعة و أمن ممن يحدرونه و يخافونه"³. و قد أشار إليها في كتابه، و هذا دليل على أنه لم تظهر أهميتها إلا في عصر الدولة

1 - كانت مدينة الجزائر تتأثر بالأوضاع السياسية للمغرب الإسلامي، الذي عرف منذ نهاية القرن الثاني للهجرة ظهور دويلات إسلامية، سواء بنزعة قابلية أو جنسية و هذا هو جوهر الصراع و إن كان الظاهر أن الاختلاف كان مذهبي. و تأثرت كثيرا بالتاريخ السياسي لمدينة تلمسان خاصة في العصر الوسيط.

2 - أنظر التاريخ السياسي لمدينة الجزائر في الفترة الإسلامية، حيث كانت للزيرين، ثم الحماديين، ثم المرابطيين و كلهم من رعين قبيلة صنهاجة.

3 - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 78.

الزيرية و الحمادية، و من قبل إما خربت أو كانت بلدة صغيرة، كما يذكر ابن خلدون بقوله: " ثم اختط ابنه " بلكين" ¹ بأمره و على عهده مدينة " الجزائر" المنسوبة إلى " بني مزغنة " بساحل البحر و مدينة "مليانة" بالعدوة الشرقية من شلف، و مدينة لمدونة، و هم بطن من بطون "صنهاجة" و هذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط...² فحسب "دوفو" إن لفظ " اختط " الذي استعمله" ابن خلدون" لتأسيس مدينة "الجزائر" يقصد به أن أعمال البناء كانت قائمة على أرضية خالية من المباني أو غير أهلة على الأقل في قسمها الأكبر أي أن المدينة خربت و هجرت لفترة من الزمن³، و يبدوا ما ذهب إليه "دوفو" صحيح إذا ما نظرنا إلى التعريف اللغوي لمصطلح خِطَّة، خاصة إذا علمنا أن "عبد الرحمن بن خلدون" يستعمل مصطلحات تعبر عن تعريف لغوي دقيق، حيث يشير "ابن منظور" إلى تعريف كلمة خِطَّة بقوله: "... و الخِطَّة: الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك. و قد خَطَّها لنفسه خطأً و اختَطَّها: و هو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها لبيئتها دارا، و منه خِطَط الكوفة و البصرة. و اختَطَّ فلان خِطَّة إذا تحجَّر موضعا و خطَّ عليه بجدار، و جمعها الخِطَط... و الخِطَّة بالكسر: الأرض. و الدار يخطها الرَّجل في أرض غير مملوكة ليتحجرها و يبني فيها، و ذلك إذا أذن له السلطان لجماعة من المسلمين أن يخطوا الدور في موضع بعينه و يتخذوا فيه مساكن لهم كما فعلوا بالكوفة و البصرة و بغداد..."⁴.

و من خلال التعريف اللغوي للمصطلح يبدوا أن " بلكين" اختط فعلا مدينة "الجزائر" في القسم العلوي و الذي عرفت فيما بعد بالقصبة القديمة، حيث كانت أرض عذراء لا عمارة فيها، أما المجموعات البشرية التي وجدها بها فيبدو أنها كانت تسكن بين بقايا الآثار البيزنطية حيث ضربت الخيام، و هذا شأن المدن الساحلية بعد خروج "البيزنطيين" منها، و أمثلة على ذلك كثيرة⁵.

1 - ابن زيري بن مناد الصنهاجي.

2 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج6، ص204.

3 - راجعي ركية، المرجع السابق، ص9.

4 - ابن منظور، المصدر السابق، ج3، ص106.

5 - أنظر على سبيل المثال مدينة تنس قبل التأسيس، حيث كان رعين من قبيلة مغراوة يقيم الخيام بها، ثم اختط الأندلسيون المدينة في القرن الثالث للهجرة التاسع للميلاد. للمزيد من التفاصيل أنظر: - بن نعمان إسماعيل، مدينة تنس، رسالة لنيل شهادة دكتوراه، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2006 م / 2007 م.

و يظهر أن اختيار " بلكين " لهذا الموقع لتأسيس مدينة دليل على وجود العديد من مواد البناء أعيد استعمالها لإقامة المدينة الجديدة، فلا جرم أنه بعد هجرة مدينة بقيت بعض الآثار مبعثرة في المنطقة، كما يحتمل أنه لا يمكن أن تقام مدينة في مكان خال بصفة كاملة من السكان فجمال المنطقة، و اعتدال جوها، و وجود ميناء طبيعي بساحلها قد يكون جلب العديد من الأسر و ربما من بين هؤلاء السكان قبيلة "بني مزغنة"، التي لا يمكن تحديد الفترة التي استقرت فيها ولكن من المحتمل جدا قبل التأسيس، استقرت بين الآثار القديمة، و تمثلت الأعمال التي قام بها "بلكين" في تمصيرها، و حسب ما أشار إليه "ابن خلدون" حين تحدث عن عمران أهل "إفريقية" و "المغرب" بأن أكثرهم بدويا يسكنون الخيم سواء رحل، أو مستقرين، كما كانوا يقيمون الأكواخ ظواعن وكنن، لذلك اضطر "بلكين" إلى تخطيط المدينة لاستقرار السكان، و نظرا لطول الفترة الزمنية التي بقيت فيها المدينة مهجورة اختير اسمها نسبة إلى الجزر التي تقع أمام المدينة على بعد رمي سهم منها، و القبيلة التي بالمنطقة، فأطلق عليها "جزائر بني مزغنة" أما فيما يخص تأريخ التأسيس فيشير "ابن خلدون" إلى أن وفاة "زيري بن مناد" سنة (360 هـ / 970 م)، و قد دام حكمه 26 سنة، و في هذه الفترة أذن لابنه بتأسيس المدينة و من المحتمل في الفترة الأولى من حكمه و يمكن تحديدها في سنة (339 هـ / 950 م) خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي¹.

يبدو أن المدينة التي أقامها "بلكين" بدأت تظهر أهميتها بحيث جلبت الأنظار لذلك أشار إليها "ابن حوقل" فيذكر: " و "جزائر بن مزغناي" مدينة عليها سور على سيف البحر أيضا، و فيها أسواق كثيرة، ولها عيون على البحر طيبة و شربهم منها...²، كما أشار إليها "المقدسي" بقوله: " و جزيرة بني زَغْنَاية (هكذا) على ساحل البحر مسورة يعبر منها إلى الأندلس و لهم عيون"³.

و ما يؤكد على توسع المدينة الإسلامية كان على أنقاض المدينة الرومانية ما ذكره "البكري": "... و منها إلى مدينة "جزاير بني مزغنى" وهي مدينة جلييلة قديمة البنيان فيها آثار للأول و آزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم و صحن دار الملعب قد فرش

1- راجعي زكية، المرجع السابق، ص 9.

2 - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 78.

3 - المقدسي، المصدر السابق، ص 228.

بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان ... و كانت بمدينة بني مزغني كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب و هو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش و الصور"¹.

إن ما ذكره "البكري" و غيره من الجغرافيين أكدته الشواهد الأثرية المكتشفة في مدينة "الجزائر" أثناء القيام بحفرية الوقائية برحمت في ساحة السلطة (ساحة الشهداء)، حيث اكتشفت بقايا كثيرة لألواح فسيفسائية ذات زخرفة حيوانية في غالبيتها، و ذلك سنة 2010م. (الألواح رقم: 56 - 63).

ويقول "محمد بن عبد القادر الجزائري": "...ومن مدنها الشهيرة" الجزائر"، وهي مدينة على ساحل البحر اختطها "بلكين بن زيري الصنهاجي"، وكان يتردد إليها من منازل "بالمسيلة"، ونزلها بنوه من بعده، ثم اختصت ببني "مزغنان" بطن من "صنهاجة"²، وبهم اشتهرت، وفي القاموس "جزائر بني مزغنان" بلدة بالغرب، ثم أطلق اسم "الجزائر" على سائر بلاد المغرب الأوسط، ولما عقد "إسماعيل المنصور العبيدي" لزيري بن مناد الصنهاجي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة على بلاد "تاهرت" و "بلاد شلف"، عين ولده "بلكين" لولاية "الجزائر" و "مليانة"³ و "المدينة" وغيرها، فاستوطنها واهتم بشأنها، واجتهد في عمرانها فأخذت في الحضارة والتمدن حتى اشتهرت وطار ذكرها في الآفاق ..."⁴.

1 - البكري، المصدر السابق، ص 66.

2 - بنو مُزغنة بطن من بطون قبيلة صنهاجة. أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج6، ص203.

3 - مليانة: مدينة قديمة شهيرة بالغرب الجزائري، معلقة في سفح جبل زكار الغربي على ارتفاع 740 م فوق مستوى سطح البحر، مشرفة على سهول شلف، وتبعد 132 كلم عن الجزائر العاصمة غربا، حلت محل المدينة الرومانية القديمة، جدها زيري بن مناد الصنهاجي مثل مدينة الجزائر و المدينة، و أسكنها ابنه بلكين، و إليها ينسب الشيخ الصوفي أحمد بن يوسف الملياني ذو الشهرة الواسعة في المغرب الإسلامي. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ المدن الثلاثة، الجزائر، المدينة، مليانة، ط2، مطبعة صاري بدر الدين و أبنائه، الجزائر، 1972 م، ص 296.

4 - الجزائري محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر، الإسكندرية، مصر، 1903 م، ج3، ص15، 16.

و عند تأسيس الدولة الحمادية¹ بالقلعة (398هـ - 547هـ / 1008هـ - 1152م) دانت مدينة "الجزائر" لها، و لكن لم تطلعنا المصادر التاريخية عن أسماء الولاة من هذه الدولة، إلا ما ذكره "عبد الرحمن بن خلدون" حين تعرضه لأحداث السياسة التي شاهدها هذه الدولة أيام أميرها "الناصر بن علناس بن حماد" (454هـ - 481هـ / 1062م - 1089م)، حيث أشار أنه عقد على "الجزائر" و "مرسى الدجاج" لإبنه "عبد الله"، كما أشار "عبد الرحمن بن خلدون" أن "المنصور بن ناصر" (481هـ - 498هـ / 1089م - 1104م) عين ابنه "العزیز" على المدينة ثم عزله أخاه "باديس" عند توليه أمر الدولة الحمادية (498هـ / 1104م) و نفاه إلى مدينة "جيجل". و في عهد "يحيى بن العزیز" أحر أمراء الدولة الحمادية (515هـ - 547هـ / 1121م - 1152م) عين أخاه "القائد" على مدينة "الجزائر" إلى غاية دخول الموحدین إلى المدينة سنة (543هـ / 1148م).

ظهرت بالمغرب الأقصى الدولة المرابطية (448 - 541 هـ / 1056 - 1145 م) و اتخذت من "مراكش" عاصمة لها. و عند فتحها للمغرب الأوسط على أيام أميرها "يوسف بن تاشفين" سنة (474هـ / 1081م). دانت مدينة "الجزائر" لهذه الدولة، و لكن دخلت الدولة الحمادية في صراع مسلح معها، ففي عهد "المنصور بن ناصر" جهز جيشا قوامه عشرين ألف متكون من رجال عرب "الأبجج" و "زغبة" و "ربيعة"، و كافة "صنهاجة"، و أمم من "زناتة" و غز بهم مدينة "تلمسان"، و دوخ المغرب الأوسط، و كان ذلك سنة (476هـ / 1083م).

و يبدو أن الصلح الذي عقده مع والي "تلمسان" "تاشفين بن تنعمر" من قبل المرابطين ينص أن الدولة المرابطية لا تحتاز مدينة "تلمسان" و الأراضي التابعة لها. و يتضح كذلك من خلال النصوص التاريخية أن مدينة "الجزائر" بقيت مرابطية لسنتين فقط أي من سنة (474هـ / 1081م) إلى غاية سنة (476هـ / 1083م)، و بقيت الدولة الحمادية تعين الولاة لهذه المدينة كما ذكرنا سابقا. و لا شك أن بناء المرابطين للمسجد الجامع بالمدينة كان خلال هذه الفترة².

و بعد سقوط الحماديين و المرابطين معا على يد الموحدین في القرن (6 هـ / 12م) خضعت المدينة للجزائر إلى حكم مركزي عاصمته "مراكش" و ذلك منذ سنة (543هـ / 1148م).

1 - دولة بني حماد ثاني دولة إسلامية نظامية تأسست بالمغرب الأوسط بعد الدولة الرستمية، أنشئت من طرف حماد بن بلكين بن زيري في حوالي سنة 398 هـ / 1008 م على مرتفعات الحضنة، وفقا لما وعده الزيريون بعد مواجهته و تحلصه من زناتة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج6، ص 198.

2 - للمزيد من التفاصيل حول هذه الأحداث أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج6، ص 230.

و في سنة (555هـ / 1160م) نزلها أمير دولة الموحدين "عبد المؤمن بن علي"، فجاءت العرب لمبايعته، وفد عليه أميران منهم لذلك العهد "أبو الجليل بن شاكر" أمير "الأثبج"، و "حباس بن مُشَيِّفِر" من رجالات "جشم"، فتلقاهما بالمبرة و عقد لهما على قومهما و مضى لإعادة فتح "بجاية" و "إفريقية". (الخريطة رقم:3)

لم تسلم مدينة "الجزائر" من الصراع الذي نشب بين الدولة الموحدية و "بني غانية" في أواخر القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد، حيث تطلعنا المصادر التاريخية أن "علي بن محمد بن غانية" زحف على مدينة "الجزائر" و عاث فيها فسادا، وولى عليها "يحيى بن أبي طلحة"، فثار عليه سكان مدينة "الجزائر"، و أيدوا الجيش الموحيدي بقيادة "أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن"، و زحف الموحدون على المغرب الأوسط و مدينة "الجزائر"، و ألقى القبض على أميرها "يحيى بن أبي طلحة"، و أخرجوه إلى "قسنطينة".¹

و لا شك أن المدينة على غرار المدن الموحدية الأخرى عرفت ازدهارا و تطورا كان له تأثير في توسع عمرانها، وقد بلغت أوجها في عصر الدولة الموحدية، فيصفها "الإدرسي" في القرن (6 هـ / 12م) كما يلي: "... و من "شرشال" إلى مدينة "الجزائر لبني مزغنا" سبعون ميلا. و مدينة "الجزائر" على ضفة البحر، و شرب أهلها من عيون على البحر عذبة و من آبار و هي عامرة أهلة و تجارتها مربحة، و أسواقها قائمة، و صناعاتها نافقة، و لها بادية كبيرة، و جبال فيها قبائل من البربر، و زراعتهم الحنطة و الشعير، و أكثر أموالهم المواشي من البقر و الغنم، و يتخذون النحل كثيرا، فلذلك العسل و السمن في بلادهم كثيرا و ربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد و الأقطار المجاورة لهم المتباعدة منهم و أهلها قبائل و لهم حرمة مانعة."²

نستخلص من وصف "الإدرسي" أن سكان المدينة كانوا يعتمدون على الزراعة و تربية المواشي، أي أنهم كانوا يستغلون السهل المتيجي والأراضي المجاورة للمدينة، بالإضافة إلى اعتمادهم على التجارة إذ كانوا يصدرون بعض المنتجات مثل العسل، أي أن ازدهار المدينة يعود أيضا بارتباطها بالبحر، و هذا يدعونا إلى الاستنتاج أن المدينة كانت أكبر مما كانت عليه سابقا، توسعت نحو الجبل أي الداخل، كما أثبتت الدراسات الأثرية التي قام بها "دوفو" عند دراسته

1 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج6، ص204.

2 - الإدرسي، المصدر السابق، ص258.

لعقود ملكية ترجع إلى بداية العهد العثماني، أن توسع المدينة العثماني كان على حساب ملكيات قديمة كانت تقع خارج أسوارها التي أقيمت قبل العصر العثماني¹.

سقطت الدولة الموحدية سنة (669 هـ / 1269 م) فانقسم المغرب الإسلامي إلى دويلات و هي: بنو مرين في مدينة "فاس"، و بنو عبد الواد في مدينة "تلمسان" و بنو حفص في مدينة "تونس"، و دخلت هذه الدويلات في صراع فيما بينها لمدها، وخضعت مدينة "الجزائر" للزيانيين تارة و أخرى للحفصيين ، وفي سنة (598هـ/ 1201م) دخلت في حوزة بني حفص سلاطين "افريقية"، ثم صارت لبني زيان ولم تزل وطنا لبني مزغنان خلفا عن سلف.

و في القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد بسطت قبيلة "الثعالبة" يدها على سهل "المتيجة"، بعد أن نزلت به تحت إيالة "ملكيش" فرع من فروع قبيلة "صنهاجة"² التي أذهب المرينيون ملكهم على هذا البسيط. و في حوالي سنة (750هـ/ 1349م) دخل "أبو الحسن المريني" مدينة "الجزائر" فوجد أميرها "أبي الحملات بن عائد بن ثابت" قد هلكه مرض الطاعون، فولى على المدينة و قبيلة "الثعالبة" إبراهيم بن نصر".

و في سنة (760هـ/ 1358م) أثناء الصراع الذي كان بين "أبي زيان" و "أبي حمو موسى الثاني" كانت مدينة "الجزائر" تحت إمارة الثعالبة و شيخها حينئذ "سالم بن إبراهيم بن نصر"، فبايع "أبي زيان" و نصبه "بالجزائر"، فزحف "أبو حمو موسى الثاني" على المدينة سنة (779هـ/ 1377م) و تقبض عليه في جبال "متيجة" و نقله إلى "تلمسان" و قتل هناك.

تأثرت مدينة "الجزائر" بالأوضاع السياسية التي شاهدها منطقة المغرب الإسلامي عموما و المغرب الأوسط خاصة، فأصابها ما عانت منه مدينة "تلمسان" الزيانية³، حيث تقلبت المدينة تحت راية الدولة الزيانية تارة، و تحت مظلة الدولة الحفصية تارة أخرى خاصة بعد موت أبي فارس عبد العزيز الحفصي سنة (837هـ / 1433م)⁴. و مع بداية القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد استسلمت المدينة لأمير "بجاية" لقرىها من مملكته، و لعدم قدرة ملك "تلمسان" على

1 - راجعي زكية، المرجع السابق، ص10.

2 - يبدو أن قبيلة بني مزغنة منهم.

3 - انظر التاريخ السياسي لمدينة تلمسان في الفترة الزيانية إلى غاية سقوط الدولة، ص57.

4 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص 684. كذلك: - عبد الحميد حاجيات،

امتداد نفوذ الحفصي...، ص 431.

إنجادهم فبايعوه و أدوا إليه الخراج، لكنهم بقوا تقريبا متحررين، و بعد ذلك سلحو السفن و تحولوا إلى قرصنة، فصاروا يغيرون على جزر اليابسة و "ميورقة" و "منورقة"، و حتى شواطئ "إسبانيا"، لذلك أرسل الملك الكاثوليكي "فردناند الخامس" أسطولا عظيما لحصار "الجزائر" بقيادة "الكونت بيير نفارو" القائد العام الأكبر للأسطول الإسباني سنة (915هـ / 1510م)، و كلف قائد أسطول البحر المتوسط "دييكودي فيرا" بتشيد برج "ألبينون" و هو قلعة جميلة كبيرة في جزيرة صغيرة مقابلة تماما للمدينة و قريبة منها، بحيث كانت قذائف المدفعية تصل إلى اليابسة و تمر فوقها من سور إلى سور، و كان بمدينة "الجزائر" في تلك الفترة زعيم الأعراب القاطنين بسهل "المتيجة" و هو "سليم التومي" من قبيلة "ثعلبة" التي هي فرع من "المعقل"، تأمر على مدينة "الجزائر" عندما احتل الأسبان مدينة "بجاية" سنة (915هـ / 1510م) و استقر بها لعدة سنوات، و نتيجة لهذا الحصار الغير مباشر الذي فرضه "الأسبان" على مدينة "الجزائر" اضطر أعيان المدينة و سكانها إلى إيفاد سفارة إلى "إسبانيا" تطلب هدنة عشر سنوات مقابل بعض الخراج فقبل الملك ذلك و عاشوا في السلم بضعة أشهر.

و في سنة (918 / 1512م) زحف "عروج برباروس" نحو مدينة "بجاية" و حاصرها¹ و لكنها استعصت عليه لم يستطيع فتحها فاضطر إلى الانسحاب، و التجأ مع أربعين من خواصه الأتراك إلى قصر "جيجل"².

و في سنة (922 هـ / 1516م) توفي "فردناند الخامس" فخلع سكان "الجزائر" الهدنة كي يتخلصوا من الخراج الذي كانوا يؤذونه "لأسبانيا"، فأرسلوا إلى "عروج برباروس" ليكون قائدا لهم نظرا لما سمعوا عن حنكته الحربية في مواجهة النصارى في أعالي البحار بالحوض الشرقي للمتوسط ثم غربه³.

لما قدم "عروج" إلى مدينة "الجزائر" سارع في نصب عدد من المدافع تجاه برج "ألبينون"، و بعث إلى قائد الحامية الإسبانية يأمره بالاستسلام لكن القائد الإسباني رفض فأطلق "عروج" النار

1 - حليم ميشال حداد، "الجزائر"، موسوعة قصة و تاريخ الحضارة العربية بين الأمس و اليوم، العدد (21، 22)، édition Creps، بيروت، لبنان، 1999م، ص 118.

2 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 38.

3 - نورالدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها على انتهاء العهد التركي، ط1، الجزائر، 1968 م، ص 200. وكذلك: - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ ثلاثة مدن.....، ص 10.

على البرج و لكن ضعف مدى المدفعية لم يمكنه من الانتصار الساحق ففرض الحصار على البرج، في حين أدى هذا الفشل الغير متوقع إلى النيل من سمعة "عروج" و الأتراك فسقطت هيبتهم في مدينة "الجزائر"، و بدأت بوادر الفتنة تلوح على السطح و لكن "عروج" خنقها في مهدها و فتنك بألد منافسيه في حكم مدينة "الجزائر" "سليم التومي" فانفرد به في إحدى حملات مدينة "الجزائر" وقتله وبالتالي أصبحت المنافسة السياسية ضعيفة أمام "عروج" و من خلاله امتداد الخلافة العثمانية في "الجزائر"¹.

وفي سنة (922هـ / 1516م) استطاع "عروج" أن يهزم حملة إسبانية أرسلها الكاردينال "كسيماناس" بقيادة "دييغودي فيرا"، و بعد هذا الانتصار و في سنة (923هـ / 1517م) حدثت فتن و قلاقل بمدينة "تلمسان" بين أمراء الدولة الزيانية²، فتوجه عروج إلى مدينة "تلمسان" بطلب من أعيانها و لكن قدر الله أن تكون هذه المدينة آخر محطة لحياة "إسحاق" ثم "عروج" وذلك في سنة (924هـ / 1518م)³.

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - مبارك بن محمد المليي، المرجع السابق، ج4، ص 41.

2 - أنظر التاريخ السياسي لمدينة تلمسان ص 75.

3 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص41،36. وكذلك: - مارمول كبريخال، المصدر السابق، ج2، ص354. وكذلك: - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا (1429 م - 1792م) (الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1968 م، ص 98. كذلك: - عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر، نشأتها و تطورها قبل 1830 م، دار الفكر الإسلامي الجزائري، 1972 م، ط1، ص 166. وكذلك: - عزيز سامح التري، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1989 م، ص57. كذلك: - كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 م. 1541 م، ترجمة حمدان جمال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 36. كذلك: - حمدان بن عثمان خوجه، المرأة، تحقيق و تعريب: محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م، ص230.

- A. BERBRUGGER, **Le peignon d'Alger ou les origines du gouvernement Turc en Algérie**, Alger, 1860, pp 28, 29.

- F.D. HAEDO, << Histoire des rois d'Alger >> Traduite et annotée par, DE -

DGRAMMONT, in **Revue Africaine**, N° : 24, Année 1880, office des publications universitaires, Alger, 1986, p 61,62.

توفي "عروج" قبل أن يرى "الجزائر" تحت راية الخلافة العثمانية¹، و مضى "خير الدين" في حملاته، و رأى أنه لا يستطيع حماية "الجزائر" إلا بدخولها تحت مظلة السلطة العثمانية، فأرسل إلى السلطان العثماني بولائه له، فقبل منه ذلك و سماه "بايلاريك" أي أمير الأمراء، و أمده بالجنود و سفن حربية تدعم بها الأسطول الحربي الجزائري، و استطاع "خير الدين" في سنة (942هـ/1536م) أن يحرر الساحل الشرقي و الغربي من "الجزائر" ما عدا "المرسى الكبير" و "وهران"، و دمر الأسطول الحربي الإسباني في مواقع عديدة، و بذلك أوقف المد الصليبي الإسباني على "الجزائر" و من خلالها المغرب الإسلامي.

بتولي "حسن باشا" ابن "خير الدين" حكم مدينة "الجزائر"، و تمنحه الدولة العثمانية لقب "بايلاريك" مثل أبيه، و كان على شاكلته بطلا مقداما، و في عهده شنّ "شارل الخامس"² ملك "إسبانيا" حملة عسكرية على مدينة "الجزائر"، بعد أن تم له الاستيلاء على مدينة "تونس" حيث سولت له نفسه التفكير في مهاجمة مدينة "الجزائر" و تحرير الأسرى النصرانيين، و مهاجمة جميع مدن الساحل المغرب الإسلامي، و أراد أن يحضر قتالهم بنفسه حتى لا تفشل الحملة كما فشلت سابقاتها، و لهذا السبب حرص على تجهيز جيش بحري كبير مزود بسفن حربية و "القاليرات"

- H. DGRAMMONT, << Quel est le lieu de la mort d'ROUDJ BARBEROUSSE ? >>, **In Revue Africaine**, N° : 22, Année 1878, office des publications universitaires, Alger, 1986, p 391.

1 - إلى أن استولى عليها الإسبانيول سنة ست عشرة وتسعمائة، واشتدت وطأته على المسلمين وكان عروج المعروف بباربروس الأول قد استفحل أمره وأخذ جيغل إحدى مراسي تونس من يد أهل جنوا من إيطاليا، فبعث إليه سالم بن تومي الصنهاجي أمير بني مرزغان صرخة في كشف بلواه فلباه، ودخل الجزائر من جهة البحر، وأنحجر الإسبانيول في حصنهم المعروف ببرج الفنار وضيق عليهم ثم اقتحم الحصن بجيوشه واستلحمهم عن آخرهم، وتم استيلاؤه على الجزائر وقام فيها يختبر أحوالها ويتقرب مسالكها وظهر منه لسالم بن تومي وقومه ما لم يكن في حسابهم، فلحقهم الندم وأظلم الجو بينهم وبين عروج فقبض على سالم وقتله وتم له الأمر وكان هذا أول قدم للدولة العلية في المغرب الأوسط. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ج3، ص15، 16.

2 - ولما مات "فرناندو" الكاثوليكي تولت مكانه إبنته "جوانه" و أمها "أزابيل" ثم ولدها "كارلوس" الشهير باسم "شارل الخامس" (906هـ - 1500م / 963هـ - 1555م)، الذي حرك حملة عسكرية إلى مدينة "الجزائر" سنة 1541م، و نزل إلى البر و ابنتى برجا عليها، و شرع في هدمها، و لكن بسالة سكان مدينة "الجزائر" أفشلت الحملة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد بن عثمان المكناسي (توفي: 1213هـ / 1799م)، البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسرى من العدو الكافر، تحقيق: مليكة الزاهدي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1426هـ / 2005م، ص177.

السريعة، ملأها كلها بعدد كبير من الجنود المحنكين الإسبانيين و الألمانين و الإيطاليين، و كذا بالذخيرة و المدافع و بجميع ما يلزم لمثل هذه الغزوات.

كانت نقطة انطلاق جيوش النصارى بقيادة الإمبراطور "شارلكانت" من مرسى جزيرة "بيكا" و أرسى سفنه في خليج مدينة "الجزائر" يوم 26 أكتوبر من سنة 1541م¹، ثم وصل الدوق "بيرنادين دي ميندوسا" و معه 150 سفينة كبيرة و سفن أخر صغيرة، و شارك في هذه الحملة كذلك الدوق "ألب"، و كان كبير سادة البيت الإمبراطوري، و يعتبر بعد الإمبراطور قائدا لجميع الجيوش، و قد تقدم في هذا القتال عددا كبيرا من النبلاء و العظماء المرموقين من إسبانيا بسبب تحريض لرجال الدين على ذلك بقيادة الكنيسة.

كان بمدينة "الجزائر" 800 من الأتراك، معظمهم فرسان، و قد أمر حاكم مدينة "الجزائر" بأن تعطى العطايا لقبائل الضواحي حتى يشاركوا في القتال، و أمر الجنود بملازمة ثكناتهم، و رتب ما يلزم من الاستعداد. تمكن بعد ذلك "الأسبان" من معرفة ساحل مدينة "الجزائر" و تأكدوا أن الإنزال لا يكون إلا من شرق المدينة، و بالفعل بدأت القوات في النزول من جهة "وادي الحراش" فتصدت لها قوات مدينة "الجزائر" بغارة مفاجئة، و استطاعوا مضايقة الجيش النصراني العازم على التقدم إلى المدينة سيرا على الأقدام، وفي اليوم الموالي شن حاكم المدينة غارة على الجيش الإيطالي و أوقع فيهم القتل ثم قفل راجعا إلى المدينة عبر "باب عزون"، و سارت من خلفه بقايا الجيش الإيطالي ولكنهم فروا بسبب النيران التي أطلقها الرماة من أعلى الأسوار².

بينما كان القتال على أشده في السهل و أمام أبواب مدينة "الجزائر" كانت الأمواج القوية تمز السفن هزا فتقطعت جبالها، فيرتطم بعضها ببعض فتتهوي إلى قعر البحر غارقة على مرأى من الجيش بأكمله، كما ازدادت الأمطار قوة و تشبعت الأرض بالأوحال و ضاقت بالجيش النصراني السبل، فزحفت عليهم القبائل القادمة لمؤازرة مدينة الجزائر و تمكنت من قتل العدد الكبير منهم، و بسبب الظروف المناخية القاسية تراجع الإمبراطور و أنقهر عائدا إلى إسبانيا عازما على تنظيم حملة أخر على مدينة "الجزائر". إن هذا الانتصار الذي حققته مدينة "الجزائر" على الجيش الإسباني

1 - مارمول كرنخال، المصدر السابق، ج2، ص360.

2 - نفسه.

و النصراني يعد نصرا لجميع سكان المغرب الإسلامي، و انتقاما كبيرا لمعركة حصن العقاب سنة (609هـ / 1212م).

لم تهنأ مدينة "الجزائر" بنعيم الأمن منذ دخولها تحت راية الدولة العثمانية، و يبدووا واضحا لحملها راية الجهاد البحري في غرب المتوسط ضد إسبانيا و من ورائها العالم النصراني، و كذلك الموقف الشجاع لحكام و سكان مدينة "الجزائر" اتجاه مسلمين الأندلس، و ازدادت حملات العسكرية عليها خاصة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للهجرة الثامن عشر للميلاد بسبب تقهقر الأيالة الجزائرية هذا ما أدى بالدول الأوروبية خاصة إسبانيا إلى محاولة فرض نفوذها عليها. و من المحاولات ما قامت به "إسبانيا" عن طريق "دون أنجلو" محاولتين حربيتين فاشلتان في سنة (1198هـ / أوت 1783م)، و في سنة (1199هـ / جويلية 1784م)، و كانتا امتدادا لمحاولة "أورابي" التي فشلت رغم كثرة العساكر (25000 عسكري) التي أنزلها قرب "وادي الحراش" في سنة (1189هـ / جويلية 1775م)، و انتهت المناورات الحربية الإسبانية بإمضاء عقد صلح سنة (1200هـ / 1785م) بين "الجزائر" و إسبانيا" لصالح "الجزائر"¹.

و أحسن وصف لهذه المرحلة بأحداثها نجده عند "محمود مقيدش" التي كانت قريبة لعهد حيث يقول: "...إن مدينة "الجزائر" أدامها الله تعالى للإسلام، و أيّد عساكرها بالنصر على أعداء الدين، ليس في بلاد المغرب زمن التاريخ أنكى منها للكفار، فهي حصن المغرب الحصين و قفله المتين منذ دخلتها العساكر العثمانية المنصورة الحمية، و لقد قصدها أعداء الدين مرارا فهزمهم الله، و كتبهم و قهرهم حتى رمى طاغيتهم تاجه عن رأسه و حرم لبسه فدل على استمرار نحسه، و آخر خروجهم أواخر مائتين و ألف (1785م) فيما لا يحص عدّه من المراكب و العدد، و استعانوا بجميع أجناسهم، و استلفوا من بعضهم قناطر الأموال، و استمدّوا بالخييل و المال و الرجال، طمعا في أخذ الجزائر لا ظفّهم الله لظنّهم أنهم إذا غلبوا عليها فقد انحلّ المغرب و استولوا على جميعه، قطع الله آمالهم و لا ظفّهم إلا باللعة و الخزي و الهوان و سوء المنقلب و الخسران، فلما وصلوا نزلوا ليلا، و نصبوا حصونا و أسوارا من الأخشاب² و حديد تمشي على وجه الأرض بأشغال أحكموها بمكرهم و كيدهم، فدفعوا ذلك على عربات فمشى و هم من خلفه، فجعلوا يرمون المسلمين

- De Fontaine De Resbecq.A. **Alger et la cotes D'Afrique, Gaume frères** , libraires, rue 1 du pot-de-fer-5, Paris, 1937 , p93.

2 - هي المتاريس بمثابة حواجز خشبية تمنع الجنود من التقدم بسرعة نحو القتال.

بالنيران، و أنواع الصواعق و المدافع بشيء خارج عن الطاقة، فتوجهوا نحو المدينة و عساكر المسلمين، فلما رأى المسلمون مكر الكفرة جعلوا لهم أسوارا من الإبل، فأكثرها منها و قدموها بين أيديهم، و ضربوا من خلفها بالطبول و البوقات، و ركبوا الخيول، و زنقوا الإبل على الكفرة، فرفضتهم أسوارهم، و وقعت الهزيمة على الكفار و جاء للمسلمين النصر، فغنم المسلمون ما حصل بالبر من العدو، و لم ينجح منهم إلا من أشرع قلاعه بالمراكب، و فزوا منهزمين.

و في السنة الثانية رجعوا بأكثر مما تقدم و لكن يؤسوا من نزول البر، و عملوا حيلة ثانية و هي الإفساد و هم في البحر بأن أنشئوا أجفانا و جعلوا فيها المدافع، و طمعوا أن يرموا على المدينة و حصونها و عساكر الإسلام ليطحنهم و يحرقوهم بالنار، فركب المسلمون في مثل ما قدموا من الأجفان و أرققوهم عسكريا و عاجلوهم بالرمي، فاشتغلوا بأنفسهم فغرق منهم جمع و هلك آخرون، فما لبثوا غير ساعة حتى جاء النصر و وقع على الكفرة اللثام الهزيمة و الكسر فولّوا مدبرين. و تفصيل هاتين الواقعتين مما يعد من أكبر غزوات المسلمين، و كثر نهب المسلمين لمراكبهم، و قطعوا عليهم أسفارهم بالبحر، و طلبوا السلم ببذل أموالهم للمسلمين ليؤمنوا في أسفارهم و ليمتاروا، و يطمئنوا في أنفسهم، فأبى المسلمون عليهم ذلك، فجعلوا يلتجئون و يستغيثون بسلاطين الإسلام و بأولي الجاه من المسلمين حتى صالحوهم على ذلة الكفر و عزة الإسلام.¹

2 - 2 - التنظيم الإداري في الجزائر العثمانية:

عرفت مدينة "الجزائر" حراكا سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا كبير بدخولها تحت راية الخلافة العثمانية، و من أجل حفظ أمنها من خطر الغزو النصراني الأوروبي عمد "خير الدين" على تحطيم حصن "البيينون"، و هذا بعد طرد" الأاسبان "منه سنة (936 هـ / 1529 م)، و يذكر أنه بجدارته أنشئ الرصيف الذي يربط بين الجزر الأربعة واليابس، أي أن المدينة أصبحت مجهزة بميناء، ففيما مضى لم يعتمد سكانها إلا على مينائها الطبيعي، كما اتخذ من المدينة عاصمة للبلاد وأصبح يطلق عليها "جزائر الغرب" نسبة إلى الجزر الصغيرة التي تتقدم المدينة، كما أطلقوا عليها في بعض الأحيان اسم المحروسة و دار الجهاد، وهذا لارتباطها بالنشاط الذي كان يمارسه القراصنة، و كان له تأثير كذلك في تطور عمران المدينة نحو الدفاع و التحصين ضد هجمات النصرانيين التي

1 - محمود مقيدش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ و الأخبار، تحقيق: علي الزراوي و محمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988م، ج1، 95.

تواصلت من حين إلى آخر، فكان من الطبيعي أن تتوسع المدينة نحو المرتفعات بحيث تجاوزت في حدودها المدينة القديمة، و يصف "حسن الوزان" المدينة التي مر بها في بداية القرن العاشر للهجرة السادس عشر كما يلي: "و هي كبيرة جدا و تضم حوالي أربعة آلاف أسرة، و أسوارها رائعة و قوية للغاية، ومشيدة بحجارة كبيرة و تتألف من بيوت جميلة و أسواق جيدة التنسيق... كما نجد فيها أيضا عددا كبيرا من الفنادق والحمامات... و يظهر حول "الجزائر" الكثير من البساتين و الأراضي المزروعة بأشجار مثمرة."¹

وضع "خير الدين" للجزائر" العثمانية قانونا و رتب الدواوين، و قدر الرواتب، و خَلَّف حامية عسكرية عثمانية من الإنكشارية، و هم جند الدولة العثمانية، و كانوا من "الأناضول" أو من رعيها، و في الأكثرية كانوا من سبايا "أوروبا"، و كان على كل مائة منهم رئيسا يسمى "الداي"، و خطب الخطباء في المدن الجزائرية باسم السلطان العثماني و ضربت السكة باسمه، و دامت فترة حكم "البايات" (أمير الأمراء) إلى غاية (995هـ/ 1587م)، و كانوا أشبه بحكام مستقلين يديرون شؤون البلاد مع الاعتراف بسيادة السلطان العثماني الأعظم، و حاولوا الحد من سلطان الإنكشارية بتكوين فرقة مجندة من العرب و البربر خاصة من قبائل التل و "الزواوة". و أقلق استقلالهم السلطة المركزية في "الأستانة" فرأت أن يتحول الحكم من في "الجزائر" من حكم الباي إلى حكم الباشا، وظل حكم "الباشوات" حتى سنة (1069هـ/ 1659م)، وكان الباشا يتولى الحكم لمدة ثلاث سنوات و ربما قصرت بسبب عمليات الاغتيال لذلك عمد معظمهم على جمع الثروات على حساب عامة الناس. وثار عليهم الأغوات من قادة الإنكشارية فاستولوا على الحكم، و لم يعد للباشوات إلى بعض المهام التشريعية إلى غاية سنة (1081هـ/ 1671م)، و اختل الحكم في هذه الفترة، و اغتيل الأغوات جميعا، و اغتصب السلطة رؤساء الإنكشارية المعروفين بإسم الدايات، و اختفت الباشوات فلم يعد الباب العالي العثماني يولي منهم أحدا، إذ أصبح الداي الذي ينتخبه رؤساء الإنكشارية الحاكم المطلق في "الجزائر" ، و كانوا يولون و يخلعون حسب أهوائهم، و يستجيب لهم الباب العالي، و في نفس هذه المرحلة بقيت المساجد الجامعة تدعوا لسلطان العثماني، و تضرب السكة باسمه، و بلغ عدد الدايات إلى غاية الاحتلال الفرنسي (1235هـ/ 1830م) ثمانية و عشرين دايا، اغتيل نصفهم، و كانت سلطة "الداي" مطلقة

1 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص38.

يساعده في تسيير البلاد مجلس يعرف بالديوان لا يقطع أمرا دون مشورته، و هو أشبه بمجلس الوزراء، و كان يتألف من ستة أعضاء: "الأغا" و هو القائد الأعلى للقوات البرية، و "كيل الخرج" و هو وزير البحرية و يشرف على القرصنة، و"القابودان" وهو قائد الاسطول و جند البحر، و "الخنزاجي" وزير المالية، و "خوجة الخيل" و هو جابي الضرائب، و "شيخ المدينة" و هو المشرف على القضاء و الشرطة، و "الباشا الكاتب" و هو رئيس الديوان، و معهم بعض كبار رجال الدين و "نقيب الأشراف"¹.

و بجانب هذا الديوان يوجد الديوان العسكري و يتألف من رؤساء الجنود، و مجلس رياس البحر و يتألف من قواد البحر، و كان لهذين المجلسين نفوذ كبير، و كان هناك مجلس أعلى للقضاء يرأسه القاضي الحنفي، و كان في أول الأمر يأتي من الآستانة مع الوالي، و يساعده في هذا المجلس قضاة من مذهبي الحنفية و المالكية.

و كانت "الجزائر" مقسمة إلى ثلاث ولايات كبرى: بايلك الشرق و عاصمته "قسطنطينة"، و بايلك التطري عاصمته "المدية"، و بايلك الغرب عاصمته "مازونة" ثم "معسكر منذ سنة (1122هـ/1710م)، ثم "وهران" منذ سنة (1207هـ/ 1793م) و كان لكل "باي" سلطة واسعة في ولايته، و كانت صلتهم بالحاكم العثماني في مدينة "الجزائر" تنحصر في شيئين أساسيين هما: جباية الأموال في ولايته و أداؤها للخزينة العامة، و جمع الجند الذين ينبغي أن يرسل بهم للخدمة في الجيش.² (الخريطة رقم:5).

2 - 3 - تطور خطط مدينة الجزائر:

سارت مدينة "الجزائر"³ في توسعها العمراني منذ الفترة الفينيقية من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي، أي من أسفل المدينة إلى أعلاها، حيث دخلها الفينيقيون وأسسوا بها مركزا تجاريا،

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - شوقي ضيف، عصر الدول و الإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان)، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1995م، ص44.

2 - شوقي ضيف، المرجع السابق، ص44.

3 - تقع في منطقة معتدلة في اتجاه الغرب، حيث تقع على خط عرض 36.46 ° شمالا، وخط طول 0.44 ° إلى الشرق من خط غرينتش، أما من حيث الموقع الطبوغرافي فهي تقع في الجزء الشرقي لجبل بوزريعة على ارتفاع 120 م على سطح البحر، و هو يبدو كمدرج منحدر، أسست عليه المدينة القديمة.

و عرفت في وقتهم باسم "إكوسيم"، و كانت تقع شرق مرفأ "واد المغاسيل"¹ وذلك في الألف الثالثة قبل الميلاد. و يبدو أنهم لم يتوغلوا إلى الداخل، و اكتفوا بالتبادلات التجارية مع القبائل البربرية التي كانت تسكن السهول المحيطة بالمنطقة، علما أن "الفينيقيين" لم تكن لهم أطماع توسعية إستراتيجية، لذلك اكتفوا بهذا المرفأ، و يبقى ذلك من باب الفرضيات في غياب الشواهد الأثرية التي تنفي أو تؤكد هذا التحليل².

و عند دخول الرومان إلى المغرب القديم فإنهم استفادوا من الإنتاج الحضاري للفينيقيين، و استقروا في بداية أمرهم بالمدن "الفينيقية" على طول الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، على غرار مدينة "الجزائر"، ثم توسعوا إلى الداخل، لكون أطماعهم لم تكن تجارية فقط بل عملوا على توطين الفرق العسكرية بالمغرب القديم، ووصلوا بتعمير مدينة "الجزائر" إلى غاية أسف القصبة حاليا (ساحة السلطة) و أطلقوا عليها اسم مدينة "إيكوزيوم"، و لم تتعد في توسعها الشارع الممتد من "باب الوادي" إلى "باب عزون"، و هي نفس المساحة التي شغلها البيزنطيون عند دخولهم للمدينة، حيث تطلعتنا الشواهد الأثرية المكتشفة في الحفريات المنظمة بساحة السلطة سنة (2010م) على بقايا لفسيفساء خزفية متنوعة كانت تشغل أرضية المنشآت البيزنطية بالمدينة، هذه الشواهد تعزز ما ذكره "البكري" في وصفه للمدينة بقوله: "...و منها إلى مدينة "جزاير بني مزغني" وهي مدينة جلييلة قديمة البنيان فيها آثار للأول و أزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم و صحن دار الملعب قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان، و كانت بمدينة "بني مزغني" كنيسة عظيمة بقى منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب و هو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش و الصور"³. كما أحاطوا المدينة بأسوار تتخللها أبراج للمراقبة و إحكام المنافذ المؤدية للميناء، و استعملوا الحجارة، و الرخام الذي كان موجود بالمدينة

1 - يقع هذا الوادي غرب مدينة الجزائر من جهة باب الوادي الذي سمي به، تصب فيه الشعاب و الجداول المنبعثة من جبل بوزريعة ليصب في مياه البحر (حاليا هو الطريق الرابط بين باب الوادي و حي شوفاليه).

2 - تحمل قطعتان نقديتان محفوضتان بالمتحف الوطني للآثار القديمة كتابة على مستوى ظهر القطعتين كتابة بالخط البونيني و هي: و ي ك س م (ويكسم)، و هو الاسم الذي حرف إلى " إكوسيوم ". للمزيد من التفاصيل حول القطعتين أنظر: - محمد البشير شنيبي، عمالات المدن، "في كتاب تاريخ الجزائر من خلال المسكوكات"، المتحف الوطني للآثار القديمة، الجزائر، 2006م، ص 44، 64.

3 - البكري، المصدر السابق، ص 66.

الرومانية من أجل بناء عمائرهم، و هذا على غرار جميع المدن الساحلية التي دخلوها، حيث كانت القبائل البربرية تشن هجمات عليهم من جبال المدينة التي تحصنوا بها منذ التواجد "الوندالي بالمغرب القديم"¹.

عرفت مدينة "الجزائر" في العصر الوسيط باسم "جزائر بني مزغنة" وهذا ما جاءت به جميع المصادر التاريخية و الجغرافية التي تناولت المدينة، و هي ما سميت في ما بعد بالقصبة القديمة حيث لا تمثل من المساحة إلا ربع المدينة العثمانية، ففي الجهة الشمالية الغربية كان يحدها مسجد "سيدي رمضان" الذي يعتبر الأقدم في المدينة، و لعل الخط الطبوغرافي رقم (80) الذي يصادف هذا الموقع هو أدق حد من الجهة العلوية للمدينة².

أما من الجهة السفلى فقد ذكر "مصطفى بن حموش" أن حدود المدينة لا يتعد الشارع الذي كان يربط باب الوادي بباب عزون في الفترة العثمانية: " أما عن الجهة السفلى فيمكننا اكتشاف من خلال وصف "الحاج عصمان" لمسجد "كجاوة" الذي يرويه "Devoulx" حيث يذكر أنه في زمن خير الدين كان ذلك الموضع المسطح مهجور منذ قرون و قد كانت فيه أطلال البناءات القديمة و مراع للمعز، و لما استقر الأتراك سموه "كجي أوه" بمعنى مرعى المعز الذي حرّف فيما بعد إلى "كجاوة"..."³.

و يقدم لنا "البكري" وصف للمدينة في القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد مفردا فيه المنشآت التي كانت موجودة وموقعها بالنسبة للمدينة بقوله: "...ومنها إلى مدينة "جزاير بني مزغني" و هي مدينة جلييلة قديمة البنيان فيها من آثار للأول و أزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، و صحن دار الملعب فيها فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكام عمل و أبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان و لا تعاقب القرون و لها أسواق و مسجد جامع، و كانت بمدينة "بني مزغني" كنيسة عظيمة بقى منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب و هو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش و الصور و مرساها مأمون له عين

1 - مبارك بن محمد المليي، المرجع السابق، ج1، ص 364، 371.

2 - مصطفى بن حموش، المدينة و السلطة في الإسلام "نموذج الجزائر في عهد العثماني"، دار البشائر للطباعة و النشر و التوزيع، دمشق، سوريا، 1460 هـ / 1999 م، ص233.

3 - نفسه، ص234.

عذبة يقصد إليه أهل السفن من إفريقية و الأندلس و غيرهما....¹، كما يصفها "عبد الواحد المراكشي" بقوله: "... ومن مدينة "بجاية" إلى مدينة صغيرة تدعى "الجزائر"... و تنسب إلى قوم لهم بنو مزغنة..."².

و صفها "حسن الوزان" الذي زارها في سنة (924هـ / 1518م)، و هذا قبل استقرارها تحت الراية الدولة العثمانية بقولها: "...وهي كبيرة جدا تضم نحو أربعة آلاف كانون، أسوارها رائعة متينة جدا، مبنية بالحجر الضخم، فيها دور جميلة وأسواق منسقة كما يجب، لكل حرفة مكانها الخاص بها، وفيها كذلك عدد كثير من الفنادق و الحمامات، و يشاهد من جملة بناءاتها، جامع ممتاز في غاية الكبر على شاطئ البحر، أمامه ساحة جميلة جدا اتخذت على سور المدينة ذاته الذي تتلاطم عند أسفله أمواج البحر، و يحيط "بالجزائر" عدد من البساتين و الأراضي المغروسة بأشجار الفواكه، و يمر قرب المدينة من الجهة الشرقية نهر نصب عليه طاحونات، و يزود السكان بالماء للشرب ولأغراض أخرى، وفي الضواحي سهول جميلة جدا، لاسيما سهل المتيجة الذي يبلغ طوله خمسة و أربعين ميلا و عرضه ستة و ثلاثين ميلا، حيث ينبت القمح الجيد بكثرة....."³.

إن الوصف الذي وضعه "حسن الوزان" مع مطلع القرن السادس عشر يعبر على ارتباط مدينة "الجزائر" في تطور خططها و عمرانها بالنمو الديموغرافي و كان سببه الهجرات التي اتخذتها مقصدا لها بسبب الأمن الذي أصبح يسودها بفضل جهود الأخوين "عروج" و "خير الدين"، و حملات إغاثة اللاجئين التي نظماها تحت عين السلطان "بالآستانة"، و قد أدى هذا إلى تشبع المدينة في وقت مبكر من العهد العثماني⁴، و قد قدر "حسن الوزان" عدد سكانها بحوالي 4000 كانون⁵، و قد اعتبر "Lespes" هذا التقدير بمثابة عدد الدور مما يعني أن عدد سكان المدينة قد يكون ما بين 20 و 25 ألف نسمة⁶.

1 - البكري، المصدر السابق، ص 66.

2 - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 438.

3 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 38.

4 - مصطفى بن حموش، المرجع السابق، ص231.

5 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 40.

6 - مصطفى بن حموش، المرجع السابق، ص231.

وبعد أربعين سنة من وصف "حسن الوزان"، يصفها "مارمول كرنخال"¹ و صفا دقيقا مفردا معه التطور السياسي الذي عرفته المدينة من الفترة الرومانية إلى غاية القرن العاشر للهجرة السادس للميلاد، بالإضافة إلى تركيزه على المنشآت العسكرية بها، و مصادر تموين مدينة "الجزائر" بالمياه: "... يسمى المسلمون هذه المدينة "جزائر بني مزغانة"، و هي بناء البربر المعروفين بهذا الاسم حتى أنها عرفت عند قدماء المؤرخين "بمزغانة" و يذهب البعض إلى القول بأن الرومان كانوا يسمونها "يوليا قيصرية" على شرف يوليوس قيصر، و حرف اسمها فصارت تدعى اليوم: "الجزائر" جمع جزيرة بالعربية، و هي مدينة شهيرة منذ القدم، أبدع الرومان، و زادها الأتراك إغناء بفضل ما وقع في أيديهم من غنائم سلبوها من النصارى، و يؤكد "بول ديارك" أن أحد الطغاة قد استولى على حكمها في عهد "الوندال"، فخرّبها و لكنها ما لبثت أن استعادت نشاطها. و موقعها على سفح جبل عال: لها أسوار مرتفعة حصينة مبنية بالحجارة و يحيط بها خندق عميق و حواجز من جميع الجهات، و لها أربعة أبواب رئيسية أحدها من جهة الشمال حيث توجد المرسى، و كذا إحدى الجزر التي كانت بها قلعة "بنيون"، و المرسى اليوم آمن و أكبر مما كان، و ذلك بعد أن قام "صلاح راييس" بربط الجزيرة بالبر بواسطة رصيف حاجز استعمل في بنائه الحجارة المختلفة من بعض البنايات القديمة لمدينة "تمانفوست"، و ترتفع أسوارها شيئا فشيئا فوق التلال، ثم تتجه نحو الجنوب مكونة رأس مثلث مرتفع يظهر من بعيد و في قمته قلعة ترى من مسافة بعيدة في البحر، و من هنالك يصعد على التل إلى الحصن بناه الأتراك على بعد ربع فرسخ من القلعة، و قد جعلوا فيه أربعة مواقع محصنة و ثكنة تتسع لألف من الجنود و خزانا كبيرا للمياه يستعمل عند الضرورة، إذ العادة في الأيام العادية أن يكون الاستسقاء من بئر على بعد اثني عشرة أو خمسة عشرة خطوة من باب الحصن، و توجد فوق البستيونات الحصينة مدافع مصنوعة من البرونز، و في المدينة حامية دائمة تتكون من الحاكم و من ثلاثمائة من الجنود الأتراك، و بين القلعة و المدينة حصن آخر فيه حامية أخرى، و تبدأ بنايات المدينة من الأسفل عند شاطئ البحر، ثم ترتفع بشكل متدرج على أسفل الجبل، و تتخذ بذلك منظرا جميلا لأنها جميعها ذات نوافذ و مماش، و لا تحجب بعضها البعض، و هي على العموم جيدة البناء، و من بينها عدة قصور مبنية على هيئة عصرية بدل في رونقها جهد كبير، شيدها رؤساء البحر من الأتراك و من النصارى المرتدين الذين سكنوا مدينة

1 - مارمول كرنخال، المصدر السابق، ج2، ص360.

الجزائر، وساحات المدينة و أزقتها مرتبة منظمة لكل أصحاب حرفة حي خاص بهم، و على ساحل البحر مسجد شامخ رائق يوجد في واجهته رواق ينظر إلى البحر. و جداره الموالي للبحر جزء ممتد على سور المدينة، و تتحطم على أسفله الأمواج، و على طول الأسوار تمتد بساتين فيحاء و يشرب أهل "الجزائر" من عين كبيرة تصل إليهم مياهها بقنوات ممدودة تتوزع على مختلف الجهات، و بالإضافة إلى ما ذكر تتوفر داخل المدينة آبار و خزانات للمياه¹. و المدينة محصنة من جهة البر بصخور وعرة يوجد عند قدمها من جهة الجنوب سهول شاسعة كثيرة الخصب ينمو بها القمح و الكأ، و لاسيما في بوادي متيجة الممتدة على ستة عشر فرسخا طولاً و على عشرة فراسخ عرضاً....تعتبر هذه المدينة اليوم أغنى مدن إفريقيا قاطبة، و مقدار الجباية على تجارتها يعادل مقدار مداخيل المملكة...²

و في سنة (1044هـ / 1634م) قدر القسيس "دان" عدد سكان مدينة "الجزائر" بحوالي مائة ألف نسمة، و ذلك أثناء الرحلة التي قاده إلى المدينة من أجل فداء الأسرى المسحيين، هو نفس الإحصاء الذي قدمه "Laugier De Tassy" سنة (1144هـ / 1731م)، أي بعد قرن من الزمن³.

و ما بين رحلتي "حسن الوزان" و القسيس "دان" تكون مدينة "الجزائر" شهدت ازديادا كبيرا في عدد السكان بقدر أربع مرات، الواقع أن هذه الفترة شهدت أحداث مأسوية بالأندلس انتهت بعملية تهجير جماعي للمسلمين، و ذلك ما بين سنتي (1018هـ / 1609م) و (1023هـ / 1614م)، و رغم أعمال التحصين التي أعطت المدينة شكلها المثالي الواضح كانت قد أخذت مجراها في عهد "عرب أحمد" و في عهده كذلك استفاد الكثير من المهجرين الأندلسيين من قطع أرضية بأمر من الباب العالي، و يذكر الأستاذ "مصطفى بن حموش" أن أراضي مدينة "الجزائر" قد استهلكت كليا مع حلول المهاجرين الأندلسيين في أواخر القرن السادس عشر للميلاد أو قبله، و ما يؤكد ذلك الحكم الصادر عن الباب العالي الموجه إلى أمير أمراء "الجزائر" مضمونه تحسين معاملة المهاجرين الأندلسيين و منحهم أرضي مخصصة⁴، و ذلك بتاريخ 19 رجب من سنة

1 - مارمول كرنخال، المصدر السابق، ج2، ص 364.

2 - نفسه

3 - للمزيد من التفاصيل حول النمو الديمغرافي لمدينة الجزائر أنظر: - ناصر الدين سعيدوني، وراقات...، ص564، 565.

4 - هي أراضي أميرية يختص بالانتفاع بها أفراد من الرعية بعد إذن السلطان. أنظر: - مصطفى بن حموش، فقه العمران

(981هـ/1573م) منته كتابي: " تقدم فقراء الأندلس و مدخل بعض حال جاء فيه أن غالبيتهم من الفقراء و أهل العمل، و أنهم غير قادرين على الكسب و العمل و ليس لهم حرفة يشتغلون بها، و أنهم يعانون من ضيق العيش نتيجة ذلك. و ذكروا بأنه يوجد مخصصات في حالة شغورها إلى أهالي البلاد و يدعون بأنها ليست من حق الأندلسيين أو من حق أعراب مدجر، و بناء عليه فإننا نأمر:

بإعطاء تلك المخصصات في حالة توفرها إلى المستحقين من فقراء المسلمين من أهل العلم و القرآن، سواء كانوا من أعراب أو من أندلسيين أو غيرهم و أمرنا حال وصوله، عليكم بتنبية القضاة و الحكام و متولي الأوقاف هناك، بالألا يتعللوا و ألا يتحلوا الأعدار إزاء توزيع المخصصات، و يجب إعطاء المستحقين من أعراب مدجر و الأندلس منها كما جاء أعلاه¹.

من خلال هذا الأمر يتضح أن السلطة الحاكمة في مدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية كانت تشرف على إقطاع الأراضي لسكان المدينة و الوافدين عليها، و أوكلت مهمة تنفيذ قرارات الإقطاع للقضاة²، و يبدو أن هذه الأراضي كانت تتوزع حول النواة القديمة للمدينة، و تشكلت بذلك ثلاثة تجمعات سكنية و هي:

- القصبة القديمة:

و هي وسط المدينة و مركزها و بها مسجد "سيدي رمضان"، و هي النواة الأولى للمدينة الإسلامية.

و يقول في ذلك "حمدان بن عثمان خوجة": " و القصبة هي أيضا من الآثار القديمة، و كانت تتكون في ذلك الوقت من بضعة منازل تحيط بجامعها و المباني، و كان الخلاء يعقد فيه البدو و البرابرة أسواقهم..."³.

الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري، ط1، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، دبي، 1421هـ/2000م، ص112.

1 - الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفترتي رقم23، صحيفة رقم121، الحكم رقم244.
2 - هذا التنظيم سارت عليه المدن الإسلامية منذ العهد النبوي. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص85. كذلك: - مصطفى بن حموش، جوهر التمدن الإسلامي، ط1، دار قابس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 2006م، ص184.
3 - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص70.

- القصبة السفلى:

يطلق عليها كذلك اسم "الوطأ" لسهولة طوبوغرافيتها، و لا يزال هذا المصطلح متداول في المدن الساحلية التي لها نفس المميزات الجغرافية مثل مدينة "الجزائر"، حيث ألف السكان البناء في الأماكن المرتفعة بينما تترك المساحات المبسوطة كفضاء تجاري أو للزراعة.

عرفت هذه المنطقة توسع عمراني مع دخول المدينة تحت راية الدولة المرابطية، حيث أسس المسجد الجامع المرابطي " ... و المسجد مزال موجود إلى يومنا و يسمى الجامع الكبير، و الأسوار التي تحيط به قد بنيت في ذلك الحين.."¹، و لكن لم يكن توسعا كبيرا بسبب الهجمات البحرية التي كانت تتعرض لها المدينة خاصة من طرف النورموندن على غرار جميع مدن ساحل المغرب الأوسط، ثم حروب "بنو غانية" و الدولة الموحدية، و من خلال الوصف الذي قدمه "عبد الواحد المراكشي" في القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد يبدو أن المدينة بقيت تتمركز في وسط الجبل المطل على الميناء " ... و من مدينة "بجاية" إلى مدينة صغيرة تدعى "الجزائر" .. و تنسب إلى قوم لهم بنو مزغنة..."². ثم تسوء الأوضاع من جديد في عهد الدولة الزيانية و صراعها مع الدولة الحفصية، و يمكن القول أن التوسع العمراني الكبير الذي عرفته المدينة في هذه المنطقة يعود إلى الفترة العثمانية و كذلك قدوم المجموعات الأندلسية. و قد كان لوجود الأطلال الرومانية فيها و طبيعة طوبوغرافيتها السهلة أثره في امتداد العمران إليها قبل غيرها من المناطق. و ما تتميز به المنطقة كذلك وجود الشبكة الشطرنجية من الشوارع و الأنهج التي تعود إلى الفترة الرومانية، و رغم ما قدمته تلك الشبكة من سهولة لتعمير المنطقة فإن ملاحظتها قد اختفت تحت النسيج العضوي للفترة العثمانية.

و يبدو أن أول من استفاد من تخصيصات في هذه المنطقة هم الأندلسيين، و قد أكد ذلك الأستاذ "مصطفى بن حموش" من مقارنته لعدد الأوقاف في هذه المنطقة مع بقيت المناطق حيث ذكر أن 31.24% مجموع الأوقاف تعود للأندلسيين في القصبة السفلى. و رغم اعتقادنا ببدء التعمير العثماني بها قبل غيرها من المناطق فإن موقعها الجذاب باعتباره مركز المدينة فيما بعد تكون وراء منافسة الأتراك و خاصة رياس البحر منهم لهؤلاء الأندلسيين، و تقهقر الوظيفة السكنية عن باقي الوظائف الحضرية بها.

1 - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص70.

2 - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 438.

و مهما يكن من أمر فإن بصمات الأندلسيين بها و زيادة على هذا العدد من الأوقاف و الملكيات الخاصة، يمكننا إدراكها من خلال بعض المباني العامة التي تحمل الأسماء الأندلسية، و يتعلق الأمر هنا بالثكنة التي تحمل اسم ثكنة "أوسطة موسى" و هو مهندس معماري مشهور آنذاك، و كذلك طبانة الأندلسيين التي أسست سنة (960هـ/1552م)، و تقع في الموقع المسمى قاع السور، و هدمت في الفترة الفرنسية.¹

و كانت هذه المنطقة كذلك محور حراك المدينة تشمل مساحة 1.1 هكتار و تضم المنشآت التالية: أسواق المدينة الرئيسية، و التي تقع بالقرب من سوق الصياغة، و من قيسارية و البادستان (أسواق مخصصة)، و كذلك المساجد مثل جامع " السيدة "، و الجامع الجديد، و الجامع الكبير، بالإضافة إلى غالبية المراكز الإدارية مثل قصر "الجنيينة" حيث كان "الدايات" يقيمون حتى سنة (1233هـ/1817م)، ثم قرر الداوي "علي خوجة" نقل دار الإمارة إلى الجنوب الغربي للمدينة بسبب ضربات المدفعية المتكررة عليها من طرف الحملات العسكرية الأوروبية، و من خلال هذا الموقع يمكن للداوي مراقبة الحراك داخل المدينة.²

– القصبة العليا (الجبيل):

يمكن تقسيم هذه المنطقة إلى جهتين، إحداهما الناحية الجنوبية الشرقية و الثانية الناحية الجنوبية الغربية، ففيما يخص الأولى فقد خصصت لإسكان الأتراك و الأندلسيين، و كذلك بعض السكان المحليين، و قد شيدت في هذه المنطقة عدة مساجد منها المالكية و منها الحنفية و ذلك مراعاة لمذهب كل مجموعة بشرية، و يشير "مصطفى بن حموش" أن غالبية السكان في هذه المنطقة كانوا من الأندلسيين، فبالإضافة إلى العدد المعبر من الأوقاف الذي يتعدى ما في المنطقتين الآخرين (41.24%) تضم هذه المنطقة مركب ثقافيا و تربويا خاص بأبناء الجالية الأندلسية و هو زاوية الأندلسيين التي تأسست سنة (1094هـ/1639م) على أنقاض دار قديمة، و يبدو أن اختيار الموقع كان بدافع الكثافة العالية للأندلسيين في هذه المنطقة من المدينة.

أما الناحية الجنوبية الغربية فهي تقع أعلى حدود القصبة القديمة و لا تضم إلا 18.75% من مجموع الأوقاف الأندلسية، و لعل الانحدار الشديد للمنطقة أهم سبب لتأخر جليا تعمير هذه

1 - مصطفى بن حموش، المدينة....، ص240.

2 - اندري ريمون، المرجع السابق، ص135.

الجهة من المدينة و قلة تواجد الأوقاف الأندلسية. و ما يعزز تعمير هذه المنطقة من طرف الأندلسيين هو وجود مسجد "الشاطبي" نسبة إلى مدينة "الشاطبة" التي سقطت سنة (645هـ/1247م)¹.

إن أول ما نلاحظه من توزع المناطق الثلاث هو إحاطتها بالقصبة القديمة على شكل سوار أو هلال، و هذا ما يدفعنا إلى التأكيد على أن المحرك الرئيسي لنمو مدينة "الجزائر" هو وصول الأندلسيين، كما أن المساحة التي تتوزع عليها تلك المناطق تبين حجم الجالية التي أقامت بالمدينة، و باختصار فإن ذلك يقودنا إلى الاعتقاد أن "جزائر بني مزغنة" التي كانت بربرية قد أصبحت مدينة أندلسية يشكل السكان الأصليين فيها الأقلية، و لعل تسمية سكان المدينة باسم "المور" التي قد تكون تصغير لكلمة "موريسكي" هي في حد ذاتها دليل على تغلب العنصر الأندلسي، بالإضافة إلى التأثير العمراني الأندلسي واضح على عمران مدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية، و هذا ما سوف نراه في الفصل الرابع و الخامس من الدراسة.

و يؤكد هذا الكلام "حمدان بن عثمان خوجة" عند حديثه عن الأصول البشرية لسكان مدينة "الجزائر" بقوله: "تسكن الجزائر طبقات مختلفة من الناس، و كان سكانها في الأصل من العرب الذين فروا من إسبانيا عندما كان الإسبانيون يستعملون مضيق جبل "طارق" لاقتراف جريمة الإغراق.... و إذن فإن جزءا كبيرا من سكان مدينة "الجزائر" مكونة من العرب و الأتراك، و الأطفال الذين يولدون نتيجة الزواج بين هذين الصنفين يسمون الكراغلة..."².

3 - استجابة مدينتي تلمسان و الجزائر لشروط تأسيس المدن:

يمكن تحديد أهمية موضع مدينتي "تلمسان" و "الجزائر" من خلال إسقاطه على الشروط التي وضعها العلماء المسلمون في مصادرهم و مؤلفاتهم³ حين تكلمهم على شروط تأسيس المدن، و أحسن المواقع في اختيار بنائها، و في مجملها ستة شروط و هي:

1 - مصطفى بن حموش، المدينة...، ص 240.

2 - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 63.

3 - أنظر الفصل الأول من الدراسة، ص 13.

- سعة المياه المستعذبة:

و يقصد في ذلك جلب المياه الصالحة للشرب، و تيسيرها للرعية، أو تقوم المدينة على نهر جار، أو وفرة الينابيع من عيون عذبة يسوغها الشارب.

تشير المصادر الجغرافية التي تكلمت عن مدينة "تلمسان" في مجملها أن بالمدينة موارد مائية تؤمن الشرب لرعية و المواشي، و يقول في ذلك "البكري": ".....و كان الأول قد جلبوا إليها الماء من عيون تسمى "لوريط" بينها و بين المدينة ستة أميال..."¹، و يقول "عبد المنعم الحميري": "...و لها نهر كبير يسمى "سطفسيف"...، و لها نهر يأتيها من جبل المدينة المسمى الصخرتين، و نهر شرقي المدينة و عليه أرحاء كثيرة..."²، كما يذكر "مارمول كربخال" أن مدينة "تلمسان" بها عدة سقايات تجلب مائها من عين واحدة مجلوبة من جنوب "تلمسان" على بعد ثلاثين فرسخا تحت الأرض، كما يشير أن سلاطين المدينة عملوا على عدم اكتشاف أمر هذه السقايات خوفا من تحويلها إذا ما حوصرت المدينة³.

أما عن مدينة "الجزائر" فقد أشارت المصادر الجغرافية و التاريخية التي وصفتها منذ القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد إلى غاية القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد على توفر الموارد المائية بالمدينة، حيث يذكر "ابن حوقل" بقوله: "...ولها عيون على البحر طيبة و شربهم منها..."⁴، كما يذكر "الإدريسي" في القرن (6 هـ / 12م) أن سكان مدينة "الجزائر" يعتمدون في التزود بالماء من عيون توجد على ضفة البحر، و يبدو أنها عناصر تقع أسفل المدينة، لكون موقعها على جبل يطل على البحر فلمياه الجوفية لها عناصر على ضفة البحر ".... و مدينة "الجزائر" على ضفة البحر، و شرب أهلها من عيون على البحر عذبة و من آبار"⁵.

و يؤكد ذلك "مارمول كربخال" و يضيف أن المياه كانت تنقل إلى المدينة لتزويد الدور و المنشآت العمومية بقوله: ".... و يشرب أهل "الجزائر" من عين كبيرة تصل إليهم مياهها

1 - البكري، المصدر السابق، ص 76، 77.

2 - الحميري، المصدر السابق، ص 135.

3 - مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، ص299. كذلك: - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص20.

4 - ابن حوقل، المصدر السابق، ص68.

5 - الإدريسي، المصدر السابق، ص258.

بقنوات ممدودة تتوزع على مختلف الجهات، و بالإضافة إلى ما ذكر تتوفر داخل المدينة آبار و خزانات للمياه...¹.

إن النسبة الكبيرة من الموارد المائية لمدينة "الجزائر" كانت تتواجد في فحوصها، و هي ميزة طبيعية له، حيث الثروة المائية الضخمة التي تسد حاجة المدينة من المياه، و توفر السقي الضروري لحدائق و بساتين الفحص كذلك، فضلا عن أنها تعتبر وسيلة اقتصادية ملائمة لتشغيل مطاحن الحبوب المقامة على نهر "الحراش" و وادي "المغاسيل"، و تتوزع هذه المصادر المائية على العديد من العيون الطبيعية التي ناهز عددها أربعة و عشرون عينا أشتهرت منها عيون: "الزبوجة"، و "تلاوملي"، و "برج مولاي حسن"، و "الحامة"، و "الأزرق"، و "السلطان"، و على بعض الآبار الغزيرة مثل "الأبيار"، و بئر "طريلية" و بئر "مراد راييس"، و بئر "الخادم"، هذا بالإضافة إلى الأودية الطبيعية التي تستمد ماءها من العيون الطبيعية بمرتفعات المدينة (الفحص)، و يصب أغلب هذه الوديان في خليج المدينة، مثل واد "المغاسيل"، و واد "الحراش"، و واد "كنيس"².

و من المنشآت التي وصفها الفرنسيين عند دخولهم لمدينة "الجزائر" هي الأسبلة التي تتوزع على شوارع و أحياء مدينة "الجزائر"، حيث يصف "دي فونتان" " De Fontaine De Resbecq.A" المدينة سنة (1246هـ/1830م) بقوله: " توجد بمدينة "الجزائر" مجموعة من الأسبلة جيدة البناء يتزود منها سكان مدينة "الجزائر" للشرب خاصة في فصل الصيف..."³.

- إمكان الميرة المستمدة:

حيث يجب أن تكون للمدينة أرياضا توفر لها الميرة، و أراضى زراعية تضمن لها الأمن الغذائي في حالة الحروب و الحصار.

لمدينة "تلمسان" فحص طوله خمسة و عشرون ميلا (40 كلم تقريبا)، يتوفر به إنتاج زراعي كبير و ثروة حيوانية متنوعة، سكنت فيه قبائل بربرية من رّعيل "زناته" تعتمد على تربية الأبقار أساسا، و يصف "عبد المنعم الحميري" فحص مدينة "تلمسان" بقوله "...و هي على سفح الجبل أكثره شجر اللوز...و هي كثيرة الخصب و الرخاء كثيرة الخيرات و النعم، و لها قرى

1 - مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، ص 364.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص398.

3 - De Fontaine De Resbecq.A., OP-cit, p145.

كثيرة عمائر متصلة، و مدن كثيرة ترجع إلى نظرها... و مزارعها كثيرة و فواكهها جمة و لحومها شحمة¹. و قد اتفقت جميع المصادر التاريخية و الجغرافية التي تكلمت عن مدينة "تلمسان" من الجانب الزراعي عن توفرها على سهول واسعة تضمن للمدينة التزود بمختلف المحاصيل، و تحيط بالمدينة بساتين جميلة و منتزهات يتوجه إليها أيام السلم، بها عيون جارية بمياه باردة، و تشمل كذلك على حدائق كبيرة من أشجار الزيتون تستخرج منها كمية كبيرة من الزيت، و كذلك أشجار الجوز و جميع أنواع الفواكه، و كروم كبيرة تحمل عنباً حلواً لذيذ الطعم جداً، يجفف في الصيف و يحفظ السنة كلها، كما توجد خارج المدينة كذلك عدة طاحونات للحبوب على ضفة نهر "صفصف"².

و من بين المصادر الجغرافية التي كلمت عن الإنتاج الزراعي لمدينة "الجزائر" نجد "ابن حوقل" حيث يذكر: "... و فيها أسواق كثيرة... ولها بادية كبيرة، و جبال فيها من البربر كثيرة، و أكثر أموالهم المواشي من البقر و الغنم سائمة في الجبال، و لهم من العسل ما يجهز عنهم و السمن و التين و ما يجهز و يجلب إلى القيروان و غيرها..."³، كما يشير "الإدريسي" بقوله: "... و هي عامرة أهلة و تجارتها مربحة، و أسواقها قائمة، و صناعاتها نافقة، و لها بادية كبيرة، و جبال فيها قبائل من البربر، و زراعتهم الحنطة و الشعير، و أكثر أموالهم المواشي من البقر و الغنم، و يتخذون النحل كثيراً، فلذلك العسل و السمن في بلدهم كثيراً و ربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد و الأقطار المجاورة لهم المتباعدة منهم و أهلها قبائل و لهم حرمة مانعة."⁴

و يبدو من خلال وصف الجغرافيين أن مدينة "الجزائر" كانت تعتمد أساساً في تزودها بالميرة من باديتها، و ما يعرف بالفحص حيث اشتهر و تطور تطوراً كبيراً خلال الفترة العثمانية، من خلال الأنواع الكثيرة التي كان ينتجها من مختلف الخضرة و الفواكه، و يقول في ذلك الأستاذ "ناصر الدين سعيدوني": "... نستدل على تنوعها بذكر ما أورده مسافر فرنسي يدعى "توماس" في وصفه لبستان "إبراهيم الكراغلي" عند زيارته له: وهي البرتقال و الليمون و اللوز و العناب

1 - الحميري، المصدر السابق، ص 135.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - مارمول كرخال، المصدر السابق، ج 2، ص 299. كذلك: - حسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 20.

3 - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 68.

4 - الإدريسي، المصدر السابق، ص 258.

و الرومان و التين و التفاح و الخوخ و حب الملوك و التوت الأبيض و الأحمر و المشمش إلى مختلف أنواع الزهور كالياسمين و أصناف الخضر، هذا لعل أحسن بساتين الفواكه بفحص الجزائر تلك التي كانت في حوزة القناصل الأوروبيين الذين استطاعوا أن يطوروا زراعة البرتقال و العنب، في الوقت الذي ظل فيه الأهالي يحافظون على الطرق التقليدية المتبعة في زراعة البساتين".¹

بهذه المزروعات استطاع الفحص أن يسد حاجة سكان مدينة الجزائر من الخضر و الفواكه، في الوقت كانت السهول و مرتفعات الساحل و باقي الأقاليم الجزائرية الأخرى الخصبه تستغل زراعة الحبوب و غرسة الزيتون و إنتاج الشمع و العسل و الصوف و الجلود و الأخشاب، و هي في أغلبها موجهة للتصدير الخارجي و ليس للاستهلاك المحلي.

و يقول في ذلك "حمدان خوجة" و مؤكدا في ذلك الثروات الكبيرة التي كانت تستفيد منها مدينة "الجزائر"، و القادمة من ريفها بقوله: " يسكن إيالة "الجزائر" عشرة ملايين نسمة، و تتكون هذه الإيالة من مدن و قرى، و موانئ و أرياف. غير أن الجزء الأكبر الذي هو قاعدتها و مصدر ثرواتها يوجد خارج المدن التي يبدو أنها تكونها، و يسكن هذا الجزء أناس يطلق عليهم اسم البدو".²

- اعتدال المكان و جودة الهواء:

إذ أن المدن التي تبنى في منخفض الأرض يركد فيها الهواء و يتجدد ببطء، و العامل المساعد على تجديد الهواء هو الريح، و من ثم فإن المدن المؤسس على مكان معتدل، أو مرتفع فإن هوائها لطيف و صحي.

و قد توفر هذا الشرط بمدينة "تلمسان" حيث تقع على سفح جبل تمر عليها جميع التيارات الهوائية، و من ثم يتجدد الهواء، و يتصف بالاعتدال طوال أشهر السنة، و بالحرارة الموسمية في فصل الصيف.

أما مدينة "الجزائر" فتقع على جبل متعلقة به جعلها تكتسب طابعا جغرافيا و مناخيا متميزا، حيث تمر عليها الرياح الشرقية و غربية و شمالية، و هي رياح دافئة و دائمة، أما الرياح الجنوبية الساخنة فلا تصيب المدينة إلا قليلا، و هذا راجع للجبال التي تحميها من حركة هذه

1 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص401.

2 - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص13.

الرياح، و هي متأثرة دائما بمناخ البحر المتوسط سمته الاعتدال و الرطوبة و ممطر شتاء، و دافع و حار نسبيا في فصل الصيف، و يقول صاحب "المرآة": "...إن المناخ لذو تأثير كبير على طبيعة الإنسان، و على العموم فإن سكان هذه المدينة شجعان و اجتماعيون و أوفياء للعهد..."¹.

- القرب من المراعي و الاحتطاب:

و ذلك لتوفير الكالأ للمواشي، و توفير الحطب للطهي و الغذاء، و مدينة "تلمسان" بها من الشعراء ما يكفيها للتزود بالحطب، و لديها كذلك سهول واسعة تساعد على تربية المواشي. كانت بادية مدينة "الجزائر" تتوفر على مساحات كافية للرعي و مناطق غابية ملائمة للتزود بالأخشاب، كما تشير إلى ذلك النصوص التاريخية، حيث يقول "ابن حوقل" " و جبال فيها من البربر كثرة، و أكثر أمواهم المواشي من البقر و الغنم سائمة في الجبال... "². و يقول "الإدريسي": " و هي عامرة أهلة و تجاراتها مريحة، و أسواقها قائمة، و صناعاتها نافقة، و لها بادية كبيرة، و جبال فيها قبائل من البربر، وزراعتهم الحنطة و الشعير، وأكثر أمواهم المواشي من البقر و الغنم، ويتخذون النحل كثيرا، فلذلك العسل و السمن في بلدهم كثيرا و ربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد و الأقطار المجاورة لهم المتباعدة منهم و أهلها قبائل و لهم حرمة مانعة."³

- تحصين منازلها من الأعداء و الذعار:

و يقصد بذلك تأمين الرعية من كل طارق، أو غزو أجنبي. و قد عرفت مدينة "تلمسان" منذ الفترة الإسلامية إستحكامات عسكرية⁴، تمثلت في الأسوار المتينة التي تحيط بالمدينة تتخللها أبراج و أبواب، ودورها كان لمراقبة حركة الوافدين على المدينة و كانت تغلق ليلا و ذلك على غرار جميع المدن الإسلامية، و قد ذكرت جميع المصادر التي تناولت مدينة "تلمسان" و اتفقت في جملها على أن المدينة كانت مسورة من جميع نواحيها، و يقول "الحميري" في ذلك: " ولها سور متقن الوثيقة..."⁵، و يذكر "الإدريسي" من علماء القرن السادس للهجرة الثاني

1 - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 63.

2 - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 68.

3 - الإدريسي، المصدر السابق، ص 258.

4 - أنظر الفصل الخامس من الدراسة.

5 - الحميري، المصدر السابق، ص 135.

عشر للميلاد أن مدينة "تلمسان" أزية و لها سور حصين متقن الوثيقة¹، و يبدو أن أمراء و سلاطين مدينة "تلمسان" اهتموا بتحسين المدينة منذ نشأتها إلى غاية الفترة العثمانية، حيث يصف "مارمول كرنخال" أسوار المدينة بقوله: "...أسوار المدينة جميلة و شاهقة محصنة تحصينا جيدا بروج، لها خمسة أبواب رئيسية، في كل واحد منها مركزا للحراسة..."².

أما مدينة "الجزائر" فقد كانت مسورة منذ الفترة الرومانية و استمرت على ذلك إلى غاية الفترة العثمانية، و فتحت الأبواب على أسوارها بالإضافة إلى استحكامات عسكرية من خنادق، و أبراج و طبانات شيدت في العهد العثماني، كما حرص حكامها على ترميمها و وصيانتها.³

- أن يحيط بها السواد يعين أهلها:

و يقصد هنا القرى و القبائل و الأرياض التي يجب أن تحيط بالمدينة، و تكون مددا عند الصريخ، و تموينها بالميرة.

و مدينة "تلمسان" منذ القديم كانت دار مملكة قبيلة "زناته"، و هي من أكبر القبائل البربرية بالمغرب الإسلامي، و يقول "الحميري في ذلك: " و كانت تلمسان دار مملكة زناته في هذه العصور القريبة، و حولها قبائل كثيرة من زناته و غيرهم من البربر..."⁴. و مع بداية القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد انتشرت قبائل عربية بالمغرب الإسلامي من فرع "بنو هلال"، و من أهم فرع من هذه القبيلة نجد "بنو عامر" الذين انتشروا في سهول مدينة "تلمسان"، و هم بدو يعيشون حياة الترحال، و يصفهم "حسن الوزان" بقوله: "أهم فرع من هذا الرهط هم بنو عامر المقيمون بتخوم مملكتي "تلمسان" و "وهران" يرحلون إلى صحراء "تيكورارين" و يستأجرهم ملك "تلمسان"، و هم ذو شجاعة فائقة و ثروة طائلة، عددهم نحو ستة آلاف من أحسن الفرسان، و أقواهم عتادا.... و ديار "هيرة" في السهل الممتد بين "وهران" و "مستغانم"، و هم فلاحون يؤدون الخراج لملك "تلمسان"، و لعل عددهم مائة فارس"⁵.

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - الإدريسي، المصدر السابق، ص 286.

2 - مارمول كرنخال، المصدر السابق، ج 2، ص 299.

3 - أنظر الفصل الخامس، ص 351.

4 - الحميري، المصدر السابق، ص 135.

5 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 51.

و قد جمعت مدينة "تلمسان" جميع الشروط التي وضعها علماء الإسلام في تخطيط المدن، و من خلال وصف "المقري" يتسنى لنا معرفة أهمية هذه الشروط بقوله: "...و هي مدينة عريقة في التمدن، لذيدة الهواء كريمة المنبت، اقتعدت بسفح الجبل، و دُوِّين رأسه بسيط أطول من الشرق إلى الغرب، عروسا فوق المنصة... و يطل منها على فحص "أفَيْح" معد للفلاحة... و بها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة، و الصروح الشاهقة و البساتين الرائقة... و تنصب إليها من الأعلى أنهار من ماء غير آس، تتجاذبه أيدي المذانب و الأسراب المكفورة خلالها، ثم ترسله بالمساجد و المدارس و السقايات بالقصور و عليّة الدور و الحمامات فيفعم الصهاريج، و يفهق¹ الحياض، و يسقى ريعه خارجها مغارس الشجر و منابت الحب..."².

و إذا تأملنا موقع مدينة "الجزائر"، و أسقطنا عليه الشروط التي وضعها المفكرون المسلمون لوجدنا أنها حققت الشروط التي وضعها "ابن خلدون" بقوله: "...مما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر، أن تكون في جبل، أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد، تكون صريحا للمدينة متى طرقها طارق العدو، و السبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، و لم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية، و لا موضعها متوعر من الجبل، كانت في غيرة للبيات، و سهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها و تحيفه لها، لما يأمن من وجود الصريخ لها..."³.

فمدينة "الجزائر" تأسست بهذه الشروط منذ تمصيرها في الفترة الزيرية، حيث تعلقت بالجبل المطل عليها و جعل المسجد الجامع أعلاها (مسجد سيدي "رمضان")⁴، و أحيطت بأسوار تحمي المدينة من شر كل طارق، بالإضافة إلى السواد من القبائل البربرية و العربية التي تقيم خارج أسوارها، و هذا من الفترة الزيرية إلى غاية الفترة العثمانية، كما يشير "ابن حوقل" إلى أمر مهم هو أن سكان مدينة "الجزائر" في حالة تعرضهم لغز كانوا يلجئون إلى جزيرة تقابل اليابسة قريبة من المدينة، و يبدو أنه على هذه الجزيرة أنشأ حصن "البنيون" في ما بعد: "... ولها جزيرة في البحر

1 - فهق الغدير بالماء يفهق فهقا: امتألاً. أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص135.

2 - أحمد بن محمد المقري (986هـ - 1578م / 1041هـ - 1631م)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار الصادر، لبنان، 1408هـ / 1988م، ج5، ص433.

3 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج2، ص 785، 786.

4 - يقع المسجد الجامع في مدن الساحلية عادة في أعلى المدينة، و السوق في أسفلها. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد موشموش، مساجد مدينة تنس، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر، 2009م، ص78.

على رمية سهم منها تحاذيها فإذا نزل بهم عدو لجؤوا إليها فكانوا في منعة و أمن ممن يجذرونه و يخافونه"¹ كما يذكر "أبو إسحاق إبراهيم الفارسي" أن مدينة "الجزائر" لها مدد كبير من القبائل البربرية: "و "جزيرة بني مزغنا" مدينة عامرة يحف بها طوائف من البربر و هي من الخصب و السعة على غاية ما تكون المدن "² ، كما تطلعنا المصادر التاريخية على أسماء عدد من القبائل البربرية و العربية التي ضربت منازلها و خيامها في فحص مدينة "الجزائر" أو في الأراضي الجنوبية للمدينة خاصة في سهل "متيجة" في الفترة العثمانية كقبيلة "العوفية"³، و قبيلة "الثعالبة"، و قبيلة "حجوط"، و قبيلة "بني مسوس".

كما لعب مينائها دورا كبيرا في التجارة المتوسطة منذ الفترة الزيرية، حيث موقعه جعله مطمعا لجميع الدول الناشئة بالمغرب الإسلامي، و كذلك النورمنديون الذين استطاعوا احتلاله في نهاية القرن الخامس للهجرة. و لعب كذلك في الفترة العثمانية دورا كبيرا في الجهاد البحري ضد الأسبان لتحرير الأندلسيين، و إجلائهم نحو مدينة الجزائر و مدن المغرب الأوسط، كما كان مطلقا للأساطيل البحرية في العمل الجهادي في أعالي البحار ضد الدول الأوربية، و سندا كبيرا للدولة العثمانية و يدها في البحر الغربي للمتوسط.

تتأثر المدينة بالمعطيات الجغرافية التي تظهر فيها، إلا أنّ العامل الأكبر في تطورها هو تصرف أهلها، فالساكن هو العنصر الفعال في كل مدينة، حيث يتوقف ازدهار أو تدهور المدن على تصرفاتهم، و على مثلهم السلوكية و الذوقية و الفكرية يتوقف شكل المدينة و سماتها المميزة و من حيث التعاملات فإن التبادلات تحدث ببطء.

وحجم المدن يتوقف على عدد السكان و على الرقعة التي تشغلها مساكنهم و لا يوجد معيار متفق عليه لتقرير هذا الحجم الذي يتوقف عند حده الأدنى التمييز بينهما و بين المراكز التي هي أصغر منها و التي يطلق عليها في أية لغة عدة أسماء منها البلدة و القرية و الحاضرة.

1 - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 68.

2 - أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، مسالك الممالك، مطبعة ليدن، برلين، 1967. ص 38.

3 - قبيلة كانت تسكن ناحية الحراش، نظم الدوق "درروفيكو" حملة عسكرية ضدها فباغتتها ليلة السابع عشر من شهر أفريل من سنة 1832م فقتل جميع أفرادها العزل بكل وحشية. للمزيد من التفاصيل أنظر: - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 42.

و مما يقرر مكانة المدينة الوظائف التي يقوم بها أهلها أو غالبيتهم أو ما يختصون بها، و دور ذلك في صرف نشاط السكان و عملهم و دورهم في المنطقة التي توجد فيها المدينة، و الواقع أن هذه الأعمال تكون مصدر صفة مميزة لها فيقال عنها مدينة صناعية أو تجارية أو إدارية، و لا جرم أن تجد في المدن الإسلامية تعدد الصفات و الوظائف، و المقصود كذلك أنّ عددا من أهلها يعملون في هذا الجانب فيظهرون ميزتها، و لكن ذلك لا يعني أنّ السكان كافة يعملون في ما تميزت به المدينة إذ لا بد أن كثيرا منها يعملون في خدمات أخرى قد لا تكون لها علاقة مباشرة بما تميزت به المدينة و لا يمكن وضع مقياس لتحديد عدد من يعمل بما تميزت به، و تختلف أسس تقرير هوية المدينة و تمييزها عن التجمعات البشرية الأخرى فقد يكون هذا التقرير بتشريع خاص يحدد مكان المدينة أو الأعمال التي تختص بها، و قد تتقرر هوية المدينة بالعمل الذي يحرص بها كأن تكون مركزا لأصحاب السلطة السياسية و الإدارية، أو مركزا تجاريا هام، أو حاضرة علمية و ثقافية، وقد قدم المفكرون المسلمون شروط هامة لاختيار موقع المدينة الإسلامية، من خلال التجارب التي مرت عليهم، أو أخذوها كنماذج لدراساتهم و مقارناتهم.

لقد تأهلت مدينة "الجزائر" و ذلك من خلال المراحل التاريخية التي مرت بها أن تكون عاصمة لدولة سوف تلعب الدور الريادي في الأحداث السياسية بالبحر الأبيض المتوسط، و في الحركة الثقافية و العمرانية، و قد أهلها موقعها الإستراتيجي لأن تقوم بدور مهم في توسيع رقعة الدولة العثمانية في غرب البحر المتوسط، حيث تزامن ظهورها مع سقوط الأندلس و خروج المسلمين منها، و بذلك أصبحت في البداية ملجأ للمهاجرين، ثم حصنا لهم لتنظيم أنفسهم استعدادا لتحقيق حلمهم في استعادة الأندلس و منطلقا نحو غزو الشواطئ و المدن الأندلسية.

- الفصل الثالث: مصادر التشريع الإسلامي في العمران:
- 1 - مصادر التشريع العمراني:
- 2 - الحسبة:
- 3 - الأوقاف ودورها في التطور العمراني للمدينة الإسلامية:

لقد عرفت العلاقة بين الإسلام كعقيدة والسلطان كحاكم في التاريخ السياسي الإسلامي باسم الخلافة الإسلامية، وهو تعريف نابع من التصور الإسلامي في كون الله سبحانه و تعالى قد جعل الإنسان خليفة في الأرض ليقوم بإصلاحها وفق المنهاج الرباني¹ حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾²، و يقول عز وجل كذا. ﴿...وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ..﴾³، وقد عرفت العلاقة بينهما كذلك بالإمامة الكبرى، و مفهوم مرتبط كذلك بالجانب التعبدي في الإسلام حيث من تقلد منصب الخلافة أو إمارة المسلمين وجب عليه إمامتهم في الصلاة، و من ثم جعل العلماء شروط الإمامة من شروط الخلافة⁴، و على هذا الأساس استدلت الصحابة بهذا المفهوم في أحقية "أبي بكر الصديق"⁵ رضي الله عنه بالخلافة لكون الرسول صلى الله عليه وسلم قدمه للصلاة عند مرضه و يقول "ابن خلدون" في ذلك: " فأما إمامة الصلاة فهي أرفع هذه الخطط كلها، و أرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة. و قد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن "أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا، أفلا نرضاه لدينانا"⁶، أما فقهاء اصطلاح على تسميتها بالولاية، و من ذلك فإن الولاية العامة هي الصلاحيات و الضوابط التي تحدد و تقيّد تصرفات الوالي في شؤون المسلمين و يطلق عليه المعاصرين بالسياسة الشرعية، و قد أسس الفقهاء و الأصوليون لذلك علم

1 - مصطفى بن حموش، المرجع السابق، ص20.

2 - سورة البقرة الآية رقم: 30.

3 - سورة النمل الآية رقم: 62.

4 - شروط الخلافة هي خمس: العلم، و العدالة، و الكفاية (وهي أن يكون جريئاً على إقامة الحدود، و اقتحام الحروب بصيراً بها)، و سلامة الحواس و الأعضاء مما يؤثر في الرأي و العمل، و اختلف في الشرط الخامس هو النسب القرشي. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج2، ص566.

5 - بوبع بالخلافة رضي الله عنه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، و اجتمعت عليه كلمة الأمة، و خرجت عليه بعد القبائل العربية مرتدة عن الإسلام و امتناعها عن دفع الزكاة، فحرّبا إلى أن فاءت إلى أمر الله، و في عهده ثم فتح الحجاز، و جهز الجيوش لفتح العراق، و الشام، توفي رضي الله عنه في السنة الثالث عشرة من هجرة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن كثير المصدر السابق، ج4، ص7.

6 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج2، ص603.

مقاصد الشريعة التي تبين غايات و أهداف، وفي نفس الوقت قيود السلطة في الإسلام، حيث لا يحق للحاكم التصرف إلا وفق المصلحة الراجحة بالمفهوم الشرعي، أما الولاية الخاصة فهي مجموع الحقوق المشروعة للأفراد التي تمكنهم من التصرف في ممتلكاتهم¹.

و إن كان التشريع الإسلامي قد حدد العلاقة بين السلطان و الرعية، فقد حدد كذلك العلاقة الموجودة بين السلطان و العمران سواء في نموه و تطوره و خرابه²، وفي كتاب الله عدة آيات تدل أن من أسباب ذهاب العمران و خراب القرى و المدن هو الظلم، سواء ما أرتبط بظلم الإنسان لنفسه، أو لغيره، و كذلك الظلم الذي يحدثه الحاكم ليضر به عامة الناس، أو يسن قوانين مجحفة في حق التجار أو أصحاب الأموال من ضرائب، و مكوس لمشاريعه العمرانية، و احتكار العلم و التضييق على العلماء و أصحاب الحرف، مما يجعلهم يخرجون من المدينة قاصدين أماكن استقرار أخرى تضمن العدل و حرية التفكير، و من الأمثلة الكثيرة في تاريخ المدن بالمغرب الإسلامي، فالأوضاع السياسية و الاجتماعية لمدينة "القيروان" في القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد، عند نزوح قبائل "بني هلال"³ و طغيانهم و ظلمهم و الفساد الذي ألحقه بهم، استفادت "قلعة بني حماد"⁴ من هذه الأوضاع و تمثل

1 - مصطفى بين حموش، المدينة...، ص 21، 20.

2 - نفسه.

3 - هي قبائل عربية نزحت إلى المغرب الإسلامي مع مطلع القرن الخامس للهجرة من منطقة صعيد مصر.

4 - دولة بني حماد ثاني دولة إسلامية نظامية تأسست بالمغرب الأوسط بعد الدولة الرستمية، أنشئت من طرف حماد بن بلكين بن زيري في حوالي سنة (398 هـ / 1008م) على مرتفعات الحضنة، وفقا لما وعده الزيريون بعد مواجهته و تخلصه من زناتة. شهدت القلعة تطورا مضاهيا للمدن الإسلامية الأخرى، و بعد سقوط القيروان التي كانت المركز الرئيسي للتبادل التجاري بين المشرق و المغرب تحولت طرق القوافل التي كانت تأتي من إفريقيا الوسطى و العراق و الشام و الحجاز و مصر إلى القلعة. و أصبحت بذلك القلعة قبلة لطلاب العلم و المعرفة و العلماء و الحرفيين و الصناع الذين أحاطوها بمهالة من الشهرة و المجد و جعلوا منها واحدة من المراكز الثقافية في العالم الإسلامي. أنشأ الحماديون القصور و المساجد و الجوامع و الأسواق و الأسوار و القناطر، فقد كان الأمير الناصر شديد الاهتمام بالبناء و التعمير و يدخل تحسينات باستمرار على مباني القلعة، فجدد الجامع الأعظم و بنى بجواره عدة قصور كقصر بلارة و قصر الخلافة و قصر الكوكب. واصل الأمير المنصور جهود أبيه في البناء و التعمير، و بفضل ذوقه المرفه شيد عددا من المباني و القصور و دور الصناعة و أجرى الماء في البساتين و الرياض و بنى في القلعة قصر الملك و المنار و الكوكب و قصر السلام. أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر،...، ج 6، ص 350. وكذلك: - البكري، المصدر السابق، ص 49.

ذلك بخروج العلماء و طلبة العلم و الصناع إليها من "القيروان" و "إفريقية" كلها، و يقول الله سبحانه و تعالى: ﴿ وَ تِلْكَ الْقُرَىٰ أَمْلَكُنَّاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا... ﴾¹.

و قد جمع "ابن خلدون" في "مقدمته" بعض أنماط و صفات الظلم التي تؤذن بخراب العمران ، و هجرة الساكنة من المدن بقوله: " اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها و اكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها و مصيرها انتهاجها من أيديهم. و إذا ذهبت آمالهم في اكتسابها و تحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، و على قدر الاعتداء و نسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي و الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرا عامًا في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب. كذلك لذهاب الآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها... فإذا قعد الناس عن المعاش و انقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران و انتقضت الأحوال و ابدعرت² الناس في الأفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فحرف ساكن القطر و خلت دياره، و خربت أمصاره... و لا تحسب الظلم هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض و لا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك، و كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه... و وبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال عن أهله... و أعظم من ذلك في الظلم و إفساد العمران و الدولة التسلط على أموال الناس، بشراء ما بين أيديهم بأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب و الإكراه..."³.

ويمكن تحديد أدوار كل من الولاية الخاصة و الولاية العامة و الولاية الجماعية في خطط المدينة الإسلامية، فدور الولاية العامة يتجسد لنا من خلال المنشآت الضخمة من مساجد و أبواب و الأسوار و الخنادق و الأبراج، و ثكنات الجند و القناطر والمنشآت المائية من مواجل و أبار، أما

كذلك: - الهادي روجيه إدريس، الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 م إلى القرن 12م، ترجمة

حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ج1، ص99.

1 - سورة الكهف، الآية رقم: 59.

2 - انتشر و تفرق.

3 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج2، ص701.

دور الولاية الخاصة فكان يرتبط عموماً بالتفاصيل المتعلقة بالحياة الفردية من بناء المساكن و استعمالها اليومي و التصرف فيها و استغلالها و توزع وحداتها، أما الولاية الجماعية فهي تظهر من خلال المنشآت ذات منفعة عمومية مثل الأحياء السكنية، و التنظيمات الحرفية و الدروب المشتركة و الملكيات الجماعية و غير ذلك.¹

1 - مصادر التشريع العمراني:

لم يختلف أحد من علماء الأمة المجتهدين في أن الأصل الأصيل للشريعة الإسلامية هو القرآن، فهو البدرة التي تكون منها الإسلام بما فيه من عقيدة و عمل و جهاد، ثم إنهم اتفقوا على أن السنة هي المصدر الثاني للدين، و أنها ضرورة لتبيين القرآن، و إعطاء الحكم فيما لم ينص عليه فيه، و اختلفوا فيما وراء ذلك من الأدلة التي يرجع إليها، فأضاف الجمهور من أئمة السنة إلى الكتاب و السنة مصدرين آخرين هما الإجماع و القياس، و أضاف جمع من العلماء الاستحسان و المصالح المرسلة و الاستصحاب و مراعاة العرف و سد الذرائع، و قد تتداخل هذه الأصول في بعضها، و مردها كلها إلى أصلين الأولين، إذ لو أجمعت الأمة كلها مثلاً على مخالفة الكتاب و السنة لكان إجماعهم باطلاً.

و دليل العمل بهذه الأصول، هو القرآن نفسه و يكمن ذلك من خلال قول الله عز وجل في كتابه المنير: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ .. ﴾²، و الرجوع إلى الله هو رجوع إلى كتابه، و الرجوع إلى رسوله رجوع إلى سنته، و الرجوع إلى أولي الأمر رجوع لإجماع المجتهدين³، فإذا وقع خلاف و جب رد الأمر إلى القرآن و إلى السنة، و بدل الجهد في استنباط الحكم منهما، أو من أحدهما بطريقة الدلالة بالمنطوق، أو طريقة الدلالة بالمفهوم، أو الدلالة بالمعقول، و من دلالة المعقول القياس و ما يتبعها من الأدلة الأخرى المختلفة عليها، و من

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - مصطفى بن حموش، المدينة...، ص 20.

2 - سورة النساء، الآية رقم: 59.

3 - علاء الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية و مكارمها، ط5، المطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1429هـ/2008م، ص84، 85.

هذه المصادر اجتهد الفقهاء عند تناولهم النوازل التي طرأت على الأمة، و أسسوا تشريعا إسلاميا يناسب الزمان و البيئة العمرانية.

1-1- القرآن و السنة النبوية:

إن المتصفح للدراسات التي تناولت فقه العمارة الإسلامية، أو أثر التشريع الإسلامي¹ على العمران يرى جليا كيف استفاد أصحابها من كتب النوازل و الحسبة، و بالرجوع إليها نرى أن فقهاء المسلمين اعتمدوا في تناولهم لأحكام البنيان في النوازل على آية في القرآن الكريم، و على الحديث النبوي ، أما الآية ففي قول الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾² و يفسرون العرف في هذه الآية بالنسبة لأحكام البنيان بما جرى عليه الناس، و ارتضوه، ولم يعترضوا عليه طالما لا يتعارض ذلك مع القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف.³

أما الحديث النبوي الشريف الذي يعتمد عليه الفقهاء في أحكام البنيان وهو دعامة رئيسية في الإسلام فهو " لا ضرر و لا ضرار "⁴، و قالوا رحمهم الله أنّ المراد بالنفي في قوله عليه الصلاة و السلام " لا ضرر و لا ضرار " النهي و الزجر عن إيقاع الضرر مطلقا، فتكون الجملة المستعملة في مقام الأخبار عن عدم تحقيق شيء كناية عن مبعوضية الشارع، و يكون الكلام نفيًا أريد به النهي⁵، و

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد القادر أكبر جميل، عمارة الأرض في الإسلام مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية، ط2، مؤسسة الرسالة، دار البشير للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 1416هـ / 1995م. كذلك: - خالد عزب، فقه العمارة الإسلامية، ط1، دار النشر للجامعات، مصر، 1417 هـ / 1997 م.

2- سورة الأعراف، الآية رقم: 199.

3- اتفق فقهاء التشريع الإسلامي على تعريف العرف بأنه مجموعة من القواعد التي درج الناس على إتباعها جيلا بعد جيل و احترامها خشية العقاب، و تأتي قوة العرف من أمرين: الأول هو العنصر المادي، وهو توارث العادات و التقاليد، الابن عن الأب عن الجد. و الأمر الثاني: العنصر المعنوي، و هو التخوف من مغبة العقاب في حالة مخالفة أحكام العرف. انظر:- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الأشباه و النظائر في قواعد و فروع الفقه الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1403 هـ، ص89. كذلك:- عبد القادر جميل أكبر، المرجع السابق، ص112.

4 - عبد الجبار أحمد شرارة، نظرية نفي الضرر في الفقه الإسلامي المقارن، رابطة الثقافة و العلاقات الإسلامية، إيران، 1418هـ / 1997م، ص 45.

5 - عبد الجبار أحمد شرارة، المرجع السابق، ص61.

اعتبروه أحد الأحاديث الخمسة التي يقوم عليها الفقه الإسلامي¹، و احتلت قاعدة " لا ضرر² و لا ضرار" بابا واسعا في فقه العمران و العمارة الإسلامية و عليه قامت أحكام لا حصر لها³. و قد اعتمدت المصادر و المراجع التي تناولت فقه العمران قديما و حديثا على الحديث النبوي " لا ضرر و لا ضرار"، و يقول "ابن الرامي" في ذلك: " هو حديث صحيح ثابت عن الرسول صلى الله عليه و سلم من "موطأ"⁴ و غيره و قد اختلف العلماء في معنى ذلك، فقال بعضهم " لا ضَرَر و لا ضِرَار" أي لا تضر نفسك و لا تضر غيرك، و قال "ابن حبيب": الضرر و الضرار كلمتان بمعنى واحد رددتا لتأكيد المنع و قد يأخذهما تصرف الأعراب، فالضرر الاسم و الضرار الفعل، فقوله عليه السلام " لا ضرر" أي لا يدخل على أحد ضرر و إن لم يتعمده، و قوله " لا ضرار" أي لا يضر أحد بأحد. و قال "الخشنى" و هو "محمد بن عبد السلام" القرطبي: الضرر هو ما لك فيه منفعة و على جارك فيه مضرة... و قال غير "الخشنى": و يحتمل أن يكون معنى الضرر أن يضر أحد الجارين جاره، و معنى الضرار أن يضر كل واحد منهما صاحبه، فهى الرسول صلى الله عليه و سلم عن الوجهين.

1 - يدور الفقه الإسلامي على خمسة أحاديث: " الحلال بين و الحرام بين"، و قوله صلى الله عليه وسلم: " لا ضرر و لا ضرار"، و قوله: " إنما الأعمال بالنيات"، و قوله: " الدين نصيحة" و قوله: " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، و ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم". للمزيد من التفاصيل أنظر:- يحيى بن آدم القرشي، الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعرفة، بيروت، 1979 م، ص 79. كذلك: - محمد صدقي بن أحمد البرنو، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1404 هـ، ص 23. كذلك: - خالد عزب، المرجع السابق، ص 17.

2 - الضرر عند اللغويين هو النقصان يدخل في الشيء، و هو ضد النفع، و قيل خلافه، و الضرة: الأذى، و قيل شدة الحال و الأذى، و قد ضاره و ضره بمعنى واحد و الاسم: الضرر. و الضر: الهزال و سوء الحال، و كل ما كان سوء حال و فقر و شدة في بدن فهو ضرّ بالضم و ما كان ضد النفع فهو بفتح الضاد. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج 5، ص 354، 355. كذلك: - عبد الجبار أحمد شرارة، المرجع السابق، ص 31.

3 - للمزيد من التفصيل حول قاعدة لا ضرر و لا ضرار أنظر: - عبد الله الهالبي، قاعدة لا ضرر و لا ضرار: مقاصدها و تطبيقاته الفقهية قديما و حديثا، ط 1، منشورات دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، دبي، الإمارات العربية، 1426 هـ/2005 م، ص 10.

4 - ألفه الإمام مالك إمام دار الهجرة في القرن الثاني للهجرة.

و الضرر على وجوه كثيرة ينحصر في قسمين: قديم و محدث.

فالقديم ينقسم إلى قسمين: منه ما يكون قبل التأذي، و منه ما يكون بعده، فما كان من الضرر الذي يكون قبل التأذي فلا يغير عن حاله و إن أضر بجيرانه باتفاق لأنه ضرر دخل عليه. و ما كان من الضرر الذي يكون بعد التأذي و يطول زمانه فمنه ما يستحق و منه ما لا يستحق و إن طال زمانه كدخان الحمامات و الأفران و غبار الأندر و نتن دباغ الدباغين... و زاد "ابن رشد"¹ لمحدث الضرر: احتل له و إلا فاقطعه سواء كان قديما أو محدثا، و لا يستحق الضرر بالقدم إلا أن يكون الضرر أقدم من التأذي، و لا تكون الحيازة في أفعال الضرر حيازة تقوى بها حجة محدثه بل لا يزيدته تقادمه إلا ظلما و عدوانا.²

و قد اختلف العلماء في مدة حيازة الضرر، و من خلال نوازل "المعيار"³ رصدت أهم أقوال العلماء في ذلك:

- "ابن رشيقي"⁴: " اختلفت أقوال العلماء في أمد حيازة الضرر، فمنهم من قال عشرة أعوام و فيهم من قال عشرون عاما و بالأول مضى العمل."

- "ابن حوير": "... و اختلفوا في المدة التي يستحق بها الضرر فمنهم من رجح القول بالعشرة أعوام، و قال إن العمل به، و منهم من قوى قول من قال عشرين عاما، و اختلفت أيضا مذاهبهم في السكوت عن ذلك هل يعد رضى أم لا؟ و استلوح منه على احتمال هل ينفي عنه الرضا إسهاده بأنه

1 - هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، من كبار علماء الأندلس، ولد سنة 455هـ و توفي سنة 520هـ/ 1126م. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ/ 2003م، ج1، ص190.

2 - ابن الرامي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي (توفي: 734هـ/ 1334م)، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق و دراسة فريد بن سليمان، تقدم عبد العزيز الدولاتي مركز النشر الجامعي، 1999م، ص58.

3 - أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (914هـ/ 1508م)، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية و الأندلس و المغرب، أخرجه: محمد حجي و آخرون، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، 1401هـ/ 1981م، ج9، ص41.

4 - هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن رشيقي، من علماء المالكية بالأندلس. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن قاسم مخلوف، المصدر السابق، ج1، ص164.

غير راض أم لا ينفي عنه ذلك حتى يقوم بالتخاصم في ذلك قبل مضي المدة التي يستحق فيها الضرر.".

- "المتيطي": " و من أحدث عليه ضرر و علم بذلك و لم ينكره و لا اعترض فيه عشرة أعوام و نحوها من غير عذر يمنعه من القيام له بعد هذه المدة، هذا مذهب "ابن قاسم"، و قال "ابن الهندي" و "ابن العطار"، و قال "أصبغ"¹: لا ينقطع القيام في إحداث الضرر إلا بعد سكوت عشرين سنة و نحوها، و بالأول القضاء، إلا أن يكون المحوز عليه صغيراً أو مولى عليه، أو بكراً غير معنس فلا يضرهم ذلك و إن طال...".

- "ابن سهل": " اختلف في حيازة الضرر المحدث فقليل: إنه لا يجاز أصلاً و إليه ذهب "ابن حبيب"، و قيل: إنه يجاز ما تجاز به الأملاك العشرة أعوام و نحوها و هو قول "ابن أصبغ" هذا و روى عنه أنه لا يجاز إلا بالعشرين سنة و نحوها، و كان "ابن زرب"² يستحسن في ذلك خمسة عشر عاماً، و روى ذلك عن "ابن الماجشون"، و قال "سحنون": أنه يجاز بالأربعة سنين و بالخمس لأن الجار قد يتغافل عن جاره فيما هو أقل من ذلك السنة أو السنتين. و قيل ما كان ضرره على حد واحد فهو الذي يجاز بالسكوت عليه و ما كان يتزايد أبداً كالمطر بجانب الحائط و شبهه فلا حيازة فيه."

و في السنة نبوية نصوص شرعية كثيرة يستند إليها في فهم إسقاط نفي الضرر في العمران الإسلامي، و احتلت مكانة كبيرة في كتب الفقه و النوازل، حيث اعتمدت في كثير من الفتاوى، و في تقديم الحكم الشرعي في النوازل التي طرأت على المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط و الحديث، و يعود أصل هذه المسألة إلى حديث الرسول صلى الله عليه و سلم: " لا ضرر و لا ضرار"، و قد فسره بعض الفقهاء بكون الضرر ما يقوم به الشخص من فعل جلب مصلحة له و يكون في ذلك ضرر على غيره، أما الضرار فهو ما يقوم به الشخص من فعل ظاهره مشروع غير أنه ليس وراءه مصلحة بيّنة، مما يبيّن و جود نية فاسدة وراء ذلك الفعل³، و يمكن حصر بعض الأحاديث في مايلي:

- 1 - هو أبو عبد الله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع المصري، من كبار السادة المالكية، ولد بعد سنة 150هـ و مات بصر سنة 225هـ / 839م. أنظر: - ابن قاسم مخلوف، المصدر السابق، ج1، ص99.
- 2 - من علماء مدينة قرطبة توفي سنة 381هـ / 991م. أنظر: - ابن قاسم مخلوف، المصدر السابق، ج1، ص149.
- 3 - مصطفى بن حموش، فقه..، ص81.

أ - الأحاديث التي تدل على منع الضرر:

ويمكن جمعها في نوعين، فالنوع الأول هي الأحاديث التي ورد فيها تصريح بلفظ "الضرر"، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الضرر في الوصية من الكبائر"، وفيه تأكيد لما جاء في كتاب الله قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ بَعَدَ وَصِيَّةً يُوَصِّي بِهَا أَوْلَادَيْنِ مِنْكُمْ مِثْرًا¹﴾، من منع المضارة في الوصية. ومنها كذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "من ضارَّ ضرَّه الله، ومن شاقَّ شقَّ الله عليه"، قيل في شرحه: أي من قصد الإضرار بأحد الناس بغير حقِّ جازاه الله على إضراره، أو يوقع الضرر به في الدنيا، وقيل معناه: من أدخل على مسلم مضرة في ماله، أو نفسه، أو عرضه بغير حق، جازاه الله من جنس فعله، ويتضمن الحديث تحذيرا من أذى المسلم مطلقا. ومنها كذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم". ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "ملعون من ضارَّ مؤمنا أو مكر به". ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: "من ضارَّ ضارَّ الله به". ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "خصلتان ليس فوقهما من الشرِّ شيءٌ: الشرك بالله، والضرُّ لعباد الله". ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "للجار أن يضع خشبته على جدار جاره وإن كره، والطرق الميتة سبع أذرع، ولا ضرر ولا إضرار". ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "لا ضرر ولا ضرورة، ولا يمنع أحدكم جاره أن يضع خشبته على حائطه". ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلاء". ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يمنع نفع بئر²"، وقضى بين أهل البادية أن لا يمنع فضل الماء ليمنع فضل الكلاء، فقال: "لا ضرر ولا ضرار".

أما النوع الثاني هي الأحاديث التي يستفاد منها منع الإضرار بالغير، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله، وعرضه"، وهذا الحديث يفيد

1 - سورة النساء، الآية رقم: 13.

2 - نفع البئر: أي: فضل مائها، لأنه ينقع به العطش أي يروي.

بعمومه منع الإضرار بالغير مطلقاً في نفسه، أو ماله، أو عرضه. و منها قوله صلى الله عليه وسلم " لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه " .

ب - الأحاديث التي تدل على رفع الضرر:

وردت أحاديث كثيرة يستفاد منها وجوب رفع الضرر، و هو يتمثل بمعنيين: الأول بإزالة الضرر، أو تغير العزيمة إلى رخصة في العبادة، ورفع اللزوم في المعاملة إذا استلزمتا ضرراً، و الثاني: بالضمان، المثلي بالمثل، و القيمي بالقيمة، و يمكن جمع هذه الأحاديث في مجموعتين هما: الأولى هي الأحاديث الدالة على رفع الضرر بإزالة سببه، و منها قوله صلى الله عليه وسلم " لا ضرر و لا ضرار "، كما ورد في قصة "سمرة" مع الأنصاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بإزالة الضرر، و لأن النخلة كانت هي السبب في إلحاق الضرر بالأنصاري، فكان في أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقلع نخلة "سمرة"، و رفع سلطته عليها لما في بقائها من تضرر الأنصاري، و ذلك منه صلى الله عليه وسلم أعمال للقاعدة، و تطبيق لنفي الضرر بمعنى إزالة سببه. و منها قوله صلى الله عليه وسلم: " من زرع في أرض قوم بغير إذنه، فليس له من الزرع شيء، و له نفقته "، و هذا الحديث يدل على عدم مشروعية التصرف في ملك الغير، بغير إذنه، فلو زرع، أو غرس في أرض الغير مثلاً فإنه يؤمر بقلع زرعه، أو غرسه.¹

أما الثانية فهي الأحاديث التي تدل على الضمان، و منها قوله صلى الله عليه وسلم: " من أخرج ميزاباً، أو كنيفاً أو وتداً أو أوثق دابة أو حفر شيئاً في طريق المسلمين، فأصاب شيئاً فعطب فهو له ضامن " . و منها قوله صلى الله عليه وسلم: " من أوقف دابة في سبيل من سبل المسلمين، أو في سوق من أسواقهم، فأوطأت بيد أو برجل فهو ضامن " .²

1 - 2 - الإجماع:

1 - عبد الجبار شرارة، المرجع السابق، ص 98، 99.

2 - حول هذه الأحاديث أنظر: البخاري، المصدر السابق، وكذلك: - عبد الجبار شرارة، المرجع السابق، ص 94.

الإجماع لغة هو العزم و الاتفاق¹، يقال أجمع القوم أمرهم على العمل الصالح إذا عزموا و اتفقوا، و يقول ابن منظور في ذلك: " الإجماع الإعداد و العزيمة على شيء "2، و منه قوله سبحانه و تعالى: ﴿ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَ شَرِّعَاكُمْ ﴾...³، أما اصطلاحاً فهو اتفاق مجتهدي الأمة بعد الرسول صلى الله عليه و سلم في عصر من الاعصار على حكم من الأحكام، فالإجماع كما يتحدث عنه علماء القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد و ما بعده عبارة عن اتفاق الناس في كل بقعة من بقاع الأرض، و ذلك بالطبع ما لم يفهمه المسلمون الأولون و ما لا تدل عليه نصوص الكتاب و السنة، فالإجماع هو اتفاق المجتهدين الموجودين ساعة البحث في أمر ما فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة، و هو مبني على أساس التشاور بين المؤمنين الذي حث عليه القرآن في قوله سبحانه و تعالى: ﴿... وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ... ﴾⁴، و ليس الإجماع أن يطلع كل مجتهد على وجه الأرض على مسألة و يبدي رأيه فيها بالموافقة، و نعلم نحن رأيه، و نجمع أفكار الناس كلهم فذلك ما لا يظهر أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فهموه من الاتفاق الواجب عليهم في مسألة ما. لذلك فالحق أن الإجماع عبارة عن اتفاق هيئة شورى يعقدها الخليفة لتبيين وجهة النظر في مسألة ما، فإذا اتفقت كلها على الحكم الشرعي، فقد وقع الإجماع و يجب إتباعه في العمل، و إن جاز لمن لم يحضر من أهل الاجتهاد أن يبدي رأياً مخالفاً و لكن العمل يجب أن يقع من طرف المسؤولين بما اتفقت عليه الهيئة.⁵

1- الإجماع من الألفاظ المشتركة في وضع اللغة بين معنيين هما: الأول العزم يقال: " أجمع فلان على كذا "، و المعنى الثاني هو الاتفاق، أي اتفاق علماء العصر على حكم الحادثة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - رشيد محمد عليان، الإجماع في الشريعة الإسلامية، "مجلة المورد"، م2، ع2، مارس 1973م، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1393هـ / 1973م، ص 62 - 86. كذلك: - جودة عبد الرحمن هلال، رسالة في الحدود للقاضي أبي الوليد الباجي، "صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية"، م2، ع (1 - 2)، مدريد، اسبانيا، 1373هـ / 1954م، ص 26.

2 - ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص209.

3 - سورة يونس، الآية رقم 71.

4 - سورة آل عمران، الآية رقم 159.

5 - علاء الفاسي، المرجع السابق، ص118.

و بما أن الإجماع هو اجتهاد¹ علماء الأمة في استنباط حكما شرعيا، فإنهم وضعوا قواعد لذلك و هي:

- القياس:

القياس في اللغة التسوية، يقال: لا يقاس بفلان أحد²، و عند الأصوليين إلحاق فرع غير منصوص بأصل منصوص عليه لمساواته له في علة الحكم، و يتحقق ذلك بأربعة أشياء هي: النص، و الأصل المنصوص عليه، و الفرع المقيس، و العلة، و هي مناط³ القياس، و تسمى مناط الحكم، لأن الحكم نيظ بها و ربط وجودا و عدما، و مثال على ذلك النصوص المتعلقة بتحريم الخمر، مناطها الاسكار و علة التحريم فيقاس عليه النبيذ، و لا يكفي و جود ما يجمع بين الأصل و الفرع بل لابد من دليل يدل على صحة اعتباره و هو النص أو الإجماع أو الاستنباط⁴.

و يعرفه القاضي "أبي الوليد الباجي"⁵ بقوله: "حمل أحد الملمومين على الآخر في إثبات الحكم أو إسقاطه بأمر يجمع بينهما لعلة مستنبطة منه. و قولنا: (أحد الملمومين على الآخر) استيعاب للحد لأننا لو قلنا: (أحد الموجودين على الآخر) حمل الفرع على الأصل، و قلنا: إثبات الحكم أو إسقاطه تخصيص للقياس الشرعي المستعمل بين الفقهاء، يتبين تارة يكون لإثبات حكم أتفق على ثبوته في الأصل، فيريد القياس إثبات ذلك الحكم في الفرع بحمله على الأصل، و تارة يكون لإسقاط حكم أتفق على إسقاطه أو على انتفائه من الأصل فيريد إلحاق الفرع به في ذلك، و قولنا: (بعلة مستنبطة منه) نريد الأصل و ذلك أن القياس لا يصح إلا بعلة تجمع بين الفرع و الأصل، يدل الدليل

1 - الاجتهاد هو بذل الوسع في طلب صواب الحكم و هو على طريق من قال أن الحق واحد و أن المكلف إنما كلف طلبه، ولم يكلف إدراكه. للمزيد من التفاصيل أنظر: - جودة عبد الرحمن، المرجع السابق، ص26.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص 414، 415.

3 - يقال هذا منوط به أي معلق به . للمزيد من التفاصيل أنظر: - الفيروزابادي ، المصدر السابق، ص 743.

4 - علاّل الفاسي، المرجع السابق، ص124.

5 - فقيه و أصولي، و محدث، من علماء الأندلس (403هـ/1012م - 474هـ/1081م). للمزيد من التفاصيل أنظر: - إبراهيم بن نور الدين ابن فرحون المالكي (توفي: 799هـ/1393م /)، الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجتّان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م، ص232.

على أن الحكم ثبت في الأصل لتلك العلة، و تكون تلك العلة موجودة في الفرع فيقتضي ذلك إلحاقه بالأصل، و لو حمل أحد الملمومين على الآخر من غير علة تجمع بينهما على ما يفعله كثير ممن لا يحسن شيأ من هذا الباب فيقول كذا على كذا و يعتقد أنه قد قاس فليس هذا بقياس...¹.

- الاستدلال:

الاستدلال استفعال من استدل إذا طلب الدليل، و هو يستعمل عادة في بذل الجهد في استخراج الأدلة و ذكرها كانت نصا أو إجماعا أو قياسا أو غيره.

ولكنها استعملت في نوع خاص من أنواع الأدلة، و سبيله العقل المحض، و قد عرفه "الأمدي" بأنه عبارة عن دليل لا يكون نصا و لا جماعا و لا قياسا و هو على أنواع:
منها قولهم: إذا وجد السبب ثبت الحكم إذا وجد المانع وفات الشرط انتفى الحكم. و هذا دليل من حيث الدليل ما يلزم من ثبوته لزوم المطلوب قطعا أو ظاهرا و لا يخفى لزوم المطلوب من ثبوت ما ذكرناه فكان دليلا، و ليس نصا و لا إجماعا و لا قياسا، فكان استدلالا.

و منها نفي الحكم لانتفاع مداركه كقولهم: الحكم يستدعي دليلا، و لا دليل، فلا حكم. ومنها الدليل المؤلف من أقوال يلزم من تسليمها لذاتها تسليم قول آخر، و هذا هو أساس الدليل المنطقي.

و من المعلوم أن هذه المصطلحات المنطقية و غيرها لم تكن معروفة بأسمائها زمن الصحابة رضي الله عنهم، و لكن عندما تعرف المسلمون إلى علوم المنطق و الفلسفة أخذوا يستخرجون الاقيسة المنطقية من بعض الأدلة الشرعية.²

- الاستصحاب:

من أنواع الاستدلال الذي يقول به المالكية و بعض الأئمة الآخرين، و هو مأخوذ من طلب دوام المصاحبة، و عرفه "السبكي" بأنه ثبوت أمر في الثاني لثبوته في الأول لفقدان ما يصلح للتغيير، و عرفه غيره بأنه اعتبار الحكم الذي ثبت في الماضي بدليل مصاحبا لواقعته و ملازما لها حتى يوجد دليل آخر يدل على زوال هذه المصاحبة.

1 - جودة عبد الرحمن هلال، المرجع السابق، ص 29، 30.

2 - علاّل الفاسي، المرجع السابق، ص 130.

و قد جعل العلماء خمس صور الاستصحاب و هم: استصحاب البراءة الأصلية، و استصحاب النص حتى يرد التغيير، و استصحاب العموم حتى يرد التخصيص، و استصحاب الوصف الثابت شرعا حتى يرد ما يغيره، و استصحاب الحال في الماضي (الاستصحاب المقلوب).¹

- الاستحسان:

الاستحسان لغة استفعال من الحسن بمعنى عد الشيء حسنا، و هو ما يعمل له الإنسان و يهواه من الصور و المعاني، أو إتباع الشيء الحسن في الحسيات و المعنويات، يقال استحسنت الشيء إذا عدته حسنا أو استحسنت الطريقة إذا اختار أتباعها.

و عرفه "الشاطبي" بقوله: " الاستحسان عندنا و عند الحنفية هو العمل بأقوى الدليلين، فالعموم إذا استمر و القياس إذا اطرده، فإن "مالك" و "أبا حنيفة" يريان تخصيص العموم بأي دليل كان، و الاستثناء من القياس بأي دليل كان". و عرف "الطوفي" من الحنابلة بأنه: " العدول بحكم المسألة عن نظائرها للدليل شرعي خاص"، و عرفه بعض العلماء: " بأنه العدول عن الدليل إلى العادة لمصلحة". و يظهر أن الجميع متفق على أن الاستحسان هو العدول عن الدليل لإثارة دليل آخر أو لتخصيصه أو تقييده بناء على دليل على دليل يعارضه لمرجح يعتد به شرعا.

و يقول بالعمل بالاستحسان، "مالك"² و "أبو حنيفة" رضي الله عنهما، و قد أكثر منه الحنفية في مذهبهم، و يروى عن "مالك" رضي الله عنه أنه قال: " تسعة أعشار العلم الاستحسان، و عن "أصبغ" أن الاستحسان في العلم قد يكون أغلب من القياس، و أنكروه الإمام "الشافعي" رضي الله عنه، و قد قرر "الغزالي" رحمه الله من الشافعية أن من استحسنت فقد شرع.³

- المصلحة المرسلة:

لم يختلف أحد من المسلمين في أن الشريعة الإسلامية قائمة على حكم و مقاصد لرعاية الخلق و اللطف بهم، و تحسين أحوالهم في معاشهم و فيما يثيبهم في معادهم، فكل حكم من الأحكام الشرعية مربوط بحكمة دعت إلى تقريره، كما أنهم لم يختلفوا في أن استنباط القواعد الشرعية

1 - نفسه، ص 133، 134.

2 - ابن قاسم مخلوف، المصدر السابق، ج2، ص 80.

3 - للمزيد من التفاصيل انظر: - علال الفاسي، المرجع السابق، ص 137.

يستند في كثير من مصادره إلى البحث عن هذه الحكمة أو المناسبة التي راعاها الشارع و جعل بعض الأوامر و النواهي إمارة عليها، و هذه الحكمة هي ما يعبر عنها بالمصلحة، و البحث عنها هو ما يسمى أحيانا بالاستصلاح، لأنه إذا كانت هذه المصلحة مطلقة مبتوتة في أحكام الشريعة فمن الخير استكشافها و البحث عنها للاستدلال بها على الحكم الشرعي، و ذلك ما يقصد به الإمام "مالك" بتسمية هذا الاستصلاح بالمصلحة المرسله، لذلك عرفها الأصوليون بأنها تشريع الحكم في واقع لا نص فيها و لا إجماع بناء على مراعاة مصلحة مرسله أي مطلقة أو ساذجة لم يرد عن الشارع دليل باعتبارها و لا بإلغائها.

- عمل أهل المدينة:

أقام الرسول صلى الله عليه و سلم في المدينة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، و يدبر شؤون الأمة و يبني قواعد الملة و الدولة، و يربي الناس و يحكم بينهم. ثم كان مركز الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين هو المدينة، و اجتمع فيها أكبر الصحابة و أوسعهم علما، و لما ولي "أبو بكر الصديق" الخلافة و بدأ يقضي بين الناس في المسائل كان يجمع لها الصحابة و الفقهاء على الخصوص و يستشيرهم فيما يعمل و على دربه سار بقية الخلفاء رضي الله عنهم، و ولاية المدينة في العهد الأموي و العباسي، ولا جرم أن الإمام "مالك" فكر في هذا الأمر و مكانة أهل المدينة في الفقه الإسلامي، لقربهم من مواقع الوحي و أجدر أن يحافظوا على ما سمعوه و تعلموه، و هم كذلك حديثو عهد بالنبوة و بالتشريع الإسلامي، و بالاجتهاد الصحابة الأولين، حيث تحدث عن إجماع أهل المدينة في حوالي أربعين مسألة، و قيل أنه كان يقدم عمل أهل المدينة، أو إجماعهم على ما ترد به بعض الأحاديث¹.

- سد باب الذرائع:

من أعمال الإنسان ما هو صلاح كله باعتبار بدايته و باعتبار نهايته، أي أنه لا يأتي إلا بخير و لا يؤول إلا إليه، و من أعماله ما فيه الفساد ابتداء و ذلك كالقتل فإنه يجرم الإنسان من الحياة ابتداء بالقصد إليه و نهاية بانجازه، و من أعمال الناس ما لا تحدث عنها مفسدة في أول الأمر و لكنها تقضي إلى الفساد، و ذلك إما بقصد أو بغير قصد، كإشعال النار بقصد الإستدفاء، و تؤول إلى

1- للمزيد من التفاصيل انظر: - علال الفاسي، المرجع السابق، ص 137.

إحراق بعض المزروعات مثلاً. و القصد إلى المفسدة في المآل يحمل القاصد مسؤولية العمل و إن تخلف ما قصد إليه في النهاية، و كما أن الشريعة منعت ما فيه الفساد ابتداءً، كذلك منعت ما فيه فساد نهاية.

ومن الآيات و الأحاديث الكثيرة تدل على هذا المعنى، و من باب ضرب الأمثلة حتى يستبان الأمر و يتضح، فإن الله لما أمر الناس بغض البصر سدا للذريعة، لأن إطلاق الحرية للنظر يؤدي إلى الشهوة المفضية لانتهاك الحرمة التي تؤدي إلى فساد الأعراض و فساد المجتمع بانتشار الفواحش فيه¹.

- فتح باب الذرائع:

لم تراع الشريعة الإسلامية الذرائع من جهة سدها فقط بل راعتها كذلك من جهة الفتح، فأعطت لكل وسيلة حكم مقصدها في الغالب، و قد قال "ابن القيم الجوزي" في ذلك: "إن وسيلة المقصود تابعة للمقصود و كلاهما مقصود لكنه هو مقصود قصد الغايات و هي مقصودة قصد الوسائل"².

و من وسائل ما فيه ذرائع الصلاح التي فتحتها الشارع، و أذن فيها تسعير ما يعرض في الأسواق للبيع من طعام و غيره، فقد أذن فيه الشارع حماية للعامة من الغبن، فالشارع حينما أذن في التسعير فتح ذريعة إلى مصلحة عامة تعود على الحياة الاقتصادية بالخير.

و في نوازل العديد من الأحكام خضعت لهذه القاعدة، حيث أن سد الذرائع الفساد و فتح ذرائع الصلاح من ما قصدت إليه شريعة الإسلام و من وسائل التطور التي أحكمتها لتبقى صالحة لكل زمان و مكان.

1 - 3 - قاعدة العرف:

إن كثيراً من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله، أو حدوث ضرورة، أو فساد أهل العصر، و هذه الاعتبارات راجعة إلى ارتباط فقه التنزيل بعناصر الواقع التي لا يمكن التغاضي عنه في كل عملية اجتهادية راشدة ترتبط بين وحي السماء و واقع الأرض، و من هنا تلوح خطورة الجمود على الفتاوى القديمة و الأحكام المسطورة في المظان الفقهية، إذ يلحق الناس حرج

1 - علال الفاسي، المرجع السابق، ص 142.

2 - نفسه، ص 162.

شديد من جهة تكليف ما لا سبيل إليه، و إملاء أعراف قديمة بالية لا تمت إلى الواقع بسبب أو نسب¹، و يقول "ابن القيم" في ذلك: "...هذا فصل عظيم جدا وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج و المشقة و تكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به"².

و لا شك أن تغير العرف العملي في البلد ما نتيجة اختلاف الزمان و المكان، يلزم منه تغير الحكم الشرعي المعلل به، و العلة تدور مع المعلول و جودا و عدما، فلو تغير العرف في النقد مثلا حمل الثمن في البيع على النقد الجديد دون ما كان شائعا قبله، و كذا يراعى تغير العرف القولي، فلا يجوز للمفتي أن يفتي في الأيمان و الوصايا و الأوقاف بما اعتاده من أطلاقات اللفظ، بل يحمل الألفاظ على ما تعارف عليه أهل البلد، و إن كان مخالفا للحقائق الأصلية و لسان العرب، و من هنا يلزم المفتي أن يخاطب الناس، و يتحقق من مذاهبهم في المعاملة و الاصطلاح، حتى تكون فتواه صحيحة من جهة فقه النص و فقه الواقع معا.

فلا جرم أن يصير العرف مصدرا من مصادر التشريع، و دليلا يهتدي به إلى فهم المراد من العبارات و الألفاظ، و أداة لفهم و تفسير النصوص. و قد كان للعرف دور هاما في الاحتكام في كيفية إحياء أرض الموت، لأن الأعراف السائدة و المرعية في الإحياء تختلف باختلاف الزمان و المكان، و ليس من المجدي في شيء بيان الكيفية بأمثلة محددة و تفاصيل مسطورة، و ما ورد منها في كتب الفقه محمول على التمثيل لا الحصر³، و قال "الماوردي" في ذلك: " و صفة الإحياء معتبرة بالعرف فيما يراد له الإحياء، لأن الرسول صلى الله عليه و سلم أطلق ذكره على العرف المعهود فيه"⁴، كما كان له دورا كبير في التخطيط للبيئة العمرانية، و من صورته مراعاة كل بلد لأعرافه في تحديد مناطق

1 - قطب الريسوني، المرجع السابق، ص129.

2 - ابن القيم الحوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ط2، دار الفكر، لبنان، 1397هـ/ 1977م، ج3، ص5.

3 - قطب الريسوني، المرجع السابق، ص170.

4 - الماوردي، المصدر السابق، ص177.

الصناعية و الحرفية، و إن كان الغالب على تخطيط العمراني الإسلامي إقامة هذه المنشآت في أطراف المدينة.¹

و يرى الدكتور "خالد عزب" أنّ العرف يحتل ثلاثة معان بالنسبة للبيئة العمرانية: الأول: ما يقصده الفقهاء في استنباط الأحكام في ما ليس فيه نص من المسائل العامة التي قد تؤثر في البيئة العمرانية كعادة أهل بلدة ما، فهذا أصل أخذ به بعض الفقهاء في مواضع لا نص فيها، و هو نابع من حديث "عبد الله بن مسعود": " ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن " ²، و قد بينت القاعدة الفقهية³ " العادة المحكمة " على هذا الأصل، و معناها أن العادة تعتبر و تحكم إذا كانت غالبية أو مطرودة.

و المعنى الثاني للعرف⁴ هو أكثر تأثيرا من المعنى السابق على العمران بالمدينة الإسلامية، فهو إقرار الشريعة لما هو متعارف عليه بين الجيران لتحديد الأملاك و الحقوق، و من أقرب الأمثلة على ذلك عند التنازع في الجدار بين الجارين يحكم لمن يشهد العرف بأنه له، و هو لمن كانت له القمط⁵ و العقود، فإن لم يشهد العرف لأحدهما حكم بأحكام التداعي⁶.

و الاحتمال الثالث لمعنى العرف هو الأنماط البنائية، و هو أكثر الأنواع الثلاثة تأثيرا في البيئة العمرانية، فعندما يتصرف الناس في البناء بطريقة متشابهة نقول بأن هناك عرف بنائي أو نمط ما.

1 - و هي الطريقة التي اعتاد الناس عليها في أقوالهم و أعمالهم في شؤون المعاملات و البناء و غيرها مما يتعلق بالعمران، و هي في الغالب تختلف من بلد إلى بلد بحسب معطيات المحيط من مناخ و جغرافيا و تاريخ تلم المجموعة البشرية، و قد إعتبره الفقهاء مصدرا للتشريع في غياب النصوص الجزئية ما لم يصادم المقاصد العامة للشريعة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - مصطفى بن حموش، فقه...، ص84.

2- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المصدر السابق، ص 89.

3 - خالد عزب، المرجع السابق، ص 17.

4- العرف فهو ما تعارف عليه الناس من الخير (ضد المنكر). للمزيد من التفاصيل أنظر:- محمد حسن الحمصي، قران كريم: تفسير و بيان مع أسباب النزول للسيوطي، دار الرشيد، دمشق، سوريا، 1405 هـ / 1984 م، ص 176.

5 - القمط هو ما يشد به الحيطان من حص و غيره. للمزيد من التفاصيل أنظر: - مصطفى بن حموش، فقه...، ص85.

6 - نفسه.

فسكان المدن الساحلية يستخدمون الأحجار بكثافة في عمارة منشآتهم، بينما بالمدن و العمران الصحراوي يستخدم الطوب بكثافة، كما نجد في المناطق الساخنة ترفق المساجد بصحون واسعة في حين تضيق كلما أبتجھنا إلى المناطق الباردة و الممطرة.

وقد قسم الفقهاء أحكام البنايات إلى أربعة أقسام رئيسية هي:

- **البناء الواجب:** مثل بناء المساجد لتقام فيها الصلوات، وبناء الحصون والربط للدفاع عن ديار المسلمين.

- **البناء المندوب:** كبناء المآذن والتي تندب للأذان وبناء الأسواق، حيث يحتاج الناس للسلع. ولكي لا يتكلفوا عناء البحث عنها، فندب الشرع لذلك بناء الأسواق لكي يستقر بها أصحاب السلع، ويسهل للناس شراؤها منهم.

- **البناء المباح:** مثل بناء المساكن التي تبنى بهدف الاستغلال، فمن المعروف أن الشريعة جاءت لحفظ المقاصد الخمس: الدين، النفس، المال، العرض والنسل، والله جعل أسبابا مادية يقوم بها البشر، كي يحققوا تلك المقاصد، ومن هذه الأسباب بناء المساكن والدور ليحفظ فيها الناس أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وتقوم فيها الأسر.

- **البناء المحظور:** كبناء دور السكر، ودور البغاء، والبناء على المقابر وفي أرض الغير (أي مغصوبة). وترتب على مبدأ "لا ضرر ولا ضرار"، و"الأخذ بالعرف"، في تقرير أحكام البناء، نشوء مبدأ: "حيازة الضرر"، الذي صاغ المدينة الإسلامية صياغة شاملة. و"حيازة الضرر" تعني أن من سبق في البناء يجوز العديد من المزايا التي يجب على جاره الذي يأتي بعده أن يحترمها، وأن يأخذها في اعتباره عند بنائه مسكنه، وبذلك يصيغ المنزل الأسبق المنزل اللاحق.

2 - الحسبة:

يذكر اللغويون أن كلمة الحسبة بالكسر هو الأجر¹، و هي اسم من الاحتساب من الحسب: كالاعتداد من العدّ، و الاحتساب في الأعمال الصالحات و عند المكروهات: هو البدار إلى طلب الأجر بالتسليم و الصبر، أو بالاستعمال أنواع البرّ و القيام بها على الوجه المرسوم فيها، طلبا للثواب المرجوّ منها، وقولهم: و إنه لحسنُ الحسبة في الأمر أي حسن التدبير و النَّظر فيه، و ليس هو من

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص 383، 384.

احتساب الأجر، و فلان محتسب البلد، و لا تقل مُحْسِبَه، واحتسب فلان على فلان: أنكر عليه قبح عمله¹. و يقول "الفيومي": " احتسب الأجر على الله، أدخره عنده، لا يرجو ثواب الدنيا، و الإسم: الحسبة بالكسر"²، و قد تخرج إلى معان أخر: كأن تقول نفس الأجر، أو حسن التدبير، و العدّ و الحساب، أو الإنكار على شيء³.

أما اصطلاحاً فهي: أهم وظيفة يعتمد عليها في تنظيم وضبط الحياة الاجتماعية و حمايتها من المظاهر غير الطبيعية خاصة ما تعلق منها بالمعاملات، و أجمع علماء الأمة في تعريفهم للحسبة أنها الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و منهم رحمهم الله:

- "الماوردي": " و هي الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، و نهي عن المنكر إذا أظهر فعله"⁴.

- و عند شيخ الإسلام "ابن تيمية" الحسبة مثل جميع الولايات الإسلامية لا تخرج عن قاعدة الأمر بالمعروف و النهي المنكر: " و جميع الولايات الإسلامية إنما مقصودها الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، سواء في ذلك ولاية الشرطة، و ولاية الحكم، أو ولاية المال و هي ولاية الدواوين المالية، و ولاية الحسبة."⁵

- يعرفها "ابن الأخوة" بقوله: " الحسبة من قواعد الأمور الدينية، و قد كان أئمة العهد الأول يأترونها بأنفسهم لعموم صلاحها و جزيل ثوابها، و هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه و نهي عن المنكر إذا ظهر فعله..."⁶.

1 - الفيروزبادي، المصدر السابق، ص70.

2 - نقلاً عن: - محي هلال السرحان، ثلاث مخطوطات في الحسبة، "مجلة المورد"، المجلد الأول، العدد 3-4، دار الحرية للطباعة، مطبعة الحكومة، بغداد، العراق، 1392هـ/ 1927م، ص297.

3 - نفسه

4 - أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (توفي: 450هـ/ 1058م)، الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، ط1، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1409هـ/ 1989م، ص315 و مايلها.

5- أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (661هـ - 1262 م / 728هـ - 1327م)، الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومية في الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون سنة الطبع، ص11.

6 - محمد بن محمد بن أحمد بن الأخوة القرشي (توفي سنة 729هـ/ 1328م)، كتاب الحسبة، "الباب الأول في شرائط الحسبة و صفة المحتسب"، مكتبة جامعة الرياض، قسم المخطوطات، رقم المخطوط 115، ص4.

- و يعرفها "عمر بن عثمان بن العباس الجرسيفي" بقوله: "...فإنّ ديوان الحسبة من أعظم الدواوين، إذ يحتاج إلى كثير من القوانين، و ليس بعد خطة القضاء أشرف من خطة الحسبة، لأنها من الأمور الدينية... و حقيقتها على الجملة أمر بمعروف، و نهي عن منكر بقواعد مبنية على صحت الاستدلال و جودة النظر..."¹

- و عند "ابن خلدون" بقوله: " أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه، و يتخذ الأعوان على ذلك، و يبحث عن المنكرات و يعزر و يؤدب على قدرها و يحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، و منع الحمالين و أهل السفن من الإكثار في الحمل، و الحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، و إزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، و الضرب على أيدي المعلمين في المكاتب و غيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين. و لا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد، بل له النظر و الحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك و يرفع إليه و ليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقا، بل فيما يتعلق بالغش و التدليس في المعاش و غيرها، و في المكاييل و الموازين، و له أيضا حمل المماطلين على الإنصاف..."².

2 - 1 - التأصيل التاريخي للحسبة:

وردت عدة نصوص شرعية تحث المسلمين على حسن المعاملة، و التحلي بالأخلاق الفاضلة في البيئة التي يعيشون فيها، و كذلك في علاقاتهم فيما بينهم، و من بينها تلك النصوص التي تنظم عملية البيع و الشراء سواء في الأسواق أو في الفضاءات التجارية الأخرى، حيث يقول الله سبحانه و تعالى: ﴿ وَبِلِّ لِلْمُطَفِّينَ (1) الَّذِينَ إِذَا أُكْتَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَ إِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) ﴾³، و قوله سبحانه و تعالى: ﴿ وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لَا

1 - عمر بن عثمان بن العباس الجرسيفي، رسالة في الحسبة، تحقيق: ليفي بروفنسال، منتحة للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، م2، 1955م. ، ص119.

2 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج2، ص611، 612.

3 - سورة المطففين، الآية رقم: 1، 2، 3.

تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ¹ ، و قوله عزوجل : ﴿...فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا...﴾² ، و جسد الرسول صلى الله عليه و سلم هذه الآيات القرآنية و غيرها من خلال تجوله في سوق المدينة، بتفقدته السلع و أخلاق التجار، فوقف على صبرة طعام، فدخل يده الشريفة فيها، فنالت أصابعه البلل، فقال عليه الصلاة و السلام: " يا صاحب الطعام، ما هذا، فقال: " أصابته السماء يا رسول الله"، فقال عليه الصلاة و السلام: " أما جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ ثم قال: من غش فليس منا"، و منع الرسول صلى الله عليه و سلم اعتراض القوافل و شراء السلع قبل دخولها لسوق، و جاءت في ذلك أحاديث كثيرة أخرجها البخاري في صحيحه و منها:³

- عن "ابن عباس" رضي الله عنهما قال: " قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لا تَلْقُوا الرِّكْبَانَ وَ لَا يَبِعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ". و يفسر "ابن عباس" قول الرسول صلى الله عليه و سلم (و لا يبيع حاضر لباد) بأن لا يكون الحاضر سمسارا للباد.

- و عن "أبي هريرة" رضي الله عنه قال: " قال الرسول صلى الله عليه و سلم: لا يبتاع المرء على بيع أخيه و لا تاجشوا و لا يبيع حاضر لباد".

- عن "أبي هريرة" رضي الله عنه قال: " نهى النبي صلى الله عليه و سلم عن التلقي و أن يبيع حاضر لباد".

- عن "عبد الله" بن "عمر" رضي الله عنهما قال: " نهى النبي صلى الله عليه و سلم عن تلقي البيوع".

- عن "عبد الله" بن "عمر" رضي الله عنهما: " أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: لا يبيع بعضكم على بيع بعض و لا تلقوا السلع حتى يهبط بها إلى السوق".

- عن "عبد الله" بن "عمر" رضي الله عنهما قال: " كانوا يبتاعون الطعام في أعلى السوق فيبيعونه في مكانه فنهاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يبيعوه في مكانه حتى ينقلوه".

1 - سورة الرحمن، الآية رقم 9.

2 - سورة الأعراف، الآية رقم 85.

3 - البخاري، المصدر السابق، ص 388، 389.

و يستفاد من هذه الأحاديث منع إحتكار السلع من قبل تاجر معين أو مجموعة من التجار، و هذا للمفسدة الناجمة عن ذلك منها غلاء الأسعار بغير حق، و تلاعب بأرزاق الناس، و لذلك كان المحتسب و الحاكم في المدينة الإسلامية يعمل على كسر الاحتكار و مراقبة الأسواق من مثل هذه التصرفات.

و قد قام الرسول صلى الله عليه و سلم باستعمال "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه على سوق المدينة، و "سعيد بن سعيد بن العاص" على سوق مكة بعد الفتح، و قد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن "السمراء بنت نهيك الأسدية" أدركت الرسول صلى الله عليه و سلم كانت تمر بالسوق تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر و سوط معها¹.

و لعموم مصلحة خطة الحسبة و عظم منفعتها تولى أمرها الخلفاء الراشدون، وروي أن "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه مر على "حاطب بن أبي بلتعة" و هو يبيع زيبا في السوق فقال له: " إما تزيد في السعر و إما أن تخرج من سوقنا"، و روي كذلك أنه رأى رجلا خلط اللبن بالماء فأراقه عليه²، كما كان يعين موظفا خاصا للمهمة، فقد جعل "السائب بن يزيد" عاملا على سوق "المدينة"، و كذلك "عبد الله بن عتبة"، و عين كذلك "سليمان بن أبي حثمة" و كان من فضلاء المهاجرين³. و استعمل الخليفة "عثمان بن عفان" رضي الله عنه "ابن العاص" عاملا على السوق يشرف على المباع و المشتري، و يرفع الموازين، و يأخذ العشور، و لم يكن دور المحتسب يكمن في تنظيم الأسواق فحسب بل حتى الوقوف على الطرقات كذلك، و هذا ما فعله "علي بن أبي طالب"، حيث أمر بإبعاد كل ما يؤذي المسلمين في الطرق العامة، و روي أنه ضرب رجلا لأنه أثقل على جملة، و أدب التجار الذين تجمعوا حول الطعام، و لم يتركوا منفذا للمرور. و سار رضي الله عنه على منهاج أصحابه، حيث كان أحرص الناس على مراقبة الموازين و المقاييس الصحيحة التي تستخدم في أسواق المدينة الإسلامية.

1 - عبد الله الفاسي، خطة الحسبة، المناهل"، وزارة الدولة المكلفة الثقافية، المغرب، ع18، 1400هـ/ 1980م، ص32.

2 - ابن تيمية، المصدر السابق، ص51.

3 - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (توفي سنة 463هـ / 1070م)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الجبل، بيروت، لبنان، 1412هـ/ 1992م، ج2، ص62.

و هكذا انبثق دور هذه الولاية في العهد النبوي، و يرجع هذا الاهتمام من الرسول و أصحابه رضي الله عنهم إلى أنه صلى الله عليه و سلم كان يومئذ في ظروف يرسخ فيها أن رسالته غير مقصورة على شعائر التعبد و حدها و أن دين الله قيم على شؤون الدين و الدنيا و من بينها المعاملات التجارية بما هي عليه من منكر الغش و التدليس في التعامل بالأخذ و العطاء و من الأخذ بالربا، و من التطفيف في المكييل و الموازين، و ما هو من الذي من شأنه أن يضر بمصلحة الفرد المتعامل و بمصلحة الجماعة، و بما أن هذه المعاملات اليومية كانت تتم و تتركز في السوق الذي يرتاده الناس لقضاء جميع مآربهم المادية و الروحية بما فيها إنشاد الشعر، فقد أطلق على هذا المنصب في بداية الأمر اسم ولاية السوق، و أطلق على المتولي فيه اسم صاحب السوق.

و تولى الإشراف على الأسواق في العهد الأموي فكان "الزياد بن أبيه" عامل على سوق "البصرة"، كما عرف "الوليد بن عبد الملك" بالعناية بالأسواق، و عين "ابن حرملة" عاملا على سوق المدينة، و الملاحظ أن عمل الرسول صلى الله عليه و سلم، و خلفائه من بعده في نطاق السوق قد أوحى بأن يطلق عليها اسم ولاية السوق في بادئ الأمر، و تدل عبارات المصادر التي وردت فيها هذا عن عهد الأمويين بالذات على أن صاحب السوق قد أصبح يطلق عليه في العهد الأموي بالعامل على السوق، و أصبح من مهامه أيضا بطبيعة اتساع الأسواق التحكيم في الخلافات التي كانت تظهر بين الحرفيين و أصحاب المهن.¹

أما الأندلسيون و هم من بين الذين عنوا بهذه الولاية و نظامها فقد درجوا على أن يطلقوا عليها اسم أحكام السوق، و يطلقون على من ينصب فيها صاحب السوق.

أما اصطلاح الحسبة فهو اصطلاح طارئ²، و كان المشاركة إليه أسبق نظرا لأسبقيتهم في تلقي التعاليم الإسلامية، و من خلال المصادر التاريخية يظهر لنا أن هذا المصطلح يعود إلى عهد المنصور العباسي، فقد ذكر "ابن حجر العسقلاني" أن "المنصور العباسي" ولى "عاصما بن سليمان

1 - عبد الله الفاسي، المرجع السابق، ص 40.

2 - نفسه، ص 48.

الأحول"¹ " الحسبة في المكايل و الأوزان " بالكوفة²، كما أن كلا من "الطبري" و "الخطيب البغدادي" ذكرا أن "المنصور" ولى "أبا زكريا بن عبد الله" حسبة "بغداد" و أسواقها³.

و مند عهد "المنصور العباسي" أصبح المصطلح جاريا على الألسنة، و عند المؤلفين خاصة منذ إدخال "المهدي العباسي" ولاية السوق في نظام الدواوين عند توليه الخلافة (159هـ - 775م / 169هـ - 785م)، و نجد "الماوردي" من علماء القرن الخامس للهجرة في كتابه "الأحكام السلطانية" لا يستعمل إلا لفظ "الحسبة" و به عنون الفصول المتعلقة بها في آخر الكتاب⁴.

و كانت إفريقية محتفظة بمصطلح "أحكام السوق"، و بارتباطه بأحكام السوق المروية عن الإمام "يحيى بن عمر"⁵ التي تبلور فيها فقه الحسبة، و دخل دخولا أوليا في فقه المعاملات منذ النصف الأول من القرن الثالث، و لم يعرف اصطلاح الحسبة لا بالمغرب الإسلامي، و لا بالأندلس في عهد مبكر، لأن اصطلاح أحكام السوق و خطة السوق ظلا مترددين في كتب الأندلسيين إلى وقت متأخر. و يسمون صاحب المنصب "بوالي السوق"، ثم أصبح يقال لها "ولاية الحسبة" أو "خطة الاحتساب" و لمتوليها "المحتسب" أو "صاحب الحسبة" في لسان فقهاء المغرب الإسلامي، و يبدو أن هذه الخطة تطورت بإفريقية على يد "سحنون"⁶ من كبار علماء المالكية، حيث أنه أول من نظر في

1 - هو عاصم بن سليمان، أبو عبد الرحمن الأحول البصري، سمع أنسا، و عبد الرحمن بن سرحس، و الحسن، و ولي القضاء بالمداين في خلافة المنصور، و كان يحسب على المكايل و الموازين، و هو معدود في كتاب الحفاظ الثقات. للمزيد من التفاصيل أنظر: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (توفي: 517هـ/1123م)، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، و مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1412هـ/1992م، ج8، ص39.

2 - أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ط1، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، 1326هـ، ج5، ص43.

3 - عبد الله الفاسي، المرجع السابق، ص 50.

4 - الماوردي، الأحكام...، ص 315.

5 - يحيى بن عمر (توفي: 289 هـ / 901 م)، أحكام السوق، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1975 م.

6 - من علماء المالكية بالمغرب الإسلامي، قال يونس بن عبد الله: هو "سيد أهل المغرب"، و ولي القضاء بإفريقية سنة 234هـ، و سنه إذ ذلك 74 سنة، فلم يزل قاضيا إلى أن مات، و كان يدب على الغش و ينفي من الأسواق من استحق ذلك، توفي في

الأسواق، و كانت قبل ذلك من عمل الولاية لا القضاة، فنظر فيما يصلح المعاش و ما يغش من السلع، و كان يجعل الأمناء على ذلك، و يؤدب على الغش و ينفي من الأسواق من يستحق ذلك، و هو أول من نظر في الحسبة من القضاء و أمر الناس بتغيير المنكر.¹

ويبدو أن مصطلح "المحتسب" ظهر لأول مرة في كتاب "الصلة"، حيث ذكر "ابن بشكوال" (من علماء القرن السادس للهجرة) في ترجمته "لابن المشاط الرعيني القرطبي" من علماء القرن الرابع للهجرة: " أنه ولي أحكام الحسبة المعروفة عندنا بولاية السوق"²، كما يشير "ابن فرحون" (من علماء القرن الثامن للهجرة) في ترجمته "لابن عاصم القرطبي" من علماء القرن الثالث للهجرة، أنه كان محتسبا بالأندلس، و يبدو أن هذا المصطلح كان جاريا في عصرهما على ألسنة الناس.³

ووضع علماء المغرب الإسلامي و الأندلس تصانيف عديدة تعرف بهذه الوظيفة و أهم من شغلها من العلماء و أهل الدراية، منها ثلاث رسائل حققها "ليني بروفنسال"، حيث ترجع الرسالة الأولى " لمحمد بن أحمد بن عبدون"، حيث أفرد فيها التعريف بالوظائف الرسمية و بوظيفة الحسبة و مكانتها في السياسة الشرعية، بالإضافة إلى ذكر المهام الموكلة للمحتسب، و الشروط التي يجب أن تتوفر فيه لتوليه هذا المنصب أما الرسالة الثانية فهي لصاحبها "أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف"، و هي في آداب الحسبة و المحتسب، أما الرسالة الثالث فتعود لصاحبها "عمر بن عثمان بن العباس الجرسيفي"، و هي في مهام المحتسب بالمدينة الإسلامية.

ولعل أهم ما ارتبط بنظام الحسبة عند ظهورها ما تعلق منها بتنظيم الأسواق خاصة ما تعلق بالأسعار و حركة السلع. و يمثل دور الحسبة في هذا ما ذكره "ابن عرفة"⁴ "من أنه إذا كان الإمام

رجب من سنة 240هـ. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن فرحون المصدر السابق، ص 265.

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - يحيى بن عمر، المصدر السابق، ص 98.

2 - بكر بن محمد بن أحمد يعرف بإبن مشاط. أنظر: - ابن بشكوال أبو القاسم خلف (494 - 578هـ / 1101 - 1183م)، كتاب الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب المصري، مصر، 1410هـ / 1989م، ص 193.

3 - عبد الله الفاسي، المرجع السابق، ص 48.

4 - للمزيد من التفاصيل حول ترجمة ابن عرفة أنظر: - أبو العباس أحمد الخطيب ابن القنفذ القسنطيني (توفي: 840هـ / 1407م، 1408م)، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي عبد المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس

(د . ط)، 1968، ص 63. كذلك: ابن فرحون، المصدر السابق، ص 419.

عدلا ورأى التسعير مصلحة، يجمع وجوه أهل (سوق) ذلك الشيء، ويسألهم كيف يبيعون؟ وكيف يشترون؟¹.

كما أن "ابن الرامي" الذي تدرج في صناعة البناء حتى أصبح خبير البناء، ثم انتدبه القضاة ليكون محتسبا على صناعة البناء، و مراقب مخالفات المباني، و كتابة التقارير للقضاة، و الإدلاء بالشهادات الهندسية الفنية، كان نموذجا من لهذا الجهاز الفني الذي كان دوره مراقبة امتداد المدينة الإسلامية بشكل صحي، و قد كان كذلك نموذج للعلاقة الوثيقة التي تربط تشريعات البناء بين علوم البناء و بين التشريعات الإسلامية، و قد أغنى هذا الفريق التجربة و أغنى التشريعات بخبرته، و مداولاته مع المشرعين، و الكتابة إلى القضاة و النظر في كتب الفقه عن مسائل الأبنية و بعد ذلك كتاباته في التشريعات التي تعكس الخبرة الفنية و العلوم بأحوال الشريعة و مقاصدها و الخروج بأحكام خاصة بالبناء.²

2 - 2 - شروط تعيين المحتسب عند علماء الأمة:

ارتبطت وظيفة المحتسب بالسياسة الشرعية، حيث يؤدي أهم ركن في الإسلام بعد الجهاد، فالأمر بالمعروف و نهي على المنكر من المسائل التي تحتاج دراية كبيرة بمقاصد الشريعة و الفروع المنبثقة عنها، لهذا وجب على من يتعهدا أن يكون عالم بالعلم الشرعي و عاملا به، حيث لا يمكنه أن يأمر الناس بالمعروف و يأتي بمنكر، و على هذا الأساس وضع علماء الأمة شروطا وجب توفرها في المحتسب، و من خلال تصفحنا للمصادر التي تكلمت على هذه الخطة وجدنا أنها ركزت على العلم و عفة النفس، و من بين العلماء من تكلموا عن هذه الشروط نجد "ابن عبدون" حيث يقول: " يجب على القاضي أن لا يقدم محتسبا إلاّ أن يعلم الرئيس بذلك، لتكون للقاضي حجة عليه إن أراد أن يعزله أو يقيه، و يجب أن يكون المحتسب رجلا عفيفا، خيرا، ورعا، عالما، غنيا، نبیلا، عارفا بالأمر، محتكا فطنا، لا يميل و لا يرتشي، فتسقط هيئته و يستخف به و لا يعبأ به و يتوبخ معه المقدم له،

1 - أحمد سعيد المجلدي، كتاب التيسير في أحكام التسعير، تحقيق: موسى لقبال، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 52 .

2 - رزق نمر شعبان، تشريعات المباني الإسلامية و أثرها على تطور المدينة الإسلامية العربية المعاصرة، "الجلة العربية لثقافة"، العدد 25، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس، 1419هـ / 1993، ص 96.

و لا يستعمل في ذلك خساس الناس، و لا من يريد أن يأكل أموال النَّاس بالباطل و المهونة، لأنَّه لا يهاب إلاّ من كان له مال و حسب.¹

و وضع "الموردي" شروطا يجب أن تتوفر في صاحب هذه الولاية حيث يقول: " .. أن يكون حرا عادلا ذا رأي، و صرامة، و خشونة في الدين، و علم بالمنكرات الظاهرة و هي واسطة بين أحكام القضاء و أحكام المظالم".²

2 - 3 - دور المحتسب في المدينة الإسلامية:

يعين الحاكم عادة في المدينة الإسلامية المحتسب، حيث يوكل إليه السهر على سلامة أهل المدينة، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و هذا الباب إذا أحكم ربطه، صلح به العالم و الرئيس و الناس أجمعون، لأن في هذا الباب تدخل إقامة أبواب من الدين، من فرائض و السنن، و من عمل الأبدان و الصناعات، و مما يتعيش منه الناس كلهم³، وصف "ابن عبد الرؤوف" دور المحتسب بقوله: " يمنع الناس عن الجلوس على الطرقات و الإحداث فيها و عقد المصادع⁴ فيها من غير حاجة إلا لمأمون خاصة. و يمنع عن طرح الأزبال و الجيف و ما أشبهها في المحجات⁵، فإن ذلك يضر بالديار، فأما الأوساخ، فإنها تنجس، و لا سيّما عن المطر، يكلفون بنقل ذلك إلى خارج البلد. و تتعاهد المساجد و رحابها و ما دار بها من طرح الأزبال بفنائها و النجسات، و ينهى من فعل ذلك، فإن عاد عوقب.

و يمنع حمّال الحطب و كل من يحمل محلها بالمشي بها في المحجّات و الطرق الضيقة، و يكلفون النزول بها في الرحاب الواسعة للبيع، و يمنعون هم و غيرهم عن توقيف الدواب بأحمالها حتى يباع ما عليها، و يؤدّبون إن عادوا، و كذلك الذين يحملون على ظهورهم يمنعون أن يحملوا على

1 - ابن عبدون، المصدر السابق، ص 21.

2 - الموردي، الأحكام..، ص 316.

3 - نفسه.

4 - المصادع: طرقٌ سهلة في غلظٍ من الأرض..... و خطيب مصدع، كمنبر بليغ. للمزيد من التفاصيل أنظر: - الفيروز آبادي، المصدر السابق، ص 790.

5 - جمع المحجّة: الطريق، و قيل جادّة الطريق، و قيل محجة الطريق سننه. أنظر: - ابن منظور المصدر السابق، ج 2، ص 302.

ظهورهم الأعدال الثقال فيكون ذلك داعية أن يهلك تحته أو تقع من على ظهره لثقلها على احد فتهلكه¹.

ويمنع الصباغون و من في معناهم عن نشر الثياب المصبوغة المبلولة على الطرق، فإنها تؤذي الخاطرين بتغير ثيابهم. وينهون عن اتخاذ أفرانهم على الطرق، فإنهم يؤذون المجتازين بالدخان. و يكلف من فتح سرباً و أخرج ما فيه أن ينقله إلى خارج البلد، و يسوي موضع السرب²، و يعدل الطريق، و ينظفه من الأذى لثلا يضر بذلك المار عليها³.

و يؤمر الفخارون و من معناهم بإزالة ما يصنعونه من حوائجهم في الطرق خيفة أن تفسد عليهم لتضييقهم الطرق بها فتكون داعية للشر و الخصومة.

ويمنع الناس من الدخول في القيسارية و الأسواق عل ظهور الدواب لما لا يؤمن منها. و يمنع توقيفها في الطرق الضيقة و من إرسالها من غير ممسك لها. و من وجد يحدث في طريق حدثا، زجر فإن عاد أدب، و إن كان صغيرا نهي و عرّف و ليه، و يمنع الحضّارون و الحصارون عن طرح أزيالهم في الطرق⁴.

و يمنع الفرّانون و الزجاجون عن جعل الأحطاب على مقربة من مكان النار خوفا لثلا يتخذ النار فيها فتحترق، فتؤذي الناس و الجيران، و ينهي الجبّاسون عن خلط التراب بالجبس عند الطبخ، و هو الذي يسمونه القطائف، و هو غش. و يؤمرون أن يغربلوا الجبس بالغربال الوسط.

ويؤمر الفخّارون بتسييل تراجم و تطيبه و أن يقللوا فيه من الرمل. و كذلك صانع الأجر و القراميد، و يؤمر بتغليظها و بصواب عملها و حسن طبخها و لا تكون ممسّيلة و لا معوّجة و لا رقيقة الشقف، و كذلك يؤمر صانع اللّبن أن يقلل من الرمل عند عملها و انتخاب التراب الطيب لها،

1 - أحمد بن عبد الله بن عبد الرّؤوف، رسالة في آداب الحسبة و المحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبوعات المعهد

العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، م2، 1955م، المصدر السابق، ص 86.

2 - السرب: المسلك و الطريق. للمزيد من التفاصيل أنظر ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص403.

3 - ابن عبد الرّؤوف، المصدر السابق، ص 86.

4 - نفسه

و أن بحسن مقدارها، و يعدل موضعه عملها، و أن يبالغ في تبييسها و إن جعل فيها عوضا من الرمل تبنا مسحوقا، فهو له أحسن إن شاء الله تعالى".¹

كما ذكر "ابن عبدون"² فصلا كامل تكلم فيه عن دور المحتسب في المحافظة على المباني و المنشآت العمومية، و إصلاح الطرق و السروب و المزابل و إماطة ما فيه ضرر للمسلمين، و مراقبة تقنية البناء و جودة المواد مستعملة في عملية البناء، كما يأمر برمي الزبل خارج المدينة، و يحرص على إقامة المصانع و الوراشات صنع الآجر و القرميد خارج المدينة كذلك.³

كانت وظيفة المحتسب في مدينة "تلمسان" متعارف عليها و يؤكد ذلك "محمد بن أحمد بن السعيد العقباني"⁴، من خلال كتابه " تحفة الناظر و غنية الذاكر في حفظ الشعائر و تغيير المناكر "⁵، حيث يصف لنا في إحدى المسائل التي وردت عليه ما يحدث من غش في سوق الجزائر بمدينة "تلمسان": " و كذا تقررت العادة ببلدنا "تلمسان" أن ما يبيعه الجزار من اللحم يدخل في وزنه شيئا من الكرش و مصير " مع علم المحتسب بذلك، و لكن لا يمنعهم من هذا الفعل فيضيع حقوق المسلمين بما يناله من رشوة، كما يصف لنا "محمد العقباني" هذه الولاية بقوله: " وقد كانت هذه الولاية من أصفى الولايات الشرعية ظاهرا و باطنا إذ هي داخلة في عموم ولاية القضاء..⁶

1 - ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 86.

2 - ابن عبدون، المصدر السابق، ص 32.

3 - للمزيد من التفاصيل حول دور المحتسب في المدينة الإسلامية أنظر: - ابن الأحوة، المخطوط السابق، ص 9. كذلك: - محمد عمر حمادة، الحسبة في الإسلام، "مجلة المورد"، المجلد التاسع، العدد الرابع، دار الحرية للطباعة و النشر، بغداد، العراق، 1401هـ/1981م، ص 92، 94.

4 - من علماء مدينة تلمسان، و لي قضاء الجماعة بها، قال في شأنه أحمد زروق: " كان فقيها عارفا بالنوازل، ذا ملكة في التصوف"، توفي سنة 871هـ/1466م. للمزيد من التفاصيل أنظر: محمد بن محمد بن أحمد الملقب بن مريم، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، راجعه: محمد بن شنب، المطبعة الثعالبية، 1326هـ/1908م، ص 224

5 - محمد بن أحمد بن السعيد العقباني، تحفة الناظر و غنية الذاكر في حفظ الشعائر و تغيير المناكر، تحقيق علي شنبوي، Bulletin d'étude oriental institut français de Damas , T14, 1965, 1966.

6 - نفسه، ص 227.

أما في مدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية فإن المحتسب كان يعرف بإسم أمين الحسبة إلى غاية القرن السابع عشر¹، و يذكره صاحب مخطوط قانون "الجزائر" بقوله: " الحمد لله أمرنا صاحب السعادة "ابا حسن" على شأن الصابون، و شيخ البلد و "سليمان" المحتسب..."².

وقد استمد وظيفته من التقاليد التي ورثها الحكام الأتراك "بالجزائر" من أنظمة العهود الإسلامية السابقة، و التي تمت المحافظة عليها لمسائرتها لأحكام القضاء و الإفتاء، و لكونها كانت من جهة أخرى ذات نفع و فائدة للمجتمع، و لذلك أبقى حكام "الجزائر" على مثل هذه الوظيفة التي أصبح متوليها و هو المحتسب يكتسب سلطات تحول له مراقبة كل ما يباع من مأكول و ملبوس و مشروب و مصنوع بالمدينة، كما لعب دورا كبيرا في مسألة التسعير بمدينة "الجزائر"، منها حضوره جلسة تسعير الزلايية مع أمين الأمناء و المعلم "مسعود"، و تم ذلك تحت إشراف سلطة الداوي، كما أسهم في تسعير بضائع معينة و تحديد أوزان و مكاييل عديدة و على وجه التحديد المواد التي كانت من احتكار الدولة كالزيت و الصابون، و كانت بعض الحرف الخدماتية كالحمالة و السقاية تحت إشرافه المباشر، و حصر دفتر التشرifications صلاحيات المحتسب في السهر على تنفيذ أسعار الأسواق و مراقبة جودة الخبز، و معاقبة المخلين بالنظام بالجلد على الفور.

وقد استعان المحتسب لأداء مهمته بمساعدة القاضي و الأمناء، كما كان له اتصال بالأمناء عن طريق أمين الأمناء أو شيخ الحرمين في العهد العثماني. أما أجرة المحتسب على كل هذه الأعمال، فهي عبارة عن مبلغ محدد يتقاضاه من السلع الواردة إلى السوق، فهو مثلا يأخذ نصف ريال عن كل رأس غنم و سبع قطع ذهبية عن كل حمل من التمر الوارد إلى الجنوب، و بالتالي لم يكن له أجر محدد من الخزينة بل يأخذ من كل سلعة واردة إلى السوق مقدارا محددًا يعتبر بمثابة أجر له.³

وابتداء من القرن (12هـ / 18م) أضحت سلطته مقيدة لخضوعه لسلطة "وكيل الخرج" الذي كان يشرف على تثبيت الأسعار و مراقبة الإنتاج، حيث كان يطوف بالمدينة يوميا و يزن الخبز

1 - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص255.

2 - مجهول، قانون الجزائر، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 1378، ص 39، 40.

3 - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م، ص 238.

و يراقب الأسعار. كما يسهر المحتسب على المصلحة العامة للمدينة، كصيانة الشوارع و منع كل من شأنه إعاقة حركة المرور و عرقلتها بالمدينة، حيث يحضر على الحمالين حمل الأثقال، و تواجد الدواب بكثرة و اكتظاظها، و له صلاحيات الأمر بتهديم البنايات القديمة المهددة بالانهيار و يسهر أيضا على إنارة المدينة.

و يبدو أن مهام المحتسب كانت مرتبطة بدور كل من القاضي و أمين الأمناء و شيخ البلد¹، فوظيفة الحسبة و إن ظلت قائمة لم تعد منوطة بشخص المحتسب و حده بل أصبح يشاركه فيها أطراف عديدة مما قلل من شأنه².

وفي المدن العثمانية بوجه عام عرفت مهام المحتسب تقلصا ملموسا، حيث اقتصر دوره في معظم الأحيان على الإشراف على عدد محدود من الحرف ولا سيما المتعلق منها بالتغذية، و يقول "أندري ريمون" في ذلك: "... و خلال العصر العثماني تقلصت صلاحيات المحتسب بشكل ملحوظ، ربما كان السبب هو أنه أصبح للقضاة أهمية كبيرة... و لم يعد المحتسب في غالبية الولايات يقوم إلا بدور خفيف، إذ أصبح يشرف على عدد محدود من الحرف ذات صلة بالغذاء...، حيث يراقب بصفة خاصة المنتجات و أسعارها..."³، أما ما تعلق بالعمارة و التعمير فقد ارتبط بالقاضي حيث كان يأمر بقيام بتحقيق أو يشرف بنفسه على ذلك في حالة قيام بناء جديد للتحقيق من أن هذا المبنى لا يعوق المرور، و يمكن للعسكري الذي يمتطي جوادا أو للجمل المحمل أن يمر بلا صعوبة في الشارع الذي يقوم فيه، و لا يجب أن يتعدى المبنى على حقوق الجيران في الحصول على الضوء و على الرؤية، كما يقوم القاضي بالتحقق من أن الباب الجديد الذي تمت إقامته لا يزعج حياة الجيران الخاصة،

1 - ينتمي إلى مجموعة الموظفين التابعين باعتباره موظفا مدنيا يشرف على النقابات المهنية و الوظائف السكانية، فهو يتصل بأمناء هذه المهن ورؤساء هذه الوظائف ليتعرف على مشاكلهم و يلي حاجاتهم عند الضرورة، و يتفهم مطالبهم، و يسعى لدى السلطات لإيجاد حلول لها، و هو بالمقابل ذلك كان يتسلم من هؤلاء الأمناء الضرائب و الرسوم ليودعها في الخزينة العامة كل شهرين. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 238.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 108.

3 - أندريه ريمون، المرجع السابق، ص 93.

و من أن المبنى الذي في حالة سيئة لا يمثل خطرا على المنازل المجاورة، و ذلك على أساس طلب يتقدم به الجيران.

3 - الأوقاف ودورها في التطور العمراني:

3-1- التعريف اللغوي للوقف:

الفقهاء يعبر بعضهم بالحبس¹، وبعضهم يعبر بالوقف، والوقف عندهم أقوى من التحبّيس، والحبس بالضم من حبس حبسا فهو محبس وحبّيس، واحتبس فرسا في سبيل الله أي وقفه والحبس بوزن القفل ما وقف، والجمع أحباس، يقع على كل شيء وقفه صاحبه وقفا محرما لا يباع ولا يوهب ولا يورث²، ويذكر "السرخسي" أن الوقف لغة الحبس والمنع، والوقف مصدر وقفت الدابة، ووقفت الأرض على المساكين والجمع أوقاف، يقال: وقفت ولا يقال أوقفت، إلا في لغة شاذة وعليها العامة، ويقال أحبس لا حبس، فالأولى فصيحة، والثانية رديئة³، ويعبر عن الوقف بالحبس ويقال في المغرب وزير الأحباس، وفي الأندلس صاحب الأحباس⁴.

3-2- التعريف الاصطلاحي للوقف:

الوقف⁵ شرعا له تعاريف ثلاثة:

1 - حبس: حبسه يحبسه حبسا، فهو محبوس وحبّيس، و احتبسه و حبسه: أمسكه عن وجهه. و الحبس: ضدّ التخلية. واحتبسه و احتبس بنفسه، يتعدى و لا يتعدى. و تحبّس على كذا أي حبس نفسه على ذلك. الحُبْسُ: بالضم: ما وقف، و حبّس الفرس في سبيل الله و أحبسه، فهو محبّس و حبّيس و الأنتى حبيسة و الجمع حبائس. و قال الأزهري: و الحبس جمع الحبس يقع على كل شيء، وقفه صاحبه و قفا محرّما لا يورث، و لا يباع من أرض، و نخل، و كرم، و مستغلّ، يحبس أصله و قفا مؤبدا، و تسبّل ثمره، و تقربا إلى الله عز وجل. أنظر: - جمال الدين ابن منظور، المصدر السابق، ج6، ص 52، 53.

2 - محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ط4، دار الهبة للطباعة و النشر، الجزائر، 1990م، ص86.

3 - شمس الدين السرخسي، المبسوط، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ج12، ص27.

4 - عبد القادر ريوخ، الأحباس و دورها في المجتمع الأندلسي ما بين القرن 4 - 9هـ / 10 - 15م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الجزائر، 1426-1427هـ / 2005 - 2006م، ص1.

5- الوقف هو تحبّيس الأصل و تسبيل المنفعة، و يصح بالقول و بالفعل الدال عليه كمن جعل أرضه مسجدا و أدن للناس في الصلاة فيه، أو مقبرة و أدن للناس في الدفن فيها و صريحه: وقفت، وحبست، و سبّلت، و كنيته: تصدقت، و حرمت، و أبدت، فتشترط النية مع الكناية أو اقتران أحد الألفاظ الخمسة أو حكم الوقف، ويشترط فيه المنفعة الدائمة من معين ينتفع به مع بقاء

فعند المالكيين أي أصحاب مذهب "مالك بن أنس" رحمه الله، ومنه "ابن عرفة"¹ حيث قال: "الوقف مصدر إعطاء منفعة شيء مدة وجوده، لازماً بقاؤه في ملك معطية ولو تقديراً، فتخرج عطية الذوات والعارية والعمرى، واسم ما أعطيت منفعتها مدة وجوده لازماً بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديراً"²، أي جعل المالك مملكة منفعة مملوكة، ولو كان مملوكاً بأجره أو جعل غلته كدراهم لمستحق بصيغة مدة ما يراه المحبس، أي أن "المالك بن أنس" رضي الله عنه³ يحبس العين أي تصرف تملكي ويتبرع بريعتها لجهة خيرية تبرعاً لازماً مع بقاء العين مدة معينة من الزمن، فهو حبس العين لمن يستوفي منافعتها على التأييد⁴، ويضيف "ابن عبد البر": "الحبس أن يتصدق الإنسان المالك لأمره بما شاء من ريعه ونخله وكرمه وسائر عقاره لتجري غلات. ذلك وخراجه ومنافعه في السبيل الذي سبيلها فيه مما يقرب إلى الله عز وجل ويكون الأصل موقوفاً لا يباع ولا يوهب ولا يورث أبداً"⁵، وعند الحنفية هو حبس العين

عينه كعقار، والحيوان، أو نحوهما، وأن يكون على بر: كبناء المساجد والقناطر، والمسكن، والأقارب من مسلم و ذمي. كما أنه لا يجوز الوقف على الكنائس، و نسخ التوراة والإنجيل، و كتب الزندقة، و الوقف بمعنى الحبس لغة، و الوقف بمعنى القيام، و الأصل: الشيء الموقوف عليه كدار، و الشجر، و الأرض. و تحبب الأصل أي: منعه المنقول و العقار و تسبيل المنفعة يعني إطلاقها، ويسبل المنفعة: الغلة، و الثمر، و ما شابه ذلك، و الأصل في هذا أن أمير المؤمنين عمر بن خطاب رضي الله عنه أصاب أرضاً في خير، وكانت نفيسة عنده ف جاء يستشير النبي صلى الله عليه وسلم ماذا يصنع فيها؟ و ذلك لأن الصحابة كانوا ينفقون مما يجنون، و كانت الأرض أنفس مال عند عمر رضي الله عنه ف دله الرسول إلى الوقف بقوله: "إن شئت حبست أصلها و سبلت ثمرها" و في لفظ: "احبس أصلها و سبل ثمرها". أنظر:- موسى بن أحمد الحجاوي، زاد المستنقع في اختصار المقنع، ج4، ط1، المكتبة الإسلامية للطباعة، القاهرة، مصر، 2002 م، ص 552. و كذلك: - منصور بن يوسف البهوتي، كشاف القناع، حققه أبو عبد الله محمد حسن، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1997 م، ص 125.

1 - تونبي: 403 هـ / 1013 م.

2 - الرصاع، شرح حدود بن عرفة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1992 م، ص 581.

3 - مالك بن أنس، المدونة الكبرى، الإمارات العربية المتحدة، دون تاريخ الطبع، ج4، ص 271.

4 - عبد القادر ريوخ، المرجع السابق، ص 1.

5 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن عبد البر، الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، منشورات محمد بيوض، دار الكتب العلمية، بيروت دون سنة الطبع، ص 536. كذلك: - ابن رشد، البيان و التحصيل و الشرح و التوجيه و التعليل في مسائل المستخرجة، دار العرب، بيروت، 1988 م، ص 190.

على حكم ملك الواقف والتصدق بالمنفعة على جهة الخير وبناء عليه لا يلزم لزوم الموقوف عن ملك الواقف ويصح له الرجوع عنه ويجوز بيعه لأن الأصح عند "أبي حنيفة" أن الوقف جائز غير لازم، وقد استدل بقوله: "لا حبس عن فرائض الله"¹، أما الجمهور وهم الصاحبان وبرأيها يفتي الشافعية والحنبلية: "وهو حبس العين على حكمه ملك الله تعالى والتصديق بالمنفعة على جهة البر ابتداء وانتهاء، وعلى ذلك فإن الوقف وقفا لهما يخرج المال الموقوف عن ملك الواقف ابتداء ويمنع التصرف فيه بالبيع أو الهبة ولا يجوز له الرجوع فيه، وإن مات فلا ينتقل إلى ورثته، بل تصرف غلته ومنفعته إلى المستحقين سواء ورثته أو غير ورثته"، ويعرفها "الشافعي" بقوله: "إنها الصدقات الحرمات على قوم بأعيالهم أو قوم موصوفين"²، أما "ابن قدامة" فيعرفها: "تحبس الأصل وتسبيل الثمرة، وهو مستحب لما روى عن الرسول صلى الله عليه و سلم"³.

3 - 3 - مشروعية الوقف:

لم يرد للوقف ذكر صحيح إلا أن فكرة حفظ الأصل والإنفاق من الدخل موجودة فيه بمناسبة الكلام عن اليتامى وإدارة الأموال، فالوقف عند الجمهور لازم وهو سنة مندوبة إليهم، فهو من التبرعات المندوبة⁴، ومن بين الآيات التي تتضمن فكرة حفظ الأصل والإنفاق ما جاء في قول الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ...﴾⁵ و قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوْتَرُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَرِزْقًا وَكَسْوَةً وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾⁶، وفي السورة نفسها قال عز وجل: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ

1 - عبد القادر ربوح، المرجع السابق، ص2.

2 - الشافعي (توفي: 204 هـ / 819م)، الأم، دار المعرفة، بيروت، 1973م، م2، ج4، ص51.

3 - ابن قدامة، الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، دار الفكر العربي، سوريا، 1994م، م2، ج2، ص319.

4 - عبد القادر ربوح، المرجع السابق، ص3.

5 - سورة آل عمران، الآية 92.

6 - سورة النساء، الآية 5.

فَارزَقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا¹ ، فهو في عمومه يفيد الإنفاق في وجوه الخير والبر، وفي السنة يعتمد وجوده وتأصيله على ثلاث أصول:

فأما الأصل الأول، قوله صلى الله عليه: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله، إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"²، فإن الصدقة الجارية المذكورة في الحديث لتتحقق في الأوقاف لاسيما التي ترصد على المساجد، ودور العبادة، والفقراء، وذلك على ما يبدو معنى الحبس الثابت المقرر وكونه نوع من الصدقات³.

أما الأصل الثاني، ما روى عن "عبد الله بن عمر" أن "عمر بن الخطاب" أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله، إني أصبت أرضا "بخير" لم أصب مالا قط أنفس عندي عنه فما تأمرني به؟ قال : الرسول صلى الله عليه وسلم: إن شئت حبست أصلها وتصدق بها، فتصدق بها "عمر" رضي الله عنه، و إنما تباع ولا توهب ولا تورث وتصدق بها في الفقراء والرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم غير متمول"⁴ أي فقير منه.

أما الأصل الثالث، ما ثبت عن الصحابة قد وقفوا جميعا فأوقف "عمر" و "أبو بكر" و "عثمان" وكذلك "سعد بن أبي الوقاص" حتى أدركه المرض، ومثلهم التابعين وتابعي التابعين رضي الله عنهم أجمعين. ومن ذلك يتضح أن الإسلام قد أدرك الأعباس وعمل على تنظيمها وتأصيلها لتكون قرينة إلى الله وصلة الأهل والولد والاقتراب من ذوي الأرحام، وعن مذاهب الفقهاء، فهناك من يرون جوازها في الدور والأرضين والسلاح والكرء والثياب والمصاحف بل استحبابه، وأجاز البعض في السلاح والكرء فقط ومنعهم بعضهم مطلقا وهو "شريح" و "أبي حنيفة" وعامة أهل "الكوفة"

1 - سورة النساء، الآية 8.

2 - مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، حققه و فهرسه: عصام الصبابطي و آخرون، دار الحديث القاهرة، 1994، مج6، باب الوصية، حديث رقم 1631، ص95.

3- عبد القادر ربح، المرجع السابق، ص4.

4 - البخاري، المصدر السابق، ص380.

و استدلووا بحديث " لا حبس عن فرائض الله "، و منعهم بعضهم الحبس الذري، و لم يجز إلا الخيري¹.

3 - 4 - صفة الوقف:

جائز غير لازم يجوز الرجوع عنه، فهو تبرع غير لازم إلا بما هو بمنزلة الإعارة وهو عند "محمد بن الحسن" والشافعية والحنابلة إذا صح صار لازماً لا يفسخ بإقالة أو غيرها، ولا يملك الرجوع عنه ويزول ملكه عن العين الموقوفة ويستدلون بحديث "عمر" رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه و سلم أنه قال: " إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها " وهو بمنزلة الهبة والصدقة. و يرى "أبو يوسف" هو إسقاط ملك كالطلاق والإعتاق، فإن إسقاط الملك عن الزوجة والعبد والوقف عند المالكية إن صح لزم ولا يتوقف على حكم حكم حتى لو لم يجز (يقبض)، وحتى لو قال الواقف لي الخيار، فإن أراد الواقف الرجوع فيه لا يمكن، وإذا لم يجز أجبر على إخراجه من تحت يده للموقوف عليه²، فيكون مباحاً إذ لم يكن بنية التقرب إلى الله كما إذا حبس على غني حبس لذريته ومن بعدهم الفقراء مندوباً إذ نوى التقرب إلى الله، وواجباً إذ برئ ابني حبست حق البيت على من يجد مأوى من طلاب العلم، وحرماً إذا قصد بحبسه إيذاء الغير بإلحاق الضرر بورثته أو دائيته³.

3 - 5 - أركان الوقف:

وهي أربعة الواقف و الموقوف و الموقوف عليه والصيغة، فأما الواقف كالواهب فهو من صح تبرعه وقبوله منه، فلا يكون من مفلس أو مريض هالك أو عبد أو زوجه أما قبوله، فلا تصح من كافر وأما الوقوف فيجوز توقيف العقار كالأرضين والدور والخوانيت والجنات والآبار والقناطر والمقابر والطرق وغير ذلك، ولا يجوز توقيف الطعام لأن منفعته في استهلاكه وفي توقيف العروض والدواب روايات. و أما الموقوف عليه فهو ما جرى صرف منفعته أي (الوقف) له أو فيه، وهو الذي تصرف فيه المنفعة إن كان غير عاقل كالمساجد والمدارس وغيره، ويصح على المسلم والذمي والقريب والبعيد. أما الألفاظ (صيغة الوقف) ما دل عليه ماهيته قولاً أو فعلاً في ذلك كحبست وأوقفت وغير ذلك،

1 - عبد القادر رباح، المرجع السابق، ص4.

2 - أحمد محمود الشافعي، الوصية و الوقف في الفقه الإسلامي، دار الجامعة، 2000م، ص160.

3 - عبد القادر رباح، المرجع السابق، ص5.

أو فعلا مثلما بنى مسجدا ثم صلى فيه، وأباحه للناس فهذه ولاية فعليا، وإنما جعلنا الفعل من الصيغة وهي راجعة للكلام لتسميتهم كلفظ الولد والأولاد فإن قال وقفت على ولدي أو على أولادي فيتناول ولد الصلب ذكورهم وإناثهم ولدا الذكور لهم قد يرثون كذلك لفظ الآل والأهل، ولفظ القرابة¹.

3 - 6 - أحكام الوقف:

الحكم² أي الأثر المترتب على حدوث الوقف وتختلف أحكامه فإنها لا تباع ولا توهب ولا تورث ولا تشتري، و أنها موقوفة للجهات الخيرية أو الذرية المعنية فيها، وأن الولاية عليها كانت تعين الوقف ومكان الخلفاء الأربع يجعلون النظر فيها لنفسهم مدى الحياة ويرفعون ويصرفون الانتفاع بوجوه الصدقة، وقد جعل "عمر" أيضا النظر في وقفه (حبس أراضي خيبر) ثم حفظه بعد وفاته إلى ذوي الرأي من أهلها، ومن أحكام هذه الأوقاف قول "عمر بن الخطاب" أنه لا بأس للمتولي أن يأكل منها بالمعروف ويطعم صديقا غير متمول، ولا خلاف في القول أن يكون غالبا في العقارات، وروى أن "أبا بكر" أجاز الوقف في الشجر لينتفع بثمرها ولا يقطع أصلها، وأجاز "عمر بن الخطاب" رحمه الله

1 - عبد القادر ربوح، المرجع السابق، ص 5.

2 - أما حكمه التكليفي يعني هل هو حرام أو جائز واجب أو مندوب، فالوقف هو التبرع بالمال، و حبس له عن الإسراف فيه، فإذا كان على الجهة المشروعة كان مستحبا، لأنه من الصدقة، و إذا ندره الإنسان كان واجبا بالنذر، و إذا كان فيه حيز كان حراما، و إذا كان تضيق على الورثة كان مكروها. و ينقسم صريحه إلى قسمين: صريح و كناية، فالصريح بمجرد النطق به يسقط الحكم لأن صريحه لا يتحمل معنى آخر، و الكناية لا بد من إضافة شيء إما بالنية أو القرينة حيث صريحه هو:

- و قفت: و قفت أرضي، وقفت قلبي...

- حبست: حبست يعني أصله فيحمل هنا على الأصل لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعمر: " إن شئت حبست أصله " والمقصود سبلت منفعتة، و أبقيت أصله حبيسا.

- سبلت: أيضا دلالتها على ترك الأصل دلالة التزام.

أما كنيته هي:

- تصدقت: تدل على الصدقة، و الصدقة يثبت بها للمتصدق عليه الأصل، و المنفعة.

- حرمت: حرمت على نفسي، و لا يحرم مال إنسان على نفسه إذا أخرجه عن ملكه.

- أبدت: أي جعلته مؤبدا لا يتغير.

- للمزيد من التفاصيل أنظر: - الحجاوي، المصدر السابق، ج 4، ص 555.

حبس الفرس وأجاز لينتفع الإمام على الوقف والسلاح والكراع، أما عن المساجد وهي أماكن مقدسة يذكر اسم الله تعالى فيها، واهتم الخلفاء بعمارة المساجد¹.

3 - 7 - الولاية على الوقف:

اتفق العلماء الأئمة أن الولاية على الوقف هي سلطة من اجل رعايته وإصلاحه واستغلاله وإنفاق ناتجة في وجهه الصحيح، وتنقسم إلى نوعين عامة وخاصة، فأما العامة هي التي تكون لولي الأمر والخاصة هي التي تكون لمن يوليه الواقف من إنشاء الوقف، أو لمن يوليه الحكم الشرعي واتفقوا على أن الولي يجب أن يكون عاملاً بالغاً راشداً وأميناً وكما اتفقوا - إلا الإمام مالك - على أن الواقف أن يجعل التولية لنفسه مشتغلاً أو أن يشترط معه أحداً غيره مدى حياته، أو لأصل معين، وله أن يجعل أمر الولاية بيد غيره².

كان بمدينة تلمسان يطلق على من يتولى هذه الوظيفة بناظر الأوقاف، و في الفترة العثمانية "بالجزائر" كان يعين الحاكم موظفاً أطلق عليه اسم الشيخ الناظر، حيث يخضع لنظره وكلاء الأوقاف و أعوانهم، و يتكفل بجميع مداخل الأوقاف من الوكلاء، لتقديمها لبيت المال بعد تسجيلها في دفاتر خاصة يحتفظ بنسخة منها في خزائنه للمراجعة، و له مقابل مهامه منحة معينة و أجرة متواضعة قد لا تتجاوز 40 ريالاً في السنة الأمر الذي دفع بعض الشيوخ النظار إلى مد يدهم إلى مردود الأوقاف لسد حاجاتهم³.

3 - 8 - مبطلات الوقف:

- حدوث مانع مثل موت الواقف أو إفلاسه أو مرضه مرضاً متصلاً قبل القبض بطل التوقيف ورجع للوارث في حال الموت، وللدائن في الإفلاس فإن إجازة نقد وإلا بطل.
- إذا سكن الواقف الدار قبل تمام عام بعد أن حيز عنه أو أخذ غلة الأرض بنفسه بطل التجيبس.
- الوقف على شر فهو باطل.

1 - عبد القادر ربوح، المرجع السابق، ص5

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - سميح عاطف، موسوعة الأحكام الشرعية الميسرة في الكتاب و السنة، دار الكتاب اللبناني المصري، بيروت و مصر، 1994م، ص295. كذلك: - عبد القادر ربوح، المرجع السابق، ص5.

3 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص239.

- الوقف على معصية ككنيسة وتصرف غلة المحبس على الخمر وشرائهم السلاح للقتال حرام.
- الوقف على نفسه ولو مع شريك غير وارث مثل حبسته على نفسي مع فلان، فإنه يبطل.
- الوقف الكافر لنمو مسجد ورباط وغيرها باطل وهو رأي الحنفية وغيرها¹.

3 - 9 - التفكير في إنهاء الوقف:

عند دخول " مصر " حوزة الدولة الإسلامية اتضحت فكرة الوقف القائمة على الأوقاف صدقة جارية، و وقف منفعة ورعاية مصالح السلطان وتنمية ثروتهم وكفاية المحتاج، وفي ظل حكم الولاة و " الطولونيين " و " الأيوبيين " و " المماليك " استمر الوقف الأهلي أو الخيري بل ازداد وتنامى في مجالاته وأسس ديوان خاص بالأوقاف، وتم فصل الأوقاف عن القضاء وأنشئت المؤسسات الدينية و التعليمية، تتم النفقة عليها من أموال، ومع مرور لاسيما في عهد " المماليك "، بدأ التفكير في إنهائه، فلم يكن التفكير في إنهاء الأوقاف الأهلية، بل قد فكر " الظاهر بيبرس " في تطبيق نظرية الدولة لامتلاك أراضي وذلك أنه اضطر إلى فرض ضرائب جديدة في " مصر " وبلاد " الشام " بسبب الحروب مع " التتار "، وقد سلك سبيلا غير بيّن في الاستيلاء على الأراضي كلها، وكذلك فكر في إنهائه " برقوق آتابك " فقد همّ بإبطال الأوقاف.²

وقد ذكر " ابن عبد الرؤوف " قول العلماء في الأوقاف المتعلقة بالوصايا أي يشترط الواقف عدم تغير وقفه أو الاستيلاء عليه من طرف الورثة أو الغرباء بقوله: " الأحباس متعلقة بالوصايا، يمنع من تغير شكلها عمّا وضعت... و يمنع من أراد أن يدخل منها شيئا في منفعه، أو يوسع منها على نفسه، أو يحرفها عن موضعها مثل الطرق و الأفنية، و المحائج و الأرضين المحبسة و شجر المساكين... لأنها أحباس لا تغير عن حالها بوجه، و لا على حال."³.

3 - 10 - الأصول التاريخية للأوقاف:

عرفت الأوقاف منذ قديم الزمان والبلاد ذات الحضارات مثل " بابل " و " آشور "، حيث الحضارة الفينيقية في بلاد الشام، وقسمت هذه الأوقاف إلى نوعين الأولى القرية ابتداء على المعابد والكنائس

1 - عبد القادر ربوح، المرجع السابق، ص6.

2 - نفسه، ص7.

3 - ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص84.

وكافة دور العبادة، وآخر على الذرية والعشيرة، ثم ينتهي به المآل إلى أن يكون وقفا على البر ورعاية الفقراء، ومعنى الحبس كان ثابتا عند الأقدمين قبل الإسلام، لأن المعابد كانت قائمة وما رصد عليها من غلات لينفق من غلاته على هذه المعابد، فالبيت الحرام والمسجد الأقصى كانا قائمين، وكذلك المعابد والأديرة كانت قائمة، وكان من حق أتباع الديانة الانتفاع بها جميعا، كذلك كان "للرومان" تصرفات لها شبيهة بالوقف، أما "الجرمانيون" فعندهم نظام يرصد فيه المال على أسر معينة محددة، وقد يكون هذا الاستحقاق لجميع الأسرة أو لبعضها، وقد يكون للذكور ثم بعدهم الإناث، كما أن هناك قوانين الإمبراطور "جوستيان" ما يفيد بوجود الحبس عند "البيزنطيين"¹.

وأما نظام الوقف في الإسلام فتجتمع كل المصادر التاريخية الإسلامية أنه وجد منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأقره في مناسبات عديدة، وكان الوقف من أهم القضايا الفقهية التي وجدت تأويلا كبيرة من طرف الفقهاء²، و سبب في ذلك هو انعدام نص قرآني واضح يشير إلى الوقف و شروطه، و يمكننا القول أن الآيات التي وردت في القرآن الكريم و أخذ منها العلماء هي تلك الآيات التي وردت و أخذ منها العلماء كانت من باب الصدقات و الزكوات لذلك أخذها العلماء، و استنبطوا منها أحكام الوقف³، و ذلك عن طريق القياس.

أما السنة النبوية فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اقتصر في تعريف الوقف بذكر حقيقته، و ترك التفاصيل و التأويلات للفقهاء، لعلمنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان نادرا ما يفسر القرآن و الأحاديث، بل يقف على المضمون الظاهري أما اللب الداخلي فتركه للفقهاء، و المجتهدين من الأمة.

لذلك نرى أن العلماء اجتهدوا و غاصوا في العلم الشرعي، و من ثم استفادت الأمة من اجتهادهم الذي يتماشى مع العصر، و البيئة الاجتماعية.

1 - عبد القادر ربوح، المرجع السابق، ص5.

2 - لقد ذكر الونشريسي عدة نوازل حول الوقف أو التحبيس، خاصة ما شملت بناء المساجد و العمائر المدنية، و العسكرية. للمزيد من التفاصيل أنظر:- أحمد الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص2.

3- البهوتي، المصدر السابق، 126.

و قد حث الله تعالى المسلمين على التعاون في أعمال البر و التقوى¹، و يقول الله تعالى في ذلك: ﴿... وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ...﴾²، و من أعمال البر الجليلة التي كان المسلمون يحرصون بالتعاون عليها سواء بالمال أو بالجهد العضلي بناء المساجد، و كذلك اتخاذ الإمام، و المؤدب، و العاملين بالمسجد، و بناء دور العلم من مدارس و زوايا، و أربطة، و قناطر، و مواجل، و حفر الآبار، و إنشاء الأسبلة، و تتضح أهمية الوقف جليا في هذه المنشآت سواء عند البناء و بعده.

وكان أول وقف في الإسلام في السنة الثالثة للهجرة (3هـ / 624م) وكانت عبارة عن سبع حوائط (أي بستين)، وكانت "لمخيريقي اليهودي" من علماء "بني النظير" آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم يوم "أحد" و أوصى أنه إذا قتل يوم "أحد" فأمواله لرسول الله صلى الله عليه وسلم و أوصى أنه يضعها حيث أراه الله، فقتل يوم "أحد" فقبض الرسول صلى الله عليه وسلم أمواله، وجعلها صدقة في سبيل الله عقب رجوعه من "أحد"، ومازالت كذلك حتى حمل ثمرها "عمر بن عبد العزيز" رضي الله عنه أيام خلافته³.

والأساس الثاني الذي قامت عليه فكرة الوقف في الفقه الإسلامي فهو الحديث الذي رواه "البخاري" و "مسلم" عن "نافع" عن "عبد الله بن عمر" بشأن وقف "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه في السنة (7 هـ / 628م)، وهو أول وقف من الصحابة، وثاني وقف في تاريخ الإسلام حيث قال: "قال أصاب أرضا "بخير" فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فما تأمرني به؟ فقال رسول الله : إن شئت حبست أصلها و تصدقت بثمرها، فجعلها "عمر" صدقة، لا تباع ولا توهب، ولا تورث، و تصدق بها على الفقراء و المساكين و ابن السبيل و في الرقاب و في الغزاة و في سبيل الله و الضيف، ولا

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: الإمام النووي (631 هـ / 626 هـ)، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، شرحه

و أملاه الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط1، ج1، دار الإمام مالك، الجزائر، 1430 هـ / 2009م، ص 493.

2 - سورة المائدة الآية 2.

3 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن الأثير، المصدر السابق، ج2، ص162. و كذلك: - أبو القاسم عبد الرحمن الخثعمي،

الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 1997م، ص180. و كذلك: - عبد القادر ريوح،

المرجع السابق، ص6.

جناح أن يأكل منها بالمعروف، وأن يطعم صديقا غير متمول منه، وأوصى به إلى "حفصة" أم المؤمنين ثم الأكابر من آل "عمر"، وكتب "عمر بن الخطاب" صدقته في خلافته، ودعا نفرا من المهاجرين والأنصار فأحضرهم لذلك، وأشهد عليه، فانتشر خبرها، فتبعه كل من كان ذي مال من المهاجرين والأنصار، فحبس من ماله حبسا لا يشتري ولا يوهب ولا يورث حتى يرث الله الأرض ومن عليه، وثبت لدى "عمر بن عبد العزيز" أن الصدقات كانت على البنين والبنات حسب أحد صكوك.

كما روى من أن "أبا بكر الصديق" رضي الله عنه وقف رباعا له كانت "بمكة" وتركها فلا يعلم نحا ورثت عنه، ولكن يسكنها من حضر من ولده وولد ولده ونسله بمكة، ولم يتوارثوها، فإما أن تكون صدقة موقوفة عندهم، فقد أجروها ذلك المجرى، وإما أن يكون تركوها على ما تركها "أبو بكر" وكرهوا مخالفة فعله فيها، وهذا شبيه بالوقف، كذلك تصدق "عثمان بن عفان" رضي الله عنه بماله في "خير" على "إبان بن عثمان"، كذلك كانت "العلي" رضي الله عنه صدقة "بينع"¹.

وجاء في كتاب الصدقة: "وكان محمد النبي صلى الله عليه وسلم ينفق في كل نفقة في سبيل الله ووجهه وذوي الأرحام والفقراء والمساكين وابن السبيل"، كذلك طلحة والزبير وعائشة وحفصة رضي الله عنهم، فإنهم باشروا الحبس، كما وقف "خالد بن الوليد" رضي الله عنه أذراعه في سبيل الله، وقد ترتب على ثراء كثير من الصحابة في عهد "عمر" و "عثمان" رضي الله عنهم مما أفاء الله به عليهم من الفتوح، أن أكثروا من الصدقات الموقوفة التي وقفوها على أبواب الخير وجهات البر، وظلت أوقاف الصحابة قائمة حتى عهد الإمام "مالك بن أنس" الذي يجتج بها بمن خالفه من فقهاء "العراق" أو بعضهم ممن أبطل الحبس أصلا².

و من أهم هذه المنشآت التي خصت بالوقف نجد المساجد، و ذلك منذ إنشاء المسجد النبوي بالمدينة المنورة، حيث وقف الرسول صلى الله عليه و سلم قطعة الأرض³ التي اشتراها عند دخوله إلى المدينة المنورة، فقد ذكرت المصادر التاريخية أن قطعة الأرض التي أسس عليها المسجد كانت ليطمين من "المدينة" هما "سهل" و "سهيل"، فساومهما فيها الرسول صلى الله عليه و سلم، فقالا: " بل نحبها لك

1 - عبد القادر ربوح، المرجع السابق، ص6.

2 - رفيق يونس، الأوقاف فقها و اقتصادا، ط1، دار المكتبي، مصر، 1999، ص11.

3 - و هي بيد التمر ليطمين كانا في حجر أسد بن زرارة. أنظر: - ابن كثير، البداية...، ج2، ص342، 343.

يا رسول الله". فأبى حتى ابتاعها منهما و بناها مسجدا¹. و يمكن استنتاج من هذه الرواية أن المساجد لا تبني على أراضي ذات ملكية خاصة، بل توضع وفقا لصالحة عامة المسلمين.

و قد أهتم بالوقف السلاطين و العلماء و عامة الناس في الفترة الزيانية بمدينة "تلمسان" و أمثلة على ذلك كثيرة، حيث وقف السلطان "أبو حمو موسى الثاني" على المدرسة اليعقوبية، ووضع لها الجريات، وقد خلد نص الوقفية المنقوش على لوحة رخامية مجموعة الأوقاف التي كانت لهذه المدرسة، و اللوحة محفوظة بالمتحف الوطني "بتلمسان" و تتكون من أربعة عشر سطرا و نصها الأتي²:

- أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين "أبو حمو"
- ابن مولانا الأمير "أبي يعقوب ابن الأمير أبي زيد" مولاي الأمير
- "أبي زكريا" ابن مولانا أمير المسلمين "يحيى يغمراسن بن زيان"
- وصلى الله مفاخره و خلد آثاره الكريمة و مآثره على هاذه الزاوية
- المباركة المقامة على ضريح و الدال... فمن ذلك عما بداخل تلمسان
- المحروسة جميع الطاحونة الملاسقة للزاوية و القصبه
- الغربية بعد الثان و الثلاثون حانوتا المعروفة
- بالصاغة القديمة و الكوشة التي بمنشر
- الجلد و حمام الطبول و فران مقسم الما
- و فندق العالية و بخارج البلد المذكور جميع
- الرحا السفلي بقلعة بناجي سفلي و النصف
- شايعا في روض الميتة الكاينة بالرميلة
- و زيتونة تيفدا في أرض الزيتون المذكور ثم
- معصرته و رحاها و جميع المحبس.

1 - ابن كثير، البداية...، ج2، ص343.

2 - عبد الحق معزوز و لحضر درياس، جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر، كتابات الغرب الجزائري، مطبعة سومر، بشر خادم، الجزائر، 2001م، ج2، ص 279، 280.

كما وقف السلطان "محمد بن موسى" عدة أوقاف على مدرسة و مسجد بمدينة "تلمسان" سنة 796هـ / 1393م، و قام كذلك أيضا السلطان "أحمد العاقل"، حيث أعاد الأوقاف للمدارس و وقف عليها أوقافا جليلة كما قام بإحياء الوظائف التي انقطعت بسبب ما دثر من الأوقاف التي كانت بمدينة "تلمسان".¹ كما وقف "حسين باي" حاكم بيلك الغرب على زاوية الوالي الصالح "مولانا الطيب" بمدينة "تلمسان" مجموعة من الأوقاف². و لم يكن الوقف مقتصرًا على الحكام و سلاطين المدينة، بل شمل كذلك مجموعة من الأوقاف أوقفها أهل الخير و البر منهم السيدة الفاضلة "فاطمة بنت المنور" التي وقف بعض العقارات و البساتين و الحوانيت على مسجد السيدة الغريبة بحي القران بمدينة تلمسان³.

أما في الفترة العثمانية بمدينة "الجزائر" فقد وقف الحكام و أغنياء المدينة على المؤسسات الدينية، كالمساجد، و المساجد الجامعة، و الزويا، و كذلك وقفوا على المرافق العمومية، ذات المنفعة العامة، مثل العيون، و الطرق، و الآبار، و الأبراج و غيرها، و احتفظ لنا الأرشيف الوطني بمدينة "الجزائر" على كثير من عقود الوقفيات التي غلب عليها أحكام القضاء الحنفي لسبب كونه مذهب السلطة الحاكمة، و للتسهيل الذي يقدمه للأفراد.⁴

و تختلف أوقاف المساجد من منطقة إلى أخرى، ويستفيد منها كذلك القومة من إمام، و مؤذن، و ناظر الوقف، بالإضافة إلى المصاريف المتعلقة بالترميم و تزيين المساجد، و كذلك لشراء الزيت من أجل الإضاءة.

و أصبحت هذه العادة جارية إلى غاية الفترة العثمانية، هذا على الرغم من أن الأوقاف أصبحت اليوم تسير من طرف الجهة الوصية، و تجمع الأموال و تصرف على جميع المساجد سواء من كان لها وقف، أم لم يكن لها ذلك.

1 - التنسي، المصدر السابق، ص249.

2 - عبد الحق معزوز، المرجع السابق، ص195.

3 - نفسه، ص282.

4 - مصطفى بن حموش، فقه...، ص60.

و نشير أن أموال الزكاة لا تبنى بها المساجد على عكس أموال الصدقات، وهذا ما أكده "الونشريسي" بقوله: " بأنها لا تجزئه على قولها معا"¹، أما لفظ الصدقة على المسجد يحمل على الأحباس لحديث رسول الله " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث..."² و من بين هذه الثلاثة الصدقة الجارية، و صدقة على المساجد تعتبر صدقة جارية، لكونه باق ببقاء الإسلام على الأرض، و من باب التيسير على الناس عبادة الله، فمن الناس من يتصدق بمواد البناء، و منهم من يتصدق بالحصير فتبقى هذه الصدقات حبسا للمسجد، و صدقة جارية للمتصدق³.

ولقد اختلفت الأوقاف التي توقف على المساجد، و التي تعود بالمنفعة عليها أثناء البناء، أو لتصليح و ترميم، أو كأجرة للعاملين بالمسجد، و من بين الأوقاف التي كانت توقف للمساجد نجد الأراضي الزراعية و الأشجار المثمرة على اختلاف أنواعها، و لقد أفرد لنا "الونشريسي" عدة نوازل ذكرت لنا الوقف و مجال صرفه و من بينها:

- " وسئل القاضي "أبو محمد عبد الرحيم بن إبراهيم".... عن رجلين إشتراكا في فرن على المناصفة بينهما، ثم إن احدهما حبس نصيبه على الجامع الأعظم".

- " وسئل سيدي "إبراهيم بن محمد الزناسني"، عن مسجد له حوانيت محبسة عليه كان يجري على فوائدها من قديم الزمان مرتب أربعة من المؤذنين مع سائر الضروريات...."⁴.

كما ذكرت عدة مصادر تاريخية الأوقاف التي كانت توقف على مساجد مدينة "تلمسان"، وشارك العلماء في حبس كتبهم العلمية على خزائن الكتب، كما ألف تجار مدينة "تلمسان" وقف أموالهم على المساجد، و أفرد لنا "إبن زيات" قصة تصب في هذا المحتوى حيث يقول: "... و أخبرنا "يحيى بن عبد الرحمن"، قال: حدثنا "أبو عبد الله محمد بن أبي عرجون"، أن "حمود بن سمغون

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص51.

2 - يحيى بن آدم القرشي، المصدر السابق، ص126.

3 - سئل سيدي عبد الله العبدوسي على قاعة كانت محبسة على المسجد في استجار امرأة، فلما توفيت تصدقت بما على المسجد المذكور، و صارت تكري بستة دراهم... ، فأجاب: " أما الصدقة فقد تقدم جوابي عنها تحمل محمل الأحباس " للمزيد من التفاصيل أنظر: - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص52.

4 - نفسه، ج7، ص65.

اللخمي " من تجار الصحراء لما أسن ترك السفر، فوضعه بيده في أحباس جامع "تلمسان"، فكنت يوما في الجامع، و فيه الأمير "تميم بن يوسف بن تاشفين"، فصاح "عبد السلام": "يا حمود" لا تعد"، فقال له "حمود": "و ما ذلك؟" فقال له "عبد السلام": "استلف منك الأمير "تميم" مال الأحباس خمسمائة دينار، فأسلفته و هل عنده مال يقضي منه مال الحبس إلا الخبث، فقال له "حمود": "...أشهدك أن أدفع من مالي في مال الأحباس..."¹.

ولم تختلف الفترة العثمانية عن بقية الفترات التاريخية التي مرت بها المدينة الإسلامية من حيث تنظيم الأوقاف و مجال صرفها، و يعد مسجد "سيدي رمضان" من أهم المساجد الجزائرية في الفترة العثمانية الذي نال نصيبا كبيرا من أوقاف المحسنين، وهذا راجعا لكونه أقدم مسجد بمدينة "الجزائر" و تشير الوقفتان التاليتان أن الواقف شدد على عدم تغير مجال وقفه وجاء في المتن مايلي: " الحمد لله الذي يشهد به من يوضع اسمه إثر تاريخه شهد بمضمونه و بمعرفته القرن المسمى بفرن الضفة خارج باب عزون أحد أبواب الجزائر المحمية بالله تعالى المعد لرحى الدباغة معرفة تامة قطيعة لازمة معتبرة شرعا يشهد بها و بأنه حبسا من جملة أحباس المسجد المعروفة بسيدي رمضان نفعنا الله ببركاته..."²، أما الوقفية الثاني فنصها: "...الحمد لله حبس المكرم المرعي "سنان بن عبد الله العلام الحجام" الصناعة المذكور مبتاعا في الرسم المقيد بالطرة اليمنى من الرسم محوله حبسا على جامع القصبة القديمة المعروف الولي الصالح سيدي رمضان داخل بلد الجزائر أمنها الله و أهلها جميع الحانوت الواحدة الموالية لناحية البلد من الحوانيت الثلاثة المذكورة في المشار إليه.....ويؤخذ فائدة ذلك و يصرف فيما يحتاج إليه الجامع المذكور من زيت و حصور و ما لا غنى له عنه على الدوام و الاستمرار بعد أن تقام مصالح الموضوعين المذكورين من بناء و غيره مما تستدام به غلتهما حبسا تاما مؤبدا كما ذكر لا يغير عن حاله و لا يبدل عن سبيله قصد الحبس المذكور بذلك وجه الله العظيم رجاء ثوابه الجزيل إن الله يجزي

1 - أبو يعقوب بن يوسف التادلي ابن الزيات (توفي: 617هـ / 1220م)، التشوف إلى رجال التصوف، و أخبار أبي

العباس السبتي، تحقيق: أحمد توفيق، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 141.

2 - مصطفى بن حموش، فقه...، ص 172.

المتصدقين و لا يضيع أجر المحسنين فمن سعى في تبديله أو تغيره فالله حسيبه و سايله وولي الانتقام منه.....¹.

و من مساجد مدينة "الجزائر" التي خصص لها كثيرا من الأوقاف نجد المسجد الجامع المرابطي (أطلق عليه بالمسجد الأعظم في الفترة العثمانية) لقداسته عند السكان، حيث يعتبر المرجع الديني و العلمي للفقهاء المالكي الذي كان عليه المغرب الإسلامي كله.²

ولما كانت المدينة الإسلامية تسكنها مجموعات بشرية غير مسلمة من أهل الذمة³ و غيرها إلى جانب المسلمين كان من الضروري أن يقف العلماء على مساعدة هذه المجموعات في البناء، و التحسيس على المساجد، أما من حيث البناء و التخطيط فليس هناك مانع من قبول الصنائع، و الحرفيين في عملية البناء، (لما كان في المسجد النبوي، المسجد الأموي، و قبة الصخرة)⁴ من باب الاستفادة من خبرتهم إن كان ذلك مهما، أما من ناحية تحبيسهم للمساجد فيرى الشيخ "أبو عمران القطان": " أنه غير جائز"، وخرج ذلك من المدونة في كتاب الجهاد، حين ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إنا لا نستعين بمشرك "، و ذلك إجابة عن مسألة من أهل "قرطبة"، عن يهودي حبس دارا على مسجد "بقرطبة"⁵.

1 - مصطفى بن حموش، فقه...، ص 181.

2 - للمزيد من التفاصيل حول الأملاك الموقوفة على المسجد الجامع المرابطي بمدينة الجزائر أنظر: - عبد الجليل التميمي، وثيقة عن الأملاك المحبسة بإسم الجامع المرابطي بمدينة الجزائر، "منشورات المجلة التاريخية المغربية"، العدد 5، تونس، 1980، ص35.

3 - و هم أهل الكتاب من اليهود و نصارى، الذين يقيمون مع المسلمين و يدفعون الجزية مقابل حفظ أمنهم و حرية تعبدتهم. انظر: - مصطفى بن حموش، فقه...، ص71.

4 - ك. كريزول، الآثار الإسلامية الأولى، نقله إلى العربية عبد الهادي عبلة، دمشق 1404 هـ / 1984 م، ص 35. كذلك: - أحمد فكري، المرجع السابق، ص47. كذلك: - طه الولي، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، لبنان، 1409 هـ / 1988 م، ص14. كذلك: - محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامي تاريخه و خصائصه، مطبعة أسعد، العراق، 1965 م، ص 12.

5 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص65.

وفي الفترة العثمانية أجزت قطعة من أرض تابعة لمسجد من مساجد مدينة "الجزائر" لصالح ذمي ليضمها لمسكنه، ووافق على ذلك الإمام، لما ظهر له في ذلك من المصلحة العائدة على المسجد، و التي تمثلت أساسا في ثمانية عشرة دينارا زيانية تدفع كل عام دائما مؤبدا، فإذا نظرنا إلى الجواب الذي أفردته الشيخ "أبو عمران القطان" في المسألة السابق، فإن ذلك غير جائز مادامت تلك الأموال سوف تصرف على مسجد سواء للترميم، أو شراء متطلبات المسجد من زيت للإضاءة، أو كأجرة لقومة المسجد، و هذا من باب "إن الله طيب لا يقبل إلا طيبة".

و قد يضطر الحاكم أو العامل على بيع الأراضي أو الدور الموقوفة من أجل بناء المسجد أو توسيعه، وهنا هذا الإلزام يشمل المساجد الجامعة و الطريق المؤذي إليه، أما مساجد الدور أو الطريق التي تؤدي إلى الأحياء فلا يكره السلطان أو غيره صاحب الوقف على بيعه وذكر "عبد الملك" في ذلك: " لا بأس ببيع الدار المحبسة و غيرها، ويكره السلطان أهلها على بيعها إذا احتاج الناس إليها لجامعهم التي فيها الخطبة و المنبر ليوسع بها، و كذلك الطريق إلى المسجد التي تجمع فيها الجمع و الخطبة، و ليس كذلك المساجد التي لا يجمع فيها و الطريق التي هي في القبائل لأقوام...."¹.

أما الهبة² فتأخذ مأخذ الوقف، و هي العادة الجارية بالمغرب الإسلامي، و في نوازل "ابن الحاج": " إذا كانت دار تلاصق الجامع و ضاق الجامع بالناس و احتيج إلى الزيادة، هل يجبر صاحبها على بيعها أم لا ؟ نزلت أيام "عمر" رضي الله عنه و كانت الدار "للعباس" رضي الله عنه، فأراد "عمر" أن يزيد لها في المسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبى "العباس" من بيعها، فقال "عمر" إما أن يبيعها و إلا أخذناها، و تحاكما في ذلك إلى "أبي بن كعب"، فقضى على "العباس"، و احتج في ذلك بقضية بيت المقدس: فوهبها "العباس" رضي الله عنه و لم يأخذ عنها عوضا"³.

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص65.

2 - هي تمليك الأعيان بغير عوض، و شرائط صحتها من الواهب أن يتوفر فيه العقل و البلوغ و الملك، و في الموهوب أن يكون مقبوضا غير مشاع، متميزا غير مشغول. أنظر: - مصطفى بن حموش، فقه...، ص99.

3 - الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص244.

يتولى الحاكم في الدولة الإسلامية الشؤون العامة للمسلمين، فيقوم بحفظ الدين و سياسة أمور الدنيا، و لذلك فإن العمران الإسلامي هو الصورة المباشرة للسياسة الشرعية التي تقوم على مراعاة مقاصد الشريعة.

و كان يعين المحتسب و يوكل له تنظيم شؤون العمران، ويكمن ذلك في منع أو إزالة الضرر الذي يصيب الأماكن العامة، كالشوارع، و الأسواق و المساجد و غيرها، و متابعة حسن سير الأنشطة الحضرية التي يحتاج إليها الناس.

لعبت الأوقاف دورا هاما في عملية البناء و صيانة المنشآت العمومية، و قد اهتم الأغنياء و حكام المدن الإسلامية برعاية الأوقاف، كما عملوا على تشجيع الناس على هذا العمل الخيري.

الفصل الرابع: أثر الفكر الإسلامي العمراني على العمارة الدينية.

1 - المساجد:

2 - المدارس:

3 - الأضرحة و المقابر:

احتلت العمارة الدينية بالمدينة الإسلامية الأهمية الكبيرة من قبل المشرع الإسلامي، و المنتدب لولاية المدينة، و الأغنياء و عامة الناس، فتنافسوا في بناء المساجد رجاء في ثواب الله، و تجسيدا لقول الله تعالى ﴿... وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى...﴾¹، و مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه و سلم: " من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله، بنى الله له مثله في الجنة"².

تعتبر المساجد منذ تأسيسها على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى غاية عصرنا الحالي الحصن الحصين للمدن الإسلامية، فقل من مدننا ما كان لها أسوار عالية كما ترى في غير عالم الإسلام، هناك تجد الأسوار المنيعة التي تصل إلى ضخامة سور الصين وطوله، و تجد الأبراج العالية كما ترى في معظم بلاد أوروبا، أما في عالم الإسلام فما أقل الحصون والأسوار في بلاده لأن المساجد كانت حصنه في كل مكان، فهي مراكز الإيمان ورموزه والإيمان قوة عالم الإسلام الكبرى، فقد نجت أمم الإسلام من الخن الطاحنة في العصور الماضية بفضل الإسلام وحده، وإنك لتستطيع أن تقول إن المسيحية عاشت بفضل المسيحيين أما في عالمنا الإسلامي فقد عاشت أمم الإسلام بفضل الإسلام، ولقد غزا الصليبيون أرض المسلمين وغلّبوهم ولكنهم لم يغلبوا الإسلام، و حول راية الإسلام الرفيعة تجمع الناس وساروا في ظلها مستلهمين عزتها وتمكنوا من تحرير بلادهم.

وهاجم "المغول" عالم الإسلام من الشرق وخرّبوا البلاد وأهلكوا العباد، ولكنهم لم ينتصروا على الإسلام بل هزمهم الإسلام وغزا قلوبهم، فأسلموا وأضافوا هم أنفسهم للإسلام بعد إسلامهم وفي نفس المساجد التي خربها المغول في طريقهم من "سمرقند" إلى "حلب" وجعلوا معظمها أطلالا رقع المغولي المغلوب على أمره وسجد للواحد القهار تحت سقوف المساجد، وقام أحفاد "هولاكو" بإعادة بناء المساجد وفيها صلوا وتحولوا إلى مسلمين ولم يلبثوا أن خرجوا هم أنفسهم مجاهدين في سبيل الإسلام إلى الهند حاملين رأيتهم مدافعين أعداءه وسائرين باسمه في معارج الرقي وال عمران³.

و المسجد هو مركز ترابط الجماعة الإسلامية وهيكلها المادي الملموس فلا تكتمل الجماعة إلا بمسجد يربط بين أفرادها بعضهم ببعض، يتلاقون فيه للصلاة وتبادل الرأي ويقصدونه للوقوف على أخبار جماعتهم، و يلتقون فيه مع رؤسائهم، أو يتجهون إليه لمجرد الاستمتاع بالعود في ركن من

1 - سورة المائدة، الآية 6.

2 - البخاري، المصدر السابق، ص 97.

3 - حسين مؤنس، المساجد، عالم المعرفة، الكويت، 1401 هـ / 1981 م، ص 15.

أركانه كما يفعل الناس عندما يزورون حديقة ليروحوا عن أنفسهم، فالمسجد على هذا ضرورة دينية وضرورة سياسية وضرورة اجتماعية أيضا بالنسبة لكل مسلم على حدة وبالنسبة لجماعة المسلمين جملة¹.

أردنا من هذا الفصل أن نتطرق إلى المنشآت الدينية البارزة في المدينة الإسلامية، محاولين الإشارة إلى تأثير التشريع و الفكر الإسلامي على تخطيطها و عناصرها الوظيفية من خلال المباني الدينية القائمة بمدينة "تلمسان"، و مدينة "الجزائر".

1 - المساجد:

يعتبر المسجد الجامع من أهم المنشآت العامة في المدينة الإسلامية لما له من دور أساسي في حياة المجتمع، فبالإضافة إلى وظيفته الدينية كان مركزا لبحث الشؤون السياسية والدينية والتربوية والاجتماعية، ففيه يستقبل الوفود والسفراء، وتخطب فيه الجمعة والأعياد، وينظم شؤونهم ويعلمهم أمور دينهم. وكان الخلفاء يعلنون من منبر المسجد الأحداث التي تواكب الفتوحات الإسلامية، ويلقي الخليفة أو الأمير خطابه السياسي الذي يوضح فيه كيفية مسيرته السياسية ومسؤولياته وواجب الرعية نحوه، فالمسجد بمثابة جامعة وبرلمان يقوم بوظائف متعددة، ومن ثم فهو من مميزات الحضرة للمدينة الإسلامية، لذلك يقام في أكثر أجزاء المدينة سهولة في الوصول مما يشكل وظيفيا و عمرانيا نواة المدينة².

و إذا كان دور المسجد الجامع في حياة المسلمين بمدينتهم مرتبط بهذه الوظائف المتفق عليها عند الباحثين المسلمين وغيرهم، إلا أنه لم يسلم كعمارة دينية تخص المسلمين من نقد المستشرقين، حيث جعلوا أصله المعماري من المعابد الوثنية بالحبشة و الهند، و كذلك كنائس النصارى بالشام، وركزوا على الحضارات القديمة و جانبها اللاتيني خاصة، وكل ما قيل حول الأصل المعماري للمسجد لا يمكن أن يستقيم، لكون الرسول صلى الله عليه وسلم هو صاحب هذا التخطيط و الأصل المعماري، لكونه عليه الصلاة والسلام لم يكن جوالا سائحا يطوف البلدان، و يتأثر بعماثرهم، ولو سلمنا أنه صلوات الله عليه كان تاجرا و سافر إلى الشام لكنه من الأكيد لم يدخل معابد الوثنيين، أو كنائس النصارى، أو معابد اليهود، وكيف يدخل رسول الله إلى هذه المعابد، و قد كان الله يحرسه

1 - طه الوالي، المرجع السابق، ص8.

2 - جمال أحمد طه، المرجع السابق، ص47.

و يجنبه الوقوف على هذه العمائر، و التقرب حتى للكعبة أو قيامه بالطقوس و الشعائر الدينية التي كان يقوم بها القرشيين¹.

و كان من حقنا كذلك أن نتساءل كيف اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد بني على شاكلة المعابد الوثنية، أو معابد أهل الكتاب؟ بينما كان عليه الصلاة و السلام يرغب في قبة أخرى من غير بيت المقدس لمسجده، فوله الله قبة يرضها ويطمأن قلبه بها، فحولت القبة إلى كعبة بالمسجد الحرام ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾².

لقد جاء تخطيط المسجد النبوي بسيط، لكون العظمة الحقيقية ليست في البناء و لكن في عظمة من نعبد، و أن الجمال الحقيقي هو جمال العبادة، و تناسق الروح مع العقل، و ذلك هو الخشوع الحقيقي، لذلك لم يراع الرسول صلى الله عليه وسلم، و الخلفاء الراشدون من بعده جمالية المبنى قدر ما حافظوا على دوره في المجتمع الإسلامي، أما التطور الذي حدث في عمارة المساجد فقد كان أثناء دولتي الأمويين و العباسيين، وهذا راجع لشاسعة البلاد الإسلامية، و غنى المجتمع الإسلامي بالمجموعات البشرية المحملة و المتشعبة بالتراكم الحضاري للحضارات القديمة، أو المعاصرة لدولة الإسلامية. ولا غرب أن يأخذ المسلمون من هذا التراكم الحضاري، ما لم يتعارض مع التشريع الإسلامي وعقيدته، لذلك نرى أن جل هذه الإضافات في عمارة المساجد كانت في هذه الفترة (الأموية، العباسية)، حيث بحلول الدولة العباسية بدأت عملية جمع الأحاديث و تدوينها، و برز في ذلك أئمة المدارس الفقهية³، و تلاميذهم من بعدهم، و انتشر الاجتهاد في البلاد الإسلامية، و لم يتركوا أمرا من أمور المسلمون إلا و أعطوه الأهمية التي استحقها فشمل الاجتهاد قضايا الدين، و الدنيا، و يسروا على الأمة في أمور حياتها و لم يقصروا في ذلك.

و لاستنباط أثر التشريع الإسلامي على العمارة المساجد كان لا بد أن نقف على وظيفة المسجد، و عناصره الوظيفية، و قومته، و ما أباحه العلماء، أو ما كان فيه خلاف، و لكن أصبح

1- ابن كثير، البداية ...، ج1، ص 95. كذلك: - ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السيقا، إبراهيم الأبياري عبد

الحفيظ شلبي، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د،ت)، ص 63.

2 - سورة البقرة، الآية 144.

3 - الإمام أبو حنيفة النعمان، الإمام مالك، الإمام الشافعي، الإمام أحمد بن حنبل.

فيما بعد من العناصر الوظيفية للمسجد، و هي من مستحدثات المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، و الخلفاء الراشدين من بعده، ولكن لو بحثنا عن أصل هذه العناصر الوظيفية، أو مهام المسجد لوجدنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أشار إليها سواء في سنته، أو من خلال تخطيطه لمسجده بالمدينة المنورة، و هذا ما سوف نراه من خلال هذا العرض.

1 - 1 - التعريف اللغوي والاصطلاحي للمسجد:

المسجد هو موضع الذي يسجد فيه، و سمي المسجد مسجداً لأنه موضع الصلاة اعتباراً بالسجود، و يقول صاحب "لسان العرب": " المسجِد و المسجِد: الذي يسجد فيه، و في الصحاح: واحد المساجد، وقال "الزجاج": كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " جعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً." و قوله عز وجل: ﴿ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ هَمَّعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَ سَعَى فِي خَرَابِهَا.. ﴾¹، المعنى على هذا المذهب أنه من أظلم ممن خالف ملة الإسلام؟ قال: و قد كان حكمه أن لا يجيء على مَفْعِلٍ و لكنه أحد الحروف التي شذت فجاءت على مَفْعِلٍ. قال "سيبويه": أما المسجد فإنهم جعلوه اسماً للبيت، ولم يأت على فعل يفعل كما قال في مدقِّ إنه اسم للجلمود، يعني أنه ليس على الفعل، و لو كان على الفعل لقليل مدقِّ لأنه آلة، و الآلات تجيء على مَفْعِلٍ كمخرز و مكنس و مكسح، و قال "ابن عربي": مسجد بفتح الجيم محراب البيوت، ومصلى الجماعات المسجد، بكسر الجيم، و المساجد جمعها، و المساجد أيضاً: الآراب التي يسجد عليها... و المسجد بالفتح: جبهة الرجل حيث يصيبه نذب السجود، وقوله تعالى: ﴿ وَ أَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾²، قيل: هي مواضع السجود من الإنسان: الجبهة و الأنف و اليدين و الركبتان و الرجلان، و قال "الليث" في قول الله تعالى: ﴿ وَ أَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ السجود مواضعه من الجسد، و الأرض مساجد، واحدها مسجِد، قال: المسجد اسم جامع حيث سجد عليه، و فيه حديث لا يسجد بعد أن يكون اتخذ لذلك، فأما المسجد من الأرض فموضع السجود نفسه، وقيل في قوله سبحانه و تعالى:

1 - سورة البقرة، الآية 114.

2 - سورة الجن، الآية 18.

﴿ وَ أَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾، أراد السجود لله، وهو جمع مسجد كقولك ضربت في الأرض.."¹

وورد ذكر المسجد في القرآن 28 مرة، بصيغة المفرد (مسجد)، و الجمع (المساجد)، و المسجد الحرام، و المسجد الأقصى، و ذلك في 17 سورة قرآنية، و الجدول التالي يوضح الصيغ الواردة في القرآن الكريم:

الصيغ.	رقم السورة في القرآن الكريم.	رقم الآية.
المسجد الحرام.	2	144، 149، 150، 191، 196، 217.
	5	2
	8	34
	9	7، 19، 28.
	17	1
	22	25
	48	25، 27.
	17	1
مساجد الله.	2	114
	9	17، 18.
المسجد	2	187
	7	29، 31.
	9	107، 108.
	12	40
	17	7
	18	21
	72	18

و جاء ذكر المساجد و فضل بنائها، و فضيلتها و أحكامها في عدة أحاديث نبوية، و تلخص مضامينها كالتالي:

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجد في الدور، و أن تطهر و تطيب، و أمرنا الرسول صلى الله عليه و سلم ببناء المساجد، أما عن التواضع في بنائها و النهي عن زخرفتها، فقد روى "أنس" رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " لا تقوم الساعة، حتى يتباهى

1 - ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص 367.

النّاس في المساجد. "، و عن " ابن عباس " رضي الله عنه قال: " قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ما أمرت بتشديد المساجد، قال " ابن عباس": لتزخرفنّها كما زخرفت اليهود و النصارى "، و عن "أبي الدرداء" رضي الله عنه قال: " قال الرسول صلى الله عليه وسلم: إذا زخرفتم مساجدكم و حلّيتهم مصاحفكم فالدمار عليكم "، و أمر "عمر بن خطاب" ببناء المسجد و قال: " أكنّ النَّاس من المطر، و إيّاك أن تحمر أو تصفر فتفتن النَّاس "، و قال "أنس": " يتباهون بها ثمّ لا يعمرونها إلاّ قليلا"¹.

كما يجب الرسول صلى الله عليه وسلم الصلاة في المسجد النبوي حيث تعدل ألف صلاة فيما سواه، و هذا راجع لقداسته، و عن "أبي ذر" قال: " قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أوّل؟ قال عليه السلام: المسجد الحرام، قلت: ثمّ أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، و أينما أدركتكَ الصلاة فصلّ فهو مسجد"

كما أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد من أجل ابتغاء وجه الله ، و يكون جزائه أن يبني له الله بيتا في الجنة، و عن فضل بنائها جاء في الحديث الذي رواه "عثمان بن عفان" رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " من بنى مسجدا لله تعالى بنى الله له بيتا في الجنة"، و عن "أنس" رضي الله عنه قال: " من بنى لله مسجدا صغيرا أو كبيرا بنى الله له بيتا في الجنة "، و عن "أبي ذر" رضي الله عنه قال: " قال الرسول صلى الله عليه وسلم: من بنى لله مسجدا قدر مفحص² قطاة³، بنى الله له بيت في الجنة"⁴.

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - البخاري، المصدر السابق، ص95.

2 - مقعد

3 - القطاة: هو العجّز، و قيل: هو ما بين الوركين، و قيل: هو مقعد الرّدف أو موضع الرّدف من الدابة خلف الفارس، و يقال: هي لكل حلق. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص317.

4 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - البخاري، المصدر السابق، ص95. كذلك: - حسين بن عودة العوايشة، الموسوعة الفقهية

الميسرة في فقه الكتاب و السنة المطهرة، ط1، دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع، عمان، الأردن، 1423 هـ / 2002م، ج2، ص254.

كما روى ابن ماجة "عن "نافع" عن "ابن عمر" عن رسول الله أنه قال: " خصال لا تنبغي في المسجد :لا يتخذ طريقا ولا يشهر فيه بسلاح ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ولا يمر فيه بلحم نبيء ولا يضرب فيه حد ، ولا يقتضى فيه من أحد ولا يتخذ سوق"¹.

كما رغب الرسول صلى الله عليه و سلم في تنظيف المساجد و تطهيرها و تجنبها الأقدار و الروائح الكريهة و تجميرها أي تبخيرها، و من الأحاديث التي تدل على ذلك ما رواه "أبي هريرة" رضي الله عنه أن امرأة سوداء كانت تُقَمِّم المسجد ففقدتها رسول الله صلى الله عليه و سلم، فسأل عنها بعد أيام، فقيل له: إنها ماتت، فقال: **فهلآ آذنتموني؟** فأتى قبرها، فصلى عليها. و عن "سمرة بن جندب" رضي الله عنه قال: " أمرنا الرسول صلى الله عليه و سلم أن نتخذ المساجد في ديارنا، و أمرنا أن ننظفها. " و عن "عائشة" رضي الله عنها قالت: " أمرنا رسول الله ببناء المساجد في الدُّور، و أن تنظف و تطيب "².

و كان المحتسب في المدينة الإسلامية يسهر على نظافة المساجد و الرحاب المحيطة به، كما يراقب سلوكيات الناس داخله، و يصف لنا "ابن عبدون" ذلك بقوله: "...لا يترك أحد يأكل فيه، و لا ينام، و لا يجهر بصوت إلا بالقرآن، و لا يدخله بسلاح، فإنه لم يأت لحرب... يجب أن يؤمر الباعة بكنس رحاب الجامع صبيحة الجمعة،... يجب أن يحمي موضع صلاة الجنائز من الباعة... يجب أن تُعدّل المواضع المتطامنة في رحاب الجامع بالحصاة لئلا يجس الماء و الطين فيها... يجب أن يؤمر الكفاف أن يتعاهد بيوته كل يوم و ينظفها و يكون راتباً لذلك و يجعل له أجرة من الأحباس... يجب للمحتسب أن لا يترك في رحاب الجامع دابة واقفة: فرما راثت، أو بالت فتنجس الناس..."³

و أما الجامع فهو صفة للمسجد لأنه علامة للاجتماع، و المسجد الجامع الذي يجتمع فيه الناس و تقام فيه الجمعة، ثم اخذوا يطلقون لفظة الجامع على كل مسجد تقام فيه الجمعة، و العصور المتأخرة يطلقونها على كل مسجد يصلي فيه، و كان الناس تارة يقتصرون على كلمة المسجد، و تارة يقولون المسجد الجامع، و تارة يضيفونها إلى الصفة فيقولون "المسجد الجامع"، ثم

1- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص15.

2- البخاري، المصدر السابق، ص95.

3- ابن عبدون، المصدر السابق، ص23.

تجوز الناس فيما بعد و اقتصروا على الصفة فقالوا " المسجد الكبير الجامع " على ما هو حال لسان الناس اليوم في مدينتي " تلمسان " و " الجزائر "، و هو الذي تصلى فيه الجمعة و لو كان صغيرا، لأنه يجمع الناس لوقت معلوم، و هكذا يتجلى لنا الجامع كصفة شمول و استيعاب لموصوف مقدر هو المسجد، فالعبارة الكاملة هي المسجد الجامع، و يسمى أيضا مسجد الجمعة التي تجمع عامة مسلمي البلد الواحد في مسجد واحد إذ ستكره تعديد الجمعة في المدينة الواحدة قدر الإمكان، و لكن كلمة الجامع تطلق على الجامع لغير هذا المعنى أيضا فهي الشمول و الاستيعاب لوظيفة الإسلام.

أما "الونشريسي" فقد قدم تعريفا شاملا يمكن اتخاذه قياسا لتعريف المسجد و ذلك من خلال جوابه عن سؤال ورد عليه نصه: " عن صلاة الجمعة هل تقام في المسجد المهدوم أم لا ؟ ". فأجاب رحمه الله: "... أما إقامة الجمعة في مسجد مهدوم فلا تصح إن كان في البلد مسجد تقام فيه الجمعة، وقد قيل لا تقام في مسجد سواه إلا أن تنقل إليه الجمعة على التأيد، وأختلف إن لم يكن في البلد مسجد سواه، و لا أمكن أن يقضى من سقفه قبل خروج وقت الجمعة ما يقع عليه اسم المسجد، فقيل إنه تقام فيه الجمعة على حاله و يحكم لموضع المسجد بحكم المسجد، و إلى هذا أشار ابن عبد البر فيما حكيت عنه، و قد قيل إنه لا تقام الجمعة فيه و هو الصحيح، لأن من شرط و جوها المسجد هذا الذي تدل عليه الروايات عن مالك، و أصحابه، و إذا أهدم سقف المسجد و صار براحا لا سقف له فليس بمسجد و أن كانت له حرمة المسجد. قال الله عز وجل: ﴿ فِيهِ بُيُوتٌ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ ﴾¹ و لا يسمى بيتا إلا ما له سقف. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: " من ابتنى مسجدا و لو قدر مفحص قطة بنى الله له بيتا مثله في الجنة. ". و على هذا فإن المساجد هي عمارة قائمة بذاتها و ليست رحبة أو فناء تقام فيه الصلاة مع علمنا أن الصلاة تقام في كل مكان يراعى فيه النظافة و الطهارة، و المسجد هو بيت الصلاة مصداقا لقول الله عز وجل ﴿ فِيهِ بُيُوتٌ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذَكَرَ ... ﴾².

و لما اتسعت خطط المدن الإسلامية، و كثر عمرانها ظهرت مساجد ارتبطت بالمؤسسات الوظيفية التي نشأت بالمدينة مثل مسجد المدرسة، وقد اختلف العلماء بالمغرب الإسلامي في الصلاة

1 - سورة النور الآية 36.

2 - الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 222.

بمسجد المدرسة، و هل يجوز بنائه داخلها إذا ما كانت بجوار مسجد؟ و يرى الشيخ "السيوري" رحمه الله: " أنّ مسجد المدرسة ليس في الحكم كغيره من المساجد المباحة لعموم الناس ولهذا قيل في الآذان فيها ما قيل، فالعلة المتكررة في المسجد الضرار ليست محققة في مسجد المدرسة"¹، و هذا ما جعل المدارس في مدينة "تلمسان" تبنى كملحقة بالمسجد و ليس العكس، و هذا ما نراه بمسجد "العباد" العلوي الذي أسسه "أبو الحسن المريني" (سنة 739 هـ / 1339م)²، و مسجد "سيدي الحلوي"³، أما مساجد التي نبجدها بالبيمارستان فهذه قد جعلت للمرض لعدم تمكنهم من الانتقال إلى المسجد الجامع بالمدينة، كما عرفت الربط بناء المساجد بداخلها، و هذا لتمكين المرابطين فيه بالصلاة على

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 245، 246.

2 - يقع في حي "العباد" في الشمال الشرقي لمدينة "تلمسان"، و بنيت المجموعة المعمارية من طرف المرينيين تكريما "للأبي مدين شعيب"، و تضم هذه المجموعة الهندسية مسجدا وضريحاً ومدرسة وحمامات. بني المسجد بأمر السلطان "المريني أبي الحسن" سنة (739 هـ / 1339م). للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز لعرج، العمارة...، ص551.

3 - أسس مسجد سيدي الحلوي خارج مدينة تلمسان القديمة إلى الناحية الشمالية البحرية في سفح الجبل والهضبة التي أسست عليها المدينة، وذلك على أرض مائلة شديدة الانحدار إلى الغرب والشمال، و ينسب هذا المسجد إلى الشيخ العالم أبي عبد الله الشوذري الذي تولى القضاء في إشبيلية ثم انتقل إلى تلمسان واستقر بها، ولقب بالحلوي لأنه كان يصنع الحلوى ويبيعها لأبناء الحي الذي عاش فيه حتى توفي عام (737هـ/1337م)، وقد أمر بتشيد هذا المسجد السلطان المريني أبو عنان فارس عام (754هـ/1353م) تكريماً لهذا العالم الأندلسي الورع. لهذا الجامع ثلاثة أبواب أحدهما شرقي والآخر غربي والثالث وهو الرئيسي في الشمال، و تقع بيت الصلاة في مقدمة المسجد وهي مربعة الشكل، متوسطة الحجم، تحتوي على 16 عمود كبير ثمانية منها في الوسط رخامية دائرية قصيرة عليها تيجان رخامية جميلة، والثمانية الباقية توجد على الأطراف خشنة ومربعة الشكل. وسقف قاعة الصلاة خشبي متموج على شكل أروقة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب، أما جدران القاعة فهي ملساء في الداخل عدا المحراب وحواشيه فهي منقوشة وخلف القاعة غرباً توجد ساحة كبيرة في مستوى القاعة يتوسطها حوض ماء للوضوء، وحولها أروقة من اليسار واليمين والغرب تمثل امتداداً لقاعة الصلاة محاطة بسواري وسقفه بالخشب. وخلف الساحة غرباً يوجد باب المسجد الرئيسي الكبير وهو يشبه باب مسجد سيدي بومدين، وقد طرزت أطرافه وحواشيه بالنقوش والأسماء والكتابات منها اسم السلطان المؤسس أبو عنان فارس. وعلى يمين هذا الباب توجد مئذنة المسجد المربعة الشكل والعالية، المزينة بالنقوش والزخارف الرخامية الملونة، ولها باب إلى داخل الرواق الجنوبي. والأروقة التي تلف بالجامع تحتوي على عقود على شكل حدوة الفرس تحملها أعمدة من الرخام عليها تيجان في منتهى الجمال، أما المحراب المفتوح في الجدار القبلي من الرواق الأوسط فإن فتحته المقوسة محمولة على عمودين من المرمر مكللين بتاجين مزخرفين. للمزيد من التفاصيل أنظر: - يحيى بوعزيز، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، 2011م، ص137.

وقتها، و تفادي الخروج من الرباط خوفا من مفاجأة العدو للمدينة، و يقع هذا كذلك على مساجد الموجودة داخل الأبراج و القلاع بمدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية.

كما نجد مساجد ارتبطت بالقصور و دار الإمارة على ما هو معهود في مدينة "تلمسان" مسجد "المشور"¹ (اللوحة رقم:7)، و مسجد "دار السلطان" بقلعة الدايا بمدينة "الجزائر".

تعددت المساجد بمدينة "تلمسان" بين الجامعة التي تؤدي فيها صلاة الجمعة، و كذلك حلقات العلم و التدريس، و يعين الحاكم الإمام الذي يختاره من بين كبار علماء المدينة، و من أهمها المسجد "الجامع الكبير المرابطي"، و مساجد الأحياء التي تقام بها الصلوات الخمس، بالإضافة إلى تعليم الصبيان بها، و قد ذكر "ابن خلدون" هذا التخصيص بقوله: "... فأعلم أن المساجد في المدينة صنفان: مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة، و أخرى دونها مختصة بقوم أو محلة و ليس للصلوات العامة. فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو وزير أو قاض فينصب لها الإمام في الصلوات الخمس و الجمعة و العيدين و الحسوفين و الاستسقاء، و تعين ذلك إنما هو من طريق الأولى و الاستحسان.... و أما المساجد المختصة بقوم أو محلة فأمرها راجع إلى الجيران، و لا تحتاج إلى نظر خليفة أو سلطان... فإن كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها أو النظر في أئمتها كما مرّ، فلا بد من استئذانه في ذلك (يقصد في ذلك الانتصاب لتدريس)، و إن كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على إذن..."².

1 - شيد المسجد حوالي قرنا بعد ذلك (من بعد بناء المشور) من طرف أبي حمو موسى الأول. كانت البناية بدون صحن، وشهدت عدة تعديلات من طرف الأتراك لتتحول خلال الفترة الاستعمارية إلى كنيسة. لم تستعد البناية وظيفتها الأولى إلا بان الاستقلال. أسس المسجد على أرضية مستوية، يلج إلى بيت الصلاة من باب واحد يقع في الجهة الشمالية و هو متواضع الشكل، و شكل بيت الصلاة مستطيل من الشرق إلى الغرب و جدرانها سميكة، أما السقف فهو قائم على ثماني دعائم مربعة الشكل طويلة و غليظة مثل الجدران، أما المئذنة ذات تصميم مربع الزوايا ويتوجها منور طولها 22،25 م، و زينت واجهاتها الأربع بزخارف مصنوعة من الآجر والزليج. غطي الجزء السفلي بلوح مستطيل تحيط به مربعات من زليج ذو بريق معدني ويتوسطه عقد ذو فصوص متشابكة وأركانه مزينة بالزليج، وهي المئذنة الوحيدة التي يزيناها زليج لامع بتلمسان. أما الواجهة الجنوبية للمئذنة، فتتوفر على قوس ذو حافة مهذبة مكونة من ستة رؤوس يعلوه لوح ثان به أقواس مفصصة وتحيط به مربعات من الزليج اللامع، كما أن الجزء العلوي للمئذنة مزين على كل الواجهات بإطار مستطيل يؤثته قوسان متراكبان يتشكلان من خمسة عقود كبيرة متشابكة. وفوق الصومعة شرافات مسننة في حين زين الجوسق بعقد متجاوز مسدود. للمزيد من التفاصيل أنظر: - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 117.

2 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج2، ص603، 604.

الفصل الرابع:..... أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة الدينية.

وقد ذكر عدد من المؤرخين و الآثاريين المساجد القائمة بمدينة "تلمسان"، و تناولوها بالبحث، خاصة تلك التي شيدها الزيانيون، و التي كان لها دورا كبيرا في ازدهار الحياة العلمية، فقد كانت كثيرة إذ قدرت بحوالي ستين مسجدا منها الجامعة و مساجد الأحياء، و الجدول التالي يوضح أهم هذه المساجد و تاريخ بنائها¹:

إسم المسجد	موقعه	تاريخ بنائه
المسجد الجامع المرابطي.	وسط مدينة تلمسان.	473هـ / 1080م.
مسجد قلعة المشور.	وسط مدينة تلمسان شرق المسجد الجامع المرابطي.	الفترة الزيانية.
مسجد العباد.	أعلى مدينة تلمسان نحو الجنوب في حي العباد.	739 هـ / 1339م.
مسجد سيدي إبراهيم.	وسط تلمسان شرق مسجد سيدي أبي الحسن.	الفترة الزيانية.
مسجد سيدي الحلوي.	أسفل مدينة تلمسان العتيقة من الناحية الشمالية.	754هـ / 1353م.
مسجد أبي الحسن التنسي.	وسط مدينة تلمسان (اللوحة رقم:6).	696هـ / 1297م
مسجد الشرفاء.	الحي العتيق لمدينة تلمسان (القيسارية).	الفترة الزيانية.
مسجد سيدي السنوسي.	الحي العتيق لمدينة تلمسان درب سيدي السنوسي.	القرن 9هـ / 15م.
مسجد باب زيري.	أمام باب زيري أسفل المدينة من الناحية الشمالية.	الفترة الزيانية.
مسجد الحسن الراشدي.	أمام باب زيري أسفل المدينة من الناحية الشمالية.	الفترة الزيانية.
مسجد سيدي اليدون.	الحي العتيق لمدينة تلمسان (القيسارية).	القرن 12هـ/18م.
مسجد لالاروية (الرؤيا).	الحي العتيق لمدينة تلمسان (القيسارية).	لا يعرف تاريخ تأسيسه.
مسجد سيدي البناء.	الحي العتيق لمدينة تلمسان (القيسارية).	لا يعرف تاريخ تأسيسه.
مسجد أولاد الإمام.	حي باب الحديد من أبواب مدينة تلمسان.	القرن 8هـ/14م.
مسجد سيدي زكري.	حي باب الحديد من أبواب مدينة تلمسان.	القرن 9هـ / 15م.
مسجد إبراهيم الغريب.	حي باب الحديد من أبواب مدينة تلمسان.	الفترة العثمانية.
مسجد أبي عبد الله الشريف.	حي باب الحديد من أبواب مدينة تلمسان.	القرن 9هـ / 15م.
مسجد الجامع بندرومة.	بمدينة ندرومة شمال مدينة تلمسان.	530هـ / 1136م.
مسجد عبد الله بن منصور.	بعين الحوت شمال مدينة تلمسان.	القرن 9هـ / 15م.

أما المندثرة منها فقد حاولت أن أحصر بعضها من خلال كتاب المناقب المرزوقية منها: "مسجد مرسى الطلبة"، و مسجد "باب الجياد" و يقع عن يسار الداخل من هذا الباب، و مسجد "حارة الرماة"، و يعرف كذلك بمسجد "ابن جحاف" و مسجد "ابن خرزوزة الخطيب"، و مسجد بأعلى العباد عند سفح الجبل يعرف "بمسجد العزالة"، و مسجد "تفرغنبو"، بموضع معروف

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص111.

"بتلمسان"، صار الآن بعض دور القصر، و المسجد الآن محمول عليه بعض القصر المعروف "صبأبي قير"، و مسجد "صالح بالعباد"، و "جامع الجدار"، و مسجد "إيلان" في ربض المدينة، و مسجد "القيسارية"¹.

أما بمدينة "الجزائر" فمنذ تمصيرها عرفت حركة عمرانية كبيرة في بناء المساجد و زادت حدتها في الفترة العثمانية، و حسب المصادر التاريخية فإن عدد المساجد في مدينة "الجزائر" بلغت عشرة مساجد جامعة، و ما يفوق عن خمسين مسجدا في الفترة العثمانية يغلب الضن أنها كانت للأحياء²، و الجدول التالي يوضح عدد المساجد القائمة بمدينة "الجزائر":

اسم المسجد	موقعه	تاريخ بنائه
مسجد سيدي رمضان	أعلى القصبة القديمة من الناحية الجنوبية الغربية.	القرن الرابع للهجرة للفترة الزيرية.
مسجد الجامع الكبير المرابطي.	في وسط شارع البحرية.(اللوحة رقم:39)	تقريبا سنة 475هـ القرن 11م
مسجد جامع جديد.	على يمين المسجد المرابطي.(اللوحة رقم:31)	1070هـ / 1660م.
مسجد صفر بن عبد الله.	عند التقاء الشارعي الإخوة بإشارة و روان عبد الحميد	940هـ / 1534م.
مسجد علي بتشين.	القصبة السفلى.	1032هـ / 1622م.
مسجد جامع القصبة الخارجي.	قرب الباب الجديد (الباب الجنوبي لمدينة الجزائر).	1064هـ / 1654م.
مسجد جامع القصبة الداخلي.	داخل قلعة الداوي (دار السلطان). (اللوحة رقم: 15)	1234هـ / 1818م.

و عند الاحتلال الفرنسي لمدينة "الجزائر" قاموا بتهدم معظم تلك المساجد والجوامع وتحويل بعضها لكنائس وأغراض غير غرضها الأصلي، وقام الحاكم الفرنسي "دوييسي" بتحويل جميع أموال الأوقاف التي تشمل كل المؤسسات العمومية إلى خزينة الدولة تتولى الإدارة الحاكمة تسييرها، كما حولت المساجد التي هي على أبواب المدينة التي كانت مقصدا للوافدين على المدينة إلى مستشفيات لفائدة الجيش الفرنسي في عهد الجنرال "كلوزيل"، ثم هدمت و لم يسلم إلا المسجد "البراني" على باب الجديد الجنوبي، حيث حول إلى كنيسة.

1- ابن مرزوق، المناقب....، ص 153، 190.

2 - للمزيد من التفاصيل حول عدد المساجد في مدينة الجزائر عند نهاية الفترة العثمانية بما أنظر:

-Peyssonnel et Des Fontaines, **Voyages dans les regences de Tunis et d'Alger**, Tome (1)

Librairie de Gide, Editeur des annales des voyages, Paris, 1838, p.453.

- Albert Devoulx, **Les édifices religieux de l'ancien Alger**, Extrait de la revue africaine, 1870.

إن "فرنسا" و من ورائها العالم النصراني منذ احتلالها "للجزائر" عملت على تنصير المجتمع، من خلال تهدم كل ما هو جميل مرتبط بالشعائر الدينية خاصة المساجد، و اختاروا في ذلك أجملها، و من أهمها جامع "السيدة" (اللوحة رقم:31)، الذي كان سلاطين مدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية يؤدون فيه الصلوات الجامعة، و يصفه "حمدان خوجة" بقوله: "...الذي كان يشمل على أعمدة من الرخام النادر و على أبواب ضخمة قيل أنها بيعت و نقلت إلى مدينة "تولوز"، و قد كانت حيطان ذلك المسجد مغطاة بمربعات الخزف الصيني التي استوردت من "إسبانيا"، و كانت في المسجد عارضات كبرى من الخشب الكرسة النادر الذي يستورد بإذن من سلطان مدينة فاس الذي لا يوافق على تصديرها إلا بصعوبة"¹، و مسجد "كتشاوة"، هذا الأخير شيّدوا بدله كنيسة أرادوا بها مضاهاة جمالية مساجد مدينة "الجزائر".²

و قد أشارت عدة مصادر تاريخية إلى المساجد التي هدمت بسبب عملية شق الطرق، أو بناء مؤسسات عمومية، و يبدووا واضحا أن عددها حسب ما ذكرته هذه المصادر كان يتناسب مع عدد أحياء المدينة التي كان عددها يفوق الخمسين حي، و هذا ما يجعلنا نعتقد أن هذه المساجد تنسب إلى الأحياء على غرار جميع المدن الإسلامية، و من بينها جامع "القشاش" يقع في حومة (الحي) القشاش، و حومة "جامع المعلق"، و حومة "جامع البلاط" و جامع "الترك" و في الجدول التالي أسماء بعض المساجد التي كانت بمدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية³:

1 - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 248.

2- يروي لنا حمدان بن عثمان خوجة القصة الحقيقية التي تصف كيف هدم هذا الجنرال اللعين مساجد مدينة الجزائر بقوله: " يقول "تاسيت" في حديثه عنهم: إن اليهود، بسبب تعصبهم، يحملون حقدًا شديدًا للأمم الأخرى. و كان المرؤوسون كذلك محاطون بأناس من نفس الجنس يسبونهم حسب أهوائهم. و عندما اطلع هؤلاء اليهود على نقطة الضعف عند الجنرال، أي طمعه في الثروة، جعلوه يلعب أكبر دور مثير للسخرية، فأوهموه بأن المسجد المسمى: جامع "السيدة" يحتوي على كنوز الداي، و لذلك صار هذا الجنرال يزور في خشوع ذلك المكان التعبدي و يقصده مرارا للصلاة فيه و للدعاء ثم قرر بكل حساسة أنه يستولي عليه و على الزراري و الثريات و المشاعل و على منبر رخامي كان هناك. و هكذا أمر الجنرال "كلوزيل" بغلق أبواب المسجد و أدخل إليه ليلا جماعة من العمال للبحث عن الكنز المزعوم، وظل الأمر كذلك إلى أن استنفذت جميع وسائل البحث و ضاع كل أمل، و لتغطية هذه الفضيحة شرع حينًا في تهدم ذلك المسجد الذي كان يشتمل على أعمدة من الرخام النادر و على أبواب ضخمة قيل أنها بيعت يقال أن تلك الأشياء نقلت إلى تولوز...". نفسه، ص 247، 248.

3 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 379. كذلك: - مصطفى بن حموش، فقه...، ص 36.

إسم المسجد.	موقعه.
مسجد سيدي عبد العزيز.	شارع الجمل بالقصبة.
مسجد سيدي عبد الرحيم.	شارع Dame-fre-ville
مسجد عبدي باشا.	شارع Macaron
مسجد أحمد و شيلبي.	شارع حوانيت زيان.
مسجد عين شاه حسين.	شارع باب الجديد.
مسجد عين العطش.	شارع سيدي عبد الله.
مسجد سيدي بلعباس.	شارع Philippe
مسجد علي الملياني.	شارع D'Orleans
مسجد سيدي علي الزواوي.	خارج باب الواد.
مسجد علي خوجه.	شارع Bissan
مسجد علي باشا.	شارع ميدي.
مسجد باب الجديد.	شارع الانتصار.
مسجد باب السوق.	قرب قصر مصطفى باشا.
مسجد الباديستان.	ساحة السلطة
مسجد البكوش.	شارع بوتان.
مسجد سيدي باتقا.	شارع Jean Bart
مسجد جنان البلاط.	شارع النمرور.
مسجد بوطابه.	قرب سباط الحوت.
مسجد بوشاقور.	شارع قيادة الأركان.
مسجد قايد علي.	شارع السودان.
مسجد شعبان خوجه.	شارع القصبة.
مسجد دار القاضي.	شارع باب الوادي.

مسجد الشاوش.	ساحة السلطة.
مسجد سيدي فليح	شارع الحصان.
مسجد الحمامات.	شارع باب الجديد.
مسجد سيدي بوقدور	شارع Caton.

1 - 2 - التخطيط و البناء:

اهتم المسلمون ببناء المساجد، حكاما و كبار رجال الدولة و الصالحين، و عامة الناس من عباد رب العالمين، و لا غرابة في ذلك، فالمسجد هو بيت الله الذي حث الله تعالى على إقامته و تردد عليه دون انقطاع، لأداء الشعائر الدينية حيث يقول الله تعالى ﴿ فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَنْ تَرْفَعُوا وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدْوَةِ وَالْآحَالِ ﴾¹، و يقول "ابن كثير" في تفسيره لهذه الآية: " لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن و ما فيه من الهدى و العلم بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقدة من زيت طيب و ذلك كالقنديل، ذكر محلها و هي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض و هي البيوت التي يعبد فيها و يوحد فقال الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَنْ تَرْفَعُوا... ﴾ أي أمر الله تعالى برفعها أي: بتطهيرها من الدنس و اللغو و الأقوال و الأفعال التي لا تليق فيها... و قال "قتادة": هي هذه المساجد أمر الله سبحانه و تعالى ببنائها و رفعها و أمر بعمارتها و تطهيرها...²، كما وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد و احترامها و توقيرها و تطيبها و تبخيرها ذكر منها "ابن كثير" و جمعها و علق عليها و ضبطها حيث قال: " عن أمير المؤمنين "عثمان بن عفان" رضي الله عنه قال: " سمعت الرسول صلى الله عليه و سلم يقول: من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة...³ " وروى "ابن ماجه" عن "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه قال: قال رسول الله: من بنى مسجدا يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتا في الجنة. و "للنسائي" عن "عمرو بن عبسة" مثله، و الأحاديث في هذا كثيرة جدا، و عن "عائشة" رضي الله عنها قالت: أمر الرسول صلى الله عليه و سلم ببناء المساجد في الدور و أن تنظف

1 - سورة النور الآية 36.

2 - إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (700-774م)، تفسير القرآن الكريم، اعتنى بها و خرج أحدثها: محمود بن الجميل، ط2، دار الإمام مالك للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 1430هـ/2009م، ج4، ص 427.

3- البخاري، المصدر السابق، ص97.

و تطيب. و قال "عمر بن خطاب": ابن للناس ما يكنهم، و إياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس. و روى "أبو داود" عن "ابن عباس" رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أمرت بتشديد المساجد. قال "ابن عباس" لتزخرفنها كما زخرفت اليهود و النصارى. و عن "أنس" رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه و سلم: لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد.

كما نهى الرسول صلى الله عليه و سلم عن إنشاد الضالة، و البين و الشراء في المساجد، حيث يروي لنا "بريدة": " أن رجلا أنشد في المسجد فقال من دعا إلى الجمل الأحمر فقال النبي صلى الله عليه و سلم: لا و جدت إنما بنيت المساجد لما بنيت له". و عن "عمرو بن شعيب" عن أبيه عن جده قال: " نهى الرسول صلى الله عليه و سلم عن البيع و الابتاع و عن تناشد الأشعار في المساجد".¹

لا شك أن الكعبة الشريفة² كانت أقرب نموذجاً معمارياً للرسول صلى الله عليه و سلم لتخطيط مسجده بالمدينة المنورة، و التي كانت وظيفتها التي بنيت من أجلها هي العبادة، و هذا ما تدل عليه الآية الكريمة ﴿وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ...﴾³، ثم يقول الله سبحانه و تعالى: ﴿...وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُطَهَّرًا...﴾⁴ أي للصلاة، و لم تكن لوضع الأصنام، و كانت دراية الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر كبير، و لم يكن من نسج الخيال طبعاً، بل هو وحي من عند الله.

لقد كان تخطيط الكعبة مربعاً، حيث السقف يرتكز على سواري منظمة في صفيين كل منها مؤلف من ثلاثة سواري، و الارتفاع الإجمالي 18 ذراع. لكن الغريب في ذلك ما ذكره "كريزول" في نفس الكتاب، حيث يقول: "...من أين يمكن أن يأتي هذا الطراز الملفت للنظر في البناء، و هو

1 - ابن كثير، تفسير القرآن، ج3، ص 427.

2 - الكعبة: بيت مرتّب، و جمعه كعاب. والكعبة: بيت الله الحرام، ومنه، لتكعيبها أي ترتّبها.

و قالوا: كعبة البيت فأضيف، لأنهم ذهبوا بكعبته إلى ترتّب أعلاه، و سمي كعبة لارتفاعه و ترتّبه. وكل بيت مربع، فهو عند العرب: كعبة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص 497.

3 - سورة البقرة الآية 127.

4 - سورة البقرة الآية 125.

الطبقات المتتالية من الحجر، و الخشب ؟ بالتأكيد ليس من "الجزيرة العربية" حيث يندر الخشب، لا بد أنه تطور في بلاد يكثر فيها الخشب و في هذه البلاد بالذات على وجه الدقة الحبشة يمكن العثور على أمثلة كبيرة لهذا الفن الغريب في البناء مثل كنيسة "أسمرأ".¹

وفي حقيقة الأمر قد ابتعد عن الصواب كل من يعتقد ذلك لكون الكعبة بنيت من طرف "إبراهيم" و ابنه إسماعيل، علما أن البيت كان موجودا قبل ذلك، حيث بناه سيدنا "أدم"، و لكنه تدمر أثناء الطوفان في زمان سيدنا "نوح"² عليه السلام لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ...﴾³، إذ أن الأساس كان موجودا قبل ذلك، ويمكن أن نقول أن "إبراهيم" الذي ترك ابنه "إسماعيل" عليهما السلام و أمه "هاجر" عليها السلام بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، و استوطنت هذا المكان قبيلة عربية يمنية، و هي قبيلة "جرهم" دخلوا إلى أسفل "مكة" من طريق "كداء"⁴ بحثا عن الماء، كان موطنهم الأول "حضر موت"⁵ خرجوا منها لما أصبهم القحط، و لا جرم أن هذه القبيلة كانت على دراية بفن العمران⁶، حيث نعلم أن في "اليمن" نشأت

1 - كريزول، المرجع السابق، ص 15.

2 - ابن كثير، تفسير القرآن، ج1، ص 275. كذلك: - أحمد الأزرقى، كتاب أخبار مكة شرفها الله و ما جاء فيها من الآثار، ج1، دون تاريخ الطبع، ص 6 .

3 - سورة البقرة الآية 127.

4 - ابن كثير، البداية....، ج1، ص212.

5 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج2، ص390.

6 - العرب كانت لديهم حضارات معروفة يشهد لهم بذلك فن العمارة باليمن، و يتجلى ذلك في أشهر مدغم " مأرب " و هي ذات أسوار و أبراج، ولها أربعة أبواب و ميدان كبير في الوسط، وفيها قصور فخمة كالبحر و القشيب و قصر غمدان، و قصر ناعط، ناهيك عن سدّ مأرب العظيم الذي ظل صامدا قرونا طويلة. و إضافة لذلك نشاهد المدن النبطية كمداين صالح، و البتراء المنحوتة في الصخر، و نرى فنون العمارة عند الغساسنة العرب متحلّية في مدينة بصرى، أما المناذرة فقد بنوا الحيرة قرب الفرات و فق طرازهم اليمني كالحورنق و السديري، و كذلك تشهد الآثار الباقية في تدمر على حضارة عريقة تدل على أن العرب كانوا من المبرزين في فنون العمارة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - سعاد ماهر، مساجد القاهرة و أو لياتها الصالحين، ج1، مطبعة الأهرام التجارية، مصر، 1971 م، ص 15. كذلك: - كمال الدين سامح، العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م، ص 5.

حضارات قديمة منها حضارة "سبأ" و "عدن"، و عرفت كذلك "اليمن"¹ نظام الطبقات في البناء وبالتالي استمد "إبراهيم" عليه السلام و قريش من بعده هذا النظام من عرب "اليمن"، وبحكم أن "الحبشة" كان لها التواصل الحضاري مع "اليمن"، لذلك كان التأثير على العمارة الحبشية واضحاً من طرف العمارة اليمنية.

ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بدأت معالم الدولة الإسلامية تتجسد و يتضح مظهرها، و أصبح الرسول صلى الله عليه وسلم يجمع بالإضافة للرسالة التي كلفه بها الله سبحانه و تعالى رئاسة الدولة الإسلامية، واتخذ من المسجد النبوي² مقراً لهذه الدولة كان المسجد في عهده صلى الله عليه وسلم مربع الشكل يحتوي على ظللة من ثلاثة صفوف في شمال المسجد، ولما حول الله القبلة إلى الكعبة ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ... ﴾³ أقيمت ظللة ثانية في المسجد من جهة القبلة، وبقيت الظللة الأولى مكاناً لأهل الصفة⁴ وكان بين الظللتين رحبة واسعة سميت فيما بعد بصحن المسجد، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد ألحق بيتين لزوجتيه "عائشة" و "سودة" رضي الله عنهما على نفس بناء المسجد، من لبن و جريد النخل، ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم نسائه بنى لهن حجراً و هي تسع بيوت، و بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم زاد الخلفاء في المسجد النبوي، ويروي لنا الإمام "البخاري" أهم الزيادات التي أضيفت حيث يقول: " حدّثنا "عليّ بن عبد الله" قال: حدّثنا "يعقوب بن إبراهيم بن سعد" قال: حدّثني أبي، "عن صالح بن كيسان" قال: حدّثنا "نافع": أنّ "عبد

1 - لقد ذكر ابن كثير قصة بناء الكعبة من طرف قريش، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ خمسا و ثلاثين سنة، و للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن كثير، تفسير القرآن.....، ج1، ص215.

2 - توزعت المساجد على خطط المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، و بلغ عددها تسعة في خطط المهاجرين، و كان المصلون يسمعون آذان بلال في مسجد رسول الله، و يدل ذلك على أن هذه المساجد كانت قريبة منه و في ذلك إشارة واضحة إلى اشتغال خطط المدينة التي بمثابة الأحياء السكنية على مساجد تلي حاجيات المصلين في هذه الخطط للصلوات الخمس فقط. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص50.

3 - سورة البقرة الآية 144.

4 - أهل الصفة هم المساكين و الفقراء و الغرباء ممن لا مأوى لهم و لا أهل، كانوا ينزلون بمهذه الظللة حتى يراهم الأغنياء و الموسرون، فيجدون عليهم دون أن يعرضوهم للسؤال. للمزيد من التفاصيل: - أحمد رجب محمد علي، المسجد النبوي بالمدينة المنورة ورسومه في الفن الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، ص21.

الله بن عمر " رضي الله عنهما أخبره: أنّ المسجد كان عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مبنياً باللبن، وسقفه من الجريد، وعمده خشب النَّخل فلم يزد فيه "أبو بكر" شيئاً، و زاد فيه "عمر بن الخطاب" وزاد فيه "عثمان بن عفان" رضي الله عنهم جميعاً زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة و القصة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه بالسَّاج." ¹

و من الجدير بالذكر هنا أن جميع المساجد قد مرت بأدوار ثلاثة من حيث الهيئة المعمارية هي: البناء الأول الذي يكون من القصب و جذوع و سعف النخيل و أحيطت بسور أو خندق يمنع ولوج الناس إليها دون طهارة و لمنع دخول الحيوانات كالذي صنعه الرسول صلى الله عليه و سلم في بداية الدعوة الإسلامية و قلده المسلمون عندما خططوا المساجد المبكرة مثل مسجد "الكوفة" إذ لم تكن له جدران، ثم حل محله القصب و اللبن، و استعمل بعد ذلك الآجر أو الحجر بدل اللبن، و هذه المراحل تكون طبيعية لدى كل مجتمع حيث أن التطور سنة و خاصة بالنسبة للمساجد التي تعبر عن المظهر السياسي فهي الكيان النابض للفكر العمراني الإسلامي، و من ثم فهو كذلك الواجهة التي يتوضح منها التطور الذي مرت به العمارة الدينية الإسلامية من خلال الفتوحات الإسلامية الواسع، و قد عمد المعماريون إلى الإبقاء على مظاهر البساطة في المساجد بشكل يتناسب و الانتصارات التي حققتها الدولة الإسلامية، إلا أنه في آخر المراحل من تاريخ المساجد حصل تطورا كبيرا في ميدان عمارتها بفعل تأثيرات كثيرة كان منها منافسة معابد أهل الذمة و التطور الطبيعي للفن الإسلامي بفعل الشعوب المنطوية تحت راية الحضارة الإسلامية، ذات الحضارات و الفنون التشكيلية المتقدمة، و أصبحت تكون عناصر هامة في الدولة الإسلامية، فظهرت القباب و المآذن، و الأعمدة الحجرية، و الرخامية، و الدعامات بجميع أنواعها، و أشكالها، و الأبواب التذكارية، و السقوف و الجدران المنقوشة، و علفت الثريات، و أضيئت بالأنوار الساطعة، كما اعتنى الفنان المعماري المسلم بالمظهر الخارجي للمساجد خاصة المآذن التي أصبحت تحتوي على منظومة زخرفية بديعة قوامها العناصر الهندسية و الكتابية و النباتية.

و تبدووا هذه التطورات التقنية و الفنية في عمارة المساجد في مدينتي "تلمسان"، و "الجزائر" واضحة المعالم، حيث منذ تأسيس المسجد الجامع "بأغادير" و فن العمارة الدينية بمدينة "تلمسان" يصطبغ الطابع الإسلامي، و يتأثر بالعمارة الإسلامية بالشرق الإسلامي، و يبدووا ذلك من خلال

1 - البخاري، المصدر السابق، ص96.

البلاطات الموازية لجدار القبلة، و المحراب المستدير الشكل، و هي مميزات المسجد الأموي "بدمشق" و الذي أثر في العديد من المساجد في البلاد الإسلامية من حيث التخطيط (المخطط رقم: 1، 2، 3)، ثم تأتي فترة التأثيرات الأندلسية، و تتجلى في المسجد الجامع المرابطي¹ بمدينة "تلمسان" (المخطط رقم: 4)، و "الجزائر" (المخطط رقم: 8)، و هذا من حيث التخطيط، أو بروز بعض العناصر المعمارية خاصة العقد المفصص، و القباب المزخرفة بالمقرنصات إلى غير ذلك من التأثيرات التي برزت في الفترة المرابطية، ثم الموحدية، ثم يستقيم الأمر للفن المغربي الأندلسي في الفترة الزيانية، و هذا ما أصطلح

1 - الجامع الكبير "لتلمسان" هو واحد من ثلاثة مساجد بناها المرابطون في الجزائر وهما مسجد الجزائر ومسجد ندرومة، أنشأه يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين سنة (473هـ / 1080م)، أما مؤلّفه فقد أنشأها يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية سنة 1236م طولها 29.15 م، يعتمد سقف المسجد الجامع على بلاطات عمودية على جدار القبلة، و صحن مستطيل الشكل، محاط بأروقة على الجانبين الصغيرين. إنّ المخطّط الأصلي عبارة عن مستطيل، مقطوع بمساحة مثلثة في جزئه الشمالي الغربي. يقارب طول المجموع 55 متراً وعرضه أقلّ من هذا القياس بقليل، وتصميمه غير منتظم على مستوى الحائط الشمالي الغربي بسبب طبوغرافية الموقع. بالجهة الشمالية في مكان مائل نسبياً عن محور المحراب ترتفع الصومعة وهي ذات شكل مربع ويعلوها الجوسق. يفتح الصحن على قاعة الصلاة، وهو ذو تصميم مربع الزوايا ومنحرف وتحيط به بوائك من ثلاث جهات تشكل بعضها امتداداً لبلاطات قاعة الصلاة الثلاثة عشر عمودية على جدار القبلة والتي تنقسم إلى ستة أساكيب، و غُطيت كلّ بلاطة بسقف من القرميد مكون من سطحين مزدوجين. تستند عوارض الهيكل الخشبي على وصلات حاملة نُحِتت عليها زخرفة نباتية؛ وغطيت قبة البلاطة الوسطى بسقوف من القرميد رباعية السطوح، كما تميز هندسة الجامع الكبير بتلمسان باستعمال العقود على شكل حدوة فرس متجاوزة ومنكسرة وأخرى متعددة الفصوص مزخرفة خاصة جوار المحراب، زين الفضاء المحاور للمحراب ببلاط أوسط واسع تعلوه قبتان جميلتا الصنع مستوحاة من قباب جوامع قرطبة بالأندلس والقيروان بتونس والأزهر بالقاهرة، و زُين "المحراب" بطريقة فنية جميلة حيث يستند عقد فتحة المشكاة الكامل الاستدارة والمتجاوز على نصفين عمودين صغيرين من الرخام. وتفتح خلف القنطرة صحنات تحمل زخرفة على شكل غصنّيات يحيط بها عقد ذو إكليبّيات. وتقوم في مقدّمة "المحراب" قبة رائعة، مخزّمة بتعاريق متشابكة تنشر شيفاً من ضوء النهار، و تعد الأهم والأبرز فهي قبة ذات عروق تتشكل من 16 ضلعاً ترتكز على افريز مربع بواسطة أربع عقود زوايا ذات مقرنصات. فالعروق المصنوعة بصقوف الآجور تبدو على السطح على شكل زوايا بارزة والألواح التي تربطها منقوشة بالجبس. وهي مخزّمة وتمنح الضوء لداخل القاعة. ويعلو هذه الزخارف منور ذو مقرنصات، وهي عناصر زخرفية ذات أصل فارسي، جلبت من الشرق وأدخلت إلى بلاد المغرب من طرف المرابطين أو نقلت بواسطة بنو حماد أو الأندلسيين الذين كانت تربطهم علاقات مثينة بالخلافة الفاطمية. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز لعرج و آخرون، مساهمة الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية، الكرامة للطباعة و نشر و الاتصال، الجزائر، 2007م، ص72.

على تسميته بالطراز المغربي أو المحلي، و يبرز هذا الطراز خاصة في المآذن الزيانية في مدينة "تلمسان"، و مئذنة المسجد الجامع المرابطي بمدينة "الجزائر". (اللوحة رقم: 4، 5).
و في الفترة العثمانية حافظت مساجد مدينة "الجزائر" على الطراز المحلي (اللوحة رقم: 18)، و هو الموروث العمراني الذي اكتسبته منذ الفترة الزيرية، و تأثرت بالطراز الوافد العثماني، الذين اكتسب بدوره موروثا عمرانيا من الفن السلجوقي، و طوره ليكون عثمانيا خالصا¹، و قوامه يختلف عن الطراز المحلي في نظام تخطيطية المساجد، حيث اعتمد العثمانيون في ذلك على القبة المركزية، و أنصاف قباب تعمل أساسا على تقليص عدد حوامل السقف من أعمدة و عقود بشكل كبير على عكس الطراز المحلي الذي تكثر فيه حوامل السقف ذو النظام الجمالوني عادة (اللوحة رقم: 10، 12، 47)، و بالتالي كثرة الأعمدة تؤدي إلى قطع صفوف المصلين، و من المساجد التي شيّدت على الطراز العثماني نجد مسجد "الجديد"، و مسجد "علي بتشين" (اللوحة رقم: 51)، كما يمكننا أن نلاحظ التزاوج بين الطرازين و المثال الأقرب للوضوح هو مسجد "سيدي عبد الرحمن" (اللوحة رقم: 19)، كما ظهر في الطراز العثماني المآذن المضلعة، و القلمية الشكل، و هذا ما نجده في مسجد "الجواني" داخل قلعة السلطان بأعلى المدينة.

و عليه فإن المساجد "بالجزائر" في العهد العثماني تتوزع على طرازين اثنين هما:

الطراز الأول: هو الطراز التقليدي المحلي الذي يقوم بيت الصلاة فيه على الأعمدة والدعامات ومغطى بأسقف مسطحة أو جمالوني (اللوحة رقم: 9)، وقد يلحق بالمسجد صحن أو يخلو منه، ومعظم مساجد هذا الطراز متوسط أو صغير الحجم، غير منتظم في تخطيطه، أو أقل انتظاما، و يغطي في معظم المدن الجزائرية، و لكنه بني في غالب الأحيان في الأحياء السكنية، و فلذلك فمساجد هذا الطراز مساجد غير رسمية مخصص للصلوات الخمس، و من الناحية الفنية و الزخرفية خلت هذه المساجد من الزخارف، أو قلت فيها باستثناء بعضها. (المخطط رقم: 5، 6، 7).

الطراز الثاني: الطراز الوافد: تعددت أنماطه المعمارية وتنوعت أشكاله التخطيطية و الطراز متأثر بطراز عمارة المساجد العثمانية بتركيا أو المشرق الإسلامي، و أستعمل عموما كمساجد جامعة

1 - حول التطور المعماري العثماني و أصوله أنظر: - عبد العزيز لعرج، "مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر" المؤتمر الخامس لجمعية الأثارين العرب في أثار الوطن العربي، الندوة العلمية الرابعة، القاهرة، 2002م، ص 525.

لصلاة الجمعة و الجماعة فضلا عن الصلوات الخمسة، و كان بينه الحكام و الأمراء و ذوي النفوذ و الثراء في البلاد.

و من حيث التخطيط يقوم هذا النوع من المساجد على بيت الصلاة ذي فراغ أوسط كبير يغطي بقبة مركزية و أروقة جانبية تغطي بقباب ضحلة، فهو يشبه طراز المساجد العثمانية في "تركيا" منذ القرن (10هـ / 16م) وبدوره ينقسم إلى ثلاثة أنماط:

- مساجد قاعة الصلاة فيها مربعة مغطاة بقبة مركزية قاعدتها مثمثة ورواق يحيط بها من جميع جهاتها مقسم إلى فراغات مربعة غطي كل منها بقبببية صغيرة. (اللوحة رقم: 16).
- مساجد بيوت الصلاة فيها مربعة تغطيها قبة مركزية تقوم على عقود ركنية.
- مساجد قاعة الصلاة فيها نمط تخطيطها على هيئة صليب أحد أضلاعه أكثر امتدادا من المربع الكبير بقبة مركزية تحيط بها قبيبات صغيرة بينما غطيت أضلاع الصليب الصغرى بأقببية أسطوانية والضلع الكبير بمجموعة من الأقباء الأسطوانية المتشابهة. ¹ (اللوحة رقم 48).

و مما أفردناه نقول أن تخطيط المسجد النبوي هو النموذج المتبع في تخطيط المساجد في البلاد الإسلامية عبر جميع الفترات التاريخية التي مرت بها، خاصة من حيث العناصر الوظيفية التي ارتبطت بها المسجد النبوي، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم و الخلفاء من بعده وأصبح المقياس الذي يعتمد عليه الفقهاء و المحدثين المسلمين الذين أشاروا للمسجد النبوي في اجتهادهم وقياسهم على النوازل التي طرأت على المجتمع الإسلامي.

أ - اختيار المكان:

ارتبط وجود المساجد بتمصر المدن، و ظهور التجمعات السكنية، و اختلف اسم مكان عبادة المسلمين بهذين الأمرين، فالمسجد الجامع هو المكان الذي يؤدي فيه الجماعة صلاة الجمعة، و يقع في وسط المدينة باعتباره النواة الأساسية في تخطيطها وتخطط حوله الخطط والشوارع والسكك والأزقة، واتخذ بوسطية المدينة كمركزية لها ليكون قريبا من كل أطراف المدينة حتى يسهل على المصلين التوجه إليه سواء من أهل المدينة أو من المناطق المجاورة لها، و مع نمو المدينة وتزايد سكانها أصبحت الحاجة ملحة لتوسعة المسجد الجامع ليتسع لأعداد المصلين المتنامية، فأصبحت ظاهرة

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز لعرج، مظاهر...، ص531. كذلك: - خيرة بن بلة، المرجع السابق، ص143.

توسيع المساجد ظاهرة عامة في تاريخ الكثير من المساجد الجامعة في المدينة الإسلامية كمسجد النبوي "بالمدينة"¹ و مسجد "البصرة" و "الكوفة" و "بغداد" و "القيروان" و "فاس". أما المسجد فهو المكان الذي يؤدي فيه الجماعة الصلاة (الصلوات الخمس اليومية)²، و جاء هذا التخصيص في حياة الرسول صلى الله عليه و سلم و سار على منهاجه الخلفاء من بعده، و منهم "عمر بن خطاب" رضي الله عنه عندما فتحت في عهده المدن و الأمصار، حيث كتب إلى عماله يأمرهم ألا يتددوا في القرى و أن ينزلوا المدائن و أن يتخذوا في كل مدينة مسجدا للجماعة، و يتخذوا للقبائل مساجد، فكتب إلى "أبي موسى الأشعري" "بالبصرة"، و إلى "عمرو بن العاص" "بالفسطاط"³، و إلى "سعد بن أبي وقاص" بالكوفة، و إلى "الأجناد" "بالشام"، يأمرهم بذلك، و كان الناس بهذا المنهاج متمسكين طوال القرن الأول و منتصف القرن الثاني للهجرة، و مع اتساع رقعة التعمير في المدينة الإسلامية أدى إلى الاتساع الكبير الممتد في أرياض عديدة اتخذت هيئة المدينة الأم و أنشئت فيها المساجد الجامعة، و مع امتداد التوسع المعماري للمدينة و كثافة سكانها مع مرور الزمن باتت الحاجة ملحة لإقامة عدة مساجد جامعة.

1 - و يذكر لنا الإمام البخاري حديثا يروي فيه مكان بناء الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد الجامع بالمدينة و ما تخلله من عملية نبش قبور المشركين التي كانت موجودة في أرضه حيث قال رحمه الله: "... عن أنس رضي الله عنه قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، فنزل أعلى المدينة في حيّ يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى بني النّجّار، فجاؤوا متقلّدي السيوف، كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته و أبو بكر ردفه، و ملأ بني النّجّار حوله، حتّى ألقى بفناء أبي أيّوب، وكان يحبّ أن يصلي حيث أدركته الصلّاة... وأتته أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ من بني النّجّار، فقال: "يا بني النّجّار ثامنوني بحائطكم هذا". قالوا: لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، فقال: أنس: فكان فيه ما أقول لكم، قبور المشركين، و فيه حرب، و فيه نخل، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة و السلام بقبور المشركين فنبشت، ثمّ بالحرب فسوّيت، و بالنّخل فقطع، فصقّوا النّخل قبلة المسجد، و جعلوا عضادته الحجارة و جعلوا ينقلون الصخر....". أنظر: - البخاري، المصدر السابق، ص 91. و كذلك: - ابن كثير، البداية.....، ج2، ص 224.

2 - محي الدين النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تحقيق خليل مأمون شيخنا، ط5 ج6، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1419 هـ / 1998 م، ص 427.

3 - الفسطاط أسسها عمرو بن عاص سنة (21هـ/642م)، و عرفت تطورا كبيرا عي العهد الراشدي و في الفترة الأموية. للمزيد من التفاصيل أنظر: - خالد عزب، الفسطاط....، ص 5.

ولما اختطت مدينة "بغداد" جعل فيها جامعان للجمعة أحدهما في مدينة "المنصور" في الجانب الغربي، و الثاني "بالرصافة" في الجانب الشرقي، و لكن مع كبر البلاد الإسلامية و هجرة الناس و البدو خاصة إلى المدن الكبيرة، و توسع و كبر الفحوص، و القرى المحيطة بالمدن أصبح من اللازم تعدد المساجد الجامعة بالمدينة الواحدة، و كان أول من سمح بتعدد الجمعة بالبلد الواحد هو الخليفة العباسي "المعتضد" بالله المتوفى سنة (289 هـ / 901 م) "ببغداد"، و سبب ذلك أن الخليفة أخبر بضيق المسجد الجامع بالجانب الغربي للمدينة، و الناس من أثر الضيق أصبحوا يصلون في مواضع لا يجوز فيها الصلاة فأمر بالزيادة فيه من قصر أمير المؤمنين "المنصور" (136-158هـ/ 753-775م)، فبني المسجد على مثال المسجد الأول و في مقداره و نحوه، و كان الفراغ منه سنة (288 هـ / 900 م).

و لما كانت خلافة "المكتفي بالله" (289-295 هـ / 902-908 م) أمر بهدم المطامير التي كان "المعتضد" (279-289 هـ / 892-902 م) بناها، و أمر بأن يجعل موضعها مسجد جامع في داره يصلي فيه الناس، و على هذا أصبح "ببغداد" ثلاثة مساجد إلى وقت خلافة "المتقي بالله العباسي"، و في القرن الرابع الهجري أصبح في كل مدينة عدة جوامع لإقامة الجمعة، فكانت في "بغداد" ستة جوامع، و في "البصرة" ثلاثة جوامع، و في "القاهرة" ستة جوامع، أما بمدينة "دمشق" فإن تعدد المساجد الجامعة حدث في زمان لاحق حيث بقي المسجد الأموي "بدمشق" هو المسجد الجامع الوحيد داخل أسوار المدينة إلى غاية الفترة العثمانية، أما خارج الأسوار فكانت هناك مساجد جامعة، باعتبار كل جهة مستقلة على الأخرى¹، و في الحقيقة فإن بناء المساجد الجامعة بفحوص المدن و القرى المحيطة بها كان قبل الفترة العباسية، و يروى لنا الإمام "البخاري" حديثاً في ذلك فيقول: "حدثنا محمد بن المثنى" قال: حدثنا "أبو عامر العقدي" قال: حدثنا "إبراهيم بن طهمان"، عن "أبي حمزة الضبيعي"، عن "ابن العباس" أنه قال: إن أول جمعة جمعت بعد الجمعة في المسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد "عبد القيس" "بجواثي" من "البحرين"².

أما بالمغرب الأوسط فإن الأمر سار على شاكلة مدينة "دمشق"، حيث لم نرى تعدد المسجد الجامع بالمدينة الواحدة إلا في الفترة المرابطية، وبالضبط في مدينة "تلمسان" و مدينة "الجزائر"

1 - طه الولي، المرجع السابق، ص 146. كذلك: - محمد السعيد الطريحي، المرجع السابق، ص 80.

2 - البخاري، المصدر السابق، ص 159.

لتوسع خططها و هجرة الجماعات البشرية إليها، حيث أسس بهما الأمير المرابطي "يوسف بن تاشفين" جامعان حيث أصبحت مدينة "تلمسان" بها المسجد الجامع "بأغادير"، و المسجد الجامع المرابطي "بتكرارت"، و مدينة "الجزائر" المسجد الجامع "سيدي رمضان"، و المسجد الجامع المرابطي أسفل المدينة، أما ببقية مدن المغرب الأوسط، و كذلك مدن المغرب الإسلامي عامة فإنها حافظت على هذا المنهاج سواء بالمدن أو القرى و الحصون.

و كثيرا ما كانت النوازل تصل إلى علماء المغرب الإسلامي حول تعدد المساجد بالمدينة الواحدة، منها ما سئل "أبو الضياء مصباح" عن مجشرين¹ أحدهما أقدم من الآخر و بينهما من المدى نحو ميل، و كانت الجمعة قديما بالمحشر القديم، و كان أهل المحشر الحديث يصلونها به لأنهم كانوا ينتقلون من مكان إلى مكان لكونهم أصحاب بيوت شعر، ثم إنهم بنوا المسجد بمحشرهم المحدث و صاروا يصلون به الجمعة لاستيفاء الشروط بها و إخلالها بالثاني، لانهدام أول بلاط منه و ركود ماء المطر في بيت الصلاة منه، وما بقي من بنائه غير مأمون. و إن غاب إمامه يصلون أفذاذا و ذلك في سائر الأيام، وأنهم أقل عدد ممن تقام به الجمعة، و إن حضر معه غيرهم لم يحملهم المسجد، ولزعم أهل السنن من سكان المحشر القديم أنه مبني من مال رجل مستغرق الذمة، ولكونه خارجا أعني المسجد من بين البيوت بإزاء المقابر والمسجد المحدث بين البيوت، و له منذ بني العام ونصف، فهل تقام الجمعة² في المسجد القديم أو المحدث؟ ، فأجاب: " إذا كان الأمر على ما ذكرتموه و تعذرت إقامة الجمعة في المسجد الأقدم للأعدار التي ذكرتم، و جب على أهل المسجد الأحدث إقامتها فيه، ووجب على أهل المسجد الأقدم الإتيان إلى الجمعة في المسجد الأحدث."³

1 - المحشر كالمحشر في لسان أهل بادية المغرب، يعني القرية. أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص 158.

2 - قال الإمام الشوكاني رحمه الله في الرد على من يقول في عددها (ثلاثة مع مقيمها): هذا الاشتراط لهذا العدد لا دليل عليه قط، وهكذا اشتراط ما فوّه من الأعداد. و أما الاستدلال بأن الجمعة أقيمت في وقت كذا و عدد من حضرها كذا، فهذا استدلال باطل لا يتمسك به من يعرف كيفية الاستدلال، و لو كان هذا صحيحا لكان اجتماع المسلمين معه صلى الله عليه وسلم في سائر الصلوات دليلا على اشتراط العدد. و الحاصل أن صلاة الجمعة قد صحّت بواحد مع الإمام، وصلاة الجمعة هي صلاة من الصلوات، فمن اشترط فيها زيادة على ما تعتقد به الجماعة فعليه بدليل، و لا دليل. للمزيد من التفاصيل أنظر: - العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص 374.

3 - الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 228، 229.

و اتفقت آراء علماء المغرب الإسلامي حول تعدد المساجد الجامعة بالمدينة الواحدة كان أشهرهم¹:

- "الأبي": " و الواجب اتخاذ مسجد واحد، فان كفى للجماعة و الجمعة فذاك، و إن لم يكن فالظاهر أن اتخاذ مسجد ثان مندوب إليه، لأن فرض إقامة السنة سقط بالأول، و هو في ذلك كالأذان فرض على أهل البلد سنة في مساجد الجماعات".

- "اللخمي": " يجب في كل قرية بناء مسجد لإقامة الجماعة، و يندب له في محلة بعيدة عن جامع بلدها".

- "سحنون": " لا بأس بإحداث مسجد ثان بقرية لكثرة أهلها و عمارتهم إياها، و إن خف أهلها و خيف تعطيل الأول منعوا لأنه ضرر".

- "ابن رشد": " إن كان الثاني يفرق الجماعة الأول، فإن ثبت قصد بانيه الضرر هدم و ترك مزبلة، و إن لم يثبت ترك خاليا ما لم يحتج إليه لكثرة الناس و انهدام الأول".

و مما يراعى في بناء المساجد بالمدن و الأمصار تمركزها في وسط المدينة، و هذا حتى يتمكن المصلين من التنقل إلى المسجد في وقت قصير، هذا ما جعل خطط المدن ترتبط بهذه الوضعية، حيث يؤكد "محمد عبد الستار" ذلك بقوله: " وسارت مدن الأمصار الناشئة على هذا المنهاج في اختيار موضع متوسط في المدينة لإقامة المسجد الجامع، و من أمثلة على ذلك "البصرة" و "الكوفة" و "الفسطاط" و "القيروان"، و أصبح هذا الاتجاه قاعدة تقليدية في المدن الإسلامية بعد ذلك كما في "واسط" و "بغداد" و "فاس" و غيرها...².

و من علماء الإسلام الذين أشاروا إلى موقع المسجد الجامع في الأمصار نجد ابن أبي الربيع، حيث يذكر أن من مهام السلطان هو بنائه لجامع يتوسط المدينة: " أن يبنى فيها جامعا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها.³

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 141.

2 - عبد الحميد عبد الستار، المرجع السابق، ص 23.

3 - ابن أبي الربيع، المصدر السابق، ص 107.

و يحث التشريع الإسلامي على اختيار الموضع الأنسب لبناء المساجد¹، مثلما يراعى في ذلك مكان الصلاة، حيث نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصلى في سبع مواطن: " في المزبلة، و المجزرة المقبرة، و قارعة الطريق، و الحمام، و مواضع الإبل، و فوق الكعبة " ² منها المقبرة. أما بناء المساجد على المقابر³ فيشترط أن تكون قديمة و ينبش قبورها، وهذا ما كان بالمسجد النبوي على عهد الرسول صلى الله عليه و سلم عند التأسيس، حيث كان مكان بناء المسجد عبارة عن مرقد فيه النخيل و قبور المشركين و خرب، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل، ونبش قبور المشركين ورمي عظامها⁴، وفي فتاوي الإمام "النووي" رحمه الله سئل عن مقبرة مسبلة للمسلمين بني فيه و جعل فيها محرابا هل يجوز له ذلك و هل يجب هدمه؟. فأجاب: " بأنه لا يجوز له ذلك و يجب هدمه⁵، و قال "ابن حجر" في "الزواجر" الكبيرة الثالث و الرابعة و الخامسة و السادسة و السابعة و الثامنة و التسعون: " اتخاذ القبور مساجد و إيقاد السرج عليها، و اتخاذها أوثانا و الطواف بها، و استلامها، و الصلاة إليها، ثم ساق الأحاديث في ذلك".⁶

- 1 - قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء من قبلي: نصرت بالرعب، مسيرة شهر، و جعلت لي الأرض مسجدا و طهورا، فأينما رجل أدركته الصلاة فليصل، و أحلت لي الغنائم، و كان التبييعت إلى قومه خاصة و بعث إلى الناس كافة و أعطيت لي الشفاعة " و في هذا الحديث نص صريح في أن كل بقاع الأرض صالحة لإقامة الصلاة. أنظر: - البخاري، المصدر السابق، ص 95. كذلك: - جمعه محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ و المرجان، فيما اتفق عليه الشيخان، راجعه عبد الستار أبو غدة، ط1، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الكويت، 1397 هـ / 1977 م، ص 104.
- 2 - للمزيد من التفاصيل حول هذا الحديث أنظر: - ابن ماجه، سنن ابن ماجه، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، ج1، القاهرة، 1373 هـ / 1954 م، ص 246.
- 3 - وروت عائشة أم المؤمنين حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء متنه: " لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصا له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال . وهو كذلك . : " لعن الله اليهود و النصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر (مثل) ما صنعوا "، و هذا الحديث له سند عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه و جاء متنه على نحو ما روته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد ناصر الدين الألباني، أحكام الجنائز و بدعها، ط1، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، 1412 هـ / 1992 م، ص 275.
- 4- أحمد رجب، المرجع السابق، ص 19.
- 5 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 329.
- 6- نفسه، ج7، ص 102.

و سئل "ابن لبابة" عن حجارة المقابر العافية هل يبني بها القناطر، و المساجد، أو غير ذلك فأجاب: لا يحل ذلك، و لا يجوز أن يكشف عنها¹، و سئل كذلك رحمه الله عن البناء على المقابر مثل أن يبني عليها مسجد أو صومعة، فأجاب: " أما مسألة البناء على المقابر بناء مسجد أو صومعة، فقد قال مالك في المقبرة دائرة بني فيها مسجد يصلى فيه: لا بأس به، و إنما أباحوه في الدائرة دون الجديدة، لأنه يخاف في الجديدة نبش العظام...."².

بالإضافة إلى اجتناب بناء المساجد على القبور أو الدفن فيها³، فإنه كان يتحرى كذلك عدم اغتصاب الأرض أو جزء منها لبنائه، و لقد ذكرت المصادر التاريخية أن المسجد المرابطي "بتلمسان" حدث فيه اغتصاب، مما جعل العديد من العلماء و الفقهاء يتجنبون الصلاة في الجزء المغصوب، و من بين المصادر التاريخية التي ذكرت ذلك نجد كتاب المناقب "لإبن مرزوق" حيث يقول في ذلك: ".... و إذا صلى بالجامع الأعظم صلى في الجانب الغربي، في الزاوية العليا، و فيها كان يصلي والدي، رحمه الله، و جدي لأمي، العالم "أبو إسحاق التنسي"، و أهل الورع و التحري فإنهم يذكرون أن ذلك الجانب الشرقي من الجانب فيه اغتصاب، و أن العلماء كانوا ينحرفون عنه، و فيه أدركت أهل الخير يصلون، أعني في الجانب الغربي"⁴.

و في ذلك يقول الإمام "الغزالي": " المواضع التي بناها الظلمة كالقناطر و الرباطات و المساجد و السقايات ينبغي أن يحتاط فيها و ينظر : أما القنطرة فيجوز العبور عليها للحاجة ، و الورع الاحتراز ما أمكن ، و إن وجدت عنه معدلا تأكد الورع . وإنما جوزنا العبور و إن وجد معدلا لأنه إذا لم يعرف لتلك الأعيان مالكا كان حكمه أن يرصد للخيرات و هذا خير ، فأما إذا عرف أن الآجر و الحجر قد نقلوا من دار معلومة أو مقبرة أو مسجد معين فهذا لا يحل العبور عليها أصلا إلا

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 204.

2- نفسه، ج7، ص 103.

3- قال ابن القيم في " زاد المعاد ": "إن الوقف لا يصح على غير بر، و لا قرية كما لا يصح وقف هذا المسجد (مسجد ضرار) و على هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد، نص على ذلك الإمام أحمد، و غيره فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد و قبر، بل أيها طرا على الآخر منع منه وكان الحكم للسابق، فلو وضع معا فلا يجوز، ولا يصح هذا الوقف و لا تصح الصلاة في هذا المسجد لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن ذلك و لعنه من اتخذ القبر مسجدا أو أوقد عليه سراجا.

نقلا عن: - محمد ناصر الدين الألباني، المرجع السابق، ص 142.

4 - ابن مرزوق، المناقب....، ص155.

بضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير ، ثم يجب عليه الاستحلال من المالك الذي يعرفه و أما المسجد فإن بني في أرض مغصوبة أو بخشب مغصوب من مسجد آخر أو من ملك معين فلا يجوز دخوله أصلا و لا للجمعة، وإن كان مال لا يعرف مالكة فالورع العدول إلى المسجد آخر إن و جد فإن لم يجد غيره فلا يترك الجمعة و الجماعة به لأنه يحتمل أن يكون من ملك الذي بناه و لو على بعد ، و إن لم يكن له مالك معين فهو لصالح المسلمين ..."¹.

كما ينهى من بناء مصانع أو ورشات من شأنها أن تضر بالمسجد، سواء كان ذلك بسبب الضجيج الذي تحدثه مما يشوش على المصلين ورواد المساجد، أو الفضلات التي تصرفها هذه الورشات، و قد سئل "ابن زيتون" رحمه الله عن مسجد قديم خرب ما حوله من الدور فجعلت دورا لدبغ ثم بعد زمان قام محتسب و قطع تلك، و نقلت إلى خارج البلد، ثم أراد الآن بعض أهل تلك الدور عودها دور الدبغ فمنعهم أهل المسجد وقالوا تدركننا الأنتان و القاذورات و يلحق المسجد بعض ذلك مع قدمه ؟ فأجاب: " ليس عليهم إعادة الدور للدبغ إذا كان ريح الدبغ و ننته مؤذيا لأهل المسجد..."².

و مما يمكن ملاحظته في مساجد مدينة "تلمسان" أنها وضعت وفق الشروط التي وضعها العلماء في بناء المساجد الجامعة أو المساجد التي نسبت إلى العلماء الصالحين، و إذا ذكرنا مسجد "العباد" يتراءى للبعض أن هناك من العلماء مقبورين فيه، فهذا غير مؤكد حيث جل النصوص التاريخية لم تشر إلى ذلك، و من خلال كتاب "ابن مرزوق" الموسوم "بالمناقب المرزوقية" في ترجمته لعدد من العلماء و المشايخ، أنه ثم قبرهم بالرابطة، و هو مكان على يمين المسجد، و منهم من قبر خلف مدرسة "العباد"، و أذن أنهم من العلماء، و طلبة العلم³، أما ضريح العالم الصالح "أبو مدين شعيب" فهو في أسفل المسجد⁴ يفصلهما الطريق.

1 - محمد الدين القاسمي، المصدر السابق، ص36.

2- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 20.

3 - لمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن مرزوق، المناقب ...، ص 139.

4 - يقع مسجد العباد: في ريبض (حي) العباد في الشمال الشرقي لمدينة تلمسان، و بنيت المجموعة المعمارية من طرف المرزوقين تكريما لأبي مدين بن شعيب وهو ولي صالح أصله من اشبيلية ودفن بعين المكان خلال القرن 12 م. وقد ساهم في نشر وإشعاع التصوف ببلاد المغرب. تضم هذه المجموعة الهندسية مسجدا وضريحا ومدرسة وحمامات. بني المسجد بأمر السلطان المريني أبي الحسن سنة (739 هـ / 1339م) و يعد المسجد من أهم منجزات الفن المغربي الأندلسي بتلمسان مساحته 537،70م. يتشكل المدخل

أما مساجد مدينة "الجزائر" التي بنيت عبر الفترات التاريخية التي مرت بها أنها أسست على أرض عذراء خالية من القبور لعامة الناس، أو أقبر فيها أحد من الصالحين، و يمكن ملاحظة ذلك بمسجد "سيدي عبد الرحمن"، حيث قبر العالم الولي الصالح "عبد الرحمن الثعالبي" خارج المسجد، فضريحه من الجهة الجنوبية الشرقية للمسجد.

ب - العناصر الوظيفية:

- المداخل:

تمثل المداخل عنصر أساسي في كل مسجد، و توزيعها داخله ترتبط بحائط القبلة، و حدود المسجد الجامع، حيث تفتح الأبواب عادة على الشوارع الرئيسية، و على هذا النسق كانت أبواب المسجد النبوي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، و الخلفاء من بعده رضي الله عنهم، و من ثم فإن فتح الأبواب على حائط القبلة استحدثت في فترة لاحقة، و جعلت لأمرء الخلفاء حتى لا يختلطون بعامة الناس، و يبدو أنها كانت متزامنة مع ظهور المقصورة، و أصبحت فيما بعد عادة جارية المفعول، و هذا ما نلاحظه في المساجد الجامعة بعواصم البلدان، و أقرب مثال لدينا هو المسجد الجامع المرابطي "بتلمسان" ، و كذلك المسجد الجامع الكبير "بالجزائر".

الرئيسي للمعلم من باب كبير يؤدي إلى بهو مزين بألواح جبسية منقوشة بإتقان وتعلوه قبة ذات مقرنصات. يتم الوصول إليه بواسطة درج كسيت الأبواب الخشبية بالبرونز، وهي تؤدي إلى داخل صحن مستطيل تتوسطه نافورة ماء وتحيط بجنباته أروقة تشكل في الجهتين الغربية والشرقية امتدادا لبلاطات قاعة الصلاة و التي يغطيها سقف مائل ذو تجويفات وزخارف هندسية من النجوم والأشكال المتقاطعة والوردية. تتكون هذه القاعة من خمس بلاطات موازية لجدار القبلة تنقسم إلى ثلاث أساكيب وتتكئ على بلاط متعامد مع القبلة، وترتكز العقود على دعائم مزين جزؤها العلوي بتوريق عربي، و المحراب عبارة عن غرفة صغيرة تغطيها قبة ذات مقرنصات، والعقد الذي يمكن من الولوج إليها ذو شكل بيضوي جد متجاوز، وهو يرتكز على أعمدة ذات تيجان مركبة تحتل تأثيرات الفترة القديمة وهي مزينة بإفريز يحمل كتابات و بكتف العقد المنمق بغصنات يندرج داخل إطار مستطيل تعلوه ثلاث شماسيات جبسية دقيقة الصنع، و بالزاوية الشمالية الشرقية للباب تلتصق المئذنة المبنية من الآجر والمكسوة بالزليج، أما بدنها المربع الزوايا طوله 50،27 م، والمتوج بشرفات مسننة والذي يعلوه الجوسق، وهو مزين بلوحات مستطيلة تضم في الأسفل عقودا متعددة الفصوص وفي الأعلى تنتشر شبكة من المعينات الناجمة عن تداخل عقود منحنية. وهي متوجة بإفريز من الزخارف الوردية المصنوعة من الزليج. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز لعرج، العمارة المرينية....، ص480.

و يرتبط توزع أبواب المساجد بالفقه العمراني الإسلامي، و من بين الباحثين الذين أشاروا إلى هذه القضية نجد الأستاذ "محمد الكحلوي"¹ و اعتمد على الحديث النبوي التالي: "حدثنا عبد الله بن يوسف" قال: أخبرنا "مالك" عن أبي النضر" مولى "عمر بن عبيد الله" عن "بسر بن سعيد" أن "يزيد بن خالد" أرسله إلى "أبي جهميم" يسأله ماذا سمع من رسول الله صلى الله عليه و سلم في المارّ بين يدي المصلي فقال "أبو جهميم": قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيرا له من أن يمر بين يديه... ، قال: "أبو النضر" لا أدري أقال أربعين يوما أو شهرا أو سنة."².

إن الحديث الذي اعتمد عليه الأستاذ "محمد الكحلوي" ينطبق على صلاة الفرد منفردا و لا ينطبق على صلاة الجماعة³، و ما يؤكد ذلك ما ذكره "عبد الله بن العباس"⁴ رضي الله عنه حيث قال: "أقبلت راكبا على حمار أتان، و أنا يومئذٍ فد ناهزت الاحتلام، و رسول الله صلى الله

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر:- محمد الكحلوي، أثر العقيدة الإسلامية على عمارة المساجد ، "مجلة المنهل"، العدد 519، العدد الخاص بالعمارة و المدينة الإسلامية عطاء و مدلول، دار المنهل للصحافة، و النشر المحدودة، جدة، جمادى الأولى و الثانية 1415 هـ / أكتوبر . نوفمبر 1994 م، ص 139.

2- البخاري، المصدر السابق، ص 106، 107.

3- و ما يؤكد أن الحديث الذي اعتمد عليه الأستاذ محمد الكحلوي ينطبق على صلاة الفرد منفردا هو الذي ذكره البخاري في صحيحه حيث قال: ".....حدثنا أبو صالح السّمان قال رأيت أبا سعيد الخدريّ في يوم الجمعة يصلّي إلى شيء يستره من الناس فأراد شابّ من بني أبي معيط أن يجتاز بين يديه فدفعه أبو سعيد في صدره فنظر الشابّ فلم يجد مساعا إلا بين يديه فعاد ليجتاز فدفعه أبو سعيد أشدّ من الأولى فنال من أبي سعيد، ثمّ دخل على مروان فشكا إليه ما لقي من أبي سعيد، ودخل أبو سعيد خلفه على مروان، فقال ما لك ولا بن أخيك يا أبا سعيد قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه و سلم يقول: إذا صلّى أحدكم إلى شيء يستره من الناس فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفعه، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان"، و قد أفردا لنا العوايشة في موسوعته أحاديث كثيرة تحرم المرور بين يدي المصلي، ووجب على المصلي دفع المار و مقاتلته و منع بهيمة الأنعام و نحوها. للمزيد من التفاصيل أنظر:- البخاري، المصدر السابق، ص 106. كذلك:- العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص 277.

4 - هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، حبر هذه الأمة، و مفسّر كتاب الله و ترجمانه، و كان يقال له: الخبر و البحر، روى عن رسول الله الشيء الكثير، و عن جماعة من الصحابة، و أخذ عنه خلق من الصحابة، و أمم من التابعين، و له مفردات ليست لغيره من الصحابة، لإتساع علمه، و كثرة فهمه، و كمال عقله، و سعة فضله، و نبل أصله رضي الله عنه. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن كثير، البداية...، ج5، ص289.

عليه و سلم يصلي بالناس بمئى إلى غير جدار، فمررت بين يدي بعض الصّف، فنزلت و أرسلت الأتان ترتع و دخلت في الصّف، فلم ينكر ذلك على أحد. " ذلك لأن سترة الإمام سترة من خلفه، و إذا بحثنا و عززنا حجتنا في ذلك لكان اعتمادنا على الحديث التالي: قال "أبي الزهريّة": " كنا مع "عبد الله بن بسر" صاحب النبي صلى الله عليه وسلم فذكر أن رجل جاء يتخطى و النبي يخطب فقال له الرسول صلى الله عليه و سلم: **أجلس فقد آذيت**"¹، و بالتالي لا يمكن فتح أبواب على حائط القبلة لعلنا أن المصلين يتسابقون على الصّف الأول، فإذا تصورنا بابا فتح على حائط القبلة فكم من صّف يجتازه المصلي حتى يبلغ آخر صّف خاصة يوم الجمعة، لذلك قل ما نجد أبواب تفتح على حائط القبلة، فأفضل مكان هو الجدار المقابل لحائط القبلة، أما الأبواب الجانبية فهي عادة تفتح في صلاة الجمعة للعدد الهائل للمصلين، و تستعمل للخروج عادة لكون دخول المصلين إلى المسجد يكون إما فرادى أو في مجموعات صغيرة على عكس خروجهم منه، و لهذا يقول "محمد الكحلأوي"² أن أفضل مكان لتواجد أبواب المسجد الجامع هو الجدار المقابل لحائط القبلة.

إن مساجد مدينتي "تلمسان" و "الجزائر"، صغيرة المساحة إذا ما قرنت بالمساجد الكبيرة بالمشرق و المغرب الإسلامي، لذلك لا نلاحظ كثرة المداخل لهذه المساجد، و نستثني في ذلك المسجد المرابطي بمدينة "تلمسان"، حيث فتحت بمت تسعة مداخل: أربعة أمامية شرقية، و ثلاثة يسارية شمالية و واحد خلفي غربي، و آخر يميني جنوبي، و هذه المداخل بعضها أساسي مفتوح بالاستمرار كتلك الموجودة على جدار المحراب و الباب الخلفي بالجدار الغربي، و بعضها ثانوي لا يفتح إلا أيام الجمعة و الأعياد، و على هذا النمط سار المسجد المرابطي بمدينة "الجزائر"، رغم أننا لا يمكن تأصيل المداخل الموجودة على جدار القبلة لتغير و تجديد الذي كان يطله خاصة في الفترة العثمانية بسبب ضربات المدفعية، و المسجد "الجديد" الذي جعل له باب رئيسي بالواجهة الشمالية و على يساره و يمينه بابين، و آخر رئيسي كذلك بالواجهة الغربية (اللوحة رقم: 49، 50)، و يلاحظ أن حائط القبلة لم يفتح به أبواب لكونه مرتفع عن السطح بجوالي 2م. أما بقيت المساجد فلها باب

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري: شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد الله بن الباز، ج1، ط3، مكتبة دار السلام، السعودية، 1421 هـ / 2000 م، ص 755. كذلك: - العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص 104.

2 - محمد الكحلأوي، المرجع السابق، ص139.

أو باين لم تفتح بجدار القبلة، مثل مسجد "العباد"، و مسجد "سيدي الحلوي"، و مسجد "باب زيري"، و غيرها من مساجد مدينة "تلمسان"، و الأمر المعهود كذلك بمساجد مدينة "الجزائر" منها: مسجد "البراني"، و مسجد "صفر بن عبد الله"، و مسجد "علي بتشين".

إن مداخل مساجد مدينتي "تلمسان" و "الجزائر" بسيطة جدا إذا ما قرنت بمساجد المشرق الإسلامي عامة، و مساجد المغرب الإسلامي خاصة، و من الناحية الجمالية كذلك، و خرج باب مسجد "العباد" عن هذا الإسقاط (بني في الفترة المرينية عند دخول "أبو الحسن المريني" إلى مدينة "تلمسان")، و تبدوا أن تأثيرات أبواب مسجد "القرويين" بمدينة "فاس" واضحة على الباب الرئيسي لمسجد "العباد" (مسجد سيدي أبي مدين شعيب).

- المحراب:

هو صدر البيت، وأكرم موضع فيه، و الجمع محارِب، وأصطلح على المكان الذي يحدد اتجاه المسلمون إلى القبلة حين يجتمعون للصلاة بلفظة محراب، و هو كوة في الحائط تعلوها نصف قبة، فالمحراب دائما يكون متجها للقبلة، و هو محل الإمام من المسجد و تكبيره و ركوعه و سجوده ليأتم به المصلون.

و لفظه المحراب مأخوذة من شبه الجزيرة العربية، ووردت في الشعر الجاهلي حيث يقول

"وضّاح اليمن":

رَبُّهُ مَحْرَابٍ، إِذَا جِئْتَهَا

لم ألقها، أو أرتقي سلّما .

و أنشد الأزهري قول "امرئ القيس":

كغزلان رمل في محارِبِ أقوال.¹

كما ورد ذكر مصطلح المحراب في القرآن في آيات كثيرة فسرّها و شرحها كثير من علماء التفسير منهم "ابن كثير" في كتابه "تفسير القرآن الكريم" و هي:

- يقول الله عزوجل في كتابه المنير: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ... ﴾²، و يقول ابن كثير في تفسيره: " إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه،

1 - ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص336.

2 - سورة ص، الآية 21، 22.

و هو أشرف مكان في داره، و كان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين، قد تسوّرا عليه المحراب، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما¹.

- و يقول الله عزوجل كذلك: ﴿...كَلِمًا حَذَلَّ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ...﴾² ، و المحراب هنا مكان أو محل عبادة مريم عليها السلام لله رب العالمين.

- و قوله سبحانه و تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ...﴾³ ، أي خاطبته الملائكة شفاهما خطابا، أسمعته و هو قائم يصلي في محراب عبادته و محل خلوته و مجلس مناجاته و صلاته.⁴

- و قوله سبحانه و تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾⁵ ، حبس لسان النبي "زكريا" و انقطع عن الناس لا يكلمهم و شغل نفسه بعبادة الله في محرابه ثلاث ليالي و أيامهن ثم خرج عليهم من المحراب.⁶

- و قوله سبحانه و تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ...﴾⁷ ، المحارِب: فهي البناء الحسن، و هو أشرف شيء في المسكن و صدره، و قال "مجاهد": المحارِب بنيان دون القصور. و قال "الضحاك": "... هي المساجد". و قال "قتادة": "... هي القصور و المساجد". و قال "ابن زيد": "... هي المساكن".⁸

و المحراب عند العامة: الذي يقيمه الناس اليوم مقام الإمام في المسجد، و قال "الزجاج" في قول الله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضِرِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾⁹ ، قال: "المحراب أرفع بيت في الدار، و أرفع مكان في المسجد. قال: و المحراب هاهنا كالغرفة، و أنشد بيت "وضّاح اليمن"، و في حديث:

1 - ابن كثير، تفسير القرآن...، ج4، ص47.

2 - سورة آل عمران، الآية، 37.

3 - سورة آل عمران، الآية، 39.

4 - ابن كثير، تفسير القرآن...، ج1، ص562.

5 - سورة مريم الآية 11.

6 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن كثير، تفسير القرآن...، ج3، ص165.

7 - سورة سبأ، الآية 13.

8 - ابن كثير، تفسير القرآن...، ج3، ص761.

أن النبي صلى الله عليه و سلم، بعث "عروة بن مسعود"، رضي الله عنه، إلى قومه بالطائف، فاتاهم و دخل محرابا له، فأشرف عليهم عند الفجر، ثم أذن للصلاة. قال: هذا يدل على أنه غرفة يرقى إليها".¹

و المحارب هي صدور المجالس، ومنه سمي محراب المسجد، و منه محارب غمدان "باليمن". و محراب قبة. و محراب المسجد أيضا صدره وأشرف موضع فيه. و محارب بني إسرائيل: مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها، و يجتمعون فيها للصلاة. وفي حديث أنس، رضي الله عنه، أنه كان يكره المحارب، أي لم يكن يحب أن يجلس في صدر المجلس، و يترفع على الناس، و قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾، و قوله سبحانه و تعالى: ﴿ فَذَاعَتْهُ مَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾، قال المفسرون يقصد هنا المسجد، و مكان العبادة و محل الخلوة و مجلس المناجاة² و الصلاة، و محراب أكرم مجالس الملوك، و قال "أبو عبيدة": المحراب سيّد المجالس و مقدّمها و أشرفها.

و قال "الأصمعي": "العرب تسمي القصر محرابا، لشرفه. و قال: دخلت محرابا من محارب "حيمر"³، فنفتح في وجهي ريح المسك، و المحراب الموضع الذي ينفرد فيه الملك، فيتباعد من الناس، قال الأزهري: وسمي محراب محرابا لإنفراد الإمام فيه، و بعده عن الناس، و قيل سمي المحراب محرابا لأن الإمام إذا قام فيه، لم يأمن أن يلحن، أو يخطئ، فهو خائف مكانا كأنه مأوى الأسد، و من ثم يقال المحراب مأوى الأسد، يقال: دخل فلان على الأسد في محرابه، و غيله و عرينه"، و قال "ابن الأعرابي": "المحراب مجلس الناس و مجتمعهم. و يقال محراب المصلي مأخوذ من المحاربة لأن المصلي يحارب الشيطان و يحارب نفسه بإحضار قلبه"⁴.

و القبلة هي صدر المسجد، و هي جداره المتجه نحو الكعبة، فإذا صلى الناس تجاهها كانت وجوههم ناظرة إلى بيت الله في البلد الحرام. و كانت قبلة مسجد الرسول صلى الله عليه و سلم

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر:- ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص336، 337.

و كذلك: - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 73.

2 - ابن كثير، تفسير القرآن....، ج1، ص 562.

3 - قبيلة العربية يمنية، و تعرف لهجتهم العربية السامية باللحجة الحميرية.

4 - محمد السعيد الطريحي، المرجع السابق، ص، 60.

الأولى ناحية بيت المقدس، ثم حولها سبحانه و تعالى تجاه الكعبة فتحولت في مسجد الرسول من الشمال إلى الجنوب. وقد صلى المسلمون في صدر يوم صرف القبلة إلى بيت المقدس، ثم نزلت آيات صرفها فصلى الناس نحو مكة في آخره (15 رجب سنة 2 هـ / 624م)، ويبالغ من يقول أن الرسول صلى الله عليه و سلم و الصحابة عليهم الرضوان صلوا إلى القبلتين في نفس الصلاة، حيث صلوا ركعتين، ثم نزلت الآية فصلوا الركعتين الآخرين إلى القبلة الأخرى. وهذا التحليل ليس له معنى، فإن الوحي ما كان ليقطع الصلاة على رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يؤم الناس ليلبغهم صرف القبلة، وكذلك كيف يتحول المصلين من الشمال إلى الجنوب في صلاتهم دورة كاملة، ومن ثم يصبح الإمام خلف المصلين. و تشير معظم كتب السيرة أن الرسول صلى الله عليه و سلم صلى الظهر إلى بيت المقدس، أما صلاة العصر فصلها إلى الكعبة و هذا هو الأصل و القول الصحيح.¹

و تذكر المصادر التاريخية أن أول من اتخذ المحراب هو "عمر بن عبد العزيز" رحمه الله، حيث لم يكن في المسجد النبوي محرابا في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم²، و يمكن القول أن المحراب كان متخذا قبل هذا التاريخ إلا أنه طور أيام "عمر بن عبد العزيز" رحمه الله، و ذكر "ابن بطوطة" أن "عثمان بن عفان" رحمه الله هو الذي وضع المحراب لمسجد المدينة وأشار كذلك: " أنه قيل أن " عبد الملك بن مروان"، هو أول من بنى المحراب، وقيل "عمر بن عبد العزيز" في خلافة "الوليد بن عبد الملك"..."، أما "المقدسي" الذي عاش في منتصف القرن الرابع الهجري قال: " أنه لما تولى "عمر بن عبد العزيز" بناء مسجد "المدينة" وبلغ هدم المحراب دعا بمشايخ المهاجرين و الأنصار فقال: احضروا بنيان قبلكم، لا تقلوا غيرها "عمر"³.

و يذكر الإمام "السيوطي" رحمه الله أن المحارِب ظهرت في أول المائة الثانية للهجرة: "...لأن قوما خفي عليهم كون المحراب بدعة، و ظنوا أنه كان في مسجد النبي صلى الله عليه و سلم في زمنه، و لم يكن في زمانه قط محراب، و لا في زمان الخلفاء الأربعة، فمن بعدهم إلى آخر المائة الأولى، و إنما حدث في أول المائة الثانية مع ورود الحديث بالنهي عن اتخاذها، و أنه من شأن الكنائس، و أن

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن كثير، تفسير...، ص300، 301. و كذلك: - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 70.

2 - للمزيد من التفاصيل حول ظهور المحارِب في عمارة المساجد، و رأي علماء الأمة في ذلك أنظر بتمعن: - جلال الدين السيوطي، إعلام الأريب بحدوث بدعة المحارِب، دراسة و تحقيق: عماد طه فرة، ط2، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، 1411هـ/ 1990م، 14.

3 - المقديسي، المصدر السابق، ص8.

اتخاذها في المساجد من أشرطة الساعة. قال "البیهقي" في "السنن الكبرى": باب في "كيفية بناء المساجد" ... عن "عبد الله بن عمرو" رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: اتقوا هذه المذابيح، يعني المحاريب¹.

أما محراب جامع "القيروان" فقد أجمع المؤرخون على أنه في سنة (50 هـ / 670 م) خط "عقبة بن نافع" مسجد "القيروان" ورسم مكان القبلة منه، وأقام محرابه فيه، و أن هذا المحراب ظل طوال السنين موضع إجلال القوم و تقديسهم فلم يمس أحد منهم بسوء. و لما أراد "زيادة الله بن الأغلب" هدمه و ألح على ذلك لم يجبه و حيل بينه و بين هدم. و شكل محراب مسجد "القيروان" مقوس و هو بذلك يختلف على جل المحاريب المغرب الإسلامي التي نراها مضلعة، وبالتالي هو أقدم محراب مجوف أدخل على المساجد².

أما عن تحديد لمكان وقوف الإمام في المحراب و الفائدة من ذلك³، و الدور الحقيقي للمحراب فقال "ابن الحاج": "و السنة الماضية إذا استوى الإمام قائما في المحراب أن يكون قريبا من المأمومين، وقد كان الإمام في السلف رضي الله عنهم يقرب أن تمس ثيابه ثياب المأمومين و ذلك لفوائد: منها قد يطرأ عليه في صلاته ما يوجب خروجه منها فلا يحتاج إلى الكلام و لا كثير من عمل الاستخلاف، بل يمد يده إلى من يستخلفه فيقدمه، و منها أنه قد يسهو في صلاته فيسبحون به فلا يسمعون، فإذا كان قريبا منهم سمعهم في الغالب و تداركوا ما فات ذلك بمسهم أو تنبيههم له عليه فيتدارك إصلاح ما أحل به. ومنها أن يكون بثوبه نجاسة لم يشعر بها، فإذا كان قريبا منهم أدركوها فنبهوه عليها إلى غير ذلك. ولم يكن للسلف رضي الله عنهم محرابا و هو من البدع التي أحدثت لكنها مستحسنة، لأن أكثر الناس إذا دخلوا المسجد لا يعرفون القبلة إلا بالمحراب، فصارت متعينة لكن يكون المحراب على قدر الحاجة وهم قد زادوا فيه زيادة كثيرة، و الغالب من بعض الأئمة أنهم يصلون داخل المحراب حتى يصير بسبب ذلك على بعد من المأمومين و ذلك

1 - السيوطي، إعلام...، ص14.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر:- محمد ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار"، شرحه وكتب هوامشه: طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د،ت)، ص 32. كذلك:- المقديسي، المصدر السابق، ص8. كذلك:- أبو عبيد البكري، المصدر السابق، ص23. كذلك:- ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص24.

3 - للمزيد من التفاصيل أنظر:- محمد بن حمو، العمران و العمارة من خلال كتب النوازل بالمغرب الإسلامي، دراسة في فقه العمران و العمارة الإسلامية، رسالة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1432هـ / 2011م، ص 124.

خلاف السنة، ثم إنه يخرج بذلك نفسه من الفضيلة لأن باقي المسجد أفضل منه، ألا ترى أن علمائنا رحمهم الله قالوا فيمن أضطر إلى النوم في المسجد، أنه ينام في محرابه لأنه أخفّ من باقي المسجد. بل لا ينبغي له إذا كان المسجد لا يضيق بالناس أن يدخل إلى المحراب، فإن ضاق بهم فليدخل على الصفة المتقدمة، لأنه إذا لم يدخل يمسك بوقوفه خارجاً عنه موضع صف في المسجد و هو قد يسع خلقاً كثيراً.¹

ويمكن استنتاج من هذا الرأي مايلي:

- يفيد في تحديد مكان الإمام عند الصلاة.
- يفيد في توسيع طاقة المسجد بما يقرب من صف من المصلين في الصلاة الجامعة، ليتسع للإمام في ركوعه وسجوده أثناء الصلاة، بحيث لا يشغل مساحة كبيرة يستهلكها هذا الإمام من أصل مساحة المسجد دون أي طائل أو فائدة.
- يساعد على تجميع صوت الإمام وتكبيره، وإيصاله للمصلين الذين يوليهم ظهره أثناء الصلاة.
- والمحراب من المصالح المرسلّة التي تبدو لمن لا بصيرة له، كأنها بدع يجب تجنبها و عدم إقرارها، و هو عبارة عن علامة دالة على القبلة؛ إذ لولاها لكان العوام و من لا علم لهم إذا دخل المسجد في وقت لا يوجد غيره يختار في القبلة، و قد يصلي إلى غيرها، و قد يصبح كل من يدخل المسجد يسأل عن قبلته، لذا اتخذ السلف هذا الطاق في قبلة المسجد للدلالة على القبلة، و ليس هو من العبادات في شيء حتى يقال فيه " بدعة منكورة " .

و عادة ما يحدث خلاف في كيفية تنصيب القبلة، و من ثم مكان المحراب، وهذا ما نجده عادة في المساجد المبكرة، حيث نرى المحاريب تميل إلى اليسار أو إلى اليمين وهذا ما نجده بالمسجد الجامع " بالقيروان"²، ولكن هذا الانحراف ما كان ليخرجهم عن توسطهم لحائط القبلة لبيت الصلاة. و على العموم كان اهتمام العلماء بتحديد جهة القبلة شغلهم الشاغل عند بناء المساجد، و كان ينصب المحراب بالمشورة، و اتفاق العلماء عليه، و من ثم وجب إتباع و تقليد المساجد الكبيرة في تحديد القبلة سئل الشيخ الفقيه قاضي الجماعة و مفتي حضرة "غرناطة" "أبو القاسم بن سراج" رحمه الله عن إمام بقطر كبير يؤم الناس بالمسجد الأعظم من ذلك القطر، ينحرف بداخل المحراب

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 486.

2- أحمد فكري، المرجع السابق، ص56.

لجهة المشرق انحرافا كثيرا مع أن المحراب على خمسة و أربعين جزءا كما هي أكثر محاريب بمساجد الأندلس، فهل يسوغ ذلك للإمام و يلزم المأمومين إتباعه في ذلك، و ينحرفون معه ؟ أو لا يسوغ ذلك له ؟ فأجاب: " إنه لا ينبغي للإمام أن ينحرف الانحراف المسؤول عنه، لأن المحراب المنصوب بمصر كبير يعلم نصبه باجتماع كثير من الناس و العلماء، وذلك ما يدل على صحته و نصبه بالاجتهاد، و قد نص العلماء رضي الله عنهم أن المحاريب التي بالأقطار الكبار يصح تقليدها...."¹ ولما أراد " عبد الرحمن بن الحكم "² تحويل قبلة المسجد الجامع "بقرطبة"، و قد اتفق من لديه من أهل الحساب، و فيهم أئمة يقتدى بهم، على انحرافها إلى جهة المغرب كثيرا، صرف عن ذلك لاستعظام عامة الناس مخالفة ما درج عليه أسلافهم فأقصر عن ذلك³.

و يذكر "الونشريسي" كيفية تنصيب قبلة مسجد جامع مدينة مراكش بقوله: " وعندما قدم الموحدون على نصب القبلة بمسجد جامع مدينة "مراكش" على وسط الجنوب بتقريب، وجه آخر أيضا مما يدل على صحة الوسط ما ذكره "أبو عمر بن عبد البر" و "ابن العربي"، و اللفظ "لأبي عمر"، عن "أحمد بن حنبل" أنه قال: هذا المشرق، وأشار بيساره و هذا المغرب، وأشار بيمينه، و هذه القبلة فيما بينها. إلا أنه ينبغي أن يتحرى الوسط، و قال "ابن حسان": عمله لأمير المؤمنين "المنصور" "بمراكش"، وأمر برفعه للخزانة. وهو يتضمن صحة ما عمله الموحدون من نصبهم القبلة "بمراكش" على وسط الجنوب بتقريب."⁴

وسئل "الونشريسي" عن نقل المحراب عن موضعه إذا زيد في المسجد، فأجاب: "... أما نقل المحراب من موضع إلى موضع جديد فلا بأس به بحسب المصلحة، و ما تراه الجماعة في ذلك من الفرق لهم"⁵.

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 116.

2 - بويغ بعد والده في آخر سنة ست و مائتين، فامتدت أيامه، و كان وادعا، حسن السيرة، لين الجانب، قليل الغزو، غلبت المشركون دولته على إشبيلية، و كان مولده بطليطلة سنة ست و سبعين و مائة، و مات في سنة ثمان و ثلاثين و مائة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن الخطيب، الأعلام...، ج2، ص 19.

3- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 118.

4 - نفسه، ج7، ص199.

5 - نفسه، ج7، ص204.

و يقول "ابن العربي" في محارِب المساجد الكبيرة¹: "...مساجد الأمصار هي بالاجتهاد، ولكنه يتعاضد الأمر فيها و لا يعلم واضعها، و هي مختلفة في التيامن و التياسر، و إن كانت لم تخرج عن السمات المتعارف مما بين المشرق و المغرب، و قد خط جامع "قرطبة" ووصل جماعة من الرفقاء "الحجاج"، "كبقي بن مخلد" و "محمد بن وضاح" من أهل الصلاة جماعة ممن حج وروى "كبحي بن يحيى" و صلوا القبلة ذاهبين و راجعين "بافريقية" و "مصر" و "الشام" و "الحجاز" و "العراق"، فما اعترضوا على جامعها بعيب سمته و لا حرفوا فيه، فالدين عندهم أمتن و العلم أوفر..."².

و يقول "ابن رشد": "...و جامع الأندلس و مدرسة "الطيارين" مستقبله جهة الجنوب بين المشرق و المغرب، و كذا جامع "تلمسان"، و قد تقدم أنه ليس لأهل المغرب قبلة بين المشرق و المغرب، و إنما قبلتهم في جهة المشرق بين الشمال و الجنوب..."³.

و من خلال ما أفردناه من النصوص الشرعية و آراء المفكرين و علماء الإسلام التي وردت في المحراب و اتجاه القبلة يتضح لنا أن محارِب مساجد مدينة "تلمسان" متجهة نحو الجنوب الشرقي تقريبا، و يبدو أنها اتبعت في ذلك موضع و اتجاه محراب مسجد "أغدير"، ثم محراب الجامع المرابطي "بتكرات" على غرار مسجد سيدي "أبي الحسن"⁴.

1 - مساجد الأمصار.

2- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 122، 123.

3 - عبد الله ابن إبراهيم الزرهوني التافستي (توفي بعد سنة 1150 هـ 1738 م)، رحلة الوافد، تحقيق: صديقي عازيكو، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992م، ص 18 و مايليها.

4 - يقع شرق جنوب المسجد الكبير المرابطي، شيده السلطان عثمان ابن يغمراسن أحد أمراء بني زيان في سنة 696 هـ / 1296م تكريماً لذكرى الأمير أبي عامر إبراهيم، حسبما نصت عليه النقوش المثبتة على الجدار الغربي للمسجد، والمكتوبة على صفحة من المرمر الأخضر بخط أندلسي أنيق، أنه تذكاري للأمير أبي عامر إبراهيم بن أبي يحيى يغمراسن بن زيان الذي أوصى ببناء هذا المسجد قبل وفاته وحبس عليه بعض أمواله العقارية، علماً أنه يحمل اسم الولي أبي الحسن بن يخلق التنسي أحد مشاهير العلم في تلمسان ليدرس فيه فاستمر في أداء رسالته إلى غاية الإحتلال الفرنسي، فحواله الفرنسيون إلى متحف الفن الإسلامي، و مازال كذلك إلى اليوم يشهد على روعة وازدهار عمارة المساجد بتلمسان، فهو وعلى صغر حجمه وقربه من المسجد الكبير إلا أنه يلفت نظر الزائر إليه لكونه تحفة نادرة، تحول إلى متحف مدينة تلمسان ثم إلى مدرسة في الفترة الاستعمارية، أما من حيث البنية التخطيطية فهو مستطيل الشكل مساحته 100م²، له ثلاثة أبواب، إحداها توجد في الجدار الشرقي، والثانية في الزاوية الجنوبية الشرقية تؤدي إلى المنارة، والثالثة توجد في الجدار القبلي. قاعة صلاة به مقسمة إلى ثلاثة بلاطات عمودية على جدار القبلة، يفصل بينها صفان من الأعمدة تترايط فيما

أما في مدينة "الجزائر" فإن محارِب المساجد متجهة نحو الشرق تميل ميلاً طفيفاً نحو الجنوب الشرقي، وهذا ما نلاحظه في المساجد التي بنيت قبل الفترة العثمانية مثل مسجد "سيدي رمضان"، والمسجد "الجامع المرابطي"، والمساجد التي بنيت في ما بعد والتي يبدو أنها اتخذت من محراب المسجد "الجامع المرابطي" مقياساً لنصب القبلة، ويبدو أن مسجد "علي بتشين" قد خرج عن هذه القاعدة، حيث نرى محرابه يميل نحو الشمال الشرقي، لم يتغير مكان منذ تأسيسه.

بالإضافة إلى المحراب الذي نجد في بيت الصلاة نجد حنية أخرى في صحن بعض المساجد، وأشهر على تسميتها بالعنزة.¹

و نجدها بصحن المسجد "الجامع المرابطي"، ومسجد "سيدي أبي مدين شعيب بالعباد العلوي"²، ومسجد "سيدي إبراهيم"³، وهي من مساجد مدينة "تلمسان"، وعلل "ديسو لاماري" وظيفة العنزة بأنها مكان يجلس فيه إمام ثاني (مبلغ ثاني) من أجل تبليغ⁴ المصلين أيام الجمع ما يقوله الإمام الخطيب.

بينها بعقود حدوية الشكل، ونظراً لصغر حجمه فإن المسجد يفتقر إلى صحن ومجانب وميضأة، و سقفه خشبي جملوني على شكل أروقة طويلة قائم على ستة أعمدة عالية و رقيقة صنعت من الرخام الأبيض، أما جدرانها فقد كسيت بالحص في غاية من الجمال بزخرفة قوامها العناصر النباتية و الهندسية و الكتابية متداخلة في مابينها مشكلة بذلك أرقى ما وصل إليه فن التوريق (الأرسك)، وأما المحراب فهو عبارة عن حنية سداسية الأضلاع، ويشكل قطعة أثرية كاملة مع رقة و صفاء الخطوط وتشابك جميل للرموز وتجانس دوائره، وتنوع زخارفه التي نقل السلطان أبو سعيد عثمان إلى تلمسان كثيراً من عناصرها الأندلسية، ومنها الزليج، و يعتبر صورة طبق الأصل لمحراب جامع قرطبة. أنظر: - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 145.

- 1 - قال عون بن أبي جحيفة: " سمعت عن أبي أن النبي صلى الله عليه و سلم صلى بهم بالبطحاء و بين يديه عنزة (مثل نصف الرمح أو أكبر شيئاً) الظهر ركعتين و العصر ركعتين ...". أنظر: - العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص 278.
- 2- عبد العزيز لعرج، المباني المرينية، ص 547. كذلك: - علي ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.
- 3 - يقع هذا المسجد إلى شرق مسجد سيدي أبي الحسن و إلى الجنوب الغربي من مسجد و قلعة المشور في حي باب الجديد، ينسب هذا المسجد إلى الشيخ إبراهيم المصمودي التونسي الأصل توفي سنة (805 هـ / 1402م)، و ما يزال قبره مزاراً بجوار هذا المسجد حتى اليوم. ليس هناك تاريخ معلوم لتأسيس المسجد، و لكن بما أن الشيخ إبراهيم المصمودي قد توفي سنة (805 هـ / 1402م) فإن المسجد قد أسس خلال القرن (8 هـ / 14م).

4 - التبليغ بالأناغم المعروفة: التبليغ هو التسميع وراء الإمام، و إنما يتسامح به للحاجة من كثرة المصلين أو عدم بلوغ صوت الإمام لجميعهم فحينئذ يسمع واحد بصوته الطبيعي بلا تكليف و لا تمطيط و لا تصور لتلاحين مخصوصة. يحسن التبليغ خلف الإمام إذا

ولكن التحليل الذي قدمه "ديسو لاماري" ينتابه الغموض¹، فلم تذكر المصادر التاريخية أن العنزة جعلت مكانا للمبلغ لتبليغ المصلين ما يردده الإمام من صيغ التكبير و السجود و هذا من طرف إمام ثاني، و ذلك في صلاة الجمعة، و المواسم في المسجد الجامع بالأمصار الكبيرة، فإن كان المبلغ (الذي يقف في أول الصحن لكون العنزة تبنى مقابلة للمحراب في آخر البلاطة التي على الصحن) يسمع صوت الإمام فكيف لا يسمعه المصلون بالصحن ؟.

والثانية أن الفقه الإسلامي لا يميز هذا العنصر الوظيفي إن كان ما قال "ديسو لاماري" صحيح للأسباب التالية:

- إن الصلاة الفرد منفردا خلف الصف أو بين الصفوف غير جائزة لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم و هو صريح لا ينتابه غموض حيث نرى ذلك واضحا من خلال الحديث الذي رواه "علي بن شيبان" رضي الله عنه، قال: " خرجنا حتى قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، وصلينا خلفه، ثم صلينا وراءه صلاة أخرى، فقضى الصلاة فرأى رجلا فردا يصلي خلف الصف، قال: فوقف عليه نبي الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف، قال: استقبل صلاتك ! لا صلاة للذي خلف الصف".²

- إن الكلام أثناء الخطبة (صلاة الجمعة) تبطل الصلاة إلا للإمام الخطيب، و هذا لقول رسول الله عليه الصلاة و السلام: " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت و الإمام يخطب، فقد لغوت"، و هذا الحديث صريح ليس فيه ترخيص بالكلام إلا للإمام.³

و لعل ما قاله "ابن أبي زرع" في "القرطاس" أقرب إلى الحقيقة من كل الأقوال، حيث وصف لنا مسجد القرويين "بفاس" بقوله: "أما العنزة التي يصلي إليها في زمن الصيف فكانت القديمة من

دعت الحاجة إليه، و قد يجب إذا تعذر متابعة الإمام في ركوعه و سجوده، لضعف الصوت، إذا ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. أنظر:- القاسمي، المصدر السابق، ص 12. كذلك:- العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص 201.

1 - Dessus Lamar, La Anaza, 5eme congrès international 1 d'archéologie, 1930, Alger, p 1 329.

2- محمود أبي عبد الرحمن، أحكام صلاة المسبوق في السنن و الآثار، دار المصنف الشريف الجزائر، ط2، 1422 هـ / 2001م ص81. كذلك:- العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص 244.

3 - البخاري، المصدر السابق، ص 165. كذلك:- العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص 390.

خشب الأرز، ألواح ساذجة في أعلاها كتابة، و هي (صنعت هذه العنزة في شهر شعبان المكرم سنة أربع و عشرين و خمسمائة)...¹.

و حسب "ابن أبي زرع" يمكن القول أن العنزة ما هي إلا سترة حتى لا يقطع الصلاة من يمر بين العنزة و القبلة، ولعل هذه الوظيفة الحقيقية للعنزة مادامت كتب النوازل لم تتعرض إليها.

- المنابر:

المنبر هو المكان الذي يخطب منه الحاكم أو الإمام للناس، و هو عادة ما يكون في الجهة اليمنى للمحراب في المسجد الجامع، وهو العنصر الحيوي للمدينة الإسلامية و مركزها الهام حيث تطرح و تناقش جميع قضايا الدولة من الأمور السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية في إطار الشريعة الإسلامية.

و يقول الرسول صلى الله عليه و سلم: " وضع منبري² على ترعة من ترعات الجنة وما بين بيتي، ومنبري روضة من رياض الجنة وما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة وان قوائم منبري هذا رواتب في الجنة"³. و المنبر بصفة عامة لم يكن موجودا أول عهد الرسول صلى الله عليه و سلم فكان إذا خطب و قف إلى جدع نخلة، و التي كانت تمثل أحد الأعمدة التي يرتكز عليها السقف، و كان إذا طال به الموقف و شق عليه القيام استند إلى الجدع⁴.

كان أول منبر في الإسلام هو المنبر الخشبي الذي صنعه نجارا لرسول صلى الله عليه وسلم و جاء في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث إلى امرأة فقال: " إن مري غلامك التجار، يعمل لي أعوادا أجلس عليهنّ "، وفي رواية أخرى يذكرها "البخاري": " أن امرأة قالت يا رسول

1- أبي زرع، المصدر السابق، ص 79.

2 - منبر الرسول صلى الله عليه و سلم.

3 - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 22.

4- محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع السابق، ص 42.

الله: ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه؟ فإنّ لي غلاماً بجّاراً. فقال عليه الصلاة والسلام: إن شئت. **فعملت المنبر**¹.

ولم يسلم المنبر من نسبه لمصطبة الكنائس، فقد ذكر أن من صنع لرسول الله المنبر رجل ممن سبق له أن رأى الكنائس ببلاد الشام، و في الحقيقة أن الرسول كان يحرس على مخالفة أهل الكتاب، ويحث المسلمين على ذلك، فكيف يرخص للنجار أن يصنع له منبر على شاكلة مصطبة الكنائس؟ و صنع لرسول الله منبرا خشبيا متكون من ثلاثة درجات، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقعد على أعلى الدرجات، و يضع قدميه الشريفتين على الدرجة الوسطى. ولما أصبح "أبو بكر الصديق" خليفة للمسلمين قعد على الدرجة الوسطى تأدبا، ووضع قدميه على الدرجة السفلى، ولما تولى "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه الخلافة بعده قعد على الدرجة السفلى ووضع قدميه على الأرض، ولما جاء "عثمان" رضي الله عنه فعل في أول الأمر كما فعل "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه، ولكنه رأى بعد ذلك أن يجلس على الدرجة العليا تأسيا بالرسول صلى الله عليه وسلم².

لم تعرف المنابر في الفترة الإسلامية المبكرة تطورا كبيرا، فقد ظلت بسيطة بساطة المجتمع الإسلامي الأول. و بحلول الفترة الأموية بدأت المنابر تتطور خاصة في زيادة عدد الدرجات، فزاد معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه في عدد درجات المنبر فأصبحت سبعة أو تسعة حسب أقوال المؤرخين.

و بانتشار الإسلام بدأت المنابر تعرف عناية خاصة، شكلا و مضمونا، حيث تنوعت مواد صناعتها بين الخشب و الرخام و الحجر، كما أصبحت تحمل شتى أنواع الزخارف (النباتية، و الكتابة، و الهندسية)³، و قد عرفت صناعة المنابر طرازين مختلفين من ناحية المادة الصناعية، حيث

1- حدّثنا ابن مريم: حدّثنا أبو غسّان قال: حدّثني أبو حازم، عن سهل رضي الله عنه: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى امرأة من المهاجرين، و كان لها غلام بجّار، قال لها: "مري عبدك فليعمل لنا أعواد المنبر" فأمرت عبدها، فذهب فقطع من الطّرفاء، فصنع له منبرا فلما قضاه، أرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قد قضاه، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أرسلني به إليّ" فجاؤوا به فأحتمله النبي صلى الله عليه وسلم فوضعه حيث ترونه. أنظر:- البخاري، المصدر السابق، ص 94. كذلك:- ابن كثير، البداية....، ص229.

2 - محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع السابق، ص42.

3 - زكي محمد حسن، فنون الإسلامية، دار الرائد العربي، لبنان، 1981م، ج3، ص 239.

نجد المنابر الخشبية و التي عادة ما تكون متحركة كالمنابر المغربية كمنبر الجامع الكبير "بالجزائر"، و منبر جامع الكبير "بتلمسان" و كلاهما يعودان للفترة المرابطية، والتي كانت تخصص لها غرفة في حائط القبلة على يمينه تخرج منها يوم الجمعة للخطبة، حيث تخرج و تدخل بواسطة عجلات حديدية¹، والمنابر الرخامية، مثل منبر مسجد "السيدة" حيث يوجد حاليا بالجامع "الجديد" بمدينة "الجزائر" (اللوحة رقم: 52)، و منبر جامع "كتشاوة"² محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة و الفنون الإسلامية.³ (اللوحة رقم: 14).

و نظرا لهذا التطور الذي عرفته المنابر في المدن الإسلامية، كان للفقهاء آراء في ذلك من بينهم كلام الفقيه "الونشريسي" الذي وصف هذا التطور و ما أستحدث من جراء ذلك حيث قال: "ومنها اتخاذ المنبر العالي فإنه من الأشياء التي تقطع الصفوف و تأخذ من المسجد جزءا جيدا و هو وقف على صلاة المسلمين. قال " أبو طالب": كان تقدمه الصفوف عندهم إلى الفناء المنبر بدعة. و كان "الثوري" يقول الصف الأول هو الخارج بين يدي المنبر. وقال "ابن الحاج": و أما بلاد المغرب فقد سلموا من تقطيع الصفوف لكن بقيت عندهم بدعتان إحداهما كبر المنبر على ما هو في البلاد، والثانية أنهم يدخلون المنبر في بيته إذا فرغ الخطيب من خطبته، و هذه بدعة الحجاج، و منبر السنة خلاف هذا كله إنما كان ثلاث درجات لا غير، وهي لا تشغل مواضع المصلين...."⁴.

و من وظائف المنبر كذلك هو تبليغ المصلين⁵، أو الناس بالمنشورات و البلاغات، و الإعلانات، و القرارات الصادرة من طرف الحكام أو الأمراء، و هذا ما نجده خاصة في الفترة العبيدية و الأيوبيين و المماليك بمصر، ثم تطورت الأمور إلى أن صار يجعل للمبلغ دكة في وسط المسجد حتى يقوم بمهامه على أحسن تبليغ و يتسنى للناس كذلك التفاف حول الدكة و سماع ما يقوله المبلغ، خاصة في الفترة العثمانية، و هذا ما نجده بالمسجد المرابطي "بتلمسان"، و في المسجد

1 - فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، ج1، الهيئة المصرية العامة لتأليف و النشر، مصر، 1970 م، ص 633.

2 - للمزيد من التفاصيل حول منابر مدينة الجزائر في الفترة العثمانية أنظر: - خيرة بن بلة، المرجع السابق، ص304.

3 - R. Doukali, **Les mosquées de la période turque à Alger**, SNED, 1974, p 25, 28.

4 - الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 485، 486.

5 - سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 149.

الجديد "بالجزائر"، و مسجد "صفر بن عبد الله"¹، وعلى هذا فدورها هو تبليغ القرارات وليس مثل ما هو شائع عند العديد من الباحثين أنها المكان الذي يصلي فيه المبلغ لتبليغ المصلين ما يقوله الإمام من تكبير و تسليم أثناء الصلاة²، فإن كنا قد ذكرنا أن صلاة الفرد منفردا خلف الصفوف لا يجوز لما قد ذكرناه فيما سبق حول العنزة³، فكيف يجوز له الصلاة منفردا فوق الصفوف!!؟(اللوحة رقم:53).

- المقصورة:

أنشئت المقصورة⁴ بالمسجد من رغبة بعض الخلفاء و الولاة في أن يقيموا الصلاة في مكان منعزل عن المسجد خوفا على حياتهم، ويبدو من خلال المصادر التاريخية من أن اثنين من الخلفاء الراشدين ("عمر بن الخطاب" و "علي بن أبي طالب" رضي الله عنهما) قد استشهدا بالمسجد طعنا بالخنجر، مما جعل "معاوية بن أبي سفيان" يتخذ مقصورة له، ويقال أن أول من اتخذ المقصورة لصلاة "مروان بن الحكم"⁵، ثم وجدت في مساجد كثيرة بعد ذلك دون أن تصبح جزءا أساسيا من أجزاء المسجد⁶.

1 - للمزيد من التفاصيل حول دكة المبلغ في مساجد مدينة الجزائر أنظر: - خيرة بن بلة، المرجع السابق، ص319.

2 - دكة المبلغ: تستعمل دكة المبلغ لجلوس المبلغ الذي يقوم بتريد بعض جمل الإمام أثناء الصلاة، لتوصيلها إلى الصفوف الخلفية، توجد دكة المبلغ في أروقة القبلة في المساجد أو في نهاية إيوان القبل و تقع على محور المحراب، تعمل عادة من الخشب و تعمل بواسطة أعمدة رخامية، و يصعد إليها بواسطة سلم خشبي من عدة درجات، و لها درابزين من الخشب الخرز دو ارتفاع منخفض، و لقد شاع استعمال الدكة الرخامية في العصر المملوكي، و يرجح أن أقدم دكة رخامية تلك الموجودة في مسجد الماس الحاجب (729 - 730 هـ / 1329 م - 1330م)، و قد حملت على أعمدة رخامية أيضا، و من الأمثلة النموذجية تلك الدكة الموجودة بمدرسة السلطان حسن (757 هـ- 764 هـ / 1356 م - 1362م)، أما في العصر العثماني فتوجد الدكة في الحائط المقابل للمحراب، و على ارتفاع كبير و يمكن الوصول إليها عن طريق سلم في هذا الحائط و تعمل من الخشب، و تحمل إما على أعمدة أو على كوابل خشبية.

للمزيد من التفاصيل أنظر: - صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي بمصر، بيروت، لبنان، 1957م، ص 59.

3- أنظر الصفحة 228.

4 - و قد سميت المقصورة مقصورة لأنها قصرت على الإمام دون الناس، و قال اليث: المقصورة مقام الإمام. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص 284.

5 - ثالث خلفاء بني أمية، للمزيد حول ترجمته أنظر: - ابن الخطيب، الأعلام...، ج1، ص81.

6 - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 92.

و كانت المقاصير مجرد حواجز خشبية تحيط بجزء صغير من المسجد عند حائط القبلة ويدخل إليها من باب خاص في حائط القبلة أو من باب في بيت الصلاة نفسه، ثم تطورت حتى أصبحت غرفة قائمة بذاتها.

و يقال أن الخليفة العباسي المهدي (158 هـ - 169 هـ / 775 م - 785 م) أمر بأن تعميم المقاصير في المساجد الجامعة، و يقال العكس كذلك وهو أن المهدي أمر بأن تزال المقاصير من جميع المساجد¹.

أما بالمغرب الإسلامي نجد أن المقصورة التي بنها "المعز بن زيري" بالمسجد الجامع "بالقيروان" هي أكثر شهرة على غرار بقية المساجد التي أنشئت بها المقاصير مثل المسجد الجامع "بقلعة بني حماد"، و المسجد الجامع "بتلمسان" في الفترة المرابطية، و مسجد الجامع "بقرطبة" و هي من إنشاء "عبد الرحمن الثاني" الأموي².

أما من الجانب الفقهي فيرى "أبو العباس القرطبي" في شرح مسلم: "... أنه لا يجوز اتخاذها، و لا يصلى فيها لتفريقها الصفوف. وروي عن "الحسن البصري" و "بكر المزني" أنهما كانا لا يصليان فيها لأنها أحدثت بعد النبي صلى الله عليه وسلم"³. أما "الزركشي" فيقول: "... إلى أنه ينطبق عليها ما سبق أن قيل في المنبر، إذ لا يجوز أن يمتد المنبر في بيت الصلاة حتى يقطع الصف الأول من المصلين، أما احتجاج من كرهوا الصلاة في المقصورة بأنها لم تحدث أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، فليس بحجة لأن المئذنة أيضا لم تتخذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك القبلة، فهل معنى ذلك أنهما مكروهتان."⁴.

و على الدوام فإن المقصورة من شأنها أن تغير في شكل بيت الصلاة مما يضطر بالمصلين بتغيير مكان المحراب وكذلك تضيق على المصلين خاصة لضفر بثواب الصف الأول، ويمكن أن نستشف ذلك من خلال الجواب الذي سرده "الونشريسي" لأحد العلماء، و لم يذكر لنا اسم الفقيه أو نص النازلة، ولكن الجواب كان كافيا لمعرفة السؤال، و مضمون الجواب هو: "... أن تغيير مثل هذا واجب

1 - فريد شافعي، المرجع السابق، ج1، ص 649.

2 - Golvin.(L), **La mosquée**, Livres Editions, Alger, 2013, p 82, 83.

3 - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 92.

4 - بدر الدين محمد بن بهادار الزركشي الشافعي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، قدم له و اعتنى به: أيمن صالح شعبان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1416هـ/ 1990م، ص383.

على من له أمر، ولا يتركه بحال إلا من عجز عن ذلك لخوف فاعله فذلك المعذور لا يلام، و هذا جل ما سكت أهل العلم و الدين على تغيير المقام الذي اتخذها ذوي السطوة من الملوك الإسلام مع إنكارها أمرها و منعهم للصلاة بها على بسط في كتب أئمتنا، و لم تكن من أئمة الهدى و الخلفاء الراشدين، و إنما اتخذها بعضهم لخوفهم على أنفسهم حين قتل من الخلفاء الراشدين من قتل عند خروجه للصلاة، و جرح من جرح، و هذا له عذر، و بعضهم أيضا يكبر عند الاختلاط بالناس، و كل هذا تغيير لما شرط الله في المساجد، و من تعظيمها و إباحتها للناس كافة، و لزوم التواضع فيها و التذلل لقول الله تعالى: ﴿...سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي...﴾¹ و إن كان ذلك واردا في مسجد مكة، فقد أجمع المسلمون أن حرمة سائر المساجد و حقها كذلك في أنه لا يتملك أحد منها شيئا و لا يحجره على الناس، و أن جميعها مباح لجميع الناس و قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتِهِ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ...﴾²، و قد شرع في الصلاة التواضع و التمكن و الخشوع و لها بنيت المساجد، فكل ما نافي ذلك و ضاده فيجب تغييره، و أن تطلق المساجد للمسلمين و لا تقطع الصفوف التي هي أحد عليها.... و قد رأى أهل العلم أن جميع صفوف المقصورة ليس بمحسوب في الصف الأول...³.

إن المقصورة الموجودة بمساجد مدينة "تلمسان" جعلت كمكان ينتظر به الحاكم إقامة الصلاة و لها باب يفتح إلى الخارج و هي على جدار القبلة، و هذا ما نجد في المسجد الجامع المرابطي، و المسجد الجامع بمدينة "المنصورة".

أما في مدينة "الجزائر" فيتضح هذا العنصر بالمسجد الجامع الكبير المرابطي، و لا يمكن تأصيلها تاريخيا حيث جدار القبلة أعيد بناءه عدة مرات في الفترة العثمانية بسبب تضرره من ضربات المدفعية المعادية، بالإضافة إلى كون الأبواب التي على جدار القبلة بنيت في الفترة الفرنسية، و يحتمل أنها كانت موجودة بمسجد "السيدة" لكونه مقصد سلاطين مدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية في صلاة الجمعة، و صلاة العيدين.

1 - سورة الحج الآية 25.

2 - سورة النور الآية 36.

3 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 72.

كانت النساء في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يصلين خلف الرجال، ولم يكن يحجزهن عن الرجال حاجز و كان لهن مدخل خاص بهن حتى لا يختلطن بالرجال، وقد رخص الرسول صلى الله عليه وسلم للنساء بالصلاة بالمساجد، فعن "أبي هريرة" رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن و هنّ تفيلات " ¹، و كان بالمغرب الإسلامي مكان مخصص للنساء بالمسجد الجامع يطلق عليه اسم المقصورة كذلك، حيث تشغل مكان معين بالمسجد ويتضح ذلك مما ذكره "الونشريسي": "...أن مقاصير النساء كانت موجودة في المساجد، و كان موضعها إما بمؤخرة المسجد، و ذلك بينا حاجز يسترهن عن الرجال، و إما بناء خاص بهن في سقائف المسجد بيني بالآجر." ²

إن بناء المقصورة أو اتخاذ حاجز يفصل بين النساء و الرجال أجازه العلماء سدا لباب الذرائع ³، و يعلل ذلك "اللخمي" بقوله: "... و إذا كان مصلى النساء ينتهي إليه الرجال، و لهم حاجة، و لم يسبق النساء إليه لم يبق هنالك شيء، و منع النساء من الصلاة فيه، و هم أحق، ولو لم تكن للرجال حاجة، و لم يضق المسجد فبناء حاجز يسترهن حسن..." ⁴.

و كانت المساجد الجامعة بمدينة "تلمسان" يخصص فيها مكان للنساء و ذلك بضرب حائط فاصل بينهنّ و بين الرجال، و في مدينة "الجزائر"، يبدو أن أماكنها هي نفسها الموجودة حاليا خاصة تلك الموجودة بالمسجد الكبير المرابطي.

- الصحن:

يعرف الصحن لغة بساحة الدار، وساحة وسط الفلاة، و نحوهما من متون الأرض و سعة بطونها و الجمع صحون، لا يكسر على غير ذلك، وقال "فراء": " الصّحن و الصّرحة ساحة الدار

1 - تفيلات: أي تاركات للطيب". للمزيد من التفاصيل أنظر: - العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص 207.

2 - الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 440، 441.

3 - النساء أربع: عجوز قد انقطعت حاجة الرجال منها، و هي كالرجال في ذلك. و متجالّة لم تنقطع حاجة الرجال منها بالجملة، فهذه تخرج إلى المسجد و لا تكثر التردّد إليه... و شابة من الشّواب فهذه تخرج إلى المسجد في الفرض و في الجنائز جناز أهلها و قرابتها. و فادّة شابة في الشّباب و الثخانة فهذه الأخير لها أن لا تخرج أصلا، فإن حضر المسجد منهن من يسوغ حضورها فلا بد من ضرب حائط فاصل بينهنّ و بين الرجال... و لا تخرج إلا تلفة، قال عياض في أحكامه غير متزيّنة و لا متطيّبة و لا متراحمة للرجال. و زاد محيي الدّين التّوّوي و لا يكون بالطّريق ما تنقى مفسدته. أنظر: - العقباني، المصدر السابق، ص304.

4 - نقلا عن الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 440، 441.

و أوسعها"¹. أما وظيفته من حيث وجوده بالمساجد فهو الجزء غير المسقوف يتوسط المساجد الجامعة التي صممت وفق تخطيط المسجد النبوي بالمدينة، وقد أطلقت عليه عدة مصطلحات أشهرها: الصحن و هو مصطلح متعارف عليه في غالب المدن الإسلامية، و من المصطلحات المترادفة معه نجد الفناء، الرحبة، الساحة، الباحة، الصرح، كما أطلق على الجزء المكشوف الذي يتقدم الجزء المغطى في تخطيط المساجد العثمانية بالحرم².

و إذا رجعنا إلى طراز المساجد بالمشرق الإسلامي، نجد الصحن محصور بين بيت الصلاة و الأروقة الجانبية و الخلفية يطلق على هذه الامتدادات بالمجنبات: اليمنى، و اليسرى، و الخلفية³، وأوضح مثال جامع "ابن طولون" في القاهرة، حيث الصحن محاط بالأعمدة و العقود من كل ناحية⁴.

أما بالمغرب الإسلامي، فإن بيت الصلاة يمتد حتى يشغل نصف مساحة المسجد أو أكثر وفي هذه الحالة تلغى المجنبات، فيبدوا الصحن كأنه فناء فسيح في مؤخرة المسجد، وإن دار عليه سور، ويمكن أن نلاحظ ذلك من خلال مساجد "تلمسان" خاصة المسجد الكبير المرابطي⁵ رغم أنه يبدو من الوهلة الأولى أن صحنه محاط بمجنبتين من اليمين و الشمال، ولكن في حقيقة الأمر ما هما إلى امتداد لبلاطات بيت الصلاة، و هذا ما نجده كذلك في المسجد الجامع الكبير "بالجزائر"، و بقية المساجد بالمغرب الإسلامي، وهذه الظاهرة راجعة بطبيعة الحال إلى الظروف المناخية التي تختلف عن

1 - جمال الدين ابن منظور، المصدر السابق، ج5، ص 206.

2 - محمد حمزة حداد، مدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، ط1، مكتبة الزهراء، القاهرة، مصر، 2001م، ص34، 35.

3 - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص88.

4- للمزيد من التفاصيل أنظر: سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 144. كذلك: - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية بالقاهرة، ط1، بيروت، لبنان، 1993 م، ج1، ص32.

5 - L. GOLVIN, OP-cit, p49.

- G. Marçais, **L'Architecteur musulman d'Occident, Tunis, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile**, Edition Art et métiers graphique, 2eme trimestre, Paris , 1954,p170.

المشرق الإسلامي، ذلك أن الأمطار بالمغرب الإسلامي أغزر و أطول مدى مما هي عليه في المشرق، فأتجهت العناية إلى تغطية أكبر مساحة ممكنة من المسجد¹.

كما تشغل بعض الصحون بمساجد مدينة "تلمسان" مقدمة المسجد في ظهر المحراب مثل مسجد حارة "الرماء" الذي أمّ فيه لمدة طويلة الفقيه الصالح "أبو القاسم بن أبي القاسم الحكيم التلمساني"².

وفي الحقيقة فإن الصحون المكشوفة تنكمش انكماشاً شديداً في البلاد الإسلامية الباردة

أو الشديدة الحرارة، ومن هنا نرى أنه تصغر كلما اتجهنا شمالاً أو جنوباً في البلاد الإسلامية، فهي

تكاد أن تكون فناء مكشوف في "الحجاز"، و "إيران" و شبه القارة "الهندية"، و تصغر أحجمها

جداً في مساجد "تركيا"، و ما إليها من البلاد الشمالية، وهي نادرة في المساجد الاستوائية، و في

"الأندلس" نجد الصحون تنتهي عند خط "طليطلة" شمالاً بسبب كثرة الأمطار و برودة الجو معظم

العام، و قد اقتضى الأمر إلى تصغير المساجد و إكثار عددها بالمدينة الواحدة، وليس هناك ما يدل

على أن المساجد الجامعة في "طليطلة"³ و سرقسطة و "وشقة" و "لاردة" و "تطيلة" كانت بها

صحون و المسجد الوحيد الباقي الأثر في "سرقسطة" هو مسجد "الجعفرية" الذي بناه "أبو جعفر

أحمد بن هود"⁴، و هو مسجد صغير مغطى كله.⁵

رغم هذا فإننا ألقنا مساجد بصحون، وما هي إلا مساحة مكشوفة تستعمل للصلاة في الحالات

القليلة دون أن تكون صحناً بالضرورة، فقد تكون كذلك بهواً أو حديقة، وهذا ما نجده بمسجد "علي

بتشين" ويبدو أن هذه المساحة أضيفت في فترة متأخرة عن بناء المسجد و لكنها أصبحت تؤذي

مهام الصحن لما بها من مرافق، و بيت الوضوء.

1 - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 89.

2 - ابن مرزوق، المناقب....، ص 154.

3 - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 89.

4 - تولى ولاية مدينة سرقسطة المدينة البيضاء لأبيه سليمان بن هود مؤسس إمارة بني هود في الأندلس. للمزيد من التفاصيل

أنظر: - ابن الخطيب، الأعلام...، ج 2، ص 168.

5 عبد العزيز سالم، "العمارة الإسلامية في الأندلس و تطورها"، مجلة عالم الفكر، العدد الأول (أفريل، ماي، جوان، جويلية)،

الكويت، 1977م، ص 89.

من أهم المتطلبات التي نجدها بالصحن كذلك، النافورة بوسط الصحن، و التي تساعد على تلطيف الجو كما تستعمل للوضوء و الشرب¹، أما البئر (الجب)، فقد شاع بنائه في المساجد بالمغرب الإسلامي²، وقد نهي الفقه الإسلامي عن استعمال الماء المخصص للمسجد في استعمال خارجي حيث سئل "الونشريسي" رحمه الله، عن مسجد له جب يجلب إليه الماء من ساقية تدخل للبلد، و له دلو و حبل من غلة أحباس المسجد ليتوضأ الناس به، ثم إن بعض أهل الديار و المجاورين للمسجد المذكور يأتون للجب المذكور و يحملون من الماء في أوانيهم بالدلو و الحبل و المشتري من الحبس، فهل يجوز لهم ذلك ؟ فأجاب: "...ماء الجب المذكور إنما هو خاص بالمسجد المذكور.... و لا يجوز لأحد أن يستقي منه ليحمله إلى منزله..."³.

في أول الأمر كان صحن المسجد يستعمل كامتداد لبيت الصلاة إذا ضاقت بالمصلين وذلك في يوم الجمعة، و لا يعتبر فيما عدا ذلك جزءا من المصلى نفسه، لهذا كانوا يترخصون في استعمال صحن المساجد فكانوا يتخذونها ممرات من طريق إلى طريق، و ربما جلسوا فيها للسمر أو البيع و الشراء أو النوم، وكانوا لا يراعون في نظافتها مثل ما يراعون في بيوت الصلاة، ثم أخذ الفقهاء يحددون استعمال صحن المساجد، و يحرمون القيام بأي عمل لا يتصل بالصلاة فيها، ثم اعتبر جزء أساسيا من المسجد، و قد بين ذلك "الزركشي" "في أحكام المساجد"⁴، وقد خلط البعض بين صحن المسجد الجامع، و حرم الجامع، و لكن الفقهاء فرقوا بينهما، فصحن المسجد ما يوجد بداخل جدرانها من فناء غير مسقوف، أما حرم المسجد فالمنطقة المحيطة به من مبان ملاصقة لجدرانها، أو رحبات خارجها، و قد اشترطوا فيها النظافة و حرموها الاتجار فيها لأن ذلك يشوب نظافة المسجد و جلاله إذا ازدحم الجامع⁵.

1 - محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، خصوصيتها، ابتكاراتها جمالياتها، ط1، الأردن، 1419هـ/1998م، ص62.

2 - نلاحظ ذلك أيضا بمسجد القرويين بفاس، أنظر: - على ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص60.

3 - الونشريسي، المرجع السابق، ج7، ص55، 56.

4 - الزركشي، المصدر السابق، ص341.

5 - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص70.

والصحن له حرمة المسجد، فلا يصلى فيه على الميت، و سئل "الونشريسي" رحمه الله عن مسجد يلاصقه صحن، و الدخول إلى المسجد على الصحن معمر منصب بإغلاق ورحبته قدام الصحن هي الطريق، وفيها شيء من الضيق فهل يجوز لنا أن نصلي على الميت في الصحن أم لا يصلي عليه إلا في رحبته؟ والصحن المذكور يجلس فيه بعض يعملون الحلفاء و ما أشبه ذلك و هل يجوز لهم ذلك أم لا؟ ، فأجاب عن السؤال بما حوله: " أن الصحن الذي يغلق عليه باب المسجد له حرمة المسجد و حكمه، فلا يصلى فيه على الميت، لأن الميت لا يدخل إلى المسجد و لا يعمل فيه عمل الدنيا، و لا شغل من أشغالها، ولم تبنى المساجد إلا لأعمال الآخرة.¹

وقد كره الفقهاء غرس الشجر في صحن المساجد² خوفا مما ينجم من المشكلات بسبب ثمرها، وبسبب الطيور التي تسكن الشجر و تكون سببا من أسباب عدم نظافة الصحن، و منها كذلك فضالات الطيور التي تآثر على البناء لكونها مادة حمضية تتلف الجدران، وقد سئل "أبو سعيد بن لب" عن الغرسة في المسجد، فأجاب: مذهب مالك المنع من ذلك، و إن غرس شيء قلع و ذلك مذهب "الأوزاعي" جواز ذلك، فأما ثمرها فلم يتكلم المتقدمون عليها ووقع في نوازل "ابن سهل" ثلاثة أقوال: أحدهما أنه يكون لجماعة المسلمين، الثاني أنه يكون للمؤذنين و شبيههم من خدام المسجد، و الثالث أن ذلك للفقراء، و المساكين، والصحيح أنه لجماعة المسلمين لأنه كل واحد له حق في المسجد.³ و قال "الونشريسي": "... هذه إحدى المسائل الست التي خالف الأندلسيون فيها مذهب "مالك"⁴ ، وقد أضاف "الزركشي" إلى ما ذكره "الونشريسي" بقوله: " و ذكر "أبو الوليد بن الفرضي" في تاريخ الأندلس أن "صعصعة بن سلام الشامي" يروي عن "الأوزاعي" قال: " وولي القضاء "بقرطبة" وفي أيامه غرست الشجر في المسجد الجامع، قال وهو مذهب "الأوزاعي" و الشاميين ويكرهه "مالك" و أصحابه....⁵

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص162.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد بن حمو، المرجع السابق، ص131، 132.

3 - الونشريسي، المصدر السابق، ج11، ص13.

4 - نفسه.

5 - الزركشي، المصدر السابق، ص341.

كما ذهب "عبد الحميد الصائغ" إلى الإكراه على رأي المالكيين، حيث سئل عمن كان عنده شعير أخضر أو تين كذلك لم يجد أن ينشره إلا في صحن المسجد هل يباح له ذلك و كذلك المبيت فيه للغريب أو الحاضر في الليل و النهار للقائلة و كذا نشر الثياب؟ فأجاب: " المساجد حبس للصلاة و فعل الخير فينزه المسجد عن الأكل و المبيت للأضياف و غيرهم، و نشر أخاف إن أبيع للمضطر أن يتعدى ذلك لغيره كالديار و هذا ينظر فيه حين نزوله بحسب الحال".¹

سارت مساجد مدينة "تلمسان" خاصة الجامعة منها على نمط مسجد "القيروان"، حيث أتخذ لها صحنون في مؤخرة المسجد و زودت بنافورة جلب إليها الماء للوضوء، و لتلطيف الجو داخل المسجد، و هذا ما نجده في المسجد الجامع المرابطي، و مسجد "العباد"، و مسجد "سيدي إبراهيم"، و مسجد سيدي "الحلوي"، و يبدو أن مسجد جامع المنصورة كان به صحنا في مؤخرته²، كما نجده في المسجد الجامع المرابطي بمدينة "الجزائر" و مسجد "علي بتشين". (اللوحة رقم: 8، 11، 13، 30).

– الميضاة:

حيث التشريع الإسلامي المصلين بالخروج إلى المساجد على وضوء، و يبدو ذلك جليا من خلال قول الرسول صلى الله عليه و سلم: " صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلواته في بيته و في سوقه خمسا و عشرين ضعفا و ذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجها إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة و حط عنه بها خطيئة. فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه..."³، و يبدو أن المساجد لم تكن بها مراحيض، و إنما جعلت خارجها لما فيها من ضرر جراء الرائحة التي تنبعث منها، و قد جعل الرسول صلى الله عليه و سلم بمدينته مواضع لقضاء الحاجات تسمى بالمناصع، ثم أمر بإلحاق بيوت الخلاء بالمنازل، و لم يأمر يجعلها كذلك بالمساجد، و هذا حرصا منه عليه الصلاة و السلام على نظافة المساجد.⁴

ويبدو أن مساجد المغرب الإسلامي سارت وفقا لتوجيهات الرسول صلى الله عليه و سلم، و هذا ما يؤكد نص المسألة التي وجهت إلى "ابن لبابة" مضمونها: عن ميضاة مسجد خارجة عن دار

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص440.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد لعزیز لعرج، مدينة المنصورة...، ص148.

3 - ابن كثير، تفسير القرآن....، ج3، ص430.

4 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص50.

المسجد، و إنما كانت قد ردت من الداخل الدار ثم قام أكثر الجيران فقالوا إنه يدخل الصبيان، و من لا يجب دخوله للمسجد إلى الميضاة، فردوا باب الميضاة خارجا عن المسجد كما كان بابها في ما مضى، و استظهر في ذلك يقوم أتى بهم و ذكر أن بعض الجيران أراد فتح باب الميضاة في داخل المسجد. فأجاب: ".... و إني أكرمكم الله كثيرا أمر بالمسجد، و رأيت الميضاة مفتوحا في الشارع في موضع حسن، و بلغني أنها هكذا كانت في ابتداء بنائها حتى رأى بعض من كان في المسجد رد الباب داخل المسجد، فمضى زمانا كذلك فلما استفتحه وجده أهل المسجد ممن يدخل الميضاة على المسجد و لا يتحفظ من الصبيان و ينال ضرر ذلك المسجد رد الباب إلى ما كان عليه فرأيت رده نظرا للمسجد و حفظا له و صونا عمن يدخله و لا يتحفظ من الصبيان و كذلك يجب أن يتحفظ بالمساجد و يقطع عنها كل من يدينسها...."¹.

و يقول "الزركشي" في حكم بناء الميضاة بقوله: "يجوز بناء المطاهر بالقرب من المساجد و التوضئة، و قد روى "أبو عبد الله بن بطة" في كتاب جواز اتخاذ السقاية في رحبة المسجد من جهة "عبد الرزاق": حدثنا "الثوري" عن "المقدام بن شريح" عن أبيه عن "عائشة" رضي الله عنها قالت: كن المعتكفات إذا حضن أمر رسول الله بإخراجهن من المسجد، و أن يضربن الأخبية في رحبة المسجد حتى يطهرن، و ذكر فيه حكاية من "أحمد بن حنبل" أنه احتج بذلك، و هو يدل على صحته عنده، و في كتاب الطهور "لأبي عبيد" عن "إبراهيم النخعي" قال: كانوا يتطهرون من مطاهر المساجد، و روى فعل ذلك عن "علي" و "أبي هريرة" رضي الله عنهما"².

كما أن كتب الحسبة لم تغفل عن التطرق إلى نظافة المساجد خاصة الأماكن المخصصة للوضوء و قضاء الحاجة، حيث ذكر "ابن عبدون" عند تطرقه لدور المحتسب في المدينة الإسلامية بقوله: " يجب أن يؤمر أحد الكتافين أن يتعاهد بيوته كل يوم و ينظفها، و يكون راتباً لذلك، و يجعل له أجره من الأحباس"³

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص443.

2 - الزركشي، المصدر السابق، ص383.

3 - ابن عبدون، المصدر السابق، ص23.

سارت مدينة "الجزائر" و مساجدها على هذا النمط خاصة في الفترة العثمانية، حيث بنيت المراحض العمومية، و لم تجعل في المساجد، و يبدو أنها كانت موزعة بطريقة دقيقة لتكون في خدمة رواد المساجد خاصة الغرباء عن المدينة، و قد قام الجنرال "كلوزيل" بدمها في الفترة الفرنسية¹.

- السطح:

يعرف "ابن منظور" السطح لغة بقوله: "السطح: سطحك الشيء على وجه الأرض كما تقول في الحرب: سطحوهم أي أضجعوهم على الأرض. و تسطح الشيء و انسطح: انبسط، وفي حديث "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه قال للمرأة التي معها الصبيان: أطعيمهم و أنا أسطح لك أي أبسطه حتى يبرد، والسطح: ظهر البيت إذا كان مستويا لانبساطه، معروف، وهو من كل شيء أعلاه، و الجمع سطوح، و فعلك التسطيح. و سطح البيت يسطحه سطحا و سطّحه سؤى سطحا"².

لم تكن تستعمل سطوح المساجد للصلاة إلا نادر، و ذلك راجعا لنظام تغطية المساجد، رغم أن الفقه الإسلامي أجاز الصلاة على السطوح، و ذكر لنا الإمام "البخاري" حديثا في هذا الباب حيث قال: " قال "أبو عبد الله": و لم يرى "الحسن" بأسا أن يصلى على المساجد و القناطر، و صلى "أبو هريرة" على سقف المسجد بصلاة الإمام..."³. و سبب الصلاة على السطح هو ضيق المسجد مما يضطر المصلون لصعود إلى السطح⁴، وكذلك في موسم الحر يستعمله المصلون كمصلى طلبا للهواء المنعش، وهذا من النوادر قلنا لأن المسجد حين يضيق بالمصلين يستعمل الأبنية التي هي من حرم المسجد وتستعمل كذلك في فصل الصيف هروبا من حرارة المبنى، و سئل "السوري"، عن مسجد له أسطح، و يحتاج إليه لشدة الحر في الصيف و في الشتاء للشمس فأراد أهل المسجد إحداث درج للصعود لمصلحة، لذلك هل يجوز أم لا ؟ و إذا لم يجز فهل يصنع سلم من عود يصعد

1 - حمدان بن عثمان خوجه، المصدر السابق، ص 249.

2 - ابن منظور، المصدر السابق، ج 4، ص 424.

3 - البخاري، المصدر السابق، ص 460.

4 - كان النظام المعروف في تسقيف المساجد يعرف بالتسقيف الخشبي مند العصر الإسلامي المبكر، إذ نجده يغطي أروقة المسجد الأموي بدمشق، و المسجد الأموي بقرطبة، و مسجد القرويين بفاس، و جل المساجد المبكرة، فيظهر التسقيف من الداخل على شكل ألواح متعامدة أما من الخارج فهو ذو شكل هرمي، ثم تطور نظام التسقيف إلى أن ظهر نظام القبة المركزية، و على هذا نلاحظ أن المساجد سطوحها لم يكن مهيبا للصلاة عليه. أنظر: - فريد شافعي، المرجع السابق، ج 1، ص 197.

عليه فوق المسجد ؟ و قد نزلت من غير موضع فمن الناس من فعل الأول، ومنهم من فعل الثاني، و المساجد قديمة لم يكن فيها شيء من ذلك، فأجاب: "إن كان الدرج لا يمنع أحدا من المصلين، أو لا يحتاج إلى الموضع الذي يعمل فيه الدرج للعادة، فيفعل من عود بحيث لا يضيق."¹

اعتمدت مساجد مدينة "تلمسان" في تخطيطها على السقف الجاملوني، أو الهرمي، و مثل هذه السطوح غير مهيأة للصلاة عليها، و على هذا الأساس سارت مساجد مدينة "الجزائر"، حيث جعلت سقوف مساجد على الطراز الجاملوني مثل الجامع المرابطي، أو نظام تخطيطية المساجد بالأقبية نصف برميلية و أقبية صغيرة على ما هو معهود بالجامع "الجديد"، أو استخدام قبة مركزية مع مجموعة من القباب الصغيرة مثل ما هو في جامع "علي بتشين"، و هذين النظامين ظهرا في الفترة العثمانية.

- المآذن:

الأذان لغة: الإعلام و هو اشتقاق من الأذن . بفتحتين . و هو الاستماع، قال الله تعالى: ﴿وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ...﴾²، أي إعلام. كما يقول عز وجل: ﴿... أَذِّنْكُمْ لِمَا سَوَّاهُ...﴾³ أي أعلمتكم فاستوينا في العلم، و شرعا: الإعلام بوقت الصلاة بألفاظ مخصوصة.

أما فضله فقد روى لنا "أبو هريرة" رضي الله عنه، عدة أحاديث في هذا الباب، و من بينها ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن فضل الأذان: " لو يعلم الناس ما في النداء و الصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا....."، و عن "عبد الله بن عمر"⁴ رضي الله عنهما قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يغفر للمؤذن منتهى أذانه، و يستغفر له كل رطب و يابس سمعه. ". أما سبب مشروعيته، فعن "عبد الله بن عمر" رضي الله عنهما قال: " كان المسلمون لما قدموا المدينة مجتمعون، فيتحننون الصلاة ليس ينادى لها، فتكلم يوما

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 39.

2 - سورة التوبة الآية رقم: 3.

3 - سورة الأنبياء الآية رقم: 109.

4 - أسلم قديما مع أبيه و لم يبلغ الحلم، و هاجر و عمره عشر سنين، و قد أستصغر يوم أحد، و كان ابن أربع عشرة سنة، أعتق في حياته ألف رقبة، و ما كان يأكل طعاما إلا و معه يتيم، و روى عن النبي أحاديث كثيرة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن كثير، البداية...، ج5، ص350.

في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى، و قال بعضهم: بل بوقا مثل قرن اليهود، فقال "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه: أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا "بلال" قم فناد بالصلاة.¹

إذا بحثنا في المصطلحات و الأسماء التي أطلقت، أو استعملها المؤرخون المسلمون للدلالة على المكان الذي يرفع منه الآذان في المساجد، لوجدنا عدة أسماء اختلفت حسب البيئة الجغرافية، حيث استعمل مؤرخو العرب كلمة صومعة للدلالة على برج البيعة، التي يعيش فيها زهاد النصارى، و لعل إطلاق هذا الاسم على المئذنة يرجع إلى أن المئذنة الأولى سواء في "الشام" و "مصر"، أم في "المغرب الإسلامي" و "الأندلس" كانت تتخذ شكلا مربعا.

وقد شاع استخدام أهل المغرب الإسلامي لكلمة الصومعة للدلالة على المئذنة، و ما تزال كلمة صومعة هي المصطلح الشائع في بلدان المغرب الإسلامي حتى وقتنا هذا، و لعل ذلك راجع إلى أن شكل المئذنة في هذه البلاد ما يزال يحتفظ بصورته المربعة الأولى.

و الواقع أن هناك ارتباك كبير في استخدام هذه الألفاظ الأربعة: صومعة، و منارة، و منار، و مئذنة، فقد استعمل "الإدريسي"، و "ابن عذارى" كلمتي صومعة و منارة في آن واحد.²

ولكي نفسر معنى كلمة منارة يستلزم الأمر تفسير كلمة منار، و هذه اللفظة الأخيرة مشتقة من فعل أنار أي أشعل و أضاء، و بالتالي فإن كلمة منار تعني المكان الذي ينبعث منه النور، أو تشتعل فيه النار، ثم أفضى الأمر بهذه الكلمة أن أطلقت على المنائر و المحارس، أو الأبراج المرتفعة لإرسال الإشارات عن طريق إشعال النار للمراقبة، و هداية من ضل بهم السبيل، و قد أستخدم مؤرخو و جغرافيو المغرب في أوصافهم نفس هذا اللفظ للدلالة على نفس المعنى الذي ذكرناه، فقد أطلق "البكري" على منار "سوسة" اسم منار، و أطلقها الرحالة "ابن بطوطة" و "ابن جبير" على منار "الإسكندرية"، و من ذلك نستنتج أن كلمة منار كان المقصود بها التعبير عن برج عال مرتفع توقد فيه النيران لإرسال الإشارات، أو لهداية الضالين، و يغلب الظن أن هذه الكلمة انتقل إلى المآذن

1 للمزيد من التفاصيل، أنظر:- العويشة، المرجع السابق، ج1، ص 359. كذلك:- ابن هشام، المصدر السابق، ج2، ص 154،

155. كذلك:- ابن كثير، البداية...، ج2، ص243.

2 - بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص276.

لا لمشابقتها لأبراج الفنارات كما يدعي "بتلر" و "تيرش"، و إنما لأن من وظائف المئذنة إرسال الإشارات و المراقبة و الهداية كما هو الحال في منار رباط "سوسة" و "المنستير"¹.
لم تعرف المساجد الأولى التي بناها المسلمون المآذن، فالأصل في اتخاذها هو إيصال الأذان إلى أبعد مكان ممكن، ومما يوحي بفكرة إنشاء المآذن لإعلان و الدعوة إلى الصلاة، هو اختيار "بلال" رضي الله عنه أعلى بيت بالمدينة ليؤذن منه²، كما يشير "الحميري" بأن "أبا بكر الصديق" رضي الله عنه قام ببناء منار على جبل "أجباد" ينادي عليه المؤذنون في رمضان³. ويقول "السيوطي": " إن أول من رقى منارة مصر للأذان "شرحبيل بن عامر المرادي" وبنا "سلمة" المنائر للأذان بأمر "معاوية بن سفيان"، و لم تكن قبل ذلك، وقال "ابن سعد" بالسند إلى "أم زيد بن ثابت": " كان بيتي أطول بيت حول المسجد فكان بلال يؤذن فوقه من أول ما أذن إلى أن بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده فكان يؤذن بعد ذلك على ظهر المسجد، وقد رفع له شيء فوق ظهره."⁴.

و إذا عدنا إلى التأصيل التاريخي للمآذن نجد أن أقدم من تكلم عنها "البلاذري" في مصنفه "فتوح البلدان" حيث يذكر أن "زياد بن أبيه" عامل "معاوية بن أبي سفيان" على العراق بنى لجامع "البصرة" منارة من حجر في سنة (45هـ/665م)، و ذلك عندما هدم الجامع الأول، و أعاد بناءه بالحجر، و ليست لنا تفاصيل عن النمط التخطيطي لها، و ما يمكن أن نلاحظه أن اسم المنارة هو الذي أطلق على المآذن أول ما ظهرت في العمارة الدينية.

و يذكر "المقرئزي" أن "مسلمة بن مخلد" الذي كان عامل "مصر" "معاوية بن أبي سفيان" و ابنه "يزيد" و حفيده "معاوية" (47هـ - 62هـ / 667م - 681م) أنشأ في سنة (53هـ/672م) أربعة صوامع في أركان جامع "عمرو بن العاص" في "الفسطاط" لغرض الأذان، و أمر أن

1 - بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص276.

2 - ابن هشام، المصدر السابق، ج2، ص 156.

3 - أجباد بفتح أوله و إسكان ثانيه و بالياء أخت الواو و الدال المهملة، كأنه جمع جيد أحد جبال مكة، و هو الجبل الأخضر العالي بغربي المسجد الحرام، يقابل من الكعبة الركن اليماني يخرج إليه من باب إبراهيم عليه السلام، و يقابل قعيقعان من ناحية الغرب. للمزيد من التفاصيل أنظر: - الحميري، المصدر السابق، ص12.

4- محمد الدين القاسمي، المصدر السابق، ص 106. أنظر حاشية ابن عابدين، ج2، ص53

تبنى منارات في معظم مساجد "الفسطاط" الأخرى، و أمر مؤذني جامع "عمرو بن العاص" بأن يبدؤوا بالأذان للصلوات ثم يتلوهم المؤذنون في المنارات.¹

ويمكن القول بأن المآذن نشأت عن الصوامع (و هي الأبراج) و المنائر،² ثم امتزج الطرازان معا فظهرت مآذن المساجد الأولى التي بقيت لنا بعضها إلى اليوم، و إذا نظرنا إلى تخطيط مئذنة "جامع عقبة بن نافع" في "القيروان" مثلا نلاحظ أنها تتكون من جزأين أساسيين: البدن أو القاعدة، و هي بناء مربع مرتفع سميك الجدران بداخله سلم يؤدي إلى سطحه، فهي إذن مقتبسة من البرج القديم، ثم تلي ذلك منارة تقوم على هذا البرج في هيئة بنائين واحد منها فوق الآخر، الأدنى منهما أصغر حجما من البدن و الأعلى أصغرهما جميعا، و مئذنة جامع "عقبة" إذن برج و منارة في آن واحد، فإن الأذان كان يرفع من سطح البدن، أو البرج الأسفل، و السلام الرئيسية تنتهي عند هذه الشرفة.

ثم تلي ذلك من حيث الترتيب الزمني صوامع المسجد الأموي "بدمشق"، فقد أنشئ هذا المسجد أيام "معاوية بن أبي سفيان" على أنقاض معبد روماني قديم تحول إلى كنيسة، ثم هجرت حتى جاء المسلمون فانتفعوا ببناء المعبد القديم و حولوه إلى مسجد جامع، و بعد سنوات رفعوا فوق الأبراج التي كانت قائمة في أركان المعبد القديم ظلات خشبية تقوم على عمد خشبية أيضا، يستظل بها المؤذنون عندما يرفعون الأذان، فلما جدد "عبد الملك بن مروان" منار الجامع الأموي و أعطاه صورته الحالية جدد أيضا ظلات المآذن سنة (96هـ / 715م)، و لا يزال بعضها باقيا إلى اليوم، و الجدير بالذكر أن المئذنتين الحاليتين في مسجد "دمشق" و اللتين ترتفعان فوق البرجين الرومانيين القديمين الجنوبي الشرقي و الجنوبي الغربي، قد أعيد بناؤهما في عصر متأخر.³

1 - يذكر المقرئ أن الشريف أبو عبد الله بن أسعد الجواني سمع عن الأمير "تأييد الدولة" تميم بن محمد المعروف بالضمضام يقول في سنة 539هـ / 1144م: "حدثني القاضي أبو الحسين علي بن الحسين الخلعي عن القاضي أبي عبد الله القضاعي، قال: كان في مصر الفسطاط من المساجد 36 ألف مسجد...". للمزيد من التفاصيل أنظر: - تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، **المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار**، تحقيق: محمد زينهم و مديحة الشراوي، مطبعة مدبولي، القاهرة، 1998م، ج1، ص911.

2 - عبد العزيز السالم، **المآذن المصرية - نظرة عامة عن أصلها و تطورها منذ الفتح العربي حتى نهاية الفتح العثماني**، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر، الإسكندرية، مصر، دون سنة الطبع، ص4.

3 - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص114.

و على هذا الأساس تعتبر مئذنة "جامع عقبة بن نافع" في "القيروان" نقطة البداية لتاريخ المآذن و تطورها، و قد أنشئت هذه المئذنة أول مرة على يد "بشر بن صفوان" عامل بني أمية على "القيروان" فيما بين سنتي (105هـ - 109هـ / 724م - 729م)، فهي على هذا أقدم المآذن الباقية إلى اليوم، و تليها في القدم منارة قصر "الحيرى" الشرقي في بادية الشام و يرجع إنشاؤها إلى حوالي سنة (110هـ / 730م).

و تقوم مئذنة جامع "القيروان" على قاعدة مربعة مرتفعة سميكة الجدران و يدخل إليها من باب ذي عقد على شكل حدوة فرس، و ينفذ الضوء داخلها من شباييك فوق الباب ذات عقود من نفس الطراز، و تتكون هذه الشباييك في جدران القاعدة الأخرى، و يصعد إلى السطح بسلام ضخمة داخلية تدور مع الجدران، و من سطح القاعدة يرتفع بناء أصغر حجما من نفس الطراز يعلوه بناء ثالث، و فوق هذه الطبقات أنشئ الجوسق، و هو رأس المئذنة، و يقول "فريد الشافعي" على طراز مئذنة "عقبة بن نافع" بالقيروان: " و أغلب ظننا أن جميع مآذن العالم الإسلامي كله في العصر المبكر، كانت تتبع تكوينيا و معماريا مشتركا و مشابها لمئذنة جامع "القيروان"، و ينحصر الاختلاف في النسب المعمارية للقواعد و طبقاتها العالية أو أبعادها، و ذلك من ناحية طول ضلعها إن كانت مربعة المسقط، أو قطرها إن كانت مستديرة بالنسبة لارتفاعها، و من ناحية عمل الجوسق واحد فوقها مباشرة أو يأتي فوقها طابق وسيط، أو بمعنى آخر عمل شرفة واحدة أو شرفتين، و أغلب ظننا أيضا أنه في جميع الحالات و النماذج كان الجوسق العلوي يغطى بقبة تتبع الأسلوب المحلي السائد في المنطقة أو الإقليم، وغالبا ما كانت الشرفات تغطى بمظلة من الخشب و ذلك في الأقطار التي تكثر فيها الأمطار حتى تحميها منها و تمنع ماء المطر من التسرب إلى السلم، و كانت تشبه في ذلك الأمثلة الباقية في "الشام" و "العراق" و "فارس"...."¹.

لقد حافظت مآذن المغرب الإسلامي على طراز مئذنة "عقبة بن نافع" بالقيروان، و قد استعملت كثيرا لأغراض الدفاعية، و لهذا جعلت في غالب الأحيان عند الجدار المقابل لجدار القبلة، أي في مؤخرة المسجد، و الدخول إليها يكون من داخل الصحن، أو من خارج الجامع، أما من حيث تخطيطها فهي عبارة عن بدن ضخم يقوم عند منتصف جدار الصحن، و قد يرتفع هذا البدن في هيئة مستطيل ضخم يصل ارتفاعه إلى ما يزيد على عشرين مترا أحيانا، هذا مانراه في مسجد

1 - فريد الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة لتأليف، مصر، 1970 م، ج1، ص647.

"أغادير" و المسجد الجامع المرابطي في "تلمسان"، و انتشر هذا الطراز في مدن المغرب الإسلامي، واتخذت أشكالاً مختلفة وعلو شاهق¹، لذلك كان من الضروري أن يراعى في بنائها حرمة الجيران، ولكن مع كبر المدن و الأمصار أصبح من الصعب الحفاظ على هذا الشرط²، و لكون الدور أصبحت تحيط بالمسجد من كل الجهة، و ربما يفصلها عن المسجد شارع يمكن أن يكون ضيق من جانبي المسجد وواسع من جهة الأبواب الرئيسية للولوج إليه و سئل "ابن رشد" عن صومعة أحدثت في المسجد فشكا بعض الجيران من الكشف منها ؟ فأجاب "ابن رشد": "...و الصعود في الصومعة للأذان يتكرر مرارا في كل يوم من الأيام والرواية في سماع أشهب عن مالك بالمنع من الصعود إليها، و الرقي عليها منصوبة على علمك، و المعنى فيها صحيح، و به أقول، و إن كان يطلع منها على الدور من بعض نواحيها دون بعض فيمنع من الوصول منها إلى الجهة التي يطلع منها بحاجز يبني بين تلك الجهة و غيرها من الجهات، وعندنا بقربطبة في كثير من صوامعنا³".

تقع مآذن مدينة "تلمسان" الجامع منها في منتصف جدار مؤخرة المسجد، و هذا في مسجد "أغادير"، و المسجد الجامع المرابطي، و المسجد الجامع لمدينة "المنصورة"، و ما يمكن ملاحظته أن هذه المساجد أبوابها الرئيسية تقع بهذا الجدار، و فتحت على الطريق الذي يمر أما هذه المساجد، و بالتالي فإن موقعها في منتصف جدار مؤخرة المسجد كان يضمن حرمة المساكن، كون المؤذن لا يمكنه أن يطلع على حرمت المساكن لأنها يفصلها عن المساجد طريق، و يمكن أن نشير أن صحن المساكن صغير يمكن نسوة أن يتحجبن عند سماع صوت المؤذن، أو اقتراب وقت الأذان، و هذا ما نلاحظه كذلك بمساجد مدينة "الجزائر"، إلا أنها لا تقع في منتصف جدار مؤخرة المسجد، بل يتحكم في موقعها تواجد الشوارع و الأزقة، حيث نرى أنها تقع في الركن الأيسر لجدار مؤخرة المسجد بالنسبة للمسجد جامع الكبير المرابطي و الجامع الجديد، و يمر بمحاذاتهما شارع البحرية، أما مئذنة مسجد

1- أجمع المؤرخون، على أنه كان لمساجد الإسلام الأولى مآذن و منارات، و أن الأذان كان متبع في عهد الرسول، إلا أن مآذن المساجد الأولى قد اندثرت، و ظلت مئذنة القيروان قائمة، فهي إذن أقدم مئذنة بالعالم الإسلامي. أنظر بالتفصيل حول التسلسل التاريخي لظهور المآذن، وأشكالها المختلفة بالمغرب الإسلامي للمزيد من التفاصيل أنظر:- احمد فكري، المرجع السابق، ص110. وكذلك:- عبد الكريم عزوق، تطور المآذن في الجزائر، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2006 م ص 17.

- Marçais, G. L'Architecteurp209.

2 - D. EDMOD, << Les minarets et l'appel à la prière >>, in **Revue Africaine**, 1899, p339.

3 - الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 23. كذلك:- ابن الرامي، المصدر السابق، ص79.

"علي بتشين" فتقع في جدار القبلة على الركن الأيمن، و يمر بمحاذاتها الشارع الرئيسي الذي ينطلق من باب "عزون" إلى باب "الوادي".

و بالإضافة إلى دورها الديني فقد تلعب في البلدان و المدن الساحلية دور الاستطلاع و مراقبة العدو¹ خاصة في الثغور التي اعتاد العدو الزحف عليها، ويطلق عليها بالعساس²، و هذا ما نجده في المسجد الجامع المرابطي لمدينة "الجزائر"، فمئذنته تلعب هذا الدور كذلك، حيث نراها شاهقة باستطاعة المراقب أن يترصد العدو من مكان بعيد، و قد تلعب كذلك دور المنار لإرشاد الهابطين للبحر للصيد، و كذلك السفن التجارية³. و لقد ذكر لنا "الونشريسي" من خلال هذه النازلة هذا الدور فقال رحمه الله: " عن أهل قرية دخل النصارى قريتهم و خربوها و خلت القرية، و بقي جامعها قائم البناء، و صومعة المسجد كذلك، و للمسجد حبس كثير، تألف منه حظ قدر، و الجامع غني عنه، فأراد أهل قرية بناء قامرة على الصومعة المذكورة تكون لإغاثة لأهل بلش... فهل يسوغ لهم ذلك؟ فأجاب: تكبير الصومعة المذكورة و جعلها قامرة لا يخرجها عن أن تبقى منارا يؤذن بها.."⁴.

و من الأمور التي استحدثت في مهام المئذنة و لا يزال حتى في زمننا هذا هو نعي الميت خاصة في المشرق الإسلامي، و قد سئل "الونشريسي" عن أهل موضع عادتهم إذا مات لهم إنسان يصعد احدهم في ريع النهار في منار الجامع الأعظم و يقرأ شيئاً من القرآن و يذكر نحو ما يفعل المؤذن بالليل ثم يدور في المنار و يقول مات فلان و جنازته في كذا... ، فأجاب رحمه الله: " إن ذلك من أشد النعي الذي جاء النهي عنه في الحديث، فالواجب التقدم فيه بالنهي عنه و المنع منه لقبحه بفعله في الصوامع التي لم يشرع فيها إلا إعلان بالأوقات لإقامة شرائع الصلاة."⁵.

و تستعمل كذلك في إنشاد الشعر الغزلي، و هذا ما نجده حالياً في المسجد الجامع المرابطي "بتلمسان"، و قد سئل "الونشريسي" إنشاد الشعر الغزلي في الصوامع عقب التهليل و ما معه من الأذكار ما حكمه؟ فأجاب: " إنشاد الشعر الغزلي و غيره في الصوامع من البدع التابعة لبدع

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد بن هو، المرجع السابق، ص 149.

2 - عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص 19.

3 - طه الولي، المرجع السابق، ص 246.

4- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 149.

5 - نفسه، ج1، ص317.

الأصل الأذان و حده، ثم اتبع الأذكار لقصد الإيقاظ، ثم اتبع الغناء و السماع، و هذا كله من الابتداء...¹.

و يرى الشيخ "طه الولي" أن شكل مآذن بمساجد المغرب الإسلامي قد ارتبط بمذهب المصلين في المسجد الموجودة فيه، خاصة في "تونس" و "الجزائر" و "المغرب"²، حيث عرفت المساجد ذات المآذن المربعة الشكل بالمساجد المالكية، أما المساجد ذات المآذن الأسطوانية فهي للجماعة الحنفية، و يعلل ذلك بقوله: "...ويرجع تاريخ هذا التميز على الزمن التي كانت فيه هذه الأقطار المغربية تابعة للسلطة العثمانية في "اسطنبول"، فإن العثمانيين كانوا يأخذون بالمذهب الحنفي، و يعينون القضاة و المفتين من الذين هم على مذهبهم، و كذلك كان الولاية..... يحرصون على جعل مآذنها أسطوانية على طريقتهم في البلاد التركية..."³ (اللوحة رقم 15).

- خزانة الكتب:

من المعلوم أن الكثير من الكتب صُنفت في المساجد، و من يتصفح الكتب المخطوطة المنتشرة في دور المكتبات في أنحاء البلاد الإسلامية يجد قسما كبيرا منها صُنفت في المساجد، كما أن كتب التاريخ و التراجم تزخر بالعلماء و الفقهاء و الأدباء الذين اتخذوا من المساجد أمكنة فيها يتزودون بأنواع العلوم و المعارف، و يؤلفون آثارهم العلمية، و من أجل أن يحقق المسجد مطامح الطلبة فقد ألحقت في كل مسجد خزانة كتب عامرة تضم عددا وافرا من الكتب العلمية في مختلف مواضيع العلم و الأدب، و قد تسابق الناس إلى تزويد المساجد بالكتب لتعم فائدتها على الناس، و يكسب بها المؤلف الآجر كما يحافظ على كتبه من أن تبددها الأيدي، و يبدو أن انتعاش عملية تزويد خزائن المساجد بالكتب كانت في منتصف القرن الثامن للهجرة⁴ بعدما فترت حركة بناء

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص360.

2 - المغرب لم تدخل تحت لواء الدولة العثمانية، و من خلال الزيارات التي قمت بها إلى المغرب لم أشاهد مساجد ذات مآذن أسطوانية، و إن وجدت فهي ربما تأثرت بالطراز العثماني في الجزائر.

3 - طه الولي، المرجع السابق، ص254.

4 - الحسين إسكاف، تاريخ التعليم بالمغرب من خلال العصر الوسيط (1هـ - 9هـ / 7م - 15م)، المطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 2004م، ص91-97.

المدارس فأصبحت بعض المساجد أشبه بالأكاديمية العلمية و الثقافية، و كان لهذا الأثر الكبير في نجاح الدرس و التدريس و البحث و التصنيف¹.

لا تخلوا المساجد من خزائن الكتب سواء السابقة أو الحالية، و كان من الطبيعي أن تنتشر هذه الخزانات في المساجد خاصة في الفترة الموحدية لكثرة التأليف²، وذلك للاستقرار الذي عرفه المغرب الإسلامي في هذه الفترة وكذلك تشجيع الحكام و تسابق الأغنياء على اقتناء الكتب، و وقفها على خزائن المساجد و فق شروط يضعها الواقف، وكانت الكتب تخضع في إعارتها أو نسخها أو مطالعتها للشروط التي يضعها الواقف³.

1 - محمد السعيد الطريحي، المرجع السابق، ص 10.

2 - المقرئ، المصدر السابق، ج 5، ص 275، 276.

3 - من خلال وقفية ابن عنان (محفوظة في أعلى مستودع الجانب الشرقي لمسجد جامع القرويين بفاس) يمكن إعطاء مثال حول الشروط التي يضعها الواقف لوقفه و التي يحرص ناظر الأوقاف على تطبيقها و جاء نصها كمايلي:

- الحمد لله حق حمده.....و رضي الله عنه. سطر الأول.

- ملوك الزمان المظفر المولى أبو عنان ابن الخلفاء الراشدين. السطر الرابع.

- التعظيم و التكریم جعل ذلك نصره الله وقفا مؤبدا لجميع المسلمين. السطر الثامن.

- حتى يرث الله الأرض و من عليها.....السطر التاسع.

- الله على طلبة العلم و إظهاره و ارتقائه و اشتهاه و تسهילה لمن. السطر العاشر.

- أراد القراءة و النسخ منها و المطالعة و المقابلة و ليست لأحد أن يخرجها. السطر الحادي عشر.

- من أعلى المودع التي هي فيه و لا يغفل للمحافظة عليها و التنويه. السطر الثاني عشر.

- سلكه و ذلك في جمادي الأولى عام خمسين و سبعمائة.... السطر الأخير.

* الشروط التي وضعها الواقف:

- وقفا مؤبدا لجميع المسلمين: يستفاد من هذه العبارة أن الوقف فسخ المجال لكل المسلمين و لم يحدد المجال السياسي و الجغرافي.

- حتى يرث الله الأرض : يستفاد أن الواقف لم يحدد الإطار الجغرافي، فهو كذلك لم يحدد الزمان، هذا ما يعبر عنه بالوقف المؤبد.

- و تسهילה لمن أراد القراءة و النسخ و المطالعة و المقابلة.

- و ليست لأحد أن يخرجها من أعلى المودع: يقصد هنا نص الوقفية و جاءت كلمة المودع يراد بها الخزانة أو باب المستودع. للمزيد

من التفاصيل انظر: - عبد الهادي التازي، جامع القروين، المسجد و الجامع بمدينة فاس، ج 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت،

1972 م، ص 331.

و كان طلبة العلم يستفيدون من نسخ الكتب الموجودة بهذه الخزائن، إذا ما ورد ذلك في متن الوقفية، وقد سئل الفقيه "أحمد القباب" عن وقفية اشترط فيها الواقف أن يقرأ كتابه و يطالع فقط و لم يذكر النسخ فهل يجوز نسخه؟ فأجاب: " إذا لم تذكر الوقفية النسخ فلا ينسخ الكتاب، ثم أضاف: إن "القاضي ابن رشد" الجدل ألقى عليه نفس السؤال فكان الجواب ما قلت. "1، و قد نص الفقهاء أن شرط الواقف² كنص الشارع³.

ولم يقتصر دور خزانة الكتب في المساجد على خزن الكتب و المطالعة فقط، بل كانت مراكز الترجمة، و التناظر، كما اعتاد المعلمون أن يعقدوا حلقات التلاوة و الدرس حول هذه الكتب، و لعبت خزانة مسجد جامع "القروين" "بنفاس" هذا الدور⁴، على غرار باقي الخزائن في بقية المساجد الجامعة بالمغرب الإسلامي.

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 37.

2 - من خلال وقفية ابن خلدون يمكن إعطاء نموذج لشروط التي يضعها الواقف لكتابه، و التي تراعى أثناء المطالعة و جاء نصها:

- بسم الله الرحمن الرحيم.....السطر الأول.

- هذا أحدهما وقفاً مرعياً و حسباً مرضياً على طلبة العلم الشريف بمدينة فاس...السطر السابع.

- قاعدة بلاد المغرب ينتفعون بذلك قراءة و مطالعة و نسخاً.....بحيث لا يخرج حرماً إلا لثقة أمين برهن وثيق لحفظ صحته و أن لا يمكث عند مستعيره أكثر من شهرين.....السطر التاسع.

- المستعار أو المطالعة ثم يعاد إلى موضعه و جعل النظر.....السطر العاشر.

* الشروط التي وضعها الواقف:

- وقفاً مرعياً و حسباً مرضياً على طلبة العلم: يستفاد من هذه العبارة أن الوقف فسخ مجالا لكل طلبة العلم بمدينة فاس، و من ثم فإن هذا الشرط واسع الفائدة حيث لم يحدد فقط لطلبة جامع القرويين.

- ينتفعون به قراءة و مطالعة و نسخاً.

- و لا يخرج حرماً إلا لثقة أمين... و هي العادة في جميع الكتب الموقوفة، أي لا تخرج من الجهة الموقوفة عليها، و لا تعار، و ذلك خوفاً من الضياع.

- لا ينبغي أن تتعدى المدة الزمنية شهرين و هي المدة الكافية لنسخ الكتاب و مطالعته. للمزيد من التفاصيل أنظر: - يحيى وهيب الجبوري، الخط و الكتابة في الحضارة الإسلامية، ط1 بيروت، لبنان، 1994 م، ص175.

3 - البهوتي، المصدر السابق، ص128.

4 - عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 335.

لم تشر المصادر و المراجع التاريخية التي تناولت الحياة الفكرية في مدينة "تلمسان" المكتبات التي كانت موجودة بالمساجد، إلا ما ذكر حول المكتبتان اللتان كانتا موجودتين بالمسجد الجامع المرابطي، و هما حافظتين بالكتب¹ النفيسة التي يستفيد منها الطلبة في وقت الفراغ من الدراسة، حيث المكتبة الأولى أنشأها السلطان الزياني "أبو حمو موسى الثاني" سنة (760هـ / 1359م)، تتواجد على يمين المحراب، أما المكتبة الثانية أنشأها السلطان أبو زيان محمد الثاني سنة (796هـ / 1394م) تتواجد هذه المكتبة بالقسم الأمامي من الجامع الكبير المرابطي.²

و يبدو أن المساجد الجامعة بالمدن الإسلامية مشرقاً أو مغرباً كانت مزودة بمكتبات ذات شأن، كالجامع "الأزهر" في "مصر"، و الجامع "الأموي" "بدمشق"، و جامع "الزيتونة" "بتونس" و الجامع الكبير "بالجزائر" و "تلمسان"، كما يمكن القول أن جميع الحكام الذين أقاموا مؤسسات تعليمية دينية خلال الفترات التاريخية التي مرت بها البلاد الإسلامية زودوها بمكتبات عامرة، أكان في المشرق أو المغرب الإسلامي. و يؤكد ذلك "أبو القاسم سعد الله" من خلال قوله: "إن "الجزائر" كانت في طليعة البلاد الكثيرة الكتب و المكتبات، و شهد على ذلك الفرنسيين خصوم العثمانيين، و كانت مصادر هذه الكتب متنوعة، فهناك ما حمل إليها من "الأندلس"، و ما حمل من المشرق، و ما ألف في "المغرب" و "الجزائر" بالذات، و ما حملة العثمانيون معهم عند وفودهم إليها"³

و لم يحدد وقتاً المطالعة إلا أنه لا يجوز استعمال مصاييح المسجد إلا في حالة اشتعالها، وقد غفل الكثير من الناس في زماننا على هذا النهي، حيث تراهم يستعملون مصاييح المساجد نهاراً، أو يكتشرون من إشعالها ليلاً فوق الحاجة إليها، وقد أفرد لنا "الونشريسي" نازلة تصب في هذا السياق

1 - احتوت مساجد مدينة "تلمسان" على مكتبات ساهم في ملئها السلاطين و ذوي البر و الإحسان، و توجد العديد من أموال الأوقاف موقوفة عليها، و توفرت رفوف هذه المكتبات على نسخ من القرآن الكريم، و نسخ لصحاح السنة، و التفسير، و الفقه إلى غير ذلك من الكتب المرتبطة بالعلوم الشرعية، إلى جانب ذلك كتب اللغة، و الطب و الحساب، أما عن قوامه المكتبات فقد كان يشرف عليها موظفون أكفاء يسهرون على خدمة الطلبة، و ذلك من خلال تقديم كل ما يحتاجه الناس من مستلزمات النسخ كالأوراق و الأقلام و غيرها.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الجليل قريان، " تاريخ المذهب المالكي في المغرب الأوسط إلى نهاية العهد الزياني، مجلة المحراب، قسنطينة، العدد1، مارس 2007م، 84، 86. و كذلك: - محمد بن رمضان بن شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص 400.

3 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ج1، ص230.

حيث قال: " و سئل رحمه الله هل يجوز الانتفاع بمصباح المسجد في حال اشتغاله بمطالعة كتب العلم أو غيره؟ فأجاب: إن كان الانتفاع في وقت اشتعال المسجد المعتادة فليس فيه ما يتقى...¹."

- المخازن:

توجد في بعض المساجد مخازن تستعمل لحفظ أغراض المسجد من أفرشة و زيت المستعمل للإضاءة، و قناديل، أو لأغراض موقوفة على المساجد مثل الخشب و مواد البناء وغيرها، وقد يكون مكانها في قاعدة المئذنة، كما هو الحال في المآذن مدينة "تلمسان"، كمئذنة جامع "أبي الحسن" بتلمسان" و مئذنة "المنصورة"²، و قد تستعمل في بعض الأحيان لحزن بعض حاجيات المصلين، إذا كان المخزن يتسع لذلك، و قد وسئل الإمام "الغزالي" عن خزن في المسجد أو في طائفة منه شيئاً هل يلزمه الكراء؟ فأجاب: " إذا طرح في المسجد غلة أو غيرها لزمه أجرته...³."

1 - 3 - القومة:

لقد تعددت الوظائف في المسجد، من إمام للصلوات الراتبة، و الإمام الخطيب و المفتي و الحزب إلى غير ذلك من الموكليين بخدمة المسجد، و اختلف عددهم من فترة إلى أخرى حيث يذكر "الونشريسي" من خلال هذه المسألة ثلاث وظائف أساسية كانت في العصر الوسيط: " مسألة مسجد عليه أوقاف محبسة لتصرف فيما يحتاج إليه من استيجار إمام و مؤذن و وقيد...⁴"، أما في الفترة العثمانية خاصة بمساجد مدينة "الجزائر" نجد وظائف جديدة مثل "الراوي" وكان مكلف بقراءة كتب الحديث خاصة الصحيحين⁵، و "الحزب" وكان مشرف على قراءة حزب الراتب قبل صلاة الظهر و العصر، و "باشا مؤذن" وهو كبير المؤذنين، و مؤذن المنبر يشرف على أذان صلاة الجمعة و مؤذن الصلوات المكتوبة النهارية، و مؤذن يشرف على أذان الصلوات المكتوبة الليلية. و كان القومة يتلقون روايتهم من مداخل الأوقاف، وكانت غير ثابتة إذ كانت

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 294.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد بن حمو، المرجع السابق، ص155.

3 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص266.

4 - نفسه، ج7، ص94.

5 - صحيح "البخاري" و صحيح "مسلم".

مرتبطة بحجم العقارات الموقوفة، ومدخيلها المالية، نذكر على سبيل المثال، رواتب موظفي مسجد عبدي باشا الذي يعود تاريخه إلى سنة (1142هـ / 1729م)، وذلك حسب الجدول التالي:

الوظيفة	الراتب بالريال الدراهم	الوظيفة	الراتب بالريال الدراهم
الخطيب	15	الشعال	3
الإمام	8	الكناس . الفراش	1.5
الحزاب	1	حامل عصا الخطيب	1
المدرس	5	منظف الميظأة	1
الراوي	1	مؤذن الفجر، المغرب، العشاء	1
باش المؤذن	3		
المؤذن	2		
المؤذن المنبر	2		

نستخلص من الجدول المعروض أن رواتب موظفي المساجد كانت متواضعة، و يقول الأستاذ "أرزقي شويتام": ".... ونحن نتساءل كيف يمكن للموظف الذي يتقاضى ريالاً واحداً في الشهر أن يغطي نفقات أسرته؟ و ما بالك في فترات الأزمات التي كان يصل فيها الصاع الواحد خمسة عشر ريالاً، أي ما يعادل أعلى الراتب الشهري الذي كان يتقاضاه الخطيب، و لهذا نجد أن معظم الموظفين كانوا يتلقون نصيبهم من الصدقات التي كانت توزع في المناسبات الأعياد الدينية، شأنهم شأن الفقراء البلاد".¹

أما من المنظور الفقهي ورأي المفكرين المسلمين في موظفي المساجد ارتأينا ذكر ثلاث وظائف أساسية اجتمعت في العصر الوسيط وفي الفترة العثمانية و هي:

أ - الإمام:

كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإمام الأول للمسلمين في صلاتهم و على هذا ارتبطت شروط الإمامة بشروط الخلافة، لكن مع انتشار الإسلام خارج المدينة المنورة، و بناء المساجد بالدور و جب تعيين للمسلمين إماماً يتولى أمر الصلوات الخمس، و من هنا ارتبطت شروط الإمامة في الصلاة بالحديث النبوي الذي رواه "أبي مسعود الأنصاري" رضي الله عنه: " قال رسول الله صلى

1- أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني (926 . 1246 هـ / 1519 . 1830 م)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م، ص 388.

الله عليه و سلم: " يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء، فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء، فأقدمهم سلماً، و لا يؤمّن الرجل الرجل في سلطانه، و لا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه ". ويرى جمهور العلماء أن كل من صحت صلاته لنفسه صحت صلاته لغيره، و هذا ثابت بالاستقراء، كما تصح إمامة الأعمى لقول "أنس" أنّ النبي صلى الله عليه وسلم استخلف "ابن أم مكتوم" يؤم الناس و هو أعمى، كما تصح إمامة الصبي المميز، بل هو الأولى في الإمامة إذا كان أقرأ القوم¹.

و في المسجد لا يمكن أن يكون أكثر من إمام واحد، و يقول "الونشريسي" في ذلك: "... و مأخذ هذه المسألة أكرمكم الله بتقواه من حديث "عمر بن سلمة" الذي قال فيه: ... فانطلق أبي وافدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من قومه يعلمهم الصلاة، و فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: **يؤمكم أقرؤكم**. قال "عمر": فكنت أوهمهم وساق الحديث، وجه الدليل منه أن النبي أمرهم بإمام واحد يقدمونه من أنفسهم على الصفة المذكورة ولم يأمرهم بإمامين...."².

و يمكن أن يتخذ في شهر رمضان إمام ينتدب لصلاة التراويح، و سئل في ذلك "ابن علاف" عن إمام ينتفع بما للمسجد من الأملاك المحبسة من الأرض، ثم جعل أهل الموضع إماما لشهر رمضان بأجرة معلومة،³ و ينتدب للإمام أجرة تقطع من الأوقاف أو يجعل له أجرة من طرف السكان، و قد سئل "عيسى الغبريني" عن قرية بها جماعة فامتنع بعضهم من إقامة الجماعة، و بناء المسجد، و أخذ المؤدب لقراءة أولادهم فهل يجبرون على ذلك؟ إذ في عدمه تعطيل المساجد، و إقامة السنة و تضييع القرآن أم لا؟ فإن قلمم بجبرهم و لم يجدوا من يؤم، فهل يجبرون على أجرة الإمام و توزع على رؤوسهم؟، فأجاب رحمه الله: " جبرهم على بناء المسجد واجب، و كذا جبرهم على مؤدب أولادهم. و أما جبرهم على أجرة الإمام فكان شيخنا رحمه الله يفتي به إذا كانوا لا

1- للمزيد من التفاصيل أنظر: - العويشة، المرجع السابق، ج2، ص 220، 221.

2- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص95.

3 - نفسه، ج7، ص 108.

يحسنون القراءة و لا أحكام الصلاة و عدم من يصلي بهم إلا بإجارة، و توزع الإجارة عليهم و تبقى الكراهة في حق الإمام أو أشد منها، لأن الإمام حينئذ تتعين عليه و الله أعلم.¹ و لما كان الإمام له أجرة من الأوقاف التي تحبس على المسجد و يجب محاسبته إذا خرج عن إمامة المسجد أثناء السنة، و ذكر لنا "الونشريسي" نازلة في هذا الباب حيث قال: " سئل عن رجل كان يؤم بأهل قرية، و اتفقوا معه بأجرة معلومة في العام، و زيادة على ذلك يزرعون له عددا معلوما من الزرع تقوم الجماعة بعمله، و يأخذ هو الفائدة و يأخذ أيضا فائدة العصير، وهذا كله أيضا من شرط الاتفاق العام..... و بقي هذا الرجل يؤم القوم نحو نصف السنة، و خرج عنهم في آخر شهر أبريل، و الزرع قد ظهر فيه الطعام و الغلة.... و وصل هذا الرجل لجميع إجارته، و لم يبق له غير فائد الزرع و فائد الكرم، فهل يجب له فائد الزرع بجملة؟ أم لا يجب له لكونه لم يكمل العام؟ فأجاب أما مسألة الإمام فالجواب أن الزرع كله له و عليه الكراء، أعني كراء الأرض، يحاسب بها بقدر ما خرج من السنة، و يؤدي سائره للإمام الداخل...².

ب - المؤذن:

و هو الذي توكل له مهمة الأذان و إقامة الصلاة و التبليغ كذلك، و ينفق عليه من مال الأوقاف، و نص هذه النازلة يوضح ذلك: " و سئل عن حبس على مسجد و المؤذن ينتفع بكرائها بطول السنين...³.

ولقد بالغ الناس في عدد المؤذنين، و هذا ليس بغريب و لكن نجم عن ذلك صرف أموال الأوقاف على عدد كبير من المؤذنين، و نرى في ذلك من خلال مسألة طرحت على الفقه "إبراهيم بن محمد الزيناسي" نصها: " عن مسجد له حوانيت محبسة عليه، كان يجري على فوائدها من قديم الزمان مرتب أربعة من المؤذنين مع سائر ضروريات، ثم إن بعض الناس تسبب ببعض أهل الجاه في الأذان فيه، على أن يجري له فيه مرتب، فصاروا يجري لهم مرتب زائد، و صاروا فيه بسبعة من المؤذنين، و المسجد غير محتاج إلى كثرة المؤذنين"⁴. و رغم أن تسليم الأجرة للمؤذن لم يرد فيه نهي، و لكن

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 139، 140.

2 - نفسه، ج7، ص147.

3 - نفسه، ج7، ص155.

4 - نفسه، ج7، ص41.

من المستحب أن يقوم ذلك رجاء ثواب الله، ولعل هذه النازلة تؤكد ذلك: " وسئل عن مؤذنين بمسجد كلهم بالمرتببات فقام أحد منهم، وقال: أنا أؤذن دون مرتب أو أنا أوقد المصابيح بها دون راتب و يخلى المرتب للمسجد ينتفع به في الزيت وهو مثله أو أحسن منه في الآذان، والوقد، و الدين، فبين لنا ذلك و ما الحكم فيه؟ فأجاب: أما المؤذن المذكور فإنه إذا أثبت أنه ذو كفاية في القيام بالآذان و الوقود المعتادين فإنه يمكن مما ذكر، ويكون مأجورا مشكورا إن صحت نيته في ذلك."¹.

و يشير "ابن عبدون" إلى عدد المؤذنين بالمساجد الأندلسية بقوله: " و يجب أن يكون فيه من المؤذنين على عدد أبواب الجامع و زيادة اثنين: يكون واحد منهما بالقرب من الإمام، يعلن بصوته الناس عند التكبير و الركوع و السجود في كل صلاة، و الثاني في آخر البلاطة، يعلن من يصلي في الصحن أو في السقائف ممن هو على بعد و لا يسمع صوت الأول الذي قريب من الإمام يكون ذلك دولة بينهم إلى يوم الجمعة: فيرتب على كل باب من أبواب الجامع واحد يكبر للناس بتكبير الإمام لمن يصلي في الرحاب..."².

ج - المؤدب:

يتولى تعليم و تربية الأطفال في المسجد المؤدب، و يسمى كذلك الشيخ أو الإمام، وينفق عليه كذلك من الأوقاف، أو تعطى له أجرة من طرف السكان، وسئل "عيسى الغبريني" عن قرية بها جماعة فامتنع بعضهم من إقامة الجماعة و بناء المسجد و أخذ المؤدب لقراءة أولادهم، فهل يجبرون على ذلك؟ إذ في عدمه تعطيل المساجد و إقامة السنة و تضيع القرآن أم لا؟ فإن قلتهم يجبرهم و لم يجدوا من يؤم، فهل يجبرون على أجرة الإمام و توزع على رؤوسهم؟ فأجاب: " جبرهم على بناء المسجد واجب، و كذا جبرهم على مؤدب أولادهم. و أما جبرهم على أجرة الإمام فكان شيخنا رحمه الله يفتي به إذا كانوا لا يحسنون القراءة و لا أحكام الصلاة و عدم من يصلي بهم إلا بإجارة، و توزع الإجارة عليهم و تبقى الكراهة في حق الإمام أو أشد منها، لأن الإمام حينئذ تتعين عليه و الله أعلم."³.

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 57.

2 - ابن عبدون، المصدر السابق، ص22، 21.

3 - الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 139، 140.

اتخذ سكان أحياء مدينة "تلمسان" خلال الفترات التاريخية التي مرت بها المدينة مساجد تقوم بالوظيفة الدينية المنوطة بها بالإضافة إلى تدريس الأطفال أبجديات اللغة العربية و تحفيظ كتاب الله، و قد سهر على ذلك شيوخ أكفاء يختارهم سكان الحي ممن يتق في صلاحه و علمه، و من بين هذه المساجد و أبرزها نجد مسجد "أبي عبد الله الشريف"، و مسجد "سيدي إبراهيم الغريب"، و في الفترة الزبانية ألحقت بهذه المساجد مكاتب تؤدي فيها وظيفة التعليم، كما أنشأت مدارس ألحقت بها مساجد منها مسجد "سيدي أبي مدين شعيب" "بالعباد"، و مسجد "سيدي الحلوي"، و مسجد "أولاد الإمام"¹.

د - الوقاد:

وهو الذي يتولى إشعال القناديل لإضاءة المسجد و كانت تصرف له أجرة من مال الأوقاف على حسب عدد القناديل التي يشعلها أي تقدر حسب عمله، و هذا ما تؤكد هذه المسألة التي طرأت على "الونشريسي" مفادها: " أن رجلا كان بالمسجد الجامع الأعظم يشغل وظيفة إيقاد القناديل بأجرة قدرها اثنا عشر دينارا صغيرة في كل شهر، وكان عدد القناديل مائة و عشرين، ثم بلغ ذلك كل ربيع المذكور إلى أن بقي من القناديل ستون قنديلا فقام ناظر الأحباس، و قال للوقاد المذكور: إنما تأخذ نصف الأجرة...."².

لم تشر المصادر التاريخية إلى أسماء شغلت هذه الوظيفة في مساجد مدينتي "تلمسان" أو "الجزائر"، لكننا يمكن القول أن مساجد المغرب الإسلامي خاصة الجامعة منها كان بها من يسهر على إيقاد القناديل، كما نجد في المتاحف الجزائرية العديد من هذه القناديل التي استعملت للإضاءة.

1 - 4 - الوظيفة:

لقد جمع المسجد إبان عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بين العبادة و التعليم و القضاء، و أصبح ذلك سائرا في كل الأمصار و المدن سواء بالشرق و المغرب الإسلامي.

أ - العبادة:

تعتبر عبادة الله هي الدور الأساسي الذي من أجله أنشئت المساجد، و تتنوع هذه العبادة من ذكر الله و تسبحة لقوله سبحانه و تعالى ﴿ فِي بُيُوتِهِ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ

1 - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 145.

2 - الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 86.

يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآحَالِ¹، و الدعاء و الذي هو لب العبادة مصداقا لقوله سبحانه و تعالى: ﴿... وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ آذِنُوا لَهُمْ مَخْلُصِينَ..﴾²، و ينهى أن يذكر غير الله في المسجد في قوله سبحانه: ﴿... وَ أَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾³، و من هذه الآية يحرم كل أمر يدعو إلى غير عبادة الله .

و من الأمور التي شدد عليها الفقهاء هو البيع و الشراء في المساجد⁴، و كلف المحتسب بذلك، و يقول "ابن عبد الرؤوف": "...و يمنع البيع و الشراء في داخل المسجد، و عن الكلام بما لا يرضي الله تعالى، و عن إنشاد الضالة، و الهتف بالجنائز، و عمل الصناعات كلّها كالخياطة و غيرها و أعظم ذلك في الإثم قبض المعاون و المغارم و العشر...و للقاضي أن يقضي فيه بين الناس...".⁵ و نستشف ذلك من خلال قول "الونشريسي": " إن الصحن الذي يغلق عليه باب المسجد له حرمة المسجد و حكمه، فلا يصلى فيه على الميت، لأن الميت لا يدخل إلى المسجد ولا يعمل فيه عمل الدنيا و لا شغل من أشغالها، ولم تبنى المساجد إلا لأعمال الآخرة".⁶

1 - سورة النور الآية 36.

2- سورة الأعراف الآية 29.

3- سورة الجن الآية 18.

4- نعى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشراء و البيع في المسجد، و يجب أن يقال للبائع أو الشاري: لا أريح الله تجارتك، بذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم و قد روى عمرو بن شيبه عن أبيه عن جده حيث قال رسول الله عليه الصلاة و السلام في قوله: " إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أريح الله تجارتك، و إذا رأيتم من ينشد فيه ضالة فقلوا: لا ردها الله عليك." للمزيد من التفاصيل أنظر:- محمد ناصر الدين الألباني، كتاب أحكام المساجد، تقديم: علي بن حسن الحلبي الأثري، غراس للنشر و الإصدار، الكويت، ط 1، 1425 هـ / 2003 م، ص 117، 118.

5 - ابن عبدون، المصدر السابق، ص73.

6- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص162.

ويرتبط دور المسجد كذلك بالصلاة بأنواعها، كالصلوات الخمس، و صلاة الجمعة¹ و صلاة العيدين²، إذا اقتدت الضرورة لذلك³، و صلاة الخسوف و الكسوف⁴ و صلاة الاستسقاء⁵، و الاعتكاف في المساجد ﴿...وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَ أَنْتُمْ مَا كَفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ...﴾⁶، و الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد الجامع، وقد سئل "الونشريسي" عن جواز الاعتكاف في مسجد الدار؟ فأجاب رحمه الله: "لا خلاف إن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد مباح لكافة الناس لا حجر فيه على أحد. و أما من بنى مسجدا ليختص به هو و قرابته و جيرانه فلا يجوز فيه الاعتكاف و الجمع ليلة المطر."⁷

1 - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ، عَنْ أَبِي جَمْرَةَ الضَّبْعِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ أَوَّلَ جُمُعَةٍ جُمِعَتْ بَعْدَ جُمُعَةٍ فِي الْمَسْجِدِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسْجِدِ عَبْدِ الْقَيْسِ، بِجَوَاتِي مِنَ الْبَحْرَيْنِ. لِلْمَزِيدِ مِنَ التَّفَاصِيلِ أَنْظِرْ: - البخاري، المصدر السابق، ص159.

2 - صلاة العيدين تقام بالمصلى، و هي عبارة عن ساحة أو بطحاء واسعة غير مستقمة. أنظر: - العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص399.

3 - في حالة غياب الأمن أو الأمطار أو عدو وجود مساحة أو رحبة كبيرة على المسجد بإمكانها جمع العدد الكبير من المصلين فلا مانع من الصلاة داخل المسجد. للمزيد من التفاصيل أنظر: - البخاري محمد بن إسماعيل، سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، تحقيق: عصام الضبابطي و عماد السيد، دار الحديث، مصر، (د ت)، ج2، ص437.

4 - صلاة الكسوف و الخسوف تقام بالمسجد الجامع، يذكر في ذلك البخاري حديثا في هذا المعنى: " حَدَّثَنَا عمرو بن عوف قال: حَدَّثَنَا خالد، عن يونس، عن الحسن، عن أبي بكرة قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْكَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْرُ رِجْلَهُ حَتَّى دَخَلَ، فَدَخَلْنَا، فَصَلَّى بِنَا رَكَعَتَيْنِ...". للمزيد من التفاصيل أنظر: - العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص184.

5- صلاة الاستسقاء على الشكل المعهود لا تقام إلا بالمصلى و هي بطحاء خارج المسجد مهيأة لمثل هذه الصلوات وذليل على ذلك ما ذكره البخاري: " حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا سَفِيَانُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، سَمِعَ عَبَّادَ بْنَ تَمِيمٍ، عَنْ عَمِّهِ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَصَلِيِّ يَسْتَسْقِي، وَ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ...". أنظر: - البخاري، الجامع...، ص178.

6- سورة البقرة، الآية 187.

7- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص430، 431.

أما صلاة الجنائز فتصلى خارج حرم المسجد، و لا مانع أن تصلى داخل المسجد لمطر أو عدم وجود رحبة¹ للمسجد، مما يجعل الإمام يخرج إلى مكان يتسع له مع نعش الميت و يكفي المصلون بالصلاة داخل بيت الصلاة مثل ما هو سائر في زماننا هذا.²

ولم تقتصر الصلاة في المساجد على الرجال فقط بل حبب الرسول صلى الله عليه و سلم للنساء بالسير للمساجد غير مبدين زينتهن حيث قال عليه الصلاة و السلام: " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن و هنّ تفيلات "³.

ب - القضاء:

لقد استعمل المسلمون مساجدهم دورا للقضاء كذلك، و كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقضي في المسجد، و قال الإمام "مالك": " القضاء في المسجد من الأمر القديم"⁴. وهذا لا يعني أن الدولة الإسلامية كانت عاجزة على بناء دور للقضاء، و لكن خطة القضاء كانت تسند إلى أعلم الأمة أو البلد بالفقه و تشريع الإسلامي لكونه كان محكما في تلك الفترة، و كان مستقلا عن دار الخلافة، هذه الاستقلالية لا ترجع لكون الخلفاء و الأمراء أرادوا ذلك، و لكن بتعدد المدارس الفقهية نشأت هذه الاستقلالية، و لعلمنا كذلك أن القضاة كانوا دائما من أهل العلم و الورع فأرادوا أن يسير القضاء في طريقه بعيدا عن تأثير الدولة و رجالها فجلسوا في المساجد، رغم أن التعيين يكون

1 - رحبة المسجد و الدار بالتحريك: ساحتها و متسعها. قال سيويه: رحبة و رحاب، كرقبة و رقاب، ورحب و رحبات، قال الفراء: يقال للصحراء بين أفنية القوم و المسجد: رحبة، لسعتها بما رحبت أي بما اتسعت. أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص 483.

2- روت عائشة رضي الله عنها أنه لما توفي سعد بن أبي وقاص أرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، أن يبروا بجنائزته في المسجد فيصلين عليه، ففعلوا، فوقف به على حجرهن يصلين عليه . أخرج به من باب الجنائز الذي كان إلى المقاعد . فبلغهن أن الناس عابوا ذلك فقالوا: ما كانت الجنائز يدخل بها المسجد فبلغ ذلك عائشة فقالت: ما أسرع الناس إلا أن يعيبوا ما لا علم لهم به ؟ ! عابوا علينا أن يمر بجنائز في [ما] صلى رسول الله عليه الصلاة و السلام على سهيل ابن بيضاء [و في لفظ: ابني بيضاء: سهيل و أخيه [إلا] في [جوف] المسجد " و منهم من يعتقد أن الميت نجس فهذا باطل لأن المؤمن لا ينجس حيا و لا ميتا، فالحق أن إدخال الجنائز إلى المسجد، و الصلاة فيه جائز بدون كراهة، لكن لم يكن ذلك من عاداته عليه الصلاة و السلام، بل الغالب عليه الصلاة عليها خارج المسجد. للمزيد من التفاصيل أنظر: - الألباني، أحكام المساجد.....، ص 179.

3 - العوايشة، المرجع السابق، ج2، ص207.

4 - ابن عبدون، المصدر السابق، ص74.

من طرف الحاكم، و لم يذكر لنا التاريخ أن القضاة طلبوا من الخلفاء و الأمراء في أول الأمر إنشاء دور للقضاء و ذلك سواء بالمدينة أو باقي المدن الإسلامية¹، بل اتخذوا مجالسهم في المساجد قصدا و عقدوا مجالسهم فيها علنا، و أصدروا أحكامهم فيها كذلك، تأسيا بالرسول صلى الله عليه و سلم.

أما في المغرب الإسلامي فقد بقي المسجد يؤدي هذه الوظيفة إلى غاية فترة "الونشريسي" وهذه النازلة التي أفتى بها رحمه الله تصب في هذا السياق حيث سئل رحمه الله "هل للمعلمين أن يقرؤوا الأولاد في الصحن المسجد أو في رحابه، أو في المسجد كان يحكم فيه بعض القضاة..."²، و لكن يمنع إقامة الحدود و القصاص في المساجد، لقوله عليه الصلاة و السلام: " لا تقام الحدود في المساجد و لا يستقاد فيها."، و الحديث يدل على تحريم إقامة الحدود في المساجد و تحريم الاستقادة فيها، لأن النهي كما تقرر في الأصول، حقيقة في التحريم، و من المعروف من هديه عليه الصلاة و السلام إقامة الحدود خارج المسجد³، كما في حديث "أبي هريرة رضي الله عنه في قصة "ماعز"، فقال رضي الله عنه: " أتى رجل رسول الله عليه الصلاة و السلام و هو بالمسجد فناده فقال: يا رسول الله ! إني زنيت، فأعرض عنه حتى رد عليه أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع مرات قال النبي صلى الله عليه و سلم: اذهبوا به فارجموه، قال جابر بن عبد الله: فرجمناه بالمصلى "⁴.

1- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص35.

2 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص83.

3 - كان الرسول صلى الله عليه وسلم القاضي الأول بالمدينة، وكان المسجد النبوي تحل فيه النزعات و تصدر فيه الأحكام و كان تنفيذ الأحكام يقام خارج المسجد و من بين الأحاديث التي تشير إلى ذلك مارواه البخاري في صحيحه: حدّثنا عبد الله بن محمد قال: حدّثنا عثمان بن عمر قال: أخبرنا يونس، عن الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب: أنّه تقاضى ابن أبي حدرد دينا كان له عليه في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو في بيته، الله عنه: فخرج إليهما، حتى كشف سحف حجرته، فنادى: " يا كعب " ، قال : لبيك يا رسول الله قال: " ضع من يدك هذا " و أومأ إليه أي الشطر، قال: لقد فعلت يا رسول الله، قال: " قم فأقضه ". و هذا ما يدل على جواز التقاضي بالمسجد على أن الأحكام تقام خارج المسجد لقوله صلى الله عليه وسلم: " قم فأقضه ". أنظر:- البخاري، الجامع...، ص95.

4 - محمد الدين القاسمي، المصدر السابق، ص 65.

أما في مدينة "الجزائر" فكان المسجد الجامع الكبير مقرا للقاضي و منه ترد الفتاوى على عامة الناس و خاصتهم، و في الفترة الفرنسية حول القاضي و القضاء إلى قصر عرف في ما بعد بدار القاضي، و يقع أسفل القصبة قرب سوق "الجمعة".

ج- التعليم:

لعب المسجد ولا يزال دورا أساسيا في التعليم منذ فترة صدر الإسلام الأولى و من الثابت أن حلقات العلم كانت تعقد في المسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، و في المساجد الأخرى القائمة في المدينة و غيرها، واستمر هذا الاتجاه و تعمق عبر العصور¹. على أن من المهم أن نشير أنه كان يدرس في حلقات المساجد هو في الأساس ما يعرف بالعلوم النافعة²، ذلك أن الأصل الذي جعل من أجله المسجد هو لعبادة الله سبحانه و تعالى، غير أن دراسة الفقه قد عدت من أفضل أنواع العبادات.

و كان يدرس بالمسجد إضافة للفقه العلوم الإسلامية الشرعية و المساعدة بشتى أصنافها، و يشير "ابن عبد البر" أن ما كان يلقي في المساجد في عصر صدر الإسلام، و كذلك منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مقتصرًا إلا على العلوم التي ذكرناها سابقا إذ أفرد لنا أخبار عن حلقات عامة عقدت في المسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة في حياته، و جاء من ضمنها خبر عن رجل مجهول اجتمع الناس من حوله و هو يحدثهم، و عرفه بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه رجل علامة. وحينما استوضح عليه الصلاة و السلام عن معنى المصطلح المذكور ذكروا له: " أنه أعلم الناس بأنساب العرب و أعلم الناس بعربية، و أعلم الناس بالشعر، و أعلم الناس بما

1 - سعيد قاضي، أصول التربية الإسلامية، عالم الكتاب، القاهرة دون تاريخ، ص132.

2 - ابن عبد البر، جامع بيان العلم و فضله و ما ينبغي في روايته و حملته، المطبعة المنيرية، القاهرة، 1398 هـ / 1987 م، ج2، ص23.

اختلف فيه العرب¹ و من هذا يتبين أن تعليم الطلبة و العامة العلوم الأخرى المفيدة لا حرج فيه و حتى قول الشعر².

وسئل "الحفار" عن قراءة كتب المواعظ في المساجد فأجاب: " أما قراءة كتب الوعظ و غيره في المساجد فذلك من المستحب الحسن، و قد كان النبي يتخول أصحابه بالموعظة، فسواء كان الوعظ بكلام من عند الواعظ أو بقراءة كتاب يتضمن الوعظ فذلك كله أمر معمول به، لكن يشترط في ذلك أن تكون المواعظ من الكتاب أو مما يلقيه الواعظ من حفظه أن يكون صحيحا لا ترده القواعد العلمية، لأن الكتب الموضوعية في الوعظ قد تشتمل على باطل كثير، و على أمور شنيعة...³".

أما بالمغرب الإسلامي فكانت المساجد و الجوامع من المؤسسات الأولى التي شغل فيها التعليم في أوائل القرن الثاني للهجرة، خاصة في مسجد "القيروان"، و قد ارتبط انتشار الإسلام و التعليم الإسلامي بانتشار المساجد، و قد ظل كذلك رغم تنوع أماكن التعليم و هياكله هو المكان المعتمد و المعتاد لتدريس العلم للطلاب قبل ظهور المدارس في القرن (7هـ / 13م)، لأنه المكان الملائم لذلك أكثر من غيره خاصة إذا كانت أغلب المواد المدرسة شرعية، أو كان عدد الطلبة كثير بينما كانت المدارس، و مساكن العلماء هي المكان المفضل لتدريس بعض العلوم العقلية. و تنقسم المساجد من حيث وظيفة التدريس حسب الجهة المشرفة عليها إلى نوعين:

1- ابن عبد البر، جامع...، ج2، ص24.

2- إلا التناشد بالأشعار، و هو المفاخرة بالشعر و الإكثار و منه يغلب على غيره و حتى يخشى منه كثرة اللغظ و الشغب مما ينافي حرمة المساجد للحديث الذي رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده "... و نهي الرسول صلى الله عليه و سلم أن تنشد فيه الأشعار" و في لفظ "... و عن تناشد الأشعار"، و الأولى التفصيل، وهو أن ينظر إلى الشعر، فإن كان مما يقتضي الثناء على الله عز وجل أو على رسوله صلى الله عليه وسلم أو الذب عنهما كما كان شعر حسان بن ثابت أو يتضمن الحض على الخير و الوعظ و الزهد في دنيا و التقليل منها، فهو حسن إلى المساجد و غيرها، وما لم يكن كذلك لم يجز، لأن الشعر في الغالب لا يخلو عن الفواحش و الكذب و التزين بالباطل، ولو سلم من ذلك فأقل ما فيه اللغو و الهذر، و المساجد منزهة عن ذلك، لقوله تعالى ﴿ فِيهَا يُدْعَىٰ أَحَدًا لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ (سورة النور الآية 36). و قد يجوز إنشاده في المسجد كقول المتنبي: ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن. أنظر: - الألباني، كتاب أحكام المساجد....، ص107، 108.

3- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص110.

- مساجد الأحياء بالمدن التي بناها الخواص من الرعية و يتكلفون بالإنفاق عليها و تسييرها و الإشراف على التدريس بها، كما لا يتطلب التدريس بها إذن أو رخصة من السلطان، ويبدو أن مساجد مدينتي "تلمسان" و "الجزائر" سارت على هذا المنوال على ما يبدو في ظل غياب نصوص تاريخية تؤكد هذا المنحى، و من خلال المسألة التي طرحت على "الونشريسي" رحمه الله مفادها أن قوما اتخذوا من مساجد البلدة أماكن لتعليم الصبيان، و بعض هذه المساجد لا يستطيع الصلاة فيها لكثرة من بها من الصبيان لا يصلي فيها جماعة في سائر الصلوات، ومن الناس من يقف عن الصلاة لما يتقي أن يصيب الحصر من النجاسات، فهل ترى لهؤلاء المعلمين سعة في تعليمهم في المساجد؟ فأجاب: " لم يجعل الله المساجد ليكتسب فيها الأرزاق، و الذي سألت عنه و وصفته الواجب على تلك أهل البلدة أن يمنعوا مساجدهم من مثل هذا...¹"، في نازلة أخرى مفادها هل للمعلمين أن يقرؤوا الأولاد في الصحن المسجد أو في رحابه، أو في المسجد كان يحكم فيه بعض القضاة؟ فأجاب: " لا يجوز للمعلمين إقراء الصبيان لا في المسجد و لا في صحنه و لا في موضع يحكم له فيه بحكمه.."².

احتج "الونشريسي" في هذه النازلة بحديث ضعيف متته كالتالي: " عن "واثلة بن السقع" عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " جنبوا المساجد صبيانكم و مجانينكم و شرائكم و بيعكم و خصوماتكم و رفع أصواتكم و إقامة حدودكم و سل سيوفكم و اتخذوا على أبوابها المظاهر و جمروها بالجمع."³.

لكنه رحمه الله في نازلة أخرى يبيح تعليم الصبيان بالمساجد من خلال فتوى قدمها "عيسى الغبريني" عن قرية بها جماعة فامتنع بعضهم من إقامة الجماعة و بناء المسجد و أخذ المؤدب لقراءة أولادهم، فهل يجبرون على ذلك؟ إذ في عدمه تعطيل المساجد، و إقامة السنة و تضييع القرآن أم لا؟ فإن قلتهم بجبرهم و لم يجدوا من يؤم، فهل يجبرون على أجرة الإمام و توزع على رؤوسهم؟

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص123.

2 - نفسه، ج7، ص83.

3 - محمد بن يزيد ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق ناصر الدين الألباني، مكتبة دار المعارف للنشر و التوزيع، الرياض، السعودية، (دت)، رقم الحديث (148 . 757)، ص 63. كذلك: - محمد ناصر الدين الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار

السبيل، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1405 هـ / 1985 م، ج7، ص 361.

فأجاب: " جبرهم على بناء المسجد واجب، و كذا جبرهم على مؤدب أولادهم. و أما جبرهم على أجرة الإمام فكان شيخنا رحمه الله يفتي به إذا كانوا لا يحسنون القراءة و لا أحكام الصلاة و عدم من يصلي بهم إلا بإجارة، و توزع الإجارة عليهم و تبقى الكراهة في حق الإمام أو أشد منها، لأن الإمام حينئذ تتعين عليه و الله أعلم."¹.

إن المساجد الكبرى التي تشرف الدولة على رعايتها و النظر في تعيين أئمتها و يتطلب التدريس بها الحصول على الإذن من السلطان، و عادة ما يهتم السلاطين بالمساجد الكبرى، و يمكن أن نلمس ذلك من خلال حلقات العلم التي كان يحضرها أو يدرس بها كبار العلماء في جميع الاختصاصات²، و هذا ما نجده في المساجد الجامعة بمدينتي "تلمسان" و "الجزائر".

و في سنة (691هـ / 1291م) حدث تحولاً هاماً في نظام التعليم بالمساجد و تمثل في تمويل الأنشطة التعليمية بواسطة الأقباس من خلال إحداث كراسي مخصصة لتدريس مادة معينة، باعتماد كتب دراسية محدد في بعض الأحيان يتقاضى المكلف بتدريسها راتبه من الأوقاف محبسة لهذا الغرض من طرف الحكام أو من الرعية.

لم يعتد أغلب المدرسين بالمغرب الإسلامي اتخاذ الكراسي لتدريس و لا يجلسون على حائل مرتفع دون جلسائهم في حلقة التدريس، لأن بعض منهم يعتبر التدريس على الكراسي بدعة لأنها تغضب الأماكن للمصلين، و لا يتحول أثناء الصلوات، و يقول "الونشريسي" في ذلك: "...ومنها ما أحدثه المنتسبون إلى العلم، و لا سيما أهل المغرب من الجلوس على الكرسي، و قد كان هدي العلماء في قعودهم أن يجتمع أحدهم في قعوده و ينصب ركبتيه..... و أول من قعد على الكرسي من أهل العلم "يحيى بن معاذ" "بالري"، و "أبو حمزة البغدادي" فعاب الأشياخ ذلك عنهم"³، و لكنهم شرعوا في اتخاذها في المساجد، ابتداء من سنة (651هـ / 1253م)، و تم تمويل التدريس عليها من أموال الأوقاف، و الكراسي بالمساجد نوعان:

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص ص 139، 140.

2 - العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل بمراكش و أغمات من أعلام، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1974، ج3، ص134.

3 - الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص 276.

- كراسي التوريق: كانت هذه الكراسي موجهة لتعليم الراشدين و إعطاء دروس للوعظ من خلال كتب معينة و تسمى التوريق، و ظهرت في مسجد القرويين سنة (651هـ / 1253م) بمبادرة من إمام المسجد "على بن الحاج" (630هـ - 1232م / 653هـ - 1255م).

- الكراسي العلمية: هي كراسي موقوفة لتدريس علم من العلوم للطلاب بالمساجد من خلال كتاب يعينه في بعض الأحيان، و يجهل تاريخ ظهور هذه الكراسي، و يبدو أنها ظهرت في القرن (9هـ / 15م) بعدما تدهورت أحباس المدارس حيث أصبحت مواردها لا تكفي للقيام بوظيفتها و اقتصرت على إيواء الطلبة¹.

2 - المدارس:

أشار اللغويين إلى أن مصطلح المدرسة² مقتبس من فعل "درس" و يقال: درس الكتاب يدرسه درسا و دراسة و دارسه، من ذلك كأنه عانده حتى انقاد لحفظه. و قد قرئ بهما: و ليقولوا دارست، و قيل: درست قرأت كتب أهل الكتاب، و دارست: ذاكرتهم، و قرئ: درست و درست أي هذه أخبار قد غفت و أحتت، و درست أشد مبالغة، وروي عن "ابن العباس" في قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيَتَذَكَّرَ لَهَا وَلِيَتَّخِذَ لَهَا حِكْمًا وَآيَاتٍ مُّبِينًا﴾³ قال: "معناه و كذلك نبين لهم الآيات من هنا و من هنا لكي يقولوا إنك درست أي تعلمت أي هذا الذي جئت به علمت". و درست الكتاب أدرسه درسا أي ذلته بكثرة القراءة حتى خفت حفظه عليّ، و المدرس و المدرس: الموضوع الذي يدرس فيه، و كذلك البيت الذي يدرس في القرآن يقال له المدرس و كذلك مدارس اليهود.⁴

1 - محمد المنوني، كراسي الأساتذة بجامعة القرويين، "مجلة دعوة الحق"، العدد الرابع، السنة التاسعة، جويلية، أوت، 1966م، ص 91-97.

2- التعريف اللغوي و اصطلاحى: مدلول المدرسة لغويا، يعني مكان الدرس و التعليم، فالكلمة مشتقة من فعل درس بمعنى قرأ، ولفظة مدرسة مشتقة من الدرس، و الدارسون هم الطلبة، أما مدلولها الاصطلاحى فهي مؤسسة تظم بيتا للصلاة و الدراسة في آن واحد و تعرف بإسم القبة، و صحنها مكشوف و واسع، و غرف للطلبة موزعة على طابق أو طابقين بالإضافة إلى مرافق أخرى مثل خزانة الكتب أو المكتبة و غيرها. للمزيد من التفاصيل أنظر: - طه الوالي، "التعليم عند المسلمين"، مجلة الفكر الإسلامي، العدد 20، القاهرة، 1981م، ص 16. كذلك: - أحمد فكري، مساجد القاهرة و مدارسها، دار المعارف، مصر، (د،ت)، ج2، ص 121.

3- سورة الأنعام، الآية 105.

4 - ابن منظور، المصدر السابق، ج3، ص249.

يعتبر المسجد الأصل الذي بدأت منه المدرسة نشأتها، ولذلك أرجع العلماء شروط بناء المدارس من شروط بناء المساجد خاصة من حيث اختيار المكان، فيجب أن تكون المساحة المهيأة للبناء ملك للسلطة القائمة بتسيير المدينة، أو وقف لصالح السكان لبناء مدرسة، و لا تكون أرض مغصوبة، وقد أفرد لنا الحافظ "ابن كثير" قصة مفادها: "...وفي يوم السبت عاشر من ذي القعدة (459هـ/1066م) جمع العميد "أبو سعد القاضي" الناس ليحضروا الدرس بالنظامية "ببغداد"، و عين لتدريسها و مشيختها "أبا إسحاق الشيرازي"، فلما تكامل اجتماع الناس، و جاء "أبو إسحاق" ليدرس، لقيه فقيه شاب، فقال: يا سيدي، تذهب تدرس في مكان مغصوب؟ فامتنع من الخضور ورجع إلى بيته، فأقيم الشيخ "أبو نصر بن الصّبّاغ" فدرّس، فلما بلغ نظام الملك ذلك تغيظ على العميد، و أرسل إلى الشيخ "أبي إسحاق"، فردّه للتدريس بالنظامية في ذي الحجة من هذه السنة، و كان لا يصلي بها مكتوبةً، بل يخرج إلى بعض المساجد فيؤدي المكتوبة لما ذكر من كونها في بعض أرضها غصب....¹.

أما من الناحية التاريخية فيرى المؤرخون أن فكرة إنشاء المدارس كانت في عصر العباسيين و بدأت في عهد الخليفة "المعتضد بالله"، الذي أراد بناء قصر له في "الشماسية" ببغداد، فستزاد في مساحته بعد أن فرغ من تقدير ما أراد، و لما سئل عن ذلك ذكر أن يريده ليبنى فيه دورا و مساكن و مقاصير يرتب في كل موضع منها رؤوس كل صناعة و مذهب من مذاهب العلوم النظرية و العلمية، و يجري عليها الأرزاق، لكن هذا المشروع لم يحقق نجاحا ملموسا. و يمكن أن نشير أن أول مدرسة بنيت في المشرق الإسلامي² هي مدرسة الإمام "أبي حفص الفقيه البخاري" (150هـ-767م/217م - 832م) بمدينة "بخارى"، و قد تتلمذ فيها "أبي عبد الله بن إسماعيل

1- ابن كثير، البداية...، ج6، ص 831.

2- لقد تكلم دكتورنا عبد العزيز محمود لعرج بإسهاب و ألم بتاريخ ظهور المدارس بالشرق و المغرب الإسلامي و نشر مقاله في:- عبد العزيز محمود لعرج، المدارس الإسلامية دواعي نشأتها و ظروف تطورها و انتشارها، "مجلة الدراسات الإنسانية"، العدد الأول، دار الحكمة، الجزائر، 1421هـ / 2001، ص 112 . 124. أما من الناحية التخطيطية و المنظومة الزخرفية فقد قدم الدكتور عبد العزيز لعرج دراسة قيمة تناول فيها مدرسة العباد بتلمسان، للمزيد من التفاصيل أنظر:- عبد العزيز محمود لعرج، مدرسة العباد: (مدرسة أبي مدين نموذجاً للمدارس الإسلامية بالمغرب الإسلامي)، "مجلة الدراسات الإنسانية"، العدد الثاني، دار الحكمة، الجزائر، 1423هـ / 2002، ص 129، 158. كذلك:- عبد العزيز محمود لعرج، "النظام المعماري لمدارس المغرب: دراسة أثرية". تحليلية"، مجلة آثار، العدد الثامن، السنة 2009م، ص 87، 120.

الفقيه الملقب بالبخاري"، و مدرسة أخرى أسسها الأمير "قدر خان جبرائيل بن عمر" "ببخارى" كانت قائمة سنة (348هـ / 959م)، و هناك مدرسة أخرى "ببخارى" كانت قائمة في بداية القرن (5هـ / 10م)، أما في "نيسابور" فقد أنشئت عدد من المدارس في بداية القرن (4هـ / 10م)، وألها مدرسة الإمام "أبي الوليد حسان بن محمد بن أحمد القرشي الأموي"، و الثانية هي مدرسة التي أنشأها الإمام "أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي السبتي الشافعي"¹، و لقد تعدد المدارس في "نيسابور" و "بخارى" و كانت عبارة مدارس شخصية أحادية المذهب، و لقد استمرت فترة طويلة و قد أشار إليها ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء².

و يوصف العصر "السلجوقي" بأنه عصر انتشار المدارس في المشرق الإسلامي عامة و "بيغداد" خاصة، و لقد أشار "ابن خلكان"³ أن الوزير "نظام الملك" هو أول من أسس المدرسة، و لكن في حقيقة الأمر و بعد أن قدمنا أهم المدارس التي سبقت الفترة "السلجوقية" يمكن القول أن هذه الفترة الأخيرة كانت امتداد لظاهرة نشأت المدارس و تطورها ، ولعل المدرسة النظامية ببغداد كانت أشهر المدارس حيث بناها الوزير "نظام الملك"، و من طرف العميد "أبي سعد بن محمد النيسابوري الصوفي" و بنيت سنة (457هـ / 1064م)⁴، و في ذلك يقول "ابن كثير": " و في ذي الحجة منها : شرع في بناء المدرسة "النظامية" ببغداد"، و نقض لأجلها دور كثيرة من مشرعة الزوايا و باب "البصرة"..."⁵، و بنا حولها أسواق تكون موقوفة عليها⁶، و كانت مستطيلة الشكل، و عدد غرفها المعدة للطلبة و المتعلمين لكل قسم من أقسام العلوم 365 غرفة هذا عدا قاعات التدريس، و كان بها مكتبة كانت تتألف من مبنى خاص كبير تضم خزانة للكتب و صالات للقراءة، و أن خزانة كتبها كانت حافلة بأصناف المؤلفات التي كانت تتزايد فيها بوسائل مختلفة كسواء وهو الغالب، أو الإهداء أو الوقف، فقد أشار "تاج الدين السبكي" إلى أن الوزير "نظام الملك" ابتاع الكتب بأوفر الأثمان و أدار الجرايات للخزان و كانت سوق العلم في أيامه قائمة ، و ممن وقف كتبه على خزانة

1- سعيد إسماعيل قاضي، أصول التربية الإسلامية، عالم الكتاب، القاهرة، (د،ت)، ص 132.

2- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 317، 319.

3- ابن خلكان، وفيات الأعيان و أبناء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار المعارف، لبنان، (د،ت)، ج4، ص 270.

4- سعيد إسماعيل قاضي، المرجع السابق، ص 133.

5- ابن كثير، البداية...، ج6، ص 827.

6- نفسة، ج6، ص 831.

المدرسة النظامية المؤرخ البغدادي "ابن النجار"، فقد ذكر "ابن كثير" في ترجمته: "وأوقف خزانيتين من الكتب بالنظامية تساوي ألف دينار.."¹، وبدأت مهام التدريس بها سنة (459هـ / 1066 م)، وكان أول درس بها الشيخ "أبو نصر بن الصَّبَّاح" لمدة عشرين يوماً ثم عاد إليها الشيخ "أبا إسحاق الشَّيرازي".

وفي سنة (557هـ / 1161م) فتح الوزير "ابن هبيرة" مدرسة أمام باب "البصرة" ببغداد ورتب فيها مدرسا و فقيها²، و أنشأ "المستنصر بالله العباسي" المدرسة "المستنصرية" للمذاهب الأربعة ببغداد، و جعل فيها دارا للحديث و ييمرستانا و حماما ودار الطب، و جعل لمستحقيها من ملابس و الأطعمة و الحلاوات و الفواكه ما يحتاجون إليه في أوقاته، و أوقف عليها أوقافا عظيمة ويقول "ابن كثير" في ذلك: "...أن ثمن التبن من الغلات ريعها يكفي المدرسة وأهلها. ووقف فيها كتبا نفيسة ليس لها في الدنيا نظير، فكانت هذه المدرسة جمالا لبغداد بل لسائر البلاد"³، و كان بداية التدريس بها سنة (630هـ / 1234م).

كما اهتم العلماء بمدينة "بغداد" ببناء المدارس، و نضرب في ذلك مثلا، حيث يذكر "ابن كثير" في ترجمته للشيخ "عبد القادر الجيلي": "...وكان قد بنا مدرسة ففوضها إلى "الشيخ عبد القادر"..... ودفن بالمدرسة التي كانت له"⁴.

أما "بمصر" فإن أول مدرسة أنشأت هي المدرسة "العوفية" بالإسكندرية سنة (544هـ / 1149م) و تنسب إلى "أبي عوف الزهري"، أما المدرسة الثانية فهي مدرسة السلفي المنسوبة إلى الحافظ "أبي طاهر أحمد بن محمد الأصفهاني". وفي العهد "الأيوبي" ازدهرت المدارس، فأنشأ "صلاح الدين الأيوبي" مدرسة سميت بالمدرسة "الصلاحية"، و بناها سنة (572هـ / 1176 م)، و أصبحت أعظم مدرسة في البلاد الإسلامية، و كانت تلقب "بتاج المدارس"⁵، كما أسس عدة مدارس في "فلسطين" و "دمشق" و "حلب"⁶.

1- ابن كثير، البداية...، ج7، ص386.

2- نفسه، ج7، ص93.

3- نفسه، ج7، ص375، 376.

4- نفسه، ج7، ص101.

5- سعيد إسماعيل قاضي، المرجع السابق، ص132.

6- نفسه

- المدارس بالمغرب الإسلامي:

اختلف الآراء حول نشأت المدارس بالمغرب الإسلامي بفعل تباين المصادر التاريخية، حيث يذكر "إبن أبي زرع" في ترجمته لأمير الموحدين "يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي" (580 هـ - 595 هـ / 1184 . 1199 م): "... و بنى المساجد و المدارس في "بلاد إفريقية" و "المغرب" و "الأندلس"، و بنى المرستان للمرضى و المجانين، و أجرى المرتبات على الفقهاء و الطلبة على قدر مراتبهم و طبقاتهم، و أجرى الإنفاق على أهل المارستان و الجذمي و العميان في جميع عمله....¹، أما "إبن مرزوق" فيذكر: "قد قدمنا أن إنشاء المدارس كان "بالمغرب" غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد، الملك العابد، مدرسة "الحلفائيين" بمدينة "فاس" وبعده "القرويين" منها، ثم أنشأ مولانا السلطان "سعيد" والد إمامنا رضي الله عنه، مدرسة "العطارين" و مدرسة المدينة البيضاء بمشاركته.... ثم أنشأ نفعه الله تعالى مدارس مختلفة بالعدوة، عدوة "الأندلس" من "فاس"، و هي مدرسة "الصهريج"، ثم أنشأ المدرسة الكبرى مدرسة "الوادي"، و هي التي يشق في وسطها الوادي الأعظم بالعدوة، ثم المدرسة الكائنة جوفي جامع "القرويين" و تعرف بمدرسة "مصباح".... ثم أنشأ رضي الله عنه في كل بلد من بلاد "المغرب الأقصى" و بلاد "المغرب الأوسط" مدرسة، فأنشأ بمدينة "تازي" قديما مدرستها الحسنة، و ببلد "مكناسة" و "سلا" و "طنجة" و "سبتة" و "أزمور" و "أسفي" و "أغمات" و "مراكش" و "القصر الكبير" و "بالعباد" ظاهر "تلمسان" و حذاء الجامع، و "بالجزائر"، و كانت المدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان، فمدرسة "سبتة" غاية من الجمال و تخطيط و أعجب منها مدرسة "مراكش"، و تليها مدرسة "مكناسة"، و كلها قد اشتمل على المباني العجيبة و الصنائع الغريبة و المصانع العديدة و الاختلاف في البناء و النقش و الجص و الفرش على اختلاف أنواعه من الزليجي البديع الرخام المجزع و الخشب المحكم النقش و المياه النهرية، مع ما يضم إلى ذلك من الأحباس التي تقام بها و يحفظ بها الوضع، مما يصلح به و يبني و يجري في المرتبات على الطلبة و العونة و القيم و البواب و المؤذن إلى قدر ما يحتاج إليه في كل مدرسة من هذه المدارس، هذا مع ما حبس في جملها من أعلاق الكتب النفيسة و المصنفات المفيدة.....².

1- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص286.

2- محمد ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق مريا خيسوس بيغرا،

ويفهم من كلام "ابن مرزوق" نفيه القاطع بوجود المدارس ببلاد المغرب قبل الدولة المرينية، و قد يكون إقراره بهذه الحقيقة، هو انتقاد صريح لرأي سلفه "ابن أبي زرع"، و قد يفسر هذا التباين في الآراء بكون النصوص المصدرية المتعلقة بإشكالية ظهور المدارس، جاءت متأخرة، إذ تعود إلى الفترة المرينية، و عليه فإن استعمال مصطلح المدرسة في المصادر، قد يكتنفه الغموض، و بالتالي قد يقع انزلاق في استخدامه دون التدقيق في معناه و دلالاته و أبعاده. فضلا عن ذلك، فاندثار المباني التعليمية التي ترجع للفترة السابقة للدولة المرينية، و غياب التحريات و التنقيبات الأثرية تجعلنا نفتقر إلى المعطيات التي تكشف عن شكل تلك الهياكل و تخطيطها و معماريها ووظائفها.

و مع غياب الشواهد الأثرية، و الغموض الذي يكتنف المصطلحات المتداولة في المصادر يمكن القول بأن المغرب الإسلامي، عرف هياكل تعليمية قبل ظهور المرينيين إلى جانب حلقات العلم التي كان يؤطرها العلماء بالمساجد و الجوامع، ولكنها لم ترق من حيث الشكل و المحتوى، أو حتى التصميم المعماري و الوظيفة إذا ما اقترن بمفهوم المدرسة أيام المرينيين و الحفصيين و الزيانيين.¹ و قد اختلفت آراء علماء المغرب الإسلامي حول أهمية المدارس في تطوير المنظومة التعليمية بين مؤيد لبنائها و بين معارضا لذلك معللين ذلك بحجج و بأقوال منها:

حيث "ابن مرزوق" في كتابه "المسند الصحيح" بقوله: " لا خفاء في فضيلة نشر العلم و بثه، ولا يحفظ العلم إلا بمعونة الطلاب على طلبه و بعثهم على تعليمه و تعلمه، فإن تعليمه و تعلمه يمنعان من التسبب و يقطعان عن الطلب، فإذا حصلت المعونة و كفيت المؤونة، ارتفعت المعذرة و انقطعت الحجة، و للمعين على ذلك أجر المباشر و التجر فيه من أربح المتاجر، فلا حاجة إلى الاستدلال على ذلك."²

ويبدو من خلال قول "ابن مرزوق" أنه كان يتفق تماما مع فكرة بناء المدارس عكس بقية العلماء و على رأسهم "الآبلي" الذي قال: "...إنما أفسد العلم كثرة التأليف و إنما أذهب ببيان

شركة الوطنية للنشر و الإصدار، الجزائر، 1981 م، ص 406.

1- صالح بن قربة، مصادر تاريخ مدارس تلمسان في العهد الزياني (962.633هـ / 1554.1235م)، "في كتاب تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر"، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م، ص 138.

2 - ابن مرزوق، المسند...، ص 405.

المدارس..¹، وقوله هذا راجعا للفترة الزمنية التي عاش فيها وتصف بلا أمن و الفتن و الصراع الحربي الذي كان بين ورثة الدولة الموحدية حيث نقص العمران و الاجتهاد في العلم الشريف، و كثرت الكتب الفرعية المعتمد على الأحاديث الضعيفة، هذا ما مهد الطريق للطرقية و الصوفية للظهور و الانتشار في المغرب الإسلامي، و ذلك راجعا لسببين أولهما إنشاء أصحاب هذه المذاهب لمدارس لتعليم الناشئة وفق منهاجهم الديني، و الثاني راجع لإحجام طلبة العلم على الهجرة لطلب العلم، ويمكن أن نشير أن الهجرة إلى طلب العلم بقية الوسيلة النافعة إلى غاية هذا العصر إن قول "الأبلي" بأن ذهب العلم راجعا إلى بناء المدارس، هذا غير صحيح، ونرى ذلك جليا من خلال الرجوع إلى بعض العلماء و المشايخ الذين عاصروه أو تتلمذوا عليه حيث أشاروا إلى أن ذهب العلم راجع إلى كثرة التأليف، و تدهور مستوى المعلمين و قبل أن نشير إلى ذلك رأينا أن كلام "ابن مرزوق" الذي عاصر "الأبلي" خير دليل على ذلك: " .. لا يحفظ العلم إلا بمعونة طلابه على طلبه و بعثهم على تعليمه و تعلمه، فإن تعلمه و تعليمه يمنعان التسيب و يقطعان عن الطلب، فإذا حصلت المعونة، و كفيت المثونة ارتفعت المقدرة و انقطعت الحجة، و للمعين على ذلك أجر المباشر و التجر فيه من أريح المتاجر فلا حاجة للاستدلال على ذلك...²."

يمكن القول أن شيء المختلف بين مدارس المشرق و المغرب الإسلامي يكمن في المناهج التعليمية و كفاءة المدرسين، وهذا ما كانت تفتقده المدارس في المغرب الإسلامي، خاصة في الفترة التي عاش فيها "الأبلي" والتي بعده، و هذا راجع إلى الانحطاط الفكري الذي سطا على المغرب الإسلامي، و قلت فيه الاجتهادات، و كثرت التأليف التاريخية و الفقهية التي أقتبس منها من كتب غير مصححة، أو كرروا ما قد جاء في كتب المتقدمين لهم في التأليف، و يمكن أن نلاحظ ذلك من خلال كلام "الونشريسي": " ..ولقد استباح الناس النقل من المختصرات الغربية أربابها و نسبوا ظواهر ما فيها إلى أمهاتها، و قد نبه "عبد الحق" في "تعقيب" فكثر التصحيف و انقطعت سلسلة الاتصال فصارت الفتاوى تنفذ من الكتب لا يدري ما يزيد فيها مما ينقص منها لعدم تصحيحها و قلة الكشف عنها...³"، بالإضافة إلى تولى التدريس جهال ربابية لا يفقهون في العلوم شيء و نقلوا

1 - المقرري، المصدر السابق، ج5، ص 275، 276.

2- ابن مرزوق، المسند، ص 406.

3- الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص480.

كذلك عن "الونشريسي": "... يقول الشيخ "أبو عبد الله بن مناصف" رحمه الله: و قد انتهى الحال اليوم إلى أن ينظر أحد العوام في أوراق من الفقه، أو كلام، و يقدم على الخوض فيما يهلكه و المستمع من يقف على مسائل من الخلاف فيختار منها بحسب ما يوافقه من شتات المذاهب و يفيد سوء نظرة الكاذب...¹.

عرفت مدينة "تلمسان" في الفترة الزيانية نشأت أربع مدارس بالإضافة إلى المدرسة التي أنشأها "أبو الحسن المريني" "بالعباد"، و تعتبر هذه المدارس سلطانية النشأة و التمويل، أقيمت خصيصا لإيواء الطلبة و تدريس العلوم، و الخاصة منها المقترنة بالمذهب المالكي، و تحقيقا لهذه الغايات الكبرى، و تقديرا منهم للعلم و العلماء تفنن الزيانيون في تخطيط مدارسهم فهذا "أبو حمو موسى الثاني" الذي وجه عنايته إل المدرسة الموضوعه على ضريح والده "أبي يعقوب"، حيث يقول "يحيى بن خلدون" في ذلك: "...فضاعف فيها الفعلة و أوجب الأبنية، و ...أوجزل الأوقاف، و عينة الجرايات و رسم فيها الخطط فجاءت آية في الحسن و الجمال."²

و في الفترة العثمانية بقيت هذه المدارس تؤدي وظيفتها التعليمية خاصة مدرستي "التاشفينية"، و "أولاد الإمام" حيث أعاد الباي "محمد الكبير" فتح "وهران" أوقافهما و جددهما³.
- مدرسة أولاد الإمام:

يعتبر "أبو حمو موسى الأول" مؤسس أول مدرسة في تاريخ الدولة الزيانية عرفت بإسم مدرسة "أولاد الإمام"⁴ سنة (710هـ / 1310م)، و يشير "عبد الله التنسي" إلى سبب بناءه لهذه المدرسة بقوله: "... كان محبا للعلم و أهله معتنيا به (يقصد أبو حمو الأول) قائما لحقه، ابنتى مدرسة

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص 482.

2- يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 136.

3- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص230.

4- هما أبو زيد عبد الرحمن، و أبو موسى عيسى ابنا محمد بن عبد الله ابن الإمام، و كان قد رحلا في شبابهما من بلدهم برشك إلى تونس ثم إلى مصر و الحجاز، ثم ورد في أول المائة الثامنة على تلمسان و فيها توفيا رحمهما الله. للمزيد من التفاصيل حول ترجمتهما أنظر: - محمد ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء و العلماء من تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص 123. كذلك: - أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج1، تحقيق محمد مطيع، المغرب 2000م،

ص 123. كذلك: - المقرئ، المصدر السابق، ج5، ص215.

لابني الإمام تكريماً لهما و احتفاء بهما وشكر الله على نعمته عليه لقتل عدوه "أبي يعقوب المريني"،
و تخليص "تلمسان" منه و قد بنيت داخل باب "كشوط".¹

- المدرسة التاشفينية:

شيد هذه المدرسة السلطان أبو تاشفين بين سنتي (717هـ - 728هـ / 1316م-
1327م)، كانت تقع جنوب الجامع المرابطي الكبير، و هي في منتهى الروعة و الجمال، و يقول في
ذلك "المقري": "...مارأيته مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة "تلمسان" التي بناها أمير المسلمين
"أبو تاشفين" الزياني و هي من بدائع الدنيا، و هو:

أنظر بعينك بهجتي و سنائي	و بديع إتقائي، و حسن بنائي
و بديع شكلي، و اعتبر فيما ترى	من نشأتي بل من تدفق مائي
جسم لطيف ذائب سيلانه	صاف كذوب الفضة البيضاء
قد حفّ بي أزهار و شِي نمقت	فغدت كمثل الروض غبّ السماء ²

وقد بنيت هذه المدرسة تكريماً للفقير أبي موسى المشدالي، و سخر لبنائها المهرة من أصحاب
الصنائع المتمكنين في فن الزخرفة و التزيين و البناء، و هذا ما جعلها من أجمل مدارس المغرب
الإسلامي و مدينة "تلمسان"

ضلت هذه المدرسة تمارس نشاطها التعليمي مدة خمسة قرون كاملة، إلى غاية الاحتلال الفرنسي
للجزائر الذي عمد إلى تهديم دور العلم "بالجزائر" كلها³. (المخطط قم:11).

- مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد:

تعتبر هذه المدرسة النموذج الوحيد المتبقي في تلمسان، فقد شيدت من طرف السلطان المريني
"أبو الحسن"، و ذلك في سنة (747هـ / 1347م)، و قد كانت تعرف كذلك بالمدرسة الخلدونية
في فترة تالية، لتدريس "ابن خلدون عبد الرحمن" فيها. و على الرغم من قدم هذه المدرسة فهي ما
تزال تحتفظ بشكلها و هيكلها العام و عناصرها المعمارية، ولها صحن واسع تعقد فيه الحلقات و

1- عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 139.

2- المقري، المصدر السابق، ج6، ص 47.

3- للمزيد من التفاصيل أنظر: - صالح بن قرية، المرجع السابق، ص148، 149. كذلك: - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق،

ص140. كذلك: - قرمان عبد القادر، "المؤسسات التعليمية بتلمسان خلال العهد العثماني"، أعمال ملتقى دولي بتلمسان

أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011م، ص101.

المحاضرات العلمية، و تقدم فيها دروس ذات مستوى عالي و معمق، كما تحتوي المدرسة على طابقين، ففي الطابق السفلي نجد عشرة غرف و الطابق العلوي يتألف من ثماني حجرات تتسع كل غرفة لطالين.¹

- المدرسة اليعقوبية:

قام بتأسيسها السلطان "أبو حمو موسى الثاني" سنة (765هـ / 1363م)، تقع هذه المدرسة شمال مسجد "سيدي ابراهيم المصمودي"، بالقرب من المقبرة الزيانية. وسميت بهذا الإسم نسبة لوالد السلطان "أبي حمو موسى الثاني" "أبي يعقوب"، كما يطلق عليها اسم مدرسة "سيدي إبراهيم المصمودي" الذي توفي و دفن بها سنة (805هـ / 1402م)، و قد أسندت مهمة التدريس بها للعالم الشريف الحسني "أبي عبد الله الذي توفي في سنة (771هـ / 1370م).

ساهمت هذه المدرسة في تكوين عدد كبير من طلبة العلم، و من إطارات الدولة الزيانية من علماء و قضاة و خطباء و مدرسين، كان لهم الأثر الكبير في الحياة الفكرية، و قاموا بنشر اللغة العربية و تعميم الثقافة الإسلامية و نشر المذهب المالكي.²

- مدرسة سيدي الحلوي:

شيدت هذه المدرسة بأمر من سلطان المرينين "أبي عنان فارس"، و ذلك عند استيلائه على "تلمسان"، و يعود تاريخ بنائها إلى سنة (754هـ / 1454م)، أسست هذه المدرسة بجانب مسجد "أبي عبد الله الشودي الإشبيلي الملقب بالحلوي".

أما في الفترة العثمانية فقد ذكر الباحث الدكتور "أبو القاسم سعد الله" رحمه الله في كتابه الموسوم "تاريخ الجزائر الثقافي" بأنه لا يكاد يوجد في "الجزائر" "باشا" ظل في الحكم مدة طويلة نسبيا إلا و قد بنى مسجدا، أو جامعا، أو كتابا، أو زاوية، ووقف الأوقاف على ما بناه، و كان قبل الفترة العثمانية "بالجزائر" الجامع الكبير و جامع "القشاش" و بجواره المدرسة "القشاشية"، و يبدو أنه كان هناك مدرسة ملحقة بالجامع الكبير أنشأها المفتي المالكي "سعيد قدورة" المتوفي سنة (1066هـ /

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز لعرج، المنشآت المعمارية....، ص79، 80، كذلك: - قرمان عبد القادر، المرجع السابق، ص112.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص144. كذلك: - قرمان عبد القادر، المرجع السابق، ص112.

1665م) و أتبع لها زاوية لسكنى الطلبة و غرباء العلماء، و كانت حلقات الدرس فيه قد تصل إلى اثنتي عشرة حلقة، و عدد المدرسين تسعة عشر مدرسا، و كانت له أوقافا ضخمة.¹ و تأسست خلال هذه المرحلة من العهد العثماني في مدينة "الجزائر"² مدرسة الأندلسيين و قد أوجدها الأندلسيون المهاجرون من "إسبانيا"، و كانت ذات مستوى تعليمي راق³، و كذلك مدرسة "شيخ البلد" نسبة إلى الحي الذي أنشئت فيه، و قد أسسها الحاج "محمد خوجه" أحد كتاب قصر الباشا في أواخر القرن الثاني عشر الثامن عشر للميلاد، و فيها سكن للطلاب و رجال العلم، و مسجد، و أشرط فيها أن يكون الأستاذ المعلم ماهرا في العلوم المعقولة و المنقولة و الأدب و المنطق.⁴

3 - الأضرحة و المقابر:

الضريح هو الشق في وسط القبر، و للحد في الجانب، و قال "الأزهري" في تعريفه اللغوي للحد: " و الضريح و الضريحة ما كان في وسطه، يعني القبر، و قيل: الضريح القبر كله، و قيل: هو قبر بلا لحد، و سمي ضريحا لأنه يشق في الأرض شقا"⁵، و لما توفي الرسول صلى الله عليه و سلم كان بالمدينة رجل يلحد، و آخر يضرح، فقال أصحاب الرسول صلى الله عليه و سلم نبعث إليهما، فأيهما سبق تركناه، فأرسل إليهما، فسبق صاحب اللحد، فلحدوا للنبي.⁶ و للدفن طرقا شرعية، و ردت في عدة كتب فقهية و نالت نصيبا كبيرا من الدراسة⁷، و بالرغم من إجماع العلماء على جواز اللحد و الضرح إلا أنهم استحجوا اللحد و قالوا أنه أولى من الضرح، و استندوا في ذلك إلى ما روي عن الرسول صلى الله عليه و سلم من أنه قال: اللحد لنا و الشق أي الضرح لغيرنا"، أما البناء على القبر فقد وقع فيه كلام و جدل كبير بين العلماء أهو

1 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص284.

2 - للمزيد من التفاصيل حول الحياة الثقافية و العلمية، و المؤسسات التعليمية بأنواعها في الجزائر العثمانية أنظر: - ليلي الصباغ، "معالم الحركة الفكرية في الولايات العثمانية" في كتاب الدولة العثمانية تاريخ و حضارة، ترجمة: صالح سعداوي، ط2، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 1432هـ/ 2011م، ج2، ص299.

3 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص283.

4 - ليلي الصباغ، المرجع السابق، ج2، ص330.

5 - ابن منظور، المصدر السابق، ج5، ص354.

6 - الألباني، أحكام...، ص61.

7 - نفسه، ص50.

جائز أو محرم أو مكروه، و الواقع أنه مستدل من الأحاديث النبوية الشريفة و أقوال العلماء و المفسرين أن البناء على القبور منهي مطلقا، بل يعد من الكبائر، لأن اللعن الوارد في تلك الأحاديث ووصف المخالفين بأنهم أشرار الخلق عند الله تبارك و تعالى لا يمكن أن يكون في حق من يرتكب ما ليس كبيرة كما لا يخفى، و على الرغم من الوضوح كل ذلك إلا أن هذه الأحاديث و تلك الأقوال قد أغفلت من قبل الحكام المسلمين، و غيرهم شأن في ذلك شأن غيرها من الأحاديث المتعلقة بالتصوير، فكما أن الصور الآدمية رسمت، و المخطوطات طعمت برسوم لكائنات حية، كذلك فقد رفعت القبور و أقيمت عليها القباب العظيمة و زينت بأجمل الزينة، فضلا عن إيقادها بالسرج و السفر إليها و التمسح بها.

و يمكن تلخيص ما يحرم عند القبور فيما يلي:

- رفعها زيادة على التراب الخارج منها، و طليها بالكلس و نحوه و الكتابة عليها، و البناء عليها، و القعود عليها، و جاءت أحاديث كثيرة تؤكد ذلك، فعن "جابر بن عبد الله" رضي الله عنه قال: " نهى الرسول صلى الله عليه و سلم أن يخصص القبر، و أن يقعد عليه، و أن يبنى عليه، أو يزداد عليه، أو يكتب عليه"، و عن "أبي سعيد" و هو "الخدري" قال " أن النبي نهى أن يبنى على القبر"، و عن "أبي الهياج الأَسدي" قال: " قال لي "علي بن أبي طالب": ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم، أن لا تدع تمثالا (و في رواية: صورة) في بيت إلا طمستها، و لا قبرا مشرفا إلا سويته".

قال الإمام "الشوكاني" رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: " فيه أنّ السنّة أنّ القبر لا يرفع رفعا كبيرا من غير فرق بين من كان فاضلا و من كان غير فاضل، و الظاهر أنّ رفع القبور زيادة على القدر المأذون فيه محرم، و قد صرح بذلك أصحاب أحمد، و جماعة، و الشافعي، و مالك.¹"

و ظاهره تسويتها بالأرض بحيث لا ترفع إطلاقا، و هذا غير مراد قطعا، بدليل أن سنة الرفع قدر شبر، و يؤيد هذا من الحديث "ثمّامة بن شقي" قال: " خرجنا مع "فضالة بن عبيد" إلى أرض الروم، و كان عاملا "المعاوية" على الدرب، فأصيب ابن عم لنا "برودس"² فصل عليه "فضالة"، و قام على حفرتة حتى وراه، فلما سويها عليه حفرتة قال: أخفّوا عنه، فإن الرسول صلى الله عليه و سلم

1 - العويشة، المرجع السابق، ج4، ص215.

2 - جزيرة تقع على البحر الإيجي جنوب تركيا.

كان يأمرنا بتسوية القبور"، حيث قال "فضالة" "خففوا" أي التراب، و لم يأمر بإزالة التراب عنه بالكلية. و عن "أبي مرثد الغنوي" قال: " سمعت الرسول صلى الله عليه و سلم يقول: لا تصلوا إلى القبور، و لا تجلسوا عليها"¹.

- بناء المساجد عليها و نبشها، و فيها أحاديث: "عن عائشة" و ابن العباس " رضي الله عنهما قالوا: " لَمَّا نزل برسول الله صلى الله عليه و سلم، طفق يطرح خميصة على وجهه، فإذا اغتمّ كشفها عن وجهه، فقال و هو كذلك: لعن الله اليهود و النصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذّر ما صنعوا"²، و عن "أبي هريرة" عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " اللهم لا تجعل قبوري وثنا، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"³، و عن "عائشة" رضي الله عنها: أنّ "أمّ حبيبة"، و "أمّ سلمة" ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي صلى الله عليه و سلم فقال: إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجدا، و صوّروا فيه تلك الصّور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة."⁴

قال بعض الحنابلة: " قصد الرجل الصلاة عند القبر متبركا بها: عند المحادّة لله و رسوله، و إبداع دين لم يأذن به الله، للنهي عنها، ثمّ إجماعا، فإن أعظم المحرمات و أسباب الشرك: الصرة عندها، و اتخاذها مساجد، أو بناؤها عليها و القول بالكراهة محمول على غير ذلك، إذ لا يظنّ بالعلماء تجويز فعل متواتر عن النبي صلى الله عليه و سلم لعن فاعله، و تجب المبادرة لهدمها و هدم القباب التي على القبور، إذ هي أضر من مسجد الضّرار لأنها أسست على معصية رسول الله عليه الصلاة و السلام، لأنّه نهى ذلك، و أمر القبور المشرفة، و تجب إزالة كلّ قنديل أو سراج على قبر، و لا يصح وقفه و نذره."⁵

و الأضرحة أنواع منها البسيطة المنفردة البناء المتواضعة المواد المكونة من غرفة واحدة مقببة، تضم التربة و حدها، و قد يقام الضريح قريبا من المدرسة أو ملاصقا لها أو ملحقا بالجامع، أو يكون

1 - للمزيد من التفاصيل حول هذه الأحاديث و شرحها أنظر: - محمد ناصر الدين الألباني، أحكام...، ص50.

و كذلك: - العويشة، المرجع السابق، ج4، ص212.

2 - البخاري، الجامع...، ص645.

3 - العويشة، المرجع السابق، ج4، ص220.

4 - البخاري، الجامع...، ص645.

5 - العويشة، المرجع السابق، ج4، ص221، 222.

هو النواة لمسجد فخم متعدد المآذن محاطا بالبرك و الجنائن و الأشجار، و قد غالى سلاطين "الهند" بالإفناق على الأضرحة و زخرفتها، و عرفت بالروضات¹، و يبدو أن المسلمين "بالهند" كانوا حديثي العهد بالإسلام، و ما زال فيهم أثرا من الفترة الوثنية في "الهند"، و ما يعلل ذلك أن بناء الأضرحة على القبور في الفترة الإسلامية ظهر في البلدان البعيدة عن مركز الخلافة و المراكز العلمية الكبيرة بالمشرق الإسلامي، و لم تطلعنا الشواهد الأثرية بوجود أضرحة للخلفاء في العصر الأموي، و ذلك راجعا إلى الأحاديث التي ذكرناها سابقا، أو أن العباسيين لم يبقوا منها أثرا، و ذلك خوفا من أن تلقى قبور بني العباس المصير نفسه في حالة سقوط حكمهم لذلك كانوا يخفونها، و يروى أنه حفر "الأبي جعفر المنصور" عندما توفي مئة قبرا لهذا لم يعثر من العصر العباسي الأول أيضا إلا على ضريح واحد يعرف باسم "القبة الصليبية" قرب "سامراء"، و هو مدفن الخليفة "المنتصر" المتوفي سنة (245هـ/ 862م)، و هو أقدم المدافن ذات القباب التي لازالت قائمة، و في مدينة "بخارى" نجد المثال الثاني هو مدفن "إسماعيل السمانيد" (303هـ/ 917م) الذي أقيم بشكل حجرة مربعة مغطاة بقبة، و هو يشابه من الناحية الشكل العام معابد النار عند "الساسانيين"، و قد استمر إنشاء القبة فوق القبور بعد القبة الصليبية في أماكن و سنوات متباعدة في العمارة الإسلامية، و انتشر هذا الطراز بالمغرب الإسلامي، و نجد الكثير من الأضرحة بمدينة "تلمسان" شيدت معظمها في الفترة الزيرية و العثمانية، و الفرنسية، و هي لرجال صالحين من مدينة "تلمسان"، أو الوفدين عليها من العلماء و المتصوفة، و أشهر هذه الأضرحة على الإطلاق هو ضريح العالم الصالح "أبو مدين شعيب الاشبيلي"، و يقع في أعلى "العباد".

أما في مدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية فيعتبر ضريح "عبد الرحمن الثعالبي" من أشهر الأضرحة بها، و كان يطلق على العلماء و الصالحين و أولياء في هذه الفترة بالمرابطين. و بالقرب من ضريحه تعود الناس أن يتصدقوا على الفقراء، فيوزعون عليهم الخبز و الدراهم، أملا في أن يستجاب دعائهم. و لكن كيف كان رأي العلماء و الساسة في هذه الظاهرة التي انتشرت و توسعت في الفترة العثمانية؟ يجيبنا على ذلك صاحب "المرآة" بقوله: "...وإن هذا النوع من العبادة غير معقول، و نحن نعتقد بأن مشيئة الرحمن واحدة في الأرض و في السماء، و أن الله الموجود في كل مكان لا يمكن حصره في مكان، و إن ما نتصدق به على أمثالنا دليل على إيماننا، و قبل أن نستحق نعمة الله يجب علينا أن

1 - بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص92.

نعمل بما أوصانا به، و نحن نؤمن أيضا بأن أعمالنا من خير و من شر ستجازى في يوم من الأيام. و هكذا إذن فإن الاعتقاد الشعبي إزاء المرابطين، أساسه الجهل و المبادئ الغالطة و التعصب، و ليس من السهل إصلاحها، غير أن المتعلمين منا و رؤساء الحكومة التركية يدركونها حق الإدراك، و السياسة هي التي جعلت الآخرين يبقون على هذه المبادئ الغالطة أو يتركونها تستمر و يحترمونها الأماكن التي تقدها القبائل. و هذه المجاملة هي التي مكنتهم من الحصول على ما حطمه الجيش الفرنسي منذ أن وصل إلى أراضي "الجزائر"، ذلك أنه بدلا من أن يطبق نفس هذه المبادئ أراد استبدالها بمبادئ جديدة تتعارض تماما مع عادات و تقاليد السكان.¹ (اللوحة رقم: 45، 46).

كانت المقابر في المدينة الإسلامية تنشأ خارج أسوارها، و في أراضي منخفضة، و يبدو أن تأثير المدينة المنورة واضح في ذلك، حيث جعل الرسول صلى الله عليه و سلم أرض البقيع مقبرة للمسلمين. إن اختيار هذا الموضع لم يكن من باب الصدفة، و لكن عن علم، إذا ما نظرنا له من الناحية العلمية، حيث تشير الدراسات الحديثة أن المواد الكيميائية التي تفرزها الأجسام عند تحللها تؤثر على المياه الجوفية، و هي المصدر الرئيسي للمياه في المدن الإسلامية، حيث تتوفر المساكن على أبار أو سواقي أو عيون للشرب أو السقي، و سارت مدينة "تلمسان" على هذا التخطيط، حيث كانت مقابرها خارج أسوارها، و منها مقبرة خارج باب "العقبة"، و مقبرة خارج باب "وهب" إحدى الأبواب الجنوبية "تلمسان"²

إذا كانت جميع العمائر الدينية و المدنية تهتم و تتعلق بالإنسان حال حياته، فإن العمارة الجنائزية تتعلق بالإنسان أيضا و لكن بعد وفاته، و يدخل في عداد هذه العمائر الأضرحة و التي عرفت بعدة تسميات منها³

مهما يكن من أمر فإن الأضرحة المقامة فوق القبور سواء كانت مدافن أو أضرحة تعلوها قباب غالبا إلا أنها تبقى فرعاً هاماً من فروع العمارة الإسلامية جديدة بالدراسة و البحث في تخطيطها و طرزها و منظومتها الفنية.⁴

1 - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص20، 21.

2 - ابن مرزوق، المناقب....، ص174، 176، 187.

3 - محمد حمزة الحداد، موسوعة العمارة الإسلامية، في مصر من الفتح العثماني إلى عهد محمد علي (923هـ - 1225هـ /

1517م - 1848م)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1995م، ج1، ص135.

4 - نفسه، ج1، ص136.

- اهتم المشرع المسلم بتخطيط و بناء المساجد، و أعطى لها الأهمية الكبيرة التي تليق بقداسة المكان، وتتلخص هذه التشريعات في ما يلي:
- من حيث اختيار مكان البناء، فقد حدد و أشار إلى الأماكن التي لا يجوز فيها بناء المساجد مثل المقابر، أو على القبور، و الأماكن النجسة على أن المكان الذي تصح فيه الصلاة يجوز فيه بناء المساجد.
 - يجب أن يكون المكان المخصص لبناء المسجد وقفا مؤبدا لجميع المسلمين مثل ما فعل الرسول صلى عليه و سلم بمسجده بالمدينة المنورة.
 - يعتبر الوقف المصدر المالي الوحيد الذي يمون من خلاله المسجد سواء في عملية البناء أو الترميم، و كذلك مستلزمات الأخرى للمسجد و أجور العاملين به، و تؤخذ الصدقات و الهبة مأخذ الوقف.
 - أجاز التشريع الإسلامي تعدد المساجد الجامع بالمدينة الواحدة لما اتسعت خطط المدن و كثرة واردتها، مع مراعاته عدم الضرر بين المساجد.
 - اهتم المشرع المسلم بالتخطيط الداخلي للمساجد و عناصره الوظيفية و كذلك ملاحق المرتبطة به، و التي لم تكن بالمسجد النبوي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فسن التشريعات و بين الحدود حتى لا يخل هذا التخطيط بصحة الصلاة، و هذه العناصر بحرمة السكان المجاورين لخطة المسجد الجامع.
 - حدد التشريع الإسلامي شروط الإمامة، كما نهى عن تعددها بالمسجد الواحد، و جعل راتب الموظفين القائمين بخدمة المسجد من الأوقاف المحبوسة لخدمة المسجد.
 - ولما كان المسجد يشمل على عدة وظائف ارتبطت به مثل التعليم و القضاء استنبط المشرع المسلم من النصوص التشريعية عدة أحكام تحدد، و تنظم هذه الوظائف خاصة أنواع العلوم التي يجوز تعليمها بالمساجد، كما نهى على إقامة الحدود بالمسجد.

الفصل الخامس: أثر الفكر العمراني على العمارة المدنية و العسكرية.

1 - التنظيم العمراني للمدينة الإسلامية (الشوارع و الطرق).

2 - أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة المدنية.

3 - أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة العسكرية.

يبرز الفكر العمراني الإسلامي أساسا في المدن الإسلامية، حيث لعبت منذ تأسيسها في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم و الخلفاء الراشدين دورا بارزا في التنظيم المدني، و في تطور مجموعة كبيرة من العلوم النقلية و العقلية، و كانت كذلك مقصدا هاما للعلماء و طلبة العلم، و في هذه المدن تحتك الأفكار المحلية بالوافدة مادامت هذه الأخيرة لا تتعارض مع جوهر الدين الإسلامي و عقيدته.

و العمران¹ بصفة عامة يعبر عنه بالمظاهر الحضارية بالمدن²، أي الحراك الاجتماعي داخل المدينة و فسره "ابن خلدون" بقوله: " أعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، و ما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش و التأنس و العصبيات و أصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، و ما ينشأ عن ذلك من الملك و الدول و مراتبها، و ما ينتحله في أمالمهم و مساعيهم من كسب و معاش و العلوم و الصنائع، و سائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال..."³.

أشار "عبد الرحمن بن خلدون" في هذا التعريف إلى الحياة الاجتماعية داخل التجمعات البشرية و مواطن الاستقرار الإنساني، و منها الحياة البدوية و الحضرية و العصبيات من القبائل و أجناس البشر، و العلاقات الاجتماعية التي تحتاج إليها المدينة من أجل نموها و تطورها، و ينجر وراء ذلك ظهور السلطان الذي يسوسها و يضع القوانين و النظم التي تسيروها و تنظم مجتمعتها، و هذا ما يعرف بالمظهر السياسي، أما ما يحتاجه الإنسان في معاشه و الوسائل المستخدمة في تطويره و العلاقات الناتجة عن ذلك و الصنائع المترتبة على ذلك، و بالتالي تولد السخرية داخل المجتمع

1 - العمران هي الحياة في المدينة و يعبر عنها بالمدينة أي اجتماع الناس. و يقول في ذلك عبد الرحمن بن خلدون: "...أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم و هو معنى العمران...". للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج1، ص 340.

2 - يقول الأستاذ مصطفى بن حموش: " و على هذا الأساس فإن مفهوم العمران الإسلامي يكون من قبيل التجاوز الذي يعني المدن التي ينشئها المسلمون دون الالتزام بها كنموذج شرعي، و هذا التفسير يصحح الكثير من الاعتقادات السائدة حاليا في حصر العمران الإسلامي و العمارة الإسلامية في القباب و الأقواس، و دار ذات الصحن المركزي و الرقاق و غيرها من عناصر العمارة التقليدية". للمزيد من التفاصيل أنظر: - مصطفى بن حموش، المدينة و السلطة...، ص19.

3 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج1، ص 329.

و التي لا مناص منها، حيث لا يمكن لأي إنسان أن يعيش في معزل¹ عن المجتمع و التجمعات السكنية التي توفر جميع الحرف و الصنائع، و هذا ما يطلق عليه مصطلح المظهر الاقتصادي. ثم أشار "ابن خلدون" إلى العلوم و منشأها المجتمعات التي تفوقت بها، و هذا ما يعرف بالمظهر الفكري. و تجتمع داخل هذا المظهر العلوم و المعتقدات الدينية، و العمارة² التي هي جزءا لا ينفصل عن المظهر الفكري، و من خلالها يجسد أفكاره في جميع أصنافها من عمارة دينية و مدنية و عسكرية.

و من ثم فإن العمران الإسلامي هو البيئة العمرانية التي تستجيب لمقاصد الشريعة الإسلامية و لا تتصادم مع التشريعات و الأحكام التي اجتهدها الفقهاء و الأصوليون في وضعها، و ليست المدينة الإسلامية في العصر الوسيط و الحديث إلا صورة محددة في الزمان و المكان لكيفية الاستجابة لتلك المقاصد في ظل الشريعة الإسلامية³. و من خلال هذا الفصل سوف نتطرق إلى الفكر العمراني الإسلامي و أثره في العمارة المدنية و العسكرية، أصوله، و مضامينه، و مميزاته.

1 - التنظيم العمراني للمدينة الإسلامية (الشوارع و الطرق).

برزت الشوارع و الطرق في المدن كمحور رئيسي في التخطيط منذ أن عرف الإنسان أو المجموعات البشرية عملية الإستيطان و الاستقرار، و يبدو ذلك منذ فترة فجر التاريخ، و تطور ذلك بتطور الحضارات و من خلالها المدن و القرى، و عكس تخطيط الشوارع و الطرق المستوى الحضاري الذي وصل إليه الإنسان عبر جميع المراحل التاريخية التي مر بها، و أصبح بذلك تخطيط شبكات الطرق في المدينة من بين الأسس التي تضمنت عليها نوعيات تخطيط المدن قديمها و حديثها.

1 - و يعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع. أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج1، ص 340.

2 - العمارة ما يعمر به المكان. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج6، ص296. و كذلك: - الفيروزبادي، المصدر السابق، ص475.

3 - مصطفى بن حموش، المدينة، ...، ص19.

إن دراسة الشوارع و الطرق يجعلنا حتما نتطرق إلى العلاقة الموجودة بينها و بين المنشآت المعمارية الموجودة بالمدينة، لأن هذا يجعلنا نصل إلى تفسير الكثير من المسائل و الحقائق الأثرية و المعمارية المتصلة بالتكوينات المعمارية المطلة عليها.¹

1- 1 - التأصيل التاريخي لتخطيط الشوارع و الطرق:

تشير الدراسات الأثرية أن بداية ظهور الشارع الذي تصطف على جانبيه المنازل كان "بمصر" بمنطقة "مرمده بني سلامة"، و التي ترجع إلى حوالي 3000 ق.م، حيث بلغ اتساعه خمسة أمتار، و طوله ثمانين مترا تصطف على جانبيه المساكن بنظام يكشف عن وجود كيان اجتماعي و سياسي كفل هذا التنظيم.

و يعكس أهمية الشوارع في تخطيط المدن باعتبارها الهيكل الأساسي الذي يحدد تكوينات المدينة العمرانية ذلك الرمز الكتابي في الكتابة التصويرية المصرية القديمة الذي يدل على المدينة، و هو رمز عبارة عن دائرة يقطعها شارعان متعامدان.

كما كشفت الدراسات الأثرية التي أجريت في المواقع التي ترجع إلى الفترة القديمة في "مصر" عن أهمية الطرق التي تؤدي إلى المعابد، و التي تربط بين وحداتها المختلفة، و أنها كانت ذات اعتبار خاص، حتى أن بعضها اتخذ هيئة خاصة، بل إنها صنفت إلى طرق محرمة، و طرق خاصة، و طرق عامة، كما تكشف عن ذلك طرق المعابد في منطقة "سقارة"، و ارتبط هذا التصنيف بالطقوس و المراسم المتبعة في تلك العصور.

و برزت في المدن المصرية القديمة فكرة تخطيط الشوارع المستقيمة المنتظمة التي تقطعها شوارع عرضية مستقيمة أيضا، و إذا كانت هذه الظاهرة ظهرت في شوارع المصاطب التي خصصت للدفن، فإنها شاعت في نماذج المدن المصرية التي كشفت عنها الحفريات الأثرية، مثل مدينة "عمال أهرام خنت كاوس" (2481 ق.م)، التي يدل تخطيطها على أنه عمل لها مخطط قبل إنشائها، فكان تخطيطها عبارة عن شوارع مستقيمة منتظمة تقطعها طرق عرضية متعامدة عليها، تحدد جميعها التكوينات المعمارية للمدينة في مجموعها، و كل مجموعة منها متكاملة الخدمات، و مدينة "كاهون" (1879-1897 ق.م)²، و هي مدينة قسمت إلى قسمين أحدهما خصص للطبقة الحاكمة،

1 - محمد عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص 153.

2 - نفسه.

و الآخر لعامة الناس، و سارت على النموذج السابق نفسه من التخطيط و الذي أصطلح على تسميته بالتخطيط "الشطرنجي"، قوامه شوارع مستقيمة متقاطعة في زوايا قائمة، و من هذه النماذج مدينة العمال "بتل العمارنه" (1375-1345ق.م) التي تشبه سابقتها في التخطيط العام للشوارع إلى حد بعيد، و يلي هذه المدن المدينة السكنية "بالعمارنه آحت آتون" (1345ق.م)، و هي مدينة تميزت بأن تخطيطها حدائقي، لكنها اشتملت على ثلاثة شوارع رئيسية محاذية "للنيل" تمتد من الشمال إلى الجنوب يتوسطها الطريق الملكي، و كانت تمتد امتدادا مستقيما، كما تتقاطع و تتعامد معها شوارع أخرى أقل أهمية، و هذه المدن و غيرها تكشف عن أهمية الشوارع و الطرق في تخطيط المدن في العصور القديمة، و هو تخطيط ارتقى و تبلور أكثر في الحضارات التالية، مرتبطا بالظواهر الحضارية التي تميز عصر إنشائها.

و في حضارات واد الرافدين تعد مدينة "بابل" (2000ق.م) أشهر مدن العالم القديم تنظيما و تخطيطا، حيث كان بالمدينة طريق رئيسي يمتد من الشمال إلى الجنوب و يمر على مركز المدينة يسمى الطريق المقدس أو طريق الاحتفالات اتساعه (23م)، و كان محاطا على مدى (300م) تقريبا بجدارين سمكهما (7م)، و كانت هذه الجدران التي يمر المرء بينهما مزينة بالآجر المطلي بلون أزرق داكن، و بالموازاة مع هذا الشارع و حتى إلى وسط المدينة يمتد شارع الإله "سن" و شارع الإله "أنليل" و يؤدي كلاهما من الشمال إلى الجنوب على التوالي إلى شارع الإله "مردوخ" الذي يمتد من الشرق إلى الغرب عبر وسط المدينة، و بالإضافة إلى هذه الشوارع الرئيسية كانت هناك شوارع صغيرة و ضيقة و متعرجة تؤدي إلى الطرق الرئيسية، و من مميزاتهما أنّ الظل يشغل امتداد كبير منها، و كانت تحد كل هذه الشوارع أحياء المدينة، كما تتوزع عليها المنشآت الدينية و العمومية.¹

و كان للمدن الإغريقية الأثر الكبير على تخطيط المدن، و من الأمثلة على تخطيط المدن الإغريقية مدينة "الإسكندرية" التي خططها المهندس "دينوكراتس"، حيث أستعمل الأفكار و النظريات التي كانت شائعة في بلاد الإغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد، و الذي ظهر في عدة مدن إغريقية مثل مدينة "بيرايوس"، و "رودوس" و "هاليكارناسوس"، و هو عبارة عن شوارع

1 - مارغريث روثن، تاريخ بابل، ترجمة: زينة عزار و ميشال أبي فاضيل، ط2، دار عويدات للنشر، لبنان، 1984م، ص63.

مستقيمة تخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب، و من الشرق إلى الغرب في خطوط متعامدة تقسمها إلى مربعات مما يجعلها أشبه بلوحة الشطرنج.¹

و هكذا يبدو واضحا أن تخطيط "الهيودامي" متطور عن التخطيط المصري القديم الذي أشرنا إلى نماذجه لكنه تطور و تبلور ليربط أجزاء المدينة و يجعلها وحدة واحدة حول السوق، التي جعلت مركزا للتجارة، و تحقق له هذا الهدف عن طريق تلك الشبكة المنتظمة من الشوارع المستقيمة الواسعة التي تتعامد عليها و تتقاطع معها شبكة من الشوارع الفرعية الجانبية.

وفي العصر الروماني اعتبرت المدينة العادية التي تخطط على هيئة مربع أو مستطيل يخترقه طريقان عموديان في الوسط، و يتجه أحد هذين الطريقين الرئيسيين من الشمال إلى الجنوب و هو يسمى "كاردو" و يعني محورا، أما الطريق الثاني الرئيس الآخر فيتجه من الشرق إلى الغرب و يسمى "ديكومانوس"، و كان الشارع الرئيسي عريضا على جانبيه رواقان بالأعمدة كورنثية عرض كل منهما ستة أمتار، و في نقطة تقاطع الشارعين الرئيسيين كان ينشأ عقد محمول على عمد (اللوحة رقم:2). و بعد ذلك التخطيط الرئيس لشارعي المدينة كان يكفي أن تخطط طرق ثانوية على شكل مربعات، و هكذا وجد في المدينة الرومانية شوارع ثانوية تتجه من الشرق إلى الغرب و من الشمال إلى الجنوب مشابهة للمحورين الرئيسيين بعد أن تكون قطع الأرض المحددة للتكوينات المعمارية الهيئة الشطرنجية. و من الأمثلة على ذلك مدينة "تيمقاد"، و مدينة "جميلة" (اللوحة رقم:1)، و مدينة "الجزائر"، في هذه الأخيرة نجد هذا التخطيط في أسفل المدينة حيث استقر الرومان، و لم تستفد المدينة من هذا التخطيط لكونها توسعت نحو الأعلى و هذا ما ذكرناه في الفصل الثاني من الدراسة².

و يعكس هذا التخطيط السلطة العسكرية للرومان، بالإضافة إلى أنه ارتبط بالمراسم و الطقوس المتبعة في ذلك العصر، و من هنا يظهر الارتباط الوثيق بين تخطيط شوارع المدن و مظاهر الحياة فيها، و النظم المتبعة في هذا العصر أو ذلك.³

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص 153.

2 - أنظر الفصل الثاني، ص 116.

3 - محمد عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص 153.

1- 2 - العوامل المؤثرة على تخطيط الشوارع و الطرق:

اختلفت العوامل التي تؤثر في تخطيط الشوارع و الطرق بالمدينة الإسلامية، و ارتبطت ارتباطا وثيقا و عضويا بالمنشآت المعمارية المختلفة بها، و من خلال هذا التحليل يمكن نبرز العلاقة القوية الموجود بين الطرق و الشوارع و هذه المنشآت.

أ - موضع المدينة و تحصيناتها:

تأثر تخطيط شوارع المدينة الإسلامية المحصنة بنظام تحصينها و أسوارها، فاختيار الموقع الحصين المرتفع أو المحاط بعوائق مائية ينعكس على طرق التوصل إليها، كما أن إحاطة المدينة بأسوار حدد مساحتها، و حدد أيضا هيئة امتدادها و أرباضها مما كان له أثره المباشر على عدد و مقاييس و اتجاهات شوارعها¹، و يمكن أن نلاحظ ذلك في مدينة "الجزائر"، حيث ارتبطت الشوارع الرئيسية بسور المدينة الذي يحيط بها من كل الجهات، و فتحت فيه أبواب رئيسية منها يلج سكان الفحص إلى المدينة، حيث الشارع الرئيسي الأول الذي يمتد من باب "الوادي" بالجهة الشمالية الغربية يعتبر منفذ لسكان فحص باب "الوادي" إلى غاية باب "عزون" بالجهة الشمالية الشرقية و الذي يعتبر المنفذ الوحيد لسكان فحص باب "عزون" و الوافدين من شرق البلاد، أما الطريق الرئيسي الثاني فيبدو أنه كان يربط باب "الجديد" بالجهة الجنوبية للمدينة و أسفل المدينة و الذي يطلق عليه اسم شارع باب "الجديد" (La rue de porte neuve)، و معالم هذا الطريق لا تزال واضحة للعيان من خلال امتداده الشبه المستقيم من الأعلى إلى الأسفل، وفي الجهة الغربية من المدينة هناك طريق ثانوي ثان يمتد من أسفل القصبة انطلاقا من شارع باب عزون عند جامع علي بتشين ليصل إلى جامع القصبة البراني، و هذا الاستنتاج لا يمكننا أن نصل إليه في مدينة "تلمسان" لغياب الشواهد الأثرية، كما تطلع النصوص التاريخية أن اتساعها و كبر مساحتها و موقعها على بسيط من الأرض فتح على سورها عدة أبواب لذلك يحتمل أن تكون الشوارع الرئيسية بها بعدد أبواب المدينة متجهة إلى وسطها أو إلى أهم المنشآت العمرانية بها.

و أثرت الأسوار في تحديد مساحة المدينة، التي أثرت بدورها في استغلال استغلالا مكثفا، بحلول مختلفة كالامتداد الرأسي، و ضيق الشوارع الجانبية الذي أدى بدوره إلى الاستغناء عن الشارع

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص 155.

كعنصر تهوية و إضاءة، و الاعتماد على الفناء الداخلي، و أثر ذلك في تلاصق المباني و الامتداد بالأجنحة و الرواشن في الطوابق العليا المطلة على الشارع استغلالا لكل مساحة ممكنة، و الأمثلة كثيرة بمدينة "الجزائر" مقارنة بمدينة "تلمسان"، حيث تقل هذه المشاهد (اللوحة رقم: س).

كما أثرت مساحة المدينة كذلك في إنشاء بعض المرافق التي تحتاج إلى مساحة واسعة منها المقابر و مصليات العيد و ميادين استعراض الجيش و الأسواق الأسبوعية التي يكثر فيها الغرباء، و التي ارتبطت موقعها إلى حد بعيد بداخل المدينة عن طريق شوارع رئيسية و بواباتها الخارجية بالأسوار، و نجد ذلك واضحا في مدينة "تلمسان" من خلال النصوص التاريخية التي تشير إلى وجود طرق تجارية تربط المدينة بأهم المراكز التجارية في العصر الوسيط،¹ بالإضافة إلى الطريق الذي كان يربط المدينة بقرية "العباد"².

كذلك أثر نظام تأمين الخليفة أو الحاكم في المدينة في وجود طرق أرضية "أنفاق" تربط بين القصور في المدينة، أو تربط المدينة بخارجها، و في المدن التي اتخذ الحكام فيها قلاعاً كمراكز لحكمهم، أنشؤوا لهم مدناً ملكية مجاورة لمدن العامة، دعت الحاجة إلى ربط هذه القلاع أو المدن الملكية بمدن العامة بشوارع و طرق تأثرت مقاييسها و اتجاهاتها بطبيعة المرور فيها، و موضع هذه المدن و القلاع من مدن العامة، و يمكن أن نلاحظ ذلك في مدينة "الجزائر" من خلال الطريق الذي يربط "دار السلطان" بأسفل المدينة و الذي يحاذي الضلع الشمالي الغربي لسور المدينة و اتساعه يسمح بمرور العربات التي تجرها الخيول، كما يمكن أن نتصور وجود طريق يربط قلعة "المشور" بمدينة "تلمسان"، و المسجد الجامع المرابطي، وقد احتوت المدن على مؤسسات ذات وظائف متعددة وخاصة ما شغل مركز المدينة الذي ضم المسجد الجامع.

ب - موقع المسجد الجامع:

يعتبر المسجد الجامع من المنشآت المعمارية الدينية الأساسية بالمدينة الإسلامية، و يمثل محورا رئيسيا من محاور تخطيطها، و اقتضت وظائفه الدينية و التعليمية و السياسية والقضائية والاجتماعية والاقتصادية أن يكون موضعه في وسط المدينة ليكون قريبا من كل موضع فيها، و من حوله خطت الخطط التي توجهت شوارعها الرئيسية إلى المسجد الجامع الذي يتوسطها. وظل المسجد الجامع

1 - أنظر على سبيل المثال: - البكري، المصدر السابق، ص76.

2 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص

بوسطية موضعه في المدينة الإسلامية في الفترة التاريخية التي لم يسمح فيها بإقامة أكثر من خطبة في المدينة الإسلامية عاملا مؤثرا على توجيه شوارع المدينة الرئيسية و بالتالي على الشوارع و السكك و الأزقة الفرعية المتصلة بها.

و يبدووا واضحا أن هذه الوسطية التي تتحقق في موقع المسجد الجامع بالمدينة الإسلامية جاءت متأثرة تأثرا مباشرا بمدينة الرسول صلى الله عليه و سلم، حيث بدأت فيها هذه الظاهرة لتنتشر و تستمر في جميع المدن التي أسسها المسلمون، و غيرها من المدن الناشئة التي فتحوها، ووجهت الطرق في الامتدادات العمرانية الجديدة خاصة نحو المسجد. و إذا أسقطنا هذه النتيجة على مدينة "تلمسان" فيمكن أن نتصور وسطية المسجد المرابطي للمدينة، و لا جرم أن الطرق كانت تتجه إليه على غرار المدن بالغرب الإسلامي منها مدينة "القيروان"، و مدينة "فاس"¹، أما في مدينة "الجزائر" فالمسجد الجامع عند تمصيرها في القرن الرابع للهجرة كان مسجد "سيدي رمضان"، حيث يقع في أعلى المدينة من الجهة الشمالية الغربية، و لا يمكن تحديد حاليا هل كانت تتجه إليه شوارع رئيسية، أو طرق فرعية تتفرع عن الشارع الرئيسي الذي يمتد إلى أعلى المدينة. أما المسجد الجامع المرابطي الذي يقع أسفل المدينة، حيث جميع النشاطات الاقتصادية و التجارية و المؤسسات العمومية تقع في هذه المنطقة، فلا جرم أن يكون قد ربط بطرق تتجه إليه من هذه المؤسسات.²

- الأسواق و الحراك التجاري:

كان لمواقع الأسواق بالمدينة الإسلامية علاقة وطيدة بشوارعها، و أثر كبير في حالة المرور فيها، و قد انعكس ذلك انعكاسا واضحا على خريطة الأسواق في أي مدينة إسلامية، فإنشاء الأسواق الأسبوعية خارج أبواب المدينة جاء لما تحتاجه من مساحة كبيرة، و من رغبة في سهولة الانتقال منها

1 - عبد الأحد السبتي، حليلة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص155.

2 - لا شك أن مدينة الجزائر في العصر الزيري كانت قرية صغيرة تكمن أهميتها في مينائها، والسؤال لماذا يبني بلكين المسجد الجامع و مركز المدينة بعيدا عن الميناء وفي غير أرض منبسطة، وهو ما استغله المرابطون فاتخذوا مركزا للمدينة المنطقه السفلى ومكان منبسط أقاموا فيه جامعا، وجامع سيدي رمضان بعيد نسبيا عن المركز المرابطي والوصول إليه أمر صعب نسبيا مهما يكن فإن مركز المدينة الجديد في العصر المرابطي كان وظل حيث الجامع الكبير ثم الجامع الجديد وجامع السيدة في الفترة العثمانية، وهو مركز كل النشاطات والوظائف المختلفة وظل كذلك حتى نهاية العهد العثماني == لخص هذه المعلومات وعمقها).

و إليها، و أيضا للرغبة في التخفيف قدر الإمكان من شوارع المدينة الداخلية التي حكمت اتساعها و نظامها عوامل أخرى لتوفر لها نوعا من الهدوء و النظافة كان يمكن أن يفترق لو أن هذه النوعية من الأسواق كانت داخل المدينة.

و كان أهل القرى و الريف والقادمون من خارج المنطقة والمناطق البعيدة يأتون إلى هذه الأسواق لبيع منتجاتهم المختلفة، و يدخلون إلى المدن لشراء حاجاتهم من منتجات المدينة من أسواقها الداخلية المتخصصة في إنتاج و بيع ما يحتاجون إليه من مصنوعات. و قد توزعت هذه الأسواق في نوعيات متعددة نظمت تنظيما يحقق الفائدة و يمنع الضرر، و يسهل حركة المرور في الأسواق، و كان للمحتسب دور بارز في الإشراف على حركة المرور في الأسواق و نظافة شوارعها و مباشرة الحركة فيها، و أحكام هذه الحركة في إطار القيم و المبادئ الإسلامية، و كان لهذا التوزيع علاقة بحركة المرور في الشوارع و تسهيلها، فتركزت مثلا أسواق الحبوب و غيرها من أسواق المواد الثقيلة الوزن كبيرة الحجم قرب أبواب المدن حتى لا يؤثر نقلها على داخل المدينة في حركة المرور في شوارعها.¹

1 - 3 - مستويات الطرق و حقوقها:

الطريق ملك لجماعة المسلمين، و بالتالي فالسيطرة عليه من حق المارة، ، فالشريعة الإسلامية و من خلال هدي الرسول صلى الله عليه و سلم جعلت إمارة الأذى عن الطريق صدقة و اعتبرته من أدنى مراتب الإيمان²، و لم يحدد صلى الله عليه و سلم حجم هذا الأذى و صنفه بل ترك باب الاجتهاد للعلماء و الشارع مفتوح. و عن "أبي هريرة" رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخذه فشكر الله له فغفر له"³، و عن "سعيد الخدري" رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " إياكم و الجلوس على الطرقات. فقالوا: مالنا بدُّ إنما هي مجالسنا نتحدّث فيها. قال: فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقه، قالوا و ما حق الطريق؟ قال: غض البصر، و كفُّ الأذى، و رد

1 - محمد عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص 160.

2 - خالد عزب، فقه...، ص 25.

3- الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 450.

السلام، و أمر بالمعروف و النهي عن المنكر"¹. و عن "أبي هريرة" رضي الله عنه: " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بينما رجل على الطريق و اشتد به العطش فوجد بئر فنزل فيها و شرب....."².

ترتبط مقاييس الشوارع في المدينة الإسلامية بعوامل مختلفة و متنوعة، منها ما هو متصل في الأصل بنظام تخطيط المدينة الإسلامية، و منها ما هو مرتبط بطبيعة الموضع و المناخ و طريقة و نوعية الارتقاء، هذا بالإضافة إلى ارتباط ذلك بالقيم الإسلامية، و العادات و الرسوم السائدة في هذا المجتمع أو ذلك، و قد تتشابه هذه العوامل و تتقارب في المدن الإسلامية و من ثم تشابهت إلى حد كبير مقاييس شوارعها و أسس تخطيطها³.

إنّ جل الدراسات التي تناولت المدينة الإسلامية وصفت شوارعها وصفا اتسم بالتعميم، حيث اتفقت على ضيق شوارعها و التوائها، بل إنّ بعض هذه الدراسات اتهمت المسلمون بإفساد نظام الشوارع في المدن القديمة التي فتحوها⁴.

و اتجه تخطيط المدينة الإسلامية إلى تخطيط شوارعها العامة التي تربط خططها و تكويناتها المعمارية الرئيسية و تحديد مقاييسها و اتجاهاتها، كما أنه اتجه إلى إقطاع الخطط القبائل أو المجموعات البشرية لإنشاء مساكنهم، و تركت لهم حرية تقسيمها و تخطيطها مع التأكيد على أهمية تخطيط الشوارع الثانوية التي تفصل بين المساكن بما يتناسب و حاجة الارتقاء. و كانت النتيجة المباشرة لهذا الاتجاه في التخطيط أن وجدت نوعيتان من الشوارع في المدينة الإسلامية⁵:

نوعية الأولى أطلق عليها الفقهاء "الطريق السابلة" أو "طريق المسلمين"، أو "طريق العامة"، أو غيرها من التسميات التي تعني أن هذه النوعية من الطرق ملك للعامة، لهم جميعا حق الارتفاق بها، ووجب على السلطة المحافظة عليها من أي اعتداء يعرضها للضييق أو إعاقة المرور بها.

1- البخاري، الجامع...، ص 447.

2- نفسه، ص 447.

3 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد القادر أكبر جميل، المرجع السابق، ص 255.

4 - محمد عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص 163.

5 - للمزيد من التفاصيل حول نوعية الطرقات و الشوارع بالمدينة الإسلامية أنظر: - محمد بن حمو، "المسالك في المدينة

الإسلامية"، مجلة كان التاريخية، العدد 28، جويلية 2015م، ص 147.

وقد شدد الفقهاء في فتاويهم، و لم يفتحوا لعامة الناس مجالا لاغتصاب الطريق أو الأخذ منها، أو البناء عليها، و خروج الناس بمبانيهم إلى الطريق في العلو كبناء الساباط، و إشراع الرواشن أو الجناح أو الظلة، أو الخارجة¹، و كثيرا ما كانت ترد عليهم النوازل في هذه المسألة، فمحصوها تمحيصا دقيقا و سدوا باب الذرائع لعامة الناس كما نبهوا الحاكم و السلطة بضرورة حماية حق الطريق، و نذكر على سبيل المثال :

- سئل "أبو عبد الله الحفار" عن شارع عمد بعض من فيه فبنا عرصه نحو الذراع في الشارع و بناها وادعاها و جعل عليها ساباط يطل عل الطريق، و ليس في أصل الشارع عدا العرصه المذكورة، هل له ذلك و سواء كان الطريق واسعا قدر السبعة أذرع أو قل أو أكثر أم لا؟ و كيف لو قابله ساباط لغيره أو أكثر و ربما أظلم الطريق بالعشي؟ هل يكون لأصحاب الساباط الثانية مقال أم لا؟ و ربما قرب ساباط غير جدّا، فهل يمنع من هذا أم لا؟ فأجاب: " كل ما عمل مما يلاصق حائطه من بنائه مما لا يضرّ بأحد من الناس فذلك له و ما أضر يمنع منه."²

- سئل "ابن زيادة الله" عن أناس أخذوا من حق الطريق. فأجاب: " قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لا ضرر و لا ضرار، فلا يجوز لأحد أن يحدث في طريق المسلمين ما يضر بهم في ممرهم و تصرفهم و عليهم حرج و مشقة، و ينهى عنه أشد النعي و يجب على من بسط الله يده من حكام المسلمين زجره عن ذلك فإن لم ينته عاقبه عقوبة يرجع بها عن فعله، و لا يسامح بمثل هذا لأنه يؤدي إلى تسامح الناس فيه و من لا قائم له فالحاكم هو النائب عن المسلمين فيه"³.

و قد ترتب على مبدئي " لا ضرر و لا ضرار"، و الأخذ "بالعرف"، في تقرير أحكام البناء، نشوء مبدأ حيازة الضرر تعني: أن من سبق في البناء يجوز العدد من المزايا التي يجب على جاره الذي يأتي بعده أن يحترمها، و أن يأخذها في اعتباره عند بنائه مسكنه و بذلك يصيغ المسكن الأسبق المسكن اللاحق من الناحية المعمارية نتيجة لحيازته الضرر، و بذلك يسيطر العقار الأسبق على حقوق عديدة يحترمها الآخرون عند بنائهم، فضلا عن الحقوق قررها الشرع الحنيف في مجال التنظيم

1 - للمزيد من التفاصيل حول تعريف هذه المصطلحات أنظر: - جميل عبد القادر الأكبر، المرجع السابق، ص262.

2- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص439.

3- نفسه، ج8، ص448.

العمراني، و كلاهما معا أدى إلى وجود بيئة عمرانية مستقرة، و هذا ما نستنتجه من خلال النوازل السابقة¹.

كما أجاز التشريع الإسلامي للحاكم أن ينتزع من ملكية الأشخاص أو الجماعات لتوسعة طريق المسلمين، مثلما أجاز في ذلك لتوسعة المساجد، و لا يغتصب الملكيات بل يعوض المالك بما يرضى به، و تشير الوثيقة التالية إلى هذا الأمر من خلال توسعة طريق في مدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية نصها: " الحمد لله بعد أن كان المعظم..... السيد "علي باشا" صانه الله و رعاه....أخذ جلسة الدكان التي هي للشاب السيد "محمد بن السيد أحمد بوشعته" به عرف الكاين قبلة "القسارية" لتوسعة الطريق لكافة المسلمين، و يأخذ السيد "محمد" المذكور و رضي بذلك مكنها منه...".²

و تتسم هذه النوعية من الشوارع بأنها نافذة توصل إلى غيرها من الشوارع تميزا لها عن الطريق الخاص غير النافذة.

أما النوعية الثانية من الطرق التي تركت حرية تخطيطها و تحديد مقاييسها لأصحاب الإقطاعات أو الخطط هي الطرق غير النافذة³، و قد تنشأ هذه الطرق من إحدى الحركتين التاليتين، أو كلاهما معا: الحركية الأولى هي أنه ترك ابتداء ليكون طريقا غير نافذ فقد تأتي جماعة من قبيلة معينة أو مذهب أو حرفة واحدة و ترفع الطريق بينهم من أرضهم عند بنائهم، أو عند إحيائهم لموات، و الحركية الثانية هي ظهوره تدريجيا بتراكم قرارات عدة فرق سكنت أو أحيت أراض متجاورة في أوقات مختلفة، و بهذا النمو ظهرت الحاجة لتخصيص مكان مرور الساكنين، و لقد استخدم الفقهاء الوصف "غير نافذ" أو "ليس نافذ"، أو "مشترك" مع أسماء " الزنقة⁴ و زائغة⁵ و رائعة⁶ و درب

1 - خالد عزب، فقه العمارة...، ص25.

2 - مصطفى بن حموش، فقه...، ص199.

3 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - جميل عبد القادر أكبر، المرجع السابق، ص278، 279.

4 - الزنقة: ميل في جدار أو السكة، أو ناحية دار...، و في حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: من يشتري هذه الزنقة و يزيدها في المسجد؟. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص306، 307.

5 - زائغة: أي مائلة أو منحرفة عن طريق عام نافذ و هو ما أكسبها صفة الالتواء. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص167.

6 - الرائعة هي تلك الطريق غير النافذة الموجودة بالمدينة الإسلامية و هي شبيهة بالزناقات و الأزقة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد بن حمو، المسالك...، ص150.

و زقاق¹ و سكة و الطريق" للتعبير عن الطريق غير النافذ.

تعتبر هذه الطرق مشتركة الملكية لأصحاب الدور المحيطة بها، و لهم حرية الارتفاق² بها دون غيرهم من العامة باعتبارها ملكية خاصة³، فقد استخدم الفقهاء عدة ألفاظ للتعبير عن مالكي الطريق كـ "أهل الطريق"، أو "الشركاء"، و هم أولئك الذين لهم عقارات داخل الطريق و لهم حق المرور فيه، و قاعدة في سيطرة أهل الطريق عليه عموماً هي أنه لا يجوز لأي فرد أن يتصرف في الطريق غير النافذ دون موافقة الشركاء، و من ثم لم يكن للسلطة في المدينة حق التدخل في شؤونها إلا إذا طلب ذلك أحد من أصحابها، و ذلك بالتوجه إلى القاضي لطرح مظلّمته، و من الأمور التي كان التعدي فيها على الطريق كإنشاء الدكاكين و فتح الأبواب و اقتطاع من الطريق، أو بناء الغرف التي تخرج عن سمت الطريق، أو بناء الساباطات، و تشير المسألة التي وردت على أحد علماء المغرب الإسلامي مضمونها: "عمن أحدث ساباطاً في سكة⁴ غير نافذة؟ فأجاب: لا يحدث في غير النافذة ساباطاً و لا غيره، و ليس لهم المنع مما كان قديماً و أعاده على ما كان عليه و لو أحدثه بحضرتهم و سكتوا عنه من غير عذر فلا قيام لهم و لا لمن ملك بعدهم بسببهم"⁵.

1 - الزقاق: السكّة، يذكر و يؤنث، قال "الأخفش" أهل الحجاز يؤنثون الطريق و السراط و السبيل و السّوق... و قيل الزّقاق الطريق الضيّق دون السكّة، و الجمع أزقة أو زقاق... و الزقاق: طريق نافذ و غير نافذ ضيّق دون السكّة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص283.

2 - يعرف الارتفاق في اللغة بكونه الاتكاء على مرفق اليد، و المرفق بكسر الميم و فتح الفاء هو موصل الذراع في العضد. أما في اصطلاح الفقهي فهو الانتفاع بالشيء أو إعطاء منافع العقار سواء بعوض أو بغيره، و يتضح المعنى أكثر عند الحنفية بكونه حقاً مقراً على عقار لمنفعة عقار مملوك لآخر. و قد حصر فقهاء الحنفية حقوق الارتفاق في ستة هي: حق الشرب، حق الحجري، حق السبيل، حق المرور، و حق التعلّي، و حق الجوار، مع بعض التحفظ على الحقين الأخيرين. و تنشأ هذه الحقوق عادة نتيجة التجاور و تشابك الملكيات مما يفرض على إنشاء اتفاقات بين الجيران لتبادل المنافع. و مع تقادم الزمن تتراكم الحقوق على العقارات بحيث لا يكاد يستثنى بناء من حقوق ارتفاق له أو عليه، و هذا ما يفسر لنا الكثير من التركيب الهندسي المعقد الذي نلاحظه في الأنسجة الحضريّة بمدننا. للمزيد من التفاصيل أنظر: - مصطفى بن حموش، فقه العمران...، ص43.

3 - خالد عزب، فقه العمارة...، ص27.

4 - السكّة أوسع من الزّقاق، سميت بذلك لاصطفاف الدور فيها على التشبيه بالسكّة من النخيل، و السكّة الطريق المستوي. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص465.

5- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص447.

و من أشهر الطرق غير النافذة هو "الدرب"¹ ، لما فيه من خصوصيات اجتماعية لا نجدها في بقية الشوارع و الطرق بالمدينة الإسلامية، تسود فيه قواعد و ضوابط و جب على سكان الدرب احترامها، كما يجهز بمسجد و كتاب للتعليم الأطفال، خاصة إذا كان هذا الدرب كبير يقارن بحي من أحياء المدينة، و ربما توضع في الدروب الأبواب تغلق بالليل و يوضع فيها حارس يراقب حركة المرور داخل الدرب خاصة الغرباء، و نجد هذه الظاهرة في الدروب غير النافذة. كما يمكن أن نجد مجموعة من الدروب غير النافذة تطل على طريق رئيسي لحي من أحياء المدينة. و كانت القضايا و المشاكل التي تحدث داخل الحي أو الدرب لا تتدخل السلطة في حلها إلا إذا طلب ذلك أحد من السكان، فعندئذ يتدخل القضاء لحل ما يمكن أن يحدث من مشكلات، و تشير كتب النوازل إلى الكثير من القضايا كانت ترد على قضاة المغرب الإسلامي و علمائه و من الأمثلة على ذلك:

- سئل "السيوري" عن درب غير نافذ فيه ديار و غرفة لحبس المسجد فأراد بعضهم فتح باب لم يكن و أذن بقية أهل الدرب هل يمنع بسبب غرفة الحبس أم لا؟ فأجاب: " إن كان غير مضر بالجيران لا حالا و لا مآلا أبدا و لا بالرفة فلا يمنع".²

- سئل "السيوري" عن يهودي اشترى دارا من مسلم في درب ليس فيه إلا المسلمون من أهل العافية و الخير فسكن اليهودي الدار و آذى الجيران بشرب الخمر و فعل ما لا يجوز و للدرب بئر بغزاء هذه الدار فصار يملأ معهم بدلوه و حلبه و قلته فامتنع أهل الدرب من الامتلاء منها هل يجوز إبقاؤه أم تباع عليه؟ فأجاب: " يمنع من أذاهم بما وصف من شرب الخمر و فعل ما لا يجوز فن انتهى و إلا أكريت عليه..."³.

كما تذكر المصادر التاريخية أسماء دروب الأحياء ، و الحياة الاجتماعية داخل الدرب، و من أشهرها بمدينة "تلمسان" درب "ملالة"، و كانت فيه دار الفقيه "الصالح أبو الحسن علي بن محمد

1 - الدَّرب باب السكَّة الواسع و في التهذيب: الواسعة، و هو أيضا الباب الأكبر، و المعنى واحد، و قيل: هو بفتح الراء للتأخذ منه، و بالسكون لغير التأخذ. و أصل الدَّرب: المضيق في الجبال، و منه قولهم: أدرب القوم إذا دخلوا أرض العدو من بلاد الروم. للمزيد من التفاصيل أنظر: - الفيروزبادي، المصدر السابق، ص80.

2- الونشريسي، المصدر السابق ، ج8، ص436.

3- نفسه، ج8، ص437.

الحَمَّال¹، ودرّب "مرسى الطلبة"، و يصف "ابن مرزوق" الحياة الاجتماعية داخل درب مرسى الطلبة على عهد جده في القرن (8هـ / 14م) بقوله: "..... كان هذا الموضع المعروف "بمرسى الطلبة"، دربا واحدة، ويقال أنه كان يجتمع في مسجده نحو من أربعين طالب، بين مدرس وصاحب فائدة، و شهرة فائدة، كانوا كأنهم إخوة، من غاب على شهود الصلاة و صلوا إلى منزله ليعرفوا حاله، و الضعيف منهم يواسيه القوي، و كان يسكن معهم مياسير من أهل الخير، "كأبي عبد الله المرخس"، وغيره، و كان من مشاهير الأولياء، و كان لا يدخل أحد من باب الدرب إلا من هو ساكنه، و من جاء زائرا يستأذن عليه من رجل أو امرأة، و إذا جاء الحطب أو الفحم يوضع بباب الدرب، و يخرج أصحابه لإدخاله، و كان هذا القاضي² يجلس في المسجد، فيحكم بين الرجال من الطاقة الكبرى، و بين النساء من جهة الدرج من الطاقة الصغرى، يدخل من باب الدرب خصمان فقط. و كان الصبيان يقرؤون تحت المسجد، في مساطب بنيت، يمر بهم الداخل. قالوا فجلس يوما القاضي وحده فرأى رجلين حديثي السن دخلا ثم خرجا، فدعا البواب، و قال له: لمن دخل هذان؟ فقال: لا علم لي. فعاتبه، و دعا بهما، فسألهما، فاختلف أمرهما لاختلافهما، فقال لهم: أصدقاني، إنما جئتما قاصدين لهذا المكتب قصد سوء. فاعترفا و تابا، و منعهما ألا يخرج صغير من الدرب إلا مع أبيه أو من يقوم مقامه.³ (اللوحة رقم:9).

و تشير الروايات التاريخية إلى مقاييس الشوارع العامة و الرئيسية في بعض المدن الإسلامية، "كالبصرة"، حيث كان اتساع الشارع الأعظم و هو مريدها ستين ذراعا، و اتساع ما سواه من الشوارع عشرين ذراعا، و اتساع الزقاق سبعة أذرع، و جعلت وسط كل خطة رحبة فسيحة لمرباط خيل و مقابر لموتى المسلمين، و كانت المنازل متلاصقة، و يبدو أن سكان مدينة "البصرة" الأوائل لم يفعلوا ذلك إلا من رأي اتفقوا عليه و نص لا يجوز خلافه، و اعتمدوا في ذلك عن هدي الرسول صلى الله عليه و سلم من خلال الحديث الذي يرويه "عكرمة" حيث يقول: " سمعت "أبا هريرة" رضي الله عنه قال: قضى النبي صلى الله عليه وسلم إذا تشاجروا في الطريق بسبعة أذرع".⁴

1 - ابن مرزوق، المناقب....، ص181.

2 - القاضي الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي ابن اللحام. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن مرزوق، المناقب....، ص182.

3 - نفسه، ص181.

4 - البخاري، الجامع...، ص 450.

ولما اختطت مدينة "الكوفة" أمر "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه "سعد بن أبي وقاص" أن تكون الطرقات أربعين ذراعاً، و ما يليها ثلاثين ذراعاً و ما بين ذلك عشرين ذراعاً، و بالأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شيء، و في القطائع ستين ذراعاً.¹

و بالإضافة إلى ذلك فقد حدد أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه موصفات الوحدات السكنية ألا تزيد عدد الغرف في المنازل عن ثلاث و لا يرتفع البناء أكثر من طابق، و لا شك أن تحديد ارتفاع المباني بهذه الهيئة يزيد الإحساس باتساع الشوارع بصورة واضحة.

و مع تطور المدينة الإسلامية و توسع خططها أصبحت الشوارع الرئيسية الأصل الذي تتفرع منه و تصب فيه جميع الشوارع الفرعية و السكك و الأزقة الجانبية، و التي كان اتساعها أقل بطبيعة الحال عن الشارع الأعظم، فقد روعي التدرج في قطاعات الطرق حسب الأهمية و تدفقات الحركة على كل محور من المحاور المرور في المدينة الإسلامية، من حيث تحديد اتجاهاتها و مقاييسها و شكلها العام، بل طريقة توزيع المباني على جانبيها و ارتفاعات هذه المباني.

أكلت مهمة الوقوف على تنظيم الحركة بالطرق الرئيسية و الفرعية بالمدينة الإسلامية و إزالة الضرر الذي تحدثه الساكنة أو المجموعات البشرية الوافدة إلى المحتسب و يلخص "ابن عبد الرؤوف" هذا الدور فيما يلي: "يمنع الناس عن الجلوس على الطرق و الإحداث فيها و عقد المصاعد² فيها بغير حاجة إلا للمأمون خاصة. و يمنع عن طرح الأزبال و الجيف و ما شبهها في المحجات، فإن ذلك يضر بالديار... و يمنع حُمّال الحطب و كل من يحمل محلها بالمشي بها في المحجات و الطرق الضيقة، و يكلفون النزول بها في الرحاب الواسعة للبيع، و يمنعون هم و غيرهم عن توقيف الدوابّ بأحمالها حتّى يباع ما عليها، و يؤدبون إن عادوا... و يمنع الصباغون و من في معناهم عن نشر الثياب المصبوغة المبلولة على الطرق فإنها تؤدي الخاطرين بتغيير ثيابهم. و ينهون عن اتخاذ أفرانهم على الطرق، فإنهم يؤذون المجتازين بالدخان... و يؤمر الفخارين و من معناهم بإزالة ما يضعونه من حوائجهم في الطرق أن تفسد عليهم لتضييقهم الطريق بها فتكون داعية لشر و الخصومة.

1- محمد السعيد الطريحي، المرجع السابق، ص 09.

2 - مجالس الكلام و المجادلة و المناقشة، و المصاعد كذلك هي طرق سهلة في غلظ من الأرض. للمزيد من التفاصيل أنظر: - الفيروزيادي، المصدر السابق، ص 791.

و يمنع الناس من الدخول في القيسارية و الأسواق على ظهور الدواب لما لا يؤمن منها، و يمنع من توقيفها في الطرق الضيقة و من إرسالها من غير ممسك لها، و من وجد يحدث في الطريق حدثا زجر، فإن عاد أدب، و إن كان صغيرا عرّف... و يمنع الحضارون و الحصارون عن طرح أزيالهم في الطرق...¹

استقرت في شوارع مدينة "الجزائر" (الشكل رقم:1) في الفترة العثمانية الفئة المستخدمة على حسب نوعية النشاط و الحرف و هذا على طول الشوارع و الطرق و التي نسبت في تسميتها إلى الفئة التي تستخدمها، و لا يمكن لها التعدي عليها بالبناء، و من خصائصها أنها ضيقة (اللوحة رقم:26)، و هذا راجع لطوبوغرافية المدينة، حيث وصفها "هايدو" بقوله: "... إلى أن كل الطرق ضيقة بحيث لا تسمح بمرور سوى فارس واحد"²، كما ذكر "كاثكارت" عند وصفه لأزقة المدينة بأنها مظلمة و ضيقة خصوصا في "حي اليهود"³، و قد ذكر "دي فونتان" " De Fontaine De Resbecq.A." أن الشارع الوحيد وواسع و المستقيم بمدينة "الجزائر" هو الطريق الذي يربط "باب الوادي" ب "باب عزون"، حيث يصفه بأجمل شوارع المدينة⁴، و الجدول التالي يوضح أسماء الطرق و الممرات بمدينة "الجزائر":

أسماء الزنقات.	زنقة الجرابة.	زنقة البوزة.
زنقة الجنائز (الجنائز).	زنقة المحتسب.	زنقة بوعقاشة
زنقة الدواميس.	زنقة العطش.	زنقة خوجة الخيل.
زنقة لالاهم.	زنقة اليهود.	زنقة الصراف.
زنقة الصباجية.	زنقة سيدي الأكل.	زنقة خبز الردوم.
زنقة تيرالي.	زنقة الصباغ	زنقة بن فارس

1 - ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص111، 112.

2 - Haedo. D, **Alger, étude archéologique et topographique**, traduction de Berbrugger, revue africaine, volume 14 ; 1870, A. Jourdan libraire éditeur, Alger, 1870.

3 - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص382.

4 - De Fontaine De Resbecq.A, **Alger et les cotes d'Afrique**, Gaume frères libraires, 5 rue du pot-de feb, Paris, Frances, p144.

زنقة لالاخديجة العريانة.	زنقة الماريستان.	زنقة بن قايد الباب
زنقة بوبنيقة.	زنقة الشماعين.	زنقة البرنوسي
زنقة خسرف باشا.	زنقة الفرينة.	زنقة التماقين.
السكة.	سكة الحاج علي الداوي.	سكة الحليب غير نافذة.
سكة أولاد بن خوجة البيري	سكة الحليب غير نافذة.	الشوارع.
سكة الحاج أحمد المنحيط	سكة القنداجي	شارع باب عزون.

1 - 4 - الأحياء:

عرف العرب قبل الإسلام نظام تقسيم المدينة إلى أحياء، و يبدو ذلك من خلال شرح "ابن منظور" لمصطلح الحيّ بقوله: " الحيّ واحد من أحياء العرب. و الحيّ بطن من بطون العرب.... و يقول "الأزهري": "الحيّ من أحياء العرب يقع على بني أب كثروا أم قلّوا..."¹. و من خلال هذا التعريف يمكن أن نستنتج أن المقصود بالحي قبل الإسلام موطن استقرار القبيلة أو بطن من بطونها ويسمى أيضا بالربع ، وهو غير أحياء المدينة بعد الإسلام، وموقعه في البادية وليس في المدينة، و يقول "أندري ريمون": " و لا تزال المناقشات تدور حول منشئه الأصلي..."²، و قد ذكرت "عائشة غطاس" رحمها الله أن تقسيم المدينة إلى أحياء مغلقة إلى حد ما، هو تنظيم عرف عند المسلمين في الفترة العباسية، حيث وضع بغية حماية السكان في حالة نشوب الفتن داخل المدينة، فغلق الدروب أو أبواب الحي كان كفيلا بحمايتها³. و يبدو أنهما وقع في هذا الخطأ لعدم رجوعهما إلى الأصل التخطيطي للمدن الإسلامية و هي مدينة الرسول صلى الله عليه و سلم ، حيث كانت قبل هجرته عليه الصلاة و السلام عبارة عن مجموعة من الأحياء تسكنها قبائل "الأوس" و "الخرزج" بالإضافة إلى أحياء "اليهود"، و كانت تشمل على منازل و أسواق و آطام و هي عبارة عن قلاع يتحصن فيها سكان الحيّ في حالة الحرب.

بعد هجرة الرسول صلى الله عليه و سلم إلى المدينة نزل في حيّ "بني النجار"، و هي منازل أخواله لجدّه، ووفرت له الأمن لتقاربها، و في هذا الحيّ يؤسس المسجد النبوي في مركزه، و من حوله

1 - ابن منظور، المصدر السابق،

2 - أندري ريمون، المرجع السابق، 101.

3 - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص375.

أنشئت المنازل، و تغيرت أسماء الأحياء، و أصبح يطلق عليها اسم أحياء الأنصار، و بالتالي جمع الرسول صلى الله عليه و سلم بين قوة و منعة "بني النجار"، و قوة و منعة المهاجرين و الأنصار¹.
 اقطع الرسول صلى الله عليه و سلم لأصحابه القطائع في أراضي الموات و هي التي لا يصلها الماء و هبها له الأنصار، و من هنا تأسست أحياء أخرى بتكوينات معمارية جديدة متجهة نحو المسجد النبوي، من منازل و مساجد الأحياء و غيرها، فتواصل عمران المدينة و أصبح كيانا معماريا واحدا، بعد أن كانت منفصلة، و خصوصا بعد خروج اليهود، إن هذا التواصل المعماري هو الذي جعل المسجد النبوي يتوسط المدينة بعد أن كان في بداية تشييده في عمقها، و يقول "ياقوت الحموي"²: " فلما قدم الرسول صلى الله عليه و سلم من مكة إلى المدينة مهاجرا أقطع الناس الدور و الرباع²، فخط "لبنى زهرة" من ناحية مؤخرة المسجد... و جعل "العبد الله" و "عتبة" ابني "مسعود" الهذليين الخطة المشهورة بهما عند المسجد..."³.

و يتضح من خلال هذا النص التاريخي أن الرسول صلى الله عليه و سلم قام بإقطاع القطائع لأشخاص و اتجه إلى الجمع بين ذوي القربى في الموضع الواحد، و بالتالي تأسست أحياء جديدة مثل حي "بني الليث" و "الذهيل" و "جهينة" و غيرها، و على هذا الأساس تشكلت الأحياء في المدن الإسلامية التي شيدت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم في عهد الخلفاء الراشدين و في العهد الأموي و العباسي بالمشرق و المغرب الإسلامي.

اختلفت تسمية الحيّ من مدينة إسلامية إلى أخرى، حيث كان يطلق عليه اسم **الحارة** "بالقاهرة" و "دمشق"، و **المحلة** بكل من "حلب" و "الموصل" و "بغداد"، كما يطلق عليه اسم **الحومة** "بتونس"، أما بمدينة "تلمسان" فقد أستعمل مصطلح **الدرب** و **الحارة**، و يبدو أن هذا الأخير أستعمل في نهاية العصر الوسيط و بداية التواجد العثماني بالمدينة، حيث يذكر "حسن الوزان"

1 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص48.

2 - الربيع: الدار بعينها حيث كانت، جمع رباع و ربوع و أربع و أرباع، و المحلة، و المنزل، و التّعرش، و جماعة الناس، و الموضع يرتعون فيه في الربيع. للمزيد من التفاصيل أنظر: - فيروزبادي، المصدر السابق، ص771.

3 - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5، ص86.

أن بمدينة "تلمسان" حارة تضم نحو خمسمائة دار لليهود، كلهم تقريبا أغنياء و يضعون على رأسهم عمامات صفراء اللون.¹

و في مدينة "الجزائر" فقد أستعمل المصطلحين، تارة الحارة مثل حارة "اليهود" حارة "الجنان"، و حارة "الدواميس"، و حارة "السللاوي"، و تارة أخرى الحومة مثل حومة حوانيت "بن رابح" و حومة "الرحبة القديمة"، على أن المصطلح الأكثر شيوعا هو الحومة، و حسب عقد الوقف التالي يبدو أن أقدم حارة بمدينة "الجزائر" هي حارة "الجنان" و نصه: "... السيد "سعيد بن أبي عبد الله" وقف داره الواقعة بجارة "الجنان" داخل بلد "الجزائر"... و أرخ هذا العقد سنة (932هـ / 1525م)².

و تجدر الإشارة إلى أن عبارة الحومة قد تدل أحيانا على الشارع مثل حومة شارع "باب عزون"، و كانت الأحياء (الحارة، الحومة) هي مكان للإقامة و كان لها بوابات على مدخل الدرب، و عرفت بالدرب بمدينة "الجزائر"، و تحرس من قبل بوابين و هي شبيهة بأحياء مدينة "تلمسان" على ما ذكرناه سابقا، و ساهم هذا التنظيم في ضمان أمن المقيمين بها، و راحتهم.

اتخذت أحياء المدن الإسلامية الأولى تسميتها من أسماء القبائل مثل ما ذكرنا حول أحياء "المدينة المنورة"، أو المجموعات الوافدة إليها مثل حارة "المغاربة" في مدينة "القاهرة"، ثم اتخذت أسماء من المنشآت العمرانية القائمة بها، أو باسم الشخصيات السياسية و الدينية المقيمة بها، أو من تسميات لنشاطات اقتصادية و الحرفية، و قد سارت مدينة "تلمسان"³ في تسمية أحيائها على هذا النسق، حيث نجد حي "أولاد الإمام" و درب "سيدي الوزان"، و درب "السنسلة" و هو من أشهر دروب مدينة "تلمسان" و يضم ضريح "سيدي الحباك"، و نفس الأمر كان بمدينة "الجزائر".

1 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص20.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص374. و كذلك:

- Seffadg. Z , **Les quartiers d'Alger pendant la période ottomane XVI-XIX siècle organisation urbaine et architecturale du quartier, hwanit sidi-abdallah**, université de paris, Sorbonne, 1995, p220.

3 - ذكر ابن مرزوق أسماء أحياء مدينة تلمسان في الكثير من صفحات كتابه "المناقب". للتوسع أكثر أنظر: - ابن مرزوق، المناقب...ص26.

الفصل الخامس:..... أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة المدنية و العسكرية.

أحياء مدينة الجزائر العثمانية.	حومة الخندق.	حومة القلاع.
حومة أولاد الأغا.	حومة حوانيت بابا أحمد.	حومة القادوس.
حومة بن فارس.	حومة حوانيت بن رابح.	حومة قاع السور.
حومة بن جاور علي.	حومة حوانيت سيدي عبد الله.	حومة جامع كتشاوي.
حومة حمزة خوجة بيري.	حومة ساباط القايد قاسم.	حومة كوشة الباري.
حارة الذميين.	حومة سويقة عمور.	حومة كوشة بسيس.
حارة السلاوي.	حومة البطحا.	حومة كوشة بوصبع.
حومة سيدي بن علي.	حومة بير الجباح.	حومة كوشة بولعبة.
حومة سيدي بوقدور.	حومة بير الرمانه.	حومة كوشة أسكندر.
حومة سيدي رمضان.	حومة بير الزنقة.	حومة كوشة علي.
حومة سيدي شعيب.	حومة باب الجديد.	حومة كوشة النصراري.
حومة سيدي علي الفاسي.	حومة باب الدزيرة.	حومة كوشة الوقيد.
حومة سيد محمد الشريف.	حومة باب السويقة.	حومة مدفع جرية.
حومة سيدي هلال.	حومة باب عزون.	حومة مسيد جامع الجديد.
حومة الخندق.	حومة الجامع الأعظم.	حومة القلاع.
حارة الرحبة القديمة.	حومة جامع البلاط.	حومة القادوس.
حومة ساباط العرص.	حومة جامع علي بتشين.	حومة قاع السور.
حومة العين الحمراء.	حومة جامع صفر.	حومة جامع كتشاوي.
حومة عين الساباط.	حومة جامع القشاش.	حومة كوشة الباري.
حومة عين الشاه حسين.	حومة جامع المعلق.	حومة كوشة بسيس.
حومة عين مراد قورصو.	حومة حمام السبوعة.	حومة كوشة بوصبع.
حومة عين المزوقة.	حومة حمام المالح.	حومة كوشة بولعبة.
حومة القصبة القديمة.	حومة حمام الفويطة.	حومة كوشة أسكندر.
حومة القصبة الجديدة.	حومة مسيد الخولة.	حومة كوشة علي.
حومة الكبابطية.	حومة العزارة.	حومة المرسلطان.
حومة سوق الكتان.	حومة الحجر الأزرق.	حومة المليس.
حومة الحلفاويين.	حومة البوزة.	حومة الدواميس.

و كان عدد الأحياء بمدينة "الجزائر"¹ يفوق الخمسين حيا (اللوحة رقم:44)، تتوزع فيها المرافق الضرورية من مسجد و محبزة (كوشة) و فرن و عين و سوق، و حمام، و فندق، و هذا حسب الكثافة السكانية في كل حي، حيث بإمكاننا أن جد أزيد من مرفق في الحي الواحد و هذا ما نجد على سبيل المثال في حومة "سويقة عمور" حمامين، عرف الأول بحمام "الفويطة"، و الثاني بحمام "السبوعة"، أما بحومة "الرحبة القديمة" و جدت هناك محبزتين عرفت الأولى بكوشة "عبد الله الطبال"، و الثانية بكوشة "بن سمان"، و فندق، و بحومة "سيدي محمد الشريف" نجد فرنا و زاوية و كوشة و سويقة.²

2 - أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة المدنية:

2-1 - دار الإمارة:

أوجبت الضرورة الوظيفية لدار الإمارة مجاورتها للمسجد الجامع، فتكون دارة الإمارة في وسط المدينة لأنها تمثل مركز الإدارة فهي الجهاز الإداري الذي يشرف على جميع الشؤون الإدارية كالوالي والقاضي وصاحب الشرطة. و يبدو تأثير المدينة النبوية واضحا في ذلك، خاصة من حيث موقع دار الإمارة حيث بنى الرسول صلى الله عليه و سلم منزله ملاصقا للمسجد الجامع. إذا نظرنا إلى موقع المسجد النبوي في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم فإننا نجد لا يتوسط المدينة، حيث الرسول صلى الله عليه و سلم جعله في عمق المدينة و هو المكان الآمن بها، ثم لتظهر هذه الوسطية بعد إقطاعه القطائع، فبنا المهاجرون و القبائل العربية الوافدة على المدينة المساكن و الدور ملاصقة للمسجد الجامع و تحوفاً³ به إلا في المواضع التي ضربت فيها الشوارع و مسالك التي تؤدي إليه، و يبدو كذلك أن القبائل العربية كانت تريد أن تكون أقرب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم، و بالتالي إلى مسجده عليه الصلاة و السلام، لكونها ألفت قبل الإسلام هذا النظام و هو الاستدارة حول زعيمهم و سيدهم.

1 - للمزيد من التفاصيل حول عدد الأحياء بمدينة الجزائر: أنظر: - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص377.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص375.

3 - حفّ القوم بشيء و حوالبه، يحفون حفّا و حقوه و حففوه: أحدقوا به و أطاقوا و عكفوا و استداروا و في التهذيب: حفّ القوم بسيدهم. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص440.

وسارت المدن الإسلامية المبكرة على نسق التخطيط النبوي، و أكد ذلك أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه بعدما وقع في مدينة الكوفة في سنة (17هـ/638م) في ولاية "سعد بن أبي وقاص" رضي الله عنه، حيث تسلل أحد اللصوص إلى دار الأمانة، بعد أن ثقب جدارها وسرق المال المحفوظ في بيت مال المسلمين، فشكا "سعد بن أبي الوقاص" إلى "الفاروق" رضي الله عنهما فأمره أن يجعل داره ملاصقة لجدار المسجد.

و في مدينة البصرة في سنة (44هـ/664م) في ولاية "زياد بن أبيه" رأى أن لا يمر بين يدي المصلين عند توجهه للمحراب فحول دار الأمانة إلى قبلة المسجد ليصل الوالي إلى قبلة المسجد مباشرة وأصبح ذلك تقليدا معماريا في قصور الخلفاء ودور الأمانة في المدن الإسلامية ثم استتبع تأمين دار الأمانة عزلتها عن مساكن العامة والأسواق.¹

وفي المدن التي انفصل فيها المسجد الجامع عن القصر أو دار الأمانة ربطت بينها بشوارع متسعة تتسع لمواكب الخلفاء والولاة، و يمكن أن يربط المسجد بدار الأمانة بساباط يؤدي إلى المقصورة مباشرة.

لم يكن لدار الإمارة تأثيرا واضحا على تخطيط المدينة الإسلامية، و هذا راجعا أساسا إلى عدم ثبات موقعها، حيث ظل تأثيرها ثانويا نسبيا، و يبدو أن تنقل المركز السياسي يعتبر ظاهرة تقليدية في المدن الإسلامية في العصر الوسيط، ففي العصر الأيوبي اختار سلطان "القاهرة" مقر إقامته في القلعة جنوب شرقي المدينة الفاطمية، و في "دمشق" في نفس الفترة التاريخية تم إقامة القلعة على أطراف المدينة داخل الأسوار، و في الحالتين انتقل جزء من الأنشطة الاقتصادية إلى تحت القلعة، و في كلتا المدينتين لم يحدث تغير واضح على تخطيطهما. و في الفترة العثمانية لم تخرج المدن عن هذه الظاهرة لتشابه الأسباب التي أدت بالحكام لتنقل من وسط المدينة إلى أطرافها، و تكمن أساسا في رغبة تحقيق الأمن² للمركز السياسي و ذلك بعزله عن المدينة التي يمكن حدوث اضطرابات خطيرة فيها، و إلى اهتمام أعضاء الطبقة الحاكمة و هم غالبا من الأتراك بالإفلات من مراقبة الرعية،

1 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص86.

2 - أندري ريمون، المرجع السابق، 128.

بالإضافة إلى اعتبارات رفاهية العيش و ضرورة إقامة الحاكم و حاشيته و جيشه في منطقة توجد بها مساحات واسعة لإقامة المعسكرات و المناورات¹.

لم نطلعنا المصادر التاريخية عن موقع دار الإمارة بمدينة "تلمسان"² في الفترة الإدريسية، رغم أنها كانت ولاية تابعة لها، و حسب ما تبقى من شواهد أثرية، فإن المسجد الجامع لمدينة "أغدير" يبدو أنه يتوسط المدينة و تتوزع من حوله المساكن، و ربما كانت دار الإمارة ملاصقة لجدار القبلة، وهذا ما نطلعنا به الحفريات التي أقيمت خلف هذا جدار³.

و في الفترة المرابطية أقام "يوسف بن تاشفين"⁴ الجامع المرابطي في "تكرارت" محل إقامته، و دار الإمارة ملاصقة به، و دامت على هذا الموقع إلى غاية نشوء الدولة الزيانية، فعمدت إلى بناء دار الإمارة منفصلة على المسجد الجامع المرابطي و قريبة منه، و تعرف بقصر "المشور"، و اتخذت فيه مسجدا عرف بمسجد القصر أو مسجد "المشور"، و يصف "حسن الوزان" القصر بقوله: " و القصر الملكي⁵ الواقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير، على شكل قلعة، و يضم قصورا أخرى صغيرة ببساتينها و سقاياتها، و كلها مبنية بكامل العناية، و بأسلوب فني رائع. للقصر الملكي بابان أحدهما إلى البادية اتجاه الجبل، و الآخر إلى قلب المدينة، حيث يقيم رئيس الحرس."⁶.

أما في مدينة "الجزائر" فتبدوا المعطيات مختلفة لاختلاف موقعها الطبوغرافي عن مدينة "تلمسان"، حيث يعتبر أعلا المدينة أأمن مكان بها، لذلك عند تمصيرها على يد "بلكين بن زيري" في

1 - أندري رمون، المرجع السابق، 128..

2 - أغادير في الفترة الإدريسية.

3 - معروف بلحاج، المرجع السابق، ص293.

4 - هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من كبار قادة الجيش، و الدولة المرابطية، ولد سنة (400 هـ / 1010م)، وقدمه أبو بكر بن عمر على المغرب، و فوض إليه أمرها سنة (453 هـ / 1061م). أسس مدينة مراکش، و قضى على ملوك الطوائف بالأندلس، وهو صاحب معركة الزلاقة سنة (479 هـ / 1086م)، وهو كذلك من أمر ببناء مسجد الجزائر و مسجد تلمسان الكبير، و مسجد ندرومة، توفي رحمه الله سنة (500 هـ / 1110م) بمراكش. للمزيد من المعلومات أنظر:- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 172، 198.

5 - يصف "مارمول كربخال" هذا القصر بقوله: "... و هو مشيد على شكل حصن يشتمل على مختلف الأقسام الرئيسية للمنزل بمحاذاتها و سقاياتها، و لهذا القصر بابان: أحدهما للخروج للبادية و الآخر للدخول إلى المدينة، حيث يقيم قائد الحرس الملكي على الدوام...."- مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، ص299.

6 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص20.

القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد جعل مسجدها الجامع في أعلاها عند نهاية الأسوار الزيرية و يعرف هذا المسجد بإسم مسجد "سيدي رمضان" حاليا، و تبقى هذه الاستنتاجات قابلة للتحقيق إذا ما توفرت النصوص التاريخية و المعطيات الأثرية.

و في النص التاريخي الذي ذكره صاحب كتاب "زهرة البستان في تاريخ بني زيان" شواهد تدل على أن المسجد الجامع لمدينة "الجزائر" كان في أعلى المدينة، و عند المطابقة بين النص التاريخي و شواهد الأثرية يمكن أن استنتج أنه مسجد "سيدي رمضان"، و دار الإمارة كانت في أسفل المدينة قريبة من مركز النشاطات التجارية التي كانت معهودة في مدينة "الجزائر" بحكم أهمية مينائها، و موقعه الإستراتيجي في التبادلات التجارية، و هذا النص يصف دخول "أبي يعقوب" بأمر ولده "أبي حمو موسى الثاني" إلى مدينة "الجزائر"، و يقول في ذلك صاحب المصدر: "... و كان دخول المولى "يعقوب" إليها في غد يوم النزول، ناشر الرّيات و ضارب الطّبول، و ذلك يوم الجمعة الثالث عشر لذي قعدة، فأزال الله بدخوله الوحشة و الشّدّة. وعندما سكن دار إمارتها، ظهرت آيات الخير بعمارتها، ثم أمر بإخراج بني مرين على الأمان و الرّعي و التهديد، فنزلوا بمصرها من الجانب الأعلى...".¹

و يبدو أن دار الإمارة هي نفسها التي أقام بها الحكام في الفترة العثمانية، و يبدو أن حاكم مدينة "الجزائر" "سالم التومي" الذي استدعى الأتراك على رأسهم "عروج" و "خير الدين" مع مطلع القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد كان يقيم في هذا القصر، كما يمكن أن نعتقد أن الأحداث الدامية التي حدثت بين "سليم التومي" و "خير الدين" كان مسرحها هذا القصر، و تم على إثرها مقتل "سليم التومي" و استخلاف "خير الدين" على مدينة "الجزائر"، و منذ تلك الفترة أصبح القصر تابعا لحكام المدينة.

كانت دار الإمارة تقع في القصبة السفلى و بالضبط قرب دار "عزيزة" وربما كانت جزءا منه² و دار "حسين باشا" و دار "مصطفى باشا"، و عرفت بعدة تسميات منها: الدار القديمة، و دار السلطان، و دار الباشا، و دار الداوي، و أشهرها قصر الجنينة.¹

1 - مؤلف مجهول، زهرة البستان في تاريخ بني زيان، السفر الثاني، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة لنشر و التوزيع، الجزائر، 2011م، ص147.

2 - سألت أستاذنا الدكتور عبد العزيز لعرج عن الموقع الفعلي لقصر الجنينة فأجابني بقوله أنه يقع أسفل دار عزيزة، التي هي جزءا

كما كان القصر² يضم بيت مال المسلمين أو ما يعرف في الفترة العثمانية بالخزينة و يسمى الموظف الذي يقوم عليها "بالخزناجي"، و هذا المنصب مهم جدا و يمكن أن يرتقي منه إلى نصب الداى في يوم من الأيام. يغلق باب الخزينة على الساعة الواحدة و النصف، و يترك على الجانب كيس يحتوي على ألفين قطعة نقدية تخصص لدفع مشتريات الصوف و الشمع التي يجلبها سكان إقليم المدينة، تطل الخزينة على غرفة الداى الذي يحتفظ بمفتاح آخر لها³.

2 - 2 - المساكن:

اختلفت أنواع مساكن⁴ الإنسان، فمنذ ظهوره عاش في الكهوف و التجاويف الصخرية المسقوفة، و زينها بمواضيع زخرفية تعبر عن حياته المادية و المعنوية، و صراعه مع الطبيعة و الحيوانات التي كان يهاجمها أو يتربص بها. و مع بداية العصر الحجري القديم ظهرت مساكن مبنية من الأخشاب و الطين، بالإضافة إلى حفره لمساحة محددة من الأرض ليشغلها بمساكن سميت بيوت الحفر، كما عرف الإنسان في العصر الحجري الحديث بناء الأكواخ و هي تلك التي تتخذ صورة قبة من الأغصان و الأوراق تقام فوق إطار من الخشب، و أحيانا تقام جدران الأكواخ من الحجارة.

و في الفترة القديمة ظهرت في مصر الفرعونية حوالي 3000 سنة قبل الميلاد مساكن مشتركة تتوزع على حين للفقراء أو عامة الشعب و حي للأغنياء يفصلهما جدار، و كانت تقتصر على ثلاث أو أربع غرف. و قد تطور هذا النموذج إلى مساكن فردية تبنى بطريقة بسيطة، و كانت من الطوب و الطين، و كانت عبارة عن مساحة صغيرة مقسمة إلى قسمين سفلي يحتوي على فرن

من هذا القصر، و يبدو أن ما ذهب إليه أستاذنا قريب من الحقيقة، و من خلال ملاحظة الجزء الشمالي من القصر نرى شكل المبنى يختلف عن بقية المنشأة و يبدو قديما كذلك، و تحتاج هذه الملاحظة إلى تأكيد من خلال الحفريات إن أقيمت.

1 - حورية شريد، "دار السلطان (قصر الجنيينة)"، حوليات المتحف الوطني للآثار، العدد 8، 1420هـ/ 1999م، ص47.

2 - هدم القصر في الفترة الإستعمارية الفرنسية سنة 1856م.

3 - حورية شريد، المرجع السابق، ص60.

4 - اشتقت كلمة مسكن من فعل سكن، و منه السكون: ضدّ الحركة. سكن الشيء يسكن سكونا إذا ذهب حركته. و سكن بالمكان يسكن سكنى و سكونا: أقام، فهو ساكن من قوم سكان و سُكُن، و أسكنه إياه و سكنت دارى و أسكنتها غيرى، و السكنى أن يسكن الرجل موضعا بلا كِرْوَةٍ. و قال اللحياني: و السُّكُن أيضا سكنى الرجل في الدار. و السُّكُنُ و المسكُنُ و المسكُنُ: المنزل و البيت. و أهل الحجاز يقولون مَسْكُنٌ بالفتح. و السُّكُنُ: أهل الدار. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص466. كذلك: - الفيروزبادي، المصدر السابق، ص1298.

و فناء صغير، و علوي نصحده إليه بواسطة سلم من الأدرج البسيطة لنجد بعض الغرف الصغيرة و الضيقة، و هذا ما يعرف في مصر بالسطوح، و يعتبر النموذج المصري من أقدم أنواع البيوت. أما في "الحيرة" فقد أخذ العرب أصول فن العمارة عن طريق الفرس بحكم مجاورتهم و تبعيتهم السياسية لهم، و لكنهم طوّروا نظام العمارة عندهم تطويراً أبعد عن أصوله الأولى، كما اشتهرت "الحيرة" بقصورها مثل قصري "الخورنق" و التي ترجع في تسميتها إلى الفارسية و "خورن كاه" ما معناه الأكل و الشرب.¹

كما عرفت القبائل العربية نمط من المساكن منحوت في الجبال و قد ذكر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿... وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾². كما أشار الله تعالى إلى نمط مساكن البدو و ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوَابِهَا وَ أَوْبَارِهَا وَ أَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَ مَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾³ و تعرف بالخيام و هي تصنع من شعر جلود الحيوانات كالإبل و الماعز، و صوف الغنم، ثم ترفع من وسطها بعمود خشبي يضمن لها السطح المنحدر، ثم تشد أطرافها إلى الأرض حتى لا تقتلعها الرياح.⁴

و لا جرم أن حضارات البحر الأبيض المتوسط قد استفادت من الأنماط التخطيطية لمساكن مصر الفرعونية و حضارات بلاد الرافدين و الحضارة الفارسية، خاصة وسطية الصحن الذي تحيط به الغرف و المرافق الأخرى، و قد أتصل ذلك من خلال المحجرات التي عرفتها المنطقة عبر بلاد الأناضول إلى الجزر الإيحية في الحوض الشرقي للمتوسط، و كذلك العلاقات التجارية التي نسجتها هذه الشعوب مع سكان الجزر خاصة جزيرة "كريت" و جزيرة "قبرص"، و من أكبر الحضارات التي استفادت من هذا الإنتاج الحضاري نجد الحضارة الإغريقية، ثم و رثتها الحضارة الرومانية.

1 - مهتاري فائزة، "المسكن التقليدي في تلمسان خلال العهد الزياني، دراسة تاريخية أثرية"، مجلة كان التاريخية، العدد 28، جويلية 2015م، ص94.

2 - سورة الأعراف، الآية رقم: 73.

3- سورة النحل الآية 80.

4 - للمزيد من التفاصيل حول التأصيل التاريخي للعمارة أنظر: - محمد محفل، تاريخ العمارة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م، ص135.

و بحكم التدافع و الاحتكاك الحضاري دخلت على المسكن في المشرق تطورات ملحوظة في العهدين الهلينستي و الروماني أنصبت أساسا على تخطيطه و عناصره مما جعل مساكن المشرق و مساكن الحضارات البحر المتوسط الشرقي و الغربي متقاربة جدا من حيث أنماطها التخطيطية.¹ و في الفترة الإسلامية الأولى فإن المسكن لم تتضح معالمه في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم، حيث كان مسكنه عليه الصلاة و سلام عبارة عن مجموعة من الحجرات شكلها قريب من المستطيل لكل واحدة منها باب تفتح على بيت الصلاة². و كانت مساكن الأنصار بسيطة تتكون من طابق أو طابقين، يتقدمهما الصحن أو ما يعرف بالمغرب الإسلامي "بالحوش"، حيث تشير النصوص التاريخية أن الرسول صلى الله عليه و سلم لما قدم إلى المدينة أقام في مسكن "أبي أيوب الأنصاري"، و شغل الرسول صلى الله عليه و سلم طابقه السفلي.³

و يبدو واضحا أن مساكن الأنصار و المهاجرين كانت شبيهة بمسكن "أبي أيوب الأنصاري"، و ما يؤكد بساطة هذه المساكن ما ذكره "ابن خلدون": "...فكان الدين أول الأمر مانعا من المغالاة في البنيان و الإسراف فيه غير القصد كما عهد لهم "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه حين استأذنه في بناء "الكوفة" بالحجارة، و قد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا من قبل، فقال افعلوا و لا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات، و لا تطاولوا في البنيان، و ألزموا السنة تلزمكم الدولة. و عهد إلى الوفد و تقدم إلى الناس ألا يرفعوا بنيانا فوق القدر. قالوا: و ما القدر؟ قال: ما لا يقربكم من السرف و لا يخرجكم عن القصد."⁴

و لما استقرت عاصمة الدولة الإسلامية في "دمشق" على عهد الدولة الأموية بدأت التأثيرات البيزنطية و الفارسية و التركية فيما تتوغل، و احتك المسلمون مع السكان المحليين و الوافدين، و بدأت معالم المسكن الإسلامي تظهر، و يقول في ذلك الدكتور "عبد العزيز لعرج": "...فإن نظام

1 - عبد العزيز لعرج، العمارة المرينية...، ص 516.

2 - كانت أبواب حجرات زوجات النبي صلى الله عليه و سلم تفتح على صحن المسجد قبل تحويل القبلة.

3 - قال "ابن إسحاق": "و حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن أبي رهم السماعي، حدثني أب أيوب قال: لما نزل علي رسول الله صلى الله عليه و سلم في بيتي نزل في السُّفْلِ، و أنا و أمُّ أيوب في العلو، فقلت له: بأبي و أمي يار سول الله، إني أكره و أعظم أن أكون فوقك و تكون تحتي، فإظهر أنت فكن في العلو، و ننزل نحن فنكون في السُّفْلِ. فقال الرسول صلى الله عليه و سلم: يا أبا أيوب، إن أرفق بنا و بمن يغشانا أن أكون في أسفل البيت. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن كثير، البداية...، ج 2، ص 328.

4 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج 2، ص 800.

هذا المسكن لا يلبث أن تتضح معالمه و تستقر أركانه مع بداية الاستقرار في العهد الأموي و ما تبعه من تطور و ازدهار انعكس على النشاط المعماري و فني أخذ المسكن الإسلامي في ظلها يبعد عن البساطة و التقشف متجها إلى الاستقرار في أسسه و نظامه التخطيطي و مظهره الفني...¹ و يذكر "ابن خلدون" هذا التطور المعماري الذي حدث في عهد الدولة الأموية ثم العباسية بقوله: " فلما بعد العهد بالدين و التحرج في مثال هذه المقاصد، و غلبت طبيعة الملك و الترف، و استخدم العرب أمة الفرس و أخذوا منهم الصنائع و المباني، و دعتهم إليها أحوال الدعة و الترف، فحينئذ شيدوا المباني و المصانع..."².

استفادت مدن المغرب الأوسط من التراكم الحضاري للدولة الناشئة بالمغرب الإسلامي منذ عهد الدولة الرستمية، هذا بدون أن ننسى الرصيد الحضاري الذي يعود إلى الفترة القديمة، و قد امتزج هذا الرصيد بالتأثيرات المشرقية طوال القرون الخمسة للفتح الإسلامي للمغرب، ثم انتشرت في الفترة المرابطية التأثيرات الأندلسية، لينتج لنا فن معماري مغربي أندلسي أصبح قائما بحد ذاته إلى غاية الفترة الفرنسية.³

إن الطراز التخطيطي للمسكن أو القصر بمدينة "الجزائر" هو طراز محلي مغربي أندلسي، و هذا ما يفسر التشابه الكبير بين مساكن مدينة "الجزائر" و المدن الساحلية خاصة، و في معظمها كانت مقصدا للأندلسيين المهجرين من الأندلس، بالإضافة إلى التشابه الكبير مع مساكن مدينة "تلمسان" سواء كانت الزيانية أو المرينية، و كذلك في الفترة العثمانية، و ما يؤكد كذلك هو التشابه الكبير الموجود بينها و بين مساكن مدينة "فاس"، علما أن المغرب الأقصى لم ينطوي تحت حكم الدولة العثمانية، و بالتالي فقد حافظت هذه المدينة على الطراز المحلي قوامه الفن المغربي الأندلسي. و من خلال وصف "حسن الوزان" لمدينة "فاس" في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد يتبن لنا ذلك من خلال قوله: " و الدور مبنية بالآجر و الحجر المنحوت بدقة... و كذلك الأفنية و الأروقة مبلطة بزليج مربع قدم مختلف الألوان على شكل أواني "ميورقة" الخزفية.(اللوحة رقم:64،65،66).

1 - عبد العزيز لعرج، العمارة المرينية...، ص 517.

2 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج2، ص 801.

3 - حول التأصيل التاريخي لتطور المعماري للمسكن من حيث الأنماط الإنشائية و المنظومة الزخرفية أنظر: - عبد العزيز لعرج، المباني...، ص513.

و قد اعتاد الناس أن يصبغوا السقوف بألوان زاهية مثل لآزورد و الذهب. و هذه السقوف مصنوعة من الخشب و مستوية، ليسهل نشر الغسيل على سطح الدار و النوم فيه صيفا... و من عادتهم أيضا أ يبنوا على سطوح المنازل منتزهاً يشتمل على عدة حجيرات فسيحة و مزخرفة جدا، تتسلى فيها النساء عندما يتعبهن العمل، إذ يستطيعن من هناك أن يشرفن على المدينة كلها تقريبا.¹ و من خلال فحصنا لهذه المنشآت بمدينتي "تلمسان" و "الجزائر"² نلاحظ ما روعي في هذه الأنماط المختلفة بعناصرها المعمارية من تقاليد إسلامية لحفظ حق الجار، و حفظ خصوصية المرأة، و عمل الصحون داخلية مفتوحة لجعل المرأة المسلمة تشعر و كأنها خارج المسكن، حيث يمكنها أن تشاهد السماء و الشمس، و القمر و النجوم بالإضافة إلى تسرب الهواء دخل المسكن و أشعة الشمس التي تمده بالضوء الكافي، و إذا نظرنا إلى المساكن سواء بمدينة "تلمسان" و كذلك مدينة "الجزائر" لاحظنا أن قد غرست بها أشجار الليمون و البرتقال و الرمان عادة²، و هذه الأشجار تحتاج الكمية من ضوء الشمس الذي يساعدها في عملية التركيب الضوئي، و من ثم إعطاء للمسكن صيغة جمالية تحتاجها المرأة المسلمة الماكثة في البيت و حتى لا تشعر بالملل، و تعلل الدكتورة "مشيرة الرفاعي" بقولها: "... و عمل الأحواش داخلية مفتوحة للاتجاه مباشرة إلى سبحانه و تعالى مما يظهر شيوع الصفة الإسلامية على العمارة..."³.

و من المنطلق أن التشريع الإسلامي صالح لكل زمان مكان، و كما أن الإسلام دين عقل و فكر، و أنزل القرآن ملما و موجهها لكل مناحي الحياة، فإن التعاليم الإسلامية هي التي من شأنها تنظيم علاقات البشر ببعضهم و البيئة المحيطة بهم.

وقد ورد في القرآن الكريم عدة آيات توضح المفهوم الموضح سابقا، حيث ورد في سورة النحل عن أهمية المسكن للإنسان، و نوعيته كما هو معهودا عند الناس، فالبدو يضربون الخيام المصنوعة من جلد الأنعام و الحضر يبنون مساكنهم من آجر و حجارة و تراب، و ما علم و وجد متوفرا عند

1 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص222، 223.

2 - Colvin .L, **Demeures D'Alger**, in L'habitation traditionnel dans les pays musulmans de la méditerranée, Institut française d'Archéologie orientale études urbaines, T1 /1, france, 1988, p181-198.

3- مشيرة الرفاعي، " التوجهات الفكرية لتطوير العمارة الإسلامية "، المجلة العربية للثقافة، العدد 25، ربيع الأول 1414 هـ / سبتمبر 1993، ص 107، 101.

أصحاب الصنعة، و النتيجة واحدة هي تحقيق السكينة و الأمان، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوَابِهَا وَ أَوْبَارِهَا وَ أَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَ مَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾¹، و يقول "ابن كثير": " يذكر تبارك و تعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، و ينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، و جعل لهم أيضا من جلود الأنعام بيوتا أي من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها في إقامتهم في السفر و الحضر...²"، و الإنسان كذلك لا تتحقق له السكينة و الأمان إلا في بيته و مع أهله، و بما أن المسكن يمثل رمزا للسكينة و الأمان وحب الاستئذان قبل الدخول لاحترام خصوصية السكان كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَ تَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾³، و هذه آداب شرعية، أدب بها الله عباده، و ذلك في الاستئذان أمر الله أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأذنوا، أي يستأذنوا قبل الدخول، و يسلموا بعده، و ينبغي أن يستأذن ثلاثا، فإن أذن له و إلا انصرف⁴، ثم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، و لكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره، حيث و ردت في السنة النبوية أن الرسول صلى الله عليه و سلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، و لكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، و يقول: " السلام عليكم، السلام عليكم " و ذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور، و لما ابتعد الناس على هدي النبي صلى الله عليه و سلم ابتكر البناء المسلم المدخل المنكسر أو الستور⁵ (الساتر) الذي يحجب نظرة الطارق للباب حين فتحه إلى داخل المنزل مباشرة.

1- سورة النحل الآية 80.

2- ابن كثير إسماعيل القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، اعتنى بها و خرج أحاديثها: محمود بن الجميل أبو عبد الله، ط2، ج2، دار الإمام مالك، الجزائر، 1430هـ / 2009م، ص 854.

3 - سورة النور الآية 27.

4 - ثبت في صحيح البخاري أن أبا موسى استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعت؟ قال: إني سمعت رسول الله يقول: " إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف ". للمزيد من التفاصيل أنظر:- البخاري، الجامع...، ص 1178.

5 - ابن كثير، تفسير...، ج3، ص 409.

و يعزز التحليل السابق ما ذكره "ابن القيم" من هدي الرسول صلى الله عليه و سلم فيمن اطلع في بيت رجل بغير إذنه فحذفه بحصاة أو عود ففقأ عينه حيث يقول: " ثبت في الصحيحين من حديث "أبي هريرة" رضي الله عنه أن نبي صلى الله عليه و سلم قال: لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن، فحذفته بحصاة، ففقأت عينه لم يكن عليك جناح. و في لفظ فيهما: من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، ففقؤوا عينه، فلا دية له و لا قصاص. و فيهما أن رجلا اطلع من حجرة النبي صلى الله عليه و سلم فقام إليه بمشقص¹ و جعل يخطئه ليطعنه.

فذهب إلى القول بهذا الحكم و إلى الذي قبله فقهاء الحديث، منهم الإمام "أحمد بن حنبل" و "الشافعي"، و لم يقل به "أبو حنيفة" و "مالك" رحمهم الله جميعا.²

2 - 2 - 1 - المسكن بمدينة تلمسان و الجزائر:

إن الحديث عن المسكن بمدينة "تلمسان" في العهد الزياني يتطلب نصوصا تاريخية و يتطلب حفريات و تنقييات ميدانية و لكنها للأسف غير متوفرة، و لكن بالاستعانة بكتب الخطط الخاصة بالمدن المغربية "كفاس" و "مكناس" و غيرها تسمح لنا بتكوين فكرة عن المسكن و أنواعه في مدينة "تلمسان"³ لأن العمارة الإسلامية متشابهة تحكمها ضوابط مشتركة، تجعلها ذات سمات تكاد تكون واحدة. و لعل أهم ما يميز مدينة "تلمسان" في العهد الزياني كغيرها من الحواضر الكبيرة في بلاد المغرب الإسلامي هو عدم وجود أحياء سكنية خاصة بالفقراء و أخرى خاصة بالأغنياء، و إنما كانت مساكن الأغنياء إلى جانب مساكن الفقراء.⁴

1 المشقص: نصل عريض، أو سهم فيه ذلك، و النَّصْل الطويل، أو سهم فيه ذلك، يرمى به الوحش. للمزيد من التفاصيل أنظر: - الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص 668.

2 - ابن قيم، زاد المعاد...، ج 4، ص 500.

3 - إن نقص المصادر التاريخية، و الدراسات الأثرية التي تكلمت على خطط مدينة "تلمسان" و وصف منازلها جعلنا نطابق تخطيط المنزل في هذه المدينة مع بقية المدن الإسلامية المغربية و الأندلسية خاصة، و هذا ما جعلنا نعود أساسا للدراسات التي تناولت مدينة "فاس"، و مدينة "غرناطة"، بحكم التواصل الحضاري الذي كان بين هتين المدينتين و مدينة "تلمسان". أنظر المقارنة التي وضعها الدكتور عبد العزيز لعرج بين مساكن مدينة تلمسان و المدن المغربية . للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز لعرج، المباني...، ص 517.

4 - مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص 95.

لقد كان نمط بناء المنزل و القصر يخضع إلى المستوى الاجتماعي و المالي للأسرة، و هذا يمكن أن نلمسه في المواد المستعملة في رفع السقف من أعمدة التي تعلوها تيجان، حيث في المنازل العامة نجد أعمدة أو دعائم من مادة الحجر الكلسي، و في المنازل الفخمة و القصور نجد مادة الرخام، و كذلك تزين المنازل الفخمة بالبلاطات الخزفية المستوردة، أما في المنازل التي تسكنها عامة الناس فهي تزين بالبلاطات محلية أو طلي الجدران بالدهون فقط، أما من ناحية التخطيط فإن المنازل و القصور متشابهة من حيث توزع الوحدات المعمارية، أما الاختلاف يكمن في المساحة المبنية، إذ نجد القصور و المباني الفخمة مساحتها أكبر من منازل العامة، هذا يجعلها تزود بمرافق أخرى خاصة الحمام.

و المنازل في مدينتي "تلمسان"¹ و "الجزائر" مربعة الشكل في غالب الأحيان متلاصقة فيما بينها تشققها أزقة تؤدي إلى مركز المدينة و إلى أبوابها و أسواقها، و يتكون المنزل من طابقين بهما عدة حجر مربعة و مستطيلة الشكل، و كانت مساكن مدينة "الجزائر" تحتوي على مطبخ في كل طابق، و هذا ما يدل أن هذه المساكن كانت تجمع العائلة الكبيرة، و ربما سكنت كل أسرة في طابق معين، بالإضافة إلى ذلك كان في كل منزل بمدينة "الجزائر" خزان للمياه لتجميع مياه الأمطار، و يستعمل عادة في النظافة².

إن المنازل في مدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية تتميز بجمالية و فخامة كبيرة في الداخل، حيث بداية من المدخل الذي هو عبارة عن سقيفة صغيرة في بعض المنازل أو رواق ضيق يوصل إلى الفناء في وسط المنزل تبدأ مظاهر الجمال من بلاطات خزفية و صناعة خشبية تزين المنزل، و تفتح جميع النوافذ و الأبواب إلى الفناء و الغرض من ذلك دخول الهواء و الضوء إلى الحجر، كما تتميز المنازل و القصور كذلك من الخارج بالبساطة حيث تقل النوافذ التي تطل على الأزقة أو منازل الجوار، و ذلك مراعاة لحرمت الجوار و يتأكد هذا معنى في أبواب المنازل التي لا تتقابل في وضعيتها، و هذا ما رصدناه في مدينة "الجزائر" و "تلمسان"، و لا جرم أن يكون هذا في جل المدن الإسلامية.

1 - لم يبق من المنازل التلمسانية إلا بعض الآثار التي تشتهر بها المدينة من العهد الزياني، منها قصر المشور، و قصر الأمراء بأغادير، و القصر القديم بجانب المسجد الأعظم المرابطي.

- De Fontaine De Resbecq, OP-cit, p145.

2 - 2 - 2 - توزيع وحدات المساكن:

يستجيب التصميم الداخلي للمسكن في البلدان الإسلامية إلى عدة مطالب تكون أحيانا متضاربة، و من ذلك مثلا استقبال الضيوف و إكرامهم مع ضرورة الاحتفاظ بحرمة أهل البيت من نظر الغرباء، كما يجمع المسكن أحيانا عدة عائلات وفقا لترابط الأنساب و في الوقت نفسه يتم التصميم بحيث يسمح بتقيد العلاقات بين الجنسين وفق ضوابط الشريعة، و لذلك غلب على تصميم المساكن عزل جناح الضيافة عن باقي الغرف من حيث المدخل و المرافق. كما تحظى تفاصيل المساكن بالعناية و الدقة استجابة لمطلب السترة مثل وضع العتبات التي تبين مختلف المراحل الانتقالية في الفضاء الداخلي و تعديد السلم التي تؤدي إلى الطوابق مثلما هو الحال في قصور مدينة "الجزائر".

كما يخضع التصميم الداخلي للجناح العائلي لتفرقة الجنسين على مستوى الأولاد وفقا لحديث النبي صلى الله عليه و سلم " فرقوا بينهم في المضاجع" و في أحيان أخرى يتم اعتماد قوانين و أوقات معينة للاستجابة لهذا الغرض كأن يسمع الرجل صوته قبل الدخول إلى البيت الذي يشترك فيه عدة أسر "بالنحنة" أو إلى غرفة غير غرفته عند الظهيرة مثلا، و قد يصبح مثل هذا السلوك عرفا جاريا في المجتمع كأن تخصص السطوح مثلا للنساء دون الرجال كما هو حال مساكن مدينة "الجزائر"¹.

و من أهم و وحدات المساكن التي استجابت للفكر العمراني الإسلامي² خاصة و استجابتها لقاعدة لا ضرر و لا ضرار نجد:

1 - الأبواب:

لقد وضع الفقهاء ضوابط لفتح الأبواب الخارجية تهدف إلى منع الإطلال على ما بداخل بيوت الجيران، و قد صنفوا المسألة في ثلاثة حالات حسب وضع الباب: في الطريق النافذ الواسع، و النافذ

1 - مصطفى بن حموش، جوهر التمدن...، ص93.

2 - للمزيد من التفاصيل حول العمران الإسلامي و علاقته بالتشريع الإسلامي خاصة ما ترتب عن قاعدة لا ضرر و لا ضرار أنظر: - محمد عبد الوهاب خلاف، وثائق في شؤون العمران في الأندلس "المساجد و الدور" مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي، ط1، المركز العربي الدولي للإعلام، القاهرة، مصر، 1983م، ص15.

غير الواسع، و في غير النافذ. و يمكن رصد آراء الفقهاء من خلال نوازل الضرر التي ذكرها "الونشريسي" في كتابه "المعيار".

ففي الطريق النافذ أجاز الفقهاء فتح الأبواب ما لم يتحقق الضرر بدون الرجوع إلى رأي الجيران، و في ذلك سئل "السيوري" عن درب نافذ فيه ديار و غرفة لحبس المسجد فأراد بعضهم فتح باب لم يكن و أذن بقية أهل الدرب هل يمنع بسبب غرفة الحبس أم لا؟ فأجاب: " إن كان غير مضر بالجيران لا حال و لا مآلاً أبداً و لا بالغرفة فلا يمنع."¹ و أيده في ذلك "البرني" في جوابه عن مسألة وردت عليه، عمن له دار يقابل بابها حائط لجاره ذكر أنها كانت مفتوحة بتابوت فيها، و أنكر جاره التابوت و الطاق، و قال إنها تكشف باب داري... فأجاب: " إذا كان الداران في شارع نافذ الطرفين فلا كلام للقائم في طاق و لا تابوت محدثين كانا أو قديمين إلا أن يطلع على داخل دار جاره فيمنع المحدث..."².

أما في الطريق النافذ الضيق فإن العلماء استحسنا أن تنكب الأبواب المحدثه فيه، و هذا ما ذهب إليه "ابن الحاج" لما سئل عن زقاق نافذ مسكوك عليه ضيق أراد بعض أهله أن يفتح فيه باب يقابل باب جاره؟ فأجاب: " الرواية إذا كان الزقاق سالكا نافذاً أن يفتح ما شاء من الأبواب، و إن كان الزقاق ضيقاً لم يكن له أن يفتح قبالة جاره، و كان بعض الشيوخ يفتي بالتنكيب³ عن باب جاره و استحسناً أن له أن يفتح⁴، و قال "أصبغ": من كانت له دار في درب أراد أن يحول بابها إلى موضع ثان، فإن كان الموضع الذي يحول الباب إليه أقرب إلى باب الدار كان له ذلك، و إن كان أبعد فليس له ذلك لأنه يدخل من الدرب إلى موضع ليس كان يدخله."⁵ (الشكل رقم: 8، 3، 2).

أما في الطريق غير النافذ فإن الأبواب لا تفتح إلا برضى الجيران و هذا ما ذهب إليه الفقهاء منهم "البرني" بقوله: "...و لو كان الشارع غير نافذ فليس لأحدهما الإحداث إلا برضا الآخر و ما

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص435، 436.

2 - نفسه، ج8، ص449.

3 - نكَب عن الشيء و عن الطريق يَنْكُبُ نَكْبًا و نُكُوبًا: عدل. أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج8، ص508.

4 - التنكيب مصطلح معماري يستعمل لتشبيه الانعطاف و عدم تقابل الأبواب لمنع الرؤية المباشرة. - مصطفى بن حموش، جوهر التمدن...، ص113.

5 - الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص21.

هو موجود لا يزال إلا أن يثبت حدوثه.¹ و سئل كذلك بعض الفقهاء عن رائغة² جانبها لأيتام و صدر الرائغة فيه باب آخر فأراد الأيتام إحداث باب في أحد الجانبين يقبل جانباً لهم من باب الآخر و بينه و بين آخر الرائغة أربعون ذراعاً فأراد الداخل منعهم منه و ليس عليهم مدخل و لا مخرج. فأجاب: " إذا كان الأمر ما وصفت فلهم فتح الباب، و لا مانع لمن ذكرت، قيل في النصوص أن الرائغة كالشيء المشترك لأربابها فلا يحدث شيئاً إلا بإذنتهم و لعل هذا على فتوى "المازري" و غيره مع مراعاة الضرر أو قوته و ضعفه فهو خلاف في شهادة في الضرر.³

لقد استجابت أبواب مساكن مدينتي "تلمسان" و "الجزائر" لقاعدة التنكيب في الطرق غير النافذة، و كذلك في الطرق النافذة⁴، و يبدو أن المجتمع في كلا المدينتين كان يخضع للوزع الديني في تصرف أفرادها.

ب - المدخل المنكسر أو السقيفة:

ويطلق عليه أيضاً مصطلح المجاز و هو عبارة عن ممر يكون بوجه عام مستطيلة الشكل مستقيماً و غالباً ما يكون منكسراً يؤدي إلى الفناء⁵، و يظهر هذا العنصر في جميع المساكن المدن الإسلامية، و عادة يكون على شكل حرف اللام الابتدائي (L) اللاتيني فيكون طويلاً ثم ينحرف إلى اليسار أو اليمين ثم يتصل بالصحن. وهذه الأوصاف نجدها في مداخل مساكن مدينتي "تلمسان" و "الجزائر"، كما نجد في هذه المداخل "دكانة" و هي عبارة عن فتحة جدارية يستريح فيها الإنسان الغريب أو الضيف حتى يؤخذ له طريق الدخول⁶.

و من أثر الفكر العمراني على مداخل المساكن نلمسه في أمرين هامين هما:

- 1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص449.
- 2 - طريق غير نافذ.
- 3 - الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص447.
- 4 - للمزيد من التفاصيل حول توزيع أبواب المساكن من خلال النوازل أنظر: - محمد بين حمو، العمران...، ص249.
- 5 - يمثل المدخل المنكسر عموماً تلك النقطة التي يتم الانتقال بواسطتها بين العاملين المنفصلين، الخارج و الداخل، و هو على شكل منكسر حتى يسمع ما بالداخل. للمزيد من التفاصيل أنظر: - مصطفى بن حموش، جوهر التمدن...، ص93.
- 6 - مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص95.

- حفاظا على حرمة المسكن جعلت أبواب المساكن في الدرب الواحد أو الزقاق غير متقابلة، و هذا من أجل الحفاظ على خصوصية المسكن و عدم التطلع إلى داخله خاصة إذا ما فتحت في وقت واحد.

- إن هذا المدخل المنكسر يقلل من مرور الصوت من الدخل إلى الخارج أو العكس، بالإضافة إلى تمكين النساء من الاحتجاب في حالة قدوم الغريب، بحكم أن الفناء هو محور و مركز كل نشاطات المسكن بالنسبة للمرأة المسلمة.

ج - النوافذ:

وضع الفقهاء تشريعات خاصة بإحداث النوافذ، أو إعادة فتحها، و اعتمدوا أساسا في ذلك على القاعدة الفقهية " لا ضرر و لا ضرار"، و الغاية من ذلك منع الإطلال و الإشراف على مساكن الجيران¹، و استندوا في ذلك على قول "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه في رجل أحدث غرفة على جاره ففتح فيها كوة²، فكتب "عمر" رضي الله عنه: " أن يوضع وراء تلك الكوة سرير و يقوم عليه شخص، فإن كان ينظر إلى ما في الدار منع من ذلك، و إن كان لا ينظر لم يمنع"³.

و لم يشمل ذلك الفتحات القديمة التي سبقت و جود المباني المحيطة بها و هو ما يعرف بجيازة الضرر بالقدم. و يرى في ذلك العديد من الفقهاء منهم "أبو عبد الله بن الغماز" و القاضي "أبو إسحاق بن عبد الرفيح"، حيث استفتيا في نازلة مضمونها: " عمن بنى غرفة و أحدث فيها كوة يرى منها سطوح جيرانه، و بعض الجيران يتصرف في سطوحه بالنشر و غيره، هل يمنع هذا من فتح الكوى بسبب تصرف الجيران في سطوحهم؟ فأجابا: بأن لا يمنع أحد من ذلك. قيل لهما فإن بنى صاحب السطح علوا و الطاقة تكشف من في العلو الثاني، هل تسد الكوى على صاحب العلو الأول أم لا؟ فقالا لا يسدها عليه أحد لأنه سبق بها و حاز منفعتها."⁴

1 - للإطلاع أكثر على آراء الفقهاء حول توزيع النوافذ و الفتحات أنظر النوازل التي جمعها محمد بن حمو من خلال كتب النوازل. - محمد بن حمو، العمران...، ص253.

2 - فتحة صغيرة التي لا تتجاوز حجم الرأس و التي تطل على ما بداخل دور الجيران، و قد جرى العرف في بعض المدن اتخاذها للفرجة على الخارج، و نجدها كثير في مساكن مدينة "الجزائر". أنظر: - مصطفى بن حموش، جوهر التمدن...، ص99.

3 - ابن الرامي، المصدر السابق، ص67.

4 - الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص447.

كما يمكن للمتفحص لمساكن مدينتي "تلمسان" و "الجزائر" أن يرى تعدد الفتحات الصغيرة التي لا تتجاوز حجم الرأس و التي تطل على ما بداخل مساكن الجيران، و قد تستعمل من أجل الإضاءة و التهوية، كما يمكن أن تستعمل للفرجة على الخارج، فهي تسمح بالرؤية دون التكشف. و لذلك يعتبر بعض الفقهاء ضررها أعظم من الباب و الفتحات الكبيرة. أما الفتحات التي لا يرى منها غير أنه يسمع الكلام منها فقد اختلف في ضررها، فمن الفقهاء من اعتبر الكلام و حركة اللسان ضررا، و منهم من لم يعتبره¹، و قد جمعت لنا هذه الفتوى آراء الفقهاء من خلال مسألة التي استفتي فيها "ابن الغماز" عن رجل أحدث غرفة و أحدث كوة يرى منها ما في السقيفة جاره إذ فتح بابه، فهل بصاحب الدار منع مما فتح عليه من ذلك و بينهما سكة نافذة للمارين واسعة كبيرة؟ فأجاب: يمنع الرجل أن يحدث على جاره كوة يطلع منها على ما في سقيفة جاره، و ليس الكوة و الباب سواء لأن الباب إنما يعمل للدخول و الخروج لمن يدخل و يخرج و ليس من ذلك بُدّ و الكوى لا يتحرز منها، و ينظر و لا تنظره، و كذلك المار يتحرز منه و لجوازه و سيره لا يتمكن من النظر، و الكوة للقعود فهي مضرة كبيرة قال "ابن الرامي"²: " و بهذا أجابني كل من سألته من علمائنا و ما رأيت من القضاة أحدا حكم بغير ذلك، و نزلت عندنا مسألة "بتونس" في رجل فتح كوة في دار على دار جاره و ليس يتكشف عليه منها غير أنه يسمع الكلام منها فشكا جاره ضرر ذلك فاختلف أشياخنا فيها فمنهم من اعتبر الكلام و حركة اللسان وراه ضررا، و منهم من لم يعتبره و قال لا يمنع و جرى فيها الحكم أن لا تسدّ، و أخذ بقول من لم يعتبر ذلك و كذلك مطالع للسطوح إلا أن يعمل باب المطلع ينظر إلى دار جاره فيمنع و إن كان متنجسا عنه لم يمنع، و لا حجة لصاحب الدار أن يقول نخشى ساعة خروجك تكشف علي، و نزلت هذه المسألة عندنا "بتونس" في رجل كان له مطلع إلى السطح داره و كانت ستارة تستر المطلع و السطح فسقطت الستارة و صار كل من يطلع إلى السطح ينظر إلى ما في دار جاره، و طلب من صاحب السترة أن يعيد ستارته كما كانت و تداعيا في ذلك إلى من كان قاضيا فلم يجبره على إعادتها و قال لا يلزمه و لكن يؤذن إذا طلع سطحه"³.

1 - مصطفى بن حموش، جوهر التمدن...، ص 99.

2 - ابن الرامي، المصدر السابق، ص 67.

3 - الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 452.

وقد اختلف العلماء في مسألة الإطلال من المباني التي تقام في البساتين خارج المدينة و هي ما تسمى بالأبراج، فقد سئل القاضي "ابن عبد الرفيح" عن رجل أراد أن يفتح في برجه كوى يكشف منها كروم جيرانه هل يمنع من ذلك أم لا؟ فأجاب رحمه الله بنص عزز فيه أقوال العلماء حيث قال: " لا يمنع من ذلك أحد إلا إذا كان موضع السكنى مثل الرباط أو غيره، و إذا كان يكشف منها الكروم التي لا بناء فيها فلا يمنع، و قال الفقيه "أبو علي بن عبد السيد": تسد كل كوة التي أحدثت على الكرم أو الجنان، لأن الكرم الذي ليس فيه بناء يحتاج صاحبه إلى أن يمشي هو عياله و يرقد تحت شجره أو يأكل أو يقضي حوائجه أو يضع ما أراد في موضعه و هو لا يدري من ينظر إليه أو يريد أن يتحرز ممن يكون في الطاقة التي في البرج و ذلك أمر عظيم و ضرر بين. قال و بهذا كان القاضي "ابن زيتون" رحمه الله يفتي. و قال "ابن عرفة": ظاهر كلام "ابن رشد" قصره على الدور دون البساتين. و في نوازل "ابن الحاج" فيها ما نصه: لا خلاف في منع الاطلاع على الدور و الفدادين و المزارع..."¹.

ولا يحكم بسد الفتحة المطلة إلى الخارج إلا إذا تبين ضررها، فقد سئل "ابن زيادة الله" عمن له دار في الشارع نافذ وفي حائطه منها طاق للشارع فعمد إلى خراج أحدثه في حائطه دون ثلاثة أشبار في الشارع المذكور و جعل الطاق المذكور فيه حيث كانت من موضعها الأول فقام جاره المقابل له و ادعى أنه يضره بقرب الطاق لداره عما كانت من موضعها الأول، فقال صاحب "الإخراج": "... شارع واسع نافذ، و لا يزيد هذا الإخراج في النظر و لا ينقص فهل لهم تكلم أم لا؟ فأجاب إذا لم يكن للقائم حجة إلا قرب الطاق فلا يظهر له زيادة ضرر لأن العلماء استحَبُّوا التنكيب ليلا يرى ما وراء الباب و هذا كلما قرب من حائط جاره زاد منعها من الضرر حتى لو قرب اقتارانه من الحوائط لمنعه الرؤية من داخل الدار جملة و تفصيلا"².

و يصف "مارمول كرخال" طريقة بناء المساكن و وضعية النوافذ بمدينة "الجزائر" بقوله: "... و تبدأ بنايات المدينة من الأسفل عند شاطئ البحر، ثم ترتفع بشكل متدرج على أسفل الجبل، و تتخذ بذلك منظرا جميلا لأنها جميعها ذات نوافذ و مماش، و لا تحجب بعضها البعض..."³.

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص451.

2 - نفسه، ج8، ص447.

3 - مارمول كرخال، المصدر السابق، ج2، ص363 .

و من هذا الوصف يمكن أن نستنتج أن النوافذ المفتوحة على الخارج كان لها دور الإضاءة و التهوية، و قد أباح الفقهاء فتحها، و سئل في ذلك "ابن نافع" هل لرجل أن يفتح الكوى في جداره للضوء على دار جاره إن كره جاره فتحها...؟ فأجاب: إن لم يكن في ذلك ضرر على جاره فلا بأساً بفتحها لأنها منفعة لهذا و لا ضرر على الآخر منها، و إن كان فيها ضرر منع من ذلك¹.

د - الجدران:

تعتبر الجدران من الملكيات المتراسة بالمدينة الإسلامية، و هذا التراص حدث بسبب تشابك المساكن فيما بينها، و يعبر من جهة أخرى كذلك عن و حدة كيانها، و كذلك التفاهم الحاصل بين ساكنيها، كما يدل على أثر التشريع الإسلامي في ضمان حقوق الجوار و منع الضرر بين أفراد المجتمع. كما يعبر عنها بالملكيات المشتركة، حيث يقع التفاهم بين الشركاء فيما يخص التصرف فيها من حيث استعمالها و استغلالها، فلا يمكن لأحد أن يتفرد بذلك دون استشارة الآخرين و رضاهم². و من الحقوق التي تكفلها الشريعة الإسلامية في حالة الجدران المشتركة بين الجيران ما ذكره "أبو هريرة" رضي الله عنه: " أن الرسول صلى الله عليه و سلم قال: لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره. ثم يقول "أبو هريرة": مالي أراكم عنها معرضين و الله لأرمينّ بها بين أكتافكم"³. و قد ذكر علماء المغرب الإسلامي و عرفوا الحقوق الناجمة عن التراص الموجود بين المساكن خاصة الجدران⁴ منهم "ابن رامي" الذي قسم الجدار بين دارين رجلين من حيث الحقوق و من حيث الضرر إلى ثلاثة أقسام:

- الجدار يكون بين دارين الرجلين يدعيه كل واحد منهما لنفسه.
- الجدار يكون للرجل فينهدم، أو يريد هدمه، هل يجب إعادته؟

1 - ابن الرامي، المصدر السابق، ص71.

2 - للمزيد من التفاصيل حول أنواع الملكيات و الاتفاقات أنظر: - مصطفى بن حموش، المدينة...، ص68.

3- البخاري، الجامع...، ص447.

4 - يقول محمد بن حمو: " الجدران على أنواع و لها أحكام، فالأولى في الجدار أن لا يضم معه غيره، و للمجاور أن يغرز خشبة فيه ما لم يضر به، كما أن لصاحب العلو إعادة بناء جداره على أي حال، و الجدار بين رجلين إذا سقط في ملك الغير لا يجب عليه رفعه إلا أن تكون مواد بنائه قابلة لإعادة الاستعمال، كما أن من أعاد بناء جدار بينه و بين شريكه من غير إذنه فلا يجب عليه أن يمنع شريكه من الانتفاع، و إذا اختلف في الجدار بين شريكين لمن هو فهو لمن له عقدة، كما أن الجدار لا يجب أن يمنع الريح و الشمس و يحدث الظلمة على الجار..."، و قد استنتج الأستاذ بن حمو هذه النتائج من خلال تتبعه للنوازل الواردة في كتب علماء المغرب الإسلامي. للمزيد من التفاصيل: - محمد بن حمو، العمران...، ص312.

- الجدار يكون بين دارين الرجلين، هل يتصرف فيه أحدهما دون إذن شريكه؟ أو يقسم بينهما؟
و قد أشارت كتب النوازل إلى الأضرار الناجمة عن عملية البناء أو إضافة بعض الوحدات
البنائية للمساكن منها:

- سئل أبو عبد الله الحفار عمن له دار في آخر الرائغة فعمد إلى نحو ثلاثة أذرع واقتطعه بالبنيان
و جعله سقيفة و فوقه مطبخا و شرك في حائط الجار و رمى الخشب على حائطه فأنكر عليه الجار
ثم خاف منه لقربه من السلطان فبقي هذا زمانا ثم فبقي هل يقام على ورثته و يهدم ما بنا و يرجع
كما كان و يزال ما أحدث على الجار أم لا؟ و كيف لو رضي الجار بإبقاء ما كان عمل عليه هل
يبقى ذلك أم لا لكونه من الزقاق؟ فأجاب: " يزال ما ذكر و يرجع إلى ما كان و لا ينفع رضا من
وصفت".¹

وسئل "السيوري" عن صاحب السفلي أحدث مرحاضا محتاجا إليه فمنعه صاحب العلوي و قال
تحدث ما يضر بأصل الحائط من البلل و الأذيال فيؤل الضرر إلى العلو. فأجاب: " لصاحب العلو
أن يمنعه كل ما أضر به".²

و تقدم لنا الوثيقة التالية مثلا لما يكون عليه حق غرز الخشب و ذلك بمدينة "الجزائر"، حيث
سقط جدار مشترك بين جارين فعجز أحدهما عن دفع ثمن إعادة البناء فتنازل عن حقه في الملكية
لجاره على أن يعيد جاره بناءه و يبقي له حق الرشق فقط، و يتم الحصول على هذه الحقوق عادة
عن طريق الإعارة أو الإيجار أو البيع أو التطوع أو الحيازة: " الحمد لله بعد أن سقط الجدار الفاصل
بين دار المكرم "محمد بلكباشي بن علي التركي" و المكرم السيد " محمد بن الحاج إبراهيم" الكائن
بجومة جامع المعلق سند الجبل داخل محروسة "الجزائر" المجاورة لدار "سعيد بن غانم" المجاورة لهما
و لزمهما بناؤه لاشتراكهما فيه فعجز أحدهما عن أجرة بنائه و هو المكرم "محمد بلكباشي بن علي"
المسطور فما كان إلا أن التزم شهيديه السيد " محمد بن الحاج إبراهيم" المذكور ببناء الجدار المذمور،
و أن يؤدي جميع ما يصرفه ببناء ذلك من ماله الخاص به و لا رجوع له على شريكه "محمد
بلكباشي" المذكور فيه إلا الرشق فقط توافقا على ذلك و تراضيا به الموافقة و الرضى التأمين فمن

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص439.

2- نفسه، ج8، ص440.

تلقى ذلك منهما قيد بذلك شهادته هنا بتاريخ أوائل رجب الفرد الأحب عام ثمانية و عشرين و مائة و الف¹.

و - الصحن (الفناء):

هو عنصر هام و هو مركز المنزل أو قلب المسكن، و هو فراغ مكشوف، و يعتبر أصيل في العمارة السكنية، حيث يرجع إلى الفترة القديمة، فقد و جد في الحضارة الفرعونية و الحضارات واد الرافدين و الحضارة الإغريقية، كما و جد في مساكن العرب قبل الإسلام، و لكنه لا يتوسطها، بل نجده في مقدمة المسكن. و لما قدم الرسول صلى الله عليه و سلم للمدينة مهاجرا كان مسكنه عليه السلام يتكون من مجموعة متصلة على استقامة واحدة من الحجر أبوابها تفتح على المسجد الجامع النبوي².

و يبدو أن تخطيط المسكن أو القصر بصحن مركزي يتوسطه ظهر في العمارة الأموية في الشام و ذلك لتأثرها بالعمارة الرومانية و البيزنطية خاصة، ثم في العهد العباسي بالحضارة الفارسية و التركية، و هذا ليس بعيب حيث كل حضارة تقتبس من الموروث الحضاري الإنساني، و الحضارة الإسلامية استفادت من هذا التخطيط و هذا الموروث ما دام ذلك لا يختلف مع تعاليم الشريعة الإسلامية و عقيدتها، و هو عرف سارت عليه الشعوب التي انطوت و ذابت في الحضارة الإسلامية، حتى أصبح عنصرا لا يمكن أن تخلو منه مساكن المسلمين مشرقا و مغربا.³

و من خلال تفحصنا للعديد من مساكن مدينتي "تلمسان" و "الجزائر" و وجدناه حاضرا في جملها، بجمال العناصر المعمارية المحيطة به خاصة الأعمدة بتيجانها المتعددة، و بزخارفها التي تعبر عن جميع المراحل التاريخية التي مرت بها مساكن المدينة خاصة مدينة "الجزائر"، و بجمالية الأبواب و النوافذ التي تفتح عليه، و بعاملين الهواء و الضوء اللذين ينفذان إليه فيجددان الهواء في الغرف و يقضيان على الرطوبة التي يمكن أن تحدث ليلا خاصة بمدينة "الجزائر" المعروفة بشدة الرطوبة صيفا.

1 - مصطفى بن حموش، فقه العمران...، ص 167.

2 - مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص 95.

3 - رغم وجود أنماط أخرى من المساكن في البلدان الإسلامية مثلما هو الحال في البيت اليمني، و البيوت الماليزية و الإندونيسية المنفتحة على الخارج، فإن قاعدة فصل الجنسين تبقى سمة مشتركة مع البيت ذي الفناء الداخلي، حيث لا يمكن الإطلال من الخارج على ما في داخل البيت أبدا. للمزيد من التفاصيل أنظر: - مصطفى بن حموش، جوهر التمدن...، ص 92.

إن الفناء بانفتاحه على السماء تجده المرأة المسلمة كعامل للتواصل مع العالم الخارجي، خاصة إذا ما زين بأشجار و نفورة تمد المسكن بالرطوبة النسبية، فهو مركز حياتها و نشاطها و يمدّها بالارتياح هروبا من جدران الغرف التي تنعدم عادة فيها النوافذ التي تفتح إلى الخارج¹.

هـ - السطوح:

يغلب على معظم الدول الإسلامية المناخ الحار مما يضطر السكان لاستعمال السطوح² لمختلف الأنشطة المنزلية، و لذلك فإن حفظ خصوصية و حرمة تلك الفضاءات تقتضي حمايتها من الأنظار الخارجية بجدران يكون ارتفاعها مناسبا لمطلب السترة. و الكثير من النوازل³ عاجلت و تكلمت عن السترة أو الجدار الذي يعزل سطحين متجاورين، و في ذلك سئل "السيوري" عن دارين متلاصقين ليس بينهما سترة لمن يصعد على السطح فأراد أحدهما البناء للسترة و امتنع الآخر، فأجاب: " بينان جميعا إذا كان ينتفعان جميعا قيل فهذا على أحد قولي "مالك" إذا سقط الحائط السترة بين الدارين فأراد أحدهما البناء دون الآخر أنه يجبر على البناء من أباه و هو اختياره و اختيار "اللخمي" و كذا سد الكوة القديمة التي ينكشف على جاره عندها"⁴.

و سئل "ابن لبابة" عن أراد جعل ستارة على سطح لستره و ستر أهله و هي تمنع من الريح و الشمس هل له ذلك أم لا؟ و النفقة عليه بخلاف الحائط بين الدارين فالنفقة عليهما إذا كانت المنفعة فيه لهما. و أما إذا قال أحدهما و لا نصعد أنا و لا أنت على السطح إلا أن تجعل ساترا فوق السطح بيننا و امتنع الآخر. فأجاب: إن الأمر على ما ذكر إن كان الانتفاع لهما فإن لم يفعل أدى إلى التكشف على بعضهما بعضا فمن دعا إلى البناء فالقول قوله و إلا فله منع جاره من الطلوع للسطح.⁵

1 - يقول حسين جودي: "...الفناء هو قلب المبنى و هو الذي يعبر عن جسم الإنسان حيث تطل عليه الحجرات من جميع جهاته بألوانها و زخارفها حول الفتحات و الأبواب، و لقد طور المعماري المسلم الفناء إلى أن تحول إلى حديقة فيحاء تفجرت فيها المياه الجارية بحيث أصبح الفناء فردوسا أرضيا...". - محمد حسين جودي، المرجع السابق، ص66.

2 - السطح: ظهر البيت إذا كان مستويا لانبساطه، معروف و هو من كل شيء أعلاه، و الجمع سطوح... و سطح البيت يسطحه سطحا و سطحه سوى سطحه. أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص425.

3 - محمد بن حمو، العمران...، ص 285.

4- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص435.

5- نفسه، ج8، ص444.

و سطوح مساكن مدينة "تلمسان" تستجيب لهذا النمط من التخطيط و ذلك في وضع ساتر يحول الناظر من التطلع إلى سطوح الجيران، أما في مدينة "الجزائر" في الفترة العثمانية فإن العرف المحلي يقضي أن تخصص السطوح للنساء فقط تعويضا لهن عن الخارج فيمنع الرجال من الصعود إليها و يؤدب من يخالف ذلك، و بذلك تفتح السطوح بعضها على بعض، و تراح الستارات ليسهل الاتصال بين النساء، و التنقل أحيانا من مسكن إلى آخر¹.

2 - 3 - الأسواق و الحوانيت:

تعود نشأة الأسواق في المدن الإسلامية إلى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم، فقد أنشأ عليه الصلاة و سلام بالمدينة المنورة سوقا قريبا من مساكنها و أحيائها، و كانت هذه السوق بداية لتطور عمراني استمر بعد ذلك في المدن الإسلامية في عصورها المتتالية، و لا جرم في ذلك حيث تلعب الأسواق دورا كبيرا في تطور المدن عمرانيا، و ذلك من خلال خلق الثروة و وفود تجار إليها محملين بتراث فكري تستفيد منه الساكنة، و يعلل في ذلك "عبد الرحمن بن خلدون" بقوله: " و نفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرائها في الكثرة و القلة."²

كانت سوق المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه و سلم عبارة عن مساحة من الأرض خالية البناء³ سمح لأهل المدينة باستغلالها دون دفع أي أجر، و منع البناء فيها، و على ذلك سارت المدن و الأمصار المبكرة في الإسلام، و لا يمكن لأي تاجر، يحتكر مكانا في السوق حيث سارت على سنة المساجد فمن سبق إلى موضع فهو له حتى يفرغ منه، و قد أكد على ذلك الخليفة "عمر بن الخطاب" بقوله: " الأسواق على سنة المساجد، من سبق إلى مقعده فهو له يقوم إلى بيته أو يفرغ من بيعه"⁴.

1 - استعملت هذه السطوح من قبل الفدائيين و ذلك لتنقل بين أحياء مدينة الجزائر (أحياء القصبية).

2 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج2، ص803.

3 - كانت تنظيم السوق بلا مباني حيث أن الأرض كانت تترك فضاء ويأتي التجار بيضائعهم فيستخدمون موقعا يقيم لهم حتى آخر النهار ولكنه ليس محجوزا لهم دوما فقد تركت الأرض مشاعا حتى قيام الدولة الأموية.

4 - محمد عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص 228.

و يبدو أن عملية بناء الأسواق ظهرت في الفترة الأموية، حيث تشير المصادر التاريخية أن "معاوية بن سفيان" أمر ببناء سوق المدينة، و كان هذا البناء عبارة عن بنائين أحدهما يدعى "دار القطران و الآخر يدعى "دار النقصان" كما أنه سن تأجيرهما¹.

كما يشير "محمد عثمان عبد الستار" أن سوق "الفسطاط" كان مسقوفا: " سوق الفسطاط كان هو النموذج التالي، ففي عهد "عبد الملك بن مروان" بنى عامله عليها عدة قيساريات من بينها قيسارية العسل، و قيسارية الحبال، و قيسارية البز، و قيسارية الكباش.²

أما سوق مدينة "القيروان" حسبما ذكر "البكري" أنه كان مسقوفا يحتوي على مجموعة من الحوانيت متعدد الاختصاصات، و سقف كذلك في الفترة الأموية: " و كان سماط سوق "القيروان" قبل نقله إلى "المنصورية" متصلا من القبلة على الجوف، و طوله من باب "أبي الربيع" إلى الجامع ميلان غير ثلث، و من باب "تونس" ثلثا الميل، و كان سطحها متصلا فيه جميع المتاجر و الصناعات، و كان أمر بترتيبه هذا "هشام بن عبد الملك" لأهلها...³.

وسارت على ما يبدو المدن الإسلامية على هذا النمط المعماري الذي وضعه الأمويون في تخطيط الأسواق، حيث حدث تطور كبير في عهدهم، فبالإضافة إلى تسقيف السوق بنيت غرف في الطابق العلوي اتخذت مسكنا للوافدين، و أصبحت الدولة تستفيد من دخل كبير تدره عملية الإيجار للحوانيت و الغرف، كما تبلورت في عهد فكرة تصنيف التجار في مجموعات لكل مجموعة متخصصة في تجارة بعينها موضع بذاته.

و في الفترة العباسية تطورت الأسواق تطورا واضحا بتطور عمران المدن الإسلامية، حيث انتشرت الأسواق في أحياء المدن و أرباضها مثل ما كان عليه الأمر بمدينة "بغداد"، و يتجلى ذلك كذلك في سوق "سامراء" أما من الناحية التخطيطية فقد سارت على نمط الأسواق الأموية، بحيث يمكن القول إن إنشاء الأسواق المتخصصة أصبح نمطا تقليدا في المدينة الإسلامية.

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - السموودي، وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، لبنان، 1971م، ج1، ص750.

2 - محمد عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص 228.

3 - البكري، المصدر السابق، ص35، 36.

أما بالمغرب الإسلامي فيبدو أن أسواق المدن و أمصار سارت على نمط سوق "القيروان"¹ من حيث التخطيط أو التخصص. و كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع²: منها الأسواق المسقوفة و التي أصبحت تسمى بالقيسارية على ما هو معهود في مدينة "تلمسان" خاصة في الفترة الزيانية و مدينة "الجزائر" العثمانية، و هي عبارة عن مجموعة من الحوانيت مسقوفة كل مجموعة تخصص في نوع من التجارة أو الصناعة، و عادة توضع هذه الأسواق قرب المساجد الجامع و على الشوارع الرئيسية. أما النوع الثاني فهي الأسواق الغير مسقوفة و كانت عبارة عن ساحات و رحاب تقام بها الأسواق يومية أو أسبوعية، و تقام في مركز المدينة أو خارجها³. وكان بمدينة "تلمسان" سوقا "بأغادير" يعرف بسويقة "أغادير" غير مسقوف تباع فيه أنواع كثيرة من السلع التجارية⁴، و سوق العطارين و يقول "المقري في ذلك: " فلما ورد السلطان "أبو عنان" "تلمسان" لقيه بسوق العطارين"⁵، و بمدينة "الجزائر" العديد منها مثل رحبة "الزرع"، و رحبة "الصوف"، و عادة تكون مخصصة للوافدين عليها⁶

1 - يقول يحيى بن عمر: " كانت الأسواق على ما يظهر وإن كانت متصلة بعضها ببعض لكل صناعة سوق منفرد. فهذا سوق الرهادرة بالقيروان (و كان يبلغ به الثياب الخلقة و الأكسية التي استعملت ثم استغنى عليها) كان ملاصقا لدكاكين الرفائين لتناسب ما بين الملابس القديمة و الرفو، و جذوها (سوق الكتانين) المعد لبيع الكتان كما يفهم من اسمه. فهذا كله دليل على تجاور الأسواق بعضها ببعض لاسيما ما تشاھت حرفها و تشاھت صناعتها. قال "ابن ناجي" بعدما ذكر حوانيت الكتانين المشار إليها: و ما وراء ذلك كانت دور القوم فبنيت حوانيت و سميت (حوانيت الجدد) و نقل الناس من أسواقهم إليها و أخذوا في عمارتها للأمرير. للمزيد من التفاصيل انظر: - يحيى بن عمر، المصدر السابق، ص 34.

2 - و يمكن تحديد ثلاثة أنماط من الأسواق أو الفضاءات التجارية بمدينة "الجزائر"، حيث نجد الحوانيت المشيدة، التي تنتظم على طول جانبي الطريق الواحد و تحتص بحرفة واحدة، و قد يأخذ الطريق اسم مثل سوق الحضارين و سوق الصياغة و سوق الخراطين، و يغلب على هذه الحوانيت البساطة في تخطيطها، حيث كانت بنايات ذات طابق أرضي و غرفة صغيرة، و هي شبيهة بالحوانيت الموجودة بالمدن المغربية، و مدينة "تلمسان" كذلك، و يشكل هذا التخطيط أغلب الأسواق بمدينة "الجزائر".

3 - كانت الصنائع التي تضر بالسكان بالمدينة الإسلامية تقام خارج أسوار المدينة و كانت النوازل ترد على علماء المغرب الإسلامي و كان لهم موقف من ذلك، و منها مسألة و ردت على أبي محمد عبد الله الزواوي عن قوم كانت لهم دور الدبغ بداخل القيروان قائمة على مَرّ الزمان فأخرجهم بعض العمال من دورهم لدور بناها خارج السور معدة للدبغ ثم بقي نحو ثلاثين عاما، ورجع بعضهم إلى موضعه و أراد أن يرده للدبغ كمصدر كما كان، فصنعه بعض الجيران و احتج ببقائه نحو ثلاثين عاما. فأجاب: بأنهم مغضوبون على الخروج من دورهم فإن ثبت ما قالوا فليس لأحد منهم. - الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 446.

4 - ابن زيات، المصدر السابق، ص 437.

5 - المقري، المصدر السابق، ج 5، ص 272.

6 - هذا النوع من الأسواق عرف منذ الفترة الإسلامية المبكرة، كما نجده في كل المدن الإسلامية القائمة في الفترة الوسيطة و الحديثة. و يتم استغلاله حسب الأسبقية و دون احتكار المكان. و لكونها أماكن التجمع و تلاقي سكان المدينة فقد كان

لبيع السلع و المحاصيل الزراعية و كذلك المواد الأساسية التي تستعمل في الصناعة¹، حيث كان الريف الممون الرئيسي لأسواق مدينة "الجزائر"، فكانت القبائل تأتي بإنتاجها إلى الأسواق لتتم فيها المبدلات التجارية، و قد خصص للفلاحين و القوافل أماكن لعرض سلعهم، فكانت رحبة الزرع خارج "باب عزون" هو المكان التي تلتقي فيه القوافل التجارية القادمة من مختلف أنحاء البلاد، كما كانت كذلك محطة تنطلق منها القوافل إلى الجهات المختلفة، و هناك قائد دائم في باب "عزون" لاستخلاص الرسوم من أصحاب القوافل الداخلة و الخارجة، و كان مزارعو الأرياف و الفحوص يقصدون المدينة لبيع إنتاجهم المتمثل في الخضر و الفواكه، و الأعشاب، و الدواجن، و البيض، و غيرها من المواد، و هناك بعض التجار اليهود المتحولين الذين كانوا ينتقلون بسلعهم في أحياء المدينة لعرض سلعهم لريبات البيوت.² و هناك نمط ثاني من الأسواق بمدينة "الجزائر" يعرف بالرحبات مثل رحبة "الزرع" و رحبة "الفحم"، و قد خصصت مساحة قرب قصر "الجنينة" مع مطلع القرن السادس عشر للميلاد اتخذت لبيع و شراء العبيد عرف هذا السوق باسم "الباتستان"³، و هي ساحات عامة مفتوحة لا بناء فيها، و قد تنوعت الأسواق بمدينة "الجزائر" وذلك لتعدد الوظائف و المهن كسوق الخياطين، و تعدد المحاصيل الزراعية الصناعية كسوق السمن " بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا

يقصدها الدالون و البراحون كذلك للبيع بالمراد العلني و الإعلان عن الأوامر السلطانية و نشر الأخبار المهمة.

1 - أدى تنوع الإنتاج الزراعي و الحيواني إلى ازدهار النشاط التجاري في الفترة العثمانية، حيث أصبحت المدن الجزائرية مراكز تجارية مهمة يؤمها السكان و المجموعات البشرية من مختلف الجهات لشراء حاجتهم الضرورية، و بيع إنتاجهم الزراعي و الصناعي، و هذا أدى إلى نوعا من الترابط بين المدن و الأرياف، فكانت مدينة "الجزائر" تأتيها المواد الغذائية و غيرها من مزارع المناطق المجاورة لها مثل فحوص و سهل "متيجة"، و "شرشال"، و "البليدة" و غيرها، و حتى المناطق الجبلية الجنوبية، و قد عرفت مدينة "الجزائر" حركة تجارية كبيرة و واسعة بقدمو لأندلسيين و العثمانيين ابتداء من القرن (10هـ / 16م)، هذا الحراك التجاري نشأت من خلاله مرافق و فضاءات تجارية، و من بين هذه المرافق نجد المقاهي، التي قدر عددها في بداية الاحتلال الفرنسي بستين مقهى وهذا لكثرة الوافدين على المدينة، كما احتوت مدينة "الجزائر" على عدد كبير من المخازن و الحوانيت التي كانت منتشرة في شوارعها و أحيائها. للمزيد من التفاصيل أنظر: - سعيدوني، المرجع السابق، ص 398.

2 - أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 399، 340.

3 - كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ترجمة: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م، ص 61.

و مولانا محمد و على آله و صحبه وسلم تسليما، لما كان محراب المسجد الكاين (الكائن) بسوق الخياطين من بلد الجزائر (الجزائر).....اليهود أسفل سوق السمن و بسكة غير نافذة...¹.
 أما النوع الثالث فهي الحوانيت التي تقام على طول الشوارع و الطرقات و بالأحياء، و كان الهدف منها تنظيم التجارة داخل المدينة و كذلك توفير السلع الأساسية و أنواع الحرف الصنائع التي لا تضر بسكان الحي بالمدينة الإسلامية.

كانت الحوانيت تنتشر في أحياء مدينة "تلمسان"، و من الأمثلة على ذلك ما ذكره "ابن مرزوق" بقوله: "... و كان يتعيش من الخياطة، و كانت له حانوت يجلس فيها للخياطة، بموضعهم المعروف الآن بالقبابين "بتلمسان"²، أما في مدينة "الجزائر" فنجد الحوانيت المشيدة، التي تنتظم على طول جانبي الطريق الواحد و تحتص بحرفة واحدة، و قد يأخذ الطريق اسم مثل سوق "الخضارين" و سوق "الصياغ" و سوق "الخراطين"، و يغلب على هذه الحوانيت البساطة في تخطيطها، حيث كانت بنايات ذات طابق أرضي و غرفة صغيرة، و هي شبيهة بالحوانيت الموجودة بالمدن المغربية، و مدينة "تلمسان" كذلك، و يشكل هذا التخطيط أغلب الأسواق بمدينة "الجزائر"³.

كما عرفت مدينة "الجزائر" نوع آخر من الأسواق عرف باسم البازار و يدعى أحيانا بالفندق مثل فندق المحتسب و فندق "يان مسلمان" و فندق "كشاوى" و فندق الزرع، و أشهر بناء بهذا النمط هو القيصيرية التي تتوسط المدينة، و هي عبارة عن سوق مغطى يضم مجموعة من الحوانيت متخصصة في نوع واحد من السلع أو متعددة الأنشطة التجارية، و تتكون من طابق واحد أرضي، كما نجد بعضها يتكون من طابقين جعلت على الطابق العلوي غرف للتجار الوافدين للمدينة لذلك كان يطلق عليها اسم الفنادق.⁴

و هذه الحوانيت عادة ما تكون موقوفة على المساجد، أو المؤسسات ذات خدمة عمومية كالمدارس و البيمرستانات، هذا ما جعل الحكام يعنون بها و يرموها إذا اقتضت ذلك " الحمد لله هذه نسخة رسم مجلس ينقل هنا للحاجة إليه نص أوله الحمد لله بعد أن كان المعظم.....علي باشا

1 - الأرشيف الوطني الجزائري، مدينة الجزائر، رقم الوثيقة: العلبة 96 / 97 . (8).

2 - ابن مرزوق، المناقب....، ص180.

3 - مصطفى بن حموش، المدينة...، ص180.

4 - نفسه.

في التاريخ جدد بناء جميع الحوانيت التي كانت بسوق الدخان في القلسم قرب دار الإمارة العلية و تمم بناء جميعها و شيد منارها فصار عدد الحوانيت المذكورة نحوًا من الخمسين حانوتًا.....على أن يؤدي جميع كراءها مشاهرة لمن تعين حبس كل حانوت على حسب ما كانت عليه أولاً قبل تجديد البناء...."¹.

هدم الجنرال "كلوزيل" السفاح المهادم للحضارة العديد من أسواق مدينة "الجزائر" منها: محلات كانت تدعى القيصرية كانت تباع الكتب التي هي أدوات الحضارة، و التي تنير طرق الإنسان، و فيها كان يوجد النساخون، لأن الطباعة معدومة في إفريقيا، كذلك محلات كانت تدعى سوق "المقاييس" تصنع فيها الأساور من قرون الجواميس، و هي أساور جرت العادة أن تزين بها نساء العرب و القبائل أذرعهن، و كانت تشكل فرعا رئيسيا من فروع الصناعة في مدينة "الجزائر"، و تصدر إلى "تونس" و "طرابلس" و حتى إلى "مصر". و كانت المادة الأولية التي هي قرون الجواميس تشتري حمولات بأكملها، و كان أصحاب المصانع مندوبون مكلفون بشراء تلك المادة الأولية، وتوزيعها على كل المصانع حسب أهمية المؤسسة، و كان هذا الفرع من الصناعة يشغل عددا كبيرا من السواعد. و بعد تهديم هذه المحلات أصبح كل هؤلاء العمال بدون مورد و اضطروا إلى التسول.

و هدم نفس الجنرال محلات تدعى سوق الصباغين، كان العرب و البدو يتعمدون الجيء إلى مدينة "الجزائر" ليصبغوا فيها كل ما لديهم من قماش، و كانت هذه الصناعة هامة. ووقع تهديم محلات أخرى تسمى "الفرارية"، و هي خاصة بجميع أنواع الأدوات الحديدية المصقولة مثل الأقفال و صفائحها و أنابيب البنادق، و لم يترك إلا حوالي ثمانية حوانيت معزولة. و هدمت أيضا مصانع الحرير، و كانت صناعة الحرير من أهم الصناعات بمدينة "الجزائر". لقد كانت حمولات المراكب من الحرير تأتي من "بيروت" أو "إزمير" فتصنع منها الأقمشة و غيرها من المواد الأخرى، ثم تصدر إلى "المغرب" و "تونس" و "طرابلس" و "تركيا" و "مصر"، و حتى إلى "سوريا".

كما كان بمدينة "الجزائر" محلات أخرى تسمى "السوق الكبير" كان يباع فيها الكتان و الملابس المنسوجة، و تصنع فيها الحبال الحريرية و الفتائل و الأزرار. لقد قام الجنرال "كلوزيل" بتهديم جزء من هذه المحلات، و ما تبقى أكمله الدوق "دوروفيكو"².

1 - الأرشيف الوطني الجزائري، مدينة الجزائر، رقم الوثيقة: العلية 14 / 2. (33).

2 - حمدان من عثمان خوجه، المصدر السابق، ص 246.

خضعت الحوانيت في تنظيمها و لا جرم في ذلك للفكر الإسلامي العمراني القائم على قاعدة لا ضرر و لا ضرار. و من الأمور التي تطرق إليها التشريع الإسلامي في ذلك هي الحوانيت التي تفتح في الأحياء و الدروب، حيث سئل في ذلك "ابن الحاج" عمن فتح حانوتا قبالة باب دار لرجل آخر و أنه يطلع منه على أسطوانة الدار. فأجاب: " تأملت السؤال، الواجب أن يؤمر باني الحوانيت أن ينكب عن قبالة جاره لأن ضرر الحوانيت أشد و قد نهى الرسول صلى الله عليه و سلم عن الضرر. قيل هذا حكم القاضي "ابن عبد الرفيع" في رجل أحدث حانوتا ففتح بابه للقبلة في شارع يمر فيه من المشرق إلى المغرب على يمين الداخل إليها فشكا صاحبها ضرر الحانوت فتداعيا إلى القاضي "ابن عبد الرفيع" فشهدت عنده بينة أن الجالس في الحانوت لا يرى ما يكون في السقيفة و إنما يرى من يكون بين أبواب الدار إذا مر خارجا. فحكم بينهما بإفاد الحانوت.¹

و من ملاحق الحوانيت نجد الدكاكين التي يجلس عليها التاجر أو يضع عليها سلعته، أو يتخذها كدرج يصعد من خلالها إلى حانوته، و نجد هذا العنصر في حوانيت مدينتي "تلمسان" و "الجزائر. (اللوحة رقم: 69)، و يبدو أنها أصيلة في الحوانيت التي تبنى في المدن الإسلامية، حيث نجدها في حوانيت المدن المغربية، و قد أمر الفقهاء بعدم تضيق على المارة بنائها أو اغتصاب من اتساع الطريق²، و سئل في ذلك "ابن أبي الدنيا" عن دكاكين التي تكون بين أيدي الحوانيت في بعض الأسواق و ربما أضر بالمارين و ضيق عليهم عند اضطرار الأعمال و كثرة الناس و لهم على ذلك سنون طويلة و ربما نهام بعض القضاة و هدم عليهم ذلك و عمد رجل منهم إلى بعض تلك الدكاكين و بنى عليها و حازها بالغلق و جعلها بيتا فصار يكرى البيت و علوها، فما ترى في هذه الدكاكين و في مثل ما بنى عليها و ما أخذ من كرائها و في حوزها هذه المدة الطويلة؟ (الشكل رقم 4،5،6،7) فأجاب: " ما أضر بالمارين فلا خلاف في هدمه و زواله حتى لا يبقى له رسم.... و لا تنفع الحيازة على العامة و في الطريق الواسع أختلف هل يمنع أو يباح، و قد هدم "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه كبير الحداد و قال: تضيقون على الناس الطريق. و قال "مطرف": يمنع و

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص454.

2 - يقول محمد العقباني: " و من ذلك بناء الدكاكين بين أيدي الحوانيت في بعض الأسواق و ربما يضر بالمارين و يضيق عليهم عند اصطدام الأحمال و كثرة الناس فقال في "جامع الأحكام" لا خلاف في هدمه إذا أضر بالمارة و زواله إذا ضيق حتى لا يبقى له رسم...". للمزيد من التفاصيل أنظر: - العقباني، المصدر السابق، ص68.

لو كان مثل البيداء و هو الصواب، و إنما يكون بالفناء مقاعد للبيع و الحاجة، و عن بعض أهل العلم إن طال جلوسه للبيع فيه أزيل منه...¹.

كان للحكام و الأمراء دورا كبير في تنظيم و تسير الأسواق، و ذلك بتعين من يشرف عليها، و ارتبطت هذه الوظيفة منذ الفترة الإسلامية المبكرة بالقاضي الذي كان يعمل تحت سلطته والي السوق أو المحتسب، و من مهامه ما ذكر "يحيى بن عمر" بقول: "ينبغي للوالي الذي يتحرى العدل أن ينظر في أسواق رعيته، و يأمر أوثق من يعرف ببلده أن يتعاهد السوق و يعير على أهله صنجاتهم و موازينهم و موازينهم و مكاييلهم كلها. فمن وجده قد غير من ذلك شيئا عاقبه على قدر ما يرى من بدعته و أفتياته على الوالي ثم أخرجته من السوق حتى تظهر منه التوبة و الإنابة إلى الخير... و لا يغفل النظر إن ظهر في سوقهم دراهم مبهرجة أو مخلوطة بالنحاس و أن يشدد فيها و يبحث عن أحدثها."².

لقد خضعت الأسواق في المدن الإسلامية لقاعدة "الأمر بالمعروف و النهي على المنكر" لذلك أشارت كتب الحسبة إليها و أفردت الكثير من النصوص التي تنظم العمل بالسوق و أماكن توضع التجار و نوعية السلع و صلاحيتها، و كل ما يضر بالسكان من أوساخ و بقايا السلع حفاظا على صحتهم. و من بين كتب الحسبة التي تكلمت عن دور المحتسب في تنظيم شؤون الأسواق نجد "ابن الأخوة" حيث أشار إلى ذلك في كتابه من الباب الثامن إلى غاية الباب التاسع و الستون، و يذكر في الباب الثامن الحسبة على منكرات الأسواق بقوله: "أما الطرقات الضيقة فلا يجوز لأحد في السوق الجلوس فيها و لا إخراج مصطبته الدكان عن سمت أركان السقايف إلى الممر لأنه عدوان و يضيق على المارة، فيجب على المحتسب إزالته..."³. كما يذكر "الجرسيفي" العلاقة الموجودة بين الشوارع و الطرقات و أسواق من خلال ذكره لمهام المحتسب في ذلك بقوله: "و يجب عليه النظر في الشوارع المسلمين و أسواقهم، فيما ينجسها أو يوعرها أو يظلمها أو يضيقها، كالأجنحة

1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص455.

2 - يحيى بن عمر، المصدر السابق، ص 31.

3 - ابن الأخوة، المخطوط السابق، ص21.

و ساباتات، و البيع في الطرق، لما في ذلك من تضيق شوارع المسلمين...¹. و الجدول التالي يوضح أسماء الفضاءات التجارية في مدينة "الجزائر"²:

الكوشات (المخابز)	الأسواق	الفنادق
كوشة مقابلة لفندق العزارة	سوق السمّن	فندق باب عزون
كوشة سويقة عمور	رحبة الزرع	فندق المراجني
كوشة باب البحر	سويقة عمور	فندق باب الوادي
كوشة وريدة	سوق الجمعة	فندق العزارة
كوشة وقيد باب الجديد	سوق القبائل	فندق يكي مسلمان
كوشة زنقة الجيجلية	سوق الحاشية	فندق الزيت
كوشة كشاوه	سوق الدكير	فندق الحبس
كوشة حمام مالح	سوق اللوح	الحمامات
كوشة حمام طاق	سوق التماقين	حمام الصغير
كوشة الناصري	سوق العطارين	حمام طاق طاق
كوشة بورعدة	سوق البابوجية	حمام مالح
كوشة دار سنتي	سوق الحوت	حمام باب الوادي
كوشة دروج سويقة عمور	سوق الكتان	حمام الجنيبة
كوشة حمام الصغير	دار اللحم	حمام القصبية
	المقاهي	حمام القرون
	مقهى الكبيرة	حمام الفوطه
		حمام السبوعة

2 - 4 - الفنادق:

أهل موقع مدينة "تلمسان" الإستراتيجي أن تكون مقصدا للعلماء و طلبة العلم و التجار و النازحين من القرى و الأرياف القريبة منها، و من أجل ذلك بات من الضروري أن يتوفر بالمدينة

1 - الجرسيفي، المصدر السابق، ص 122.

2- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص، 338.

أماكن للإقامة اتخذت تسميات عديدة أشهر منها مصطلح الفندق¹. و يقول في ذلك "حسن الوزان": " و فيها فنادق على النمط الإفريقي، منها اثنان لمقام تجار "جنوه" و "البندقية"..."². تتميز الفنادق الزبانية في مدينة "تلمسان" بمدخل مستقيمة غير منكسرة على خلاف ما نجده في المساكن، و من خلالها نصل إلى السقيفة و الحوانيت، و تفصلهما أروقة مسقوفة التي تحوفا بها الحوانيت، و هي على مستويين السفلي و العلوي، حيث الرواق السفلي لا يحيط كلية بالساحة المركزية، و تتوزع به المرافق المعيشية و الصحية، كالحفنية و صهريج الماء، و السلم. كما تحتوي الفنادق الزبانية بمدينة "تلمسان" على صحن يتوسط المبنى، و هي مساحة مكشوفة عادة مربعة الشكل، و هي المصدر الرئيسي للإضاءة و التهوية لجوانب الفندق و حجره. و يتم بهذا الصحن إنزال السلع و عرضها و بتالي تقام به العمليات التجارية، كما تتوفر به عين أو صهريج لسقاية الوافدين و دوابهم³. كما يحتوي الفندق على غرف، و قد أستعملت لوضع المعدات الحرفية، أو لإقامة التجار الوافدين من مختلف المناطق، و من أهم هذه الفنادق نجد فندق المامي، و فندق أبو علي⁴ (المخطط رقم: 9،10).

أما بمدينة "الجزائر" فقد كان بها سبعة فنادق و هي: فندق "باب عزون"، و فندق "المراجني"، و فندق "باب الوادي"، و فندق "العزارة"، و فندق "يكي مسلمان"، و فندق "الزيت"، و فندق "المحتسب"⁵، كما ارتبط بعضها بالتجارة لوجود في طابقها السفلي حوانيت مخصص لبيع السلع و لذلك كان يطلق عليها اسم "البازار"، مثل الفندق الصغير الذي كان يتكون من ستة حوانيت في

1 - الفندق مشتق من كلمة باندوكيوم باليونانية، و يطلق عليه بالمشرق الإسلامي بالخانة، و ظهرت كلمة فندق لأول مرة في الكتابة التذكارية التي تعلقوا باب فندق العروش الذي بناه صلاح الدين الأيوبي سنة 557هـ/1175م بالقرب من مدينة القطبية. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عمر بلوط، فنادق مدينة تلمسان الزبانية دراسة أثرية، مؤسسة الضحى للنشر، الجزائر، 2011م، ص139.

2 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص20.

3 - تركت بعض النصوص التاريخية أسماء هذه الفنادق بمدينة تلمسان منها: فندق المامي، و فندق، أبو علي. للمزيد من التفاصيل أنظر: - فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزباني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002م، ج1، ص136.

4 - للمزيد من التفاصيل حول الوصف المعماري، و العناصر المعمارية للفنادق أنظر: - عمر بلوط، المرجع السابق، ص105.

5 - أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص، 338.

الطابق السفلي و غرف أعلاه، و فندق خارج المدينة من ناحية باب "عزون"، كما نجد أن بعض هذه الفنادق كانت تخصص مداخل بعض الغرف و الحوانيت لمؤسسة الحبس بمدينة الجزائر مثل ما كان عليه في فندق "القبائل" و فندق "المحتسب" و فندق "ياني مسلمان".¹

و يبدو من خلال المصادر التاريخية أن موقع فنادق مدينتي "تلمسان" و "الجزائر" تبين أنها كانت تقع على الشوارع الرئيسية، أو الطرق الواسعة النافذة، أو خارج أبوابها الرئيسية، أما في الطرق غير النافذة و الضيقة فيبدو أنها لم تقم عليها بسبب الضرر التي تلحقه بالسكان جراء الدخول و الخروج الذي يحدثه الغرباء، و هذا ما ذهب إليه "أحمد بن المكوي" لما سئل عن زنقة ضيقة فيها ثلاثة أبواب من الدور فبنى أحدهم في داره فندقا عظيما، و بنى الثاني أيضا في داره فندقا أقل من هذا الأول، و ليس بين أبواب الفندقين و الدار الثالثة إلا نحو من ثلاثة أذرع، و ليس في البلدة غير هذه، فمن حيث ما أتت الرفقاء و المسافرون قصدوا إلى هذين الفندقين من شدة عمارتها و جلوس الناس عند أبوابها و تضيق الرفاق في الخروج و الدخول بطل سكنى الدار الثالثة لكنه ينتفع بها لغير هذا، هل يجب لصاحب الدار أن يقوم على صاحبيه و يمنعهما مما أحدثا من الضرر، إذ الدخلة و الخرجة مشتركة بينهما أم لا؟ فأجاب: " له القيام إذا كان الضرر كما ذكرت إذا لم يمض من ذلك الأمد ما تكون فيه الحياة إلى مثله و هو ساكت لا يغير، فيلزمه و لا قيام له بعد ذلك إذا لم يكن لذلك إلا الأمد اليسير لا تكون له حياة في مثله حلف ما سوغ له ذلك إلى الأبد ثم قضى له بالضرر".²

2 - 5 - المنشآت المائية:

جعل الله تعالى الماء أصل الحياة و منشأها، إذ به يسقى الناس و الأنعام و تحي الأرض بعد موتها، و يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾³، و هو إلى وظيفته الحيوية مطهر⁴ للبدن و اللباس من الأوساخ و مفتاح لولوج باب العبادة على أتم هيئة و أنسب حال.⁵

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - مصطفى بن حموش، المدينة...، ص181.

2 - الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص41.

3 - سورة الأنبياء، الآية رقم30.

4 - ماء الأمطار طاهر في نفسه مطهر لغيره. للمزيد من التفاصيل أنظر: - العويشة، المرجع السابق، ج1، ص12.

5 - حرص الإسلام أشد الحرص و أقواه على منع تلوث المياه بتدابير وقائية صارمة تنطوي على إعجاز علمي باهر، و ترشيد اقتصادي محكم، وكيف لا و الهدى النبوي موجه في كل مجال سبل الخير و طرق الأمان، و يمكن تلخيص هدي النبي صلى الله عليه و سلم فيما يلي:

ولما كان للماء هذا الدور الإحيائي التعميري في حياة الإنسان، فقد جعله الله تعالى حقا شائعا بين البشر جميعا، و حق الانتفاع مكفول للجميع بلا احتكار و لا إفساد و لا تعطيل، ويقول الله تعالى في ذلك: ﴿ وَ نَبَّأَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾¹، و عن "ابن عمر" رضي الله عنهما قال: " المسلمون شركاء في ثلاثة: في الكأ، و الماء و النار"². و الأصل في قسمة الماء أن يعين المقدار بناء على معرفة الماء الجاري، فإذا كان حدوديا متاخما فإنه يقسم بالعدل و التساوي، و إذا كان تعايقيا فإن "أبا حنيفة"³ رحمه الله أفتى فيه فقال: " و إذا كان النهر بين قوم و اختصموا في الشرب كان الشرب بينهم على قدر أراضيهم، لأن المقصود الانتفاع بسقيها، فيتقدر بقدره، فإن كان الأعلى منهم لا يشرب حتى يسكر⁴ النهر لم يكن له ذلك لما فيه من إبطال حق الباقين، و لكنه يشرب بحصته. فإن تراضوا على أن يسكر الأعلى النهر حتى يشرب بحصته أو اصطلحوا على أن يسكر كل رجل منهم في نوبته جاز، لأن الحق له. إلا أنه إذا تمكن من ذلك بلوح لا يسكر بما ينكبس به النهر، من غير تراض، لكونه إضرارا بهم"⁵.

- تنظيم استعمال الأيدي.

- تغطية الإناء.

- النهي عن التنفس في الإناء أثناء الشرب.

- النهي عن الشرب من فم السقاء.

- نهي المستيقظ عن إدخال يده في الإناء قبل غسلها.

- النهي عن البول في الماء الراكد.

- النهي عن البراز في موارد المياه.

- للمزيد من التفاصيل أنظر: - قطب الريسوني، المرجع السابق، ص76.

1 - سورة القمر، الآية رقم 28.

2 - قطب الريسوني، المرجع السابق، ص72.

3 - نفسه

4 - سَكَرَ النَّهْرُ يسكره سكرًا: سدّ فاه، و الماء السَّاكِرُ السَّاكِنُ الذي لا يجري. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور،

المصدر السابق، ص462.

5 - إنَّ الاقتصاد في استعمال الماء مطلب شرعي تمليه ضوابط الإسلام في التعامل مع الموارد، و مقابلة النعم بالشكر اللائق بها،

و قد تحمينا عن الإسراف في كل شيء و تجاوز الحد في الاستهلاك، حتى لا تضيع الثروات هباء، و تحدر النعم فيما لا حاجة إليه

و غناء فيه، و يقول الله تعالى في ذلك: ﴿ يَبْنِي أُمَّةً خَتَلُوا زِينَتَهُمْ مِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كَلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا

يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (سورة الأعراف، الآية رقم 31)، و حرصا على صيانة الطاقة المائية و استثمارها في الوجوه المشروعة حدّد

2 - 5 - 1 - المنشآت المائية بمدنيتي تلمسان و الجزائر:

يبدو أن مدينة "الجزائر" لم يكن لديها نظاما للتزويد بالمياه قبل دخولها تحت راية الخلافة الإسلامية، حيث لم تشر المصادر الجغرافية التي تكلمت عن المدينة في الفترة الوسيطة، إذ أشارت إلى العيون و الأنهار التي كانت فيها، و أشار في ذلك ابن "حوقل" بقوله: " وجزائر بني مزغناي مدينة عليها سيف البحر أيضا و فيها أسواق كثيرة، و لها عيون على البحر طيبة و شرهم منها...."¹. و يذكر "البكري" من مؤرخي القرن الخامس للهجرة: "... و مرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليه أهل السفن من إفريقية و الأندلس و غيرها...."².

أما "حسن الوزان" الذي زار المدينة في أوائل القرن العاشر للهجرة القرن السادس عشر للميلاد (916هـ / 1510م) أي بداية التواجد العثماني "بالجزائر" فيقول: "...و يمر قرب المدينة من الجهة الشرقية نهر نصب عليه طاحونات، و يزود السكان بالماء للشرب ولأغراض أخرى،...."³، و يبدو أن "حسن الوزان" قد أخطأ في تعيين موقع هذا النهر، حيث أن النهر الذي يقصده هو "واد المغاسيل" و هو بالجهة الغربية للمدينة، حيث كان السكان يستعملونه للشرب و لغسل ملابسهم و لأغراض أخرى كما ذكر هذا المؤرخ، و كان دائم الجريان يصب في البحر و كانت ترسو السفن على المقربة منه.

أما في الفترة العثمانية فإن المدينة أصبح لها نظاما محكما يفر لها تزود بالمياه، و أولى الحكام عناية خاصة لهذه المسألة، و بعد مضي أقل من قرن من دخول "الجزائر" تحت ظل الخلافة العثمانية قام العثمانيون بتشييد شبة من القنوات في المدينة التي تحصل على مياهها من الساحل "الجزائر". و تعتبر "تلملي" هي أقدم هذه القنوات و قام بتشييدها "حسن بابا بن خير الدين باشا" حوالي سنة

الشرع قدر الماء في الغسل و الوضوء حيث يروي الإمام "البخاري" حديثا في هذا الباب يتبين فيه حرص الرسول صلى الله عليه و سلم على المحافظة على الثروة المائية، و لم يرتبط ذلك بالبيئة التي كان عليه الصلاة و السلام يعيش فيها، إذ هو تشريع و هدي نبوي صالح لكل زمان و مكان " حدّثنا "أبو نعيم" قال: حدّثنا "مسعر" قال: حدّثني "ابن جابر" قال: سمعت أنسا يقول: كان النبي صلى الله عليه و سلم يغسل، أو كان يغتسل بالصّاع إلى خمسة أمداد و يتوضّأ بالمد". للمزيد من التفاصيل حول هذه الأحاديث أنظر: - البخاري، الجامع...، ص52.

1- ابن حوقل، المصدر السابق، ص68.

2 - أبو عبيد البكري، المصدر السابق، ص 66.

3 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 38.

(957هـ / 1550م)، و تبدأ هذه القناة من المنابع الواقعة بالقرب مما سمي في ما بعد "بمصطفى الكبير" بالقرب من قصر "مصطفى باشا" الصيفي، و يبلغ طولها 3800م، و يصل مجرى القناة إلى المدينة عن طريق "باب الجديد" بمعدل تدفق حوالي 561 ألف متر يوميا، و توزع على 29 سبيلا على القلعة الجديدة (التحتانية)، والتي شيدت قبل سنة (982هـ / 1574م) في المكان الذي يسمى "بالجنينة"، أما قناة "بيرتيريا" أسفل حي "الأبيار" فقد قام "عرب أحمد باشا" بتشييدها في عام (1167هـ / 1753م)، و هي تبدأ من "فري فالون" (Frais Vallon) و يبلغ طولها 1700م، و هي مخصص للجهة الشمالية للمدينة، و قد فقد فعاليتها بسبب سوء الصيانة و تدهورها في ما بعد. أما قناة "الحامة" فقد شيدت سنة (1120هـ / 1611م) على يد المهندس الأندلسي "الأسطى موسى" في عهد "كوسه مصطفى باشا"، و يتم تزويد هذه القناة من منابع الحامة، ثم تدخل إلى مدينة "الجزائر" عبر "باب عزون"، و يبلغ تدفق مياهها بمعدل 777 ألف و 600 لتر يوميا، و تغذي 29 سبيلا و عدة ثكنات، أما الأكثر حداثة و الأكثر طولاً من بين جميع هذه المشروعات و التي يعتقد أنها شيدت في منتصف الثني عشر للهجرة القرن الثامن عشر للميلاد فهي قناة "عين الزبودجة"، و التي كانت تحصل على المياه من المنابع الصناعية في هضبة "بن عكنون"، و قد زودت هذه القناة بمشروبات مهمة مثل تصريف المياه سطحيا، و أجهزة تخزين قطرات الماء و المرشحات، و يزيد طولها على 9 كلم¹ ثم تتصل بقنوات فرعية يبلغ طولها 3 كلم، الأمر الذل تطلب تنفيذ مشروعات ضخمة مثل المرور عبر أنفاق و اجتياز الوديان، و تصل هذه القناة إلى المدينة و تغذي 14 سبيلا بالمياه، و يبلغ معدل تدفق مياهها حوالي 734 ألف و 400م يوميا، و الجدول التالي يوضح أسماء هذه القنوات مع تاريخ إنشائها²:

اسم القناة.	تاريخ الإنشاء	مصدر المياه.	طول القناة.	سعة القناة	اتجاه مياه.
تلملي.	بنيت ما بين 1544م و	الينابيع تقع أسف	5000م.	من 6 إلى	باب الجديد.

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - أندري رمون، المرجع السابق، ص121.

2 - Cherif Seffadj nabila, **Les bains d'Alger durant la période ottomane (XVIe - XIXe siècle) histoire, topographie et étude urbaine**, docteur de l'université Paris IV histoire de l'art, Sorbonne, Paris, France, 2005, p696.

	7 لتر في الثانية.		برج الإمبراطور.	سنة 1550 م من قبل "حسن باشا بن خير الدين" و زاد في طولها "جعفر باشا" سنة 1580م.	
بيرتيريا.	من 1 إلى 4.6 لتر في الثانية.	3000م.	ينابيع بئر تراريا من الجهة الغربية للمدينة.	بنيت سنة 1573 من طرف "عرب أحمد باشا"	باب الوادي.
الحامة.	9 لتر في الثانية.	5000م.	ينابيع هضبة الحامة.	بنيت سنة 1573 من طرف "عرب أحمد باشا"	باب عزون.
عين الزبودجة.	من 8 إلى 9 لتر في الثانية.	10000م.	ينابيع "بن عكنون" و ينابيع "حيدرة" التي تتصل بوادي كنيس و وادي الكرمة.	بنيت من طرف "شريف خوجه باشا" سنة 1619م.	القلعة ثم تمر على باب القصبة إلى المدينة.

بالإضافة إلى هذه المنشآت زودت المدينة بالمياه التي تحبب من مرتفعات "بوزريعة" و "القصبة" في اتجاه البحر، و بصفة خاصة مياه المجتمعة في الينابيع داخل المدينة، كما أمرت السلطة السكان و إلزامهم بإصلاح صهاريج المياه في بيوتهم، و ذلك لتأمين المدينة في حالة حدوث حصار أو زلزال يؤدي إلى قطع مياه القنوات كما حدث في سنتي (1129هـ / 1716م)، و(1169هـ / 1755م).¹

و تقول التقديرات أنه حوالي سنة (1246هـ / 1830م) كان يوجد في مدينة "الجزائر" 1100 صهريج في 200 بيت، و يسع الصهريج في المتوسط 70 مترا مكعبا، و يمكن ملؤه من مياه الأمطار، بحيث اصحاب البيوت ذات الصهاريج الكبيرة و الجيدة كانوا يحصلون على مياه كافية للاستخدام العادي للأسرة خلال فصل الأمطار.

كانت الدولة تشرف على عملية تشييد القنوات و الأسبلة و صيانتها و توزيع المياه على السكان في مدينة "الجزائر"، و كان سكان مدينة "الجزائر" يقدمون أوقافا تخصص إيراداتها لصيانة

1 - أندري زيمون، المرجع السابق ، ص122.

الأسبلة و القنوات، و يشرف على هذه العملية قائد أو "خوجة الأعين" و يسمى كذلك "ناظر الأعين" الذي يهتم بجمع ما يتعلق بتموين المياه و يسير أموال الأوقاف المخصص لهذا الغرض¹. و كان توزيع المياه يتم بواسطة الأسبلة العامة (اللوحة رقم:30) المتصلة بالقنوات الرئيسية عن طريق شبكة معقدة من قنوات مصنوعة من الفخار المقامة تحت الأرض أو في العراء و التي تحتاج لإصلاح دائم بسبب سهولة كسرها، و قد تم تشييد عدد كبير منها في القرنين السابع عشر و الثامن عشر للميلاد من قبل حكام المدينة من الباشاوات و الدايات²، و ذلك طلبا لراحة السكان، و كذلك رجاء و طلبا للمثوبة و رضا الله. و كان عدد الأسبلة كبيرا فقد بلغ مائة سبيل على الأقل، و أحصت من ذلك الأستاذة " شريف صفاجي نبيلة" تسعون عينا من خلال الأرشيف العثماني في "فرنسا"، و قدمتها في رسالة الدكتوراه الموسومة " حمامات " الجزائر" في الفترة العثمانية خلال القرنين السادس عشر و التاسع عشر للميلاد، و بحكم أنّ هذه الرسالة غير متوفرة في المكتبات الوطنية³ ارتأيت نقل هذه الجداول⁴ عنها لتمكين الباحثين في الآثار و التاريخ من التعرف على هذه المنشآت:

الاسم	الموقع	التاريخ المنشأة
عين باب الوادي.	بمين باب الوادي على حائط دار النحاس.	كانت موجودة سنة 1706م.
بدون اسم.	على تقاطع شارع سيدي فرج مع طريق غير نافذ.	هدمت من طرف الجيش الفرنسي.
عين الشارع.	على الحائط الشمالي لمسجد "علي بتشين".	1032هـ/1622م.
عين سوق الشماعين.	قرب مسجد الشماعين على شارع باب الوادي.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين جامع الأخضر.	قرب جامع الأخضر على شارع الأخضر.	1231هـ/1815م.
بدون إسم.	شارع بربروس على جدار حمام "سيدي رمضان".	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين قاطع الرّجل.	شارع بربروس، و تطل على شارع قاطع الرّجل.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين سيدي رمضان	على شارع سيدي "رمضان". ملاصقة للمسجده.	قبل التواجد العثماني.
عين زنقة لالاهم.	شارع القصبه من طريق جامع "علي بتشين".	تاريخ الإنشاء مجهول.
بدون اسم.	شارع التجارة.	تاريخ الإنشاء مجهول.

1 - نفسه

2 - De Fontaine De Resbecq.A., OP-cit , p145.

3 - زودني بهذه الرسالة الدكتور عبد العزيز لعرج جزاه الله عنا كل خير.

4 - Cherif Seffadj Nabila, OP-cit, p623.

الفصل الخامس:..... أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة المدنية و العسكرية.

عين "عبد الله عليج".	شارع القصبية ملاصقة لمسجد بئر الرومانية.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين بان الصبانية.	شارع القصبية.	تاريخ الإنشاء مجهول.
بدون اسم.	عند تقاطع شارع القصبية و طريق أنبال.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين حوانيت الزيان.	شارع القصبية على زاوية طريق تنبوكتو.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين الطحطاحة.	شارع القصبية أسفل القلعة.	يحيى بن مصطفى أغا 1234هـ/1818م
عين الجنينة.	على الساحة المقابلة لقصر الجنينة.	كانت موجودة سنة 1580م
عين سوق الجمعة.	شارع القنبينة.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين الحمراء.	شارع لبيونت.	كانت موجودة سنة 1073هـ/1662م
عين عقبة الشاوش.	شارع سوق الجماح.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين الجديدة.	شارع دارفور.	كانت موجود في القرن 10هـ/ 16م.
عين فرن الزناحي.	شارع سالوست (Salustre).	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين جامع المعلق.	شارع سالوست (Salustre) جامع المعلق.	الجامع كان موجود سنة 1036/1662م
عين كوشة "علي"	شارع ديسي (Desaix).	تاريخ الإنشاء مجهول.
بدون اسم.	شارع ديسي (Desaix).	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين أمام جامع المعلق	شارع رونالد (Regnard) مقابلة لجامع المعلق.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين المزوقة.	في مفترق الطرق القصبية و طريق أنيبال.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين "بن جاور علي".	شارع القديس فانسوا (Vincent De paul).	أنشئت سنة 1176هـ/1762م.
عين العطوش.	تقاطع شارع اسطاوالي و شارع سيدي عبد الله.	جامع عين العطوش كان موجود سنة 1105هـ/ 1693م
عين سيدي عبد الله.	شارع سيدي عبد الله ملاصقة للمسجد.	قبل الفترة العثمانية.
عين ساباط الذهب.	شارع الأهرام وبه حمام القائد "موسى".	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين بئر جباح.	شارع النخيل.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين القصبية.	شارع الغزال (Rue de la Gazelle).	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين "علي مدفع"	شارع الزرافة (Rue de la Girafe).	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين "ابن فارس"	زنقة "بن فارس" شارع كاتو (Caton).	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين المهاجلا.	شارع موت دابور (Mont Thabor).	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين زاوية محمد الشريف	شارع الإنكشارية في أعلى طريق الغربية.	تاريخ الإنشاء مجهول.
بدون اسم.	ملاصقة لزاوية زاوية محمد الشريف	تاريخ الإنشاء 848هـ/1542م.
عين حوانيت الغربية.	شارع الإنكشارية في أعلى طريق الغربية.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين الحجرة الزرقة.	شارع الانتصار.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين باب الجديد	شارع الانتصار ملاصقة لباب الجديد.	تاريخ الإنشاء مجهول.

الفصل الخامس:..... أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة المدنية و العسكرية.

هدمت من طرف الجيش الفرنسي.	شارع باب الجديد	بدون اسم.
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع باب الجديد أعلى طريق بن عاشر	عين سوق الكتان.
كانت موجودة سنة 926هـ/1519م.	شارع باب الجديد مقابلة طريق غرناطة.	عين الشاه حسين
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع باب الجديد مقابلة لطريق (Damfreville).	عين الحمامات
المسجد بني سنة 1089هـ/1678م.	شارع عبد الرحمن مقابلة لمسجد عبد الرحيم.	بدون اسم.
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع شارل (Chartres).	عين بن الأغا.
اعاد ترميمها "علي باشا" سنة 1174هـ/1760م.	أسفل شارع ميدي (Médée) قرب الثكنة العسكرية.	عين دار الإنكشارية الجديدة.
بناها "علي باشا" سنة 1174هـ/1760م.	شارع ميدي (Médée) قرب مسجد "علي باشا".	عين سيدي لكحل
هدمت من طرف الجيش الفرنسي.	شارع ميدي (Médée) و على تقاطعه مع شارع نابليون.	بدون اسم.
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع نمورس (Nemours).	عين حمام الفويتاه.
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع نمورس (Nemours).	عين جامع البلاط.
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع السلسلة (Rue du chene) في سوق عمور.	عين الخراء.
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع التمور.	عين حوانيت بن رابح.
تاريخ الإنشاء مجهول، وربما تكون الأقدم بالمدينة.	شارع الساباط.	عين الساباط.
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع السلاوي.	عين حومة السلاوي
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع باب عزون بين بابي باب عزون.	عين فندق خوجة الخليل.
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع باب عزون بعد رحبة القمح في اتجاه باب الوادي.	عين سوق الصفارين.
المسجد أسس سنة 1005هـ/1596م.	شارع باب عزون قرب جامع "خيدر باشا".	عين جامع "خيدر باشا"
الزاوية كانت موجودة سنة 1038هـ/1629م.	شارع باب عزون قرب فندق العزارة.	عين زاوية تشاخيوم
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع البوزه بالقرب من حمام البوزه.	عين البوزه.
هدمت من طرف الجيش الفرنسي.	شارع القصر القديم الذي فتح في العهد الفرنسي بين شارع السودان و شارع الجنيينة.	بدون اسم.
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع بروس (Bruce) بين باب السوق و زاوية الشرفة بالقرب من دار "أحمد"	عين زنقة دار "أحمد".

الفصل الخامس:..... أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة المدنية و العسكرية.

عين باب السوق.	شارع السودان بالقرب من جبانة "علي باشا".	بنيت من قبل "علي خزناسي" سنة 1218هـ/1803م.
عين دار "حسان باشا".	شارع السودان قرب دار "حسان باشا".	دار حسان باشا بنيت سنة 1791م..
بدون اسم.	قرب دار الصوف.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين ساباط الديوان.	شارع الديوان.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين كتشاوه.	شارع الديوان و على زاوية طريق سركاجي (Boutin) حاليا.	بنيت من طرف "حسان باشا" سنة 1210هـ/1795م.
عين مسيد الدالية.	شارع ليزارلد (Rue du Lézard) بالقرب من مسيد الدالية.	كانت موجودة سنة 1072هـ/1661م، أما مسيد الدالية كان موجودا سنة 904هـ/1557م.
عين زاوية الأندلس.	شارع ليزارلد (Rue du Lézard) قرب زاوية الأندلسيين.	أعيد بنائها سنة 1162هـ/ 1748م من قبل الحاج "أحمد" موظف في دار المال.
عين سوق الجديد.	شارع يوبا في وسط ساحة السوق	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين الباشماقجية.	شارع الإسكافيين مقابلة لجامع الشاوش.	كانت موجودة سنة 1677م.
عين القيصرية (عين السلطان).	ساحة السلطة.	بنيت أو أعيد بنائها سنة 1176هـ/1762م..
عين الحقورة.	شارع "ماحون"	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين قاع السور.	شارع القوس بالقرب من البطارية رقم 3.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين القهوة الكبيرة.	شارع البحرية.	تاريخ الإنشاء مجهول.
بدون اسم.	شارع البحرية قرب الجامع الكبير.	هدمت من قبل الجيش الفرنسي.
عين جامع سيدي عبد الرحمان.	شارع شارل (Chartres) بالقرب من الحمام الصغير.	أعيد بنائها من قبل "علي خوجه" و كيل الخراج سنة 1207هـ/1792م.
عين زاوية جامع الأدهم.	شارع البحرية قرب الجامع الكبير، و زاوية جامع الأدهم.	زاوية جامع الأدهم بنيت سنة 1039هـ/1629م.
عين باب الدزيرة.	شارع البحرية قرب باب الدزيرة.	تاريخ الإنشاء مجهول.
بدون اسم.	شارع شارل (Chartres)	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين زاوية القشاش.	شارع القنصلية.	أعيد بنائها سنة 1176هـ/1762م.
عين بالقرب من قاع السور.	شارع 14 جوان بالقرب من شاطئ البحر.	خزان العين أعيد بنائه سنة 1177هـ/1764م من قبل "علي باشا".
عين الرحبة القديمة.	شارع الثورة بنيت في الساحة القديمة.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين الحمراء.	شارع فليب بالقرب باب الوادي و الدار الحمراء.	تاريخ الإنشاء مجهول.
عين "مراد قورصو"	شارع نافارين.	بنيت من طرف "مراد قورصو" (1037هـ -

1627م/ 1076هـ - 1656م).		
تاريخ الإنشاء مجهول.	على تقاطع شارع نافارين و شارع جون بارث.	عين الحمراء 2.
تاريخ الإنشاء مجهول.	شارع دوريا بالقرب من حمام المالح.	عين حمام المالح.
كانت موجودة سنة 1580م رمت من طرف الداوي "حسين" سنة 1235هـ/1819م.	خارج باب العين بالقرب من البحر.	بدون اسم.
أعيد ترميمها على يد علي باشا سنة 1178هـ/1764م.	بالقرب من بداية رصيف "خير الدين" بالقرب من محل وكيل الخراج لباب الدزيرة.	عين الأميرلية.
تاريخ الإنشاء مجهول.	بالقرب من البطارية رقم 5.	عين القلعة.

و كانت السلطة الحاكمة بمدينة "الجزائر" تسهر على راحة المواطنين و الوافدين إليها، حيث قامت بإنشاء المراحض العمومية، و هذا ليس بغريب على المدينة الإسلامية كون الرسول صلى الله عليه و سلم صاحب هذه الفكرة، حيث حدد عليه السلام عند دخوله إلى المدينة مواضع لقضاء الحاجات سميت **بالمناصع**¹، و يبدو ذلك كان من أجل المحافظة على نظافة شوارع المدينة، و كذلك يستعملها المصلون أوقات الصلاة لكون المساجد لم تكن مجهزة بمثل هذه المنشآت، و لم تسلم هذه المنشآت من يد التخريب الفرنسية التي ألقت العيش في وساحة القرون الوسطى في أوروبا².

2 - 6 - نظافة المدينة الإسلامية:

كانت صيانة الشوارع المدينة الإسلامية تطرح مشاكل متعددة و متباينة، و كان الاختلاف يكمن في نوعية الشوارع و الطرق، حيث الشوارع الموجودة في الأحياء الرئيسية و التي تتوزع فيها المنشآت و المؤسسات العمومية كالأسواق و المباني السكنية كانت عملية الصيانة و التنظيف صعبة و متكررة، أما في الأحياء السكنية التي لا يستخدم شوارعها سوى السكان المقيمون فيها فكانت أكثر نظافة و هذا راجعا للتعاون الذي كان بين سكان كل حي من المدينة. كما أن المشاكل تختلف في حالة الشوارع المتسعة نسبيا و جيدة التخطيط عنها في حالة الشوارع الضيقة و المتعرجة³.

ولم تكن مهمة تنظيف الأحياء و الطرق و الأفنية بالمدينة الإسلامية مقتصرة على الحاكم و من يفوضه بذلك، بل كانت هذه العملية مسؤولية الجميع، و يقول في ذلك الأستاذ "مصطفى بن حموش": "... و لطبيعة الطرقات المتعرجة و كثرة الطرق المسدودة خصوصا في القصبة العليا من

1 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 54.

2 - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 246.

3 - أندري ريمون، المرجع السابق، ص 111.

المدينة فإننا نتوقع أن جزءا من التنظيف كان يقع على عاتق سكان تلك الدروب، و يدفعنا إلى هذا الاعتقاد تلك العادة المعروفة في المدن الأخرى مثل "تونس" و "غرداية" و "تلمسان"، حيث كانت توضع عقود و أقواس على الشوارع تقسمه إلى فضاءات و تحدد مسؤولية الاعتناء بالشارع لكل ساكن.¹

و كانت عملية نقل الفضلات يقوم بها أشخاص مكلفون بذلك أو متطوعين مقابل أجر يأخذه من أصحاب المساكن، و يروى لنا "ابن الزيات" ذلك بقوله: "ومنهم أبو "علي بن العباس الصنهاجي" المعروف "بالحباك" ".... و كان يصيح عند أبواب الديار: من أنقل له الزبل و يعطيني ما أمكن...."².

وقد خضعت شوارع و أزقة مدينة "الجزائر" إلى تنظيم محكم و دقيق للغاية، و هو تحت الإشراف المباشر لقائد "الزبل" منذ سنة (1006هـ / 1597م)، و خضع بدوره لسلطة "الداي"، و يساعده في مهمته عدد من الموظفين، و في أواخر القرن السابع عشر أصبح لديه فريق مساعد يتكون ثلاثون شخصا مكلف بمهمة تنظيف شوارع المدينة. و كان النظامي يحرص على السكان لتطبيق الأوامر و ضوابط محددة منه.

وكان تنظيف المدينة عملية يومية، إذ يمر القائمون على ذلك في كل صباح بالبالغال أو الحمير على ظهرها الشواري، ثم يحملون ما جمعوه من القمامات إلى خارج المدينة حيث يتم تفرغها في موضع عرف في ما بعد ببرج "الزوية" حيث أنشأ سنة (1223هـ / 1808م) من طرف "مصطفى باشا" في الجهة الشمالية الغربية للمدينة على المقربة من "باب الواد".

و تميز النظام بالصرامة حيث فرض على السكان الالتزام بقواعد و ضوابط معينة مثل وضع القمامات في كوات أعدت لهذا الغرض خصيصا، وكان يسلط على كل متهاون عقوبات صارمة تختلف طبيعتها من غرامة مالية إلى عقوبة الجلد. و اكتست عملية تنظيف الشوارع بصورة منتظمة أهمية بالغة، و يبدو أنها أنيطت بالعنصر التركي دون سواه، و من بين الأسماء التي تولت هذه المهمة

1 - مصطفى بن حموش، المدينة...، ص32.

2 - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 436.

نجد "حسن التركي" حوالي سنة (1220هـ / 1805م)، وكذلك "خليل التركي جقباق" في سنة (1230هـ / 1814م).¹

و يقول في ذلك "أندري ريمون": " و يبدو أن نظافة المدينة كان أكثر إتقاناً في الجزائر حيث كان يوجد "قائد الزبل" و هو مكلف بنوع خاص بمراقبة النظافة، و كان على السكان أن يضعوا القمامة في فجوات خاصة داخل الجدران، ثم يمر كل صباح أناس يسوقون حميراً محملة بالقف و يقومون بتفريغ الفجوات و نقل القمامة خارج المدينة، و يتعرض المهملون من السكان لدفع الغرامات أو بضرهم بالعصا"²

3 - أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة العسكرية:

يمثل الأمن و الأمان قيمة أساسية لنشأة المجتمع الحضري المستقر، و يعكس ذلك بوضوح دعوة إبراهيم عليه السلام حين قدومه إلى البيت الحرام بهدف ترك أهله مقيمين ﴿... رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ...﴾³، فسبق الدعاء بالأمان الدعوة بطلب الرزق سبقاً يؤكد هذه الأهمية. و عكست نشأة المدينة أهمية التحصين لحماية و جودها و تنمية عمرانها، و أياً ما كانت أسباب النشأة، فإن التجارة لعبت دوراً أساسياً فيها، و كانت وراء تطور المدينة و نموها، و تضمنت التجارة في ثنائياها إمكان النهب و السلب، اللذين أوجب إنشاء تحصينات دفاعية تمكن من دفع الخطر⁴، و تنمية عمرانها و تجارتها⁵.

تشير الدراسات التاريخية أن منطقة الشرق الأدنى حوالي سنة 630 ق.م ظهرت بها ثكنات للجند بالإضافة إلى القلاع و التحصينات، و تدل تلك المنشآت على وجود فئة متخصصة من الجند وظيفتها حماية المدينة و المحافظة على أمنها، حيث كان الصراع كبير و عنيف بين الشعوب البحرية خاصة تلك التي تسكن في آسيا الصغرى و جزر بحر "الإيجا"، و المدن الفينيقية على سواحل "سوريا" و "فلسطين"، و حقيقة الصراع كان حضاري و تجاري، حيث عملت هذه الشعوب على السيطرة

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص113.

2 - أندري ريمون، المرجع السابق، ص111.

3 - سورة البقرة الآية 126.

4 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص121.

5 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص322.

على المناطق الحضارية و الطرق التجارية البحرية في البحر الأبيض المتوسط، لذلك كان من الضروري التفكير في تحصين المدن من خطر الغزو الخارجي. كما تشير الدراسات التاريخية أن المدن الإغريقية في بداية نشأتها خاصة على موجودة على سواحل البحر المتوسط في أسيا الصغرى قد عرفت بناء القلاع داخل المدن و تتوسط المدينة، و قد عرفت بإسم الأكروبوليس، حيث تتحصن به الساكنة في حالة أي هجوم بحري، و بداخله أنشأ المعبد، و كان ذلك حوالي 2500 ق.م.¹

و يبدو أن المدن التي ظهرت بعد الفترة الهيلينية تأثرت بالفلسفة الإغريقية في العمران، و من أهم ما يمكن أن نشير إليه هي المدن التي تأسست في ظل الإمبراطورية الرومانية سواء في الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، أو في ضفته الجنوبية، حيث ظهرت الإستحكامات العسكرية كان من أهمها الأسوار و القلاع و الأبراج و مراقد الجنود.

أما في شبه الجزيرة العربية قبل هجرة الرسول صلى الله عليه و سلم فتشير المصادر التاريخية أن القرى العربية كانت مزودة بنظام تحصيني و مسورة، و أقرب مثال على مدينة "يثرب" قبل الهجرة النبوية، حيث تذكر الدراسات التاريخية أن بالمدينة كانت توجد أكثر من خمسين "آطاما" عبارة عن أبراج أو قلاع تتحصن بها القبائل العربية و اليهودية في حالة النفي كما تحشر فيها المؤونة.²

و في الفترة الإسلامية كانت المنشآت العسكرية من اهتمامات الدولة ، حيث تعمل من خلال أمرائها أو حكامها على حماية المنشآت العسكرية و تقويتها و ترميمها خدمة لدين الله، و حماية للبلاد و ثغورها و لأمن لرعية، و لا جرم أن هذا الاهتمام كان في جميع المدن و الأمصار الإسلامية، حيث تشير المصادر الجغرافية التي تناولت العمران الإسلامي أن جميع المدن و القرى و في غالبيتها كانت مسورة تتخللها الأبواب و الأبراج.

و فضلا عن ذلك فإن تأمين السكان بعد تخطيط المدينة و بناء العمائر و المرافق و المساكن بها و حماية حياتهم و أموالهم ضرورة يقرها التشريع الإسلامي، و هي من مقاصد الشريعة، أوجبها على أولي الأمر و من بيده السلطان.³

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - فوزي الميكاوي، تاريخ العالم الإغريقي و حضارته، من أقدم العصور حتى عام 322 ق.م،

ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1400هـ / 1980م، ص60.

2 - أنظر مثلا: - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص46.

3 - عبد العزيز لعرج، مدينة المنصورة...، ص236.

فمنذ البداية أخذت المدن الإسلامية الناشئة مظهرها حربيا، فقد كانت بمثابة معسكرات حربية تفي بمتطلبات الجيوش الفاتحة، و كانت مراكز للانطلاق نحو فتوحات أخرى، و كانت إستراتيجية اختيار مواقع هذه المدن أن تكون على اتصال بري مباشر بمركز القيادة في المدينة المنورة، لا يفصلها عنها موانع مائية، و كانت هذه رؤية الخليفة "عمر بن الخطاب" الذي أكد على هذا الأمر في اختيار موقع مدينة "البصرة"، و "الكوفة"، و "الفسطاط". ثم اتبع هذا النهج في اختيار "عقبة بن نافع" موقع مدينة "القيروان"، فجعلها بعيدة عن البحر داخل الصحراء حتى لا تكون في مرمى الأساطيل المعادية و لا سيما أن المسلمين في هذا الوقت لم تكن لهم قوة بحرية ومعرفة بفنونه التي تمكنهم من الدفاع عن المدن الساحلية، و لكن بعد أن توفرت هذه القوة و أنشئت الأساطيل الإسلامية اختلف الاتجاه، فأنشئت المدن الساحلية، بل كان الاتجاه نحو إنشاء هذه النوعية من المدن، و من الأمثلة على ذلك المدن ما نجده بالمغرب الإسلامي و الأندلس و التي ازدهرت ازدهارا كبيرا يؤكد نجاح المسلمين في هذا التوجه.¹

تبدأ حماية وجود المدينة باختيار الموقع الطبيعي الحصين لها، و هي فكرة عسكرية تناولها علماء الإسلام ممن تناولوا العمران البشري مثلما ذكرنا سابقا، و أبرزهم في ذلك "عبد الرحمن بن خلدون بقوله: "... فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، و أن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل، و إما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إل بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو و يتضاعف امتناعها و حصنها..."².

تعود الإستحكامات العسكرية الموجودة بمدينة "تلمسان" الإسلامية زنيا من حيث تشييدها إلى الفترة المرابطية و الفترة الزيانية، بالإضافة إلى المنشآت العسكرية التي أقامها المرينيون بمدينة "المنصورة"، و ذلك راجعا للتوسع العمراني، و النمو الديموغرافي الذي عرفته المدينة منذ تأسيسها، ثم قاعدة لبلاد المغرب الأوسط في الفترة "الزيانية"، لذلك وجب إنشاء و تدعيم المدينة بالأسوار و الأبراج و القلاع حفاظا على أمن الرعية، و قد تأثر هذا الاهتمام كذلك بالظروف السياسية لدولة، حيث الصراعات المسلحة بين الدويلات القائمة بالمغرب الإسلامي، منها و خاصة التعدي

1 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص126.

2 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج2، ص 785، 786.

المتكرر للدولة "المرينية" على حدود و أراضي الدولة الزيانية، مما اضطرت هذه الأخيرة لتحسين مدينة "تلمسان"، مما جعل الجيش المريني يعجز مرارا على دخول المدينة، هذا ما جعل أبي "الحسن المريني" يؤسس مدينة جديدة سماها "المنصورة"¹ و حصنها و أحاطها بأسوار .

و من الأمثلة كذلك ما نجده في مدينة "الجزائر" من اهتمام بالغ من طرف الباب العالي، و حكام مدينة "الجزائر"، لتعرضها لاعتداء متواصل إبان الفترة "العثمانية" من طرف النصارى الأوروبيين منذ دخولها تحت لواء الخلافة العثمانية، مما وجب تقويتها ببناء الأسوار أو ترميمها و إحاطتها بالحنادق، كما وجب على الرعية الحفاظ على هذه المنشآت و عدم تمكين العدو منها، ولو كان عن غير قصد، و هذا ما يشير إليه الأمر السلطاني المبعوث إلى أمير أمراء مدينة "الجزائر" يأمره بهدم المباني و البساتين المحيطة بسور مدينة "الجزائر" و استعمال أفراد من جيش لتنفيذ ذلك الأمر: " بعث أمير الأمراء "الجزائر" أحمد دام إقباله بخطاب أشار فيه بسعيكم و اهتمامكم بتعمير قلعة "الجزائر" و بتطهير الحنادق، كذلك في سبيل الخدمات الهايمونية المتعلقة بحفظ و حراسة الولاية. و أكد علي بذلك النفس و النفيس في سبيل الدين و الدولة جزاكم الله خيرا. فلقد أظهرتم ما كان يرجى منكم، و إننا نأمر: بأن تعملوا جاهدين بعد الآن لحفظ و حراسة الولاية على وجه الذي يراه المشار إليه مناسبا لصيانة عرض دين سيد المرسلين المبين، وكذلك صيانة عرض سلطنتنا المقرونة بسعادتنا، فلا تضيعوا دقيقة واحدة في سبيل ذلك،... ولقد علمنا بوجود بعض الحداثق و البساتين بجوار قلعة "الجزائر"، و قد أرسل الأمر إلى أمير أمراء "الجزائر" لإزالة تلك الحداثق و البساتين و الأبنية على مرمى المدافع حيث أن حفظ و حراسة و محافظة تلك الديار الجليلة الاعتبار و تأمين أمن و أمان الأهالي هو غاية مقصودنا، فعليكم بموجب أمرنا القيام بتطهير و تنظيف أطراف القلعة من المباني و على مرمى المدافع كيلا تصبح تلك بمثابة متاريس للأعداء فيما إذا قدر الله لهم . و العياد بالله . الاستيلاء على المدينة"².

و لم تكن السلطة السياسية و العسكرية الوحيدة المهتمة بحماية المنشآت العسكرية بل حتى السلطة القضائية وجب عليها كذلك الإشراف على تطبيق الأوامر السلطانية و إعطائها الصيغة الشرعية، حيث في سنة 981/4/27 هـ / 1573م. صدر من الباب العالي أمرا سلطانيا مدعم

1 - للمزيد من التفاصيل حول مدينة المنصورة أنظر: - عبد العزيز لعرج، المنصورة...، ص5.

2 - الأرشيف الوطني الجزائري، مدينة الجزائر، مهمة دفترتي رقم (22) صحيفة (186 . 187) حكم رقم (360).

للحكم السلطاني رقم (360)، و أرسل إلى أمير الأمراء "الجزائر" و قاضي المدينة مفاده: " علمنا بوجود حدائق مكتظة و أبنية عالية محيطة بدار الجهاد . الجزائر . و بقلعتها، و نعوذ بالله، ففيما إذا هجم الأعداء . أصابهم الدمار . على المدينة فإن تلك المباني و الحدائق ستشكل متاريس محصنة لهم.....فأمرنا: حال وصوله، عليكم بتطهير و تنظيف الأماكن المحيطة بالقلعة المذكورة و التي تقع ضمن مرمى المدافع، فيجب إزالة الحدائق و البساتين المحيطة أيا كان أصحابها، كذلك عدم الإبقاء على شيء يمكن أن يصبح مترسا للأعداء اللثام فطهرا تلك الأماكن كما يجب...."¹.

و من خلال العناصر التالية سوف نذكر أهم التحصينات و المنشآت العسكرية التي وجدت بالمدينة الإسلامية، و كيف أثر الفقه الإسلامي في تخطيطها و دورها و التشجيع في بنائها؟

3-1 - الأسوار:

انطلاقا من أهمية الأمن الذي يتوفر بتحسين المدينة أعتبر السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن، و اعتبر الإسلام بناء الأسوار، والأبراج، القلاع، والحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض التي هي من مقاصد الإسلام. و من هنا صنفها الفقهاء تصنيفا يضعها في عداد البناء الواجب، و لاسيما إذا كانت الحاجة ملحة لاستخدامها في الدفاع عن حرمت المسلمين، و وقفت عليها الأوقاف لترميمها و تقويتها، و حكم الفقهاء بالتزام العامة في المشاركة في بنائها ما دامت.

لم تكن المدن التي أسسها المسلمون في بداية أمرهم أسوارا، حيث لم تكن الحاجة ملحة لإنشائها حول هذه المدن الأولى، و لاسيما أن دواعي الأمن و الأمان في أقاليم الدولة الإسلامية كانت متوفرة، كما أن سكان هذه المدن كانوا من الجند الفاتحين. و بدأ إنشاء الأسوار للمدن الإسلامية بعد ذلك لتحقيق أهدافا أمنية للقاطنين فيها، و اختلفت دواعي و أسباب إنشاء هذه الأسوار باختلاف أسباب إنشاء المدن و ظروف إنشائها، بالإضافة إلى اختلاف مواصفات مواقعها و موضعها. و من أولى المدن الإسلامية التي اهتم بتحسينها مدينة "واسط" التي اتبع في تخطيطها نهج يؤكد على أهمية تحصينها، فحفر لها خندق يحيط بأسوارها ووضعت في السور أبواب أربعة، يحكم

1- مصطفى بن حموش، فقه ...، ص 110.

غلقها و فتحها، تؤدي إلى أربعة شوارع رئيسية تنتهي إلى المسجد و دار الإمارة في قلب المدينة، و يبدو أن المدن الإسلامية بالشرق و المغرب الإسلامي سارت على هذا المنهج منذ تأسيسها¹. و نظرا للأهمية التي يلعبها السور في حماية المدينة الإسلامية، و جب على الرعية المحافظة عليه و ترميمه، و كان للفقهاء دورا كبيرا في ذلك من خلال الفتاوى التي تعرض على العامة من خلال النوازل التي تعرض عليهم، و المثال على ذلك مسألة وردت على "أبي عبد الله الحفار" عن نخلة عند السور قائمة لكن يخاف عند نزول العدو بالبلد أن يقطعوها فتهدم السور أو بعضه، فهل تقطع إذا خيف ذلك عند حلول العدو بالبلد؟ و كيف إن كانت داخل السور مائلة يخاف عليها الوقوع على السور فتهدمه هل تقطع أم لا؟ فأجاب: " متى غلب على ظنه السلامة بقيت، و إن غلب على ظنه الخوف قطعت و لو استوى الاحتمالان بقيت على حالها "².

كما أجاز العلماء للحكام و أمراء المدن الإسلامية نزع الملكيات من أصحابها و تعويضهم عن ذلك بقيمته الحقيقية، إذا خاف الحاكم غدرة العدو من جهتها، و سئل في ذلك "ابن الحاج" هل للإمام أن يجبر المالك على البيع إذا كان ملكه بقرب سور البلد؟ فأجاب: " للإمام أن يعطي من له جنان قرب سور البلد إذا خشي أن يطرقه العدو و منه قيمته على أصول الشرع عموما و على أصول مذهبنا خصوصا، و له في مذهبنا نظائر تشهد، و له جبر مالكها على بيعه إن أبي من ذلك بعد أن ينزل له فيها قيمة عدل هذا إذا كان العدو متوقعا و أما إذا كان نازلا ببلاد المسلمين فإن له هدمها عليه بغير ثمن إلا أن يكون اختلاطها و بناؤها من قبل إنشاء السور فلا بد من دفع الثمن على كل حال و هذا كله إذا ظهر ضررها بالسور ضررا بينا."³.

أحيطت مدينة "تلمسان" منذ الفترة الإدريسية (أغادير) بسور ضرب على جميع جهاتها، و في الفترة المرابطية امتدت أسوار مدينة "أغادير" لتشمل مدينة "تكرارت" التي أنشأها أمير المرابطين "يوسف بن تاشفين"، و اهتمت الدولة الموحدية بسور مدينة "تلمسان"، و يبدو أن المدينة بقيت مسورة بسور متين إلى غاية الفترة العثمانية.

1 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 122.

2- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص439.

3 - نفسه.

اتفقت المصادر التاريخية في مجملها على أن المدينة كانت مسورة من جميع نواحيها، و يقول الحميري في ذلك: " ولها سور متقن الوثيقة..."¹، و يذكر "الإدريسي" من علماء القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد أن مدينة "تلمسان" أزلية و لها سور حصين متقن الوثيقة²، و يبدو أن أمراء و سلاطين مدينة "تلمسان" اهتموا بتحصين المدينة لموقعها الاستراتيجي خاصة موقعها على أهم طريق تجاري الذي ينطلق من السودان الغربي ليمتد إلى المدن الأندلسية عبر موانئ المدينة منها ميناء مدينة "هنين". و يصف "مارمول كرنجال" أسوار المدينة بقوله: "...أسوار المدينة جميلة و شاهقة محصنة تحصينا جيدا بروج، لها خمسة أبواب رئيسية، في كل واحد منها مراكز حراسة..."³. (اللوحة رقم: 21، 20).

و من الآثار البارزة التي تدل على أهمية الأسوار في حماية المدينة الإسلامية هي أسوار مدينة "المنصورة"، حيث يصفها الدكتور "عبد العزيز لعرج" بقوله: " يتبع سور المدينة موقعها الطبوغرافي و يساير خطوطها التضاريسية من ارتفاعات و انحدارات و انكسارات و تبدو المدينة وفقا لذلك ممتدة على منحدر نصفه الجنوبي علوي و نصفه الشمالي منبسط سهلي مما أثر على شكلها الهندسي العام... و تمتد أسوار المدينة من الشمال إلى الجنوب على شكل رباعي غير منتظم أضلاعه غير متساوية، أصغرها الضلع الجنوبي و مقاساته 1300م طولاً، و 750م، و يقدر سمك الحوائط بـ 1.50م عند قاعدتها ثم يأخذ في الضيق بطريقة مسلوقة كلما ارتفعت، أما ارتفاعها إلى نهاية دراوي الأبراج فيقدر بحوالي 12م، بينما يقدر بـ 9.20م إلى نهاية دراوي السور نفسه، أما مطاف الجند (ممشى أو طريق الجند) فيقوم عند 7.60م من ارتفاع الحائط و يمتد مع امتداده حول المدينة و على نفس مستوى من الارتفاع و يقدر اتساعه 0.90م يحجزه من الخارج متراس أو حاجز حائطي واقى للجند على شكل درابزين في البيوت ارتفاعه إلى دراوي 0.80م و سمكه 0.70م، صمم بطريقة تمكن الجند المدافعين من تأدية عملهم على مستوى عال من الكفاءة كما يسمح لهم بحرية الحركة و التنقل عبره للقيام بأعمالهم... و ينتهي السور في أعلاه بدراوي هرمية الشكل

1 - الحميري، المصدر السابق، ص 135.

2 - للمزيد من التفاصيل أنظر: - الإدريسي، المصدر السابق، ص 286.

3 - مارمول كرنجال، المصدر السابق، ج 2، ص 299.

أو رباعية ارتفاعها 0.85م و عرضها 0.70م و المسافة بينهما أي فتحات الرمي و المراقبة فتقدر بجوالي 1م...¹. (اللوحة رقم:68،67).

و يبدو أن أسوار مدينة "تلمسان" كانت تشابه في طريقة بنائها و تكوينها المعماري من أسوار مدينة "المنصورة"، و هي كذلك متأثر بأسوار المدن الإسلامية خاصة مدن المغرب الأقصى كأسوار مدينة "سلا" و مدينة "فاس" و مدينة "الرباط"، مع بعض الاختلافات الجزئية² (اللوحة رقم: 22،23،24).

أما مدينة "الجزائر" فقد حصنت على شاكلة كل المدن الساحلية منذ نشأتها، و لكنها لم تعرف إستحكامات عسكرية بالقوة التي شاهدها المدينة في الفترة العثمانية، و نظرا لقوة الإستحكامات العسكرية و قوة الجيش الجزائري البحري في الفترة العثمانية و تزعمه الجهاد في أعالي البحار، و صفها سنة (1006هـ/1597م) (W). Davies فقال: "... إن "الجزائر" مدينة قوية يحكمها الترك ... و لها إستحكامات قوية من مواقع عسكرية و قلاع و أرضفة ذات مغارات كبيرة و مسلحة...."، كما وصفها "دوغرامو" سنة (1029هـ/1619م) حيث قال: "... مدينة "الجزائر" ذلك السوط المسلط على العالم المسيحي إنها رعب "أوروبا" و "لجام إيطاليا" و "إسبانيا" و صاحبة الأمر في الجزر...".³، و لا جرم في ذلك حيث أن المدينة أصبحت عاصمة و دارا للإمارة في هذه الفترة للمغرب الأوسط، و هذا ما جعلها مطمعا لدول الأوروبية منذ مطلع القرن التاسع للهجرة السادس عشر للميلاد.

و يمكن القول أن سور مدينة "الجزائر" كانت نتيجة المراحل التاريخية التي مرت بها المدينة ابتداء من السور الفينيقي و الروماني إلى غاية السور الزيري ثم العثماني، و قد شيدت الأسوار

1 - عبد العزيز لعرج، مدينة المنصورة...، ص240، 241.

2 - نفسه، ص241.

3 - نظرا لقوة الإستحكامات العسكرية و قوة الجيش الجزائري البحري في الفترة العثمانية و تزعمه الجهاد في أعالي البحار، و صفها سنة 1597م (W). Davies فقال: "... إن الجزائر مدينة قوية يحكمها الترك ... و لها إستحكامات قوية من مواقع عسكرية و قلاع و أرضفة ذات مغارات كبيرة و مسلحة...."، كما وصفها دوغرامو سنة 1619م مدينة الجزائر حيث قال: "... مدينة الجزائر ذلك السوط المسلط على العالم المسيحي إنها رعب أوروبا و لجام إيطاليا و إسبانيا، و صاحبة الأمر في الجزر...". نقلا عن:- نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، ط2، الجزائر، 1968م، ص 32.

العثمانية سنة (947هـ / 1540م)¹ من طرف "حسن باشا"، و كانت تحيط بالمدينة، و تمر من جهة "باب الوادي" إلى أعالي "القصبة" (اللوحة رقم: 17، 43)، و يبلغ طول ضلعه 900م، و من الجهة الشرقية يمر بباب "عزون" و طول ضلعه 750م²، و يبلغ ارتفاعها 12م أما سمكها فيتراوح بين 4م و 8م³، و كانت تتخلله فتحات المدفعية و البنادق و فتحت عليه أبواب رئيسية و ثانوية.

و السور بهذه المواصفات أصبح خطا دفاعيا هجوميا متكاملًا، و حتى يستطيع هذا الخط الدفاعي الهجومي أن يحقق مهمته بكفاءة كان لابد من سهولة تزويده بما يحتاج إليه من عتاد، و تقوية بعض نقاطه على مسافات مختلفة بأبراج، و كان لابد من سهولة الاتصال بين الجند المدافع عنه، و تنظيم العمل بينهم بالصورة المطلوبة، و هو أمر استدعى أن يخطط السور بمواصفات و قياسات دقيقة تفي بهذه المتطلبات، و قد انعكست هذه الأمور على عمارة و طريقة إنشاء الأسوار، بما اشتملت عليه من عناصر معمارية مختلفة.⁴ (اللوحة رقم: 32).

3-2- الأبواب الرئيسية بالمدينة الإسلامية:

أحيطت المدن الإسلامية لضرورة أمنية بسور تتخلله الأبواب، و اختلف عددها حسب موقعها الجغرافي و الطوبوغرافي، و تشير الدراسات الأثرية أن فكرة إنشاء الأبواب و توزيعها على أسوار المدينة أزلية، حيث كانت جل المدن القديمة مسورة جعلت عليها أبواب يزداد عددها حسب اتساع مساحتها و من أشهر هذه المدن و أقدمها و التي يمكن أن توضح لنا هذه الفكرة نجد مدينة "بابل"، حيث أشارت نتائج الحفريات التي أقيمت في الموقع الأثري للمدينة أن عدد أبوابها كان سبعة تتصل مباشرة بالطرق الرئيسية في المدينة، و تتكون هذه الأبواب من دهليز على جانبه غرفة تستخدم كغرفة للحرس، و في نهاية الدهليز نجد فناء مخصص لاستقبال الزائرين و الوافدين على المدينة، و إخضاعهم للتفتيش، و كان ثمة حراس معدين للمراقبة كانوا يتخذون أماكنهم على الجدران، و قد امتد هذا النمط من التخطيط في جميع مدن الشرق القديم، حتى "اسبانيا" "كثليظة" على سبيل المثال.

1 -Boutin. (VY) , **Reconnaissance des villes , forte et batteries d'Alger**, Paris, 1927, p 26.

2 - Klein. (H), **Feuillets d'El Djazair**, Alger, 1910, p 71.

3 - Devoulx. (A), Alger, étude archéologique..... P246.

4 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 124.

و كان للأبواب في مدينة "بابل" و مدن الشرق القديم أهمية كبرى في الحياة العامة، فقد كانت هذه بالنسبة السكان مماثلة "لأغورا" أو "الفوروم"، فعلى باب معين كان ينعقد مجلس الشيوخ، و في تركيا كان يدعى مجلس الوزراء قديما "الباب العالي"، و كان يشار إلى أبواب مدينة "بابل" بأسماء معينة عادة ما تلقب بأسماء الآلهة مثل باب "عشتار"، و باب إله الشمس على سبيل المثال.¹

ولم تختلف أبواب المدن الإسلامية من حيث التخطيط و العناصر المعمارية، و من حيث وحدات التحصين عن المدن القديمة (اللوحة رقم:3)، و من النماذج التي تؤكد ذلك عديدة في المدن الإسلامية مشرقا و مغربا، و سارت مدينة "تلمسان" في تخطيط أبوابها و تحصينها وفق نمط مدن المغرب الإسلامي أساسا خاصة مدينة "فاس"، و يذكر في ذلك "حسن الوزان": ... و الأسوار في غاية الارتفاع و القوة، فتحت فيها خمسة أبواب واسعة جدا، مصاربعها مصفحة بالحديد، و قد أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها موظفون و حراس و مكاسون.²

و قد تأثرت أبواب المدن بالمغرب الأوسط من حيث توزيعها و عددها بالعناصر التالية:

1 - الموقع الجغرافي:

إن المدن التي أسست على مساحة مستوية من الأرض قابلة للتوسع فتتح على أسوارها عدد كبير من الأبواب، كانت رئيسية أو ثانوية، و هذا ما يمكن أن نلاحظه في مدينة "تلمسان"، ففي الفترة "الإدرسية" كان لها خمسة أبواب تتوزع على جهات الأربعة للمدينة منها: ثلاثة في القبلة باب "الحمام"، و باب "وهب"، و باب "الخوخة" و في المشرق "باب العقبة" و في الغرب باب "أبي قرّة"، و يؤكد "البكري" هذا الأمر بقوله: "... و هي مدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز و لها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب الحمام و باب وهب و باب الخوخة، و في الشرق باب العقبة و في الغرب باب "أبي قرّة"...³. أما في الفترة المرابطية فإن مدينة "تلمسان" رغم توسعها حافظت على نفس عدد أبوابها و جاء عددها و تسميتها كالتالي: فتح في مدينة "تكرارت" خمسة أبواب، أربعة أبواب جديدة و أما باب "العقبة" فيعود إلى الفترة الإدرسية، و بالتالي أصبحت أبواب "تلمسان" كالتالي: باب "الحياد" في الناحية الجنوبية، و باب "العقبة" في الناحية الشرقية و باب "الجلوس"

1 - مارغريث روشن، المرجع السابق، ص53.

2 - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص20.

3- البكري، المصدر السابق، ص 76، 77.

و باب "القرمدين" في الناحية الشمالية، و باب "كشوط" في الناحية الغربية. و نفس عدد الأبواب بقيت مدينة تلمسان تحافظ عليه إلى غاية الفترة العثمانية.

و في مدينة "الجزائر" فإن الأبواب كانت كلها رئيسية منذ بناء الأسوار الزيرية، و يبدووا حسب تسميتها أن عددها كان ثلاثة أبواب حيث تأثرت بموقع و طبوغرافية المدينة، ففي الجهة الشمالية على غرار جميع المدن الساحلية كان لها باب واحد عرف باسم "باب البحر"، و من الجهة الغربية نجد باب الوادي، و من الشرق نجد باب عزون، و يبدو أن هذا الأخير أطلق عليه هذا الاسم في الفترة العثمانية، أما من الجهة الجنوبية فإن المدينة كانت محصنة طبيعيا لوقوعها على هضبة مرتفعة عن سطح البحر و محور حراك المدينة كان في أسفلها، لذلك لم تفتح باب في هذه الجهة إلى غاية الفترة العثمانية، و هذا ليس بغريب على المدن التي تقع على منطقة المرتفعة كجبل أو هضبة خاصة في الفترة الزيرية و الحمادية، و المثال الأقرب إلى ذلك مدينة "قلعة بني حماد".

و في الفترة العثمانية و نظرا للتطور العمراني الذي عرفته مدينة "الجزائر" منذ مطلع القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد أصبح بها خمسة أبواب هي:

- باب عزون:

نسبة إلى أحد الثوار من السكان المحليين اسمه "عزون"¹، و يبدووا من خلال هذا الاسم أنه أندلسي الأصل، ثار ضد الحكم التركي و حاصر المدينة و لكن بدون جدوى، حيث قضى عليه في مطلع الحكم التركي، و باب "عزون" من أهم أبواب المدينة منها كان يلج الوافدون من الجنوب و الشرق عبر السهل "المتيجي" عن طريق "الحراش" و هي الطريق التي تربط المدينة بشرق البلاد، و كان لهذا الباب جسر يرفع أثناء الخطر. (اللوحة رقم:33).

- الباب الجديد:

بني هذا الباب في الفترة العثمانية في الجهة الجنوبية الغربية من السور، حيث يدخل منه القادمون من الغرب الجزائري و من "بيلك التيطري"، و يربطه طريق رئيسي بغرب البلاد منذ العهد الروماني، كون المدينة صعبة الدخول أو إنشاء طريق من الجهة الشمالية الغربية، لذلك كان هذا الطريق المنفذ الرئيسي للوافدين إلى المدينة من الجهة الغربية و الجنوبية منذ الفترة الرومانية إلى غاية

1 - بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص 16.

الاحتلال الفرنسي "للجزائر"، حيث استعمله الجيش الفرنسي عند دخوله للمدينة سنة (1246هـ/ 1830م). (اللوحة رقم:54).

- باب الوادي:

اتخذ اسمه من الوادي الذي يمر على الجهة الشمالية الغربية للمدينة عرف باسم وادي "المغاسيل"، وهو أقل الأبواب أهمية لأن هذه الجهة لم تكن منطقة جذب سكاني نظرا لطبيعتها الجغرافية الصعبة، لذلك جعلت في الفترة العثمانية كمنطقة صناعية للمدينة، حيث انتشرت فيها المصانع و الورشات و أهم مصنع و جد فيها هو مصنع النحاس أو مصنع الأسلحة، كما يحتوي هذا الباب على جسر على شاكلة باب "عزون". (اللوحة رقم:34).

- باب الجزيرة:

يطلق عليه بلسان حال سكان المدينة باسم باب "الذيرة"، و سمي أيضا بباب "الجهاد"، لأن الباب مخصص لدخول و خروج المجاهدين للجهاد البحري، و يبدو من خلال هذه التسمية أن هذا الباب كان المنفذ الرئيسي للوافدين إلى المدين من الجهة الشمالية، لذلك أطلق عليه كذلك باسم باب "البحر" و هذه التسمية شائعة في جل المدن الساحلية الجزائرية، وظل سكان مدينة الجزائر يطلقون¹ عليه إلى يومنا هذا بباب "الذيرة" لأنه كان يؤدي إلى الجزر القديمة الأربعة، و يعتبر أكثر أبواب متانة و مناعة، و بجانبه بنيت عدة أبراج و ثكنات للجند، علما أن تطلعات المدينة كانت بحرية إما للجهاد في أعالي البحار أو التجارة الخارجية.

- باب السردين أو باب الديوانة:

و كان مخصصا للتجارة البحرية، و يبدو حسب التسمية التي أطلقت عليه أن خصص للصيد البحري، و قد علفت بهذا الباب خمسة أجراس قيل أنه جيء بها من مدينة "وهران" سنة 1708م و أمر الداى بتعليقها على باب تخليدا لذكرى الانتصار على الأسبان و استرجاع المدينة².

ب - العامل السياسي:

1 - للمزيد من التفاصيل حول أبواب مدينة الجزائر و أصول تسميتها أنظر: - بن بلة خيرة ، المرجع السابق، ص 15. كذلك: - حليمي عبد القادر، المرجع السابق، 217.

2 - بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص 16.

تأثرت المدن الإسلامية بالعوامل السياسية، و حراك المسلح في تاريخها، فلمدن التي تحولت في تطورها من مدينة محلية إلى عاصمة لدولة أو لقطر بات من الضروري فتح أبواب جديدة لكثرة الوافدين إليها، لغرض تجاري، أو علمي، و كذلك نشوء الأرباض من حولها عملت الدولة على فتح الأبواب إليها، و من الأبواب ما تفتح لغرض صناعي، لكون بعضها ينشأ خارج أسوار المدينة، و يمكن تأكيد ذلك من خلال أسماء أبواب المدن الإسلامية و موقعها، فمدينة "تلمسان"

كذلك تأثرت مقاييس الأبواب و تخطيطها بالأسوار و مقاييسها من جهة و بحق الطريق على اعتبار أن هذه الأبواب على مداخل طرق المدينة من جهة أخرى، فارتفعت الأبواب المؤدية إلى داخل المدن ارتفاع فارس راكبا جواده و رافعا رمحه، و هو ارتفاع أكدت على تحديد أحكام الفقه الإسلامي عندما تعرضت لبناء بعض العناصر و الوحدات على الطريق كالأبواب و البوابات التي على الدروب و الحجرات و الساباط التي بينها من يحق لهم بناؤها فوق الطريق، و حدد الفقهاء هذا الارتفاع بارتفاع شخص يركب جملاً يمر بسهولة أسفل البناء، و يكون هناك فراغ يعلوه يؤمن سلامة المارة، و تمثل أبواب المدن أكبر المنافذ التي تبنى على مواضع اتصال طرق المدينة الرئيسية بخارجها، و من ثم تكون مقاييسها أكبر من مقاييس العناصر و الوحدات الأخرى التي تبنى فوق الطرق الداخلية، و تعتبر أوصاف باب "الجديد" و باب "البحر" بمدينة "الجزائر" المثل التطبيقي الواضح على هذه البراعة في تحقيق الهدف الحربي و هدف تسهيل الحركة و التواصل بين طرق المدينة و خارجها، كما زودت الأبواب الرئيسية بأبراج للمراقبة و مزاعل تسهل عملية الرمي في حالة أي طارئ عدو للمدينة. كما كانت على مداخل الأحياء أبواب، و هذا ما نجده بمدينة "تلمسان"، حيث أشار صاحب "المناقب" إلى ذلك من خلال وصف لدرب "ملالة" بقوله: "... و كان لا يدخل أحد من باب الدرب إلا من هو ساكنه، و من جاء زائراً يستأذن عليه من رجل أو امرأة، و إذا جاء الخطب أو الفحم يوضع بباب الدرب، و يخرج أصحابه لإدخاله..."¹، و عرفت كذلك بمدينة "الجزائر" بإسم الدرب و تحرس من قبل بوابين، و ساهم هذا التنظيم في ضمان أمن المقيمين بها و راحتهم.²

3-3 - الخنادق:

1 - ابن مرزوق، المناقب...، ص181.

2 - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص373.

استخدمت الخنادق لأول مرة في البيئة العربية و الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم، حيث لم تعرف العرب هذه الفكرة الحربية قبل العهد النبوي، و تشير المصادر التاريخية و الفقهية أن هذه الفكرة استخدمت في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم في المدينة أشار عليه بها "سلمان الفارسي" عندما أراد عليه السلام تحصين المدينة ضد المشركين، سميت هذه الغزوة باسم غزوة الخندق نسبة لهذا العنصر الوظيفي الحربي، وعن "أنس" رضي الله عنه قال: " خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الخندق فإذا المهاجرون و الأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبء يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النَّصب و الجوع قال: **اللهم إنَّ العيش عيش الآخرة فأغفر للأنصار و المهاجرة**. فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدا " ¹.

و من المصادر التاريخية التي تذكر قصة بناء الخندق نجد "ابن كثير" حيث يقول: " ولما سمع الرسول صلى الله عليه و سلم بخروج الأحزاب إليه، وما اجتمعوا له من الأمر، و هو صلى الله عليه بالمدينة، ضرب الخندق عليها، و قال "ابن هشام": " يقال إن الذي أشار به "سلمان". قال "الطبري" و "السُّهيلي": " أول من حفر الخنادق " مُنوشهُرُ بن إِيْرَج بن أفرِيدونَ " و كان في زمان "موسى" عليه السلام. " ²

وحسب قول "ابن كثير" فإن بناء اتخاذ الخنادق كوسيلة دفاعية كانت قديمة، و قد عرفتھا المدن الفارسية، ثم استمرت في العصر الإسلامي، و اتبعت في كثير من المدن الإسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه و سلم. و من أهم المدن التي استخدمت فيها الخنادق نجد مدينة "بغداد" لقربها من العالم القديم خاصة بلاد فارس، فقد حفر حول المدينة خندق يحيط بأسوارها بعمق ستة أمتار و اتساع مثل ذلك، كان يملأ بالماء عن طريق قناة في وقت الخطر، و كان أمام كل باب من أبواب المدينة أربع قناطر تمكن من عبور هذا الخندق في حالة السلم، و كانت ترفع في أوقات الحرب، و مع رفعها تصبح المدينة لا يصل إليها أحد إلا بعبور الخندق الذي يملأ بالماء أثناء الحرب، كما أن سور

1- البخاري، الجامع...، ص 526.

2 - ابن كثير، المصدر السابق، ج2، ص 593.

المدينة الخارجي المجاور للخندق بنيت لحماية أساسه من الماء مسناة يصعب التسلق عليها من قاع الخندق، و كان هذا الخندق بمثابة أول عائق أساسي لمن يهاجم المدينة.¹ و إذا كانت المصادر التاريخية و الجغرافية لم تشر إلى استعمال الخندق في الاستحكامات العسكرية لمدينة "تلمسان"، فإن مدينة "الجزائر" قد زودت و دعمت منظومتها التحصينية بالخنادق، ويبدو أن طبوغرافية المدينة ساعدت على استخدام هذه الفكرة خاصة من الجهة الشمالية الغربية و الجهة الشمالية الشرقية، لذلك زودت أبواب هذه الجهة بجسور ترفع في حالة الهجوم الخارجي منها "باب الوادي"، و "باب عزون"، و يقول "دوفول Devoulx" نقلا عن "هايدو": " أن مدينة "الجزائر" محاطة من كل الجوانب بخندق يبلغ عرضه ستة عشر مترا ردم قسم منه بواسطة الرواسب و القاذورات"². و كان حكام مدينة "الجزائر" و بأمر من الباب العالي يجرسون على نظافة الخنادق من الرواسب و القاذورات لكي لا تكون مطية لجند الأعداء لتسلق سور المدينة، و هذا ما تؤكدته الوثيقة الصادرة من الباب العالي نصها: "بعث أمير الأمراء "الجزائر" أحمد دام إقباله بخطاب أشار فيه بسعيكم و اهتمامكم بتعمير قلعة "الجزائر" و بتطهير الخنادق، كذلك في سبيل الخدمات الهايمونية المتعلقة بحفظ و حراسة الولاية..."³.

3-4- الرباط:

تعدد التعريف اللغوي للرباط عند اللغويين أصحاب المعاجم، ويقول في ذلك ابن منظور: " ربط الشيء يربطه و يربطه رباطا، فهو مربوط و ربيط: شدّه، و الرباط ما ربط به، و الجمع رباط، و رباط الخيل: مرابطتها، و الرباط من الخيل " الخمسة فما فوقها. و الرباط و المرابطة: ملازمة ثغر العدو، و أصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزام الثغر رباطا، و ربما سميت الخيل أنفسها رباطا. و الرباط" المواظبة على الأمر.

1 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص127.

2 - Devoulx. (A), **Alger, étude archéologique et topographique sur cette** 2

ville, in Revue Africaine, 1876. P346.

3 - الأرشيف الوطني الجزائري، مدينة الجزائر، مهمة دفتري رقم (22) صحيفة (186 . 187) حكم رقم (360).

قال "الفارسي": " هو ثان من لزوم الثغر، و لزوم الثغر ثان من رباط الخيل و قوله عز وجل ﴿...وَكَابِرُوا وَرَابِطُوا...﴾¹، قيل معناه حافظوا، و قيل واطبوا على مواقيت الصلاة"، و في الحديث عن "أبي هريرة" أن الرسول صلى الله عليه و سلم قال: " ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا و يرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال إصباغ الوضوء على المكاره، و كثرة الخطى إلى المساجد و انتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط".

الرباطُ في الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب، و ارتباط الخيل و إعدادها، فشبهه ما ذكر من الأفعال الصالحة به. قال "القتبي": " أصل المرابطة أي يربط الفريقان خيولهما ثغر كلّ منهما معد لصاحبه، فسميَّ المقام في الثَّغور رباطاً". و قال "الأزهري": " و أصل الرِّباط من مرابط الخيل و هو ارتباطها بإزاء العدو في بعض الثغور، و العرب تسمي إذا ربطت بالأفنية و علفت رُبطاً، واحداها ريبط، و يجمع الرِّبط رباطاً، و هو جمع الجمع قال الله تعالى ﴿وَ أَمِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مَنْ رَبَّاطَ الْخَيْلِ...﴾²، قال الفراء في قوله عز و جل: ﴿...وَ مَنْ رَبَّاطَ الْخَيْلِ...﴾³، قال يريد الإناث من الخيل، و قال الرِّباط مرابطة العدو و ملازمة الثغر، و الرجل مرابطٌ و المرابطات: جماعات الخيول التي رابطت".⁴

أما اصطلاحاً فهو يطلق على كل موضع حصين ينشأ على الثغور، و يقيم فيه مجاهدون وقفوا أنفسهم في سبيل الله، رغبة في نيل الثواب، و تأهبوا بخيولهم و عدتهم مستعدين للدفاع عن ثغور البلاد و حراستها، و صد هجمات الأعداء و غاراتهم، و مراقبة تحركاتهم، و هم يقضون وقت فراغهم بالمجاهدة النفسية عن طريق إقامة شعائر الله، و الصيام المستمر و تلاوة الدائمة للذكر الحكيم.

ولقد عززت الأحاديث النبوية هذا العمل الجهادي منها: عن "سعد الساعدي" رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا و ما عليها....."⁵

1 - سورة آل عمران، الآية 200.

2 - سورة الأنفال، الآية 60.

3 - سورة الأنفال، الآية 60.

4 - ابن منظور، المصدر السابق، ج4، 31.

5 - البخاري، الجامع...، ص535.

و عن "ابن العباس" رضي الله عنهما قال: " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، و عين باتت تحرس في سبيل الله ". و عن "عثمان" رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل"¹

قامت الربط، منذ ظهورها أواخر القرن (2هـ/8م) إلى بداية القرن (6هـ/12م)، بدور أساسي في التعليم الدين الإسلامي و ترسيخ مبادئه بالمغرب الإسلامي، كما قامت بالحسبة و بالجهاد و محاربة المذاهب المنحرفة، وكان الجهاد المسلح للدفاع عن دار الإسلام من بين المبادئ التي تقوم عليها الربط. و من أدوارها الأساسية كذلك، محاربة أصحاب المذاهب المنحرفة عن المذهب السني، شأن الربط الأولى المبنية على سواحل إفريقية، ولم يقتصر دور تلك الربط على العمليات الجهادية فقط، بل كان لها دور تعليمي تربوي، إذ شكلت الربط مركزا لنشر الإسلام و التعليم الديني، سواء بتعليم العلوم النظرية كالفقه أو التربية الصوفية عن طريق القدوة الحسنة التي يعطيها الشيخ

لعبت الأربطة دورا هاما في التعليم بنوعيه الديني و الاحترافي قبل القرن (6هـ / 12م) ، كما سوف نذكر فيما بعد فتأثرت بدورها بالأزمة العامة لما بعد العهد الموحيدي كبقية المؤسسات العمومية و في يلاحظ ذلك أن الرباط اختفى خلال القرن السابع الهجري وحلت محله الزاوية، هذا التحول ليس تحول فقط في التسمية، بل تقلصت معه بعض وظائف الرباط مثل وظيفة الجهاد الداخلي للمنحرفين عن السنة، الذي لم يعد له مبرر، نظرا لتجدر المذهب السني للمغرب الإسلامي منذ القرن (5هـ/11م) و (6هـ/12م)، و نظرا لتباطؤ عمليات الجهاد الخارجي للدفاع عن دار الإسلام الأندلس، و قد تزامن توقف الجهاد في الرباط مع تقلص وظيفة الجهاد لدى دول المغرب الإسلامي الوارثة لدولة الموحدية بظهور الزاوية مقارنة مع الدولة المرابطية و الموحدية، و لكن رغم اختلاف الزاوية عن الرباط فقد ورثت عنه دوره في التعليم بنوعيه التعليم الديني للراشدين، و تعليم طلاب العلم اقتصر على ذلك فقط.

و يفرق "ابن مرزوق"² بين الرباط و الزاوية و هذا في القرن (8هـ/14م) فلاحظ أن الرباط لدى الفقهاء هو مكان احتباس النفس للجهاد و الحراسة بينما يعني لدى المتصوفة المواضع التي يلتزم

1 - ابن مرزوق، المسند...، ص397.

2 - نفسه.

فيها العبادة قي حين أن الزوايا تعني في المغرب الإسلامي المواضع المعدة للإرفاق بالواردين، و إطعام المحتاج من القاصدين، كتجار و غيرهم من عابري السبيل، أي أنها ليست رباطا بالمعنى المصطلح عليه لدى الفقهاء و لا لدى الصوفية بل مؤسسة لها طابع إحساني، و لاحظ أن الرباط بالمفهوم سكان المشرق الإسلامي بمعنى ملازمة السكان لها قصد العبادة. و نستنتج من هذا الكلام و من مصادر أخرى أن مصطلح الزاوية خلال القرن (7هـ/13م) و (8هـ/14م) كان يطلق في الغالب على الأماكن المعدة لإطعام الواردين و القاصدين و تضييفهم بضواحي المدن و لذلك تسمى دار الضيافة، و تمول بدورها بالأوقاف مثل المدارس و كراسي العلم بالمساجد، في حين تعني الزاوية عند المتصوف مكان استقبال الماردين بالدرجة الأولى، و رغم تمييز "ابن مرزوق" السابق بين الزاوية و الرباط فإن الفرق بينهما لم يكن دقيقا و محددًا آنذاك، إذ أن الزوايا كانت تقوم بالإضافة إلى دورها في إطعام الواردين عليها بدور الرباط لدى المتصوفة، و الدليل على ذلك هو أن المعاصرين "لابن مرزوق" كانوا يطلقون اسم الزاوية تارة و الرباط تارة أخرى على نفس المؤسسة الخيرية.

يبدو أن هذه المنشأة لم تكن منتشرة في "تلمسان" مقارنة مع مدن المغرب الأقصى، و تشير بعض المصادر التاريخية إلى وجود رابطة تعرف برابطة "عبد السلام التونسي" و التي تأسست في أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر للميلاد، و كانت وظيفتها الانقطاع و التعبد و اجتماع المريدين لتلقين التصوف و العلوم الأخرى و يذكر "ابن زيات" هذه الرابطة بقوله: " و منهم "أبو محمد بن عبد السلام التونسي"، أصله من "تونس" صحب عمه "عبد العزيز التونسي" "بأغمات"، فلما مات بها عمه نزل هو إلى "تلمسان"، و بها توفي و دفن "بالعباد"، في الرابطة المعروفة برابطة التونسي".¹

3-5 - الأبراج و القلاع:

القلعة حصن منيع يشيّد في موقع يصعب الوصول إليه، وغالبًا ما يكون على قمة جبل أو مشرفًا على بحر، وقد وجد بعضها مشيّدًا على أرض منبسطة. وكانت القلاع عند العرب وغيرهم من الأمم الأخرى تؤدي دور البيت والحصن والسجن ومستودع الأسلحة وبيت المال ومركز الحكومة المحلية. وكثيرًا ما كانت تنشأ القرى حول القلاع. وعندما غدت المدن، في وقت لاحق، ذات أهمية، أصبحت القلاع تشكل جزءًا من شبكة دفاعاتها، وتبنى القلاع عادة بغرض الحماية من الأعداء،

1 - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 110.

و لتتحصن حامية المدينة في حال تعرضها لهجوم ما، و كانت القلاع إحدى أهم وسائل الدفاع في العصور القديمة.

اهتم حكام مدينة "الجزائر" العثمانية ببناء الأبراج، حيث جعلوا منها مراكز لمراقبة العدو مساكن للجنود¹ و زودت بكل مرافق الحياة، و بنيت بداخلها المساجد، و جلبت لها المياه و وقفت لها من طرف الحكام و الأغنياء و الصالحين من الرعية " الحمد لله بعد أن كانت معظم الأرفع الهمام الأرفع مولانا مصطفى باشا في التاريخ ابن المرحوم بكرم الحي القيوم السيد "إبراهيم" برد الله ضريحه و أسكنه من الجنان فسيحة، أحدث "بقالة الفول" خارج باب الوادي أحد أبواب "الجزائر" المحمية بالله تعالى.....برجا معدا لمحاربة الأعداء الدين النصارى لحصن البلاد المذكور من عدوهم المسطور و كان مما رامه السيد "مصطفى باشا" المذكور من التقرب إلى مولاه من فعل الخيرات و استجلاب الحسنات أن يأتي بالماء للبرج المذكور من عين ماء جنته الكاين بفحص "زغارة" المعروفة بجنة "السناحي"....ليكون الماء المذكور داخل البرج المسطور و يستسقوا منه السكان و جماعة المسلمين خصوصا و قت محاربة العدو المذكور..."². (اللوحة رقم:42،63).

و توزعت الأبراج في مدينة "الجزائر" على طول خليجها الممتد من رأس "تمانفوست" إلى رأس "بيسكاد"، بالإضافة إلى أبراج بنيت في الجهة الجنوبية للمدينة، و أبراج تحوف بالميناء على شكل حدوة فرس جهزت بما يقارب 230 مدفعا³ و هي مبينة في الجدول التالي⁴ (اللوحة رقم:40،41):

1 - لقد كان الاحتكاك الدائم و المتواصل بين أفراد الجيش الإنكشاري و سكان المدينة "الجزائر" و بقيت المدن الجزائرية أثر سلمي، حيث عمدت طائفة من هذه الفرقة العسكرية إلى الاعتداء على سكان بقطع أحد أعضاء الجسم بغير حق، هذا ما جعل الباب العالي يأمر بتحقيق في اعتداء العسكر على سكان مدينة "الجزائر" من خلال هذا الحكم رقم (532) الموجه إلى أمير أمراء مدينة "الجزائر" و قاضيها حيث جاء: " ورتنا أنباء عن العداء القائم بين سكان المدن و بين طائفة الإنكشاريين و من ذلك أن الطرفين يتهجمون و يشتمون بعضهم بعضا، حتى الإنكشاريين يهددون بقتل أو قطع يد كل من يحتك بهم أثناء مشيهم في الطريق، و أن تلك الأوضاع و الأطوار مناقضة للشرع الشريف. للمزيد من التفاصيل أنظر: - الأرشيف الوطني الجزائري، مدينة الجزائر، مهمة دفترى رقم (30) صحيفة (228) حكم رقم (532).

2 - الأرشيف الوطني الجزائري، مدينة الجزائر، الوثيقة: العلية 47 / 2 . (11).

3 - De Fontaine De Resbecq. A, OP-cit , p143.

4- للمزيد من التفاصيل حول أبراج مدينة الجزائر أنظر: Klein . H, OP-cit, p 66,78.

الفصل الخامس:..... أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة المدنية و العسكرية.

إسم البرج	تاريخ بنائه	مؤسسه	موقعه
برج الإمبراطور	1545هـ/1545م	حسن باشا	أعالي القصبة في الجهة الجنوبية
برج نجمة	1568هـ/1568م	محمد باشا	في حي طقاره
برج الفنار	1572هـ/1572م	أحمد عراب	ميناء الجزائر
برج بوليلة	1637هـ/1637م	محمد باشا	باب الوادي
برج تامنفوست	1661هـ/1661م	رمضان آغا	مدينة تامنفوست
برج الإنكليز	1670هـ/1670م	الحاج علي آغا	حي بولوغين
برج مرسى الدبان القديم	1671/1081م	الحاج علي آغا	رايس حميدو / 8 كلم غرب المدينة
برج الكيفان	1723هـ / 1135م	محمد باشا	برج الكيفان / 19 كلم شرق المدينة
برج سيدي فرج	1724هـ / 1136م	يحيى آغا	مدينة سيدي فرج
برج الحراش	1746هـ / 1159م	يحيى آغا	قرب قنطرة الحراش
برج الجديد	1774هـ / 1188م	عثمان باشا	ميناء الجزائر
برج واد كنيس	1775هـ / 1189م	عثمان باشا	قرب واد كنيس
برج رأس عمار القديم	1784هـ / 1199م	محمد باشا	ميناء الجزائر
برج باب عزون	1805هـ / 1219م	مصطفى باشا	قرب باب عزون
برج الزوية	1808هـ / 1223م	مصطفى باشا	باب الوادي
برج قومان	1815هـ / 1231م	علي باشا	ميناء الجزائر
برج رأس عمار الجديد	1822هـ / 1238م	الداي حسين	ميناء الجزائر
برج السردين	1823هـ / 1239م	الداي حسين	ميناء الجزائر
برج مرسى الدبان الجديد	1823هـ / 1239م	الداي حسين	رايس حميدو / 8 كلم غرب المدينة

أولت الدولة الإسلامية أهمية كبيرة للعمارة و العمارة بصفة خاصة، ووضع العلماء و الفقهاء تشريعات تقن البناء، و تدعوا إلى حرمة و المحافظة على مبدأ الحرمة الذي هو أساس التعايش و الاندماج في المجتمع الإسلامي.

و كانت قاعدة " لا ضرر و لا ضرار " هي الإطار الشرعي الذي تنطلق منه جميع الأحكام المترتبة عن فقه العمران، و كان مقصد كل ذلك هي الحفاظ على المكاسب التمدنية التي ورثها المسلمون من الرسول صلى الله عليه و سلم، و عن أصحابه من بعده، و هذه المكاسب تخدم في مجملها المقاصد الشرعية.

الخاتمة

الدين الإسلامي الذي انطلق من كلمة موجزة "أَقْرَأُ"، في حيز كهف حراء، كان إعلاناً بالمضمون العلمي الديني و الدنيوي للإسلام، واستطاع الإسلام بما ملك من فكر إنساني أن ينتشر على رقعة واسعة تمتد من الصين شرقاً حتى تخوم العاصمة الفرنسية غرباً، وأنتجت الحضارة الإسلامية شخصية فنية متكاملة في العمارة والفنون وتخطيط المدن، لها خصائصها التي تميزها من غيرها من الحضارات في كل بقعة من البقاع التي انتشر فيها الإسلام.

- اتّصف الفن المعماري والعمراني الإسلامي باستيعابه المدارس التي سبقته كافة، وكانت سائدة في آسيا الغربية، فحاورها طالبا للعلم والفن، وتعلم منها ونهل من تراثها، ثم صار المعلم القدير، فصاغ ما أخذه بأسلوبه الخاص، واستطاع في مئة عام أن يبلور هذه الشخصية الفنية وهذه الهوية الخاصة التي تميّزت بها الحضارة الإسلامية، و من خلال هذه الدراسة نلخص إلى مايلي:

- تنوع التعبير المعماري في المدرسة الإسلامية استفاد المسلمون من التقنيات والأنماط التقليدية التي كانت سائدة في البلاد التي فتحوها في إشادة المباني والمنشآت، وذلك في الفترة الأولى من المدرسة الإسلامية، ثم ما لبثت أن تبلورت مدرسة فنية متكاملة تحمل هوية متجانسة على البلاد الإسلامية قاطبة، وصار من الصعب معرفة الأصول المقتبسة منها فتميزت من غيرها من المدارس الفنية.

- لقد كانت الشريعة الإسلامية هي الموجه و المرجع لتسير الشؤون الاجتماعية و الاقتصادية و العمرانية، و الفنية للمدينة، و المجتمع الإسلامي، وهذه الحقيقة لا ينكرها إلى جاحد أو جاهل لأموال التمدن الإسلامي، و إن كان بعض المستشرقين يصرحون بذلك، و بظاهر القول، و يريدون دائما البحث عن الحجج في التاريخ و الآثار حتى يقللوا من شأن الإبداع في الإسلام و لدى المسلمين، و التطور الذي أحدثه في العمران البشري أو العمران في الفترة الوسيطة، و الفترة الحديثة.

- نتيجة لتطور الدول الإسلامية وتوسع المدن، ظهر ما يمكن تسميته بفقهِ البنيان، و يهدف هذا المجال إلى تحديد وتنظيم العلاقات بين الناس والسيطرة على البناء، وحل المشاكل التي قد تنجم بين الناس.

- وفقهِ البنيان هو مجموعة القواعد الفقهية التي تراكمت بمرور الزمن نتيجة لاحتكاك حركة العمران والمجتمع كلاهما ببعض ونشوء تساؤلات أجاب عنها الفقهاء، هذه القواعد كان كل من المجتمع والسلطة والمهندسين يحتكمون إليها عند اللزوم.

- أثر فقهِ البنيان والمبادئ المتعبة في إيجاده على تخطيط المدينة فأثر على تخطيط الشوارع، وحدد درجات الخصوصية في الأماكن العامة وحدد أماكن وضع المباني المعينة، فالمباني التي قد تضرر الناس كالمصانع والأفران والتي تؤدي إلى إصدار الضجة كانت تبني في أماكن بعيدة عن الأحياء والخطط السكنية مثلاً.

- كان أول ما يبنى في المدينة الإسلامية المسجد الجامع، ويكون في وسطها ويبنى حوله مبنيان رئيسيان هما دار الإمارة وبيت المال. وبجوار المسجد كانت تخصص أرضاً للسوق تترك فضاء كما في المدينة، ولم يكن يسمح بالبناء فيها في حينه، بعد ذلك كانت تخط أراضي بينها شوارع رئيسية للقبائل المختلفة ويترك تخطيط هذه الأراضي للقبائل، أو المجموعات البشرية الوافدة على المدينة. و في وسط كل من تلك الخطط كان مسجد يسمى مسجد الصلوات الخمس أو مسجد الحي، حيث يصلي فيه الناس ويجتمعون يوم الجمعة في المسجد الجامع للمدينة.

- كان بناء مساجد الخطط إلزامياً، حيث أنه كان لها دور في إدارة المدينة فقد كان فيه المجلس الذي يجتمع فيه الناس ويحكم بينهم ويعلمون أولادهم فيه، وكانت بعض المرافق العامة الخاصة بالخطّة ملاصقة أو مجاورة لها مثل السوق والحمام والفرن وغيرها. وكانت أوامر وتعليمات الخليفة أو الأمير للسكانة تصل إلى هذه المساجد أو المجالس.

- أثر الفكر العمراني الإسلامي على المنشآت العمرانية، و أضفى عليها الصبغة الإسلامية التي هي خلاصة للفكر والعقيدة الإسلامية، كبناء المساجد و المساجد الجامعة وفق نظام وتخطيط معينين يلبّيان الحاجة الوظيفية وتأدية الصلاة.

- للبيئة الجغرافية دورا كبيرا في التطور العمراني وفق أساليب و أنماط موحدة في جميع المدن الإسلامية، وهذا راجع كذلك إلى تشابه المناخ النسبي في أقاليم الإسلام حيث غلب عليها المناخ الصحراوي والمتوسطي فتشابه النسيج العمراني في تخطيط المدن، وعُرف ما يسمى بالنسيج المتراص أو العفوي.

- في المجال المعماري اتصفت العمارة الإسلامية بالتصميم البيئي، وذلك بالتأكيد على انغلاق المباني من الخارج وانفتاحها على الداخل حول صحن مكشوفة حيث الهواء الطلق والماء والسماء والنباتات.

- لقد كان يتم عند الشروع في إنشاء المدن الإسلامية مشاركة أصحاب العلم والدراية في قضايا الصحة والزراعة والري والتجارة لاختيار الموقع المناسب للمدينة.

- كما كان يشترط أن تكون المدن في أماكن مرتفعة وعلى نهر جار عذب لمد المدينة بالمياه اللازمة فضلا عن الحركة التجارية إلى داخل وخارج هذه المدينة مما يساعد على نموها وازدهارها وفي موقع مناسب حتى لا تكون معرضة للغرق وتحيط بها الأراضي الزراعية وأراضيها واسعة واتباع في إنشاء المدن الإسلامية عدد من الشروط البيئية التي حكمت التصميم وفق مبدئين: الأول أن المدينة الإسلامية كانت ذات أسوار محصنة وأبواب وشوارع رئيسية طويلة وعرضية تلتقي عند المركز حيث تقع دار الإمارة والمسجد الجامع، أما المبدأ الثاني: فيتمثل في الطرق الفرعية وتوزيع مواقع الأحياء الصناعية بحسب موقع المدينة ومراعاة ما قد يستحدث من مباني.

- وكان للعوامل البيئية أثر كبير في اختيار مواقع المدن حيث قرر المسلمون عدم اتخاذ المدن المأهولة التي قد لا تتناسب وطبيعة الجيوش المقاتلة فقد وضع الخليفة "عمر بن الخطاب" شروطا تتمثل في أن يتم اختيار المواقع والتصميم للمدن التي أمر بتمصيرها من قبل خبراء، وأن تقام

المدينة على طرف البادية بالقرب من الماء والمرعى، ولا تفصلها عن المدينة المنورة أية موانع طبيعية كالأطهار والجبال، فاقترح على قادة الجيوش الإسلامية إنشاء معسكرات أو مدن جديدة لجيوشهم تكون مكانا للراحة بعد الحرب ودار هجرة للمسلمين ومراكز لنشر الدين الجديد، وكان ذلك سببا في عدم اتخاذ "عمرو بن العاص" مدينة "الإسكندرية" عاصمة للدولة الإسلامية وعدم اتخاذ "سعد بن أبي وقاص" من المدائن عاصمة أيضا، ولم يتردد الخليفة في إقرار المقترح فوضع مواصفات وشروطا أساسية في اختيار مواقع المقرات الجديدة وتصميمها الهندسي وسعة الوحدات السكنية وارتفاعه.

- وكان من شروط إنشاء المدن الإسلامية دفع المضار وجلب المنافع فيتم دفع المضار بإنشاء الأسوار حول المدينة وإقامة المجاري المائية حتى لا يتم العبور إلا عن طريق جسر أو قنطرة، وكذلك دفع المضار باختيار المواضع طيبة الهواء، ومراعاة شروط اختيار الموقع لمجاهاة المناخ والظروف البيئية، أما التصميم الهندسي فيجب أن يتوسط المسجد الجامع المدينة ويجب أن يكون عرض شوارعها وفروعها وأزقتها محددًا وتتخلل خطط القبائل ساحات إذا كان المعنى الحقيقي والوظيفي للتخطيط المدن و العمارة هو خلق المكان للنشاط الإنساني إلا أن طريقة إيجاد هذا المكان وكيفية تجهيزه ليفي بالاحتياجات الإنسانية هي الأكثر أهمية وهي التي تكون الأسس النظرية، ولقد تعددت النظريات والاتجاهات في هذا المجال فعلاقة الإنسان بالبيئة تشير إلى أهمية معرفة اثر البعد البيئي على تخطيط المدن و العمارة، فالعمارة ما هي إلا مرآة صادقة تعكس بيئتنا و محيطنا وواقعنا بجميع عناصرها المختلفة من جو و مناخ و معالم جغرافية و مبادئ ثابتة للعمارة و تطور اجتماعي و ثقافي و علمي و تكنولوجي إن بيئة العالم الإسلامي، و خصوصا العربي منها تختص بمناخ شديد القسوة قليل الأمطار تتخلله جبال و هضاب قاحلة وصحارى تهب منها الرياح الشديدة الحرارة المحملة بالرمال و زيادة كثافة الإشعاع الشمسي و المنعكس، مما يجعل التعايش مع هذه البيئة القاسية يتطلب مراعاتها بكل عناية و دقة من اجل الوصول إلى عمارة ملائمة ومناسبة لتلك البيئة.

- و من خلال الدراسة التخطيطية و المعمارية لمدينتي "تلمسان" و "الجزائر" نلاحظ أنهما تتميزتا بتصنيف أسواقهما، وحسن ترتيبها، وقربها من المساجد، وبعدها عن المنازل، كما تتميز بأزقتها الضيقة، ودروبها الملتوية، وقلة شرفاتها، وضيق فتحاتها، وندرة الفضاءات فيها، نتيجة لتدافع العمران وتراص البنين، من بيوت ومساجد، وأسواق وفنادق، وحمامات وأفران، وزوايا.

- أن عمارة مدينتي "تلمسان" و "الجزائر" وأشباههما قامت على ثوابت وخصائص، تمثل فلسفة معينة نحن بحاجة إلى تعرية جذورها، وبسط عناصرها، وتحلية معانيها بأسلوب علمي رصين، ومنهج دقيق، لقد كانت تلك المدن على ما هي عليه، منبع راحة لإنسان ذلك العصر، ومنبع اطمئنان مادي ومعنوي، ففاء إلى ظلها، واستراح في جنبها، وتشبعت روحه بما كان يستشف فيه من قيم وجمال، و بما كانت تحمله من إيمان و إسلام.

- إن عمارة المنازل بالمغرب الإسلامي و الأندلس متشابهة تحكها ضوابط و تشريعات مشتركة، و مدينة "تلمسان" في العهد الإسلامي منذ ظهور البوادر الأولى للمدينة الإسلامية في "أغادير" إلى غاية نهاية الفترة العثمانية، لا تختلف من حيث الشكل و تخطيط البناء عن منازل و قصور "المغرب الأقصى" و "الأندلس"، ويسمى هذا النمط بالطراز المغربي الأندلسي، حيث ينتشر كذلك في جميع مدن المغرب الإسلامي جغرافيا، و يمتد زمنيا إلى غاية نهاية الفترة العثمانية "بالجزائر".

- كما يجلوا لبعض الباحثين بتسمية طراز بناء المنازل في الفترة العثمانية في "الجزائر" بالطراز العثماني، و لكن في الحقيقة هناك بعض الاختلافات بين الطرازين، من حيث توزع الوحدات المعمارية، حيث في النمط العثماني لا نجد البوائك التي تطل على الصحن (وسط الدار)، و نلمح ذلك مباشرة في تخطيط منازل المشرق الإسلامي و هي شبيهة جدا بمنازل المدن العثمانية في "أسطنبول" و "أنقرة" و غيرها من المدن التركية.

- إن المدينتي "تلمسان" و "الجزائر" و غيرها من المدن الجزائرية حافظت على الطراز المغربي الأندلسي خلال الفترة العثمانية، أما ما يمكن أن نلاحظ من تأثيرات عثمانية فإنها تتجلى في نمط

الزخرفة، من حيث المواضيع و العناصر الزخرفية، منها البلاطات الخزفية، و الأعمدة بأنواعها، و الصناعات الخشبية التي تزدان بها المنازل.

- تمتاز العمارة الإسلامية بمنهج فكري يتناسب مع العادات و التقاليد الدينية في البيئة المحيطة، و لعل أكبر دليل على ذلك العناصر المعمارية الوظيفية التي تميزت بها العمارة الإسلامية عامة و المسكن الإسلامي بصفة خاصة، و كان الهدف الرئيسي منها هو حماية الخصوصية بعمل الفتاحات كلها إلى الداخل حول صحن داخلي، و تأكيد تعدد القاعات و العلاقات الوظيفية للفراغات للفصل بين جزء الحرم و جزء الرجال و الممرات المنكسرة و كذلك علاقة المساكن ببعضها البعض، و الأمثلة التي تؤكد تناسب العناصر المعمارية مع المنهج الإسلامي تصميم المساكن بمختلف أنواعها مثل المسكن الخاص (مساكن عامة الناس، مسكن الحاكم، مساكن الأغنياء).

- ترك المشرع الإسلامي لمالك الأرض الحرية بأعمارها بما يشاء: من حوانيت للتجارة، أو معمل للصناعة، أو بيت للسكن، أو فندق للوافدين، لكن هذا السماح مقيد بشروط، منها:

- أن يراعي حقوق جيرانه، فلا يؤذيهم بريح أو دخان أو غيرهما مما يؤثر على السكان والمسكن.

- أن لا ينكشف له جاره أو يتجسس عليه أو يتصنت حديثه.

- أن لا يحدث في الطريق أي تغيير دون موافقة من يشتركون معه فيه .

- و إذا بنى دارا فلا يقابل بابه جاره ولا نافذته.

- و إذا بنى دكانا فلا يكون مقابلا لباب دار جاره، ولا يكون في سكة غير نافذة.

- تميزت العمارة الإسلامية بغنى مفرداتها المعمارية، واهتمامها بالنواحي الحياتية جميعها، فظهرت المباني الدينية من مساجد و أضرحة و مدارس، و المباني المدنية كالدور والقصور، وأبنية عامة كالبيمارستان والخانات أو الفنادق (محطات استراحة المسافرين)، والحمامات والأسواق. كما ظهر الاهتمام بالحدائق والسبل المائية على صعيد تخطيط المدن، إضافة إلى العمارة العسكرية حيث وُبنيت القلاع والتحصينات العسكرية والأربطة.

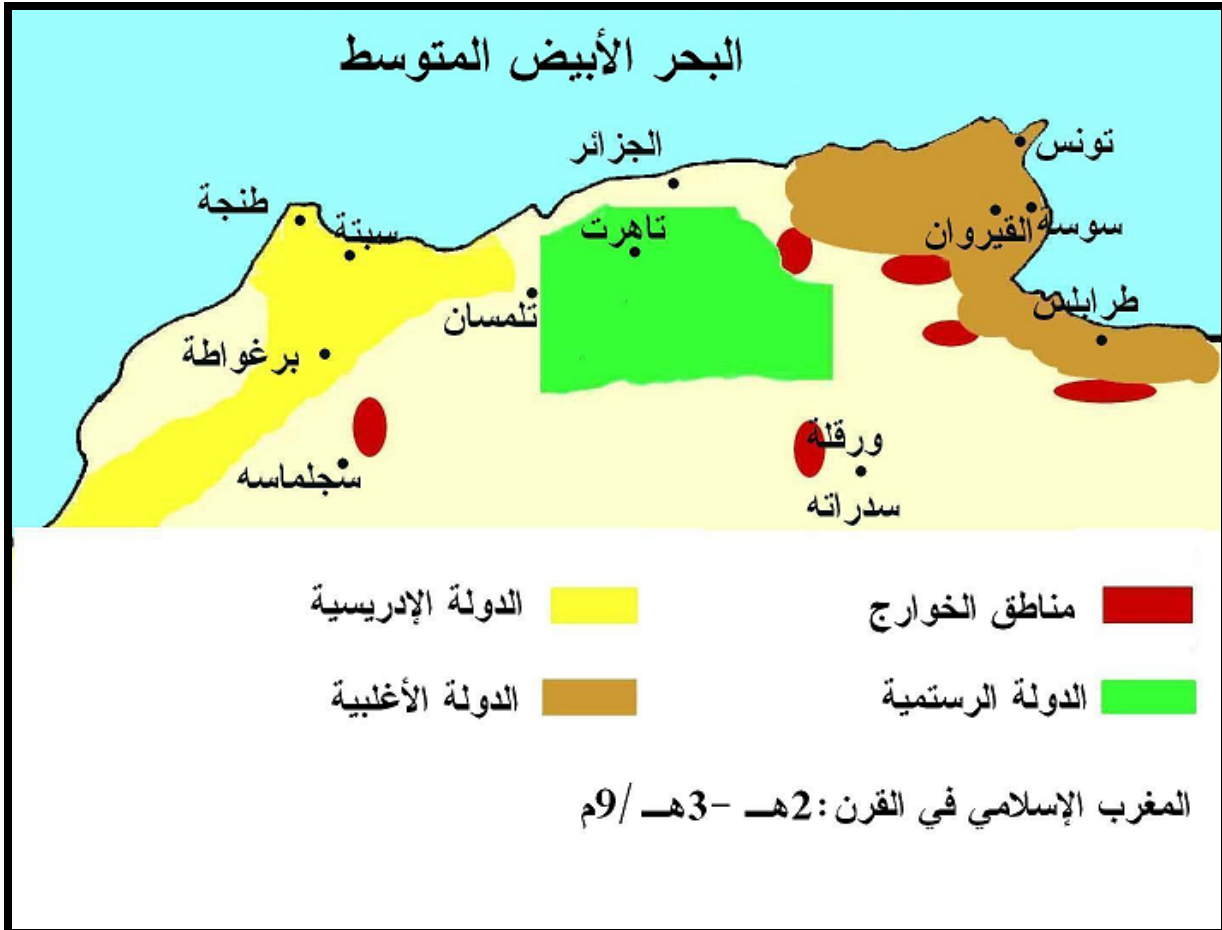
- لم يقتصر غنى العمارة الإسلامية على تنوع ماهيات الأبنية وموضوعاتها؛ بل تميزت بغنى مفرداتها وعناصرها المعمارية، فمن هذه العناصر: القباب، والعقود بمختلف أشكالها (أنصاف الدائرية، والمدببة، والحدوية، والمفصصة، و ذات الأطراف الملتوية ...)، والمآذن بمختلف أشكالها، والمحاريب، و البلاطات، و الأساكيب، والعناصر الانتقالية للقباب من مثلثات كروية ومقرنصات، والفراغات الداخلية المكشوفة، والسُّبل المائية الموزعة في أحياء المدن، و المواجل، و الأحواض المائية الداخلية، والأواوين (غرف جلوس ثلاثية الجدران تطل على الفناء)، وعناصر الزخرفة المختلفة، وبرز شأن الكتابة العربية عنصراً زخرفياً في مختلف الأبنية ورمزاً من رموز الديانة الإسلامية، وهي لغة القرآن الكريم، بالإضافة إلى العناصر النباتية بطبيعتها الأصلية أو محورة.

- شمل الفكر العمراني الإسلامي الجانب الفني و الجمالي للعمارة الإسلامية، حيث اعتمد الفن الإسلامي على الرمزية والتجريد وسيلة في التعبير المعماري، فالرقش (الأرابيسك) مثلاً هو حالة تعبيرية تفسيرية معينة للكون والوجود، حيث استطاع فن الرقش أن يصوّر الإنسان بشكله ومضمونه بما يمثله هذا المخلوق الصغير من عالم كبير ليس له نهاية، وبفلسفة صوفية تلاقت مع مبدأ تحريم التصوير والتشبيه في الإسلام، ولئن عرفت الحضارات المصرية القديمة والكلاسيكية (اليونانية والرومانية) استخدام الزخارف الهندسة والنباتية، فالمدرسة الإسلامية جعلت من هذه الزخارف مدرسة فنية لها أسلوبها وفلسفتها دعيت بفن الرقش (الأرابيسك).

- وتجلت الرمزية أيضاً في العمارة الإسلامية بتأكيد أشكال المربع والدائرة والعلاقة الجدلية بينهما، وهو ما يلاحظ في مساقط المباني، و عناصرها الوظيفية، فالمربع يمثل العناصر الأربعة المكونة للطبيعة في الفلسفة الصوفية وهي (النار والهواء والماء والتراب)، وأتت المئذنة لتعبر عن الارتقاء نحو السماء عن طريق الآذان والدعوة إلى أداء فروض الصلاة، ولم تبتعد هذه الرمزية عن تنظيم المدن الإسلامية وتجلت في مخططات المدن الإسلامية حيث المدينة حول المسجد الكبير. وقد يشعر الباحث و المتأمل في هذه المخططات، أنه أمام مشهد توحيدي تتجلى فيه المركزية التي تشاهد في المدن الإسلامية.

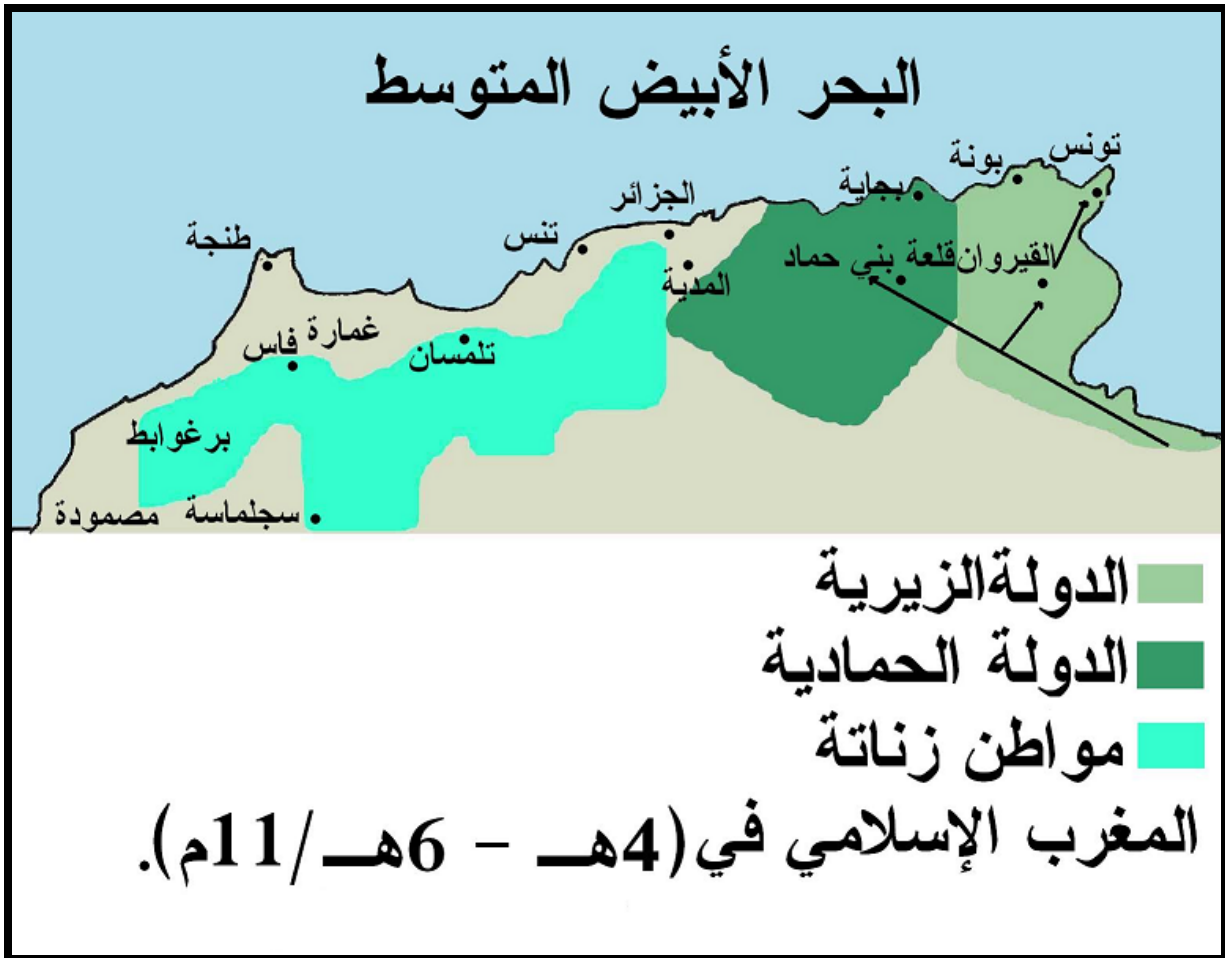
الخرائط
الألواح
المخططات
الأشكال

الخزائن



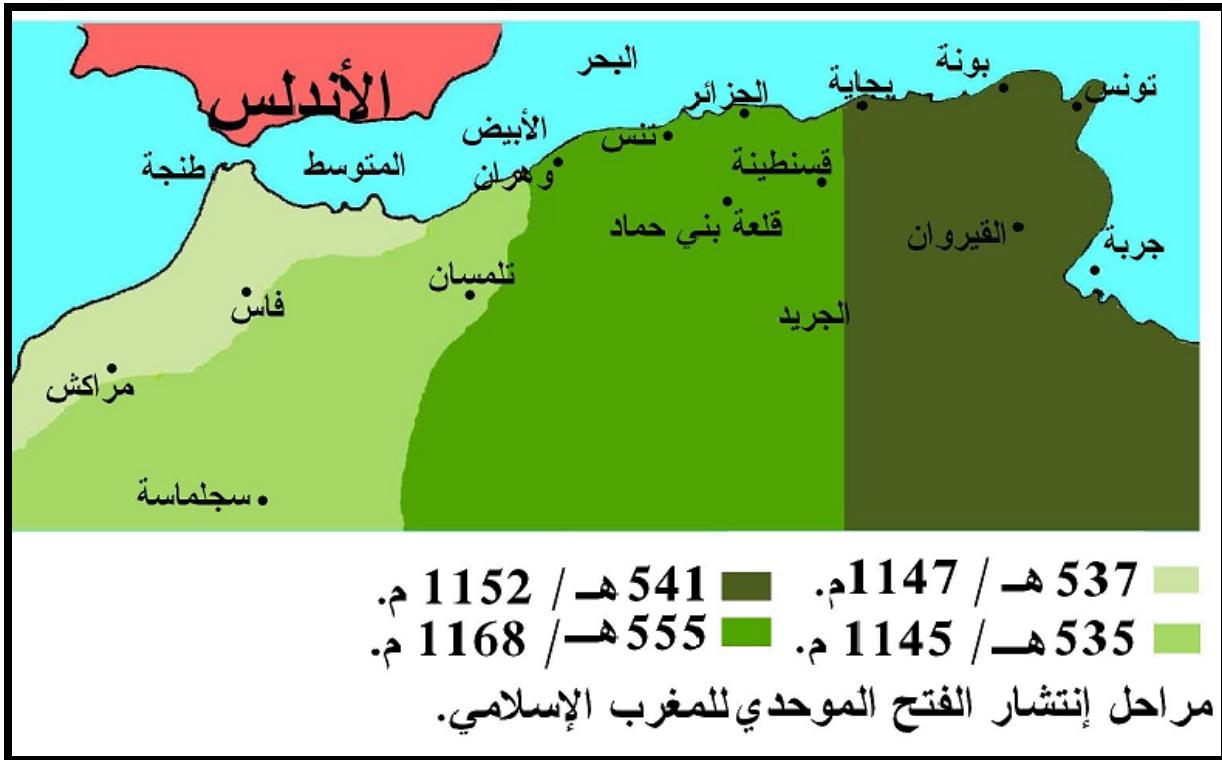
عن عبد الرحمن الجليلي، تاريخ، ... ج1، ص 263 .

الخريطة رقم (1).



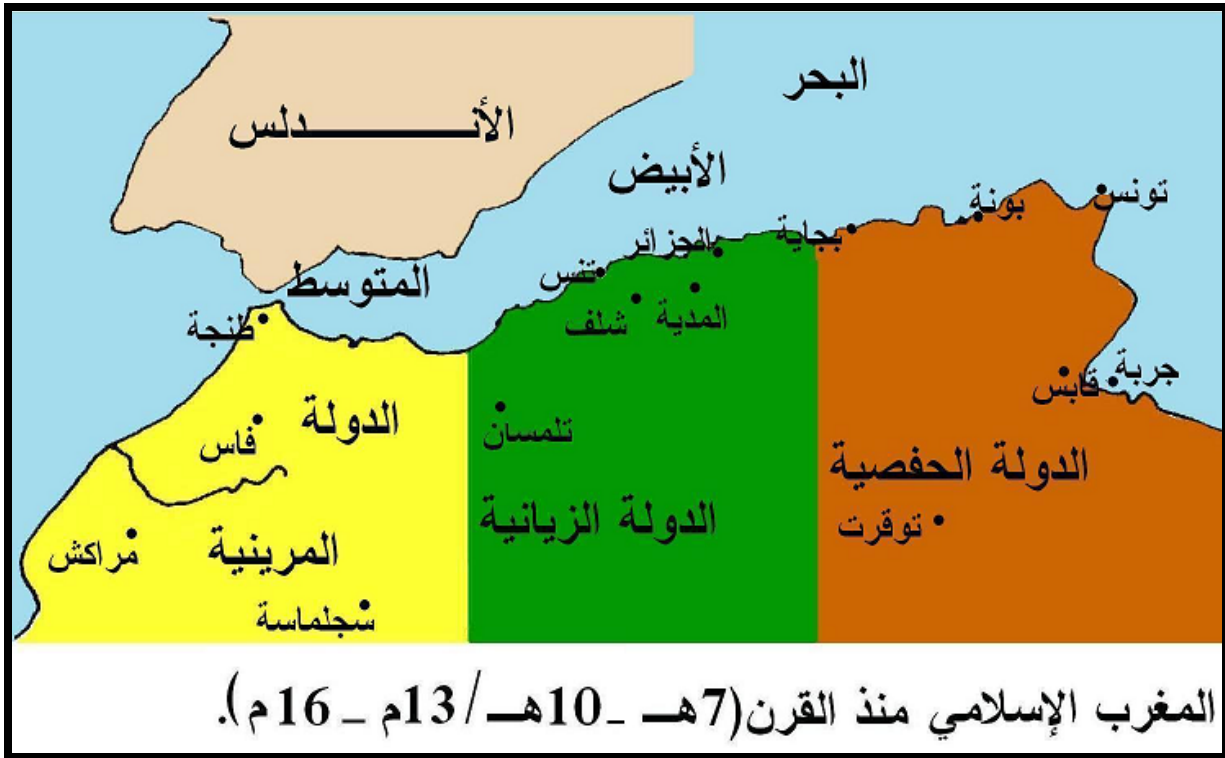
عن عبد الرحمن الجليلي، تاريخ الجزائر..... ج2، ص. 29.

الخريطة رقم (2).



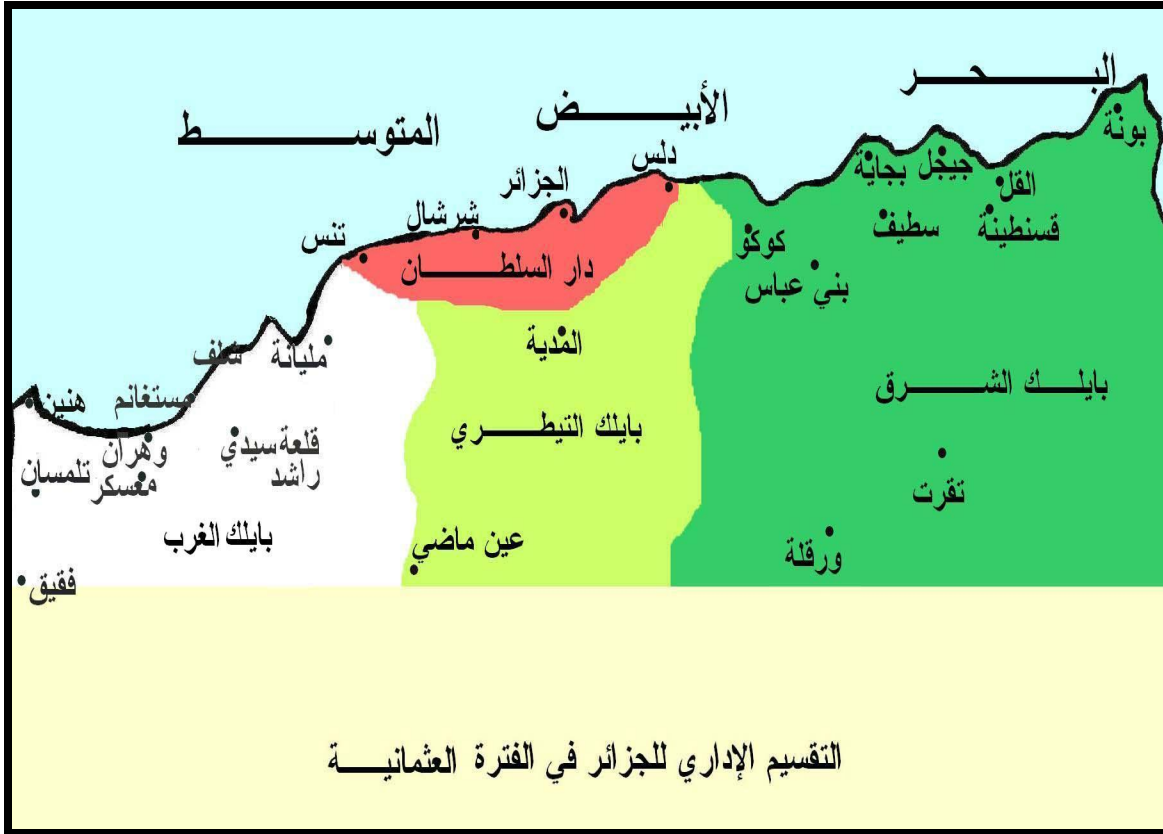
عن عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر..... ج2، ص. 29.

الخريطة رقم (3).



عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر.....ج2، ص. 68.

الخريطة رقم (4).



الخريطة رقم (5).

الألواح



اللوحة قم (1): أنموذج من مدينة تعود للفترة الرومانية.



الشارع الرئيس بالمدينة الرومانية يمتد من غرب إلى شرق المدينة..

اللوحة رقم (2).



المدخل الرئيسي للمدينة الرومانية.

اللوحة رقم (3).



بيت الصلاة بالمسجد الجامع لقلعة بني حماد.

اللوحة رقم (4).



مئذنة المسجد الجامع المرابطي.



مئذنة جامع المنصورة (الفترة المرينية بتلمسان) .



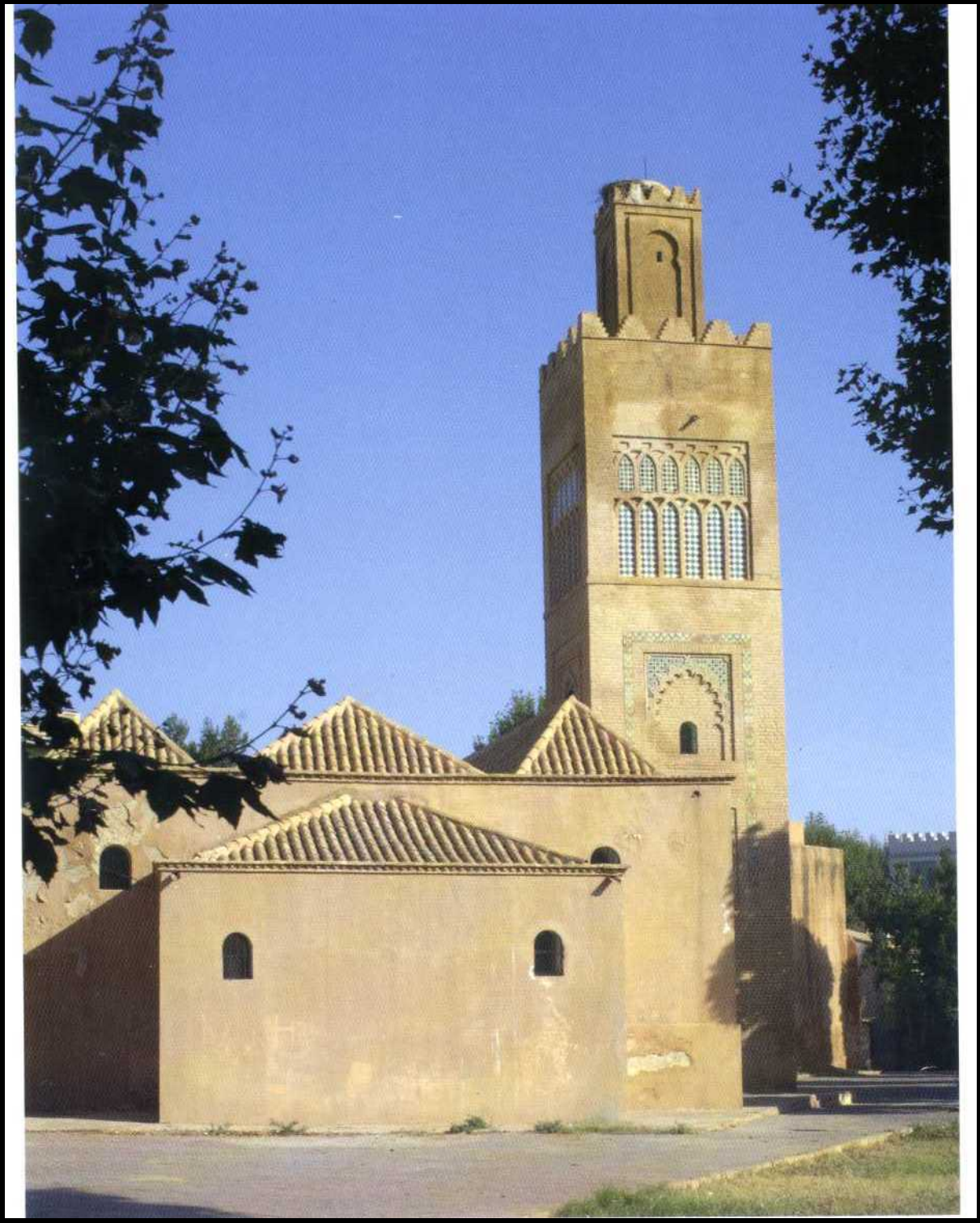
مئذنة أغادير (الفترة الزيانية).

اللوحة رقم (5): بعض النماذج للمآذن بمدينة تلمسان.



مسجد سيدي أبي الحسن بمدينة تلمسان من الفترة الزيانية.

اللوحة رقم (6).



مسجد المشور بمدينة تلمسان الفترة الزيانية.

اللوحة رقم (7).



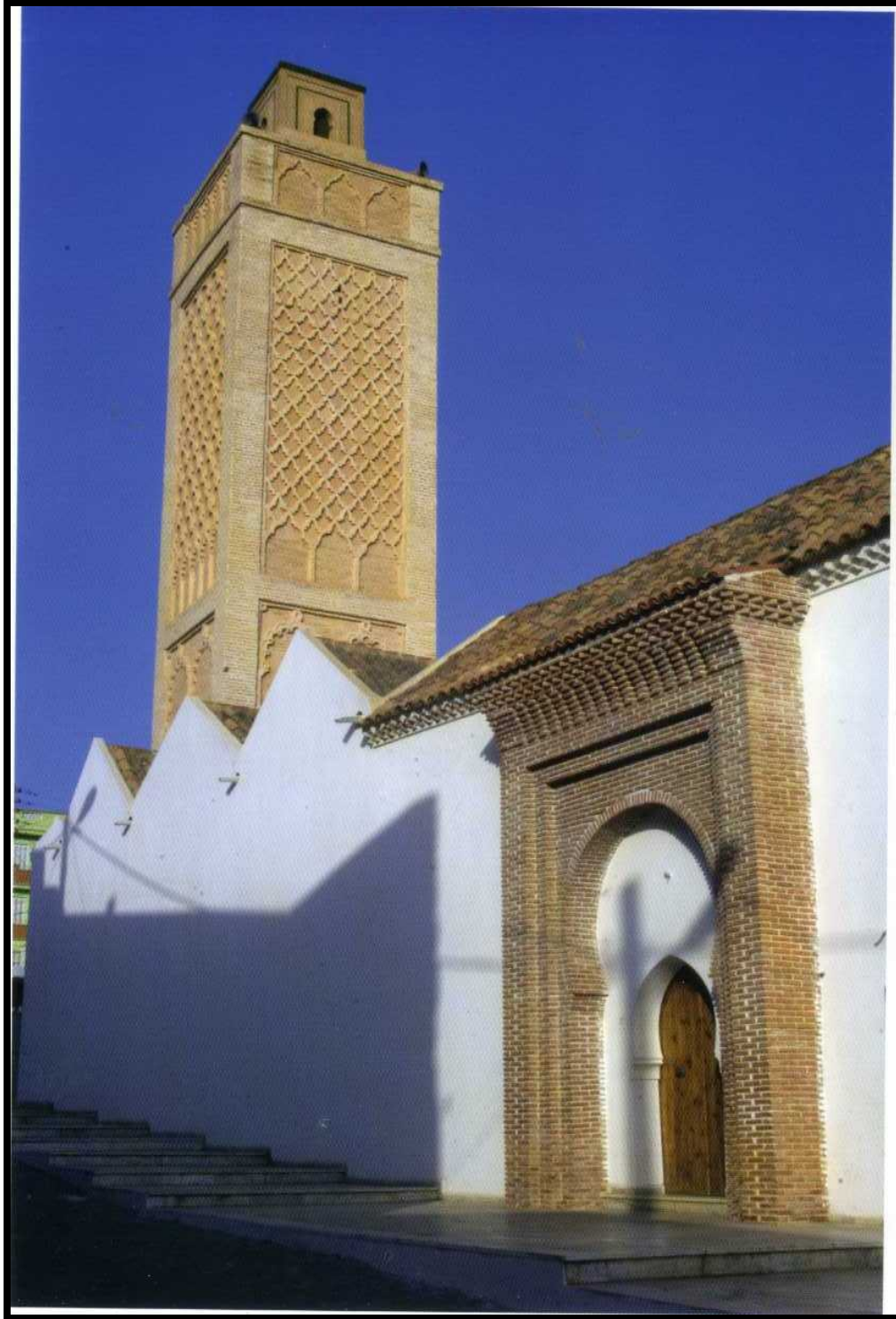
صحن المسجد الجامع لمدينة ندرومة الفترة المرابطية.

اللوحة رقم (8).



البلاطة الوسطى في مسجد ندررومة الفترة المرابطية.

اللوحة رقم (9).



واجهه المسجد الجامع بمدينة ندرومه ندرومه المئذنة من الفترة الزبانية.

اللوحة رقم (10).



الصحن في مسجد سيدي الحلوي بمدينة تلمسان من الفترة الزيانية.

اللوحة رقم (11).



النظام التسقيف الجمالوني بمسجد سيدي الحلوي من الفترة الزيانية.

اللوحة رقم (12).



صحن المسجد الجامع المرابطي بمدينة الجزائر الصحن يعود للفترة العثمانية.

اللوحة رقم (13).



قطع من منبر جامع كتشاوى من مادة الرخام الفترة العثمانية.

اللوحة رقم (14).

عن: المتحف الوطني للآثار القديمة و الفنون الإسلامية بالجزائر.



مسجد الداوي (المسجد الجواني) داخل دار السلطان بقصبة مدينة الجزائر

اللوحة رقم (15).



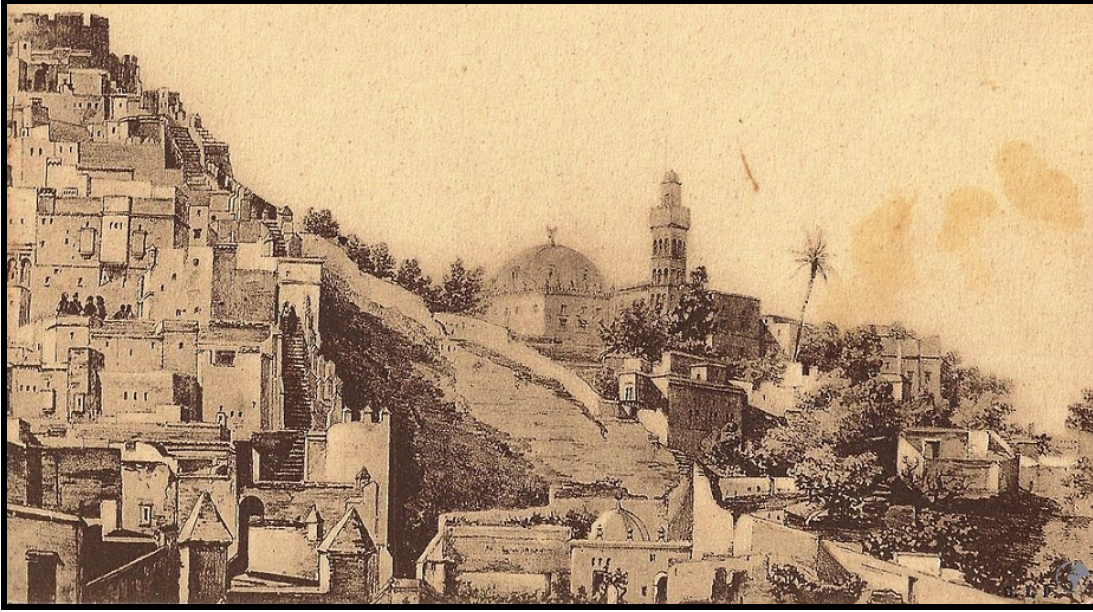
مسجد الداى (المسجد الجوانى) نظام التسقيف بالقبة المركزية وقباب جانبية.

اللوحة رقم (16).



بقايا الأسوار الجنوبية لمدينة الجزائر الفترة العثمانية.

اللوحة رقم (17).



اللوحة رقم (18) : مسجد سيدي عبد الرحمن الشعالبي في سنة 1830م.



اللوحة رقم (19) : الطراز المحلي للمآذن مدينة الجزائر في الفترة العثمانية.

مئذنة مسجد سيدي عبد الرحمن الشعالبي.



أحد أبراج سور القرمدين بمدينة تلمسان الفترة الموحدية.

اللوحة رقم (20)



سور القرمدين بمدينة تلمسان من الجهة الشمالية الفترة الموحدية.

اللوحة رقم (21) .



برج حائطي لسور مدينة سلا بالمغرب الأقصى

اللوحة رقم (22).



تقنية بناء سور مدينة سلا بالمغرب الأقصى

اللوحة رقم (23).



جزء من السور الجنوبي مدينة سلا بالمغرب الأقصى.

اللوحة رقم (24).



أحد دروب مدينة تلمسان.

أنظر كيف أبواب المساكن لا تتقابل فيما بينها.

الدخول إليه عبر باب تعلوها غرفة مشكلة بذلك ساباطا.

اللوحة رقم (25).



اللوحة رقم (26) : نموذج من الشوارع الضيقة بمدينة الجزائر
شارع عيادي السعيد حاليا.



اللوحة رقم (27) : بقايا لمساكن من الفترة العثمانية بمدينة تلمسان بحي باب زيري.



اللوحة رقم (28): باب مسجد أبو مدين شعيب بمدينة تلمسان بالعباد العلوي.
من الفترة المرينية.



نافورة المسجد الكبير المرابطي بمدينة الجزائر سنة 1830م.

اللوحة رقم: (29).

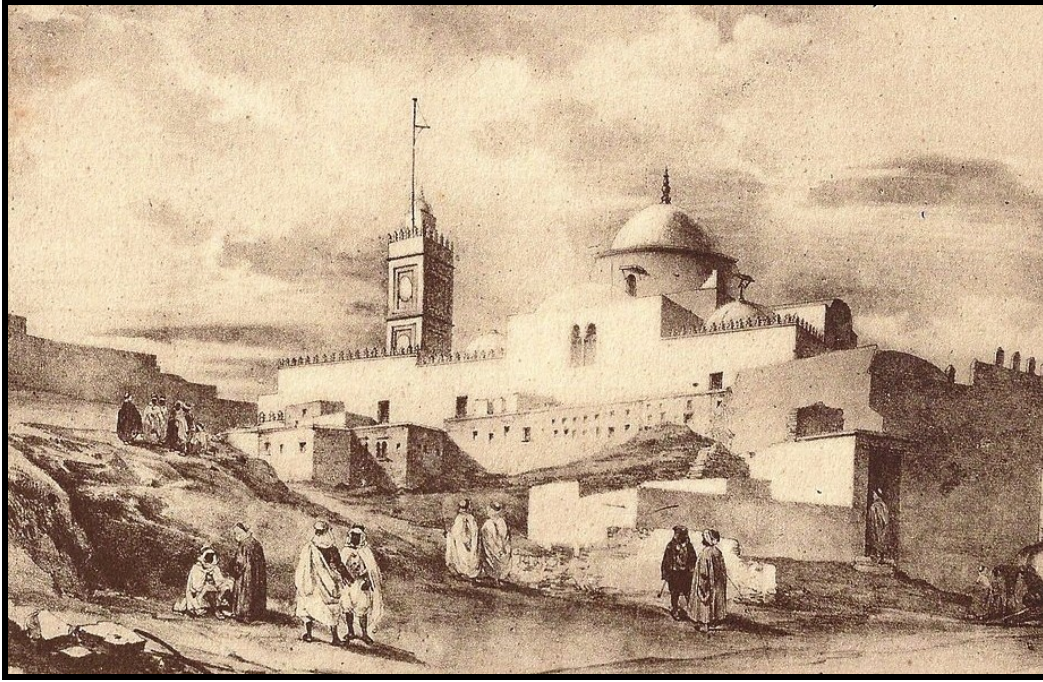
عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.fr>



اللوحة رقم (30): نماذج من أسبلة مدينة الجزائر في الفترة العثمانية اللوحة تعود إلى سنة

1830م.

عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.f>



الجامع الجديد بمدينة الجزائر من الفترة العثمانية سنة 1830م.



جامع السيدة مع ساحة الجنيينة بمدينة الجزائر من الفترة العثمانية سنة 1830م.

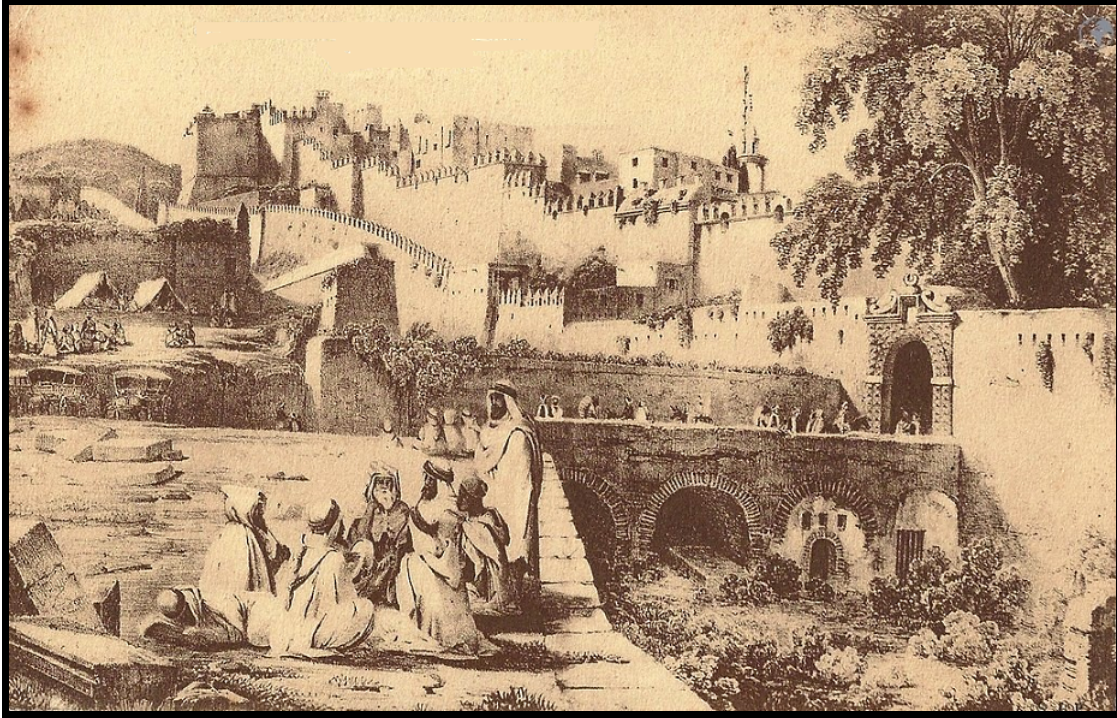
اللوحة رقم: (31).

عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.fr>



اللوحة رقم (32) : مدينة الجزائر في القرن 12 هـ / 18 م.

عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.fr>



اللوحة رقم (33) : باب عزون بمدينة الجزائر في سنة 1830م.



اللوحة رقم (34) : باب الوادي بمدينة الجزائر في سنة 1830م.

عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.fr>

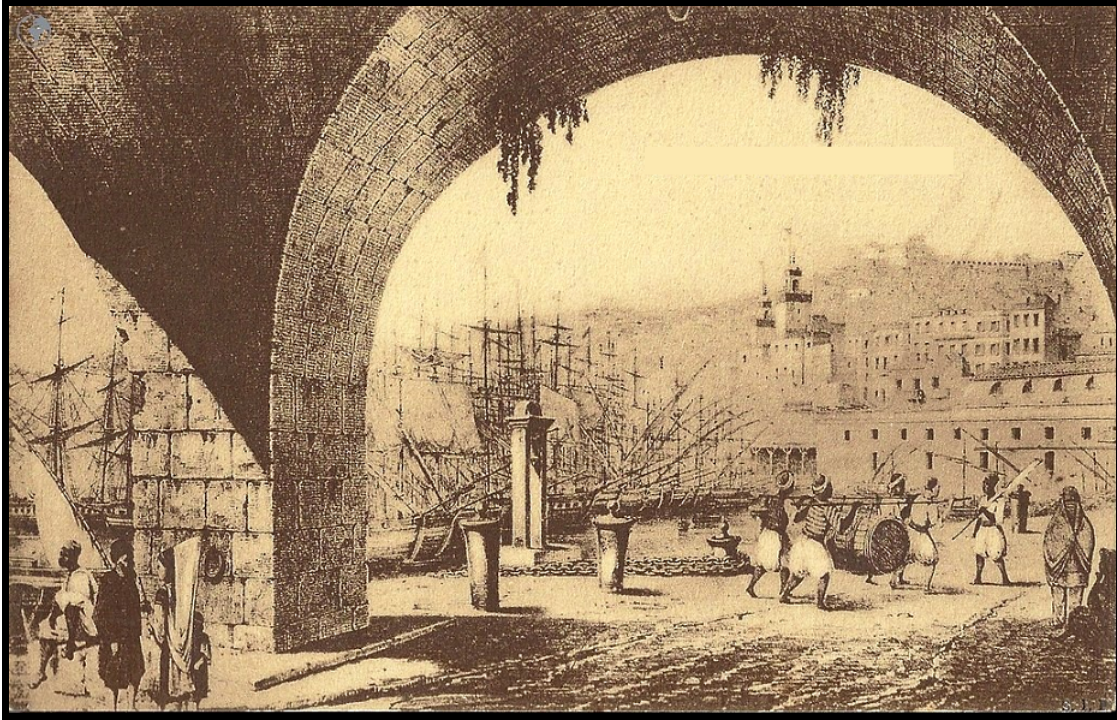


اللوحة رقم (35): سوق باب الوادي بمدينة الجزائر في سنة 1830م.

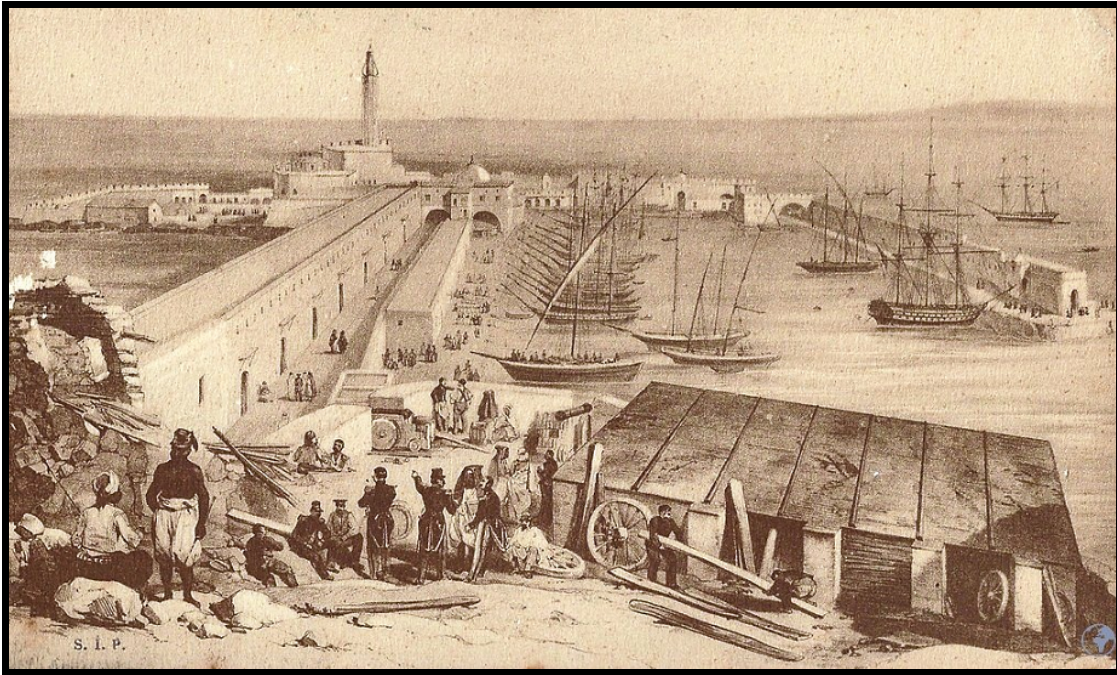


اللوحة رقم (36): سوق باب عزون بمدينة الجزائر في سنة 1830م.

عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.fr>



اللوحة رقم (37): ميناء مدينة الجزائر في سنة 1830م.



اللوحة رقم (38): رأس المول بميناء مدينة الجزائر في سنة 1830م.

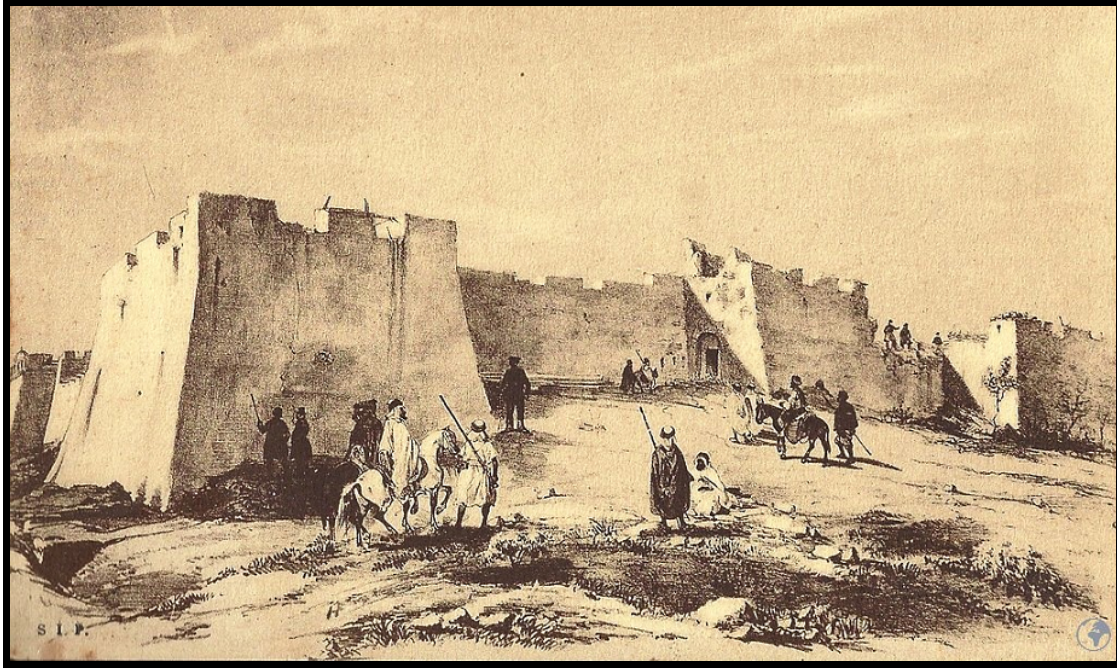
عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.fr>



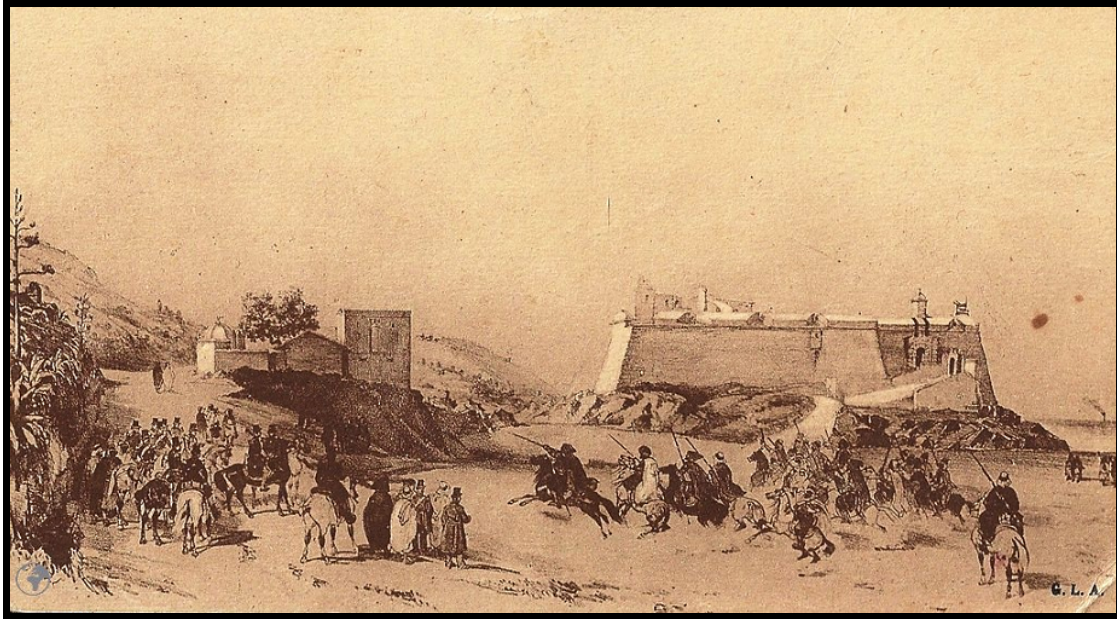
اللوحة رقم (39): الجامع الكبير المرابطي و الجامع الجديد بمدينة الجزائر في سنة

1830م.

عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.fr>

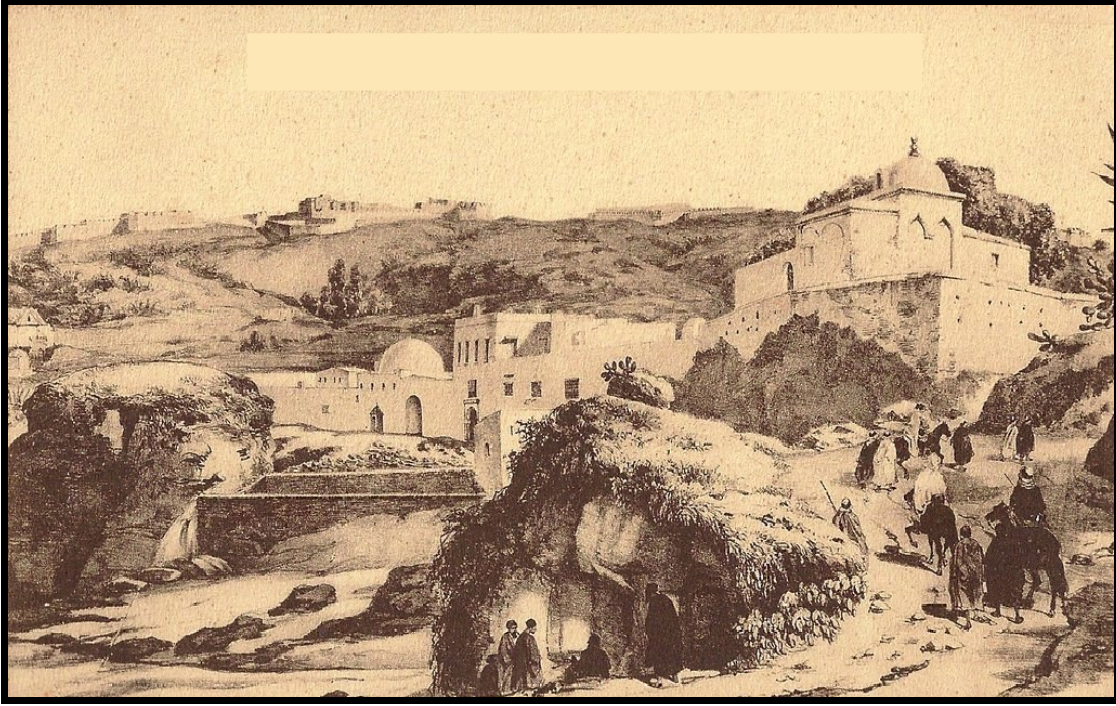


اللوحة رقم (40): برج الإمبراطور في أعلى مدينة الجزائر في سنة 1830م.



اللوحة رقم (41): برج 24 ساعة من جهة باب الوادي بمدينة الجزائر في سنة 1830م.

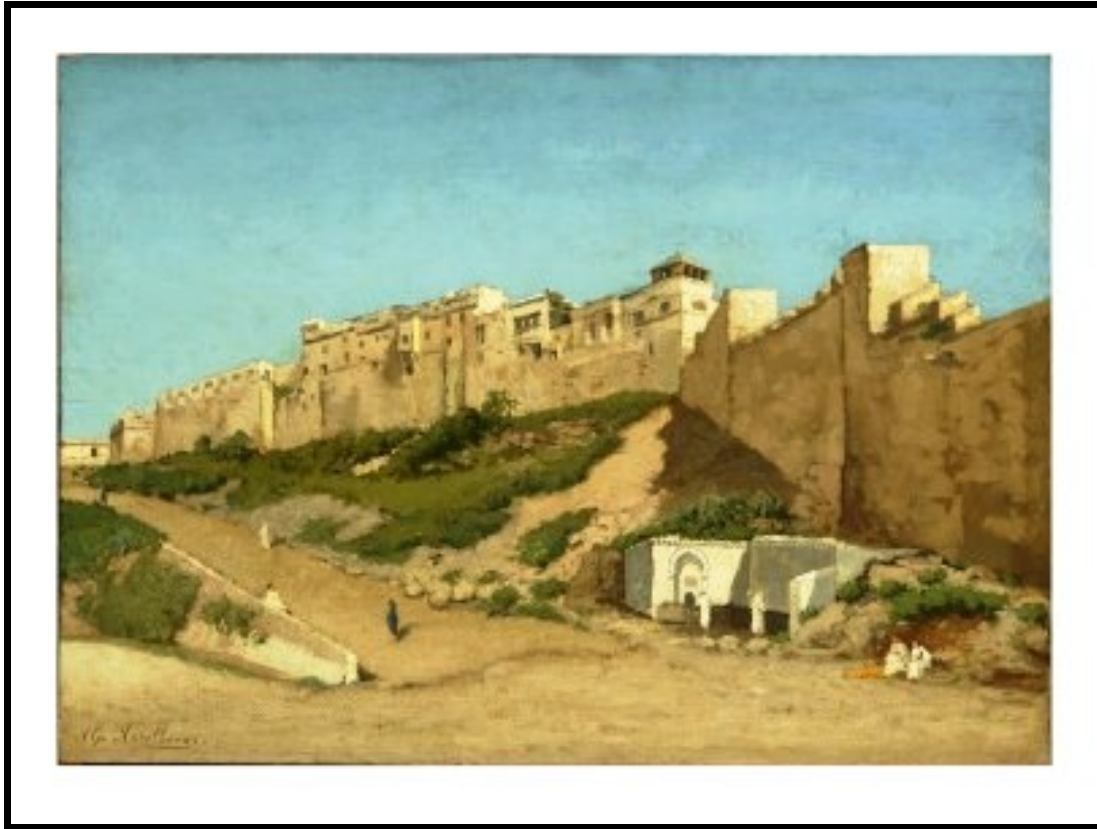
عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.fr>



اللوحة رقم (42): دار البارود خارج الأسوار من جهة باب الوادي بمدينة الجزائر في سنة

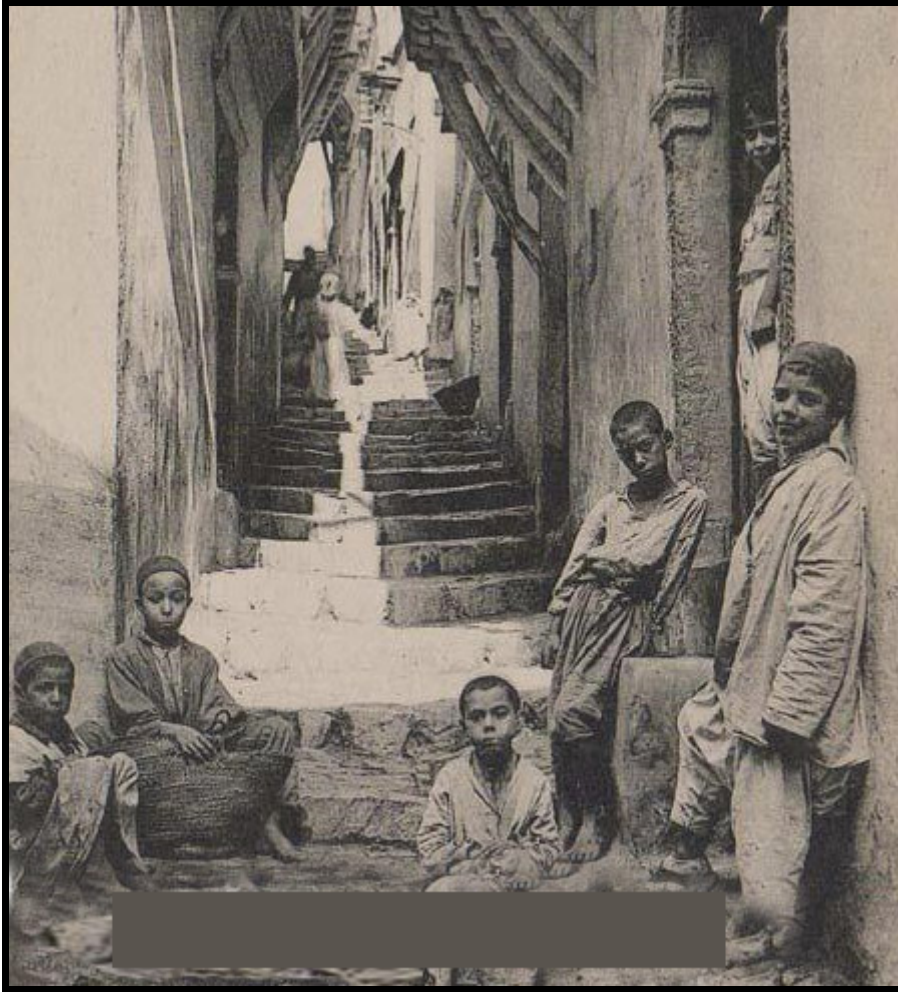
1830م.

عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.fr>



اللوحة رقم (43) : الأسوار الجنوبية لمدينة الجزائر في سنة 1830م.

عن الموقع الإلكتروني: <http://alger-roi.fr>



اللوحة رقم (44) : حي تنبوكتو بمدينة الجزائر في سنة 1830م.

<http://alger-roi.fr> عن الموقع الإلكتروني:



اللوحة رقم (45) : الصورة توضح موقع مسجد سدي عبد الرحمن بالنسبة للضريح

المسجد يقع يمين الضريح، و المقبرة أسفل المسجد.



اللوحة رقم (46) : الصورة توضح ضريح سدي عبد الرحمن بمدينة الجزائر.



اللوحة رقم (47) : نظام النسيق في الجامع الكبير المرابطي بمدينة الجزائر .



اللوحة رقم (48) : نظام النسيق في الجامع الجديد من الفترة العثمانية بمدينة الجزائر.



الباب الرئيسي على الحائط الغربي.

باب على يسار الباب الرئيسي على الحائط الغربي.



باب على يسار الباب الرئيسي على الحائط الغربي.

اللوحة رقم (49) : أبواب الحائط الغربي لجامع الجديد بمدينة الجزائر.



اللوحة رقم (50): باب رئيسي على الحائط الجنوبي لجامع الجديد بمدينة الجزائر.



من محاسن نظام التسقيف بالقبة المركزية و قباب جانبية هو تقليص عدد الأعمدة داخل

بيت الصلاة.

بيت الصلاة لمسجد علي بتشين.

اللوحة رقم (51).



اللوحة رقم (52): المنبر الرخامي لجامع السيدة يوجد حاليا في الجامع الجديد بالجزائر.



اللوحة رقم (53): دكة المبلغ لجامع الجديد من الفترة العثمانية.



اللوحة رقم (54) : الباب الجديد بأعلى القصبة بمدينة الجزائر المنفذ الرئيسي من الجهة

الجنوبية.

عن الموقع الإلكتروني : <http://alger-roi.fr>



تاج أيوني



قاعدة عمود.



آنية فخارية.

اللوحة رقم (55): لقي أثرية وجدت في حفرة ساحة الشهداء الجزائر.



اللوحة رقم (56): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.



اللوحة رقم (57): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.



اللوحة رقم (58): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.



اللوحة رقم (59): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.



اللوحة رقم (60): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.



اللوحة رقم (61): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.



اللوحة رقم (62): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.



اللوحة رقم (63): طبانة دار السلطان.



اللوحة رقم (64): منظر فوقي لقصر الداوي بدار السلطان مدينة الجزائر.



اللوحة رقم (65): قصر البايات بدار السلطان مدينة الجزائر.



اللوحة رقم (66): منظر جانبي للواجهة الشرقية المطلة على صحن قصر الداوي بدار

السلطان مدينة الجزائر.



اللوحة رقم (67): الأسوار الغربية لقلعة الأوداية من الفترة الموحدية مدينة الرباط المغرب

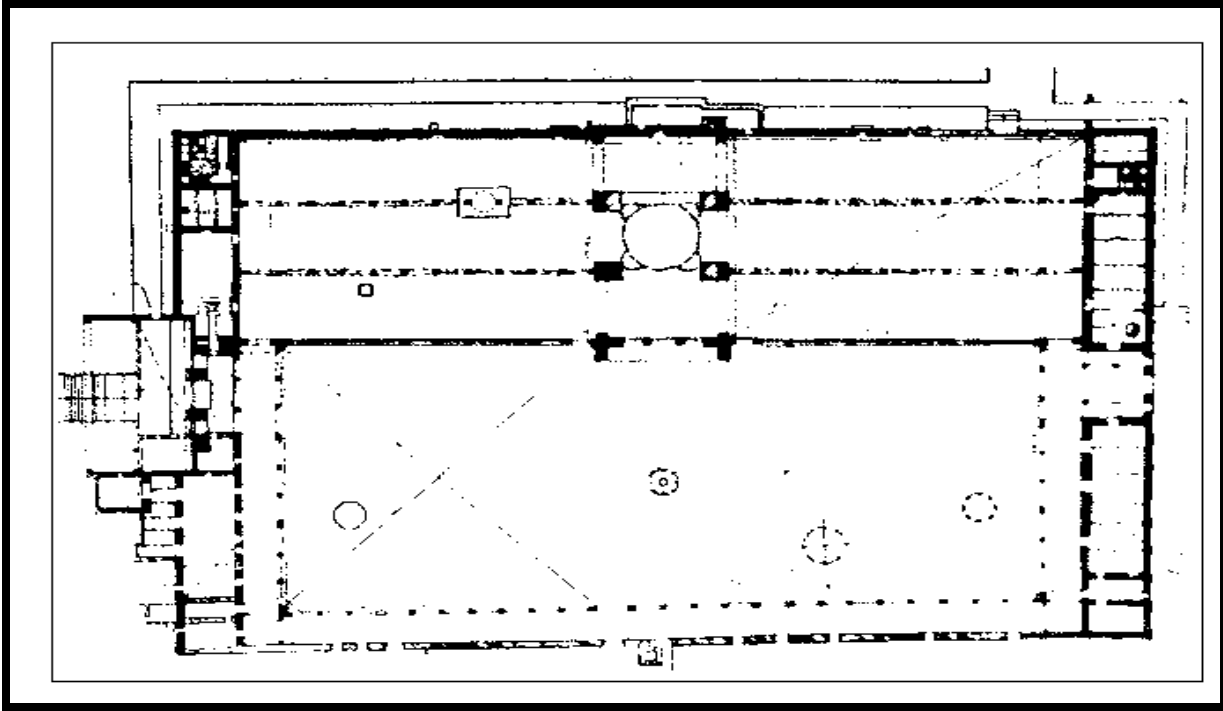


اللوحة رقم (68): الباب الرئيسي الغربي لمدينة سلا من الفترة الموحدية المغرب.

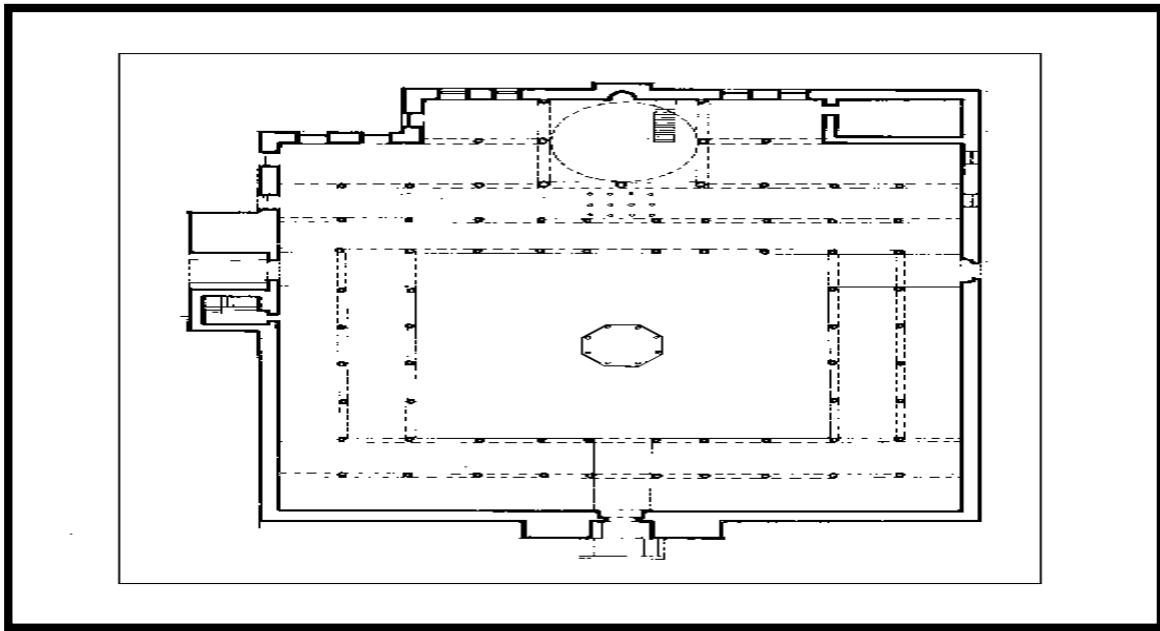


اللوحة رقم (69): نماذج من حوانيت تتقدمها الدكاكين مدينة الرباط القديمة المغرب.

المخططات



(أ): الجامع الأموي بدمشق (86 هـ / 705 م) : اتجاه العقود موازية لحائط القبلة.

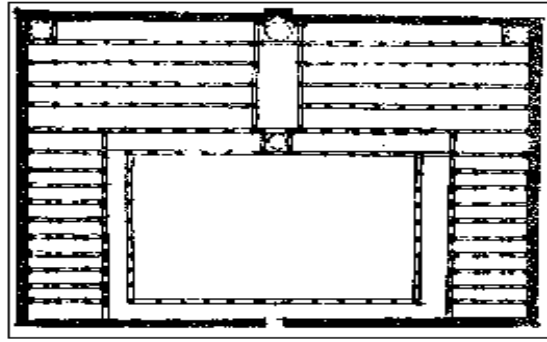
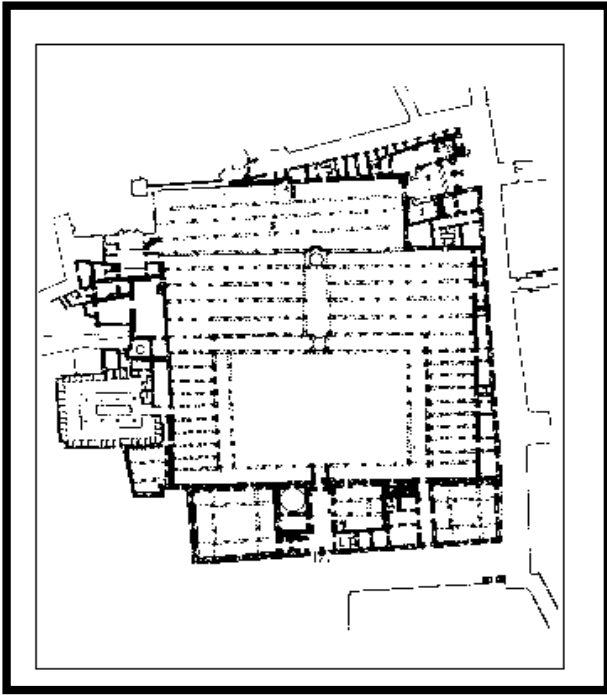


(ب): مسجد المارداني (740 هـ / 1340 م) : اتجاه العقود موازية لحائط القبلة، وفقا

لنظام الشامي.

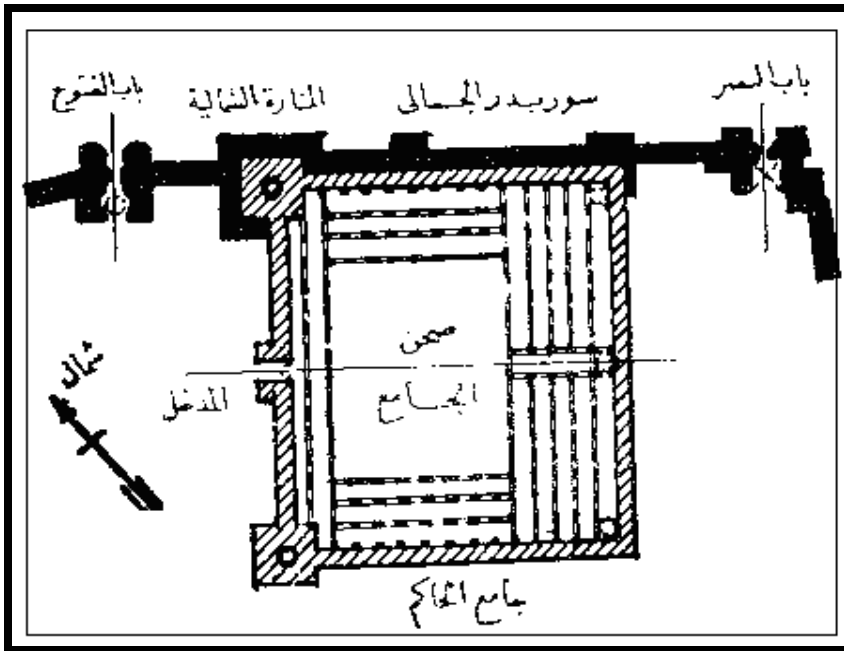
المخطط رقم (1) : (أ)، (ب).

عن: Bourouiba (R), Apportes....., p28.



(أ): الجامع الأزهر بمصر (361هـ / 972م).

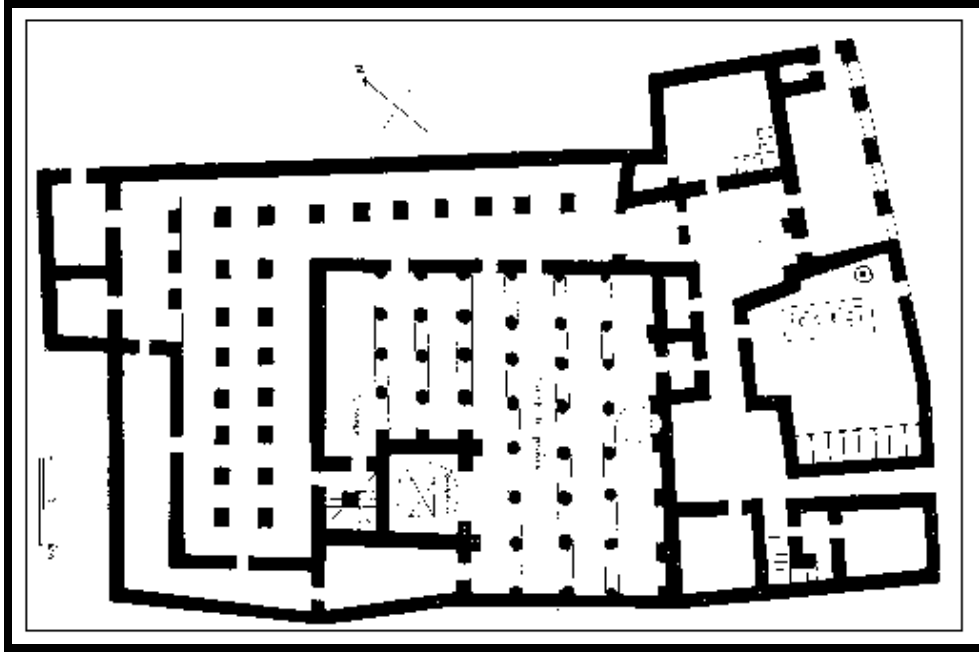
(ب): الجامع الأزهر عبر كل الزيادات.



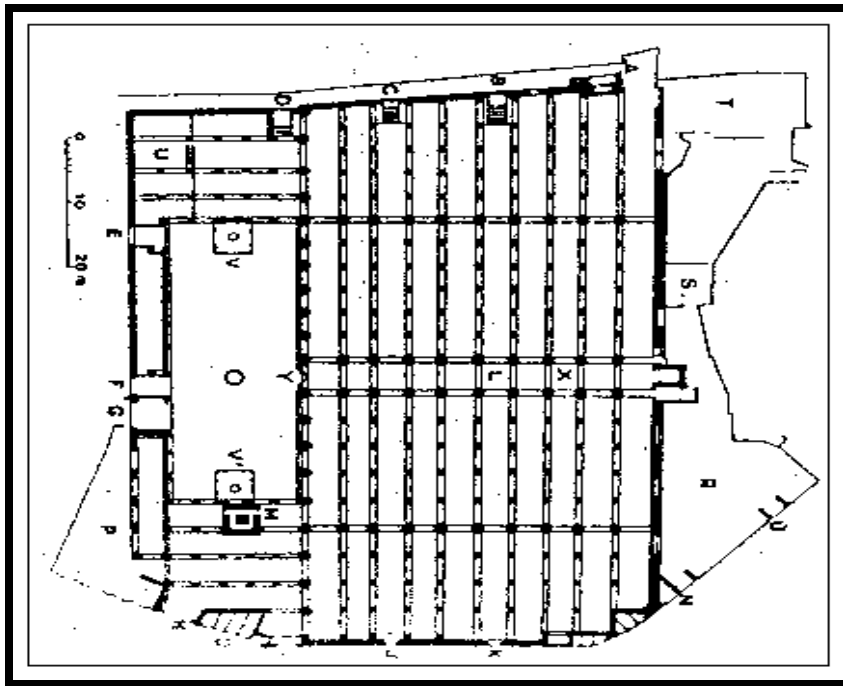
(ج): جامع الحاكم (380هـ - 403هـ / 990م - 1013م) الفترة الفاطمية.

المخطط رقم (2): (أ)، (ب)، (ج): استمرار النظام الشامي.

عن: كمال الدين السامح، المرجع السابق، ص 26.



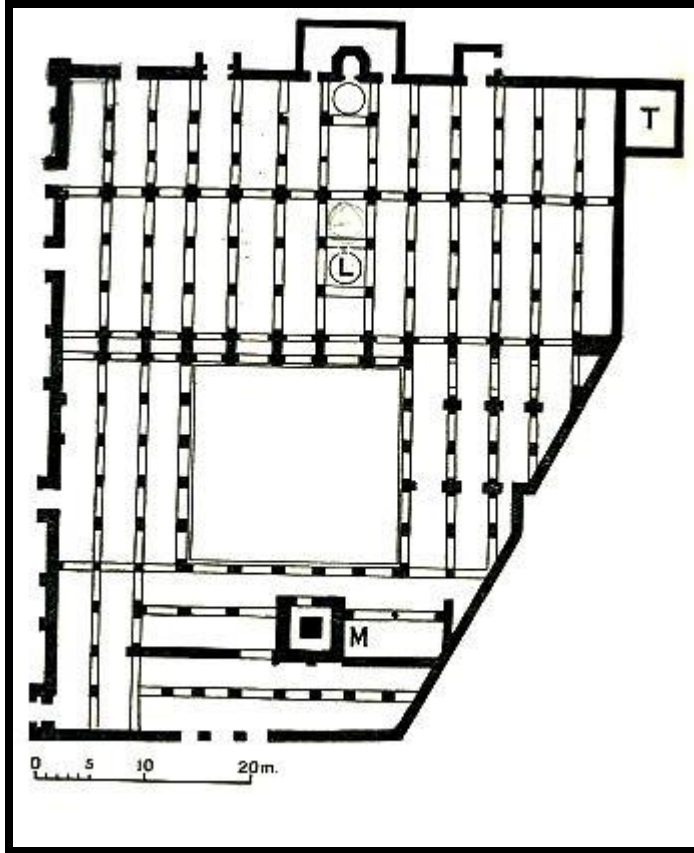
(أ): مسجد سيدي عقبة بيسكرة (63 هـ / 683 م).



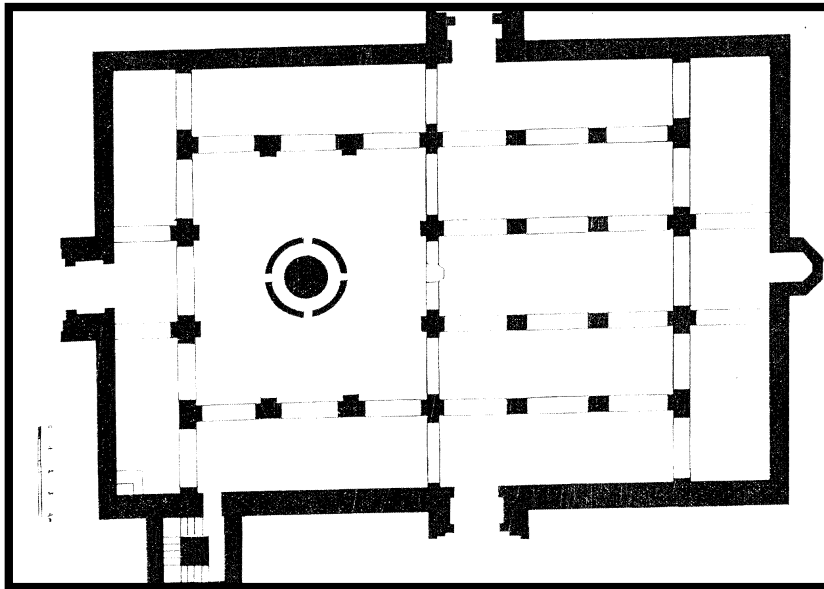
(ب): مسجد القرويين بفاس (245 هـ / 859 م). المخطط رقم (3): المساجد مغربية تتبع

النظام الشامي اتجاه بلاطتها موازية لحائط القبلة.

عن: Bourouiba (R), Apportes de L'Algérie....., p33

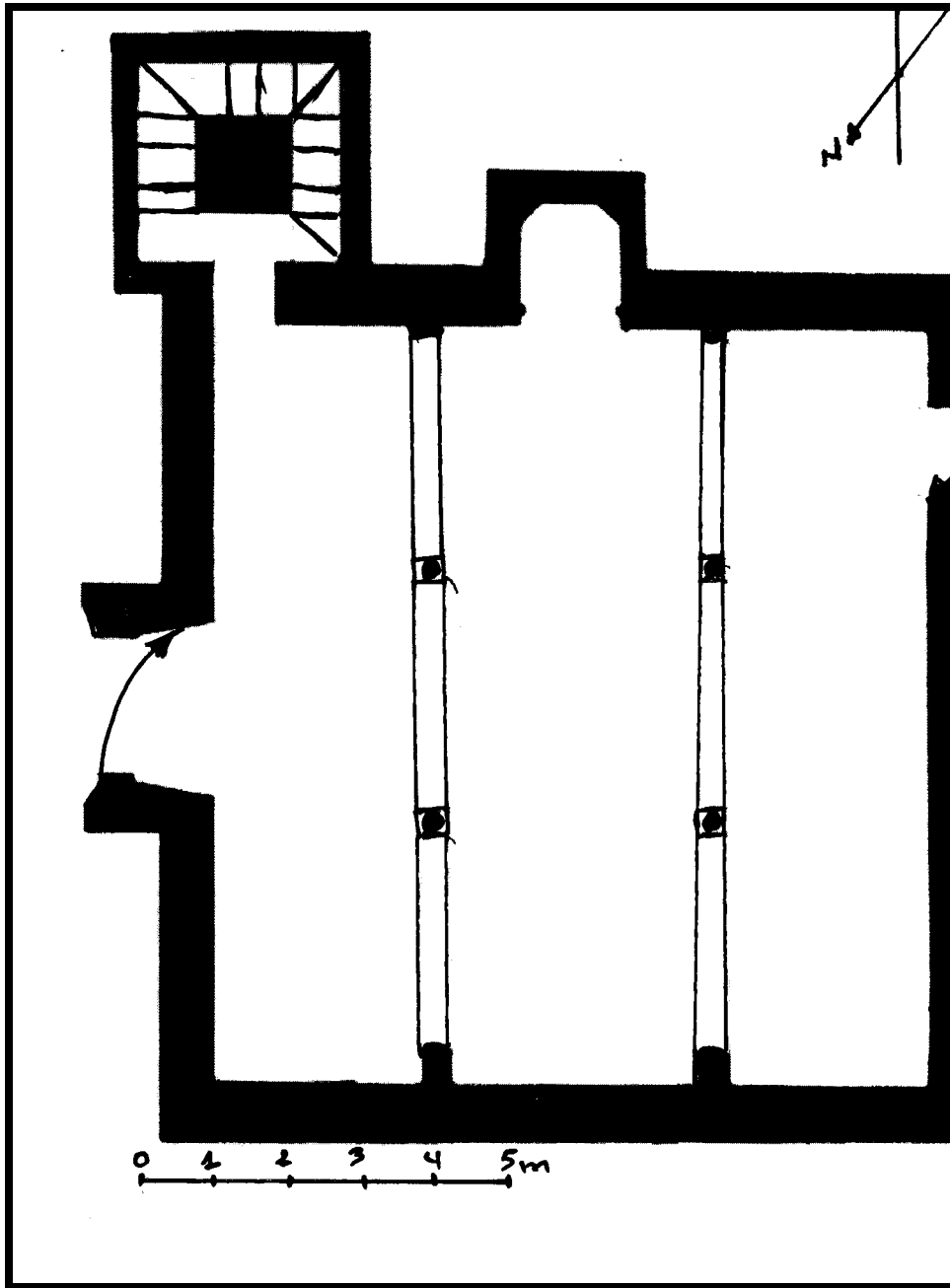


المخطط رقم (4): المسجد الجامع المرابطي بتلمسان.



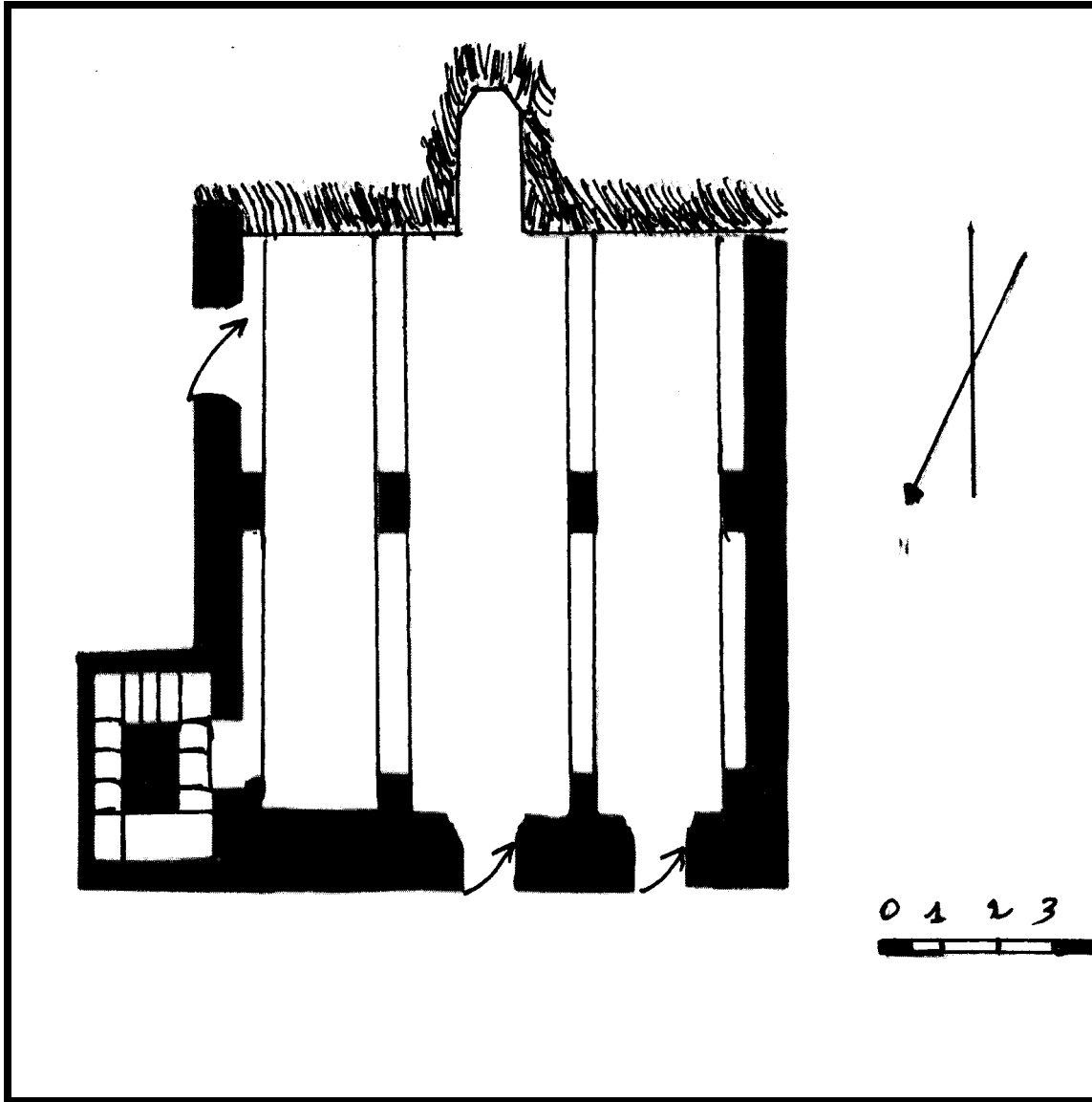
مخطط رقم (5): مسجد سيدي إبراهيم المصمودي بمدينة تلمسان.

عن: Bourouiba (R), L'art....., p 312



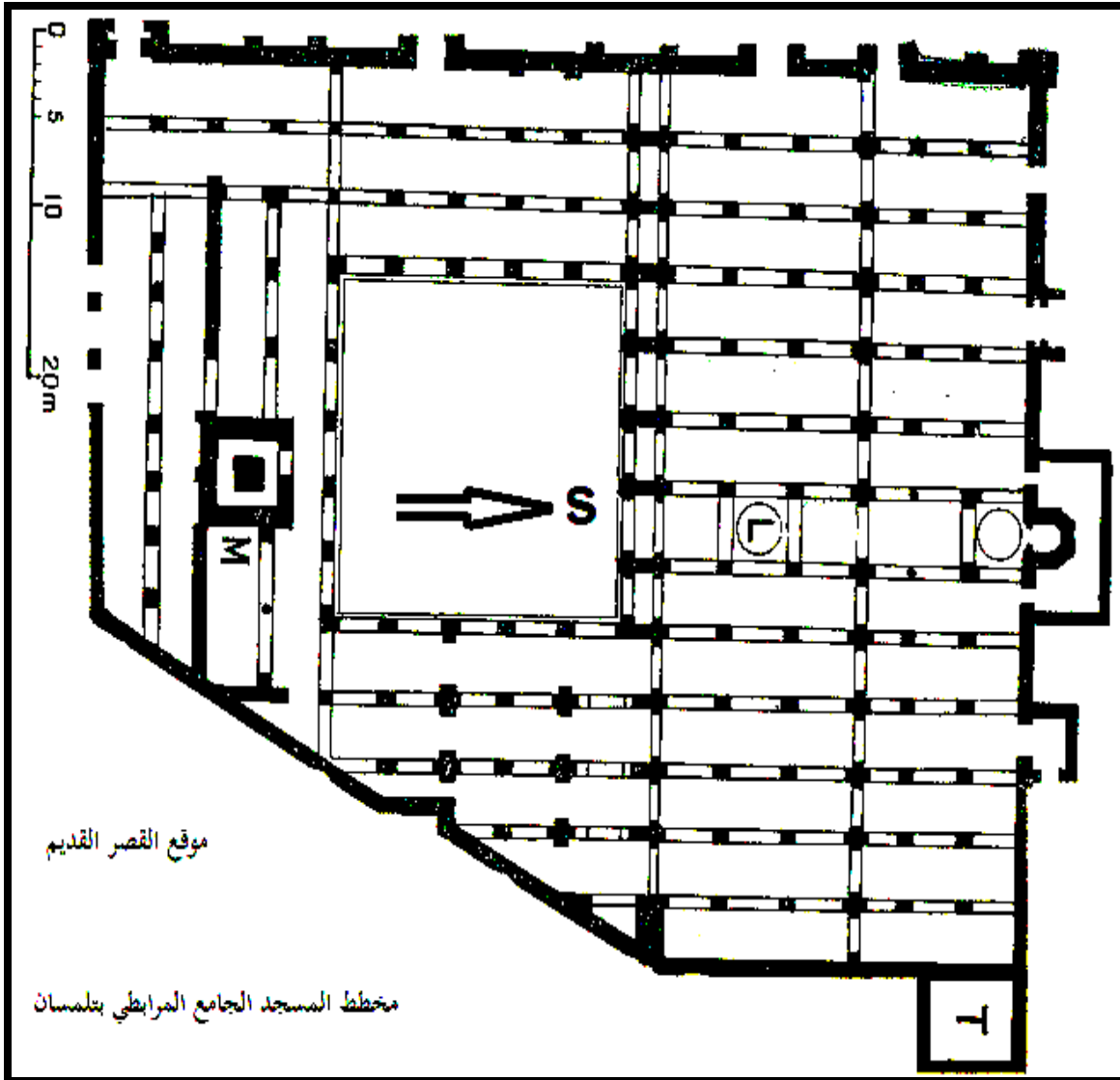
المخطط رقم (6): مسجد سيدي أبي الحسن بمدينة تلمسان.

عن: Bourouiba (R), L'art....., p 312



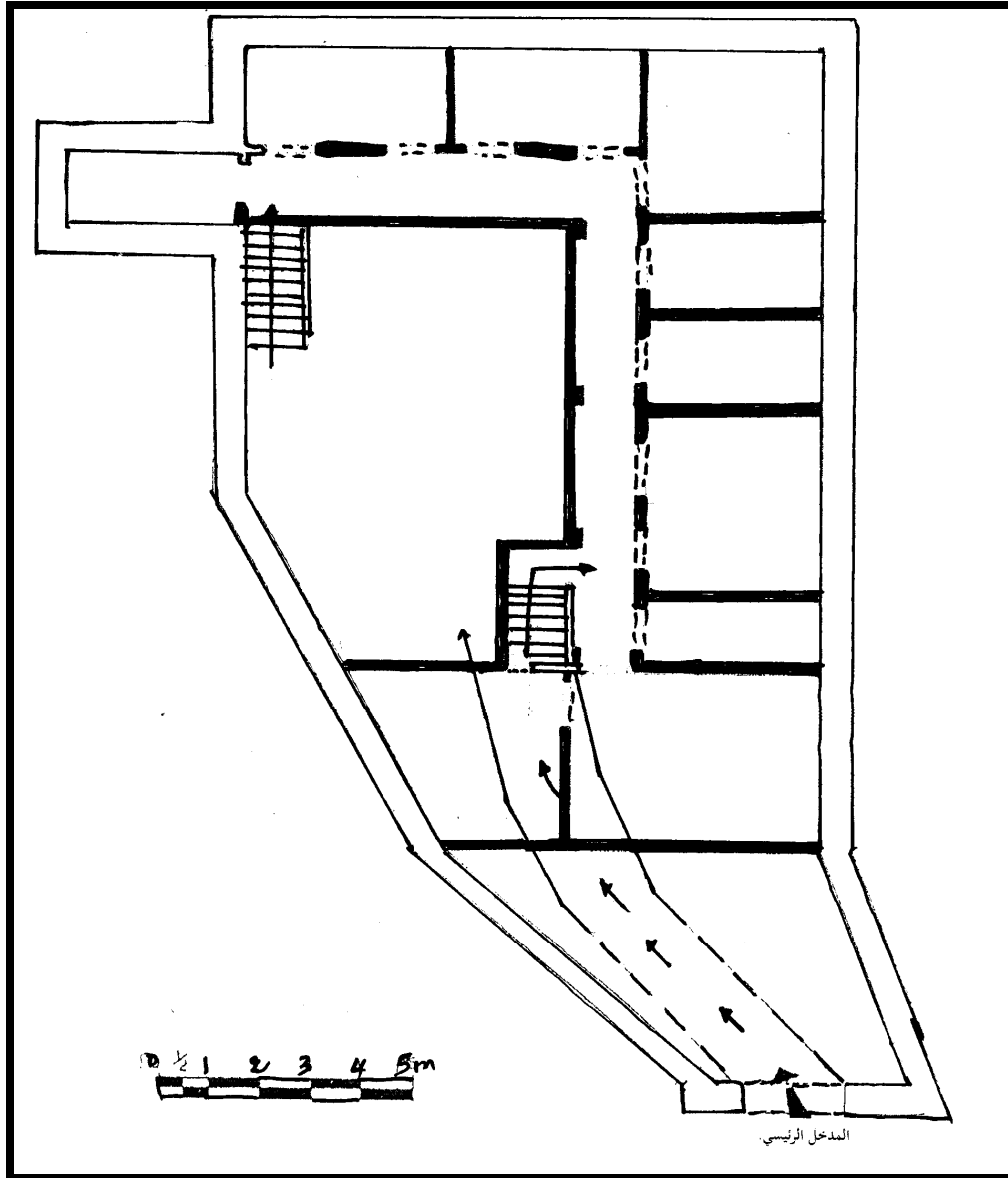
مخطط رقم (7): مسجد أولاد الإمام بمدينة تلمسان.

عن: Bourouiba (R), L'art....., p 230



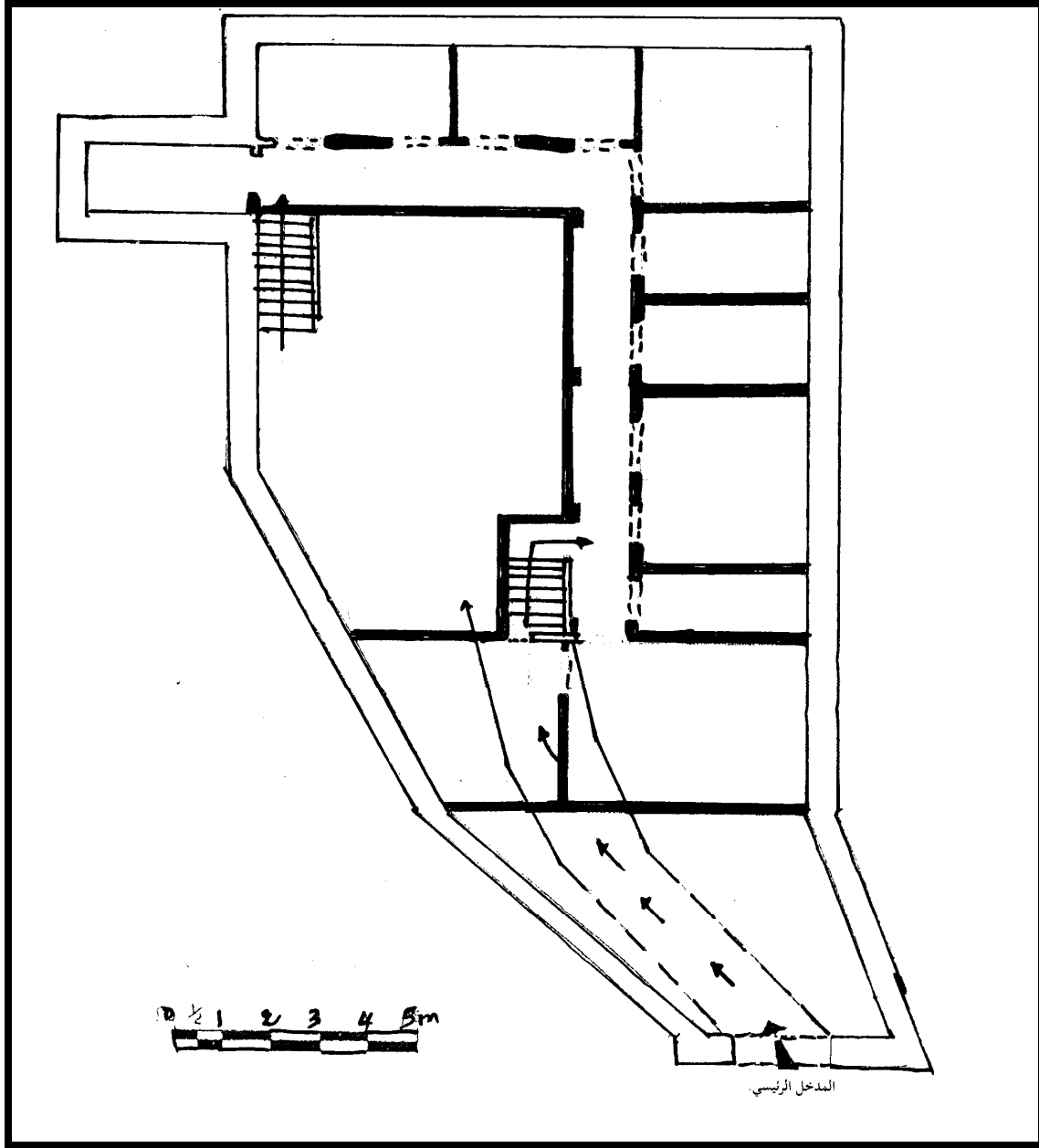
مخطط رقم (8): المسجد الجامع المرابطي بتلمسان، مع موقع القصر القديم.

عن: Bourouiba (R), L'art....., p 159



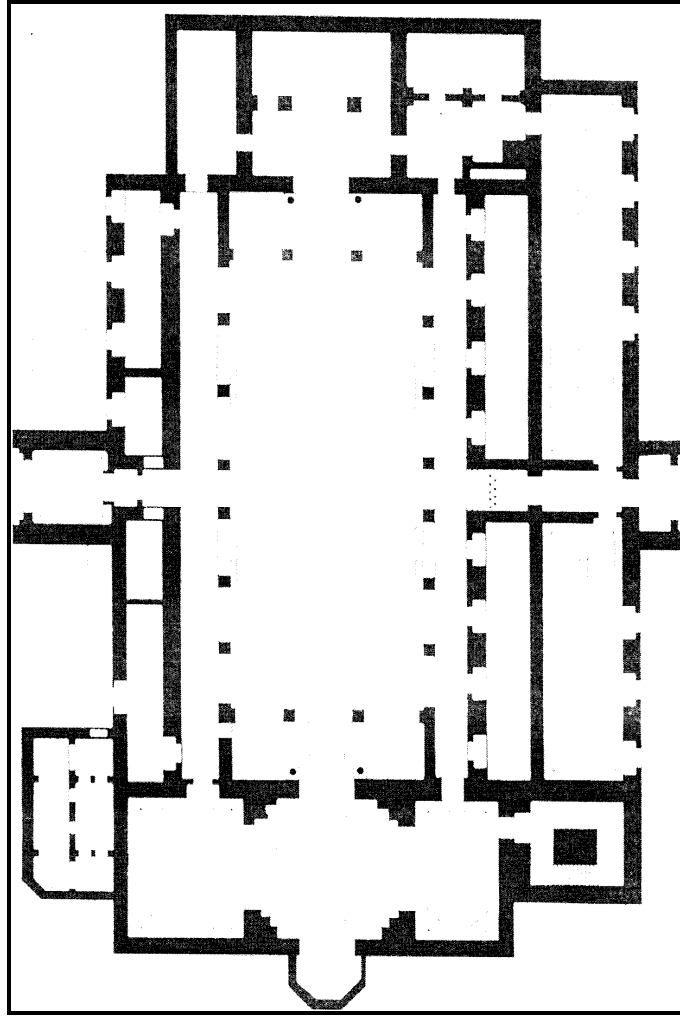
المخطط رقم (9): فندق المامي الطابق الأرضي بمدينة تلمسان.

عن: عمر بلوط، المرجع السابق، ص 171.



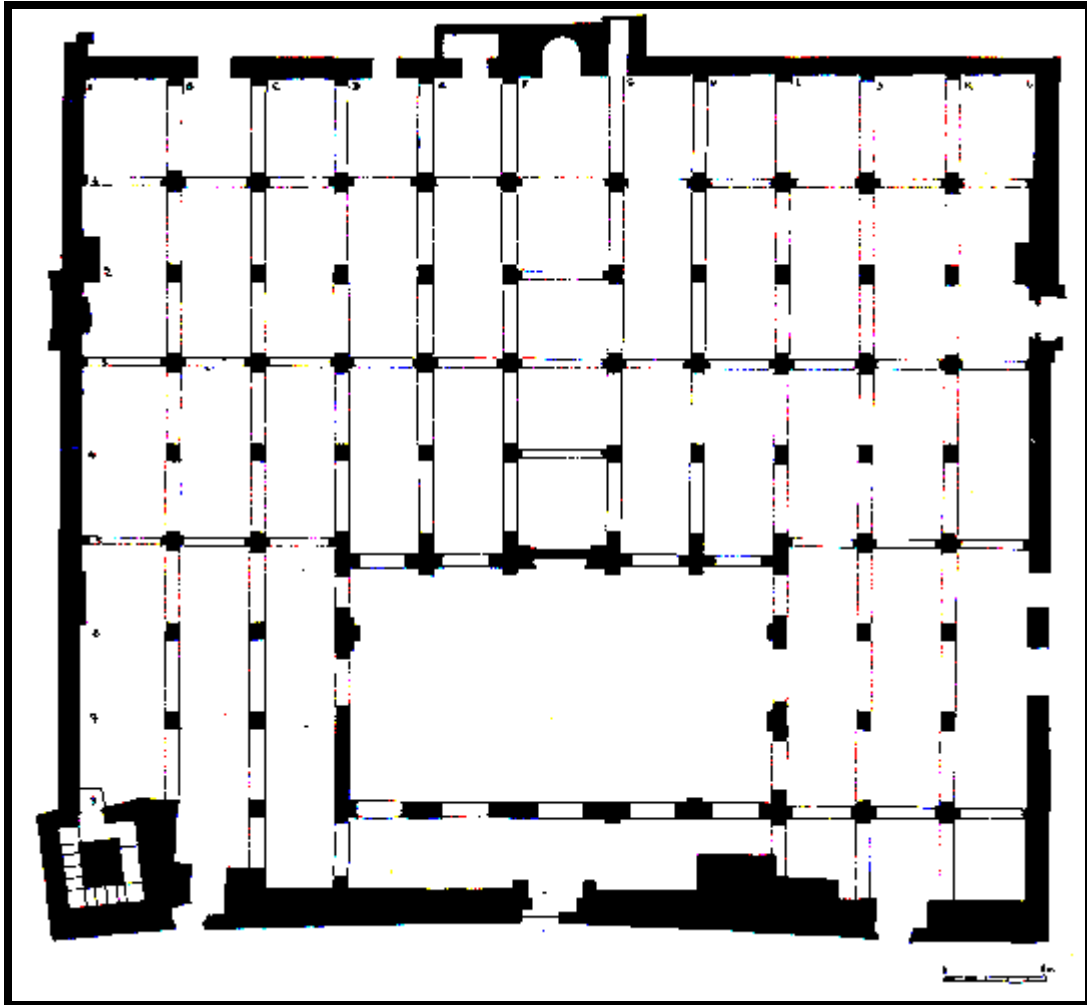
المخطط رقم (10): فندق أبو علي بمدينة تلمسان.

عن: عمر بلوط، المرجع السابق، ص 173.



المخطط رقم (11): مخطط المدرسة التاشفينية بتلمسان.

عن: نصر الدين براهيمى، المرجع السابق، ص 86.



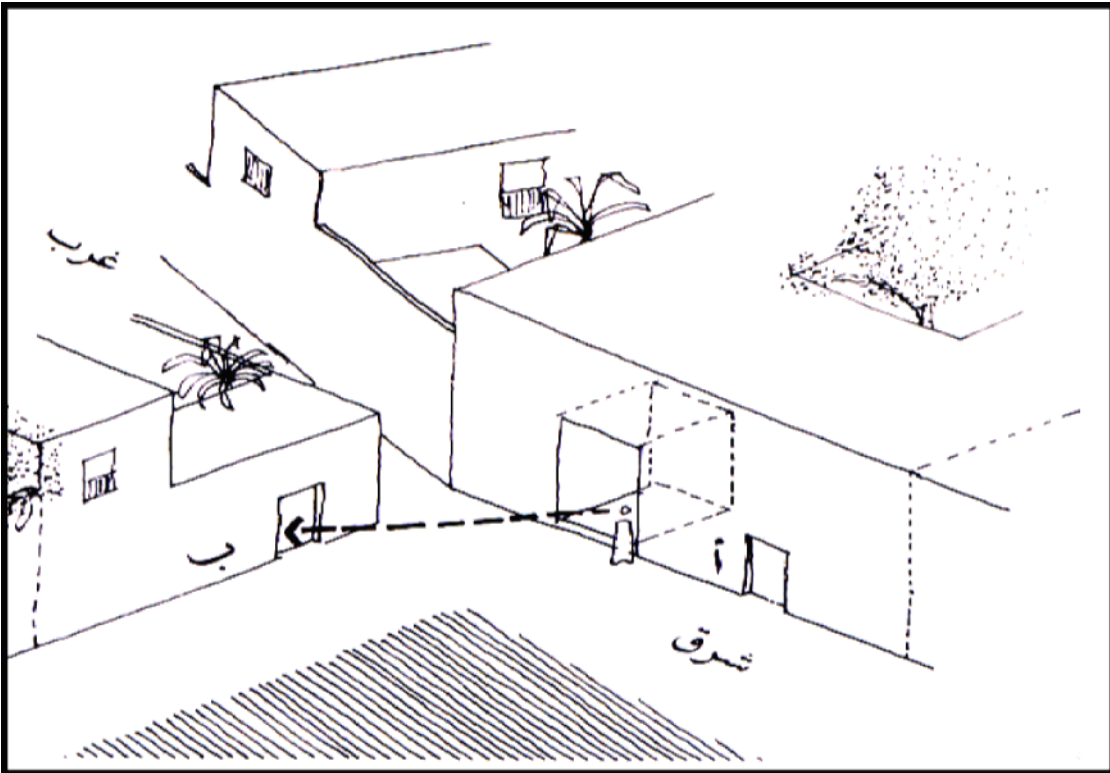
منخطط رقم (8): المسجد الجامع المرابطي بالجزائر.

عن: Bourouiba (R), L'art....., p 160

الأشكال



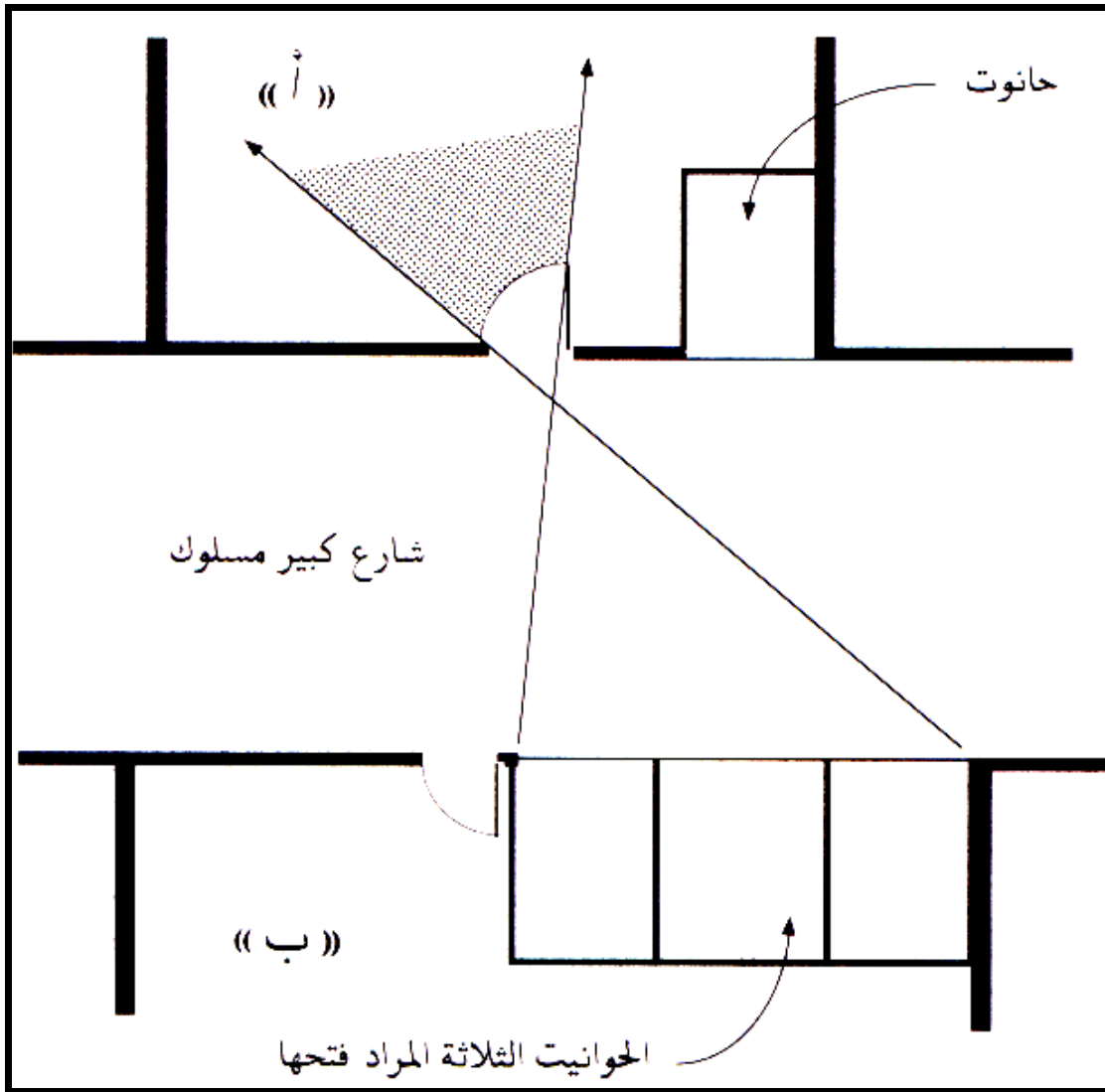
الشكل رقم (1): نموذج لشارع رئيسي بمدينة الجزائر في الفترة العثمانية.



الشكل رقم (2): الجالس في الحانوت لا يرى من يكون في سقيفة الدار، و إنما يرى من

يكون بين أبواب الدار إذا برز خارجا، فلا ضرر في ذلك.

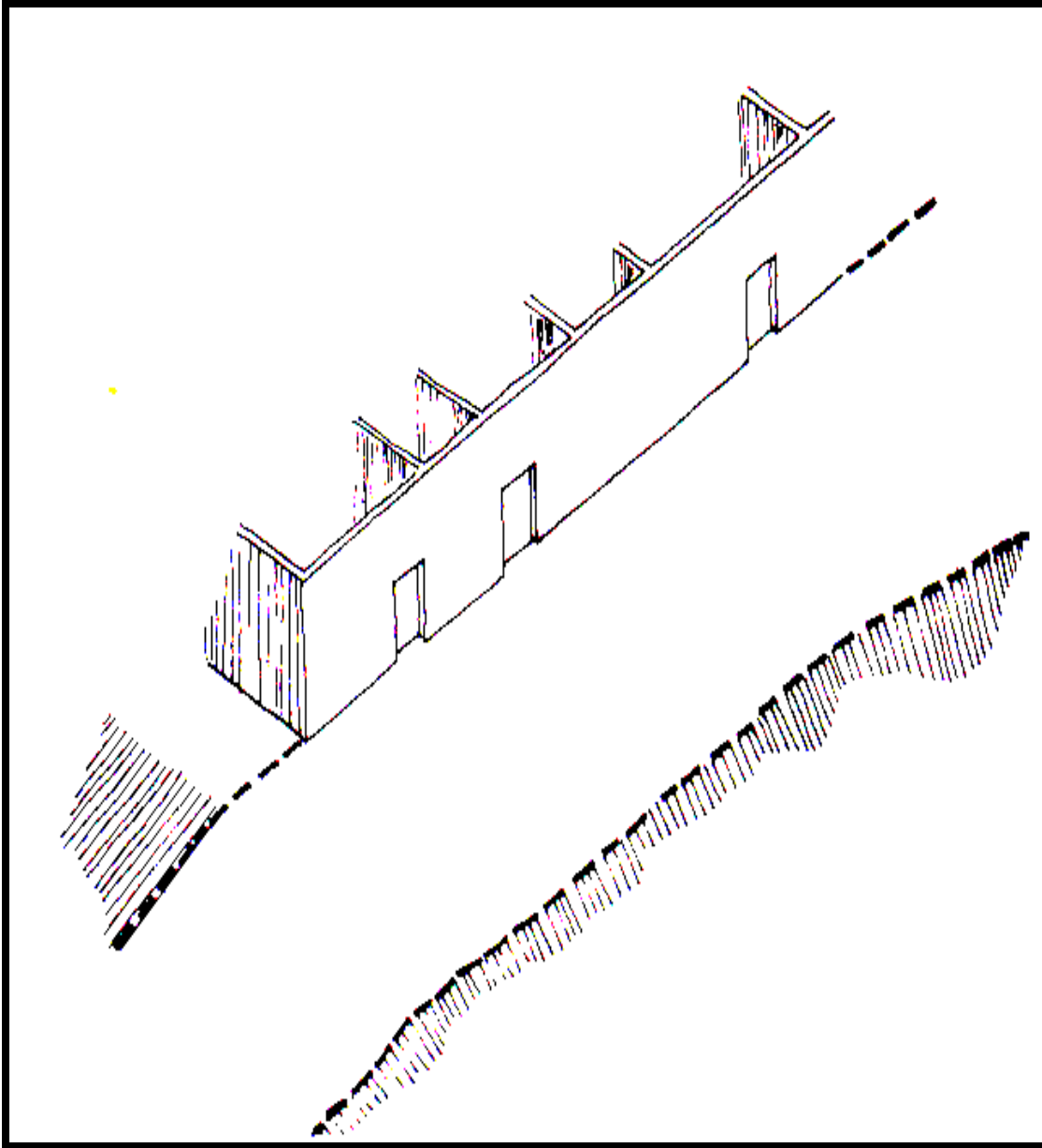
عن: - جميل عبد القدر أكبر، المرجع السابق، ص 270.



الشكل رقم (3): مضرة الحوائيت شديدة زائدة على مضرة الديار لمواظبة الجالسين فيها

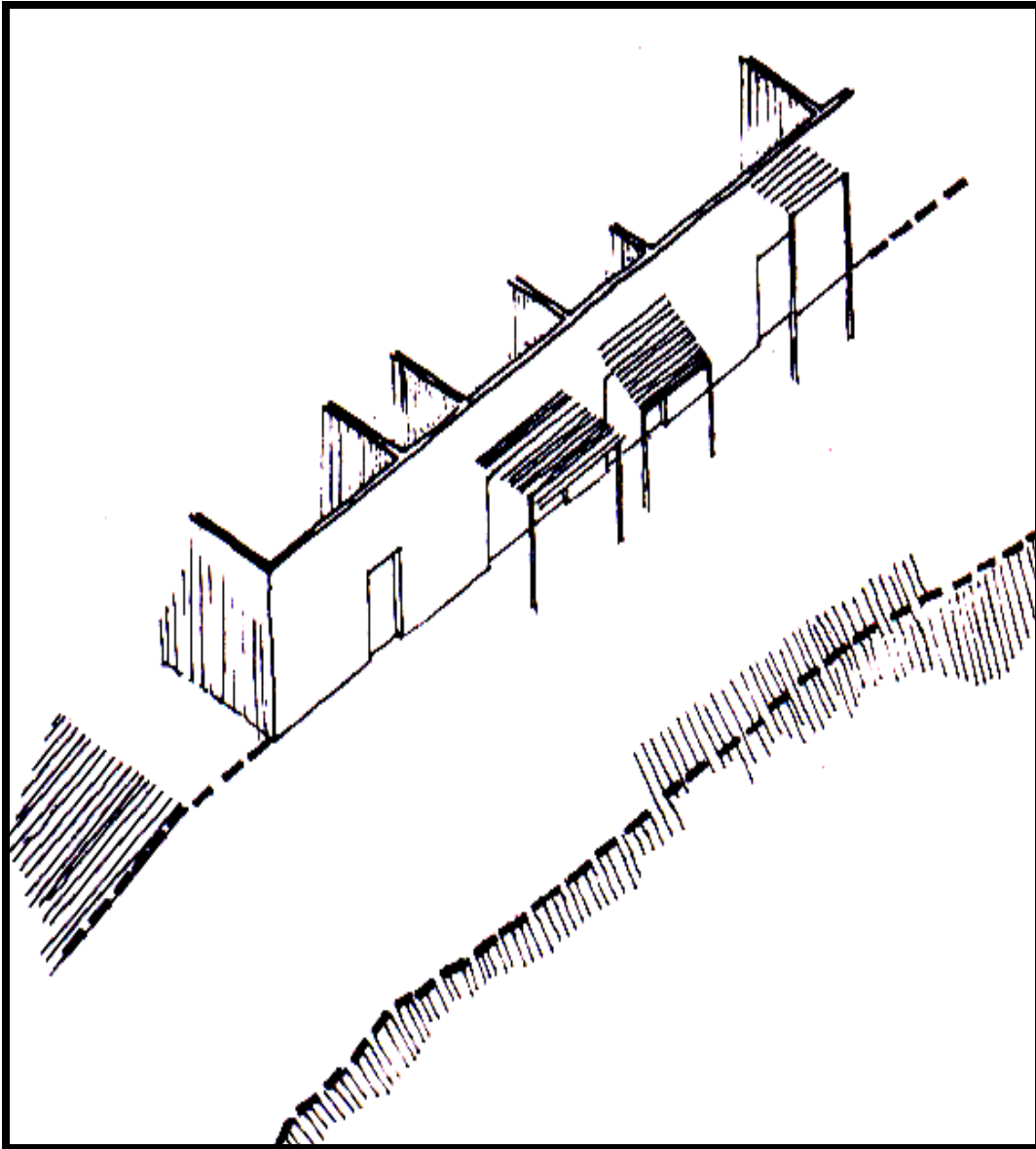
الحوائيت الثلاثة بمجملها تكشف سقيفة الدار المقابلة و الباب.

عن: - جميل عبد القدر أكبر، المرجع السابق، ص 270.



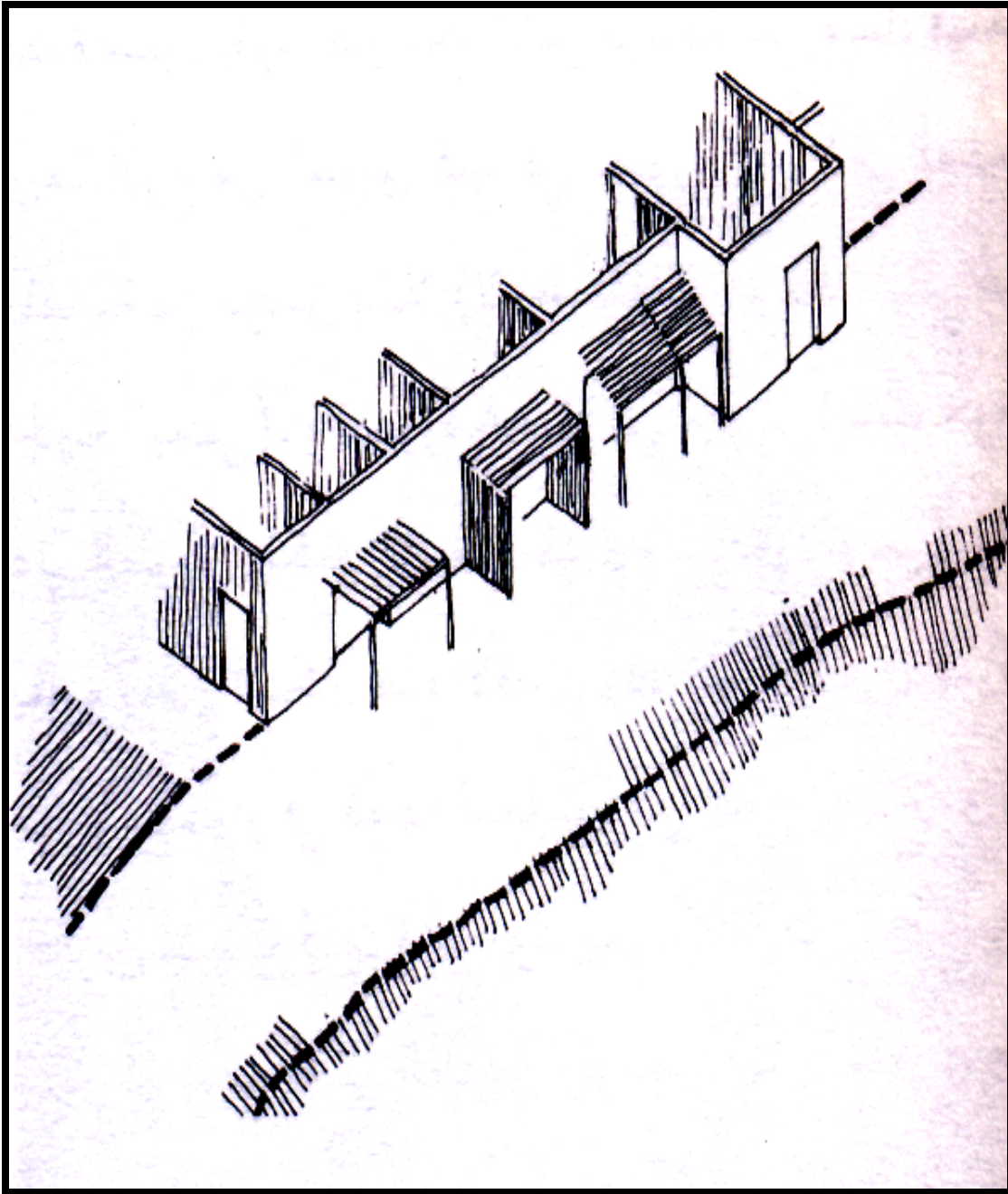
الشكل رقم 4: تحويل بعض الغرف في الدور الأرضي غلى حوانيت بفتح أبواب إلى الشارع.

عن: - جميل عبد القدر أكبر، المرجع السابق، ص 259.



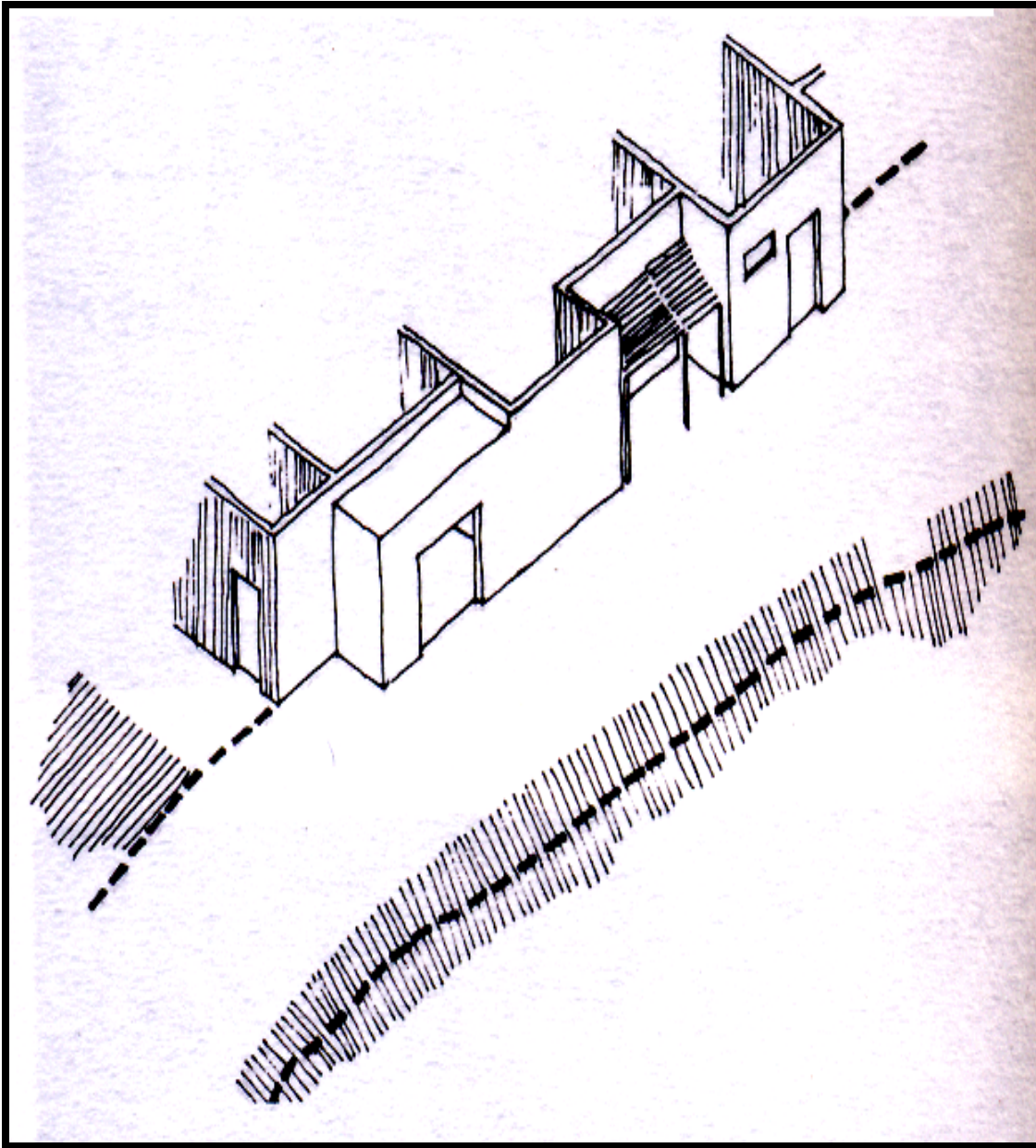
الشكل رقم 5: رفع الأعمدة في أفنية الحوانيت و تسقيفها.

عن: - جميل عبد القدر أكبر، المرجع السابق، ص 259.



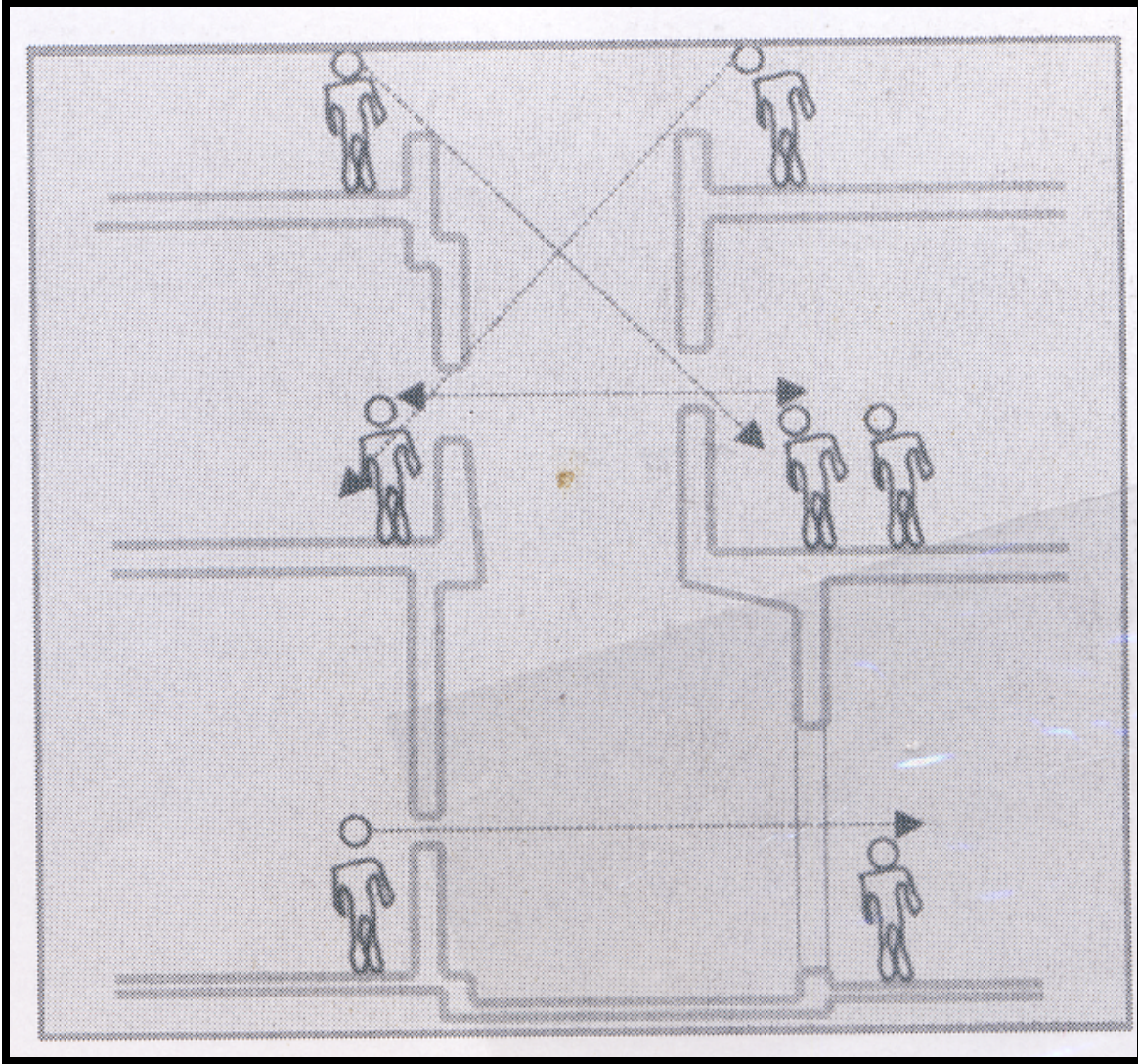
الشكل رقم 6: توصيل الأعمدة بالدار ببناء.

عن: - جميل عبد القدر أكبر، المرجع السابق، ص 259.



الشكل رقم 7: ضم المساحة التي كانت فناء إلى الدار و بذلك يضيق الطريق.

عن: - جميل عبد القدر أكبر، المرجع السابق، ص 259.



الشكل رقم 8: فتح باب جديد في الطريق غير نافذ.

عن: - مصطفى بن حمو، فقه....، ص 98.

الفهارس العامة

الفهارس العامة

- فهرس المصادر و المراجع.
- فهر الملاحق.
- فهرس الأعلام.
- فهرس البلدان و الأمكنة.
- الفهرس العام للموضوعات.

المصادر و المراجع

- القرآن الكريم: رواية حفص عن عاصم.

- المخطوطات:

- ابن الأخوة محمد بن محمد (648هـ - 729هـ / 1250م - 1329م)، كتاب الحسبة، "الباب الأول في شرائط الحسبة و صفة المحتسب"، مخطوط بجامعة الملك سعود، المملكة السعودية، رقم المخطوط: 3/400.

- ابن الخطيب لسان الدين محمد (713هـ - 776هـ / 1313م)، ربحانة الكتاب و نجعة المنتاب، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بالرباط، الخزانة العامة سابقا، تحت رقم: 331 ك، رقم الميكروفيلم: A29 / 4237، الرباط، المغرب.

- محمد بن الأعرج (1280هـ - 1344هـ / 1863م - 1925م) حسيني السليماني، زبدة التاريخ و زهرة الشماريخ، ج2، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم: 3657د، رقم الميكروفيلم: 4779، الرباط، المملكة المغربية.

- مؤلف مجهول، زهرة البستان في تاريخ بني زيان، السفر الثاني، مخطوط بمكتبة جامع مانشستر، بريطانيا، ميكروفيلم رقم: Ms:283 / 79b .

- مجهول، قانون الجزائر، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1378.

- المصادر باللغة العربية:

- ابن الآبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله (595هـ - 658هـ / 1199م - 1260م)، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، ط1، القاهرة 1963 م.

- ابن أبي الربيع شهاب الدين أحمد (218هـ - 833م / 272هـ - 885م)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق، عارف أحمد عبد الغني، دار كنانة للطباعة و النشر و التوزيع، دمشق سوريا، 1996م.

- ابن أبي زرع علي (توفي: 726هـ / 1326م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، 1420هـ / 1999م.

- ابن الأثير على الجزري (555هـ - 1160م / 630هـ - 1232م)، الكامل في التاريخ، ط4، طبعة القاهرة، 1353هـ / 1934م.

- ابن بشكوال أبو القاسم خلف (494 - 578هـ / 1101 - 1183م)، كتاب الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1410هـ / 1989م.
- ابن بطوطة محمد (703هـ - / 1304م - 1378م)، رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار"، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون تاريخ الطبع.
- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (توفي: 517هـ/1124م)، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، و مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1412هـ/1992م.
- ابن حجر أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني (773هـ - 852هـ/ 1372م - 1448م)، فتح الباري: شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد الله بن الباز، ج1، ط3، مكتبة دار السلام، السعودية، 1421 هـ / 2000 م.
- ابن حجر أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني، تهذيب التهذيب، ط1، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، 1326هـ/1908م، ج5.
- ابن حوقل أبو القاسم التّصبي (عاش خلال 4هـ/10م)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992م.
- ابن الخطيب لسان الدين، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1423هـ. 2003م.
- ابن الخطيب لسان الدين، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر و تعليق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م.
- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام و ما تعلق بذلك من كلام، تحقيق سيد كسراوي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1424هـ / 2003م، ج1، ج2.
- ابن الخطيب لسان الدين، معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة، المغرب، 1976م.

- ابن خلدون عبد الرحمن (732 - 808 هـ / 1332 - 1406 م)، كتاب العبر ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421 هـ / 2000 م، ج4، ج5، ج6، ج7.
- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق عبد الواحد الوافي، ج1، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، مصر، 2006 م.
- أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان (608 هـ / 681 هـ - 1211 م / 1282 م)، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، لبنان، دون تاريخ، ج3.
- ابن دحية أبو الخطاب عمر بن الحسن (544 هـ - 633 هـ / 1150 م - 1236 م)، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق: مديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1421 هـ / 2001 م.
- ابن الرامي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي (عاش خلال القرن 7 هـ / 13 م)، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق و دراسة: فريد بن سليمان، تقديم عبد العزيز الدولاتي مركز النشر الجامعي، 1999 م.
- ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد (520 هـ - 595 هـ / 1126 م - 1198 م)، البيان و التحصيل و الشرح و التوجيه و التعليل في مسائل المستخرجة، دار العرب، بيروت، 1988 م.
- ابن الزيات أبو يعقوب بن يوسف التادلي (توفي: 617 هـ / 1220 م)، التشوف إلى رجال التصوف، و أخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد توفيق، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، دون تاريخ الطبع.
- ابن كثير إسماعيل الدمشقي (توفي: 774 هـ / 1372 م)، تفسير القرآن العظيم، اعتنى بها و خرج أحاديثها: محمود بن الجميل، ط2، دار الإمام مالك، الجزائر، 1430 هـ / 2009 م، ج2.
- ابن كثير إسماعيل الدمشقي، البداية و النهاية، تحقيق: علي محمد معوض عادل أحمد عبد الموجود، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ / 2003 م، ج1، ج4، ج5.
- ابن فرحون إبراهيم بن نور الدين المالكي (توفي: 799 هـ / 1396 م)، الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417 هـ / 1997 م.

- ابن قاسم مخلوف محمد بن محمد بن عمر، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ / 2003م، ج1، ج2.
- ابن القاضي أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (توفي: 1065هـ/1654م)، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار منصور، الرباط، 1973م، ج1.
- ابن القاضي أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (مر بالجزائر سنة 994هـ / 1586م)، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق: محمد مرزوق، مكتبة المعارف، الرباط، 1986م، ج1.
- ابن القنفذ أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني (توفي: 840هـ / 1407م، 1408م)، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي عبد المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، (د . ط)، 1968م.
- ابن القيم الجوزية (691هـ-1291م / 751هـ-1350م)، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ط2، دار الفكر، لبنان، 1397هـ / 1977م، ج3.
- ابن ماجه محمد بن يزيد (209هـ - 273هـ / 824م - 886م)، سنن ابن ماجه، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، ج1، القاهرة، 1373هـ / 1954م.
- ابن ماجه محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق: ناصر الدين الألباني، مكتبة دار المعارف للنشر و التوزيع، الرياض، السعودية، (دت)، رقم الحديث (148 . 757).
- ابن مرزوق محمد التلمساني (711هـ-1311م / 733هـ - 1371م)، المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق مريا خيسوس بيغيرا، شركة الوطنية للنشر و الإشتهار، الجزائر، 1981م.
- ابن مرزوق محمد التلمساني، المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهد، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1429هـ / 2009م.
- ابن مريم محمد بن محمد بن أحمد (توفي: بعد 1014هـ / 1605م)، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، راجعه: محمد بن شنب، المطبعة الثعالبية، 1326هـ / 1908م.

- ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (368هـ - 463هـ / 978م - 1071م)،
الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، منشورات محمد بيوض، دار الكتب العلمية، بيروت دون سنة
الطبع.
- ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، جامع بيان العلم و فضله و ما ينبغي في
روايته و حملته، المطبعة المنيرية، القاهرة، 1398 هـ / 1987م، ج2.
- ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله أبو القاسم المصري (المتوفى: 257هـ / 870م)، فتوح مصر
و المغرب، نشر: عبد المنعم عامر، القاهرة، 1961م.
- ابن عذارى محمد المراكشي (توفي حوالي: 695هـ / 1295م)، البيان المغرب في أخبار
الأندلس و المغرب، تحقيق: ج. س كولان و إيفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان،
1983م.
- ابن عبدون محمد بن أحمد التحيني (توفي: 299هـ / 911م)، رسالة في آداب الحسبة
و المحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، منتجة للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مطبوعات
المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، م2، 1955م.
- ابن العباس عمر بن عثمان الجرسيفي، رسالة في الحسبة، تحقيق: ليفي بروفنسال، منتجة للمعهد
الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، م2،
1955م.
- ابن عبد الرؤوف أحمد بن عبد الله (توفي: 424هـ / 1032م)، رسالة في آداب الحسبة
و المحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، منتجة للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مطبوعات
المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، م2، 1955م.
- ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري البصري (توفي: 218هـ / 833م)، السيرة
النبوية، تحقيق مصطفى السيقا، إبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي، ج1، دار إحياء التراث العربي،
بيروت، لبنان، دت.
- ابن قدامة موفق الدين عبد الله المقدسي (541هـ / 1156م - 620هـ / 1223م)، الكافي في فقه
الإمام أحمد بن حنبل، دار الفكر العربي، سوريا، 1994م، ج2.

- أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (توفي بعد سنة 340هـ / 951م)، مسالك الممالك، مطبعة ليدن، برلين، 1967م.
- أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي (توفي: 453هـ/1061م)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، نشره: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1951م.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (206 هـ - 261 هـ / 822 م - 875 م)، صحيح مسلم بشرح النووي، حققه و فهرسه: عصام الصباطي و آخرون، دار الحديث القاهرة، 1994م، باب الوصية، حديث رقم 1631.
- أبو قاسم الزياني (1147 هـ - 1241 هـ / 1734 م - 1833 م)، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق: رشيد الزاوية، مطبع المعارف الجديدة، الرباط، 1992م.
- أبو العباس أحمد بن الشماخ (توفي: 833هـ/1429م)، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م.
- أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (914هـ/1508م)، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية و الأندلس و المغرب، أخرجه: محمد حجي و آخرون، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، 1401هـ/1981م، ج1- ج12.
- أبو عبيد البكري (توفي: 487 هـ / 1094م)، كتاب المسالك و ممالك، تحقيق: ديسلان، الجزائر، 1857م.
- أبو نصر الفارابي (260 هـ - 874 م / 339 هـ - 950م)، آراء أهل المدينة الفاضلة، تقديم و تعليق: ألبير نصري نادر، ط2، دار المشرق المطبعية، بيروت، لبنان، (د،ت).
- الإفرائي محمد الصغير (توفي ما بين: 1154 هـ - 1157 هـ / 1742م - 1745م)، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشادلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1998م.
- الأزرق أحمد (توفي: 250هـ/864م)، كتاب أخبار مكة شرفها الله و ما جاء فيها من الآثار، ج1، دون تاريخ.
- البخاري محمد بن إسماعيل (194 هـ - 809م / 256 هـ - 869م)، صحيح البخاري، اعتنى وضبط نصها أحمد جاد، ط1، دار الغد الجديد، المنصورة، القاهرة، مصر، 1432هـ / 2011م.

- البخاري محمد بن إسماعيل، سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، تحقيق عصام الضبابطي و عماد السيد، دار الحديث، مصر، (د، ت)، ج 2.
- البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (توفي: 279هـ/892م)، فتوح البلدان، ط 1، مطبعة الموسوعات شركة طبع الكتب العربية، مصر، 1901م.
- البهوتي منصور بن يوسف (1000هـ-1591م / 1050هـ - 1640م)، كشاف القناع، حققه أبو عبد الله محمد حسن، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1997 م.
- التنبكتي أحمد بابا (963هـ - 1036هـ / 1556 - 1627م)، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج 1، تحقيق محمد مطيع، المغرب، 2000م.
- التنسي محمد بن عبد الله (توفي: 899هـ/1493م)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان من نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود بوعيداد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.
- الجزنائي علي (من أهل القرن 8هـ / 14م)، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1967م.
- الحجاوي موسى بن أحمد (توفي: 968هـ/1560م)، زاد المستنقع في اختصار المقنع، ط 1، المكتبة الإسلامية للطباعة، القاهرة، ج 4، 2002 م.
- حمدان بن عثمان خوجه (عاش خلال القرن 13هـ / 19م)، المرأة، تحقيق و تعريب: محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م.
- الحميري عبد المنعم (توفي حوالي: 900هـ/1494م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت 1975م.
- ديكو دي طوريس (غادر المغرب سنة 985هـ / 1577م)، تاريخ الشرفاء، ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر، شركة النشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1988م.
- الرقيق إبراهيم بن قاسم (توفي حوالي 425هـ)، تاريخ إفريقية و المغرب، ط 1، تحقيق عبد الله العالي الزيدان، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1990 م.
- الدباغ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري (توفي: 696هـ/1296م)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1330هـ، ج 1.

- الرازي محمد بن أبي بكر (توفي بعد: 666هـ / 930م)، مختار الصحاح، ط4، دار الهبة للطباعة و النشر، الجزائر، 1990م.
- الرصاع محمد بن قاسم الأنصاري أبو عبد الله التونسي المالكي (المتوفى: 894هـ / 1488م)، الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية (شرح حدود ابن عرفة)، مطبعة فضالة، المحمدية، 1992م.
- الزركشي بدر الدين محمد بن بهادر (توفي: 794هـ / 1391م)، إعلام الساجد بأحكام المساجد، قدمه و اعتنى به: أيمن صالح شعبان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1416هـ / 1990م.
- الزرهوني عبد الله بن إبراهيم التافستي (توفي بعد سنة 1150هـ / 1738م)، رحلة الوافد، تحقيق: صديقي عازيكو، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992م.
- السرخسي شمس الدين (465هـ - 552هـ)، المبسوط في الفقه، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ج12.
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن (849 - 911هـ / 1445م - 1505م)، الأشباه و النظائر في قواعد و فروع الفقه الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1403هـ / 1982م.
- السيوطي جلال الدين، إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب، دراسة و تحقيق: عماد طه فرة، ط2، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، 1411هـ / 1990م.
- الشافعي محمد بن إدريس القرشي المطليبي أبو عبد الله (150هـ - 767م / 204هـ - 819م)، الأهم، دار المعرفة، بيروت، 1973م، م2، ج4.
- العقباني محمد بن أحمد بن السعيد (توفي: 854هـ / 1450م)، تحفة الناظر و غنية الذاكر في Bulletin d'étude oriental حفظ الشعائر و تغيير المناكر، تحقيق علي شنوفي، institut français de Damas , T14, 1965, 1966.
- القادري محمد بن الطيب (توفي: 1187 هـ / 1773 م)، نشر المثاني لأهل القرن الحادي و الثاني، تحقيق: محمد حاجي و أحمد توفيق، مكتبة الطالب، الرباط، المغرب، ج2.
- القاسمي محمد الدين (1283 هـ / 1866 م - 1332 هـ / 1914 م)، إصلاح المساجد من البدع و العوائد، تحقيق و تعليق: محمد ناصر الدين الألباني، ط6، المكتب الإسلامي، دمشق سوريا، 1466 هـ / 2001 م.

- القرشي يحيى بن آدم (140هـ - 203هـ/757م - 818م)، الخراج، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعرفة، بيروت، 1979م.
- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510م - 1541م، ترجمة حمدان جمال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م.
- المازاري الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و أسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق: يحيى بوعزيز، ط1، دار المغرب الإسلامي بيروت، 1990م، ج1.
- المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: محمد العريان، ط3، (د ت).
- الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (364هـ - 974م/450هـ - 1058م)، كتاب تسهيل النظر و تعجيل الظفر في أخلاق الملك و سياسة الملك، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1401هـ، 1981م.
- الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، ط1، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1409هـ / 1989م.
- مالك بن أنس (93- 179هـ / 711- 795م)، المدونة الكبرى، الإمارات العربية المتحدة، دون تاريخ الطبع، ج4.
- مؤلف مجهول، زهرة البستان في تاريخ بني زيان، السفر الثاني، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة لنشر و التوزيع، الجزائر، 2011م.
- مؤلف مجهول (ألف حوالي 712هـ/1312م)، مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوبايا، ط1، دار أبي رقرق للطباعة و النشر، الرباط، المغرب، 2005م.
- مؤلف مجهول، الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة جول كربونل، الجزائر، 1920م.
- الجيلدي أحمد سعيد (توفي: 1094هـ / 1682م)، كتاب التيسير في أحكام التسعير، تحقيق: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

- المقري أحمد بن محمد (986هـ - 1578م / 1041هـ - 1631م)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار الصادر، بيروت، لبنان، 1408هـ / 1988م.
- المقرئزي تقي الدين أحمد بن علي (766 هـ - 1364م / 845 هـ - 1441م)، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي، ط1، دار المغرب الإسلامي، 1423هـ / 2002م، ج1.
- المقرئزي تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، تحقيق: محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، مطبعة مدبولي، القاهرة، مصر، 1998م، ج1.
- المقدسي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد (336هـ - 947م / 380هـ - 990م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، 1877م،
- محمود مقيدش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ و الأخبار، تحقيق: علي الزراوي و محمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988م، ج1.
- المكناسي محمد بن عثمان (توفي: 1213هـ / 1799م)، البدر السائر لهداية المسافر إلى فكاك الأسرى من العدو الكافر، تحقيق: مليكة الزاهدي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1426هـ - 2005م.
- الوزان حسن عاش (خلال القرن 10هـ / 16م)، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ج1، ج2.
- النووي محي الدين (631هـ - 1233م / 676هـ - 1277م)، المنهاج، شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تحقيق خليل مأمون شيخنا، ط5، دار المعرفة، بيروت، 1419هـ / 1998م ج6.
- النووي محي الدين، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، شرحه و أملاه الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط1، ج1، دار الإمام مالك، الجزائر، 1430هـ / 2009م.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة بيروت، دار صادر و دار بيروت لنشر، لبنان، دون سنة الطبع، ج2، ج5.
- يحيى بن عمر (توفي: 289هـ / 901م)، أحكام السوق، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1975م.

- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، كتاب البلدان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان
1419 هـ / 1988 م.
- المراجع باللغة العربية:
- الألباني محمد ناصر الدين، (ت: 1420 هـ / 1999م)، كتاب أحكام المساجد، تقديم علي بن حسن الحلبي الأثري، ط1، غراس للنشر و الإصدار، الكويت، (د،ت).
- الألباني محمد ناصر الدين، أحكام الجنائز وبدعها، ط1، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية،
1412 هـ / 1992 م.
- الألباني محمد ناصر الدين، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1405 هـ / 1985م، ج7.
- أبو القاسم عبد الرحمن الختعمي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 1997م.
- أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، ط2، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، سوريا، 1989م.
- التر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م.
- البرنو محمد صدقي بن أحمد، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، مؤسسة الرسالة، بيروت
1404هـ/ 1983م.
- إسكاف الحسين، تاريخ التعليم بالمغرب من خلال العصر الوسيط (1هـ - 9هـ/ 7م - 15م)،
المطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 2004م
- أحمد رجب محمد علي، المسجد النبوي بالمدينة المنورة ورسومه في الفن الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، دون سنة الطبع.
- بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط1، الشركة الوطنية
للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981 م.
- بلوط عمر، فنادق مدينة تلمسان الزبانية دراسة أثرية، مؤسسة الضحى للنشر، الجزائر، 2011م.

- بن إبراهيم العباس، الإعلام بمن حل بمراكش و أغمات من أعلام، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1974م.
- بن حموش مصطفى أحمد، المدينة و السلطة في الإسلام "نموذج الجزائر في عهد العثماني"، دار البشائر للطباعة و النشر و التوزيع، دمشق، سوريا، 1460 هـ / 1999 م.
- بن حموش مصطفى، فقه العمران من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 957 هـ / 1549م. 1246 هـ / 1830م، ط1، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، 1461 هـ / 2000م.
- بن حموش مصطفى، جوهر التمدن الإسلامي، ط1، دار قابس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 2006م.
- بديوي يوسف علي، عصر الدويلات الإسلامية في المغرب و المشرق من الميلاد إلى السقوط، ط1، دار الأصالة، الجزائر، 1431 هـ، 2010م.
- بن شاوش محمد بن رمضان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.
- بن عبد الله نور الدين، العمارة التقليدية لمنطقتي توات الوسطى و القورارة بين ضوابط النص الديني و حدود الواقع، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2013م.
- التازي عبد الهادي، جامع القروين، المسجد و الجامع بمدينة فاس، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972م.
- الجبوري يحيى وهيب، الخط و الكتابة في الحضارة الإسلامية، ط1 بيروت، لبنان، 1994م.
- جودي محمد حسين، العمارة العربية الإسلامية، دار الميسرة للنشر و التوزيع و الطباعة، عمان، 1998م.
- هشام جعيط، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط1، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1986م.
- جمعه محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ و المرجان، فيما اتفق عليه الشيخان، راجعه عبد الستار، أبو غدة، ط1، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الكويت، 1397 هـ / 1977م.

- الجليلي عبد الرحمن، تاريخ المدن الثلاثة، الجزائر، المدية، مليانة، ط2، مطبعة صاري بدر الدين و أبنائه، الجزائر، 1972 م.
- الجليلي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، مكتبة الحياة، لبنان، 1384 هـ / 1965 م.
- حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الزباني، حياته و آثاره، دار بن مرابط لنشر و التوزيع، الجزائر، 1432 هـ / 2011 م.
- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية بالقاهرة، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994 م، ج1.
- الحمصي محمد حسن، قران كريم: تفسير و بيان مع أسباب النزول للسيوطي، دار الرشيد، دمشق، سوريا، 1405 هـ / 1984 م، ص 176.
- حليمي عبد القادر، مدينة الجزائر، نشأتها و تطورها قبل 1830 م، دار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972 م، ط1.
- خالد عزب، فقه العمارة الإسلامية، ط1، دار النشر للجامعات، مصر، 1417 هـ / 1997 م.
- خالد عزب، الفسطاط، نشأة..الازدهار..الانحصار، ط1، دار الأفاق العربية، القاهرة، مصر، 1998 م.
- رفيق يونس، الأوقاف فقها و اقتصادا، ط1، دار المكتبي، مصر، 1999.
- روثن مارغريث، تاريخ بابل، ترجمة: زينة عزار و ميشال أبي فاضيل، ط2، دار عويدات للنشر، بيروت، لبنان، 1984 م.
- روجيه إدريس الهادي، الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 م إلى القرن 12 م، ترجمة: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992 م، ج1.
- الريسوني قطب، المحافظة على البيئة من المنظور الإسلامي، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 1429 هـ / 2008 م.
- زيتون سمير محمد، القيروان و دورها في الحضارة الإسلامية، ط1، دار المنار للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1408 هـ / 1988 م.
- ريمون أندريه، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات و نشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1991 م.

- زكي محمد حسن، فنون الإسلامية، ج3، دار الرائد العربي، لبنان، 1981 م.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ج1، ج2، ج9.
- السالم عبد العزيز، المآذن المصرية - نظرة عامة عن أصلها و تطورها منذ الفتح العربي حتى نهاية الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، دون سنة الطبع.
- السبتي عبد الأحد ، حليلة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994م.
- سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م.
- الشافعي أحمد محمود، الوصية و الوقف في الفقه الإسلامي، دار الجامعة، 2000م.
- الشافعي فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، ج1، الهيئة المصرية العامة لتأليف، مصر، 1970 م.
- شرارة عبد الجبار أحمد، نظرية نفي الضرر في الفقه الإسلامي المقارن، رابطة الثقافة و العلاقات الإسلامية، إيران، 1418هـ / 1997م.
- شويتام أرزقي، المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني(926 . 1246 هـ / 1519 . 1830م)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م.
- صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي بمصر، بيروت، لبنان، 1957م.
- ضيف شوقي، عصر الدول و الإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان)، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1995م.
- الطريحي محمد السعيد، العتاب المقدسة في الكوفة، ط2، دار الكتب للمطبوعات، لبنان، 1406هـ / 1986م.
- الطمار محمد، تلمسان عبر العصور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007.
- طه جمال أحمد، مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين 448هـ / 1057م إلى 668هـ / 1269م دراسة سياسية و حضارية، دار الوفاء لنديا الطباعة و النشر، الإسكندرية، مصر 2001م.

- طه الولي، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، لبنان، 1409 هـ / 1988م.
- عبد الجواد توفيق احمد، تاريخ العمارة و الفنون الإسلامية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1970م.
- عبد القادر أكبر جميل، عمارة الأرض في الإسلام مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية، ط2، مؤسسة الرسالة، دار البشير للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 1416هـ / 1995م.
- عثمان محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، 1988م.
- العزاوي أحمد، الغرب الإسلامي في أواسط القرن الثامن الهجري القرن 14م، دراسة تاريخية لديوانيات ربحانة الكتاب لابن الخطيب، ط1، مطبعة الرباط، الرباط، المغرب، 2008م.
- عزوق عبد الكريم، تطور المآذن في الجزائر، ط1، مكتبة زهراء الشرق، مصر، 2006.
- الفاسي علاء، مقاصد الشريعة الإسلامية و مكارمها، ط5، منشورات مؤسسة علاء الفاسي، المطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1429هـ / 2008م.
- غلاب عبد الكريم، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1428هـ / 2005م، ج1.
- فخري أحمد، دراسات في تاريخ الشرق القديم (مصر و العراق، سوريا، اليمن، إيران) مختارات من الوثائق التاريخية، ط2، مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، 1963م.
- فرج أحمد، السلطة الإدارية و السياسة الشرعية في الدولة الإسلامية، ط1، مؤسسة الإسراء للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1414 هـ / 1993م.
- فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002م، ج1.
- فكري أحمد، مسجد القيروان، مطبعة المعارف، مصر، 1355 هـ / 1963م.
- فكري أحمد، مساجد القاهرة و مدارسها، دار المعارف، مصر، (د،ت)، ج2.
- فورستر (أ.م)، الإسكندرية تاريخ و دليل، ترجمة: حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2000م.
- قاضي سعيد، أصول التربية الإسلامية، عالم الكتاب، القاهرة دون تاريخ.
- كرنجال مارمول، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، و آخرون، دار المعرفة للنشر و التوزيع، الرباط، 1989م.

- كريزول، الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة: عبد الهادي عبله، دمشق، 1404 هـ / 1984م.
- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ترجمة: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م.
- لقبال موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ التأسيسها إلى منتصف القرن 5 هـ / 11م، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1979م.
- عبد العزيز لعرج، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، دراسة في الفكر العمراني الإسلامي و تطبيقاته العلمية " عمرنا و عمارة و فنا"، ط2، شركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، 2011م.
- ماهر سعاد، مساجد القاهرة و أو لياتها الصالحين، ج1، مطبعة الأهرام، مصر، 1971م.
- مؤنس حسين، المساجد، عالم المعرفة، الكويت، 1401 هـ / 1981م.
- محفل محمد، تاريخ العمارة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م.
- محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993م.
- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا (1429م- 1792م)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1968 م.
- المطوي محمد لعروسي، السلطة الحفصية، تاريخها السياسي و دورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986 م.
- معزوز عبد الحق و لخضر درياس، جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر، كتابات الغرب الجزائري، مطبعة سومر، بئر خادم، الجزائر، 2001م، ج2.
- فوزي الميكاوي، تاريخ العالم الإغريقي و حضارته، من أقدم العصور حتى عام 322ق.م، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1400هـ / 1980م.
- المليي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، تقديم و تصحيح: محمد المليي، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011م.
- مرزوق محمد، الفن الإسلامي تاريخه و خصائصه، مطبعة أسعد، العراق، 1965 م.
- محمود أبي عبد الرحمن، أحكام صلاة المسبوق في السنن و الآثار، دار المصحف الشريف الجزائر، ط2، 1422 هـ / 2001م.

- محمد حمزة حداد، مدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، ط1، مكتبة الزهراء، القاهرة، مصر، 2001م.
- محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، خصوصيتها، ابتكاراتها جمالياتها، ط1، الأردن، 1419 هـ / 1998م.
- مكاوي فوزي، تاريخ العالم الإفريقي و حضارته من أقدم العصور حتى عام 322ق.م، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1400هـ / 1980م.
- الموسوي مصطفى، العوامل التاريخية لنشأة و تطور المدينة العربية، دار الرشيد للنشر، مصر، 1982م.
- نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها على انتهاء العهد التركي، ط1، الجزائر، 1968 م.
- وائل منير الرشدان، القصور الأموية في المملكة الأردنية الهاشمية، جامعة الملك سعود، المملكة السعودية، 1430هـ / 2009م.
- ورث تشارلز، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة: رمزي عبده جرجس، مكتبة الأسرة، مصر، 1999م.
- الهاللي عبد الله، قاعدة لا ضرر و لا ضرار: مقاصدها و تطبيقاته الفقهية قديما و حديثا، ط1، منشورات دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، دبي، الإمارات العربية، 1426هـ/2005م.
- اليازجي نسيم واكيم، الحضارات القديمة، ط1، منشورات دار علاء الدين ، سوريا، 2000م، ج1.
- مؤلفات جماعية:
- احمد خالد علام، تاريخ تخطيط المدن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1993م.
- بوروية رشيد، الحضارة الفاطمية و الزيرية "، في كتاب الجزائر في التاريخ من الفتح إلى البداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.
- بن قرية صالح ، "مصادر تاريخ مدارس تلمسان في العهد الزياني (633- 962هـ / 1235هـ- 1554م)"، في كتاب تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م.

- حاجيات عبد الحميد، " خطر النصارى و انهيار الدولة الزيانية " في كتاب الجزائر، في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى غاية بداية العهد العثماني، وزارة الثقافة و السياحة و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 م.
- حاجيات عبد الحميد، " إحياء الدولة الزيانية "، في كتاب الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى غاية بداية العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- حاجيات عبد الحميد، " استمرار النفوذ المريني "، في كتاب الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى غاية بداية العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- حاجيات عبد الحميد، " امتداد نفوذ الحفصي إلى المغرب الأوسط"، في كتاب الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- الدباغ تقي الدين، " من القرية إلى المدينة الأولى " في كتاب المدينة و الحياة المدنية، منشورات الجمع العراقي العلمي، بغداد، العراق، 1988م، ج1.
- سالم عبد العزيز، " بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية "، في كتاب بحوث إسلامية في التاريخ و الحضارة و الآثار، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991 م.
- سالم عبد العزيز، " العمارة الإسلامية في الأندلس و تطورها "، في كتاب بحوث إسلامية في التاريخ و الحضارة و الآثار، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991 م.
- سالم عبد العزيز، " مساجد من الشام " في كتاب بحوث إسلامية في التاريخ و الحضارة و الآثار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991 م، ج1.
- شنيقي محمد البشير، "عملات المدن"، في كتاب تاريخ الجزائر من خلال المسكوكات، المتحف الوطني للآثار القديمة، الجزائر، 2006م.
- صالح أحمد العلي، "الأمصار في العراق الكوفة و البصرة في العهود الإسلامية الأولى"، في كتاب المدينة و الحياة المدنية، منشورات الجمع العراقي العلمي، بغداد، العراق، 1988م، ج2.
- ليلي الصباغ، "معالم الحركة الفكرية في الولايات العثمانية"، في كتاب الدولة العثمانية تاريخ و حضارة، إشراف و تقديم: أكمل الدين إحسان أوغلي، ترجمة: صالح سعداوي، ط2، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 1432هـ / 2011م، ج2.

- لقبال موسى، " تيار الفتح الإسلامي في شمال إفريقيا و نتائجه "، في كتاب الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى غاية بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

- لعرج عبد العزيز و آخرون، في كتاب مساهمة الجزائر الحضارية العربية الإسلامية، الكرامة للطباعة و نشر و الاتصال، الجزائر، 2007م.

- قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

- ATEGER, **Les corporations tunisiennes**, as cited by B. Lewis, Paris 1909.
- BOUTIN. (VY) , **Reconnaissance des villes , forte et batteries d'Alger**, Paris, 1927.
- BARBIER.(J). **Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie**, librairie de Hachette, Paris, 1855.
- BERARD. (V). **Indicateur général de l'Algérie**, 1ere édition, Bastide, Alger, 1848.
- BERBRUGGER.(A). **Le peignion d'Alger ou les origines du gouvernement Turc en Algérie**, Alger, 1860.
- BERGUE. (A). **L'ALGERIE terre d'art et d'histoire**, Alger, 1937.
- BERTHIER.(A). **L'Algérie et son passé**, Editions A. et J. PICARD, Paris 1951.
- Boutin. (VY), **Reconnaissance des villes, forte et batteries d'Alger**, Paris, 1927.
- BOUROUIBA. (R). **L'Arte religieux musulman en Algérie**, 2^e édition, S.N.E.D, Alger.
- BOUROUIBA.(R). **Apports de L'Algérie a l'architecture religieuse arabo-islamique**, Entreprise national du livre et office des publications universitaires, Alger, 1986.
- DGRAMMONT.(H). **Histoire d'Alger sous la domination turque (1515 – 1830)**, leroux, paris, 1887.
- DE – DGRAMMONT. (H). **Quel est le lieu de la mort d'ROUDJ BARBEROUSSE ?**, In Revue Africaine, N° : 22, Année 1878, office des publications universitaires, Alger, 1986.

- De Fontaine De Resbecq.A., **Alger et les cotes d'Afrique**, Gaume frères libraires, 5 rue du pot-de feb, Paris, Frances.
- DGAIT Hichem, **Naissance de la ville islamique**, éditions : G.P maison neuve et laros, 75005, paris.
- DOUKALI. (R). **Les mosquées de la période turque à Alger**, SNED, 1974.
- DEVOULX. Albert, **Les édifices religieux de l'ancien Alger, Extrait de la revue africaine**, 1870.
- DEVOULX .Albert, **Alger, étude archéologique et topographique sur cette ville**, in Revue Africaine, 1876.
- HAEDO. (D). **Alger, étude archéologique et topographique**, traduction de Berbrugger, in revue africaine, volume 14 ; 1870, A. Jourdan libraire éditeur, Alger, 1870.
- HAEDO. (D). **Histoire des rois d'Alger, Traduite et annotée par, DE – DGRAMMONT**, in Revue Africaine, N° : 24 , Année 1880, office des publications universitaires , Alger , 1986 .
- Klein. (H), **Feuillets d'El Djazair**, Alger, 1910.
- GARDET . (L). **la cite musulman**, Paris ,1954 .
- GOLVIN.(L). **Le Magrib centrale à l'époque Zirides, recherche d'archéologie et d'histoire**, arts et métiers graphiques, Paris, 1957.
- GOLVIN.(L). **Essai sur l'architecture religieuse musulmane**, T4, Editions Klincksieck, Paris, 1970.
- GOLVIN. (L), **La mosquée ses origines, sa morphologie , ses diverses fonctions**, Institut Paris d'hiver, place cardinal Lavigerie,1960.
- GOLVIN.(L). **Demeures D'Alger, in L'habitation traditionnel dans les pays musulmans de la méditerranée**, Institut française d'Archéologie orientale études urbaines, T1 /1, france, 1988.
- LEZINE.(A). **Architecture de L'Ifriqiya, recherche sur les monuments Aghlabides**, librairie C.Klincksieck, Paris, 1966.
- LOMBARD.(M). **the golden age of Islam trans**, by Joan Spencer, Netherlands, 1957
- LEWIS. (B) . **The Islamic guilds** , in the Economic History Review, VIII / 19 37 .

- Marçais. (G). **L'Architecteur musulman d'Occident, Tunis, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile**, Edition Art et métiers graphique, 2^{eme} trimestre, Paris ,1954.
- Marçais. (G). **La conception des villes dans L'Islam**, in Revu d'Alger. vol 11, 1945.
- Marçais. (G). **L'urbanisme musulman, in Mélanges d'Histoire et d'Archeologie de l'occident musulman**, T1, 1957.
- Marçais.(G), **Considération sur les villes musulmans et notamment sur le rôle du Mohtasib**, in recueil de société Jean bodin pour l'histoire comparative des institutions, VI, la ville ; Paris, 1883
- Marçais, (W). **L'Islamisme et la vie urbaine** in comptes rendus des. séances, Academie des inscriptions et belles lettres, 1928.
- MARCEL.(P). **La Qibla et le mihrab**, Alger, 1972.
- MUMFORD. (L). **The city in History**, New York, 1961.
- PANTER. (A) . **Ville spontanées et ville créés**, in Annales de L'Institut D'etudes des Orientales, IX/ 1951.
- PIRENNE .(H). **Médiéval Cités**, Princeton, 1925.
- PEYSONNEL Des Fontaines, **Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger**, Tome(1), Librairie de Gide, Editeur des annales des voyages, Paris, 1838.
- SAUVAGET.(J). **Le plan de Laodicée sur mer**, in Bulletin d'Etude Orientales, 1934.
- TERRASSE.(H). **La mosquée El – Qaraouiyn à Fés**, L. B. C. Klincksiek, 1968.
- TERRASSE.(H). **L'art hispano mauresques des origines aux XII siècle**, T xxv, Les éditions G. van oest, Paris, 1932.
- XAVIER. (D). **The World of Islam**, New York, 1959.

- القواميس و الموسوعات:

- ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، تحقيق عامر احمد حيدر، ط1، ج1-ج11، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ / 2003م.

- بن عودة حسين العوايشة، الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب و السنة المطهرة، ط1، ج2، دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع، عمان، الأردن 1423 هـ / 2002م.
- حليم ميشال حداد، "الجزائر"، موسوعة قصة و تاريخ الحضارة العربية بين الأمس و اليوم، العدد (21، 22)، édition Creps، بيروت، لبنان، 1999م.
- رزق عاصم محمد، معجم المصطلحات العمارة و الفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، مصر، 2000 م.
- سميح عاطف، موسوعة الأحكام الشرعية الميسرة في الكاتب و السنة، دار الكتاب اللبناني المصري، بيروت و مصر، 1994م.
- غالب عبد الرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، دار الطبع جروس بييرة، بيروت، لبنان، 1988 م.
- قاجة جمعة أحمد، موسوعة فن العمارة الإسلامية، ط1، دار الملتقى للطباعة، و النشر دمشق، 2000 م.
- كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1376 هـ / 1957م، ج2،
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، قاموس المحيط، مراجعة و إشراف محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1432 هـ / 2011م.
- محمد حمزة الحداد، موسوعة العمارة الإسلامية، في مصر من الفتح العثماني إلى عهد محمد علي (923 هـ - 1225 هـ / 1517 م - 1848 م)، ج1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.
- وزير يحيى، موسوعة العناصر المعمارية الإسلامية، ج2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م.
- المجلات و الحوليات و المؤتمرات و ملتقيات:
- بلحاج معروف، "حفريات أغادير الأثرية بتلمسان، قراءة في مراحل التنقيب و النتائج"، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أكتوبر 2011م، "منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف"، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2001م.
- بن حمو محمد، "المسالك في المدينة الإسلامية"، مجلة كان التاريخية، العدد 28، جويلية 2015م.

- الجنحاني الحبيب، " المجتمع العربي الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعي"، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، العدد 319، سبتمبر 2005 م.
- جودة عبد الرحمن، " رسالة في الحدود للقاضي أبي الوليد الباجي"، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، م 2، ع 1 - 2، مدريد، اسبانيا، 1373 هـ / 1954 م.
- حملاوي علي، القصر بالجنوب الجزائري مفهومه و مكوناته، حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة، العدد العاشر، 1422 هـ / 2001 م، مطبعة سومر، الجزائر.
- خالد عزب، المدن العربية الإسلامية و شوارعها.. عبقرية التخطيط العمراني، " مجلة العربي" العدد 636، نوفمبر، 2011، تصدرها وزارة الإعلام، الكويت.
- ذنون عبد الواحد طه، "التطور المعماري لمدينة تلمسان"، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أكتوبر 2011 م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011 م.
- الرفاعي مشيرة، " التوجهات الفكرية لتطوير العمارة الإسلامية"، المجلة العربية للثقافة، العدد 25، ربيع الأول 1414 هـ / سبتمبر 1993.
- رشيد محمد عليان، " الإجماع في الشريعة الإسلامية"، مجلة المورد، م 2، ع 2، مارس 1973 م، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1393 هـ / 1973 م.
- رزق نمر شعبان، تشريعات المباني الإسلامية و أثرها على تطور المدينة الإسلامية العربية المعاصرة، المجلة العربية للثقافة، العدد 25، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس، 1419 هـ / 1993 م.
- سالم عبد العزيز، " العمارة الإسلامية في الأندلس و تطورها"، مجلة عالم الفكر، العدد الأول، (أبريل، ماي، جوان، جويلية)، الكويت، 1977 م.
- السرحان محي هلال، " ثلاث مخطوطات في الحسبة"، مجلة المورد، المجلد الأول، العدد 3-4، دار الحرية للطباعة، مطبعة الحكومة، بغداد، العراق، 1392 هـ / 1927 م.
- سعيدوني ناصر الدين، " الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر" دار السلطان" أثناء القرنين السادس عشر و السابع عشر"، في حوليات جامعة الجزائر، العدد السابع، جامعة الجزائر، الجزائر، 1993 م.

- شريد حورية، "دار السلطان (قصر الجنيينة)"، حوليات المتحف الوطني للآثار، العدد الثامن، 1420هـ / 1999م.
- قرمان عبد القادر، "المؤسسات التعليمية بتلمسان خلال العهد العثماني"، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011م.
- قريان عبد الجليل، "تاريخ المذهب المالكي في المغرب الأوسط إلى نهاية العهد الزياني، مجلة المحراب، قسنطينة، العدد1، مارس 2007م.
- قاسم أحمد الجمعة، "العناصر المعمارية و الفنية المميزة لقبه الصخرة و المسجد الأقصى"، الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، مجلة نصف سنوية، جامعة حلب، 1402 هـ / 1982 م.
- الكحلوي محمد، "أثر العقيدة الإسلامية على عمارة المساجد"، مجلة المنهل، العدد 519، العدد الخاص بالعمارة و المدينة الإسلامية عطاء و مدلول، دار المنهل للصحافة و النشر المحدودة، جدة، جمادي الأولى و الثانية 1415 هـ / أكتوبر . نوفمبر 1994 م.
- طه الوالي، "التعليم عند المسلمين"، مجلة الفكر الإسلامي، العدد 20، القاهرة، 1981م.
- لعرج عبد العزيز، "مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر" المؤتمر الخامس لجمعية الأثرين العرب في أثار الوطن العربي، الندوة العلمية الرابعة، القاهرة، 2002م.
- لعرج عبد العزيز، "المدارس الإسلامية دواعي نشأتها و ظروف تطورها و انتشارها"، مجلة الدراسات الإنسانية، عدد الأول، دار الحكمة، الجزائر 2001 م.
- لعرج عبد العزيز، "مجموعة المنشآت المعمارية للسلطان المريني أبي الحسن بالعباد في تلمسان"، مجلة الدراسات التراثية، مخبر البناء الحضري للمغرب الأوسط، الجزائر، معهد الآثار، العدد2، السنة 2008م.
- لعرج عبد العزيز، مدرسة العباد: "مدرسة أبي مدين أنموذجا للمدارس الإسلامية بالمغرب الإسلامي" مجلة الدراسات الإنسانية، العدد الثاني، دار الحكمة، الجزائر، 1423هـ / 2002م.
- لعرج عبد العزيز، "النظام المعماري لمدارس المغرب: دراسة أثرية . تحليلية"، مجلة آثار، العدد الثامن، السنة 2009م.

- لعرج عبد العزيز، "جمالية الزخارف النباتية في الفن الإسلامي بجامعة تلمسان و سيدي أبي الحسن"،
أعمال ملتقى دولي بتلمسان أكتوبر 2011م، "منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف"،
تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2001م.
- لويس ماسنيون، "الهيئات الحرفية و المدينة الإسلامية"، مجلة المورد، ترجمة: أكرم فاضل، م2،
ع3، سبتمبر 1973م، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1973م.
- عبد الجبار ناجي، "مفهوم المدينة الإسلامية"، مجلة المدينة العربية، العدد 15، السنة الثالثة،
المنظمة العربية للمدن، 1984م.
- عبد الجبار ناجي، "المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية"، مجلة المورد، العدد الرابع،
المجلد التاسع، العراق، 1980م.
- عبد الله الفاسي، "خطة الحسبة"، المناهل، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، المغرب،
العدد 18، السنة السابعة، 1400هـ / 1980م.
- محمد الكحلوي، "أثر العقيدة الإسلامية على عمارة المساجد"، مجلة المنهل، العدد 519،
العدد الخاص بالعمارة و المدينة الإسلامية عطاء و مدلول، دار المنهل للصحافة، و النشر المحدودة،
جدة، جمادي الأولى و الثانية 1415 هـ / أكتوبر . نوفمبر 1994م.
- محمد عمر حمادة، الحسبة في الإسلام، "مجلة المورد"، المجلد التاسع، العدد الرابع، دار الحرية
للطباعة و النشر، بغداد، العراق، 1401هـ/1981م.
- المنوني محمد، "كراسي الأساتذة بجامعة القراوين"، مجلة دعوة الحق، العدد الرابع، السنة
التاسعة، جويلية، أوت، 1966م.
- مهتاري فائزة، "المسكن التقليدي في تلمسان خلال العهد الزياني، دراسة تاريخية أثرية"، مجلة كان
التاريخية، العدد 28، جويلية 2015م.
- الرسائل الجامعية:
- بن بلة خيرة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة دكتوراه دولة في الآثار
الإسلامية، جامعة الجزائر، 2007م، 2008م.

- بن حمو محمد، العمران و العمارة من خلال كتب النوازل بالمغرب الإسلامي، دراسة في فقه العمران و العمارة الإسلامية، رسالة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1432هـ / 2011م.
- بن نعمان إسماعيل، مدينة تنس، رسالة لنيل شهادة دكتوراه، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2006 م / 2007 م.
- بويحيوي عز الدين، تطور العمران الإسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط (من القرن الثاني إلى القرن الثامن للهجرة)، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2001م / 2002م.
- ريوح عبد القادر ، الأحباس و دورها في المجتمع الأندلسي ما بين القرن 4 - 9هـ / 10 - 15م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الجزائر، 1426 - 1427هـ / 2005 - 2006م.
- راجعي زكية، مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية جامعة الجزائر، معهد الآثار، 2007م.
- غطاس عائشة، الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر (1700 - 1830م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2000م، 2001م.
- لعرج عبد العزيز، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، دراسة أثرية معمارية، و الفنية، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 1999م.
- موشوش محمد، مساجد مدينة تنس، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر، 2009م.
- Cherif Seffadj nabila, **Les bains d'Alger durant la période ottomane (XVIe - XIXe siècle) histoire, topographie et étude urbaine**, docteur de l'université Paris IV histoire de l'art, Sorbonne, Paris, France, 2005.
- الوثائق الأرشيفية:
- مهمة دفترى رقم (22)، صحيفة (186-187)، حكم رقم (360)، الأرشيف الوطني الجزائري، مدينة الجزائر.
- مهمة دفترى رقم (30)، صحيفة (228)، حكم رقم (532)، الأرشيف الوطني الجزائري، مدينة الجزائر.

- الوثيقة بالعلبة رقم (47 / 2). (11).، الأرشيف الوطني الجزائري، مدينة الجزائر.
- مهمة دفترى رقم (23)، صحيفة رقم (121)، الحكم رقم (244)، الأرشيف الوطني الجزائري، مدينة الجزائر.

فهرس الملاحق

- فهرس الخرائط:

- الخريطة رقم (1): المغرب الإسلامي في القرن (2 هـ - 3 هـ / 9 م).
- الخريطة رقم (2): المغرب الإسلامي في القرن (4 هـ - 6 هـ / 11 م).
- الخريطة رقم (3): مراحل انتشار الفتح الموحد للمغرب الإسلامي.
- الخريطة رقم (4): المغرب الإسلامي منذ القرن (7 هـ - 9 هـ / 13 م - 15 م).
- الخريطة رقم (5): التقسيم الإداري للجزائر في الفترة العثمانية.

- فهرس الألواح:

- اللوحة رقم (1): أتمودج من مدينة تعود للفترة الروماني
- اللوحة رقم (2): الشارع الرئيس بالمدينة الرومانية يمتد من غرب إلى شرق المدينة.
- اللوحة رقم (3): المدخل الرئيسي للمدينة الرومانية.
- اللوحة رقم (4): بيت الصلاة بالمسجد الجامع لقلعة بني حماد.
- اللوحة رقم (5): بعض النماذج للمآذن بمدينة تلمسان.
- اللوحة رقم (6): مسجد سيدي أبي الحسن بمدينة تلمسان من الفترة الزيانية.
- اللوحة رقم (7): مسجد المشور بمدينة تلمسان الفترة الزيانية.
- اللوحة رقم (8): صحن المسجد الجامع لمدينة ندرومة الفترة المرابطية.
- اللوحة رقم (9): البلاطة الوسطى في مسجد ندرومة الفترة المرابطية.
- اللوحة رقم (10): واجهة المسجد الجامع بمدينة ندرومة المئذنة من الفترة الزيانية.
- اللوحة رقم (11): الصحن في مسجد سيدي الحلوي بمدينة تلمسان من الفترة الزيانية.
- اللوحة رقم (12): النظام التسقيف الجمالوني بمسجد سيدي الحلوي من الفترة الزيانية.
- اللوحة رقم (13): صحن المسجد الجامع المرابطي بمدينة الجزائر الصحن يعود للفترة العثمانية.
- اللوحة رقم (14): قطع من منبر جامع كتشاوي من مادة الرخام الفترة العثمانية.
- اللوحة رقم (15): مسجد الداوي (المسجد الجواني) داخل دار السلطان بقصبة مدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (16): مسجد الداوي (المسجد الجواني) نظام التسقيف بالقبعة المركزية وقباب جانبية.
- اللوحة رقم (17): بقايا الأسوار الجنوبية لمدينة الجزائر الفترة العثمانية.
- اللوحة رقم (18): مسجد سيدي عبد الرحمن الثعالبي في سنة 1830م.

- اللوحة رقم (19): الطراز المحلي للمآذن بمدينة الجزائر في الفترة العثمانية.
- اللوحة رقم (20): أحد أبراج سور القرمديين بمدينة تلمسان الفترة الموحدية.
- اللوحة رقم (21): سور القرمديين بمدينة تلمسان من الجهة الشمالية الفترة الموحدية.
- اللوحة رقم (23): برج حائطي لسور مدينة سلا بالمغرب الأقصى.
- اللوحة رقم (24): تقنية بناء سور مدينة سلا بالمغرب الأقصى.
- اللوحة رقم (25): جزء من السور الجنوبي مدينة سلا بالمغرب الأقصى.
- اللوحة رقم (26): أحد دروب مدينة تلمسان.
- اللوحة رقم (27): نموذج من الشوارع الضيقة بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (28): بقايا لمساكن من الفترة العثمانية بمدينة تلمسان بحي باب زيري.
- اللوحة رقم (29): باب مسجد أبو مدين شعيب بمدينة تلمسان بالعباد العلوي.
- اللوحة رقم (30): جامع الجديد من الفترة العثمانية سنة 1830م.
- اللوحة رقم (31): نماذج من أسبله مدينة الجزائر في الفترة العثمانية اللوحة تعود إلى سنة 1830م.
- اللوحة رقم (32): جامع السيدة مع ساحة الجنيحة من الفترة العثمانية سنة 1830م.
- اللوحة رقم (33): مدينة الجزائر في القرن 12هـ / 18م.
- اللوحة رقم (34): باب عزون بمدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (35): باب الوادي بمدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (36): سوق باب الوادي بمدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (37): سوق باب عزون بمدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (38): ميناء مدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (39): رأس المول بميناء مدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (40): الجامع الكبير المرابطي و الجامع الجديد بمدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (41): برج الإمبراطور في أعلى مدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (42): برج 24 ساعة من جهة باب الوادي مدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (43): دار البارود خارج الأسوار من جهة باب الوادي مدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (44): الأسوار الجنوبية لمدينة الجزائر في سنة 1830م.
- اللوحة رقم (45): حي تنبوكتو بمدينة الجزائر في سنة 1830م.

- اللوحة رقم (46): الصورة توضح موقع مسجد سدي عبد الرحمن.
- اللوحة رقم (47): الصورة توضح ضريح سدي عبد الرحمن بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (48): نظام التسقيف في الجامع الكبير المرابطي بمدينة الجزائر .
- اللوحة رقم (49): نظام التسقيف في الجامع الجديد من الفترة العثمانية بمدينة الجزائر .
- اللوحة رقم (50): أبواب الحائط الغربي لجامع الجديد بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (51): باب رئيسي على الحائط الجنوبي لجامع الجديد بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (52): بيت الصلاة لمسجد علي بتشين.
- اللوحة رقم (53): المنبر الرخامي لجامع السيدة يوجد حاليا في الجامع الجديد بالجزائر.
- اللوحة رقم (54): دكة المبلغ لجامع الجديد من الفترة العثمانية.
- اللوحة رقم (55): باب الجديد بأعلى القصبة المنفذ الرئيسي من الجهة الجنوبية.
- اللوحة رقم (56): لقى أثرية وجدت في حفرة ساحة الشهداء الجزائر.
- اللوحة رقم (57): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (58): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (59): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (60): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (61): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (62): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (63): حفرة ساحة الشهداء بمدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (64): طبانة دار السلطان.
- اللوحة رقم (65): منظر فوقي لقصر الداوي بدار السلطان مدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (66): قصر البايات بدار السلطان مدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (67): منظر جانبي للواجهة الشرفة المطلة على صحن قصر الداوي بدار السلطان مدينة الجزائر.
- اللوحة رقم (68): الأسوار الغربية لقلعة الأوداية من الفترة الموحدية مدينة الرباط المغرب.
- اللوحة رقم (69): الباب الرئيسي الغربي لمدينة سلا من الفترة الموحدية المغرب.
- اللوحة رقم (70): نماذج من حوانيت تتقدمها الدكاكين مدينة الرباط القديمة المغرب.

- فهرس المخططات:

- المخطط رقم (1): اتجاه العقود موازية لحائط القبلة، وفقا لنظام الشامي..
- المخطط رقم (2): استمرار النظام الشامي.
- المخطط رقم (3): المساجد مغربية تتبع النظام الشامي، اتجاه بلاطتها موازية لحائط القبلة.
- المخطط رقم (4): المسجد الجامع المرابطي بتلمسان.
- المخطط رقم (5): مسجد سيدي إبراهيم المصمودي.
- المخطط رقم (6): مسجد سيدي أبي الحسن.
- المخطط رقم (7): مسجد أولاد الإمام.
- المخطط رقم (8): المسجد الجامع المرابطي بتلمسان، مع القصر القديم.
- المخطط رقم (9): فندق المامي، الطابق الأرضي.
- المخطط رقم (10): فندق أبو علي.
- المخطط رقم (11): مخطط المدرسة التاشفينية بتلمسان.

- فهرس الأشكال.

- الشكل رقم (1): نموذج لشارع رئيسي بمدينة الجزائر في الفترة العثمانية.
- الشكل رقم (2): الجالس في الحانوت لا يرى من يكون في سقيفة الدار، و إنما يرى من يكون بين أبواب الدار إذا برز خارجا، فلا ضرر في ذلك.
- الشكل رقم (3): مضرة الحوانيت شديدة زائدة على مضرة الديار لمواظبة الجالسين فيها الحوانيت الثلاثة بمحملها تكشف سقيفة الدار المقابلة و الباب.
- الشكل رقم (4): تحويل بعض الغرف في الدور الأرضي على حوانيت بفتح أبواب إلى الشارع.
- الشكل رقم (5): رفع الأعمدة في أفنية الحوانيت و تسقيفها.
- الشكل رقم (6): توصيل الأعمدة بالدار ببناء.
- الشكل رقم (7): ضم المساحة التي كانت فناء إلى الدار و بذلك يضيق الطريق.
- الشكل رقم (8): فتح باب جديد في الطريق غير النافذ.

فهارس الأعلام

الأعلام.....الصفحات.

- أ -

201	إبراهيم عليه السلام
255، 180	إبراهيم بن محمد اليزناسني
50	إبراهيم بن أحمد بن الأغلب
208	إبراهيم بن طهمان
274	إبراهيم المصمودي
119	إبراهيم الكراغلي
239	إبراهيم النخعي
44	ابن الأبار
13	ابن أبي الربيع
227، 226، 93، 72، 61، 16، د،	ابن أبي زرع
335	ابن أبي الدنيا
44	ابن أثير
154	ابن الأخوة
141	ابن أصبغ
219، 10	ابن الأعرابي
254	ابن أم مكتوم
7	ابن بري
159	ابن بشكوال
242، 220	ابن بطوطة
153	ابن تيمية
242	ابن جبير

4	ابن جني
324، 229، 221، 183	ابن الحاج
141، 140	ابن حبيب
211، 158	ابن حجر العسقلاني
223	ابن حسان
81	ابن الحمرة محمد بن أبي تاشفين
104	ابن حوقل
140	ابن حوير
197	ابن خرزوزة الخطيب
91	ابن الخطيب لسان الدين
ح، 139، 160، 325	ابن رامي
324، 224، 210، 140	ابن رشد
140	ابن رشيق
141	ابن زرب
180	ابن زيات
324، 213	ابن زيتون
218	ابن زيد
296	ابن زيادة الله
243	ابن سعد
4	ابن السكيت
237، 141	ابن سهل
10، 9، 7، 4	ابن سيده
234، 185	ابن طولون

156	ابن العاص
159	ابن عاصم القرطبي
262، 168	ابن عبد البر
301، 258، 174، 161، 159	ابن عبد الرؤوف
335	ابن عبد الرفيح
239، 192، 163، 160، 159، 24	ابن عبدون
256	
242، 42، خ	ابن عذارى
224، 223، 189	ابن عربي
324، 167، 159	ابن عرفة
141	ابن العطار
97	ابن غانية
159	ابن فرحون
ذ	ابن قاسم مخلوف
20	ابن القاضي
168	ابن قدامة
150، 149	ابن القيم الجوزي
269، 268، 199	ابن كثير
238، 212	ابن لبابة
ر، 199	ابن ماجة
141	ابن الماجشون
269، 213، 212، 95، ذ	ابن مرزوق الخطيب
159	ابن المشاط الرعيني القرطبي

239 ، 145 ، 9 ، 7	ابن منظور
63	ابن موسى المعلم
268	ابن هبيرة
141	ابن الهندي
325	ابن نافع
268	ابن النجار
9	أبو إسحاق
121	أبو إسحاق إبراهيم الفارسي
322	أبو إسحاق بن عبد الرفيح
212	أبو إسحاق التنسي
266	أبو إسحاق الشيرازي
313	أبو أيوب الأنصاري
242 ، 228 ، 203 ، 148 ، 134	أبو بكر الصديق رضي الله عنه
80	أبو بكر الحفصي
64	أبو بكر بن عبد الحق
100 ، 81 ، 79 ، 9	أبو تاشفين
82	أبو تاشفين عبد الرحمن الحكيم
82	أبو ثابت الثالث محمد
107	أبو الجليل بن شاكر
235	أبو جعفر أحمد بن هود
38	أبو جعفر المنصور
208	أبو حمزة الصّبعي
215 ، 2	أبو جُهيم

267	أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي
97، 7	أبو الحسن
194، 100، 99، 79، 77	أبو الحسن المريني
108	أبو الحملات بن عائد بن ثابت
265	أبو حمزة البغدادي
168، 147	أبو حنيفة النعمان
78	أبو حمو موسى الأول
310، 177، 109، 81، 80	أبو حمو موسى الثاني
83	أبو حمو الثالث
60	أبو خلوف
200	أبو داود
191	أبو ذر
77، 76، 75	أبو زكريا الحفصي
158	أبو زكريا بن عبد الله
216	أبو الزهارية
83	أبو زيان أحمد
82	أبو زيان محمد بن أبي ثابت
251، 78	أبو زيان محمد الثاني
107	أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن
81، 80	أبو زيان القبي
80	أبو سالم إبراهيم
266	أبو سعد القاضي
267	أبو سعد بن محمد النيسابوري الصوفي

237	أبو سعيد بن لب
80، 79، 78	أبو سعيد عثمان بن يعقوب
209	أبو الضياء مصباح
229	أبو طالب
269	أبو طاهر أحمد بن محمد الأصفهاني
208	أبو عامر العقديّ
48	أبو العباس عبدون
231	أبو العباس القرطبي
240	أبو عبد الله
239	أبو عبد الله بن بطة
272	أبو عبد الله بن مناصف
322	أبو عبد الله بن الغماز
296، 295	أبو عبد الله الحفار
257	أبو عبد الله الشريف
83	أبو عبد الله محمد
91	أبو عبد الله محمد الآبلي
180	أبو عبد الله محمد بن أبي عرجون
239، 219	أبو عبيد
75	أبو عزة زكّان بن زيان
324	أبو علي بن عبد السيد
7	أبو عليّ الفسوي
182	أبو عمران القطان
97	أبو عمران موسى
223	أبو عمر

223	أبو عمر بن عبد البر
269	أبو عوف الزهري
98 ، 79 ، 65	أبو عنان فارس
235	أبو القاسم بن أبي القاسم الحكيم التلمساني
222	أبو القاسم بن سراج
95 ، 94 ، 71	أبو قرّة اليفرني
81	أبو مالك عبد الواحد
83	أبو محمد عبد الله بن محمد الثابتي
180	أبو محمد عبد الرحيم بن إبراهيم
213 ، 99	أبو مدين شعيب
277	أبو مرثد الغنوي
253	أبو مسعود الأنصاري
94 ، 70 ، 44 ، 40	أبو مهاجر الدينار
207	أبو موسى الأشعري
266	أبو نصر بن الصّبّاغ
215	أبو النّضر
241 ، 240 ، 239 ، 232 ، 192 ، 155	أبو هريرة
325 ، 294	
145	أبو الوليد الباجي
237	أبو الوليد بن الفرضي
267	أبو الوليد حسان بن محمد بن أحمد القرشي
170	أبو يوسف
176	إبان بن عثمان

210	الأبي
183	أبي بن كعب
43	أحمد بن الأغلب
ت، 223، 239	أحمد بن حنبل
81	أحمد بن العز
178	أحمد العاقل
249	أحمد القباب
93، 72، 63، 60، 58، 57، 56	إدريس بن إدريس
8، 54، 55، 71، 72، 93	إدريس بن عبد الله
242	الإدريسي
201	أدم عليه السلام
219	الأزهري
201	إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام
49	إسماعيل بن عبيد الأنصاري
111	إسحاق باربروس
279	إسماعيل السمانيد
35، 34	الأسكندر الأكبر
219	الأصمعي
237	الأوزاعي
200، 191، 190	أنس بن مالك
- ب -	
164	بابا حسن
ت، ر، 176، 202، 208، 240	البخاري

173	برقوق أتابك
321	البرني
200	بريدة
215	بسر بن سعيد
244، 45	بشر بن صفوان
224	بقي بن مخلد
ذ، 17، 47، 50، 51، 59، 94،	البكري
231	بكر المزني
309، 105، 104	بلكين بن زيري
242، 52	البلاذري
241	بلال بن رباح
221	البيهقي
- ت -	
268	تاج الدين السبكي
106، 74	تاشفين بن تنعمر
97، 96، 74	تاشفين بن علي
180	تميم بن يوسف بن تاشفين
119	توماس
- ث -	
277	ثمامة بن شقي
239، 229	الثوري

- ج -

277	جابر بن عبد الله
59	جوهر الصقلي
10، 9، 4	الجوهري
- ح -	
107	حباس بن مُشَيَّفِر
56	الحاكم بن هشام
37	الحجاج بن يوسف الثقفي
47، 41	حسان بن نعمان
112	حسن باشا
231	الحسن البصري
94	حسن بن أبي العيش
85	الحسن بن عبد الله بن محمد الثاني
58	الحسن بن محمد
84	حسن قورصو
99، 85، 64، 53، 8، 8	حسن الوزان
310	حسين باشا
262	الحفار
176	حفصة
65	حماد بن بلكين
180	حمود بن سمغون اللخمي
53، 50، 43، 8، 5	الحميري
- خ -	
139	الخشني

158	الخطيب البغدادي
310 ، 124 ، 115 ، 111	خير الدين
- د -	
126	دان
84	دبدو
50	الدباغ
59	دوناس بن حمامة بن المعز
103	دوفو
109	دييغو دي فيرا
- ر -	
53	الراشد
76	الرسيد الموحدى
- ز -	
176 ، 11	الزبير بن العوام
218 ، 189	الزجاج
239 ، 237 ، 236 ، 231	الزركشي
218	زكريا عليه السلام
40	زهير بن قيس البلوي
243 ، 157	زياد بن أبيه
221 ، 48 ، 47	زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب
243	زيد بن ثابت
104	زيري بن مناد

- س -

156	السائب بن يزيد
108	سالم بن إبراهيم بن نصر
310، 109	سالم التومي
210، 141	سحنون
166	السرخسي
301، 207، 170، 37	سعد بن أبي وقاص
156	سعيد بن سعيد بن العاص
326	سعيد بن غانم
79	سعيد بن موسى بن علي الكردي
275	سعيد قدورة
294	سعيد الخدري
243	سلمة
164	سليمان المحتسب
192	سمرة بن جندب
181	سنان بن عبد الله العلام الحجام
177	سهل
177	سهيل
202	سودة
189، 9، 4	سيبويه
299، 240، 194	السيوري
243، 220	السيوطي

- ش -

112	شارل الخامس
243	شرحبيل بن عامر المرادي
170	شريح
168	الشافعي
7	شعيب عليه السلام
277	الشوكاني
- ص -	
81	صالح بن حمو
203	صالح بن كيسان
237	صعصعة بن سلام الشامي
125، 84	صالح راييس
269	صلاح الدين الأيوبي
- ط -	
158	الطبري
176	طلحة
147	الطوفي
- ظ -	
173	الظاهر بيبرس
218	الضحاك
- ع -	
239، 202، 200، 192، 176	عائشة
158	عاصم بن سليمان الأحول
94، 73	العباس بن بختي

77	العباس بن منديل المغراوي
237	عبد الحميد الصائغ
63	عبد الحق بن معيشة
223	عبد الرحمن بن الحكم
195 ، 154 ، 103 ، 97 ، 53 ، 19 ، 16	عبد الرحمن بن خلدون
214	عبد الرحمن الثعالبي
239	عبد الرزاق
180	عبد السلام
269	عبد القادر الجيلي
77	عبد القوي بن عطية التوجيني
216	عبد الله بن بسر
215 ، 208 ، 200 ، 191 ، 155	عبد الله بن العباس
156	عبد الله بن عتبه
241 ، 203 ، 192 ، 156 ، 155	عبد الله بن عمر
221	عبد الله بن عمرو
151	عبد الله بن مسعود
215	عبد الله بن يوسف
95 ، د	عبد الله التنسي
194	عبد الله الشودي الإشبيلي الملقب بالحلوي
307	عبد الله الطبال
107 ، 97 ، 96 ، 73 ، 62	عبد المؤمن بن علي
87	عبد المنعم الحميري
244 ، 220 ، 40	عبد الملك بن مروان

124	عبد الواحد المراكشي
71	عبد الواحد الهواري
253	عبدى باشا
37	عتبة بن غزوان
203 ، 199 ، 191 ، 176 ، 156	عثمان بن عفان
220	
78 ، 77	عثمان بن يغمراسن
59	عجيسة
124 ، 110 ، 83	عروج برباروس
45 ، 43 ، 42 ، 41 ، 40 ، 39 ، 37	عقبة بن نافع
244 ، 94 ، 70 ، 50 ، 49 ، 48 ، 47	
245	
71	عكاشة بن أيوب الفزازي
197	علي بتشين
297	علي باشا
230 ، 156 ، 94	علي بن أبي طالب
265	على بن الحاج
79	علي بن راشد
202	علي بن عبد الله
107	علي بن محمد بن غانية
77	علي بن منصور المليكشي
96 ، 74	علي بن يوسف بن تاشفين
75	علي السعيد الموحيدي

300	عكرمة
199، 191، 156، 37، 20، 10	عمر بن الخطاب
239، 230، 207، 203، 200	
301، 241	
254	عمر بن سلمة
220، 176	عمر بن عبد العزيز
215	عمر بن عبيد الله
154	عمر بن عثمان بن العباس الجرسيفي
200	عمرو بن شعيب
243، 207، 37	عمرو بن العاص
56	عمير بن مصعب الأزدي
264، 256، 254	عيسى الغبريني
- غ -	
212	الغزالي
- ف -	
59	الفتوح
233، 7	الفراء
110	فردناند الخامس
277	فضالة بن عبيد
11، 10، 7	الفيروزآبادي
153	الفيومي
- ق -	
106	القائد

218، 199	قتادة
267	قدر خان جبرائيل بن عمر
46	قلاوون
- ك -	
83	كارلس الخامس
41	الكاهنة
40	كسييلة بن لمزم
110	كسيماناس
- ل -	
233، 210	اللخمي
189، 10	الليث
- م -	
44، 42	المالكي
ت، 237، 215، 167، 148، 147، 140	مالك بن أنس
260	
161، 158، 153، 150، 15، 14، 10	الماوردي
82	المتوكل على الله بن أبي زيان
141	المتيطي
326	محمد بلكباشي بن علي
163	محمد بن أحمد بن السعيد العقباني
52	محمد بن الأشعت
94، 73	محمد بن تنعمر المسوفي
326	محمد بن الحاج إبراهيم

71	محمد بن خزر المغراوي
94	محمد بن خزر بن صولات
63	محمد بن داود
297	محمد بن السيد أحمد بوشعته
94	محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن
105	محمد بن عبد القادر الجزائري
84	محمد بن محمد بن أحمد الشريف
139	محمد بن عبد السلام القرطبي
208	محمد بن المثنى
178	محمد بن موسى
224	محمد بن وضاح
83	محمد الخامس بن محمد الثابتي
60	محمد الناصر الموحدى
114	محمود مقيدش
175	مخيريقي
230	مروان بن الحكم
268	المستنصر بالله العباسي
164	مسعود المعلم
176	مسلم
243 ، 40	مسلمة بن مخلد الأنصاري
310	مصطفى باشا
244 ، 243 ، 230 ، 70	معاوية بن أبي سفيان
243	معاوية بن يزيد بن أبي سفيان

208	المعتضد بالله العباسي
231	المعز بن زيري
239	المقدام بن شريح
220 ، 8	المقديسي
91	المقري
243	المقريزي
208	المكتفي بالله العباسي
100 ، 64	المنصور بن أبي عامر
278	المنتصر العباسي
106 ، 74	المنصور بن ناصر
208 ، 158	المنصور العباسي
223 ، 62	المنصور الموحد
231 ، 158	المهدي العباسي
94 ، 72	موسى بن أبي العافية
54	موسى الهادي
- ن -	
106	الناصر بن علناس بن حماد
79	الناصر الحفصي
192 ، 176	نافع
268 ، 267	نظام الملك
201	نوح عليه السلام
211 ، 42 ، ر	النووي
- ه -	
201	هاجر

48 ، 47	يزيد بن حاتم
215	يزيد بن خالد
243 ، 40	يزيد بن معاوية
203	يعقوب بن إبراهيم بن سعد
64	يعقوب بن عبد الحق
269	يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي
77 ، 76 ، 75	يغمراسن بن زيان
98	يوسف الأول
81	يوسف بن أبي حمو موسى الثاني
106 ، 96 ، 95 ، 94 ، 74 ، 73 ، 61	يوسف بن تاشفين
209	
100 ، 78 ، 77	يوسف بن يعقوب
97	يوسف العشري

فهرس الأمكنة و البلدان

الأمكنة و البلدان.....الصفحات.

- ١ -

118	الأبيار
246 ، 225 ، 209 ، 95 ، 94 ، 90	أجادير (أغادير)
308	
8 ، 5	أجرسيف
207	الأجناد
34	أخميم
34	الأردن
9 ، 8	أرشكول
3	إرم
198 ، 32	إسبانيا
248	اسطنبول
289 ، 35 ، 20 ، 19	إسكندرية
34	أسيوط
174 ، 35	آشور
186 ، 7	أصفهان
75 ، 69 ، 58 ، 41 ، 40 ، 20 ، 18	إفريقية
224 ، 136 ، 94 ، 79 ، 76	
34	الأناضول
235 ، 96 ، 75 ، 74 ، 58 ، 57 ، 55	الأندلس
32	أنطاكيا

أور	35
- ب -	
بئر أم عياض	43
بئر روطبة	43
بئر عورة	36
بابل	3، 35، 174
باريس	186
بحر الإيضا	34
بجاية	20، 80، 81، 110
برشك	81، 82
برقة	20، 39، 40، 54
البصرة	10، 19، 28، 37، 43، 47، 103
البطحاء	207، 208، 210
بغداد	7، 25، 28، 30، 38، 103، 207
بكة	208، 210، 304
بلاد الرافدين	3
بهران	34
بومارية	11
بونة	90
البنديقية	19
	186، 101

289	بيرايوس
- ت -	
309 ، 224 ، 209 ، 95 ، 73	تاكراوات
105	تاهرت
235	تطيلة
12	تقرت
35	تل العمارنه
ت، ث، د، 8، 9، 28، 29، 39	تلمسان
12، 54، 70، 72، 73، 74، 75	
76، 77، 78، 79، 80، 81، 82، 83	
84، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92	
93، 94، 95، 96، 97، 98، 99، 100	
101، 102، 103، 102، 102، 193، 194	
195، 196، 197، 204، 205، 208	
209، 216، 217، 224، 228، 229	
231، 232، 233، 234، 235، 238	
245، 246، 247، 250، 251، 256	
263، 264، 270، 291، 299، 304	
305، 308، 309، 314، 315، 318	
319، 321، 327، 329، 331، 335	
336، 338	
73، 81، 83	تنس
29، 30، 43، 50، 52، 53، 75	تونس

251، 248	
35	تبيازا
290، 35	تيمقاد
- ج -	
60	جامع الشرفاء
57	جامع الأشياخ
224، 64	جامع عدوة الأندلس
250، 217، 96، 64، 62	جامع القرويين
238، 231، 222، 221، 186	جامع القيروان
245	
247، 245، 231، 217، 96	جامع تلمسان
73، 72	الريف
56	جبل زالغ
54	جبل زرهون
79	جبل الظهرة
36	جبل عير
81، 73	جبل الونشريس
81، 79، 35، 30، 27، 6، د، ح، ت، ث	الجزائر
108، 107، 106، 105، 104، 97	
113، 114، 112، 111، 109، 110	
120، 119، 118، 117، 116، 115	
125، 126، 124، 123، 122، 121	

195 ،193 ،130 ،129 ،128 ،127

209 ،208 ،205 ،204 ،198 ،197

229 ،228 ،225 ،217 ،216 ،214

239 ،238 ،235 ،234 ،233 ،232

263 ،261 ،251 ،248 ،247 ،246

293 ،291 ،291 ،290 ،270 ،264

315 ،314 ،309 ،305 ،304 ،297

331 ،329 ،327 ،321 ،319 ،318

338 ،337 ،336 ،335

34

جزر بحر الإيضا

34

جزيرة اليونان

101

جنوة

110 ،106

جيحل

- ح -

224

حجاز

75

حصن العقاب

201

حضر موت

304 ،33 ،31 ،30

حلب

- خ -

288 ،35

خنت كاوس

- د -

83

دلس

208 ،204 ،37 ،31 ،30 ،28

دمشق

304 ، 251 ، 244

290 جميلة

- ر -

55 الريف

289 رودوس

186 روما

- س -

201 سبأ

270 ، 74 ، 20 سبتة

55 سجلماسة

235 سرقسطة

288 ، 35 سقارة

29 ، 19 سلا

56 سهل سايس

121 ، 109 ، 82 سهل متيجة

، 33 ، 32 ، 31 سوريا

- ش -

245 ، 224 ، 207 ، 34 ، 25 الشام

130 الشاطبة

107 شرشال

105 شلف

- ط -

20 ، 19 طرابلس

235	طليلة
54	طنجة
- ع -	
257	العباد
73 ، 64 ، 62 ، 60 ، 59 ، 58 ، 57	عدوة الأندلس
73 ، 62 ، 61 ، 60 ، 59	عدوة القرويين
201	عدن
245 ، 224 ، 17	العراق
- غ -	
98	غرناطة
219	غمدان
- ف -	
54	فخ
56 ، 55 ، 54 ، 53 ، 29 ، 28 ، 25 ، 16 ، 8	فاس
64 ، 65 ، 63 ، 62 ، 61 ، 60 ، 59 ، 58 ، 57	
96 ، 84 ، 80 ، 74 ، 73 ، 69 ، 67 ، 66	
245 ، 226 ، 218 ، 210 ، 207 ، 101	
293 ، 248	
64	فاس الجديدة
33	فلسطين
210 ، 37 ، 28	الفوسطاط
- ق -	
312	قبرص
532	

305 ، 304 ، 208 ، 38 ، 30 ، 25	القاهرة
41	قرطاجة
231 ، 186 ، 57	قرطبة
48 ، 42	القسطنطينية
117	قسطنطينة
98	قصر عجيسة
20	القل
69	قلعة بني حماد
75	قلعة تاجمزت
41 ، 40 ، 39 ، 38 ، 37 ، 29 ، 28 ، 19	القيروان
49 ، 48 ، 47 ، 46 ، 45 ، 44 ، 43 ، 42	
136 ، 103 ، 58 ، 56 ، 53 ، 52 ، 51 ، 50	
231 ، 222 ، 221 ، 210 ، 207 ، 186	
، 293	
- ك -	
312	كريت
288 ، 35	كاهون
207 ، 103 ، 47 ، 43 ، 37 ، 28 ، 18 ، 10	الكوفة
210	
186	كولونيا
- ل -	
31	اللاذقية
235	لاردة
533	

- م -

117	مازونا
7	مدائن
117 ، 105 ، 103 ، 83 ، 82 ، 80	المدية
207 ، 36 ، 23 ، 7 ، 5	المدينة المنورة
270 ، 84 ، 76 ، 75 ، 74 ، 73 ، 29	مراكش
251 ، 250 ، 104 ، 18	مغرب
106	مرسى الدجاج
46	مسجد الجيوشي
50	مسجد الزيتونة
120	مسجد سيدي رمضان
130	مسجد الشاطبي
81	مستغانم
105	مسيلة
251 ، 224 ، 34 ، 10	مصر
115	معسكر
5	مكة
105 ، 80	مليانة
73	مليلة
75 ، 29	المهدية
246 ، 232 ، 78	المنصورة
34	منف

109	ميورقة
97	ميورقة
- ن -	
56	نهر سبو
186	نوتردام
53	نوميديا
35	نينوى
- ه -	
34	هابو
11	همذان
- و -	
118 ، 113	وادي الحراش
12	وادي ريغ بالوادي
118	وادي المغاسيل
118	واد كنيس
210 ، 37 ، 28	واسط
235	وشقة
55 ، 54	وليلي
117 ، 97 ، 96 ، 89 ، 81 ، 74 ، 73	وهران
- ي -	
37	يثرب
219	اليمن
535	

الفهرس العام للموضوعات

الفهرس العام للموضوعات:	رقم الصفحة.
مقدمة:	أ - ز.
- الفصل الأول: ماهية المدينة الإسلامية.....1- 69.		
1- تعريفات هامة:	3.
1-1- القرية:	4.
1-2- المدينة:	6.
1-3- المصر:	10.
1-4- القصر:	11.
2- نظرة المفكرين للمدينة الإسلامية:	13.
2-1- آراء المفكرين المسلمين حول المدينة الإسلامية.....	13.
2-2- آراء المستشرقين حول المدينة الإسلامية:	21.
3- المنظور التاريخي للمدينة بالمغرب الإسلامي:	35.
3-1- المدينة أنموذجا نبويا:	37.
3-2- المدن بالمغرب الإسلامي:	40.
أ - مدينة القيروان:	41.
- موقع المدينة:	43.
- تخطيط المدينة و عمراها:	46.
- العمارة الدينية:	47.
- العمارة المدنية:	51.
- العمارة العسكرية:	54.
ب - مدينة فاس:	55.
- أهمية موقع مدينة فاس:	57.
- التطور العمراني لمدينة فاس:	58.
- الفصل الثاني: تخطيط المدن بالمغرب الأوسط و عمارته.....70- 134.		
1- التطور العمراني لمدينة تلمسان:	72.

- 1-1 - التاريخ السياسي لمدينة تلمسان:72.
- أ - في الدولة الإدريسية:73.
- ب - في الدولة المرابطية و الموحدية:74.
- ج - في الفترة الحفصية- الزيانية- المرينية:77.
- مرحلة النشأة:88.
- مرحلة التوسع:88.
- مرحلة الازدهار و التطور:89.
- مرحلة الضعف و السقوط:89.
- 1 - 2 - تطور خطط مدينة تلمسان:89.
- 2- التطور المعماري لمدينة الجزائر:102.
- 2 - 1 - التاريخ السياسي لمدينة الجزائر:102.
- 2 - 2 - التنظيم الإداري في الجزائر العثمانية:114.
- 2 - 3 - تطور خطط مدينة الجزائر:116.
- القصبة القديمة:122.
- القصبة السفلى:123.
- القصبة العليا (الجبل):124.
- 3 - استجابة مدينتي تلمسان و الجزائر لشروط تأسيس المدن:125.
- سعة المياه المستعبدة:126.
- إمكانية الميرة المستمدة:127.
- اعتدال المكان و جودة الهواء:129.
- قرب المراعي و الاحتطاب:130.
- تحصين منازلها من الأعداء و الذعار:130.
- أن يحاط بها سواد يعين أهلها:131.
- الفصل الثالث: مصادر التشريع الإسلامي في العمران..... 135 - 175.
- 1 - مصادر التشريع الإسلامي:139.

- 1- 1- القرآن و السنة النبوية:.....140.
- أ - الأحاديث التي تدل على منع الضرر:.....144.
- ب - الأحاديث التي تدل على رفع الضرر:.....145.
- 1- 2 - الإجماع:.....145.
- القياس:.....147.
- الاستدلال:.....148.
- الاستصحاب:.....148.
- الاستحسان:.....149.
- المصلحة المرسله:.....149.
- عمل أهل المدينة:.....150.
- سد باب الذرائع:.....150.
- فتح باب الذرائع:.....151.
- 1- 3 - قاعدة العرف:.....151.
- 2 - الحسبة:.....154.
- 1- 2 - التأصيل التاريخي للحسبة:.....156.
- 2- 2 - شروط تعيين المحتسب عند علماء الأمة:.....162.
- 2- 3 - دور المحتسب في المدينة الإسلامية:.....162.
- 3 - الأوقاف ودورها في التطور العمراني:.....168.
- 1- 3 - التعريف اللغوي للوقف:.....168.
- 2- 3 - التعريف الاصطلاحي للوقف:.....168.
- 3- 3 - مشروعية الوقف:.....170.
- 3- 4 - صفة الوقف:.....172.
- 3- 5 - أركان الوقف:.....172.
- 3- 6 - أحكام الوقف:.....173.
- 3- 7 - ولاية الوقف:.....174.

- 3 - 8 - مبطلات الوقف:174.
- 3 - 9 - التفكير في إنهاء الوقف:175.
- 3 - 10 - الأصول التاريخية للأوقاف:175.
- الفصل الرابع: أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة الدينية.....186-283.
- 1 - المساجد:188.
- 1 - 1 - التعريف اللغوي والاصطلاحي للمسجد:190.
- 1 - 2 - التخطيط و البناء:201.
- أ - اختيار المكان:208.
- ب - العناصر الوظيفية:216.
- المداخل:216.
- المحراب:219.
- المنابر:229.
- المقصورة:232.
- الصحن:235.
- الميضاة:240.
- السطح:242.
- المآذن:243.
- خزانة الكتب:250.
- المخازن:254.
- 1 - 3 - القومة:254.
- أ- الإمام:255.
- ب - المؤذن:257.
- ج - المؤدب:258.
- د - الوقاد:259.
- 1 - 4 - الوظيفة:259.

- أ - العبادة:.....259.
- ب - القضاء:.....262.
- ج- التعليم:.....264.
- 2 - المدارس:.....268.
- 3 - الأضرحة و المقابر:.....278.
- الفصل الخامس: أثر الفكر العمراني على العمارة المدنية و العسكرية.....285-370.
- 1 - التنظيم العمراني للمدينة الإسلامية (الشوارع و الطرق):.....287.
- 1-1 - التأصيل التاريخي لتخطيط الشوارع و الطرق:.....288.
- 1-2 - العوامل المؤثرة على تخطيط الشوارع و الطرق:.....291.
- أ- موضع المدينة و تحصيناتها:.....291.
- ب- موقع المسجد الجامع:.....292.
- ج- الأسواق و الحراك التجاري:.....293.
- 1 - 3- مستويات الطرق و حقوقها:.....294.
- 1 - 4 - الأحياء:.....303.
- 2 - أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة المدنية.307.
- 2-1 - دار الإمارة:.....307.
- 2-2 - المساكن:.....311.
- 2-2-1 - المسكن بمديني تلمسان و الجزائر:.....317.
- 2-2-2 - توزيع وحدات المساكن:.....319.
- أ - الأبواب:.....319.
- ب - المدخل المنكسر أو السقيفة:.....321.
- ج - النوافذ:.....322.
- د - الجدران:.....325.
- و - الصحن:.....327.
- هـ - السطوح:.....328.

- 329..... 2 - 3 - الأسواق و الحوانيت:
- 337..... 2 - 4 - الفنادق:
- 339..... 2 - 5 - المنشآت المائية
- 341..... 2 - 5 - 1 - المنشآت المائية بمدنيتي تلمسان و الجزائر:
- 348..... 2 - 6 - نظافة المدينة الإسلامية:
- 350..... 3 - أثر الفكر العمراني الإسلامي على العمارة العسكرية.
- 354..... 3 - 1 - الأسوار:
- 358..... 3 - 2 - الأبواب الرئيسية بالمدينة الإسلامية:
- 363..... 3 - 3 - الخنادق:
- 364..... 3 - 4 - الرباط:
- 367..... 3 - 5 - الأبراج و القلاع:
- 378-371..... - الخاتمة:
- 468-379..... الملاحق
- 385-380..... - ملحق الخرائط:
- 447-386..... - الملحق الألواح:
- 459-448..... - ملحق المخططات:
- 468-460..... - ملحق الأشكال:
- 497-470..... - فهرس المصادر و المراجع:
- 502-498..... - فهرس الملاحق:
- 525-503..... - فهرس الأعلام:
- 536-526..... - فهرس البلدان و الأماكن:
- 542-537..... - الفهرس العام للموضوعات.